فبكت و بكيت

رواية

الكاتب والروائي:
عبد المجيد الدبّاس

عبد المجيد عبد الله الدبّاس

فبكت و بكيت

رواية

ـ 2 ـ

الأهداء

إلى التي سكنت وجداني أربعين عاما و لما تفارقه بعد... إلى السيمفونية التي ألهبت أحاسيسي و مشاعري، وسعّرت تفكيري و انفعالاتي... إلى الغزالة التي جمحت بخيالاتي و طموحاتي... إلى الشعلة التي صبّت زيتاً في سراج حياتي النائسة، وأضاءت بنورها وتألقها عتمة دروبي وأيامي الدامسة... ! إلى التي بددّت دياجير الظلمة في غربتي واغترابي... إلى التي جعلني عشقي لها إنسانا وخلق بُعدها عني من كياني فناناً... إلى الوردة... إلى الأقحوانة... إلى القرنفلة... إلى الأسطورة... إلى العملاقة... إلى الملحمة ! إلى سميحة الجدعاوية ؛ الحديديّة ؛ السلطية... !

تنبيه

تتشابك أحداث هذه الرواية بالرواية السابقة للمؤلف هي " تيه البروفيسور دهشان"، حيث تشتركان بالشخوص والأماكن والأحداث، مما اقتضى التنبيه إليه لئلّا يلتبس على القارئ الكريم .

3003300

الفصل الأول

منذ أن وضعت نفسي بالسيارة متوجهاً إلى بيت السيد والسيدة روبنسون، وحتى وأنا أصعد درجات سلم العمارة التي يسكنونها، كنت بحراً زاخراً من الخوف والقلق، وحزمة مشتعلة من التردد والحيرة ! كنت أتساءل وأسأل نفسي؛ هل حقاً دعواني إلى بيتهما ليستدرجاني فيذبحاني، وليقدما دمي قرباناً لإلههم "يهوة " ، كما قال صديقاي السيد جورج مونتكيو والدكتور هانس هارنبيرق ؟! هذا الإله المسعور الذي هو مثل شعبه، متعطش دائماً لسفك الدماء، وأنه مهما قدم إليه من قرابين وأضاحي آدمية، يطلب المزيد ويصرّ على الأكثر...؟! أليس أتباعه يطبقون نظريته ويعملون بوصيته، كل يوم في كنعان، يذبحون الناس بالعشرات، لا يفرقون بين شيخ وشاب ورضيع ؟!

لابد وأن شيلا روبنسون وزوجها قد أدركا، بالإضافة إلى أنني أحد أبناء الشعب الذي يكرهونه ويحتقرونه حتى النخاع ، والذين يتمنون بأن يغلقوا أعينهم ويفتحوها، فلا يجدون منا على وجه البسيطة ديّارا ! لا شك أنهما أدركا بأنني غريب هنا في أميركا، لا أهل لي ولا قريب، وأنه من الممكن بل من السهل جداً أن يلغياني من الوجود دون أن يفتقدني إنسان، أو يهتم بأمري أحد...! أم هل السيد روبنسون صادق فيما يدعي، من أنه كإنسان واع متفتح مثقف، ينشد المعرفة ويبحث عن الصدق والحقيقة، وأنه قد اعترضته بعض الأسئلة والتساؤلات، أثناء مطالعاته، وأنه يبحث عن من يجيبه عن أسئلته وعن من يخرجه من حيرته...؟!

إذا كان صادقاً فيما يدعي، فلم لم يعلم زوجته بأمر لقائنا بالمطعم ؟! ثم ما هذا الادعاء السخيف بأنه يريد أن يفاجئها بلقائي ؟! نعم ! ستكون مفاجأة حقاً..! مفاجأة غريبة ومذهلة...! ستكون من المفاجآت العنيفة والقاسية، والتي ربما يصاب صاحبها بالجلطة أو السكتة القلبية... ثم من يدريني... أنها تعرف ! ولكنه يدعي عدم معرفتها وذلك لتضليلي ثم للهزء بي والسخرية مني... ! أنا لا أصدق هذه المقولة أبداً...عقلي يرفضها...إحساسي يستخفها... عواطفي تتنازعها الحيرة... !

لا شك أن السيد روبنسون يستغفلني ويستهين بي، خصوصاً مقولته بأنها تحدثت عني كثيراً، فمدحت علمي الغزير وثقافتي الواسعة وأدبي الجم وأخلاقي الحميدة...!! كيف تعرف هذه الأفعى الماكرة، الكومة

من الأحقاد والكراهية... والعنصرية... أنني أملك جميع هذه الصفات الحميدة والمواهب الفذة وهي لم تسمعني أتكلم إلاّ نادراً؟إنها لم تسمح لي ولم تعطني الفرصة لتعرف عمق تفكيري أو ضحالته... قوة شخصيتي من ضعفها، شجاعتي الأدبية من جُبني الشخصي، كما ذكر لي زوجها على لسانها عني؟! ثم كيف أستطيع الآن أن أقابلها، أن تتلاقى عيوننا؟! لا شك أنها ستغضب وستثور عند رؤيتي وربما أنها ستهينني أيضاً...!!

قد يكون من الممكن أنها عرفت بدعوته لي إلى المطعم وتلبيتي للدعوة، ولكن هل من الممكن أن يكون قد أخبرها بدعوة العشاء الليلة في البيت؟! إنني أستبعد ذلك جداً، لأنه حتى لو أعلمها بالدعوة، فإنها لن تصدّق أن أيّ كائن حي، مهما تجرد من الكرامة والرجولة والأخلاق والآدمية، ومهما كان سافلاً وحقيراً ومهزوز الشخصية، سيقبل المجيء إلى بيت امرأة فيأكل مما طبخته، بعد أن أذاقته أصنافاً من المهانة والاحتقار والإذلال والتعسف!

لا شك أنها تستبعد ذلك بل وتعتبره مستحيلا، اللهم إلاّ إذا توصلت إلى قناعة كاملة بأنني مخلوق وضيع وبلا أخلاق وهذا ما لا تعتقده بي، لسبب بسيط جداً، إذ لو أنني هكذا لكنت أوقفتها عند حدّها، ولأسمعتها ما أعتقده بها... خصوصاً وهي المذنبة والمتعدية والمتجنية... ولكنني بدلاً من ذلك، تجاهلت كل تصرفاتها وسموت بنفسي عنها!! ولولا خشيتي أن أُتهم بالغرور لقلت، ربما بفعلي هذا المترفع، قد كبرت بعينيها وعظم قدري بتفكيرها...!

ولكن مهما كان تفكيرك بي... سمواً أو انحطاطاً... شجاعة أو جبناً... شهامة أو نذالة... أخلاقاً أو سفالة... فها أنا قادم إليك، يا ابنة صهيون... إلى بيتكم... لأحاربك في عقر دارك ! ألست أنا من قوم أبطال ميامين يحاربون العدو في أرضه وعلى ترابه، يقهرونه ويتغلبون عليه ؟! ألست أنا من سلالة الفحول الأبطال، الذين تهيم بهم الحسناوات المخدرات، ذوات العيون الدعج الكحيلة والأرداف الثقيلة ؟!

ألست أنا من سلالة امرئ القيس الذي يقول:" ولما بكى من خلفها انصرفت له، بشقٍ وشقّي تحتها لم يحوّل ؟! " لقد كانت فتاة امرئ القيس المتزوجة والمرضعة معاً، تعطي صدرها لوليدها ليرضع منه الحليب ليسكت، بينما كان الفحل يحتل ما تحت الصدر وبين الفخذين يسقي نوعاً آخر من الحليب، يشبع قحطه ويروي شبقه...! ألست أنا من أبناء القوم

الذين يخضعون النساء بفحولتهم، ويسحرونهن بكثرة غزواتهم الغرامية، ويذهلونهن بسعة معرفتهم الشعرية وبعذوبة وحلاوة أحاديثهم الطلية ؟!

قل لها يا شاهر، يا فارس الفرسان، ويا أمير العشق والحنان ، كيف كنا نجلس، نحن الأربعة، على مزبلة المحباصية بالمداريس في وادي الريح، نناجي القمر بالليالي المقمرة، ونعانق الظلمة ليالي غيبته، وكلّ منّا يتوجّد على "بياتريس"، و "شرلوت" و "إيفا" و"اوديت" !! وأنت أنت، أيها الشاعر الفحل، صاحب الرؤيا البنفسجية، والخيال الأرجواني، تشرح لنا، وعلى طريقتك الخاصة المميزة الممتعة... بخيال ألهبه الجوع والقحط والحرمان... وعاطفة سعّرها الصدّ والشوق والبعاد... الأبيات الغرامية من المعلقات العشر... وتقسم لنا بكل حسناوات حارة الجدعة في مدينتنا السلط الخالدة ، بل وبكل جميلات مدينتنا الصامدة ، بأنك قبل أن نتخرج من الثانوية العامة ، ستكون قد نظمت المعلقة الحادية عشرة... "بشارلوت"... وأنك ستوصف بها، نحن العشاق المعاميد الأربعة، غزواتنا ومعاركنا الغرامية "الدونكيشوتية"... معاناتنا وصبرنا... قهرنا واحباطاتنا... انتصاراتنا وهزائمنا... نزالنا وطعاننا... كرّنا وفرّنا... اقتحامنا وانسلالنا وانسحابنا وتراجعنا... في ضوء القمر وتحت جنح الظلام... في أزقة الجدعة وزواريبها... وأنك ستعلقها على باب "السرايا"، مقر أعلى سلطة في المدينة، بل في المنطقة كلها، ومركز جميع السلطات كافة؛ تماماً كما كانت المعلقات تعلق على باب الكعبة، وسينحني الجميع لها رسميين وشعبيين...عظماء وحقيرين... تعظيماً وإجلالا كلما دخلوا أو خرجوا... تماماً كما كان أجدادانا ينحنون للمعلقات نفسها كلما دخلوا الكعبة أو خرجوا منها...!!

أين أنتم الآن يا رفاق السلاح في الصولات والجولات والمغامرات الدونكيشوتية ؟! أين أنتم الآن ؟! لقد شردنا حكامنا في كل زوايا المعمورة، وجعلونا نتلقط رزقنا من فتات موائد الغرب وقمامات حاوياته، وبلادنا تزخر بالخيرات، وعندنا ذهب وفضة وثروات، أكثر مما عند الغرب وأميركا معاً...!!

* * * * *

تقع الشقة التي يسكنها الزوجان في عمارة صغيرة جديدة، تحتوي على ست شقق؛ كل سكنتين تحتلان طابقاً منفرداً، تطل على قسم كبير من مدينة "سانتامونيكا"، التي يحتضنها المحيط الباسفيكي... تماماً كما يعانق الحبيب حبيبته ! تقع العمارة على هضبة عالية، في أجمل وأفخر أحياء المدينة، وتستطيع حالما تقع عيناك على العما رة ، أن تميز الذوق المعماري الرفيع، ثم تتبين الجمال والفخامة والترف، بالإضافة إلى حديقة صغيرة جذابة منسقة تعج بشجيرات الورود وبعض الأزهار المختلفة، تحيط بالعمارة، مما يزيد في جمالها وتألقها وجاذبيتها !

كنت وأنا أصعد الدرج متمهلاً أحسّ، من القلق والخوف والتوتر، بأن كعب حذائي يضرب في مؤخرة رأسي، وأن دقات قلبي المرتفعة المتلاحقة، تضغط على طبلتي أذني، في عملية مدّ وجزر منسجمة ومتناسقة ولكنها عنيفة... عنيفة... فتجعلهما تتمددان وتتقلصان كقربتين موسيقيتين ، في إحدى الفرق الموسيقية بأحد جيوش الوطن العربي الحبيب والكبير ... !!

حاولت أن أقنع نفسي، وأنا أقف أمام الباب وأهمّ بضرب الجرس، أن ما بي هو تهيباً وليس خوفاً... هو خجل وليس رعباً... هو حياء وليس جبناً... ولكنني في قرارة نفسي كنت واثقاً أنني أكذب...!!

ما أتعس الإنسان عندما يحاول أن يخدع نفسه...! إنه يشعر بأنه يتعرى أمام ضميره، فتظهر سوأته الوجدانية، وينفرط عقد حيائه الداخلي فيفقد احترامه لنفسه ولكرامته... وعندما يصل تلك الدرجة، فإنه ينتهي كإنسان، فيفقد آدميته وكل ما بداخله من قيم ومعانٍ نبيلة...!

كان قلبي يخفق خفقاناً عنيفاً متوالياً، فأحسّ كأنه طير ذبيح يرقص في صدري... وأحياناً أحس أنه يرفرف ويحاول الهرب من حلقي، فأجد صعوبة بالتنفس وأنني على وشك الاختناق !

لقد فكرت أن أعود أدراجي وليقولا عني ما يشاءان ! ألم يعلمنا المجتمع، ومنذ نعومة أظفارنا، بأن "الهزيمة ثلثين المراجل"؟! حقاً، يا لي من جبان ! لقد تأكد لي الآن بالدليل القاطع ، أنني كجميع بني قومي في طول الوطن العربي الكبير وعرضه رجال كلام وتنظير وسفسطة... !

أنا لم أسئ إلى هذه الزوجة حتى تكرهني بهذا العنف وهذه الشراسة دون أن تعرفني بل وقبل حتى أن تسمع باسمي !! كل

جريمتي عندها أنها من شعب يكن لشعبي الحقد والكراهية ويتمنى له الموت والانقراض... لأنه يرفض أن يقدم له وطنه هدية على طبق من ذهب ! إن شعبها لا يتمنى مجرد أمنية لأمتي الاندثار، وإنما هو يطبقها وينفذها في كل يوم وليلة، بل في كل ساعة وثانية ! أليس هو الذي يقتل الأجنّة في الأرحام بأن يغرقها في الغازات السامة، وتدوس مجنزراته الشيوخ والنساء والأطفال العزّل...؟!

غلى الدم في عروقي غضباً وقهراً وتحولت إلى مرجل هادر مستعر، وتصورتها واقفة أمامي كاللبؤة الشرسة الغضبى، مكشرة الأنياب، مبرزة المخالب، متحفزة للهجوم، بكل حقدها وعنصريتها وقبحها، وتصورت نفسي أغرز أظافر يدي العشرة بعنقها، وأطبق عليها حتى أجهز عليها... أجهز على عقدتي... كأنما أجهز على كل بني قومها، لأخلّص شعبي ووطني بل وشعوب العالم أجمع وأوطانه، من جشعهم واستغلالهم واحتقارهم...!

ضربت جرس الباب بحقد لاهب، وضربات أسناني وتراقصها يصل إلى أذني كصوت جاروشة تطحن الحصى... وفتح الباب...! يا للهول... ويا للصدمة... ويا للذهول وامتقاع الوجه... ويا لتشنج عضلاته...! ثم ويا للخيبة وجحوظ العينين، والرجفة التي أصابت جسم الزوجة...!

–أهو أنت ؟! قالتها وكأنما تطلق مدفعاً، فأحسست كأنما رصاصة بل صاروخٌ قد خرج مع كلماتها فأصاب قلبي... ولكنني تظاهرت بعدم الاهتمام وعدم الدراية !

نعم أيتها الصهيونية الحاقدة. إنه أنا، سهيل دهشان، الرجل المسالم الوديع الذي أذقته ألواناً من المهانة والإذلال، دون ذنب اقترفه، ودون أن يرد عليك حتى ولو بكلمة نابية ! لقد أتيت لأقهرك ولأكتم أنفاسك في عقر دارك ولأذلّك أمام زوجك وأولادك... إن كان لك أولاد !

–هل هذه هي شقة السيد جيمس روبنسون ؟ ! سألت بحشرجة كفحيح أفعى !

–أهلاً وسهلاً بروفيسور دهشان ! سمعت صوت السيد روبنسون وهو مقبل نحوي من الداخل، ثم تابع:

–تفضل ! تفضل ! كم أنا سعيد بمجيئك !

تراجعت الزوجة إلى الخلف على عجل ، تقدم الزوج مني ماداً يده ، وسحبني إلى الداخل باحترام ومودة ، ويمناه ما زالت ممسكة بيمناي ويسراه تعانق ظهري بحرارة وشوق أحسسته بوضوح ! سار بي إلى الداخل بلطف وأدب ، ثم نظر إلى زوجته بحيرة واستغراب لاحظتهما على قسمات وجهه، مستفسراً عن عدم ترحابها بي وإدخالها إياي !

-يبدو أن شيلا لم تكن تتوقع أن يكون المدعو أنت ، فأنا لم أخبرها من يكون ضيفنا ! لقد أعلمتها بأن ضيفنا الليلة هو صديق عزيز علينا لم نره منذ مدة طويلة، وأنها ستفرح كثيراً لرؤيته ! لا شك أنها فكرت بأنك أحد الأصدقاء القدامى من أيام الدراسة ! قال ذلك وهو يقودني إلى الداخل ويغلق الباب خلفنا، وأضاف:

-كنت أريدها أن تكون مفاجأة !

"لم تكن مفاجأة فحسب يا سيد روبنسون... لقد كانت زلزالاً نزلزل به يوماً شعبكم الذي اغتصب وطننا وشرّدنا في بقاع الأرض... ! " قلت هذا في سرّي وتلفّت حولي أبحث عن الزوجة، فلم أجدها !

أجلسني الزوج على كنبة ناعمة حنونة الملمس... فاخرة... تراءت لي كامرأة رائعة الجمال، متفجرة الأنوثة ، تفيض رقة وسحراً وعذوبة... ! أغرقت نفسي في دفئها وحنانها !!

توجه الرجل إلى الداخل، ووصل إلى أذني همسات الزوجين... وشوشة حيناً وعاليةً أحياناً... عنيفة تارة وليّنة أخرى... مفهومة أحياناً ومبهمةً مرّات...معاتبة حيناً ولوماً وتقريعاً أحايين كثيرة ! كانا يتجادلان ويتناقشان ويتعاتبان بحدة وبصوت مخنوق ، وقح أحياناً ورقيق في بعض الأحايين...!

لا أدري كم مضى من الوقت عندما أقبل الزوج مرحباً بي من جديد ، والقلق والارتباك والحيرة والنرفزة والتشنج ، كلها ، تضج بها ملامحه وحواسه وتصرخ بها قسمات وجهه !

-ماذا تحب أن تشرب ؟! سألني بعقل شارد وأعصاب متوترة وأنا واثق بأن عقله لم يسجل ما كان يقوله لسانه !

-كأساً من الماء القراح من فضلك ! قلت هامساً بأدب جم وابتسامة خجلى !

نهض بعصبية، وبدلاً من أن يذهب ليحضر ما طلبت، عاد وجلس قبالتي على الكنبة يحدّق بالفضاء أمامه، بعيون جامدة وذهن شارد وتفكير مكبّل؛ ثم فجأة وكأنما تذكر أنني قد أكون طلبت شيئاً ولكن لم يعرف ما هو، نهض كالمنخوز وأعاد عليّ السؤال معتذراً، أجبته شاكراً وأضفت وقد نشرت ابتسامة كبيرة مبالغاً بها فوق شفتي، محاولاً أن أبدو مرحاً !

–لقد كان غدائي مضمخاً بمقادير هائلة من التوابل والبهارات، ولذلك أريد ماء قراحاً فقط !

قفز واقفاً وتركني، ورأيته بدلاً من أن يتوجه نحو المطبخ يذهب إلى غرفة النوم ويغلق بابها خلفه... وعادت أصوات المناقشة المبهمة المتلاحقة المتحشرجة تصل إلى أذني، واستطعت أن أتميز بعض الكلمات هنا وهناك...! لقد استطعت أن أفهم... كان الزوج يرجو زوجته ويلح في الرجاء أن تأتي لتسلم علي وتجلس معنا، بينما هي ترفض بعناد وشراسة وثورة وتصر على الرفض...!

عاد الزوج وقد زرع على شفتيه ابتسامة مصطنعة حزينة باهتة دون أن يحضر الماء، وعلامات الجزع والقهر والإحباط يضج بها وجهه المحمر وتبوح بها نظراته الذاهلة الحيرى المكسورة !

أصاب إذلال الرجل وإحباطه شغاف قلبي، وأحسست حقاً وصدقاً بالألم والحزن معاً، وتمنيت لو أنني لم أقبل الدعوة، ولم أشاهد هذا المنظر البائس والمذل للزوج المسكين، فزادت كراهيتي للمرأة وتعاظمت نقمتي عليها، وتمنيت من صميم قلبي، وبكل الأمانة والصدق، لو أستطيع أن أفعل شيئاً لأوقف، أو على الأقل لأخفف، عذابات هذا الزوج الطيب، الذي أثار شفقتي... وفي نفس الوقت تمنيت لو أستطيع أن أؤدب هذه اللبؤة العنيدة بأن أركلها بقدمي !

–هل لك أن تحضر لي كأساً من الماء ؟! سألته وهو يهم بالجلوس، وأنا أحاول أن أبدو طبيعياً وكأنني لم ألاحظ شيئاً !

و هنا أخرج ضحكة جوفاء مبالغاً في تصنعها !

–آه ! آسف جداً ! تبدو أن فرحتي بقدومك قد أنستني طلبك ! أرجوك اعذرني ! قالها وهو يدير لي ظهره متوجهاً هذه المرّة إلى المطبخ.

-هذا لطف منك، شكراً من الأعماق! قلتها بصوت عال ومتعمد لتلحق به إلى المطبخ !

عاد يحمل كأسين من الماء فوق صينية فضية تدل جميعها على النوع الفاخر والذوق الرفيع ، أجلسها أمامي على طاولة من خشب السنديان الناصع الغالي وعاد إلى الداخل دون أن يتفوه بكلمة !

في تلك اللحظة شعرت بحزن ماحق على الرجل، ولكي أجنبه فقدان ماء وجهه أمام زوجته وأمامي، ولكي لا أسبب له إحراجاً أكثر مما فعلت، فكرت أن أتسلل من البيت حتى دون أن أستأذن... ولكنني عدلت عن الفكرة معتقداً بأن هذا التصرف قد يسبب له آلاماً فوق آلامه...!

زادت كراهيتي لتلك المرأة، وأحسست أنها ذهبت بعيداً في إذلال زوجها، وبلا شعور وبعصبية رفعت الكأس عن الصينية التي ارتطم بها قاعه، وسمع له صوتاً منفراً، شربت كأس الماء حتى أخر قطرة، وحمدت الله على نعمته كعادتي، وإن كنت قد نسيت ذكر اسمه عند البدء !

-إن زوجتي تبدل ملابسها وستنضم إلينا سريعاً ! قالها بصوت كالحشرجة وكأن ما قاله لم يقتنع به هو نفسه فأردف ولكن بصوت أكثر بحّة.

-لقد أتت قبل قليل من البقالة ولم يكن عندها الوقت الكافي لتستبدل ملابسها... أرجوك اعذرها لهذا التأخير...! وتركني ودخل غرفة النوم وأغلق بابها خلفه وصارت الهمسات تصل إلى أذني بعصبية مكتومة، حادة وعنيفة لم أستطع أن أميّز منها كلمة واحدة !

لا شك أن الرجل في زحمة إذلاله وتذليله، قد نسي أنني رأيت زوجته لحظة دخولي ، بكامل زينتها ولباسها، وأنها هي التي قابلتني قبله ! إنك مسكين وساذج يا سيد روبنسون ! لعلك لم تتبين إلا الليلة فقط حقد ومكر زوجتك الصهيونية ! عليهن اللعنة ! انه وبقدر ما تكون الواحدة منهن محيطاً هادئ من الرقة والدفء والحنان، بقدر ما تكون بحراً ثائراً مصطخباً متلاطم الامواج من الشراسة والحقد واللئم ! ان عقولهن مبرمجة على فروجهن ، التى لا تتأثر بهموم الوطن واوجاعه !

-ستأتي في الحال ، أنت تعرف ، النساء يحتجن إلى وقت طويل وهن يتزين ! قالها وأخرج ضحكة مخنوقة كضحكة الذي يعاني من مغص مرير في بطنه ، وهو في طريقه إليّ بعد أن أغلق غرفة النوم خلفه.

–لا حاجة للسرعة ! لتأخذ الوقت الذي تحتاج ، فنحن الرجال قد نتحدث حديثاً لا يطيب للنساء...! قلت مشجعاً وأنا أشير له أن يجلس قبالتي وأهم بالوقوف كأنما أفعل ذلك احتراماً !

–هذا صحيح ! قالها وهو يتنفس الصعداء، إذ أحسست أن ما قلته قد أراحه بعض الشيء، ثم جلس قبالتي بعد أن رفع كأس الماء ورشف منها رشفة ثم أعادها إلى مكانها.

فجأة رأيت مضيفي، السيد جيمس روبنسون، ينهض من على مقعده ويتوجه كالصاروخ إلى غرفة النوم ثم يفتحها بعنف وغلظة، ويصفق الباب خلفه بغلّ وقسوة، فخلت شظاياه تطايرت في كل مكان، فأدركت أن لا بدّ وأن يكون الرجل قد عزم أمراً... غير التوسلات؛ إذ وصل إلى أذني صوتٌ يشبه فحيح الأفعى المكتوم... صوتٌ كصوت جاروشة قمح متواجدة في قعر جب ماء، تجرش القمح والماء معاً، فيخرج منها ذلك الصوت الأجش...! واستطعت أن أتبين مما يجري خلف الباب كلمة واحدة واضحة فقط "المطعم" ! لا شك أن الزوج قد هدّد زوجته بأنه سيأخذني إلى المطعم إن لم تخرج لمقابلتي ! هكذا فسرت نتيجة النقاش... ومرت حوالي ثلاث دقائق، خلتها ثلاثة أيام، وأنا لا أسمع إلا فحيح النقاش المحتدم المكتوم يعلو ويهبط، يخرج من الزوجين، عندما فتح الباب... وفجأة أقبل الزوج وفرحة حقيقية غامرة تتراقص على وجهه وتضيء بها عيناه المشعتان ! ذكرني بالفرحة الأولى في حياتي، يوم تحقق حلمي العظيم الذي طالما راود مخيلتي عندما حصلت ولأول مرة في حياتي، على "طابة أم سبعة جلود" مستوردة ومصنوعة خارج القطر، بعد أن بقيت سنوات وسنوات أحلم بالحصول على واحدة، وبعد أن أمضيت تلك السنوات الطوال أستعمل "الطابات" القماشية التي كانت تصنعها لي والدتي الأرملة من الشرائط القماشية الممزقة والبالية ! كانت تكوّر قطع الأقمشة وتلفها حول بعضها جيداً ثم تخيط حولها حتى تصمد كطابة ألعب بها أنا وأقراني الذين أتفاخر أمامهم وأتباهى بها عليهم في أزقة وحارات مدينتنا العتيدة...!

يبدو أن قرار الزوج الحاسم الحازم ، وتهديده الصادق الجازم ، قد أقنع الزوجة بمغادرة حصنها والتخلي عن عنادها ، فوافقت على الجلوس معنا... فقد شاهدت كل ناجذة من نواجذ جسم الزوج ، وكل خلجة في كيانه تزغرد وترقص جذلاً وطرباً... !

-الآن فقط انتهت من تبديل ملابسها والاعتناء بزينتها ! نرجو المعذرة لهذا التأخير ! قال الزوج وهو يفرك يديه بعضهما ببعض كأنما ليطرد بردّيّة قاسية تعصف بجسمه، وكانت ابتسامة كبيرة تغطي كل جزء من وجهه... ! لقد كانت أطرافه كلها ترتجف ويصعب السيطرة عليها من شدة الفرح !

"تباً لحواء يا صديقي وسحقا لها ! إنها بمقدار ما هي مبعث حب وحنان ودفء، وسعادة واطمئنان وأمان للرجل، بمقدار ما هي مصدر شقاء وتعاسة واضطهاد وإذلال له...! وكما جعل الخالق اللذة العارمة والفرحة السماوية ترقد في داخلها وبين فخذيها، فقد جعل الحقد الماحق والشر القاتل يكمن في صدرها ويخرج من بين شفتيها...!" نهضت بحماس وتوثب وصافحت السيدة التي كانت تسير خلفه والتي مدت يدها المثقلة بالحقد والاحتقار لتقابل يدي الممدودة... ودون رغبة!

-إنكما تعرفان بعضكما ! قال الزوج وهو يرقص طرباً من الفرح وقد تنحى جانباً ونحن نتصافح.

-طبعاً، طبعاً! قلت بجرأة وحماس مبالغ بهما، وأنا أشد على يدها المرتجفة الباردة، وعيناي تحدقان بوجهها؛ أما هي فلم تتفوه بكلمة، وإن كنت قد لاحظت أنها استبدلت فستانها الذي كانت ترتديه عندما فتحت لي الباب، بفستان أطول من الأول وأكثر احتشاما !

-ماذا تشرب حبيبة القلب؟! سأل الزوج زوجته أولاً حالما جلسنا، ناسياً واجبات الضيافة وقد عذرته... ثم أحنى قامته احتراماً بطريقة مبالغ فيها...!

كانت الفرحة تتطاير من عينيه كأنما يشكر من أعماق قلبه وبكل جوارحه، زوجته التي أنقذته من إذلاله أمام ضيفه الغريب. وقبل أن يسمع جوابها استطرد:

-البروفيسور دهشان وأنا سنشرب ما تأمر به سيدة البيت ؛ ثم استدرك وكأنما تبين خطأه وأن الاتكيت يفرض عليه أن يسألني أولاً، إذ التفت نحوي وسألني ماذا أحب أن أشرب !

-أنا أحب جداً أن أشرب ما تختاره لي السيدة روبنسون ! قلتها برومانسية ، وكأنما أنا حبيبها أدللها وأغازلها معاً ! لعل عدوى فرحة الزوج قد انتقلت بدورها إلي، فقد فلت زمام سيطرتي على تصرفاتي وصرت أتكلم كالعاشق الولهان الذي قابل حبيبته بعد غيبة طويلة... ! قلت ذلك

وأنا أقف أمامها وأحني قامتي وأضمّ يدي إلى بعض على الطريقة اليابانية... !

– "اولدبار!" قالتها بصوت منخفض وبارد، وهي ما زالت لا تنظر إلى وجه أيّ منّا !

حالما نطقت زوجته كلمتها، توجه نحو المطبخ بخطى واسعة حثيثة، وكأنما كان يرقص رقصة الفالس... !

–الشموخ، العظمة، والذوق الرفيع تظهر حتى بانتقاء الخمور...! الجمال الربّاني، الدلال، الرقة، الدفء، والنعومة تتجلى حتى بالعناد والرفض ! قلتها بجرأة لم أعهدها بنفسي من قبل، إذ أحسست بسعادة طفولية النكهة، كانت قد ضاعت مني قبل أكثر من خمسة عشر عاماً ، في حارات الجدعة وأزقة المداريس وتلة وادي الريح ، في مدينة السلط الحبيبة !

كانت عابسة الوجه وعيناها لا تتحولان عن النظر إلى الجدار المقابل ؛ ولما لم تقل شيئاً أضفت غير عابئ بمشاعرها ولا برضاها أو سخطها، وبلهجة تحد وقح وتشفي معربد:

–شقتكما رائعة ومنسقة بطريقة فنية كباقة زهور، تدل على ذوق رفيع وأصالة عريقة !

–شكراً ! قالتها ببرود يضج بالاحتقار والقرف ، وهي ما زالت محدقة بالجدار قبالتها.

–زوجك كريم جداً... عظيم... شهم... رائع... ! إنك لا تتصورين سعادتي بمعرفته...! لقد وجدته ملاكاً بصورة إنسان ! قلتها صادقاً؛ ولما لم تجب أردفت:

–وجدته أيضاً غزير العلم، واسع المعرفة، بحراً من الأفكار القيمة !

–إنه يحب المطالعة جداً ويقرأ كثيراً ! وأخيراً نطقت بنت صهيون المتغطرسة... الغضبى...!

–وهل أنت مثله ؟! ألحقت سؤالي بسرعة قبل أن تغير رأيها وتعود إلى الصمت !

–مثله بغزارة العلم وسعة المعرفة ؟! طبعاً لا ! قالتها بغيظ واحتقار وقرف، بعد أن حوّلت عينيها الملتهبتين المتحديتين نحوي...! وأقسم برب

موسى وعيسى ومحمد، أنني خفت... ارتعدت... قفز قلبي... من العينين الساحرتين... الآسرتين... ! يا لجمالهما ويا لسحرهما ! إنني والله كأنما أراهما لأول مرة ! لقد أحسست كأنما سددت إلي سهمين بدل النظرتين ، أصابا قلبي فجعلاني أسقط قتيلاً أتخبط في دمي...! آه..! ما ألذّ وأسعد أن يكون الإنسان قتيل سهام عينيها...! الآن فقط أدركت كيف أن بعضاً من شباب بني قومي، كانوا يبيعون أراضيهم العزيزة، في بلاد كنعان ليصرفوا أثمانها لكي يحظوا بقلوب وأجساد بنات داوود... ذوات العيون الدعج التي تشبه عينيك يا شيلا يا أختاً لهن...!

-أعني بحبك للقراءة ! قلت وقد اعتراني إحساس لذيذ لذيذ ، بالنشوة الرومانسية...!

حوّلت عيني عن النظر إليها وصرت أنظر إلى رأس حذائي، معلناً استسلامي وبأنني صريع سهام عينيها... ! ولعلها أدركت بغريزتها الأنثوية، وقع أنوثتها وسحر جمالها في قلبي، فبقيت تنظر إلى وجهي بطريقة تحد هجومية...! لقد لاحظت ذلك بطرف عيني.

-نعم أقرأ كل ما تقع عليه يداي ! قالتها بإصرار وعناد وتحدٍّ أيضاً وكأنما تهاجم عدواً شرساً !

-" لا شك أنك قرأت حكماء صهيون والتلمود وكل كتب الدعاية المسمومة التي كتبها بنو قومك عنا، يقنعون بها العالم بأنهم شعب الله المختار، وأن أرض كنعان هي لهم وحدهم وعدهم الله بها...! أنا مدرك أنهم يرضعونكم مع الحليب كراهيتنا واحتقارنا، وأن الله خلقنا لغاية واحدة فقط... وهي أن نكون خدماً وعبيداً لكم... وأن جنة الخلد هي مأوى الذي يقتل واحداً منا...!"

-وهل قرأت شيئاً عن بلادي؛ الشرق الأوسط ؟! سألتها وأنا ما زلت أنظر إلى رأس حذائي متجنباً لقاء عينيها !

-نعم... قرأت الكثير في السنة الأخيرة. قالت بتحدٍ أكثر وهجومية أعنف وأشرس ! لقد شعرت بطرف عيني اليمنى أنها ما زالت تحدّق في صدغي بعيون ملتهبة غضبى !

-تعنين منذ زيارتي لعيادة الدكتور إليوت ؟! شعرت بتفاهتي وسخافة سؤالي... وأنني أخطأت... وندمت على ما قلت... فتمنيت من أعماقي لو أستطيع سحب جملتي !!

–وما علاقة قراءتي عن الشرق الأوسط بزيارتك لعيادة الدكتور إليوت ؟! قالتها بغضب لاهب ! لقد شعرت أنها بصقت في وجهي، ثم ألحقتها بصفعة... ولكن ليس بيدها الناعمة الصغيرة ، وإنما بيد زوجها الضخمة القوية ، إذ أنني ودون وعي وبلا إرادة مني، وجدتني أمدّ يدي اليمنى وأتحسس بها خدي المقابل لها !

–عفواً ! إن ما عنيته هو أنني بدأت مراجعة عيادة الدكتور إليوت في السنة الأخيرة ! قلت بحزن وندم شديدين. ومرة أخرى ندمت على ما خرج مني إذ شعرت بأنني كنت سخيفاً وأنني فقدت السيطرة على تفكيري... ولكنني شكرت الله أنها لم تعلق على ما قلت !

مرّت فترة صمت ثقيلة مملة... وبدأ نوع من القلق والتوتر يتسللان إلى نفسي... وتساءلت وربما تساءلت هي أيضاً ، عن سبب تأخر عودة الزوج ، وإن كنت قد عللته بأنه ربما تعمد ذلك حتى يعطينا، هي وأنا، الفرصة للكلام فنذيب بعضاً من هذا الجليد الذي تتخندق زوجته خلفه... !

تنفست الصعداء وشكرت الله ، فقد رأيت الزوج يخرج من المطبخ مقبلاً نحونا حاملاً صينية فضية تراءت لي أكثر جمالاً وفخامة من الصينية التي كان فوقها كأسا الماء، والتي حملها معه في طريقه إلى المطبخ ! كان فوق الصينية التي يحملها قارورة مختومة من مشروب "الأولد بار" وثلاثة كؤوس لم أر مثلها جمالاً وفخامة في حياتي كلها، ووعاء الثلج، النصف الأسفل منه مصنوع من الخشب الثمين والقسم العلوي من فضة مطلية !

–مرة ثانية أهلاً وسهلاً يا بروفيسور دهشان ! إنه ليشرفنا ويسعدنا، زوجتي وأنا، أن تكون ضيفنا الليلة في بيتنا ! إنه لشرف كبير لنا ! قال ذلك وهو يضع ما يحمله فوق طاولة الوسط، والسعادةتضيء وجهه والفرحة تقفز من عينيه !

– ـ إن الذي حصل له الشرف هو أنا ! قلتها على طريقة أهل الوطن التجاملية، ثم اعتدلت في جلستي وأضفت:

–آمل أن تكون بداية صداقة متينة ودائمة بيننا...!

في الحقيقة إنني قلتها مجاملة، ثم عامداً أيضاً، لأغيظها؛ إذ أنني كنت واثقاً بأنه لا يمكن أن تسمح هذه الزوجة العنصرية الحاقدة لنمو صداقة بيننا !

-وأنا كذلك ! قالها الزوج بحرارة وصدق تحسهما يخرجان من عينيه ويعبر عنهما وجهه ! وبعد أن وضع أمام كل واحد منا كأساً، حمل ملقطاً للثلج خلته من الفضة الخالصة، التقط به بعض مربعات من وعاء الثلج أسقطها في كأس كل منا، ثم حمل زجاجة المشروب المختومة وانحنى أمامي وقال باحترام دافىء وهو يناولها لي: هذه على شرفك... تفضّل وافتحها !

" نعم، سأفتحها يا صديقي... سأفعل... بكل السرور وبكل المحبة ! "

وبطريقة عفوية كرمية... طريقة فرسان القرون الوسطى... وبدون تصنع ولا تكلف، وحتى بدون تفكير، أخذت القنينة من يد الزوج، ونهضت من على مقعدي ووقفت أمام الزوجة وانحنيت، حتى تساوى رأسي باستقامة فخذيها وكأنما لاحتضانها وتقبيلها... وقلت:

-نحن ضيوف " الليدي " روبنسون، أجمل جميلات مدينة سانتا مونيكا، نطمع بحنانها ورضاها، نشرب نخب سعادتها وعلى شرفها... فلتتكرم علينا مشكورة وتفتحها ! قلت ذلك وأنا أنظر في عينيها، بتأمل ورومانسية، وكأنهما كأسا نبيذ معتّق أشرب منهما !

وهنا ارتسم على شفتيها خيط ابتسامة خفيفة... خفيفة جداً... يكاد لا يبين... كآثار جرة خيط من بقايا قلم أحمر شفاه، مرسوم على شفتين قرمزيتين... فأراحتني جداً وبددت كثيراً مما كان متراكماً فوق صدري من الانقباض والتكدر...!

لا شك أن فعلتي هذه قد أسعدت الزوج وأراحته، فقد لاحظت أن وجهه قد أضاء، وعلته حمرة ممزوجة بالخجل والارتباك!

-شكراً يا بروفيسور دهشان... شكراً جزيلا... ! قالها بعد أن لحس شفتيه بلسانه ليرطبهما ثم أضاف:

-شكراً من أعماق قلبي! حقا إنك جنتلمان، أصيل وشهم ! قالها بفرحة راقصة غامرة.

يبدو أن ثناء الزوج عليّ وفرحه المفرط، ثم ابتسامة الزوجة الخفيفة، قد أطلقت العنان لعواطفي المكبوتة وللساني المقيّد، فقد حطمت جبال الجليد من القلق والتوتر، ودكّت حصون الخوف والجمود والكلفة، وأزالت جدراناً صفيقة من التحفظات والرسميات والمجاملات بيننا، فقلت بصوت

حالم رومانتيكي، وقد أغمضت عيني نصف اغماضة، كأنما أناجي حبيبة لي في ليلة مقمرة:

-إنني أنحني احتراماً واجلالاً لزوجة صديقي الجديد السيد جيمس روبنسون، الذي أجلّه وأقدّره... ذات الجمال المميز... والعواطف الدافئة... مونوليسا القرن العشرين... ملكة جمال سانتا مونيكا... بل ملكة جمال كاليفورنيا كلها...!

-الله ! الله ! رائع ! رائع يا بروفيسور دهشان...! ما أعظمك وأروعك...! ما كنت أعلم أنك شاعر أيضاً... ! قال الزوج وقد نهض من على مقعده ثم جلس ثانية وهو يضحك ويقهقه ويرقص جذلاً وطرباً ! وبعد أن توقف عن الضحك والكركرة أضاف وهو يمسح دموعه بفوطة ورقية سحبها من صندوق أمامه:

-أنا من ناحيتي أسمح لك بأن تتغزل بحبيبة القلب شيلا، ما دام غزلك بها من هذا النوع الأنيق الرائع، والرفيع الشامخ، وبهذه الشفافية ! وأرجو أن لا تمانع هي في ذلك !

-يا لك من إنسان مثالي يا سيد روبنسون ! حقاً إنك أرستقراطي وعظيم في كل شيء... في تفكيرك وفي تصرفاتك وحتى في ضحكك وقهقهاتك...!

لاحظت أن دائرة الابتسامة التي بدأتها الزوجة قد اتسعت قليلاً وازدادت ضوءاً وإشراقاً، إذ انفرجت شفتاها عن أسنان بيضاء كعقد من اللؤلؤ، ولكن بطريقة يتحكم بها عامل الخجل والحياء، وكذلك الرسميات والمحافظة الأصيلة... !

لعل يأسي الشديد، وقناعتي التامة، بأن هذه العنصرية الشرسة العنيدة، لن تسمح بنشوء صداقة بيني وبينهما، وأن هذا اللقاء سيكون آخر لقاء لنا؛ ثم عدم مبالاتي لما سيحدث، وضربي عرض الحائط بالنتائج وبما ستكون عليه العواقب؛ وكذلك ما قاله الزوج وما أبداه من ليونة وتسامح، ومن تفهم بل وتشجيع أيضاً، بالإضافة إلى الابتسامة الخفيفة التي ارتسمت على شفتي الزوجة... كل هذه الحقائق مجتمعة، زائد الغل الدفين عندي، وشهوة الانتقام... كل هذه جميعها... شجعتني وولّدت في قلبي الجرأة أن أسترسل بمداعباتي ومغازلاتي الرومانسية، الجريئة تارة والخجلى تارات، غير مكترث بالعواقب ولا بدرجة صراحتها وتجاوزها حدود ما تسمح به اللياقة فقلت:

-إننا نحن الرجلان... المحزونان... البائسان... المخذولان... اليائسة أرواحنا... المحبطة قلوبنا... المكلومة نفوسنا... والمنقبضة صدورنا... لَنقف خاشعين خلف باب ملكة الحب والجمال،ولَننحني إجلالاً لأميرة الأنوثة والرقة... افروديت... حانين رؤوسنا، مصغرين هامتينا، معترفين بضعفنا، وقلبانا يفيضان بالمحبة والاحترام والتقدير، طامعين وراجيين، بل ونلح بالرجاء، بأن تتعطف علينا وتتكرم، وأن يرق قلبها وتلين عواطفها، بأن تطرد التكشيرة والعبوس من على وجهها... فتبتسم، فتسمح لنا بدخول جنتها الواسعة الوارفة... فتتكلم معنا وتمنحنا ابتساماتها وحنانها... حتى يفارقنا الحزن والاكتئاب، وينزاح عن نفسينا وقلبينا الغم والإحباط، فتحل محلهما المودة والانشراح... فنقضي وقتاً طيباً ممتعاً معاً...!

كنت وأنا ألقي أهزوجتي، أقف أمام الزوجة بابتهال وتعبّد... وكان الزوج يجلس على كنبة إلى شمالي، وكنت محني الظهر قليلاً، عيناي تنظران إلى وجه الزوجة، ويدي اليسرى تتكىء على فخذي الأيسر... بينما اليمنى تقبض على منتصف القنينة المرفوعة بالهواء بين وجهينا... وكانت عيناها لا تنظران إليّ وإنما تحدقان برسمة زيتية متثبتة على الحائط قبالتها...!

لقد تصورت نفسي بالوطن، أقف بين يدي سميحة، تلك الإلهة الشامخة، ألقي إليها بتوسلاتي الاستعطافية... الاسترضائية... والتذللية... طالباً السماح من الحبيبة الغضبى... العاتبة... والتي ارتكبت بحقها وحق حبنا، أخطاء كثيرة وفظيعة... بأن غادرت الوطن تحت جنح الظلام دون الاستئذان منها... بل حتى ودون معرفتها...!

عندما توقفت عن الكلام، أدارت الفاتنة عينيها عن الجدار قليلاً قليلاً حتى التقتا بعيني...! أقسم بالوطن الحبيب... وبالوطن الذبيح... وبدم أطفال الحجارة... وأقسم بدم أطفال العراق أيضاً... الذين يجوعهم ويقتلهم من يسمون أنفسهم ويدعون كذباً وزوراً وبهتاناً مسلمين وعرباً... أنني أحسست وعيوننا تلتقي، كأنما تياران كهربائيان ذوا ضغط عالٍ، ضربا ببعضهما، فسُمع لهما صوت لاهب فاحترقا وتحولا إلى قطعتين من الفحم... فارتجف جسمانا بعنف... فأدركت حينئذ أن القدر بدأ يكتب قصة... لا يعلم إلا هو سبحانه وتعالى مضمونها ونهايتها... !

مدّت حفيدة "يهوه" يدها اليسرى، وبدون أن تخرج نأمة وبكل برودة وتمهل... أمسكت عنق القنينة، وباليد اليمنى أدارت بطريقة عكسية غطاءها... فسمع لها صوت انشراخ...!

–هائل بروفيسور دهشان...! عظيم... عظيم جداً...! وبتصرف عفوي، وبفرحة صبيانية صادقة، نهض من مقعده وصار يرقص ويدور حول نفسه بطريقة هزلى... لعله أدرك أنه قد استرسل كثيراً مع عواطفه ، فتجاوز الحدود التي يسمح بها الإتكيت والصداقة الجديدة، فقال بعد أن توقف عن الدوران وعاد إلى مقعده، وإن كان حماسه وسروره ما زالا في أشدهما وأوجهما!

–إنك لشاعر عظيم وخطيب مبدع ! لقد أدركت الآن أنني صادقت إنساناً رائعاً... متميزاً !

–لا تقل ذلك ! أرجوك ! إذ أصدقك فيصيبني الغرور...! قلت باستحياء وتردد وأنا أستل ابتسامة من بين شفتي، وإن كان داخلي ما زال يرتجف كما أصاب فمي ولساني جفاف حاد...! لقد كنت ما زلت تحت تأثير العجب والاندهاش، من نفسي، إذ إنني أستطيع أن أقول مثل هذا الكلام المنمق والجميل...!؟

–إنك كذلك...! إنك لشاعر بليغ وخطيب مفوّه ! هذه هي الحقيقة... سواء أقبلتها أم رفضتها ! قالها الزوج بحماس وعفوية معاً وهو يؤكد ذلك بهزة من رأسه، ثم حوّل ناظريه إلى زوجته كأنما يطلب إليها أن تثني على ما قال لأصدق مقولته، ولكنها لم تعلّق !

–شكراً على كل حال... وأعيد ما سبق وقلت... إنه ليسعدني بل ويشرفني جداً جداً أن أكون صديقكما ! قلت متجاهلاً عيني الزوجة اللتين ما زالتا تلاحقان وجهي بعناد وتحد وإصرار، محتاراً إن كان حقدها علي وكراهيتها لي قد توقفا أم زادا اشتعالاً... ثم تساءلت إن كان ما زال هناك أمل في خلق صداقة معهما أم أن الرجاء قد انقطع نهائياً، بعد ما حدث الليلة !

بعد أن فتحت الزوجة غطاء القنينة، ناولتها إلى زوجها الذي هب واقفاً وأخذها منها، بعد أن ابتسم لها وأحنى رأسه قليلاً علامة الشكر والامتنان...! صبّ بعضاً مما بها في كأسها، ثم انتقل إلى كأسي ولم يتوقف حتى طلبت إليه ذلك، ثم انتقل إلى كأسه هو... ولكنني لاحظت أن حصته كانت بحجم حصتينا. رفع بعدهاكأسه إلى أعلى وكان ما زال واقفاً، فقال:

–فلنشرب نخب صداقتنا الجديدة ! وقبل أن ينحني ليضرب كأسه بكأسي وقفت، فتقابلت كأسانا في منتصف الطريق وضربتا ببعضهما بقوة وحماس سمع لهما صوت رنان...! أما ابنة داوود فقد أبقت كأسها نصف

مرفوعة... في الوسط... تنتظر منا نحن الرجال أن نهاجم كأسها بكأسينا، فتلكأت أنا وترددت حتى يقوم زوجها بالمهمة أولاً، وبعد أن فعل ضربت كأسي بكأسها بطريقة هجومية وأنا أنظر بتحدٍ وقح في عينيها، وكأنني أقول لها، سأهزمك وأقهرك يا أخت نتنياهو..!ولكن عينيها هذه المرة، تجنبتا عيني، وكانت هي سلبية التصرف عندما ضربت كأسي بكأسها، فقد كانت ساكتة لا تبدي حراكا...!

رفع كل منا كأسه إلى شفتيه، فلاحظت أن الزوج قد أفرغ في جوفه كل محتويات كأسه مرة واحدة...! أما هي فشربت نصف ما بكأسها ثم توقفت ثواني أفرغت بعدها في جوفها كل ما تبقى من كأسها دفعة واحدة. أما أنا فشربت رشفة صغيرة، متذكراً تحذير صديقيّ جورج وهانس، ونصيحتهما لي، بأن أظل دائماً متيقظاً وبكامل قواي العقلية والجسدية، حتى لا أؤخذ على حين غرّة، كما أخذ أبناء قومها الماكرين الخبثاء، بني قومي الساذجين المغفلين ! شعرت في تلك اللحظة بحنين طاغٍ لكليهما، فأنا واثق أنهما الآن قلقان علي، ولكن الوقت ما زال مبكراً لأتبين مقاصد مضيفيّ !

"إنك تحتاج إلى أكثر من كأس وسكي يا جيمس، بعد كل ما عانيت هذا المساء من بنت داوود العنصرية ! لقد أذلتك وأحرقت أعصابك ومزقت صبرك...! كان الله في عونك يا صديقي !"

لم تخطىء ظنوني، إذ سرعان ما أسقط في كأسه بعض مربعات الثلج، وصب فوقها مقداراً كبيراً من الويسكي رمى بنصفه في جوفه دفعة واحدة !

–الخمور نعمة كبرى منحنا الله إياها حتى نتخلص من بعض همومنا...! قال الزوج وهو يبلع ريقه بتلذذ ويعيد كأسه إلى طاولة الوسط أمامه !

"وخصوصاً لمن هو في مثل حالك متزوج من لبؤة شرسة من بنات صهيون...!"

رشفت من كأسي رشفة أخرى أقل من الأولى، ولكنني رأيت السيدة روبنسون ترمي بكل ما في كأسها بجوفها، ثم نهضت، وبخفة الغزال ورشاقة نسيم الصباح، توجهت إلى المطبخ...! ولم تغب إلا قليلاً عادت بعدها تحمل صينية، عليها بعض الصحون الصغيرة والمتوسطة، أكبر حجماً وأغلى ثمناً من سابقتيها، فأقبلت وعلى شفتيها ابتسامة كبيرة !

–لقد نسيت المقبلات يا حبيبي ! قالتها بصوت رخيم ساحر لم أسمع في حياتي أكثر منه نعومة ولا أكثر رقة ، يفيض بالحنان ويضج بالأنوثة !

–آه ما أغباني ! كيف أرتكب حماقة مثل هذه ؟! قال الزوج وقد ضرب بيده على جبينه كأنما يندب عقله، واستغرق في ضحك طويل !

"وهل أبقت لك بنت صهيون الليلة عقلاً تفكر به أيها المسكين ؟! ما أشرسهن وأقبحهن عندما يحقدن... وما أدفأهن وأرقهن عندما يرضين...!"

نقلتْ ما على الصينية من صحون مملوءة بأصناف عديدة من المقبلات، أعرف القليل منها وأكثرها لم أره إلا الليلة... وبدأت توزعها بيننا... تضع كل صحن على طربيزة كل منا... رتبتها جميعاً بطريقة جذابة... ساحرة... ثم انحنت وأمسكت ملقط الثلج وألقت في كل كأس من كؤوسنا الثلاثة بمربعين من الثلج، وصبت في كل كأس منها مقداراً من الشراب، مع أن كأسي ما زالت شبه مترعة... ومع ذلك لم أعترض، إذ هززت لها رأسي وصاحبْتُها بابتسامة مؤدبة علامة الشكر والامتنان... !

–شكراً يا حبيبة القلب... شكراً جزيلاً... ! نريد مزيداً من هذه الابتسامات العذبة، والتي حرمتنا منها منذ أول هذا المساء ! قال الزوج بمنتهى الجذل والحبور.

انفرجت شفتاها عن نصف ابتسامة ولكن يا لجاذبيتها وسحرها ! إنها تجعل الأحلام ترقص والقلب يزغرد والعواطف تمور... !

" شكراً للشراب الذي أنساك حقدك ولو للحظات؛ وشكراً له أيضاً لأنه جعلك تجودين علينا بهذه الابتسامات التي تفرح القلب وتخدّر المشاعر! إنه والله لحرام صارخ بل وليس من العدل إطلاقاً، أن يكون لإنسانة مثلك، تتمتع بكل هذه العذوبة والرقة والأنوثة التي لا شك أن الخالق تفنن فأبدع... حرام أن يكون في داخل هذا المخلوق الجميل قلب يحمل كل هذا التعصب والحقد والكراهية...! "

صار كل منا يأخذ قطعة البطاطا المحمصة، فيغمسها في الصحون المملوءة بنعم الخالق التي أتذوقها لأول مرة؛ إذ كنت أغرق نفسي وبتلذذ، بما جادت به علينا يدا السيدة روبنسون، المترفتان... !

–لقد فهمت من السيد روبنسون بأنك تقرأين كثيراً ! قلت وأنا أزدرد بعضاً من خيرات الله ونعمه.

–ليس كثيراً جداً ! أقرأ كلما سمح لي الوقت ! قالت الزوجة بصوت منخفض وهادىء !

–إنها تقرأ أكثر مني ! العمل يستهلك معظم وقتي... إنني أعمل حتى بعد ساعات الدوام الرسمي ، فعندي كثير من الاجتماعات واللقاءات والدعوات والحفلات... كلها من أجل العمل ! قال الزوج وهو يتأمل زوجته بإعجاب ووله، وكأنما يضمها بجفني عينيه، وكأنه ليقول لي؛ انظر هذا الكنز الذي حباني به الخالق، ما أجمله وأروعه ! ألا تتمنى أن تكون لك حبيبة مثلها ؟!

–إن عملك مرهق؛ ولطالما طلبت إليك استبداله ! قالت الزوجة برقة فائقة معاتبة زوجها بطريقة عفوية، فأسعدني أنها تخلت عن صمتها، إذ شعرت أنها بدأت تتناسى أحقادها وكراهيتها لي... ولو لبعض الوقت !

–كل الأعمال مرهقة ولا ترحم يا حبيبة القلب ! قال الزوج بحنيّة؛ ثم التفت نحوي وأضاف:

– ما رأيك يا بروفيسور دهشان ؟!

–إنني أوافقك الرأي؛ ولكن العمل الذي يحرمنا من متعة البقاء إلى جانب من نحب، عمل من الأفضل تغييره... ! قلت ذلك والتفت نحو حواء، وكأنما أنشد تأييدها !

لم تعلق الزوجة وإنما لاحظت ابتسامة حزينة تعلو وجهها... رافقتها نظرة حبلى بالألم...! هزّت رأسها عدة مرات وكأنما لتعلمني بأنها تقدر لي تلك الملاحظة !

–كنت في صغري أحدث نفسي دائماً فأقول ، بأنني لن أفارق التي أحبها ولو للحظة واحدة ! قلت.

–يبدو أنك كنت مغرقاً جداً في الرومانسية ! قال الزوج وهو يبتسم.

–هذه رومانسية جميلة ورائعة... ليت عندنا مثلها هذه الأيام... ! قالت الزوجة بانكسار.

–كانت أحلام مراهقة...! الواقع الشرس يغتال أحلام الطفولة وخيالاتها ! قلت.

–المدينة الكبيرة غول ضخم يبتلع أحلام أبناء القرى والبلدات الصغيرة...! نكره حياة البلدة الصغيرة ونعمل كل طاقاتنا لنرحل عنها، حتى

إذا سكنّا المدينة أصبحت القرية أو البلدة ذكرى سعيدة، وأملاً مرجوّاً للعودة إليها...! قال الزوج وهو يفرغ بعضاً مما بكأسه في جوفه.

عزمت أن أضع حداً للخوض في أحاديث الطفولة والقرية والذكريات، خصوصاً وصورة الوطن الجريح النازف لا تفارق مخيلتي لحظة واحدة، على الرغم من أنني أحاول جاداً أن أهرب منها... وكذلك صورة صديقي جورج الذي لا شك أنه الآن يتمزق قلقاً عليّ وينتظر أخباري على أحر من الجمر...!

–ما موضوعكم المفضل للقراءة ؟! سألت متعمداً تغيير مجري الحديث !

–كنا، زوجتي وأنا، نقرأ كل كتاب يمتدحه النقاد، في أي موضوع كان ؛ ولكن كل قراءاتنا في السنة الأخيرة كانت عن الشرق الأوسط، بجميع بلدانه وكل نواحي حياته ! لقد جاءت شيلا مساء أحد الأيام وأعلمتني بأن بروفيسور من الشرق الأوسط يدرّس في الجامعة تاريخ وحضارة الشرق الأوسط، راجع الطبيب اليوم لمعالجة أسنانه، وذكر أمامها أشياء في غاية الغرابة بالنسبة لنا هنا في أميركا ! لقد وجدناها نحن ، زوجتي وأنا، في غاية الاستمتاع...! توقف لحظة لتخرج من بين شفتيه ضحكة حيرى، ثم تابع:

–مثلاً؛ أنه رغم بلوغه الثامنة والعشرين من عمره، لم يزر طبيب أسنان في حياته، وأن هذه أول مرة يزوره بها... وأن الناس في بلاده لا يذهبون إلى الطبيب إلا إذا شعروا بالألم أو مرضوا... وأن الفحص الاحترازي لم يعرفوه بعد... وإن بعض الناس في القرى، يذهبون إلى الحلاق ليعالج لهم أسنانهم و... و...إلخ !

لم يكن الزوج ينظر إلى زوجته وهو يتكلم، إذ كان مركّزاً كل اهتمامه عليّ... ولو أنه نقل طرفه إلى حيث تجلس زوجته، لرأى ناراً تخرج من عينيها وموجة من العرق الساخن تغطي كل وجهها وعنقها، ولرأى تورّد خديها واحمرار أذنيها !

لقد لاحظت من الاختلاسات التي كنت أسرقها إلى وجهها، بأنها كانت تحاول جاهدة، بنظراتها وحركات شفتيها أن تجلب انتباهه لتوقفه عن الكلام...! لا شك أنه أخجلها وأحرجها جداً...!

–لقد امتدحتك كثيراً وتحدثت عنك طويلاً، فقالت بأنك مثقف ثقافة واسعة، وأنك ممتع جداً، كما وأنك مرجع في قضايا الشرق الأوسط !

التفتُّ أنا إلى الزوجة التي كان وجهها مسرحاً لشتى الانفعالات؛ فقلت بخجل وتواضع مبالغ بهما:

–لا شك بأنك يا سيدة روبنسون قد قيّمتني بأكثر مما أستحق ! إن هذا يدل على طيبة معدنك وعمق أصالتك، فشكراً لكِ على ثقتك بي !

–بعد العشاء وفي نفس ذلك اليوم؛ ذهبنا إلى المكتبة العامة واخترنا مجموعة من الكتب التي تتحدث عن الشرق الأوسط، تاريخه... جغرافيته... حضارته... اقتصاده... عاداته وتقاليده... دياناته... كل شيء ! ومنذ ذلك الوقت ونحن قلما نقرأ شيئاً عن غير الشرق الأوسط، حتى الروايات والقصص تختارها شيلا لمؤلفين لهم خلفيات شرق أوسطية؛ وخصوصاً مشكلتكم مع جارتكم الجديدة ! إنه موضوع شائك ومعقد جداً، وشيق معاً...! فشكراً لحبيبة القلب التي غرست في نفسي هذه الهواية الممتعة ! لقد ازددت ولعاً بتلك البقعة من العالم، كلما ازدادت قرآتي عنها...! قال الزوج وأتبعها بضحكة هادئة...!

–إذن أستطيع أن ألجأ إليكما إذا اعترضتني مشكلة من مشاكل الشرق الأوسط. قلت مبتسماً.

–تستطيع أن تلجأ إلى زوجتي فهي مداومة على القراءة أكثر مني ! قال السيد روبنسون.

–أنا ما زلت طالبة ! معلوماتي بسيطة ومتواضعة ! قالت الزوجة ثم شربت بعصبية رشفة كبيرة من كأسها؛ وعندما نظرتْ إليّ بعد أن ألقت بكأسها على الطاولة، شعرت وكأنما أطلقت عليّ سهمين آخرين من عينيها الساحرتين، فصرعتني من جديد... !

أطلقي على قلبي سهام عينيك يا بنت داوود، وخدريني بسحرهما ودفئهما...! بمثل هذه الأفعال باع بعض من بني قومي أرضهم في كنعان، ليصرفوا أثمانها على أخوات لكِ... ينشدون الدفء والمتعة بين أحضان بنات فاتنات مثلك ! ألست أنا واحداً منهم وأتصرف مثلهم...؟! فها أنا أسلك نفس الطريق التي سلكوها، وقد أقع في الفخ مثلهم... أنا الذي كنت ألومهم وأسخر منهم، بل وأحقد عليهم...!!

–إن حبيبة القلب شيلا دائماً متواضعة فيما يتعلق بإنجازاتها العلمية، وهذه ميزة من عشرات الميزات الرائعة التي تزيدني حباً لها وشغفاً بها كل يوم...! ومشى بجسمه على الكنبة نحوها حتى التصق بها ولفّ يده اليسرى حول خصرها وشدها إليه:

-لقد كانت دائماً الأولى في كل صف تدرسه أو موضوع تأخذه، حتى كنت أغار من حب أساتذتها الرجال لها ، للعناية والاهتمام الشديدين اللذين كانوا يولونها إياهما... !

-إن جيمس دائماً يقيّمني بأكثر مما أستحق ! قالت ذلك وألقت بنفسها على صدر زوجها، ثم رفعت وجهها نحو شفتيه وأضافت:

-إنك دائماً أيها الحب الكبير تعتبرني مثالية في كل شيء، وأخشى يا حبيبي أن تكون متحيزاً في بعض الأحايين... !

" لا شك أن الويسكي قد خفّف من أحقادك، وليّن من عواطفك، وأذاب بعضاً من جليد الحقد المتحجر حول قلبك، يا أخت جولدا مائير...! "

-هذه ليلة من ليالي العمر التي لا تُنسى ! لقد جعلتماني أشعر وكأنما أنا في الوطن، بين أهلي وأصدقائي ! قلت متوجعاً مكسور الخاطر نازف القلب.

-زوجتي وأنا يسعدنا جداً سماع هذا، ونطمع أن يكون لها ليال مثيلات كثيرة !

-نشكرك لتلبيتك دعوتنا الليلة، لقد أمضينا وقتاً ممتعاً حقاً ! قالت بنت داوود بعفوية، ولعلها تذكرت فعلتها معي عند حضوري فأردفت:

-حقاً؛ لقد برهنت على أنك إنسان شهم وذو أخلاق عالية ! أنا آسفة جداً لـ...! ولربما وجدت أنه من الأنسب عدم نبش الماضي فلم تكمل جملتها !

"لم يكن هذا رأيك بي عند حضوري هذا المساء، يا ابنة صناديد التعصب العنصري؛ بيجن وشارون وشامير ونتنياهو؛ ولكن شكراً للوسكي الذي جعلك تنسين حقدك عليّ واحتقارك لي، ولو لبعض الوقت!"

-أنا الذي أشكركما على هذه الليلة الممتعة...! إنها من إحدى الليالي القليلة التي شعرت بها بالصميمية الخالصة والودّ الصادق، منذ أن وطأت قدماي أرض كاليفورنيا...! قلت صادقاً!

-إن هذا يدخل السرور إلى نفسينا، ويسعدنا كثيراً! قال الزوج هذا، ثم نظر إلى ساعته وأضاف:

-الساعة الآن تقترب من الثامنة، ولا شك أنك تتضور جوعاً!

-لا شك أنك تمزح! قلت وقد رفعت لتوي يدي عن فمي بعد أن أسقطت فيه لقمة من المقبلات المتميزة والعديدة والتي ما زلت أمضغها!

-وهل من عشاء الليلة بعد كل ما حشينا به بطوننا من مشهيّات ومقبلات؟! لقد ظننت أن ما نأكله هو العشاء نفسه! قلت محاولاً أن أكون ظريفاً! واستغرقنا ثلاثتنا بالضحك.

-إذن، نؤجل العشاء ساعة أخرى، إذا كان لا مانع عند حبيبة القلب!

-لا بأس! نؤجله حتى ساعة تشعران بالجوع! علّقت "حبيبة القلب!
"

-قرأت في إحدى القصص عن بلادكم ؛ بأن رجلاً عاتب صديقه وهو يتمزق حزناً، أن كيف تخونني مع زوجتي ونحن بيننا خبز وملح؛ فأجابه الصديق ؛ بأن الشيطان الملعون قد أغواه ولعب في عقله؛ فأجابه الأول، بأننا نحن الذين خلقنا الشيطان في عقولنا، وأنه من صنعنا نحن وليس أحد سوانا؛ وأن التذرع بأن الشيطان هو الذي أغرانا لأن نتصرف تصرفاً مشيناً، إنما هو عبارة عن علاّقة نعلق عليها عيوبنا وأخطاءنا، ونتستر وراءها عن قباحاتنا وآثامنا...! قال السيد روبنسون.

-يؤمنون في الوطن أن الذين يأكلون طعاماً معاً، يجب أن لا يخون ولا يخدع ولا يغش أحدهما الآخر، مهما كانت الأسباب والدوافع؛ وكانت العادات والتقاليد تبيح أحياناً قتل من لا يحفظ هذا العهد ! قلت.

ارتجفت الزوجة... وعلت الدهشة وجه الزوج !

-وهل يتقيد الناس بمثل هذه العهود في أيامنا هذه ؟ ! أعني يحافظون على العهود؟! سألت الزوجة بصوت متقطع فزع.

-نعم، البعض يحفظون العهد، وهناك قلة، لا يحترمونه ! جميع العادات والتقاليد الجيدة استبدلت في هذه الأيام... القيم والأخلاق صار الناس يفسرونها على أهوائهم وحسب رغباتهم... أما في الماضي فكان الكثيرون يعتبرونها موروثات مقدسة،ويتمسكون بها !

-إنها عادات ممتازة ! حبذا لو نطبقها في العالم هذه الأيام !قال الزوج.

" ماذا تعني يا صديقي ؟! هل تريد أن تقول لي بأن لا أقدم على خيانتك مع زوجتك هذه؟! ألم تر بأم عينيك كم قاسينا وتعذبنا معاً، أنت وأنا، هذه الليلة، حتى قبلت الحقودة الشرسة، حتى الجلوس معنا ؟!

اطمئن يا صديقي... لا داعي للقلق...! المسألة ليست بالسهولة التي تتصورها...! ثم أن هناك سراًّ أريد أن أبوح لك به، وهو أنني منذ قابلت زوجتك قبل شهور، وعلى الرغم من كل ما تتمتع به من سحر وجمال وأنوثة وجاذبية، فإنني، والله، والله ، والله ؛ ما تصورت نفسي حتى أقبلها... مجرد قبلة ! " تساءلت بيني و بين نفسي !

-أظن يا عزيزي أن العالم اليوم ينحدر إلى الهاوية، بسبب تخلينا عن قيمنا ومعتقداتنا القديمة الجميلة ... إن العالم مملوء هذه الأيام بالشرور والآثام والفساد ! قالت الزوجة بحسرة !

"والتلمود الذي يبيح لليهودي سرقة وسلب ونهب كل ما عند الغير، ويحلل لك ذبح كل إنسان غير يهودي وتقديم دمه قرباناً للإله "يهوه" ؟ ! أليس هذا في رأيك أفظع الشرور وأشد الآثام...؟! " تساءلت ثانية !

وفجأة تحسست سكين الكشّاف في جيبي، السكين التي أعطاني إياها صديقي جورج مونتكيو لأدافع بها عن نفسي عند الضرورة، فحركت يدي وقدمي ورأسي، بل وكل جسمي؛ وتأكدت من أنني مسيطر سيطرة تامة على عقلي وبقية قواي ، وأنني أستطيع، وبكامل قوتي ، أن أدافع عن نفسي وأحميها !

-أظن أنك مسلم يا بروفيسور دهشان ؟! قال الزوج باستحياء وتردد.

هززت رأسي بالايجاب... ولم ألاحظ أي تغير على وجهي الزوجين، وكأنما كانا يتوقعان بل يعرفان ذلك مسبقاً... وهممت أن أسأله، إن كان داوودياً متعصباً مثل زوجته، أو أنها هي فقط، الصهيونية العنصرية الحاقدة ؟!

-وأنتما ؟! سألت مع أنني أعرف الجواب مسبقاً !

-زوجتي وأنا مسيحيان "بروتستـنتيان" ! قال الرجل بهدوء وتأنٍ !

صُعقت... ذُهلت... جُننت... أُغمي عليّ... فتحت فمي... حملقت عيناي... احمرّ، اخضرّ، اصفرّ، ازرقّ، بهت لون وجهي... ارتعد جسمي... رقصت فرائصي... ارتعب قلبي بل انهلع... رقصت جوانحي... انعقد لساني... صرخت من أعماقي في أعماقي... وقف شعر رأسي... اصطكت ركبتاي... تلخبط كياني... ! لقد حدث لي كل هذا معاً... وخلال لحظات... !؟

-وهل أفهم من اندهاشك هذا أنك فكرت أننا مسلمان مثلك ؟!
سألت الزوجة وهي تسدد إليّ عينين صافيتين رقراقتين، وبطريقة مازحة وعلى شفتيها ابتسامة حزينة حائرة !

ضحكت بمرارة.. بألم... بحزن... بتمزق... ضحكة لا لون لها ولا معنى... ضحكة مشتتة تائهة... جوفاء كأنما أبكي ! ضحكة باهتة كلون خرقة أمضت عاماً كاملاً تحت حرّ الشمس وتقلبات الجو ! لم أفتح فمي ولم أقل شيئاً، فقد لجمت... تعطل كل ما بي من حواس... فقد حملقت بالمرأة عميقاً وطويلاً، وبعيون جامدة... نظرات فارغة... ميتة... لفترة لا أدري كم طالت... والزوجة تحوّل نظراتها عني إلى زوجها... ثم تعود وتنظر إليّ لتجد أنني ما زلت أحملق بها...! وأخيراً أدركتني رحمة السماء، فنزلت من عيني دمعتان كبيرتان، خلتهما أكبر من صخرة كنت أجلس عليها ليلاً، ولساعات طوال، أفكر وأفتكر، أحلم وأتأمل، أناجي القمر والنجوم، ثم أبكي أحياناً... بحرقة... بعذوبة... بنكهة طفولية... أفكر يوم كنت طفلاً في كرم عنب لنا، في الوطن... أفكر بزيْنة...! آه زيْنة...! أين أنتِ الآن يا زيْنة ؟! لقد سرقوك من أحلامي... من ذكرياتي..!! لقد اختلسوا طفولتي بغفلة مني... تباً لهم وسحقاً...! اللعنة ! اللعنة ! لقد ابتلانا القدر بالعشق الملوّع، ونحن أبناء أربعة عشر عاماً...!

وأخيراً فتح الله علي فقلت وأنا كالمنوم لا أعي ما أقول:

-طبعاً لا! أنا أعني... أعني... أعني منذ متى وأنتما مسيحيان ؟!

ظننت أن يقول الزوج بأنه مسيحي أصلاً، أو أنه تحول إلى المسيحية منذ فترة يحددها؛ ولكنني كنت واثقاً من أنه سيقول بأن زوجته ولدت داوودية... صهيونية... ورضعت مع الحليب تعاليم التلمود و "حكماء صهيون" وكل معتقدات بني قومها الغلاة، وتعلمت مع الحروف والكلمات كراهية العرب والمسلمين، وفكرة إبادتهم وقلعهم من جذورهم، وإلقائهم في صحراء حفر الباطن... !

-منذ أزمان بعيدة ! منذ أجداد أجداد أجدادنا... ربما منذ أكثر من ثلاثمائة عام. لقد حضروا من هنغاريا إلى أمريكا، مع الهجرة الأولى ... كانوا مسيحيين...!

تجمدت فوق الكنبة، وغلى الدم في عروقي أكثر من السابق، والتجم لساني ثانية، وطارت الكلمات من عقلي من جديد، ولم يفتح الله علي بحرف أتفوه به !!

–إن والد شيلا قسيس كنيستنا في مدينتنا الصغيرة بولاية مزوري. تابع الزوج.

" إذن لم كل هذا الحقد المتأجج والكراهية المسعورة لي يا شيلا، ما دُمت غير صهيونية؟! قولي بربك... انطقي...! انطقي! انطقي يا امرأة! انطقي قبل أن يفلت زمام أمري ولا أستطيع التحكم بملكاتي... فأصيح من أعماقي... فأجنّ... وأخرج إلى الشارع وأجري به على غير هدى...! لقد عاملتني ككومة من القاذورات حالما وقعت عيناك علي... لماذا؟! أعلميني السبب أرجوكِ... أستحلفك بالسيد المسيح الذي يقضي والدك حياته في خدمته... وبالعذراء التي حملت من روح الله ! لا بد وأن يكون هناك سبب، فما هو إذا لم يكن كوني عربياً وأنك يهودية...؟! هل لأنني لست من أصل أوروبي ؟! أو هل لأنني واحد من أبناء الشعوب المتخلفة...؟! لكن لا يمكن لابنة رجل دين يدعو إلى الإخاء والمساواة والمحبة، أن تحمل مثل هذه الأفكار الحاقدة العنصرية والمتطرفة... ! "

كانت كل هذه التساؤلات تدور برأسي و أنا أحدق بها مذهولا !

مسكتني المرأة أحملق بها وعيناي تكادان تطيران من محجريهما؛ جامدتين كعينين مرجانيتين مغروستين في وجه تمثال ! حوّلت نظرها عني لبرهة، ثم عادت وسلطته علي ثانية، فوجدتني ما زلت أحملق بها مشدوهاً مذهولاً، فاغر الفم كالأبله...! لا شك أنها عرفت سرّ ذهولي وحيرتي فقد لاحظت أنها تهزّ رأسها بحيرة وتأمل، وكأنما تقول؛ سامحني يا يسوع ! اغفر لي يا رب ! لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم! إذن ليتها تعلمني... أو ليتني أستطيع أن أسألها...!

أغلقتْ عينيها بقوة، ثم فتحتهما، فنزلت منهما دمعتان كبيرتان بحجم حبتي الحمص... ! لقد رأيتهما بعيني هاتين وهما تنسابان فوق خديها !

–- اعذراني ! أريد أن أعدّ المائدة ! قالت وهي تنهض على عجل بعد أن أفرغت بعصبية نزقة في جوفها كل ما كان بكأسها !

تمنيت لو أنها لم تغادر... وأن تذرف دموعاً أكثر وأغزر... فقد شعرت كأنما أحدهم انتزعني من حلم لذيذ... لذيذ... لذيذ... !

نهضتْ بخفة الفراشة... ورقة الأحلام... ونعومة الطيف... ورشاقة الغزال... ودخلت المطبخ... ولحقت بها نظراتي ودخلت خلفها... وكنت ما زلت أصرخ في أعماقي بصوت حبيس مسعور محموم ؛ قولي لي بربك ما سرّ هذا التصرف الغريب يا امرأة... ما زلت لست من بنات داوود...؟! انني أدفع عمري كاملاً يا شيلا، وفي هذه اللحظة، لو تعلميني السبب...!؟ أرجوك قولي... قولي يا امرأة ! إن بيني وبين الجنون شعرة رفيعة !

شعرت بادىء ذي بدء بأنني بدأت أتحول إلى بركان قاذف مستعر من العواطف الثائرة الملتهبة... ثم برغبة عارمة محمومة للصراخ والانفجار وكأنما مسني سعار... ثم إلى حنين جياش ملتاع إلى الوطن وأهله... إلى الصدر الحنون... صدر أمي...!

نهضت كالملدوغ إلى الحمام، ودون حتى أن استأذن من مضيفي، أغلقت بابه بالمفتاح... أخرجت منديل قماش من جيبي... حشوته كله في فمي... وضعت كلتا يدي فوقه بإحكام... ناديت من أعمق أعماقي، وبكل ما أملك من طاقة، داخل نفسي... وصحت بصوت مزّق حنجرتي... صوت خلته هزّ مدينة سانتا مونيكا كلها... وإن لم يسمعه أحد سواي...! اهتزّ كامل جسمي هزاً عنيفاً متواصلاً كأنما أصابته حمى معربدة، أو تيار كهربائي...! كبيت تتمدد في احشائه وتمسك به أحزمة من قضبان حديدية متشابكة متماسكة، اندلعت تحت أساساته هزة أرضية عاتية متواصلة، فصار يميد بعنف وقوة وهو يقاوم السقوط، والمعركة متلاحقة مستعرة وضارية بهستيريا مجلجلة، هو يقاوم بعناد وشموخ، وهي تزلزله بجنون وشراسة، وتصرّ على إسقاطه وأن تدوس فوقه... وأنا أصرخ في داخلي ودموعي تسفح على خديّ حارّة غزيرة... وقد ركب جسمي عفريت، مصمم على اقتلاعه... ولكنه مقيد إلى الأرض بسلاسل حديدية مثبتة بأوتاد صخرية، والمعركة محتدمة ضارية والصراع على أشده وأنا أصرخ صرخات عالية مكتومة، تهتز لها كل ذرة في جسمي... سميحا...ا...ا... ه ! سميحا...ا...ا...ه! سميحة...! سميحة...! بياتريس...!

انهمرت دموعي غزيرة... حارة... متواصلة... وبقيت أصيح وأصيح... صرخات موجعة... بياتريس ! سميحة ! صرخات صامتة يسمعها وجداني... وأبكي بحرقة وتوجد...! أصرخ وأعيد الصراخ مرات ومرات ومرات... ! وبكل

طاقاتي ومن أعماقي، ودمعي ينهمر بغزارة لفترة لم أعرف مدتها... حتى أحسست بأن كل دهن قهري وتمزقي، وشحم إحباطي وتشنجي قد ذاب وتلاشى... فسقطت على أرض الحمام منهكاً... منهاراً... محطماً ! وبقيت ممدداً على ظهري لبضع دقائق، ثم شعرت بعدها وكأنما أعطيت ابرة مخدر فاسترحت واسترخيت...!

لقد مررت بهذه التجربة الغريبة العجيبة، لأول مرة في حياتي، في الليلة الأولى التي تواجدت بها خارج حدود أرض الوطن الكبير... الحبيب... في بلاد الغربة ! إذ حالما دخلت غرفتي في الدور الثامن في فندق "شمبرلن" في شارع "أكسفورد" بمدينة لندن، وكنت في طريقي إلى أميركا ! فبعد وصولي من المطار، وبعد أن أغلقت باب غرفتي من دوني، شعرت بألم ممزق يصهر روحي وضيق في التنفس شديد... شديد... وهبوط في معنوياتي لا يوصف... ثم برعب ووحشة ووحدة قاتلة، لم أشعر مثلها يوماً في حياتي قط...! لقد أحسست بألم عنيف يمزق كياني وفزع من المجهول يسحق عظامي، ورهبة تخنقني وتكتم أنفاسي...! لقد أحسست كأن جزاراً بقطاعته الجبارة وساطوره الضخم، يقطّع جسمي قطعاً قطعاً... ثم وكأنما ألقيت في متاهات صحراء تهامة وفوق كثبان الربع الخالي أو في تخوم حفر الباطن... فأطبقت عليّ وحوش الكون قاطبة، بره وبحره، والكل ينهش لحمي ويمزق جسدي... فتراءت لي غرفة الفندق تتضاءل فتصغر وتصغر... وأن يداً بحجم الجبل وقوته استقرت فوق فمي تحاول أن تكتم أنفاسي وتزهق روحي، وأنا أحاول جاهداً بقسوة وشراسة، وبكل ما عندي من طاقات للدفاع والمقاومة، الإفلات... ولكن بلا فائدة...! بعدها أحسست أني أُلقيت في محيط ثائر هادر، في ليلة ظلماء، مقيد اليدين والقدمين وأنني على وشك أن أغرق فأختنق، وأنا أناضل بهستيريا للصعود ولكن عبثاً حاولت... وبسرعة الريح وقوة الصاروخ واندفاع العاصفة فتحت باب الغرفة ورحت أعدو إلى أسفل... إلى الدور الأول أسأل عن البار...!

لقد كنت قرأت، أن الذين يستبد بهم اليأس ويرعبهم المجهول ويفزعهم المستقبل ويصابون بالإحباط ويعانون من حالة مثل حالتي هذه، يلجأون إلى الخمرة يتداوون بها، لتنسيهم ما هم به...! وهناك... في بار الفندق،ولأول مرة في حياتي كلها... نعم لأول مرة ، رغم بلوغي السادسة والعشرين، ألتقي مع الخمرة... ! لقد تجرعت ثلاثة كؤوس من الويسكي المزدوج، أحسست بعدها بخدر لذيذ... لذيذ... في جسمي...

وباسترخاء هلامي في روحي... فترآى لي العالم غير ما عرفت والحياة غير ما اختبرت...! وعندما ألقيت بنفسي وبكامل ملابسي فوق سريري، شعرت برغبة مجنونة للضحك، فضحكت... وضحكت... بصوت مجلجل عال... ثم فجأة أحسست برغبة محمومة للبكاء... ودمعت عيناي... فبكيت... وبكيت... وبقيت أبكي وبصوت متكسر عال حتى شعرت... أن كل ما بجسمي من دم ولحم وعظم قد ذاب وتحول إلىدموع خرجت من عينيّ...!

لم أدر كم لبثت على هذه الحالة، عندما أحسست فجأة بطاقات ضخمة جبارة وغير طبيعية قد حلّت في جسمي، فشعرت بأنني صرت أقوى من شمشون الجبار، وأجرأ من مارس، إله الحرب اليوناني... إذ صار ما بداخلي يضايقني... وأنه لا بد من أن يخرج وإلا انفجرت وتفجّر جسمي، فأخرجت صرخة مدوية مجلجلة مزقت حنجرتي وقطّعت أوتار صوتي، شعرت لجلجلتها وعنفها ان أركان عمارة الفندق الراسية كجبل، الشامخة كحصن، مادت واهتزت ورقصت... وتوشك أن تنهار...! بقيت أصرخ... وأصرخ... وأصرخ... منادياً ومردداً، بصوت عال عال... مدوياً... سميحا...ا...ا...ا...ه! سميحا..ا..ا..ا..ه! سميحة!! في تلك اللحظة شعرت بأن الأرض مادت تحت قدمي وبأن الغرفة بدأت ترقص... رقصة الموت... رقصة الجنازة...! زاغت عيناي... اختلطت عليّ الرؤيا وامتزجت بما حولي... وتشابكت الموجودات والمخلوقات... واختلطالحابل بالنابل... وتساوى كل شيء مع أي شيء... وسقطت من عالم إلى عالم... وارتحلت من كوكب إلى آخر... ورأيته بأم عيني هاتين... يقف أمامي بدمه ولحمه... بضخامته وسموقه... مارداً، جبارا، عملاقاً !

حنا قامته وحرك يديه بطريقة مسرحية كأنما هو مصارع ثيران إسباني عاشق، لوّعه الفراق وأضناه البعاد، ينحني بعظمة وكبرياء وتألق، أمام حبيبة القلب آسرة العقل، وهي تجلس بين الحضور، جاءت لتمنحه وسام البطولة والإقدام...، وسام الشرف، قبل أن يدخل إلى حلبة المصارعة... فينقضّ على خصمه ويقضي عليه لينال شرف محبة قلبها وليحصل على براءة موافقتها...!

حنا لي قامته طاعة واحتراما، وكأنما ليقول لي دون أن أفتح فمي أو أتفوه بكلمة "شبيك لبيك خادمك المطيع بين يديك!" بقيت محملقاً به صامتاً، ثم اعتدل بقامته وانحنى مرة ثانية، وهزّ رأسه وأشار بحاجبيه،

كأنما ليقول لي بأنني فهمت... وتحرك... أحسست كأنما عمارة الفندق بكل ضخامتها، قد مادت تحت وطأة قدميه الضخمتين الجبارتين...! فتح الباب بكل أدب ورقّة، وأغلقه خلفه فاختفى من أمام ناظري!

لا شك أنه قد قرأ في نظراتي ما كنت أريد أن أقول له، وأية رسالة أريده أن يحملها مني ليوصلها إليها... إلى سميحة... هناك في الوطن... وليعلمها كم أنا أتعذب.. وكم أنا أختنق لبعدي عنهم... الوطن وهي والأهل...! إنني أريدها أن تعرف... بل أريد أن أؤكد لها بأنني لم أتركهم، وما فكرت يوماً بتركهم أبداً أبداً، لأنهم عندي في مكان الروح والقلب والعينين... ولكن ... هم الذين أرغمونا على ترك الوطن، وهم الذين ألقوا بنا وراء الحدود... فغادرنا وتركناهم وراءنا... هناك... حتى دون أن نودعهم...!

" وكم تشفّعت بي أن لا أفارقها، وللضرورات حال لا تشفعني ! وكم تشبثت بي يوم الرحيل ضحى، وأدمعي مستهلات وأدمعها ! ودعتها وبودي لو يودعني، صفو الحياة واني لا أودعها ! " أستودع الله في " السلطاتِ " لي قمرٌ ، بالجدعه من حارة الحدايه مطلعه !

وفجأة رأيته بأم عيني هاتين، يركب الريح ويقطع البحار والمحيطات والقارات، ثم الصحارى والفيافي والقفار، حتى وصل إلى هناك... إلى الجدعة... وتوجه صوب المدرسة الثانوية الرابضة فوق التلة كعروس عاشقة مجلوة في ليلة زفافها... وانحرف شمالاً عن الشارع الرئيسي الضيق المترب إلى زقاق منخفض، لو تقابل به اثنان لانداح أحدهما حتى يترك مسلكاً للثاني... وتجاوز الباب الأول باب "شارلوت"... ودقّ على الباب الثاني، ففتحت له "بياتريس" العربية، حبيبة سهيل دهشان وليست "بياتريس" الإيطالية حبيبة "دانتي"، ولما رأته عرفت من يكون ومن أين جاء ولم حضر... فسمعتها بأذني هاتين، تقول له بعد أن أسمعها رسالتي كاملة " بلّغ سهيلاً السلام وقل له بأنني ما زلت للوعد حافظة وللعهد وفيّة... وأنني لم ولن أنسى حبه ولا الليالي الطويلة الجميلة التي كان يقضيها تحت نافذة غرفتي... ليالي الصيف الحالمة الساحرة... وكذلك ليالي الشتاء والثلج والزمهرير القاسية...! قل له أنا ما نسيته ولن أنساه ما حييت... وأن حبه الملتهب، البريء، الطاهر، العذري، هو أجمل وأعز وأثمن كنز في حياتي... وأنه أسمى وأنبل وأقدس ما تحتفظ به ذاكرتي...! وقل له أيضاً بأنني لا يمكن أن أكون له يوماً لأسباب هو يعيها ويفهمها...!

وأعلمه أيضاً بأنني تزوجت من غيره وأصبح جسدي ملكاً لإنسان سواه... قد لا أحبه ولكني لا أكرهه.. وأنّ عليّ أن أرضى بالواقع وأحاول أن أتعايش معه... وذكّره أننا في الوطن، رجالاً ونساء، كثيراً ما نتزوج من غير حب وإنما نتزوج المتيسر...! وطمأنه أيضاً، بأن حبي العذري له... ما فارق قلبي ساعة وما غادر روحي ثانية... وأنه ما زال وسيظل مسيطراً على كياني ووجودي ما زلت حية وحتى بعد الموت...! وأكد عليه وزد في التأكيد، بأن لا تجعله مسرات بلاد العالم الجديد وحسناواته، ينسى الوطن وحبه له وواجباته نحوه... فهو دين عليه وأمانة في عنقه...!!"

بعد أن انتهى المارد من سماع رسالة سميحة لي، رأيته ينحني لها إجلالاً واحتراماً... ثم رأيته يركب الريح ثانية... يطوي المسافات طياً دون أن يتوقف أو يستريح... وفجأة بدأت أنا هنا في غرفتي في فندق " شمبرلن " ، في لندن ، عاصمة الضباب ' أتنسم عطر أنفاس الأحباب، وأستنشق رائحة بخور الوطن التي علقت بجسم المارد، فأشم أريج الزعتر والدفلى والزعرور والشيح والقيصوم... فعرفت أنه دخل حدود بريطانيا...! وما هي إلا لحظات حتى سمعت العمارة الفخمة تهتز من جديد، وتخرج أصواتاً كقعقعة السنان، ورأيته، بأم عينيّ هاتين، يدخل عليّ غرفتي كنسمة باردة عليلة، مضمخة بالعطر، عابقة بأنفاس الوطن...! انحنى بوقار فتبادلنا النظرات... شكرته صامتاً، فرفع قامته وأحناها مرة ثانية كأنما ليقول: دائماً في خدمتك ! وفجأة، اختفى...!

لا أدري كم من الوقت قد انقضى، عندما تبينت نفسي ملقى على ظهري، بكامل ملابسي، فوق السجادة أمام سريري في فندق " شمبرلن " ، ورأسي أثقل من جبال القدس، وصداع مخيف مزلزل، يحرق عظام جمجمتي...!

منذ ذلك اليوم، وبعد أن حللت ترحالي في كاليفورينا... إذ عندما يستبد بي الشوق للأهل والأحبة والوطن... ويهزني الحنين وتندلع نيران الهوى المبرح والصبابة المستعرة في قلبي، وعندما ينتشر سعار الفراق وأوار البعاد في جوانحي... وعندما أحس بالضيق والاختناق... أرمي في جوفي بضعة كؤوس من الويسكي، وأحكم إغلاق باب شقتي... أحشر منديلي القماشي في فمي، وأضع راحة يدي فوقه وبإحكام... ثم أقف في وسط الشقة بعد أن أغلق جميع النوافذ وأصيح بأعلى صوتي وبكل طاقاتي... أصيح وأصيح حتى يبح صوتي ويتورم حلقي وتتمزق أوتار

حنجرتي... سميحا..ا..ا..ه !! سميحا..ا..ا..ه !! فأظل أعيد وأردد، وأردد وأعيد.. أصيح وأصيح وأصيح... حتى أشعر أن جسمي كله قد تحول إلى سائل ملتهب، كالحمم التي تقذف بها البراكين، وأنا أصرخ وأزيد في الصراخ بأعلى صوتي وبكل طاقاتي... ثم أحس أنني انتقلت إلى حالة من الهلامية التصوفية، فأشعر بخدر ثقيل في جسمي وعواطفي وأحاسيسي... فأتحول إلى حالة تهويمية...! عندها أشعر أن كل دهن قهري ودمامل إحباطي... وكل شوقي وولهي... قد تحول إلى دموع خرجت من مآقيّ...! ثم أسقط فوق فراشي... وسيل من الدموع الحارة يسبح فوق خدي... أبكي بصمت، الوطن السليب والحبيب الهاجر والأهل البعيدين... البعيدين !

لقد بدأت أمارس هذه العادة منذ وصولي إلى كاليفورنيا... وكلما أحسست بالاختناق شوقاً للوطن وأهله ! من الغريب العجيب أن هذا المارد لا يظهر لي ولا يتقدم لخدمتي، إلا بعد أن أكون قد شربت كمية كبيرةً جداً من الكحول؛ عندها فقط أراه يقف أمامي شامخاً متألقاً: يعرض عليّ خدماته !

لقد أصبحت هذه الطقوس المراسمية، الزاد الذي أتزود به ليساعدني على الاستمرار ومواصلة الكفاح والتصبر وتحمل آلام الغربة والاغتراب...!

إنني عندما يعود المارد من رحلته إلى الوطن، أكون أنا قد أخرجت كل ما بداخلي من قهر ومعاناة وإحباط... ونوّمت كل ما هو مستعر في قلبي وجوانحي من الأشواق... وخدّرت كل ما يستولي عليّ من حنين وتوجد... وأفرغت كل ما في جوفي من غليان وثورة وجيشان... وأخمدت كل ما بداخلي من براكين وحمم...! عندها، فقط عندها، أفقد الوعي وأنام ساعات طويلة كطفل صغير، أنهض بعدها وقد نسيت تماماً كل ما مرّ بي...!

إن سميحة هي تعويذتي التي أحتمي بها عندما تلم بي الأزمات العاطفية المبرحة... وهي إنجيلي الذي أتلوه عندما يجتاحني الشوق المضني والحنين المدمر...! إنني عندما يبلغ الإحباط مني ذروته، وفقدان الأمل منتهاه، فإنني أغلق عليّ باب شقتي، وأناديها بأعلى صوتي، وأظل أنادي وأنادي، حتى ينهار جسمي، فأسقط على الكنبة منهوك القوى، خائر العزيمة... !

* * * * *

كنت وأنا أجلس بين السيدة روبنسون وزوجها على مائدة الطعام، كالمريض الذي بدأ يتماثل للشفاء بعد رقود طويل في الفراش دام شهوراً وبدأ فترة النقاهة... لقد أحسست لعنف ما قاسيت عاطفياً، بتعب شديد، وإنهاك مضن وإنني شبه مخدر...!

-والآن أخبرني يا بروفيسور دهشان، بصراحة وصدق ولا تجاملني، هل أعجبك طبخ زوجتي ؟! سألني الزوج وهو يبتسم وينقل طرفه بين زوجته وبيني، وكنّا قد قطعنا شوطاً في تناول العشاء!

أجبته بعد أن رفعت كأس النبيذ من على فمي وما زلت ممسكاً به:

-كنت دائماً أعتقد أن والدتي أمهر طباخة في الوجود، وأن طبخها ليس له مثيل على هذه الأرض، وأنه لا يمكن أن يولد من ينافسها في الطبخ... ولكن عندما كبرت أختي أميرة، وأخذت مكان والدتي في المطبخ، بعد أن شاخت والدتي، شعرت أن طبخ أختي لا يقل لذة وجودة وإتقاناً عن طبخ والدتي ! وأقول لك الآن بكل الصدق والصراحة... إنني لم أذق في حياتي كلها، خارج طبخ والدتي وأختي، لا هنا ولا في الوطن، ألذّ وأشهى وأكثر نكهة من طبخ السيدة روبنسون... ! وكنت صادقاً فيما أقول!

احمرّت وجنتا الزوجة، صارتا ترقصان وانزرعت ابتسامة دافئة حنونة على شفتيها... اتقدت عينا الزوج بهجة، وغطّت وجهه ابتسامة عريضة جذلى...!

-كنت أعتقد أن حبي العظيم لشيلا واحترامي اللامتناهي لها، يجعلني أحس أن طبخها أتقن طبخ، وأكلها ألذّ طعام في العالم...! لقد سمعت الكثيرين يثنون عليه فكنت أظنهم يجاملونني؛ وبعد شهادتك الآن، فقد تأكد لي بأنني لم أكن متوهماً ولا محابياً...!

" ما أكثر ما تجاملني يا رجل... ! إنك تتملقني وتحابيني كثيراً كثيراً... ! لا شك أنك تريد مني الكثير... الكثير ! ثم أن زوجتك ليست فقط طباخة ماهرة، إنها أيضاً أرقّ وأدفأ امرأة عرفت ! إنها السحر الحلال مجسمة، فلتهنأ بها ولتهنأ بك، فاشكرا نعم الله عليكما يا صديقي ! "

-أنا سعيد جداً أنّ شهادتي قد رجّحت قناعاتك ! قلت صادقا !

-لقد علّمتها والدتها الطبخ منذ نعومة أظفارها، كما علمتها فضائل أخرى كثيرة جداً !

-إنكما ستجعلانني أصدّق ما تقولانه عني ، فيصيبني الغرور ! قالت الزوجة بدلال ورقة وبشعور الأنثى التي تعلم أنها جميلة وجذّابة... وتعرف أيضاً وقع سحرها وغلاوتها على الفحول المحيطين بها...!

نظرت إلي الزوجة التي كانت تتكلم دون أن ترفع رأسها عن صحنها، وقد ازداد احمرار وجنتيها... فقلت وقد بدأت أحس أن مفعول النبيذ قد نقلني إلى ذروة السعادة والحبور والهلامية أيضاً...:

-لست أدري ماذا كنا سنفعل نحن الرجال، لو أن الله لم يتكرم علينا، ويمنحنا المرأة والنبيذ...! لا شك أن الحياة ستكون مقرفة مملة، وستكون جفافاً وقحطاً... بل أكثر قحطاً من صحراء الربع الخالي... ! إنني لا ألوم أبانا آدم، بل أجد له كل العذر، عندما لم يرفض طلب أمّنا حوّاء بأن يأكل من الشجرة المحرمة ! قلت برأس مثقل وأنا أمطّ كلماتي مطا وقد أثقلني السكر !

قهقه الزوج وضحكت الزوجة برقة أحسست أنها تدغدغ أعطافي وتلهب مشاعري !

-لو أن سيدة البيت مالكة قلوب الرجال والجالسة على عروشهم؛ تطلب مني الآن أن ألقي بنفسي من النافذة إلى أسفل، لما ترددت لحظة واحدة في تنفيذ طلبها ! تابعت.

-لم أكن أعرف أنك تعزّ زوجتي إلى هذه الدرجة ! قال الزوج وهو ما يزال يقهقه !

-شكراً يا بروفيسور دهشان ! إن ولاءك لأصدقائك متميز، ووفاء مثل وفائك نادر في هذه الأيام ! قالت الزوجة وقد رفعت عينيها عن صحنها، ونظرت إلى وجهي بجسارة لم أعهدها من امرأة !

-لقد منحنا الله النبيذ مع المرأة لنحتسيه ونحن نتعبد في محراب حبها... ونصلي إجلالاً في حضرتها... ! قال الزوج ونظر إلى زوجته نظرات ولهى كعاشق لمّا يلتحم بحبيبته بعد... ثم أضاف:

-لقد نسيت يا بروفيسور دهشان أنه خلق لنا كذلك الأزهار والورود لنقدمها لها... والفراء لنحتضنها به... وكذلك الموسيقى لنراقصها على أنغامها...! ثم أسند على حافة الصحن ما بيديه من شوكة وسكين، وصار يحرك يديه وجسمه، ويهز رأسه فوق مقعده، وهو يتأمل وجه زوجته كعاشق برّحه الشوق، وكأنما هو يراقصها ويضاجعها معاً...!!

لقد تأكد لي بأن الزوج قد فقد السيطرة على عواطفه... وأوصله التهيج الشبق واحتدام الشهوة درجة من الصعب كبح جماحها، فخيل إليّ، كإنسان مسحوق محروم عاش في مجتمع متعصب متزمت... مجتمع " التابوهات" ؛ مجتمع الشيخ عفيف والشيخ عبدالحليم؛ ولدا زيد الكيلاني ، بأن الزوج سيستأذنني ويحمل زوجته بين ذراعيه ويأخذها إلى غرفة النوم... !

شعرت بحرج شديد سرعان ما هاجمت كل ذرة في جسدي موجة من العرق الساخن... ثم تحولت بكاملي إلى كتلة من الشهوة المستعرة، وتمنيت لو أن لي امرأة مثله، أستطيع أن أحملها الآن إلى الفراش... ولكن ليست الزوجة ! لا أدري لماذا ؟! لقد شعرت بتقزز ونفور وقرف وأنا أتصور نفسي أعانقها حتى مجرد معانقة... ! تماماً كما يشعر إنسان يضاجع أحد محارمه ؟! يا له من شعور غريب عجيب ، أحسسته في تلك اللحظة !

إن مغازلة الزوج لزوجته، أمام كل ما سواهما، في شريعة المجتمع الذي أتيت منه، رخص وتبذل، وضعف في الشخصية أيضاً، يفقد الرجل احترامه وهيبته ورجولته، ويجعله ضعيفاً أمام الآخرين، وسخرية لمن يعرفونه...! إظهار عواطفنا لمن نحب... لمن نقدس... لمن نهيم بهنّ... أمام الناس عيب... بل عار ! يا للمتناقضات !

–لا يمكن أن يخلق الله المرأة دون الرجل، وإلا من أين تتوالد الناس وتتكاثر ؟! قلت.

–وماذا لو أن الله قدّر وجعل الرجال ينبتون ويتكاثرون كالنباتات ؟! قالت الزوجة بغنج ودلال وهي توزع نظراتها بين زوجها وبيني وتبتسم !

–وهل تريدينني يا ملاكي، أن أقضي عمري كله هائماً في بلاد الله الواسعة أبحث عنك ؟! قال الزوج وهو ينظر إلى زوجته نظرات تدله وتعبد وتهجد !

–وكيف تبحث عني وأنت لم تعرفني ؟! سألت الزوجة وقد اشتعل خداها وظهرت حبات من العرق الساخن فوق جبينها، إذ لا شك أنها هي الأخرى قد اجتاحتها شهوة عارمة، تماماً، مثلنا نحن الرجلين !

رغبت بل تمنيت من أعماقي، لو أن الرجل يطلب إلى زوجته أن ترافقه إلى غرفة نومهما... ! لا شك أن ذلك سيخفف عني قسوة المعاناة والتوتر...!

-صدقيني يا حبيبتي أنني كنت أعرفك قبل أن تولدي... وأنتِ ما زلت في رحم الزمن وضمير الغيب ! قال الزوج بإخلاص وعلائم الجد والاهتمام تعلوان وجهه، كأنما يدلي بشهادة في قضية حساسة !

" الله ! الله يا سيد روبنسون ! في الوطن، بلد التخلف و"التابوهات"، يتخلى بل ينسى الحبيبان المغازلة والرومانسية بعد الزواج... وهنا، في بلد التقدم والحريات، يؤجج التحام الحبيبين الجسدي والتصاقهما ببعض، العواطف والمشاعر ويغذيان المغازلة والرومانسية...! ما أجمل ذلك ! يا لنا من أمّة جاهلة متخلفة ! إن كل شيء عندنا يسير بالطريق المعكوس وطبقاً للمفاهيم المغلوطة...! المرأة عندنا قطعة أثاث جميلة يشتاق ويحنّ الرجل لامتلاكها... وعندما يشتريها يتوقف شوقه وحنينه إليها...! أما عندهم، فبعد أن يحصل عليها يظل يرعاها يغذيها وينميها... تماماً كحوض من الورود أو الزهور...! ما أشقانا وأسعدكم ، وما أغبانا وأذكاكم ! "

-إياك أن تعتقد يا بروفيسور دهشان، ولو للحظة واحدة، أن جميع الأميركان المتزوجين يحبون ويقدرون، بل حتى يعاملون بعضهم بعضاً، كما نفعل شيلا وأنا ! يشعر الكثير من الرجال والنساء بقحط عاطفي مدمر، حتى وهم ملتحمون مع نصفهم الآخر بالفراش ! المرأة كالنبتة تحتاج دائماً إلى السقاية، وإلا يبست وماتت، وسقاية المرأة، في رأيي هي الحب والاحترام والمغازلة ! كما أن الرجل بحاجة إلى لمسات حنان من أنثاه!

" يا لك من ذكي يا رجل ! لا شك أنك قد قرأت أفكاري، وإلاّ لما قلت هذا! إنني لا أظن أنك ساذج كما كان قد تراءى لي، ولا أفكر أنك طيب القلب كما كنت أعتقد... ! "

خفت أن يكون الزوج قد أفرط في الشراب وفقد السيطرة على نفسه... إذ قد أفرغ ما تبقى من القارورة في كأسي وتوجه إلى المطبخ... ولكن بخطى ثابتة مستقيمة... وعاد يحمل قارورة أخرى قدمها إليّ باحترام، بعد أن طلب مني أن أفتحها، وللمرة الثانية قدمتها بدوري إلى الزوجة، بعد أن نهضت متثاقلاً وانحنيت أمامها احتراماً، طلبت إليها أن تفتحها ففعلت، ثم منحتني ابتسامة زادت في اشتعال النيران في دمي... !

-النبيذ رائع جداً ! هذه أول مرة أتذوق بها نبيذاً بمثل هذه اللذة... إنه طبعاً أميركي! قلت.

–لا، إنه فرنسي! قال الزوج وهو يضحك ! هززت رأسي عدة مرات وكأنما أقول له فهمت...! ولعله قرأ ما يجول بخاطري فأضاف:

–صدقني كلنا عندنا عقدة الأجنبي... في بلادكم وبلادنا... نحن دائماً نعتقد أن ما عند الآخرين هو خير مما عندنا ! هناك مثل يقول؛ بأن العشب دائماً أكثر اخضراراً على الجانب الآخر من الجبل !!

ثم تبادل النظرات مع زوجته كأنما ليستأذنها فيما يريد قوله، إذ لاحظت أنها هزّت رأسها علامة الموافقة وكأنما تسمح له بالاستمرار بالحديث.

–يعتقد البعض أن شرب النبيذ الفرنسي مع العشاء أكثر صميمية ورومانسية...! ثم تردد قليلاً قبل أن يضيف:

–لقد فكرنا، زوجتي وأنا، أنه زيادة بالترحيب بضيفنا العزيز نشرب الليلة نبيذاً فرنسيا... نوعاً نادراً... مع الطعام !

" كيف تقول يا صديقي بأنك أنت وزوجتك اخترتاه لي، وهي لم تكن حتى تعرف أنني أنا المدعو...؟! ألم أقل لك بأنك تتملقني كثيراً ؟! "

ولعله أدرك ما يجول بخاطري فاستدرك وهو يبتسم:

–لقد كانت زوجتي تعرف أن ضيفنا الليلة هو ضيف عزيز علينا... أعني عليّ... وأنه يهمني كثيراً أن يمضي معنا وقتاً ممتعاً... وإن لم تكن تعرف من يكون !

–شكراً... شكراً جزيلا... لقد غمرتماني بلطفكما... إذ جعلتماني أشعر كأنما أنا في الوطن ! قلت.

–نحن المدينان لك بالشكر بأن تكرمت وقبلت دعوتنا...! أحسست الصدق في لهجته!

–إنك لا تتصور سعادتي بالتعرف عليك!! قلت أنا الآخر صادقاً.

–نأمل أن تتعمق صداقتنا وتتجذر...! ولما لم أعلق سأل:

–وهل تصنع بلادكم نبيذاً جيداً؟!

–في الواقع إنني لا أستطيع أن أجيبك على هذا السؤال لعدم معرفتي الجواب. لقد سمعت بعض الناس في الوطن يقولون بأن أحسن بلدين لصنع النبيذ هما فرنسا وإيطاليا، والميسورون عندنا يشربون ما

ينتجه هذان البلدان. أما الصناعة المحلية فهي مشروب الفقراء... أظن السبب هو ليس لأن النبيذ في بلادنا هابط المستوى، ولكن ربما كما قلت أنت، هو عقدة الأجنبي... قد تكون عقدة الأجنبي موجودة في بلادكم ولكن في بلاد العالم الثالث عقدة متأصلة في النفوس، مدمرة للشخصية القومية... وفي رأيي هذه ظاهرة خطرة جداً يجب محاربتها بعنف دون رحمة ولا هوادة...!

لاحظت أن الزوجين توقفا عن الأكل وصارا ينظران إليّ كأنما يريدان إيضاحاً...!

–في الوطن العربي الكبير هناك شريحة كبيرة من الناس عندها نقود كثيرة... تدعي العلم والمعرفة والثقافة... هذه الشريحة من الناس وصلت درجة مزرية من الإسفاف والضحالة والتبذل واللاإنتمائية أيضاً... ثم تقليد كل ما هو أجنبي تقليداً أعمى، لدرجة تجعلك تكاد تتقيأ وأنت تسمع لما يقولون وتشاهد كيف يتصرفون...! إنهم كومات متحركة من السطحية والتفاهة، لا يملك الواحد منا نفسه إلا أن يحتقرهم ويزدريهم... !

–عندنا هنا في أميركا، تجد بعضاً ممن يدعون بأن أدب وفنون وحضارة وحتى عادات وتقاليد بلادٍ بعينها، خير مما عندنا... ولكنها شريحة ليست بالكبيرة ! قال الزوج.

–السبب يا حبيبي هو أن هذه الشريحة كانت قد جاءت إلى أميركا من تلك البلدان التي يمتدحونها، وجذورهم ما زالت مغروسة فيها، وأنه ربما ما زال لهم هناك أقارب وأصدقاء ومعارف.

–قد يكون لأولئك بعض العذر فيما يعتقدون! ولكن الشريحة التي أتكلم عنها عندنا في الوطن، تنظر باحتقار ودونية لكل ما يؤمن به الوطن وما يقف مدافعاً عنه... ويعتبرون أن كل ما هو أجنبي، سواء أكانت عادات... أفكار... تصرفات... صناعات... وخصوصاً الأمريكي منها... هو شيء كامل وكأنما هو منزل من السماء ! قلت باستياء.

–هذه ظاهرة غير صحية وأقول غير أخلاقية أيضاً !! قال الزوج.

ـ برفسور دهشان ! أيّ أنواع الأنبذة وجدته أحسن، نبيذ بلادك أو النبيذ الأميركي؟! وعلى الرغم من أن السؤال كان نشازاً في رأيي، غير أنني شكرت الله وشكرت الزوجة لهذا السؤال، لأنها غيّرت موضوع الحديث الذي كنا سنصول به ونجول دون أن نصل إلى حل...!

–أما النبيذ في بلادي فأنا لم أذقه قط، لأنني لم أذق الكحول في حياتي أبداً إلا بعد أن تركت الوطن ...!

توقف الزوجان عن الأكل وكأنما تجمدت أياديهما فوق الصحون...!

-ولم؟! وكيف حدث ذلك؟ سأل الإثنان معاً يقاطع أحدهما الآخر!

-عوامل كثيرة ليس من السهل حصرها أو ذكرها... تعقيدات عديدة يصعب تفسيرها...! إن ديننا يحرّم شرب الخمر وقد تربيت تربية دينية صارمة... ثم إن المجتمع عندنا لا يحترم الذي يشرب الكحول... بالإضافة إلى أنني كنت صغيراً عندما وصلت إلى أميركا... كنت فقط في السادسة والعشرين من عمري...!

وكأنما ألقيت نكتة لوذعية، فقد انفجر الزوجان يضحكان لفترة ليست بالقصيرة إذ لم يستطيعا ضبط نفسيهما، مما جعلني انخرط معهما في ضحك بريء دون معرفة السبب...!

-في سن السادسة والعشرين عندنا، يكون الإنسان قد شرب وشبع شرباً... وربما تكون نفسه وقتها قد عافت المشروب... وحتى قد تقاعد عن الشرب...! قال الزوج وهو يحاول أن يكتم ضحكه.

-الكثيرون هنا يبدأون بتناول الكحول... أعني البيرة في سن السادسة عشرة... وربما حتى قبل بلوغ ذلك السن...! قالت الزوجة.

-قد يأتي اليوم الذي نقلدكم به ونتساوى معكم... فنحن أمة مقلدة... نقلدكم أنتم الأميركان، في كل شيء...!

-حتى وقت ليس ببعيد، كان الناس في قرانا ومدننا الصغيرة لا يحبون الذين يتعاطون الخمور ويتجنبون صداقتهم بل حتى الاختلاط بهم...! قالت الزوجة.

-شيلا وأنا لم نبدأ الشرب إلا قبل ثلاث سنوات... عندما رحلنا إلى كاليفورنيا... كنا وقتها في الرابعة والعشرين من العمر...! قال الزوج بصوت كسير حزين... كما لاحظت أن وجهه قد تغير فجأة وعلته موجة من الاصفرار القاتم... ثم زرقة غامقة...، كما لاحظت أيضاً أن عينيه قد بدأتا تتهربان من مقابلة عيني الزوجة اللتين كانتا تلاحقان عينيه بإصرار وعناد وشبه تحد...!

مرّت فترة صمت ليست بالقصيرة، إذ لا شك أن كل واحد منا كان غارقاً في بحر لجي من أفكاره، يطارد أوهامه ويجري خلف أحلامه، عندما سألني الزوج:

-و هل لك صديقة يا بروفيسور ؟ ! قالها بلهجة شبه خجلة.

-لأقول لك الصدق ؛ لا ! قلت متردداً و أنا أشعر بشيء من النقص و الخجل !

-عظيم جدا ! قالها بفرح و لكن شبه متوتر؛ اذ لعله أدرك بعد أن قالها بأن جوابه كان غير لائق فأضاف:

-أعني؛ إنك ما زلت حديث العهد هنا ، و تحتاج لبعض الوقت لتتأكد من تفكيرك و عواطفك ، و أن ما تعمله هو الصحيح !

-كنت طالباً في السنة الأولى في جامعة القاهرة بمصر، وكنت قد أعجبت بزميلة لي في نفس الكلية، وأعتقد أنها بادلتني نفس الإعجاب، وإن كان لم يجرؤ أحدنا على إعلام الآخر بهذا الإعجاب ! كنّا نتبادل الابتسامات والتحيات، وأحياناً نعلق على بعض الأفكار والنظريات التي يذكرها لنا الأساتذة في محاضراتهم؛ ولكن لدقيقة أو دقيقتين، ثم يذهب كل منا في حال سبيله !

-ولماذا لم يظهر أحدكما للآخر إعجابه؟ ! سألت السيدة روبنسون.

تجاهلت سؤالها، وإن حزّ ذلك في نفسي، لأنني لا أريد أن أدخل في تفسيرات وإيضاحات اجتماعية طويلة و معقدة !

-دعوتها مرات كثيرة أن نتناول فنجاناً من الشاي أو القهوة أو بعض المرطبات في كافتيريا الجامعة فاعتذرت؛ وأن نجلس على أحد المقاعد المنتشرة في الحرم الجامعي فرفضت، أو حتى نقف تحت الأشجار فاستنكرت ذلك ! كانت حجتها أن الطلبة الذين يعرفونها سيتكلمون عليها ويقولون بأن لها علاقة رومانسية بزميل لها في الجامعة !

-وما الخطأ في ذلك ؟! سأل هذه المرّة الزوج، وهذه المرّة أيضاَ تجاهلت سؤاله ! أنا لا أريد أن أدخل معه في إيضاحات وتفسيرات حضارية، وأعرف مقدماً أنها ستكون عقيمة ومضيعة للوقت !

-وبعد بدء الفصل الثاني، استطعت أن أقنعها بأن نتقابل عصر يوم الجمعة التالي، في إحدى المقاهي المنعزلة على ضفاف النيل، لأن هناك شيئاً هاماً أريد أن أقوله لها؛ فوافقت مكرهة على شرط أن لا تتجاوز جلستنا العشرين دقيقة !

-ولماذا كل هذا الاختباء والتستر ؟! لو كنتما تريدان أن تسطوا على بنك، أو ترتكبا جريمة قتل، لما احتجتما إلى كل هذه السرية ! سأل السيد روبنسون بانزعاج !

-لأن الفتاة من عائلة ريفية محافظة جداً، ولو سمع أبوها أو أخوها أو حتى قريب لها بأن لها علاقة رومانسية مع طالب آخر ليس خطيبها لربما قتلها ! قلت.

-فليساعدنا المسيح ! إن هذا شيء فظيع! قالت السيدة روبنسون.

-واو! قال السيد روبنسون.

-ما كدنا نجلس ونطلب من النادل أن يحضر لنا بعض المرطبات حتى صرخت الفتاة صوتاً اهتزت له جميع جنبات المقهى "جاء والدي! " ورأيت رجلاً جبلاً متحركاً من الغضب يهجم على الفتاة، وبكل ما عنده من قوة، يمسك شعرها بيديه الاثنتين ويرفعها عن الكرسي ويسحبها جرّاً خارج المقهى ! حاول بعض الحضور من الرجال أن يحولوا بينه وبين جرّها، ولكنه كان يبعدهم عن طريقه بعنف وقسوة!

-وماذا حدث بعد ذلك ؟! سأل الزوجان معاً باهتمام ولهفة شديدين.

-انقطعت الفتاة عن الدراسة نهائياً، مع أنها ذكرت لي، في إحدى اللحظات التي كنا نتقابل بها، بأنها ستواصل دراستها حتى تحصل على الدكتوراة، لأنها تريد أن تكون أستاذة جامعة ! قلت.

-وهل عرفت ماذا حدث لها ؟! سألت السيدة روبنسون.

-سمعت أن والدها زوّجها عنوة إلى ابن عمها الذي يسكن في نفس قريتهم ، والذي يعمل بالحقل ولا يعرف القراءة والكتابة ! قلت.

-يا لها من عادات غريبة وتقاليد قاسية...! قال الزوج وعلائم الانقباض والألم ممزوجة بنوع من الاشمئزاز والقرف بادية على وجهه... وكذلك لاحظت أن الزوجة تمعن النظر في وجهي وعلامات التأثر والحزن تعلوان وجهها هي الأخرى.

لا شك أن الخمرة قد قضت على خجلي وتحفظاتي، فقد كنت أتكلم بجرأة عجيبة وبصراحة متناهية ودون حرج مما جعلني أنا نفسي أستغرب ذلك !

لاحظت أن عيون الزوجين قد اتسعت ، وصارا يحملقان بي وكأنهما يسمعان شيئاً غريباً وعجيباً حقاً !

-منذ تلك الحادثة، أغلقت قلبي وعقلي عن حب أية فتاة حتى لا أتسبب في مأساة أخرى ! قلت.

-إنه حقاً مجتمع ظالم ! قالت الزوجة بحزن وأسى وكأنما توشك أن تبكي.

-إنه مجتمع لا يرحم عندما يتعلق الأمر بالشرف والعرض حسب مفهومهم للعرض والشرف ! قلت وقد هزني الشوق إلى تلك الأيام الخوالي الجميلة ! ثم أضفت:

-مجتمع العاصمة والمدينة الكبيرة فيه بعض التسامح والاسترخاء والليونة نحو العادات والتقاليد، أما مجتمع الريف والقرية والبلدة الصغيرة فهو مجتمع صارم ظالم يراقب تصرفات كل انسان و يحصي عليه انفاسه ... !

مرّت فترة صمت طويلة كان لا يسمع فيها إلا أصوات الملاعق والشوك والسكاكين تضرب الصحون عندما قلت:

-ليس من السهل على إنسان أميركي أن يتصور مجتمعاً تتحكم به كل هذه المعتقدات والمفاهيم...! لقد أرضعتني أمي مع حليبها، أن نظرة الرجل إلى غير محارمه محرمة؛ لأن النظرة تسبب الاشتهاء والاشتهاء خطيئة كبيرة تقود إلى النار !

-يا إله السماء ! حقاً إنه مجتمع متزمت ! إذن كيف نستطيع أن نستمتع بما خلق الله من جمال آدمي ؟ ! ثم كيف نستطيع أن نختار صديقاتنا وحبيباتنا وزوجاتنا ؟! سأل الزوج.

-ليس من الضروري أن تقود النظرة إلى الاشتهاء. قالت الزوجة.

-أذكر أنني عندما وصلت إلى أميركا كانت إحدى الفتيات تسألني عن نفسي وعن بلادي، وكنت أجيبها دون أن أنظر إلى وجهها ! لقد كنت أنظر إلى رأس حذائي ! وبعد حديث طويل سألتني محتارة إن كانت هي قبيحة إلى درجة أنني لا أستطيع احتمال النظر إلى وجهها ! دمعت عيناي ألماً وحزنا، إذ كيف أستطيع أن أفسّر لها السبب الحقيقي...! وماذا عساها تقول إذا أعلمتها بأن أهلنا يرضعوننا مع الحليب بأن نظرة الذكر إلى الأنثى من غير محارمه هي عيب وحرام ؟! إنه لمن الصعب عليها جداً أن تفهم هذا النوع من المعتقد...! إنني أشعر دائماً بأنني أحمل على ظهري لعنة أجيال كثيرة ومتعاقبة... !

-طبعاً ! لقد تخلصت الآن من هذا الشعور، بعد أن عشت بيننا لفترة ! قال الزوج بجدية واهتمام.

–نعم، فعلت؛ ولكن بعد مواقف محرجة كثيرة، وبعد معاناة طويلة ! قلت.

" نعم يا صديقي جيمس! لقد تخلصت منها وإلى الأبد... ولكني اكتسبت عادة أسوأ منها... إذ ولدت في نفسي ردة فعل معاكسة... وهو أنني أشعر بعاطفة محمومة ورغبة جامحة، بأنني أريد أن أضاجع كل جميلة أقابلها...! عفواً، إلا زوجتك التي أشعر نحوها بعاطفة أخوية ! صدقني ! لا أدري لماذا ؟! "

–أيهما أكثر أنوثة ورقة في رأيك، المرأة الأميركية أو المرأة في بلدك ؟ ! سأل الزوج وابتسامة خبيثة تعلو شفتيه ؛ ثم غمز لي بطرف عينه اليسرى !

–آسف أن أقول لك بأنني لم أعرف المرأة في وطني ! أنا لم أعرف المرأة إلا هنا في أميركا... ! قلت وقد أحسست بخجل شديد .

لاحظت أن وجنتي الزوجة قد توردتا ، ثم أنها نظرت إلى الجهة المعاكسة.

–وكيف وجدتها إذن ؟! وهل كانت حسب توقعاتك...؟! سأل الزوج وعيناه تتفحصاني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، حتى أحسست وكأنما يعرّيني بنظراته !

–إنها قادمة من عالم آخر... عالم السماء... ! إنها حورية... ساحرة... مذهلة... رقيقة كالغيمة... شفافة كالسحاب... ناعمة كالنسمة... قلت وقد أطلقت نأمة ضحك ضعيفة ، تدل على أن صاحبها قد أفرط بالخمر... وشرب أكثر مما يحتمل... فاضمحلت قوته وفلتت ضوابطه... ! ثم نظرت إلى الزوجة فمسكتها تختلس النظر إليّ ، مما زاد في إرباكها وإحراجها ؛ فقلت مخاطباً الزوج وقد حولت النظر إليه:

–أنتم المحظوظون الذين تمنحكم كل حبها وأنوثتها ورقتها... وكل حنانها وعذوبتها وعواطفها...! أنتم الذين تتمتعون بجمالها ونعومتها وسحرها...! أنتم الذين تعيشون بدفئها... و... وهنا لم أستطع مواصلة الكلام ، فقد انفجرت أبكي بصوت عال وبهستيريا مجلجلة... فقد فلت مني زمام نفسي وتفككت ضوابطي وكوابحي... أفقدني النبيذ السيطرة على تصرفاتي والتحكم بمشاعري ودموعي... وصرت كالرجل الآلي الذي فلت زمبرك التحكم عنده، فانطلق منساباً على طبيعته وبحرّيته... !

" تباً لك أيتها التقاليد البالية الملعونة... ! أيتها القيود الثقيلة من عادات سقيمة ! لقد جعلت رجالك الغيورين عليك يبكون كالأمهات الثكالى...! يتلفت الإنسان الحرّ حوله فلا يجد إلاّ أشباه رجال ! "

التجم لسانا الزوجين للحظات ، إذ لا شك أنهما فوجئا بما حدث ، ثم تبادلا النظرات... وسرعان ما شرعت الزوجة تتحدث كأنما كانت تكمل حديثاً قد بدأناه معاً عند بدء العشاء ! قالت:

–لقد رجوتها وألححت عليها أن تعمل كل ما في وسعها لتحضر هذه المرة والدي معها ! لقد افتقدته كثيراً وأريده أن يرى كاليفورنيا... أريد أن أريه " هوليوود " و " دزني لاند " و " مجك ماونتن " ! ثم التفتت إليّ وأضافت:

–وهل تصدق يا بروفيسور دهشان ، إن قلت لك إنه قد بلغ الخامسة والخمسين من عمره وحتى الآن لم يدخل مدينة "أومّها"، عاصمة الولاية ؟! أريده أن يوسع عالمه الذي لا يتجاوز بلدتنا وبعض المدن الصغيرة المجاورة... إنني أحب أن أريه كاليفورنيا لأن أي أميركي، أو حتى أي إنسان في العالم، في رأيي، لم ير كاليفورنيا، فهو لم يرَ العالم على حقيقته... إن كاليفورنيا نموذج فريد من نوعه ! أنا لا أظن أن هناك أمريكياً واحداً لم ير "سان فرنسيسكو "، ولم يأكل سمكاً من " فيشر مان وورف " ! ويستمتع بجمال الحديقة الصينية ويتمشى فوق "البيرز" ويشاهد عشرات الممتعات والمسليات والعجائب... ! "

–إن الناس يأتون من خارج أميركا، ومن وراء البحار، خصيصاً لزيارة سان فرانسيسكو؛ولكن عمي سامحه الله عنيد لا يحب أن يغادر بلدته الصغيرة، متعللاً أنه لا يوجد من يحل مكانه في الكنيسة عند تأدية الصلوات...! قال الزوج بحماس.

–الأب المبجل " ديمتري ، " قال له أمامي، وأكثر من مرة، بأنه في أي وقت يحب أن يأخذ اجازة، ويسافر فهو سيحل مكانه... ولأية مدة...! قالت المرأة بحماس.

–أنا أعرف ذلك يا حبيبتي ! إن أباك لا يحب أن يغادر البلدة... يخاف إن تركها أن تأكله الوحوش أو يغرق بالمحيط... أو يعتدي عليه أحدهم... ! قال الزوج بأسف وضحك ضحكة مصطنعة وأضاف:

–لقد قرأت أن بعض الناس يشعرون بالقلق وتوتر الأعصاب عندما يفكرون، حتى مجرد تفكير، بأنهم سيتركون مكان سكناهم... ولهذا نسمع عن كثيرين عاشوا وماتوا ولم يغادروا مدينتهم أو قريتهم... !

–إنني أحياناً أتساءل إن كان هذا هو السبب الحقيقي... ! قالت الزوجة بحيرة.

–فلنأخذ مثالاً على ذلك... فأنا نفسي لا أستطيع أن أذهب إلى مدينة أو أي مكان لا تكونين أنتِ معي فيه ، وحتى ولو لساعات !! أشعر بالخوف والضياع ! قال الزوج وهو يضحك !

تجاهلت الزوجة مقولة زوجها وعلت وجهها مسحة من العبوس، ولا شك أنها أرادت أن تلفت انتباهه إلى أن الموقف لا يسمح بالغزل وإظهار العواطف .

–لقد قرأت بأن الفيلسوف الألماني " إيمانيول كانط " صاحب فلسفة " الواجب" ، كان كل عالمه الذي عرفه طيلة حياته هو ما مساحته ستين ميلاً مربعاً ! قلت بصوت خافت منهك محاولاً أن أشارك بالحديث وقد بدأت أستعيد بعض انضباطيتي.

–هذا صحيح ، ولكن الزمن الذي عاش به الفيلسوف " كانط " ، لم تكن وسائط النقل به متوفرة كما هي اليوم ، ولم يكن العالم معروفاً والترحال سهلاً! قال الزوج.

رفعت الزوجة إحدى جاطات الأكل، وابتسامة حزينة ومثقلة بالهموم تعلو شفتيها وقدمته إليّ طالبة أن آخذ بعضاً مما به.

–لا ! لا ! شكراً... ! قلت وأنا أضع الملعقة أفقياً إلى جانب السكينة في وسط الصحن الفارغ .

–لقد أكلت أكثر مما يجب... الطعام لذيذ جداً جداً ! قلتها بصدق وحماس !

لاحظت أن كلا الزوجين قد حذيا حذوي ، وكأنما كانا ينتظران توقفي ، إذ لعلهما كانا يتظاهران بالأكل مجاملة لي .

–شكراً جزيلاً مرة أخرى يا سيدة روبنسون ! لقد أحسست الليلة كأنما أنا بين أهلي في الوطن ! لقد أكلت الليلة كما لم آكل من قبل ! قلت وقد أخرجت نفساً عميقاً محاولاً تجاهل ما حدث.

–نحن أهلك في أميركا !! إن سعادتنا وأنت متواجد بيننا ، تفوق سعادتك وأنت معنا ؛ صدّقني ! قالها الزوج بحرارة وحماس وعفوية أحسست الصدق فيها.

-والآن أيها الرجلان ! هل تريدان أكل الحلوى في الحال، أو نؤجلها إلى بعض الوقت ؟ ! سألت الزوجة وهي تنقل طرفها بين زوجها وبيني.

قلت بسعادة مصطنعة محاولاً أن أبدو طبيعياً:

-وهل يستطيع أحد أن يأكل زيادة بعد هذه الوجبة الدسمة...؟! وتصنعت ضحكة مبالغاً فيها وأضفت:

-أو حتى بعد يومين اثنين ...!؟

-هذا ثناء عاطر وشهادة خبير يا حبيبتي شيلا، من البروفيسور دهشان، بأنك طباخة رائعة ! قال الزوج وحب فياض يقفز من عينيه ويتراقص فوق وجهه !

-لا أعتقد بأن السيدة روبنسون بحاجة إلى مديحي أو شهادتي ، فهي حقاً طباخة من الدرجة الأولى وربة بيت مثالية ! قلت صادقاً وبحماس، ولكن بصوت ضعيف وعينين ذابلتين.

-إن بيتنا يرحب دائماً بالبروفيسور دهشان ! قالت الزوجة بحنان ودفء أحسست أنهما وصلا النخاع مني !

-إنها ليست فقط تجيد الطبخ وإدارة البيت ، وليست فقط متحدثة بارعة وجليسة ممتعة ! قال الزوج بسرعة متلاحقة وكأنما يخشى نسيان الكلمات قبل نطقها:

-ولكنها حبيبة رائعة لا مثيل لها أ قال ذلك وفتح يديه على وسعيهما كأنما ليحتضن زوجته !

شعرت أن الخمرة قد أعطت الزوج حرية أكثر مما يجب، إذ لعله هو الآخر قد أفلت منه زمام لسانه !

-هذه الميزات لا أحد يعرفها سواك يا سيد روبنسون... !

ندمت جداً على ما قلت... فقد شعرت بالرخص والابتذال وانعدام الذوق... ولكنني واصلت الضحك... ضحك إنسان شبه مخدر... وشاركني الزوج ؛ غير أن الزوجة رمت وجهها أمامها وعلت وجنتاها حمرة خفيفة وغطت رقبتها حبات من العرق !

-إن الخالق سبحانه وتعالى يجعل بعض النساء كاملات في كل شيء ، فإنه يمنحهن ، بالإضافة إلى ِنعم الجمال... والسحر... والدفء...

والحنان والذكاء... وطيبة القلب... ونقاوة الروح... الخ... الخ... فإنه يمنحهن نعمة أخرى... وهي نعمة الطبخ... من أجل أن يقدمن إلى محبيهن طعاماً يفرح معدهم كما أنه يسعد قلوبهم... ! إن السيدة روبنسون هي واحدة من أولئك... ! قلت بهدوء وبطء منتقياً كلماتي بحرص شديد.

–أصبت يا بروفيسور دهشان... أصبت...! بارك الله بك...! أنت وأنا متشابهي الرؤية... ! إن حبيبة القلب تتمتع بجميع الصفات التي ذكرت ! قال الزوج بحماس.

–أنا سعيدة جداً أن طبخي نال رضاك يا بروفيسور سهيل ! قالت المرأة بتواضع جم بعد أن كففنا عن الضحك ! لقد كان في نطقها لأسمي عذوبة تدغدغ المشاعر وتسعد العواطف...!!

–لقد قلت للبروفيسور دهشان عندما دعوته ، بأنه بعد أن يتذوق طبخك لن ينساك... ! واستدرك:

–أعني لن ينسى لذة طبخك ! واحمر وجهه واعتراه الخجل !

" قاتل الله النبيذ يا صديقي ولعن شربه، فهو يجعل الانسان يقول ما لا يحبّ قوله وما لا يجب البوح به ! "

–إذن تفضلا إلى غرفة الجلوس حتى أفرغ ما على طاولة الطعام. قالت الزوجة وهي تنهض بعد أن عبأت يديها بالصحون أمامنا.

نهض الزوج وكذلك فعلت أنا؛ وكل منا يحمل ما يستطيع حمله من الصحون ، وبعد أن أفرغ كل منا ما بيديه على طاولة المطبخ توجهت أنا والزوج إلى غرفة الجلوس بينما واصلت الزوجة نقل ما تبقى على طاولة الطعام.

* * * * *

–كان من الأشياء التي تعلمتها في أميركا هي أنني كلما ننتهي من الطعام بعد كل دعوة ، أعرض على المضيفة أن أساعدها في غسل الصحون ، حيث إنّ الغالبية منهن يعتذرن مع الشكر... أما القليلات منهن فيقبلن الطلب بحجة مواصلة ما بدأناه من حديث... ! قلت.

–وهل هذه هي العادة المتبعة في بلادكم ؟! سألت الزوجة.

-لا، لا، أبداً ! إن هذا ليس في قاموسنا... إطلاقاً... وكحقيقة، فإنه عمل منافٍ جداً للعادات والتقاليد ! قلت، وبطريقة عفوية دسست يدي في جيبي أتحسس موسيّ الكشاف !

-ولم إذن تَعرض مساعدتك ؟! سأل الزوج باستغراب.

-أما في هذه المرّة فقد كانت أول ليلة لي في أميركا، وكنت ضيفاً على العشاء عند سيدة كانت وقتها في السابعة والستين من عمرها مولعة بسماع أخبار الأرض المقدسة والسيد المسيح، عندما قالت لي بعد أن انتهينا من الطعام " والآن فلننهض لنغسل الصحون... تغسلها أنت وأجففها أنا..."مع أنني كنت واثقاً من أننا كنا الوحيدين في البيت إلا أنني تطلعت حولي، يمنة ويسرة، لأتأكد من أن أحداً لم يسمعها... وتابعتُ الحديث... بعد بضع دقائق أعادت الطلب فتجاهلتها... أما في المرة الثالثة فقد قلت بغضب وقد شعرت بإهانة لرجولتي وصلت إلى أعماقي "وهل ثمن العشاء هو غسل الصحون...!؟" ارتبكت المسكينة ودمعت عيناها تأثراً ! طبعاً هي لم تعرف الذنب الذي ارتكبته لتبرير كل هذا الغضب...!

-ولم فعلت ذلك ؟! سألت الزوجة باستغراب وهي تحملق بي بعينيها اللوزيتين.

-في الوطن ، الأعمال المنزلية واجب نسائي والطبخ وغسل الصحون والملابس وظيفة المرأة... والرجل... يعتبر عاراً عليه أن يقوم بهذه الأعمال...!

-وماذا إذا لم يكن للرجل امرأة تقوم بهذه الواجبات ؟! سأل الزوج.

-فهو غالباً ما يسكن مع أخ متزوج أو أخت أو قريب... ولهذا في الوطن يحث الأهل والأقارب وحتى الأصدقاء، ممن يكونون في هذا الوضع على الزواج بأسرع ما يمكن!

وهنا تبادل الزوجان نظرات ذات مغزى ! أما أنا فتابعت:

-لم أذكر طيلة حياتي في الوطن ، أن رتبت سريري أو غسلت صحناً... لقد ساعد على ذلك وجودي مع والدتي وأربعة من الأخوات... وحتى عندما ذهبت إلى مصر للدراسة عشت مع مجموعة طلاب وكان عندنا خادم نوبي من السودان، يقوم بجميع متطلبات البيت من تنظيف وطبخ وشراء للحاجيات !

-لا شك أن أميركا قد علمتك كل الواجبات المنزلية ! قالت الزوجة.

–للأسف الشديد هذا لم يحدث، على الرغم من أنني أعرض خدماتي للذين يدعونني ! لقد اتفقت مع سيدة متقاعدة جارة لي، أن تعتني بشقتي كل يوم بعد خروجي منها !

–ما أسعدك ! إذن عندك ربة منزل! قال الزوج.

–ليس بالضبط ! إن جارتي السيدة مورس، امرأة متقاعدة ووحيدة، وكان فرحها عظيماً عندما طلبت إليها أول مرة أن تدخل شقتي وترتب سريري وتغسل الصحون... ولكنها توسعت بوظيفتها دون أن تستأذنني، وإن كان ذلك أسعدني جداً، فهي تنظف الشقة وتغسل وتكوي ملابسي... لقد رفضت بادىء ذي بدء أن تأخذ أكثر مما كنا اتفقنا عليه من مبلغ زهيد، ولكن بعد اقناع قبلت زيادة المبلغ، وإن كنت أعتقد أن ما تتقاضاه دون ما تستحق بكثير... إنني أحياناً أدعوها إلى الخارج، وأشتري لها بعض الهدايا في المناسبات، مما يجعلها سعيدة وتتفانى بالاعتناء بالشقة !

–إن كبار السن يسعدهم أن يساعدوا الآخرين، إذ إن ذلك يعطيهم الشعور بأنهم ما زالوا أعضاء منتجين في المجتمع ! قال الزوج.

عدنا إلى غرفة الجلوس، وكنت أهم بالقعود في مكاني السابق، وكان الزوج قد بدأ يرحب بي من جديد، باسطاً يديه الاثنتين مفتوحتين أمامه، زيادة بالحفاوة والاحترام، عندما تذكرت صديقي جورج مونتكيو... إذ لا شك أنه الآن يتمزق قلقاً وخوفاً علي، ولا شك أن أفكاره قد شرّقت به وغرّبت... !

استأذنت مضيفيّ بأن أستعمل الهاتف ، وبعد أن أشار حيث يرقد ، وكان خلفي بالزاوية على طاولة صغيرة لعلها صنعت خصيصاً له ، غادرني إلى غرفة النوم ، فأدركت أن الرجل يريد لي أن أكون بعزلة لأستطيع الكلام بحرية... !

–طمئنّي يا سهيل ! إنني أكاد أفقد عقلي خوفاً عليك... ! إن هانس هو الآخر في غاية القلق، ولقد هاتفني عدة مرات يسأل إن كنت قد سمعت منك ! هل ما زلت حياً !؟ وهل حدث لك مكروه !؟ قال صديقي بقلق ولهفة أحسست حرارتهما عبر أسلاك الهاتف !

–اطمئن ! إنهما ليسا كما فكّرنا... ! إنهما مسيحيان... ! الحمد لله ! قلت هامساً.

–نعم ! الحمد لله ! لقد قلقت عليك كثيراً ! قال وهو يتنفس الصعداء !

-وهل تقضي وقتاً ممتعاً ؟!

-نعم ، نعم ! كل شيء يسير على أحسن ما يرام ! إنني أمضي وقتاً من أجمل أوقاتي التي عشتها بكاليفورنيا، بل في حياتي كلها...! قلت بحماس !

-وهل رأيت " الفرخة " ؟ وهل قبلت أن تستقبلك وتتكلم معك ؟!

-نعم ، وبحميمية... ! إننا نتحدث وكأنما نعرف بعضاً منذ سنوات طويلة... ولكنني إلى الآن لم أعرف سبب معاملتها الشاذة لي... ! لا تقلق...! سأعرف...!!

-لقد حيّرت أمّنا حواء أبانا آدم وجميع الأنبياء والرسل بتصرفاتها الغامضة والمحيرة... إنك لن تكون الأول الذي تستطيع أن تسبر أغوار نفسها فتكتشف سرّ غموضها ! إنه لا شك سبب تافه مثلها ! لا تزعج نفسك بالتفكير فيها... ! متّع نفسك !

-لو رأيت تصرفاتها السابقة معي ومعاملتها لي هذه الليلة، لما صدقت عينيك ! إنها تتودد إليّ وتعاملني وكأنما نحن أصدقاء العمر كله ! قلت بحماس !

-رائع ! رائع ! متّع نفسك ! وهاتفني حالما تعود إلى شقتك. وصل إليّ صوته يقولها بفرحة جذلى.

-ولكنني قد أتأخر عليك كثيراً !

-لا يهم ! حتى ولو كانت الخامسة صباحاً !

أغلقت السماعة ، وان كنت في أعماق نفسي أتمنى لو أستطيع أن أحدث صديقي جورج طويلاً عما يجيش في صدري من فرح وعواطف وانفعالات... وما يدور برأسي من أفكار وخواطر وتساؤلات... !

ما كدت أغلق سماعة الهاتف، وقبل أن أصل إلى مقعدي، إلا وكان الزوج قد سبقني إلى حيث كان واقفاً، وبدأ يرحب بي من جديد بحماس أكثر وكلمات أحرّ، فاتحاً يديه، باسطاً إياهما أمامه، زيادة بالاحترام والحفاوة...! كانت السعادة تضجّ من عينيه...!

لم نكد نستقر في مقعدينا، حتى أقبلت الزوجة تتهادى بخطى ثابتة نحونا، كعروس في ليلة جلوتها... تعلو شفتيها ابتسامة فرحة مضيئة...! أما أنا، فحالما رأيتها مقبلة نهضت من مقعدي منتصباً، باهتمام

وحماس شديدين، مرحباً بها وشاكراً لها الدعوة والأكل اللذيذ والكرم العظيم، مخفضاً رأسي، محنياً قامتي، باسطاً يدي بولهٍ واستعطاف ورومانسية، مما زاد في اتساع ابتسامتها، وقوى في إضاءة وجهها وتورد وجنتيها... فأدركت أن طريقتي الشرق أوسطية... طريقة فرسان القرون الوسطى الدونجوانية، قد تكون سبّبت لها إحراجاً وارتباكاً، فقد لاحظت ارتجاف جسمها وارتعاش يديها...!

-إن حبيبة القلب شيلا، لم تعتد على معاملة ورومانسية القرون الوسطى...وأخشى أن تفسدها يا بروفيسور دهشان، فتتوقع منا هذا، أنت وأنا، دائماً...! قال الزوج وقد أحسست أنه هو الآخر، في قمة السعادة والجذل، وأتبعها بضحكة طويلة خجلى !

" آه ! ليتها تفعل يا جيمس ! أيها الصديق الجديد ! إن الوقوف أمام شيلا والانحناء لها... بل والسجود بين يديها... والتعبد في حضرتها... لهو عندي نوع من ممارسة الطقوس الدينية... ! إنه نوع من العبادة والتهجد في محراب الجمال... ! إنه بالنسبة لي نوع من التصوف... إنه وقوف أمام الخالق والسجود له ، واعتراف بعظمته فيما خلق فأبدع... ! سبحانه ... سبحانه ... سبحانه ... ! "

-امرأة لها كل هذا الجمال وعندها كل هذا السحر... وتتمتع بكل هذه الأنوثة والرقة ، والذكاء أيضاً ؛ وتمتلك كل هذه المهارات في فنون الأكل والإتكيت ؛ تستحق منا نحن الرجال ، الكثير الكثير... من الحب والإجلال، بل العبادة والتقديس... ! قلت هذا وقد شجعني استرخاء ورجاحة عقل الزوج ووعيه وتفهمه... ثم رحابة صدر الزوجة واتساع مداركها ورجاحة تفكيرها ؛ ثم لا شك أن للنبيذ دوراً فاعلاً وحاسماً... !

لقد تصورت نفسي في الوطن الحبيب ، بل وفي مدينتنا السلط الشامخة بالذات ، واقفاً على تلة المحباصية... مطلاً على وادي الريح... حيث في نهاية الوادي تمتد البساتين المملوءة بأشجار التين والرمان والزيتون والعنب... في إحدى الليالي القمرية... في ساعة متأخرة من الليل... أخطب أمام شلة الأصدقاء إياهم، محمد وكايد وشاهر، مناجياً سميحة... والكل منهم يصغي باهتمام، ينتظر دوره ليأخذ مكانه في الخطابة... وليفعل كما أفعل... مناجياً حبيبته التي لا تعرفه، شاكياً إليها وجده... طالباً منها الوصل والتحنان...! أولئك الحبيبات اللواتي لا يعرفن حتى أسماءهم ولا أي شيء عنهم ... ! إنهن يعرفن وجوههم فقط ، وقد يدركن أنهم ربما يكونون من طلاب مدرسة الأولاد بسبب ما يحملون من

كتب وما يرتدون من سراويل أوروبية ! إننا نتقابل كمجموعات بالشارع العام.. ونتبادل النظرات فقط.. كأي عابري سبيل يتقابلون صدفة...! إنهن لا يعرفن حتى إن كنّ يعنين بالنسبة لنا أي شيء، وقد لا نعني بالنسبة لهن شيئاً، أكثر من أننا سكان مدينة واحدة...! هذه المدينة العتيدة الشامخة !

لقد شعرت بادئ ذي بدء، بأن كلماتي قد تكون أحرجت الزوج فجرحت إحساسه وأساءت إلى مشاعر الزوجة فخدشت حياءها... ولكن تبين لي فيما بعد أنني كنت مخطئاً ، إذ بدا لي أن الزوجين سعيدان بما أفعل وما أقول ، فأدركت أن هذا الإحساس المفرط والسذاجة الزائدة ، هما نتيجة عقد التربية الدينية المتزمتة ، وعادات وتقاليد المجتمع العتيد الذي أتيت منه !

وفجأة رأيت الزوج ينهض من مقعده على عجل وهو ما زال يضحك ويكركر كأنما تذكر شيئاً نسيه ، فتناول هديتي التي أحضرتها معي من على ظهر خزانة الفضيّات المصنوعة من خشب الجوز ، البنية ، الفاخرة ، ويحمل الطرد الرابض فوقها ويناوله إلى زوجته قائلاً:

–لقد أحضر لك البروفيسور دهشان هذه الهدية !

–آه هذا رائع ! شكراً ! ما كان يجب أن تزعج نفسك ! قدومك إلى بيتنا هو هدية ثمينة لجيمس ولي !قالت الزوجة وهي تتناول الطرد وتضعه في حجرها وقد كفت عن الضحك وعلامات الدهشة والحيرة معاً تبدوان على وجهها... ثم التفتت إلي وقالت وابتسامة تضيء وجهها:

–لقد كان لطفاً منك أن تذكرني !وبعد لحظة توقف أضافت :

–حقاً! إنك شهم وكريم !

لعل صميمية الجلسة، ورقة حديث الزوجة، وشعوري بصدق كلماتها، والجو الرومانسي الذي يلفنا، وتهييج عواطفي، كل هذه مجتمعة، قد أثارت في أعماقي ذكريات ومشاعر قديمة ساكنة، فقلت بصوت حالم، ورومانسية مفرطة، وكأنما كنت أخاطب سميحة نفسها، إذ كانت الكلمات تخرج من أعماق قلبي ومن صميم وجداني، وإن كنت غير واع تماماً لما أقول ، بسبب ما تناولته من الكحول !

-أنتِ عند السيد جيمس روبنسون وسهيل دهشان ، أغلى من كل ما في الوجود... ! قلت بحماس وأنا أتأمل مشدوهاً وجهها !

-بروفيسور دهشان ! ما هذا الذي تقول ؟! لقد بدأت أغار ! قال الزوج وقد انفجر يضحك ، أما الزوجة فقد اشتعلت وجنتاها احمراراً، فارتبكت وتراقص نهداها، ولم تعلق بشيء بل صارت تقرأ البطاقة الملصقة على الطرد... ثم بدأت تفك الشريط الحريري الأحمر المتحزم به الطرد المربوط حول الورقة الملونة الفاخرة... وصارت تنزع ورقة الهدية من على الباكيت... وفجأة اتسعت حدقتا عينيها وفغرت فاها ، اندهاشاً وحيرة ، ثم سعادة واستغرابا... ! لقد لاحظت أن جسمها صار يرتجف، مما حيرني وأربكني !

-وكيف عرفت أن هذه الشوكولاته هي المفضلة عندي ؟! قالتها بصوت فيه رجفة خفيفة ، رجفة الفرح وليس الغضب ! وقبل أن تسمع جوابي التفتت إلى زوجها وسألته:

-وهل قلت للبروفيسور دهشان ذلك ؟!

تجهم وجه الزوج الذي قرب وجهه من الصندوق الكرتوني ليقرأ الاسم ، ثم قلب شفتيه هو الآخر استغرابا... !

-وهل من المعقول يا حياتي أن أفعل ذلك ؟! ثم التفت نحوي وأردف:

-ومن أين لي أن أعرف أن البروفيسور دهشان سيحضر لك معه هدية؟!

لا شك أنها أدركت أن سؤالها كان سخيفاً ومحرجاً لزوجها، فلزمت الصمت واكتفت بتأمل الهدية ؛ أما أنا فقد قلت وأنا أرفع وجهي إلى أعلى:

-الشكر له ما أعظمه ! إذن أستطيع الآن أن أطمئن، بأن ما أحضرت قد لاقى قبولاً لدى سيدة البيت ؟!

-جداً ! جداً ! إن هذه الشوكولاته هي النوع الوحيد الذي تأكله زوجتي ! قال الزوج بحماس ممزوج بالفرح !

-إنها إحدى العادات الجميلة التي تعلمتها في أميركا ؛ وهو أن يأخذ المدعو معه شيئاً لسيدة البيت ! قلت.

-إذن، ماذا يأخذ الرجل معه في بلادكم في مثل هذه الحالة ؟! سأل الزوج.

تجاهلت سؤاله بحجة أنني لم أنتبه له، مخافة أن أدخل في متاهات طويلة وسراديب مظلمة بسبب اختلاف العادات والتقاليد في المجتمعين، فقلت:

-ذهبت أول وصولي لأميركا، لأغسل ملابسي في إحدى المغاسل التجارية المنتشرة بالشوارع ، فلم أعرف ماذا أفعل ولا كيف أدير الغسالة ، مع أن هذه كانت المرة الثانية لي ، في حياتي كلها،التي أتعامل معها ! كانت هناك شابة ، إذ كنا نحن الوحيدين ، وكانت تقرأ في كتاب، إذ لا شك أنها كانت تنتظر جفاف غسيلها حيث وصل إلى أذني اصطفاق ملابس بعضها داخل آلة التجفيف ! ترددت طويلاً قبل أن أطلب إليها أن تريني كيفية استعمال الغسالة، فقد كنت أول وصولي إلى أميركا أشعر بارتباك وخجل شديدين عندما أكلم امرأة... أية امرأة !

-أظن أن خجلك الشديد أمام النساء باديء ذي بدء، قد أعطى دفعة قوية لجرأتك الأدبية فيما بعد ! قال الزوج بأسلوب جمع بين الجدّ والهزل !

-يعجبني خجل الرجل إذا كان خجله تأدباً واحتراماً ! قالت الزوجة بحماس !

هززت لها رأسي علامة الشكر وتابعت حديثي:

-لقد خفت أيضاً ، أن تظن بأنني أفتعل ذلك لأبدأ معها حديثاً أقصد منه بدء علاقة... ! وبعد تردد وحيرة طويلين تقدمت منها معتذراً وشرحت لها وضعي ورجوتها أن تريني كيف أستعمل الماكنة... رحبت بي وهي تبتسم... وبعد أن وضعت الملابس في الغسالة ، وقبل أن تضغط على زر الماء طلبت إليّ أن أضع مسحوق الصابون . "وهل لا بد من وضع مسحوق صابون ؟!"سألتها بسذاجة المغفل؛ فاعتبرتها نكتة وأنني أحاول أن أبدو أمامها إنساناً خفيف الظل، حلو الشمائل... ولكن سرعان ما تبين لها أنني جاد في جهلي ، إذ صارت تتطلع بي وتتأملني من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي وهي تقلب شفتيها تعجباً... ! سألتني فيما إذا ما زالت بلادنا متأخرة ولم تدخلها التكنولوجيا بعد ، فأفهمتها بأنها دخلت بلادنا وربما في نفس الوقت الذي دخلت به أميركا نفسها ؛ ملفتاً انتباهها بأن الشركات الأميركية تسوّق صناعاتها وتبيعها إلى بلاد العالم الثالث ، ربما قبل أن تسوّقها في أميركا نفسها ؛ ولكن الذي لم تدخله التكنولوجيا بعد ، هو عقلي الذي لا يستوعب تعلم وضع صامولة في فتحتها...! بقيت الشابة معي أكثر من ساعة حتى أنهت غسل جميع ما كان معي... ثم رتبته لي !

-يجب أن لا تشعر بالخجل إطلاقاً ! هناك الملايين الذين لا تستوعب عقولهم كل ما تقدمه لنا التكنولوجيا في هذه الأيام ! قالت الزوجة بهدوء وثقة.

-لا شك أن ذلك كان لطفاً منها ! حقاً إنها أفرحتني بفعلتها هذه ! قال الزوج.

-نعم ، كان هذا كرم أخلاق منها تمدح عليه، وإن كان من الممكن أن يقوم به أي إنسان ! ولكن العمل الرائع الذي قامت به، هو انتظارها كل هذا الوقت مع البروفيسور سهيل ! قالت الزوجة.

" آه يا شيلا ! يا ابنة الطهر والعفة والتديّن ! لم أكن أعرف قبل اليوم أن كلمة "سهيل" هذه ، لها كل هذا الجمال والسحر والتألق... ولها كل هذه العذوبة والرومانسية... إلا عندما سمعتها تخرج من بين شفتيك الرقيقتين ويرددها صوتك الحنون...!! "

-المهم؛ لقد أعلمتني المرأة ،ونحن على وشك أن نفترق، بأن زوجها سيسعد جداً بلقائي والتحدث إلي ، إذ أنه يحب أن يتعرف على الغرباء وأن يعرف أخبار البلدان الأخرى ، وكيف يعيش الناس... وعن عاداتهم وتقاليدهم...؛ وقالت بأنهما سيدعواني قريباً إلى العشاء في بيتهما... كتبت لي العنوان ووصفت لي الشارع، فتبين لي أن سكنهم لا يبعد سوى أقل من عشر دقائق مشياً على الأقدام من حيث يقع سكني ، وإن كان في الجهة المعاكسة !

-حديثك شيّق وشخصيتك جذابة وقصصك ممتعة ، فلا عجب أن تنجذب النساء إليك وتحبك ! قال السيد روبنسون. لم أعلق على ما قاله مضيفي وإنما تابعت سرد قصتي:

-في مساء نفس اليوم هاتفتني المرأة وأعلمتني بأنها حدثت زوجها عني، وأنه تواق جداً لمقابلتي، وأنه يسعدهما لو قبلت دعوتهما على العشاء في بيتهما مساء اليوم التالي، في الساعة السادسة. اعتذرت لها غير صادق، بأن عندي ارتباط تلك الليلة... فاقترحت الليلة التي بعدها، فأعلمتها أنني مشغول أيضاً.. فقالت الليلة الثالثة أو الرابعة والخامسة، فاعتذرت بأن عندي ارتباط كل هذه الليالي...!

-ولم فعلت ذلك ؟! سألت السيدة روبنسون وهي تحملق بي بحيرة واستغراب !

–البروفيسور دهشان لا يقبل الدعوات بسهولة ! يجب أن تمضي ساعة كاملة وأنت تلحين عليه حتى يقبل دعوتك ! قال السيد روبنسون وهو يضحك !

– لقد فهمت ما يعني ، اذ لا شك انه كان يشير الى اليوم الذي دعاني به ، و قد أمضى وقتا طويلا و هو يقنعني بقبوله حتى قبلت ! فلم أعلق وإنما تابعت سرد قصتي.

–لا شك أنها استغربت جوابي...! "إذن سمي الليلة التي لا ارتباط بها عندك !"فقلت لها بأنني مشغول كل ليلة... ودار نقاش وجدل طويلين أعلمتني بأن قولي غير مقنع ، إذ لا شك بأنني أرفض قبول دعوتهما لسبب تتمنى لو تعرفه ! عندها سألتها لم لا يقوم الزوج بالدعوة ، استعادتني ما قلت ، إذ لم تفهم طلبي ، فأفهمتها بأن دعوة الرجل تأتي من رجل مثله ! لم تناقشني واستمهلتني لحظات ، ثم سمعت، على الخط الآخر من الهاتف ، رجلاً ذا صوت خشن يتكلم بطريقة غير مصقولة ، وبكلمات عامية لم أفهم الكثير منها إذ لم أسمع بها من قبل ، ولكني فهمت منه دعوتي للعشاء مساء اليوم التالي ، فقبلت.

–ولم لم تقبل دعوة الزوجة ؟! سألت السيدة روبنسون.

–عندنا في الوطن ، إذا كان المدعو غريباً ، فإن الذي يقوم بالدعوة هو الرجل إلا إذا كانت امرأة تدعو امرأة مثلها ، أما أن تدعو امرأة رجلاً والزوج موجود فهو تصرف غريب نوعاً ما !

–ولكن الزوجة هي التي تختار نوع الأكل فتطبخه ، وهي التي تتعب بالطبخ ! الزوج كالضيف تماماً ، يأكل ما تطبخ زوجته ! قالت السيدة روبنسون.

–دعوة الزوجة هي الأصل لأنها هي التي تصرف جهداً كبيراً في الشراء، فإذا هي رفضت طلب الزوج فلا يستطيع أن يدعو أحداً إلا بموافقتها وأخذ رأيها... ! قال السيد روبنسون.

" وحادثة الليلة هي برهان صادق على ما تقول يا صديقي جيمس...! " تأملت الزوجة للحظات، ولعلها فهمت ما جال بخاطري... !

–بعد تلك الليلة فهمت الفلسفة ووعيت الحكمة... ! ولهذا السبب فأنا لا أقبل الآن إلا دعوة الزوجة فقط ! قلت وأنا أبتسم بشقاوة !

–ألهذا السبب لم تقبل دعوتي إلا بعد جدال ونقاش ورجاء ؟ ! سأل الزوج بمكر وهو يهز رأسه، ثم التفت إلى زوجته وأضاف:

-لم يقبل البروفيسور دهشان دعوتي يا حبيبتي ، إلا بعد نقاش طويل ، والحاح وإصرار شديدين... !

حولت الزوجة نظرها إلى الجهة الأخرى ، إذ لا شك أنها عرفت الآن أنني لم أقبل المجيء إلى بيتهم إلا بشق الأنفس ، وأنني لست الإنسان الذي يمكن استمالته بسهولة ، ونسيان الاساءات بسرعة... فأحسست بأنني كبرت في عينيها، وأنني تعملقت حتى وصلت عنان السماء، كما شعرت أنني كبرت في عيني نفسي أيضاً !

-احترت ماذا آخذ معي هدية لربة البيت ! لقد فهمت من العجوز التي غضبت منها لطلبها إياي مساعدتها في غسل الصحون ، بأن التقاليد الأميركية تتوقع من المدعو أن يحضر معه شيئاً لسيدة البيت... وأفهمتني أيضاً وبصراحة بأنه من انعدام الذوق وقلة الأدب، تجاهل مثل هذا الواجب... فاعتذرت لها لحضوري فارغ اليدين بسبب جهلي بهذه العادة...!

-كيف يقوم الإنسان بواجباته الاجتماعية نحو أصدقائه ومعارفه، عندكم بالوطن ؟ سألت الزوجة.

-إن المتعارف عليه والمعمول به في الوطن ، أن المدعو عادة يرد الدعوة بمثلها، وأنني كنت عازماً أن أرد دعوتها بأن أدعوها إلى أحد المطاعم، كما أفعل مع جميع من يدعونني !

-أعتقد أن عاداتكم في الوطن خير من عاداتنا ، إذ بهذه الوسيلة يبقى التواصل مستمراً ، بينما في عاداتنا فقد يتوقف عند هذا الحد . قال الزوج .

-أوافقك الرأي على المستوى العائلي ، أما على المستوى الفردي، وخصوصاً إذا كان المدعو غريباً ، فإن الذي يقوم بالدعوة عادة هو الرجل... مجرد عزيمة عابرة... فقد يكون إحضار هدية أخف عبئاً وأقل تعقيداً ! قالت الزوجة.

-لقد أعلمتني هذه العجوز أيضاً، بأن بعض الناس يحتارون أحياناً ماذا يقدمون من هدايا إلى من يحبون ، أو إلى أصدقاء أو معارف وبمناسبات مختلفة... فيذهب الواحد منهم إلى أحد المتاجر الفاخرة ، حيث تتواجد هناك عادة سيدة ذات حنكة طويلة وخبرات واسعة في هذا الشأن يمكن استشارتها وطلب العون منها للمساعدة على اختيار هدية مطلوبة !

-كنت في مدينتنا الصغيرة وقبل أن نتزوج كثيراً ما أستشير والدتي أو أختي وأحياناً إحدى الصديقات، عندما أقدم هدية لحبيبة القلب شيلا !

ولكن بعد أن تزوجنا فقد أصبحت المهمة سهلة حيث أسأل شيلا مباشرة عما تحب أو أقترح عليها عدة أشياء تختار منها ما تريد ! قال السيد روبنسون.

–الهدية المفاجأة أكثر رومانسية وأشد وقعاً على القلب والنفس معاً... كثيراً ما تفقد الهدية سحرها وجمالها ، وكذلك رومنسيتها ، إذا كانت معروفة مسبقاً ! أنا لم أستشر في حياتي إنساناً عندما أنوي شراء هدية لجيمس ! قالت السيدة روبنسون وهي تبتسم بخبث أنثوي .

–لقد فهمت من السيدة إياها أن الذي يحتاج المشورة والمساعدة غالباً ما يكون الرجل. قلت.

–هذا صحيح تماماً ! لأننا معشر الرجال بسطاء وسهل إرضاؤنا... وقد ترضينا علبة من المناديل الورقية، مثلاً ! أقول مثلاً... أما النساء فنحن نحتار بين الألماس والذهب والفراء... ! قال الزوج بحماس شديد وقد رافق قوله ضربة من سبابة يده اليمنى.

–أو صندوقاً من الشوكلاته ، مثلاً ! قلت . وانفجرنا ثلاثتنا نضحك، وإن كان في ضحك الزوجة كثير من التحفظ والاحتشام والخجل !

مرّت لحظات دون أن يفتح أحد منا فمه عندما قالت الزوجة:

–إننا آسفان ! لم ندعك جيمس وأنا أن تكمل قصتك بتعليقاتنا ، فنرجو المعذرة ، ونرجوك أن تكمل القصة. قالت الزوجة وكرر الزوج اعتذاره، ووعد هو أيضاً بعدم المقاطعة !

–ذهبت إلى محلات " روبنسون " الشهيرة ، فقد قيل لي أنها من أفخر المحلات التجارية، وأن فروعها منتشرة في جميع مدن جنوب كاليفورنيا الكبيرة ، وإن معظم موجوداتها مستوردة من فرنسا وإيطاليا ، إذ تعتبرهما الأميركيات الأرستقراطيات ، كما فهمت ، بلدي الحب والرومانسية...!

–هذا صحيح ! إذا أردت أن تسعد معشوقتك حقاً فلتكن هديتك لها من صنع أحد هذين البلدين! قال الزوج دون أن يتذكر أنه وعد بعدم مقاطعتي ؛ فانفجرت الزوجة تضحك وشاركتها الضحك ، وعندما تنبّه الزوج لما فعل، صار هو الآخر يضحك !

–أنا آسف جداً جداً، يبدو أنه من الصعب أن لا يعلق الواحد منا على قصتك وأن يحتفظ بصمته !

-إن تعليقاتكما وقفشاتكما تسعدني حقاً ، وتشجعني على الإسهاب في سرد تفاصيل قصتي ؛ فأرجوكما أن تزيداني منها ! قلت صادقاً.

-شكراً ! شكراً ! قالا معاً! وتوقفا عن الضحك.

-أعلمت الخبيرة في محل " روبنسون " بأنني أريد هدية لشابة أحب أن أسرّها جداً، فسألتني عن عمر المرأة والمناسبة والمبلغ الذي أفكر بصرفه فأعلمتها بأنها في منتصف العشرينات، ولا توجد مناسبة خاصة إلا دعوتي إلى العشاء ! وأنها الزيارة الأولى ؛ أما مقدار المبلغ فلا يهم ! اقترحت علي إما قارورة عطر فرنسي وإما قميص نوم حريري مستورد من فرنسا ومعه أيضاً بيجاما قصيرة. ولما أعلمتني الثمن وجدت أن قميص النوم والبيجاما يزيدان دولارات قليلة عن ثمن قارورة العطر الحجم الكبير ؛ فاخترت الأغلى، حتى لا أبدو أمام نفسي بخيلاً... !

لاحظت أن عينيّ السيدة روبنسون محدقة بي، تتسع قليلاً قليلاً حتى خلتهما أصبحتا أكبر من شبابيك شقتها... وأحسست أنهما تكادا تخرجان من محجريهما... كما لاحظت أن عيني الزوج مركزة على شفتي أيضاً يلتقط الكلمة من بينهما قبل أن تخرج... !!

-لا ، لا ! إن هذا لشيء عجيب ! صاحت الزوجة بصوت خافت فزع وكأنما تشاهد فلذة كبدها ووحيدها الصغير يقف فوق صخرة عالية ويهم بقذف نفسه وسط أمواج البحر المتلاطمة غير واع لما يفعل... !

-ولم تستغربين هذا يا حبيبتي ؟! أنا نفسي لا أرى غرابة في ذلك ! إن البروفيسور سهيل فكر أن هذا هو الواجب ففعله. قال السيد جيمس روبنسون.

لعل اهتمام الزوجين وانفعالهما وتفاعلهما مع القصة ، لا شعورياً وبسبب الرواسب والعقد القديمة المتأصلة في جذوري وأعماقي ، وربما من أجل إظهار فحولة الرجل المحروم الجائع عاطفياً... القادم من صحراء القحط والتيه ، أمام أنثاه المغناجة الرافهة...، فقد التهب خيالي الدرامي ، وتسعّر وضعي القصصي ، فصرت أضخم وأجمل ، أبالغ وأزيد في حوادث القصة التي عشتها دقيقة بدقيقة... وعانيت بسببها آلاماً عميقة موجعة... فاسترسلت:

-وضعت البائعة الهدية في صندوق كرتوني لفّته بورق ملون صقيل وربطت حوله شريطاً أحمر فاقعاً، وألصقت عليه مقصوصة على شكل قلب إنسان وفوقه رسمة طير فارداً جناحيه ينزف دمه...!

-فلتستر السماء... ! أبانا الذي في السموات والأرض ! قال الزوجان يقاطعان بعضهما بعضا.

-في طريقي إلى بيتهم صرت أسترجع ما دار بيني وبين الزوجة وهي منهمكة في غسل وتجفيف وطي ملابسي. لقد أعلمتني أشياء كثيرة عن حياتها، وكان معظم الخصوصيات التي تبرعت بإعلامها لي تبرعاً ودون سؤال مني !

- تعرفت على ريتشارد من أول يوم دخلت به المدرسة ، فقد كان أحد زملائها في الفصل ، ومنذ صغرها جلب انتباهها بخشونته وشقاوته ، فقد كانت هي على العكس منه تماماً ، رقيقة ناعمة ومؤدبة... ! حاولت أن تجلب انتباهه وتتقرب إليه ولكنه دائماً كان لا يحس بها ولا يعيرها انتباهاً !

-يحدث هذا كثيراً في الحياة ! صديقة لي حدثت معها نفس القصة، ولكنها انتهت نهاية غير سعيدة ! قالت الزوجة معلقة.

-في الصفوف الثانوية بدأت تجلب انتباهه وبدأ يشعر بها ويلاطفها ؛ فدعاها مرة إلى السينما ، ومنذ تلك الدعوة وهما يخرجان معاً ولا يقبل أحدهما دعوة إنسان آخر. توطدت عرى الصداقة بينهما وتحولت إلى حب ، ثم حالما أنهيا الدراسة الثانوية تزوجا، وإن كان كل منهما فقيراً ووالداه بحاجة للمساعدة ! قالت بأنها تكبر زوجها بخمسة أسابيع وثلاثة أيام ولكنه يرى بها دائماً إنساناً يكبره كثيراً... كأخت كبرى... عمة أو خالة... وربما كأم...! إنساناً يلجأ إليها وقت الشدة ويأخذ برأيها ونصيحتها وقت الحيرة والإحباط والخوف من المجهول ! قالت لي بأنه كثيراً ما أعلمها بأنه عندما يكون هو وحيداً وتكون هي بعيدة عنه، فإنه يشعر بالخوف الشديد من المجهول، فلا تراه إلا وهو يركب سيارته وينطلق بها بسرعة جنونية حتى يلقاها ويلقي بنفسه بين أحضانها !

-هكذا أشعر أحياناً نحو الحبيبة شيلا... أشعر بخوف لا أعرف سببه ، وكأنما وحوش كاسرة تهجم عليّ تريد أن تمزقني إرباً إرباً ، أو أشعر أنني أغرق في المحيط ولا أجيد السباحة فأحسّ بأنني أختنق ! كثيراً ما يهزني الشوق إليها، خلال ساعات العمل ، فأفكر أن أذهب لرؤيتها ، وأتمنى من أعماقي لو أن باستطاعتي أن أفعل ، ولكنني أكتفي بمهاتفتها وسماع صوتها ! عندها فقط تغادرني مخاوفي وأشعر بالأمان !

" أنت لست الوحيد الذي يشعر بهذا يا صديقي جيمس ! فأنا أيضاً أشعر بالضياع بدون حواء، وإن كنت في كثير من الأحايين أعذبها وأقمعها...! "

تبادل السيد والسيدة روبنسون نظرة ذات معنى، فلاحظت أن الزوج ينظر إلى زوجته ويتأملها بعمق شديد ، وكأنما هو فنان مرهف الإحساس يتأمل رسمته الزيتية ، والتي فرغ لتوه من رسمها !

-هي تحب القراءة كثيراً وخصوصاً قراءة القصص ، أما هو فعنده حساسية ضد الكتب، وضد كل ما هو مطبوع... ومجرد التفكير فيها يسبب له صداعاً...! الدراسة عنده من الأعمال الشاقة التي لا يقوى على القيام بها، لذلك لم يفكر بتحصيل أعلى من الثانوية العامة...! وقررا مواجهة الحياة بهذه الشهادة...!

-اعذريني يا سيدة جنفيف ! جميع الذين يعرفونني بالوطن يتندرون بجهلي وغباوتي في تقدير الأعمار... وخصوصاً أعمار النساء... فقد ظننت مرة أن عمر امرأة دون الثامنة عشرة وأنها لم تبلغ سن الزواج بعد أو في أول بلوغها، عندما تبين لي أنها جدة ولها أحفاد وأنها تجاوزت الأربعين... والسن الذي أقدره لك هو السادسة أو السابعة عشر فهل أنا مصيب ؟! وضحكت جنفيف طويلاً، بسعادة ونشوة عظيمتين، شعرت بهما وأحسست صدقهما في عينيها المتوهجتين !

-شكراً ! شكرا جزيلاً ! أنا لست جدة ، ولكنني بعد ثلاثة شهور سأبلغ السابعة والعشرين من عمري." قالت.

-لا بدّ وأنك محبوب جداً من النساء المتقدمات بالعمر؛ إذ أن ذلك يمنحهن إحساساً جميلاً بالشباب ! قال السيد روبنسون مازحاً وهو يبتسم ! وبعد أن شكرته استرسلت:

-وأعلمتني بعد أن أجبت على كثير من أسئلتها... مثل من أين أنا وماذا أفعل ولماذا تركت الوطن و...و...الخ .... أعلمتني بأنهما من مدينة فينيكس بولاية أرزونا ، وأنهما أتيا إلى لوس أنجلوس قبل حوالي أربعة شهور، لكثرة ما سمعا عنها وعن وفرة الخيرات فيها... وأنهما أتيا ليجربا حظيهما بها وأنهما حتى الآن سعيدان ويفكران بالعيش فيها باستمرار ، إذ بها فرص عمل جبارة وواعدة ! كما أعلمتني بأنها كانت محظوظة جداً، إذ بعد أن تخرجت من الثانوية العامة اشتغلت في بنك كموظفة صغيرة ومتواضعة، على مسك الحسابات وإجادتها وبرزت بها، فلم تجد صعوبة عند مجيئهم إلى كاليفورنيا بالحصول على وظيفة مماثلة. أما زوجها، وبسبب كراهيته للعمل في الداخل، وحبه لإصدار التعليمات وإعطاء

الأوامر، ولأنه حصل على خلفية ورثها عن والده بالعمل معه في العطلات المدرسية، فقد وجد عملاً كمساعد لرئيس ورشة بناء... فأعجبته المهنة واتخذها حرفة يعتاش منها !

–قد تستغرب إن قلت لك بأن مثل هذه الحرف التي نعتبرها نحن ليست بذات قيمة ، قد تدرّ على صاحبها دخلاً لا يحصل عليه حتى مدير بنك ! قال السيد جيمس روبنسون !

–هذا صحيح ! خصوصاً إذا حالفه الحظ وأصبح هو المتعهد ! قالت شيلا روبنسون مؤيدة زوجها.

–لقد أعلمتني أيضاً، أنهم يسكنون الآن في شقة صغيرة ومتواضعة، وعندما يصل عفشهم الذي تركاه عند والدتها المطلّقة في أرزونا، سيرحلان إلى شقة أكبر وأفخم. إنهما يعيشان حياة مريحة وهم واثقون بالمستقبل الزاهر والواعد، خصوصاً عندما يصبح زوجها هو نفسه متعهداً وصاحب العمل. إن فرص العمل لا بأس بها في أرزونا ، أما في لوس انجلوس ، فالمستقبل فاتح لهما ذراعيه وينتظرهما ليعانقهما بحرارة وترحاب ، وفرصتهما أن يصبحا ثريين مرموقين ليست صعبة المنال... !

–ولم فكرت أنها في السادة أو السابعة عشرة من عمرها ؟!سألت السيدة روبنسون.

–بسبب نحافة جسمها وصغر حجمها. قلت.

–هناك نساء ورجال أيضاً من الصعب معرفة أعمارهم ، فقد تظنهم في الأربعين بينما يكونون قد تجاوزوا الستين من أعمارهم ! قال السيد روبنسون.

أما أنا فتابعت سرد قصتي:

–رحب الزوج بي ترحيباً حاراً ، وابتسامة كبيرة جذلى وصادقة تغطي وجهه ، وشدّ على يدي بحرارة وقوة أحسست أن أصابع يدي قد تكسرت في قبضة يده... كانت تشبه بقوتها قضبان الحديد... لعله لاحظ تألمي فاعتذر بعفوية وأشار إليّ بالجلوس... وقبل أن أفعل ذلك أقبلت الزوجة من المطبخ فصافحتني هي الأخرى بحرارة وبراءة... وابتسامة أيضاً كبيرة جذلى تغطي وجهها ! وضعت الهدية أمامي على طاولة الوسط وجلسنا ثلاثتنا، الزوجان قبالتي متجاورين. صرت أنقل الطرف بينهما فهالني الفرق الشاسع والتناقض الكبير بينهما؛ فالزوج ضخم الجسم طويل القامة قبيح المنظر ملابسه وسخة ومهترئة ، سوقي الألفاظ غير مصقول وكأنما أمضى حياته في جبال وغابات ولاية أرزونا أو في صحاريها ؛ لم ير الحضارة

ولم يدخل مدينة...! تساءلت في سري: كيف تسمح امرأة لمثل هذا المخلوق حتى أن يقترب منها، كيف لا تتكسر عظام الزوجة عندما يحتضنها...!

–بعض النساء يحببن الرجل الخشن غير المصقول، إذ يعتقدن أن هذه هي الرجولة والفحولة ! قال السيد روبنسون وهو يتأمل زوجته.

–لا يا عزيزي ! هناك فرق شاسع بين أن يكون الزوج رجلاً بالمعنى الذي تعنيه هذه الكلمة، وبين أن يكون جلفاً وغير مصقول ! قالت السيدة روبنسون بلهجة عتاب !

–لقد تصورته بعد حديث الزوجة عنه وبعد محادثتي له على الهاتف، بأنه لابدّ وأن يكون على جانب كبير من الخشونة والفظاظة ، ولكنني لم أكن أتصوره بكل هذا القبح والغلظة ، وعدم تناسق الأعضاء الجسدية...! إنني بعد أن رأيته أعذرت " دارون " لإصراره على أنّ أصل الإنسان لا بدّ وأن يكون قرداً ، إذ أن فمه وشفتيه يشبهان إلى حد كبير فم وشفتي القرد ! ولقد تساءلت بيني وبين نفسي ثانية؛ كيف تستطيع امرأة تحت الشمس، مهما كانت عاشقة أو منبوذة ، أن تسمح لمثل هذا المخلوق أن تلامس شفتاه شفتيها... أو حتى يديه أن تلامسا جسمها !

–أؤكد لك يا بروفيسور دهشان أن الزوجة جنفيف لا ترى قبح زوجها الذي تراه أنت ونراه نحن ! إنها ما دامت تحبه ، فإنها ترى قبحه جمالاً وعيوبه فضائل ! العاشق يا صديقي يرى معشوقه أجمل وألطف بل أرق مخلوق في الوجود ! قال السيد روبنسون.

–إذا كان يراه بكل هذا الجمال وله كل هذه الفضائل، مع أنه غاية في القبح وكل تصرفاته رذائل وعيوب؛ فكيف يراه إذا كان هو في حقيقة الأمر قطعة من الجمال النادر، وكل ما يقوله ويفعله حكماً ودرراً...! قلت هذا وحوّلت نظري إلى زوجته التي هي بدورها التفتت إلى الجهة المعاكسة حتى لا تلتقي عيوننا !

–إذا كنت تعني حبيبة القلب شيلا، فإنني أراها أجمل من " الموناليزا " ، بل وحتى أجمل من فينوس وأفروديت ، وكذلك فهي أكثر حكمة من أفلاطون نفسه ! قال ذلك ووضع يده حول خصر زوجته وضمها إليه، ثم اقترب بوجهه من شعرها، وبدأ يمر ذقنه فوقه يمنة ويسرة، ثم يتوقف للحظات فيستنشق عطره !

–تحضرني بهذه المناسبة حكمة تروى عن نبي الله، سيدنا سليمان الذي منحه الخالق السلطة المطلقة على جميع طيور الأرض. لقد طلب إلى البومة ، وهي كما تعرفون أقبح طيور الأرض قاطبة ، بأن تأتيه بأجمل

طير على وجه الأرض ، فغابت وعادت إليه بعد قليل وقدمت له ابنها ! لم يستغرب سيدنا سليمان فعلتها، بل ربما توقعها أن تفعل ذلك ! نحن نرى من نحب أجمل مخلوق في الوجود ! قلت.

-هذا يحدث إذا كان من نحب في منتهى القبح حقاً ؛ فكيف إذا كان في منتهى الجمال ؟! قال الزوج روبنسون وهو يتأمل زوجته بإعجاب ووله !

-هل لك أن تكمل قصتك يا بروفيسور دهشان؟ ! إنني متشوقة لسماع ما حدث ! قالت الزوجة وهي ما زالت مستكينة لتدليل زوجها ومداعباته !

-كانت الزوجة جنفيف ، صورة معكوسة عن زوجها بزاوية مقدارها مائة وثمانون درجة ! إنها صغيرة الجسم نحيفته... لطيفة... مؤدبة... رقيقة... دائماً باسمة... تشع البهجة من عينيها... شقراء الشعر ناعم الملمس... تتركه مرسلاً على كتفيها. كانت وهي تسير كأنما هي قطعة متحركة من السحاب ؛ تنحدر من جذور نمساوية ؛ بينما كان شعر الزوج قصيراً جداً، وحلاقته كحلاقة البحارة الأميركان، وكان شديد السمرة، ولعله كان من جذور إسبانية مكسيكية... !

-كنت أتصورك ترتدي ملابس البدو الأجلاف غلاظ القلوب، الذين نشاهدهم في السينما على ظهور الجمال أو الخيل المغيرة ! قال الزوج وهو يضحك ضحكات خلتها كقصف الرعد أو انهيار جدار من الحجارة !

-هذا يا حبيبي في الأفلام فقط ؛ أما في الحياة العادية فهم يرتدون ملابس مثلنا بالضبط ! قالت الزوجة جنفيف محاولة أن تلطف ما تفوه به زوجها.

-وهل تعلمت كيف تشغّل الغسالة وتغسل ملابسك ، أم ما زلت تستجدي الناس من حولك ليشغلوها لك ؟! سأل الزوج بصوت كالجاروشة ، وإن لاحظت أن به دلائل الاهتمام والجدية.

-أقول لك الصدق ؛ لا، ليس بعد ، إنني ما زلت أحاول؛ وقد أصل في يوم من الأيام ! قلت بطيبة قلب وسذاجة تصل إلى حد الغباء، وأتبعتها بضحكة محاولاً أن أفهمه أن ما قلته كان مزاحاً !

-لا أظن أن إنساناً بهذه العقلية سيفهمها مثلما عنيت. قال السيد روبنسون .

-على كل حال ، ضحك السيد " كنارو لوباز" بقلب خلي وبحماس أكثر من سابقه... فضرب على فخذيه وأرجع جسمه إلى الوراء ، ثم أعاده إلى مكانه من شدة التأثر ، مما أخجلني وأربكني حقاً !

-حتى تتعلم أنت كيف تشغل غسالة الملابس ، ربما تحتاج إلى عام أو أكثر ! إن طفلاً صغيراً يتعلم تشغيلها في ثوان ... ! وهزّ رأسه يمنة ويسرة كأنما يحاول أن يجد حلاً لمشكلة أعيت الخبراء ! ثم أضاف:

-لا شك أن عندك شيئاً من التخلف ! لقد قرأت بأن معظم الناس من البلاد التي أتيت منها إما متخلفون أو أشباه متخلفين... ! قالها وهو يقهقه !

-يا له من إنسان غريب التفكير والتصرف ! قال السيد روبنسون.

-المهم، شعرت بإهانة بالغة، وبدأت أفقد صبري ويثور في داخلي تفكيري البدوي ونزعتي الصحراوية... واحترت ماذا أفعل... هل أغضب وأغادر البيت، أم أتظاهر بعدم الاهتمام فأضحك، وأعتبر أن ما يقوله هو نوع من المداعبة والمزاح، وإن كان من النوع الثقيل البايخ...؟! لعل الزوجة جنفيف أدركت ما يجول بخاطري، إذ لاحظتُ أن حبات من العرق الساخن قد غطّت رقبتها وجبينها ، وأن حمرة شديدة قد علت كل وجهها ، كما لاحظت أن قلقها وتوتر أعصابها قد ارتفعا ، وأن خجلاً غامراً قد جلل وجهها...!

-ألا تعتقد أنك تبالغ قليلاً يا حبيبي ؟! بعض الناس ينبغون ويبدعون في حقل من حقول المعرفة، ولكنهم يفشلون في حقول أخرى ! قالت الزوجة برقة خجلى وألم معبّر.

-هذا صحيح ! إن لي صديقاً في فينيكس أمضى ثلاث سنوات ليتعلم مهنة النجارة ففشل، ولكنه نجح نجاحاً كبيراً في تعلم مهنة الحدادة ! قال الزوج وقد كف عن الضحك، ولأول مرة أراه يتكلم كما يتكلم الإنسان الحضاري، فيناقش بعقل ويعبر بأدب.

-وهل صدّقت كلامي الآن ؟ البروفيسور دهشان ليس ماهراً في تشغيل غسّالة الملابس، ولكن لا شك أنه ماهر في حقل آخر، وإلا لما كان أستاذاً جامعياً ! قالت السيدة جنفيف.

-أنا بكل ما له علاقة بالتكنولوجيا بطيء جداً لدرجة لا يتصورها العقل ! قلت صادقاً وأنا أبتسم، محاولاً أن أخفف بعضاً من خجل وقلق الزوجة المسكينة والتي تبدو لي وكأنها حزمة من الخوف والتوتر !

-أن تعرف كيف تشغل غسالة ليست التكنولوجيا... إنها أشياء بسيطة وروتينية ولا تتطلب استعمال المخ. قال وهو ما زال محافظاً على انتمائه لقطيع الناس الحضاريين.

-عندما كوّن الله عقلي لم يخصص جزءاً منه لفهم مثل هذه الأشياء، ولعله إضافة إلى حيز الفكر والفلسفة...! قلت متحذلقاً ومتفلسفاً وإن كنت مؤمناً بما أقول.

-إن البروفسور دهشان جيد في التدريس وكل ما له علاقة بالفكر والفلسفة ! قالت الزوجة بنعومة ورقة خلت جسمها يتلاشى مع الأثير... إذ لا شك بأنها تحاول أن تغطي على تصرف زوجها وخشونة أسلوبه... وإن كنت في قرارة نفسي قد توصلت إلى حقيقة لا جدال فيها، من أن الزوج لم يقصد إهانتي، وأن هذا هو أسلوب تفكيره وطريقة كلامه !

-الحياة ليست كتباً وأفكاراً فقط، وإنما لها متطلبات أخرى ضرورية ! قال الزوج بجدية وأدب.

-صدقت ! صدقت ! صدقت ! قلت بحماس بالغ وبجدية أكثر منه، وأحسست بأن ثورتي العارمة وغضبي كله وحساسيتي جميعها، قد فارقتني ! لقد أسعدتني جداً تلك الفرحة الكبيرة والابتسامة العريضة التي لاحظتها على وجه الزوجة وتطل من عينيها !

-اعذراني ! أنا لا أعرف، ولا أحاول أن أعرف، بل ولا يهمني حتى أن أعرف أو أتعلم شيئاً خارج نطاق العقل والفكر! قلت باستحياء وتواضع ممزوج ببعض الفخر القبلي والتفاخر الجاهلي.

يبدو أن لا فائدة ترجى من تهذيب سلوك الزوج، وأننا زوجته وأنا، كنا نحاول عبثاً ! إن فرحتنا لم تدم طويلا، وتفاؤلنا كان في غير محله، إذ سرعان ما نسي الزوج أو تناسى الأسلوب الحضاري المهذب الذي كان يتكلم به، وصار يستعمل أسلوب الشارع الجلف عندما قال:

-كان لي في أرزونا صديق مجنون، كنت دائماً أضحك عليه وأسخر منه، فقد كان يحب الكتب كثيراً ولا يعمل شيئاً غير القراءة، ولا تراه إلا وبيده كتاب ! كنت وأصدقائي نتندر عليه، فيهز رأسه ويبتسم ولا يغضب منّا أبداً ! قالها بفخر وتعال وكأنما يشكر الخالق أن جنبه هذه الهواية السخيفة !

–لعله هو الذي كان، بينه وبين نفسه، يسخر منكم، لأنه لا شك كان يعتقد أن الله حرمكم من نعمة خصّه بها وحده ! قلت بسعادة ممزوجة بالتشفي.

–وهل تعتقد أن هذه نعمة ؟! سأل بعنجهية وتعالٍ واستكبار!

–لو كنت تعرف كيف تشغل الغسالة، لما كان لنا شرف التعرف عليك يا بروفيسور دهشان ! قالت الزوجة بخفة وهي تضحك متجاهلة سؤال زوجها.

قلت وأنا أتأمل غمازتي وجنتيها الراقصتين الضاحكتين:

–ولم لا يكون العكس هو الصحيح ؟ وهو أنني أنا الذي كنت محظوظاً للتعرف عليك وعلى زوجك ؟!

–لا تغضب يا بروفيسور الجامعة ! نحن وأنت حصل لنا الشرف ! قال زوجها وانفجر يضحك بسوقية وتبذل.

–لاحظت أن الزوجة، وفي أي اتجاه تطلعتْ، فإن نظراتها سرعان ما تعود وتحط على الباكيت الراقد فوق طاولة الوسط الجرباء الرابض أمامنا... كما لاحظت أن اهتمام الزوج لم يكن بأقل من اهتمام زوجته نفسها !

وقفت، ثم رفعت الهدية من على الطاولة وأحنيت قامتي قليلاً احتراماً أمام الزوجة وقلت:

–هذه الهدية المتواضعة لكِ ، أرجو أن تنال رضاكِ... !! قلت هذا وأنا أناولها الباكيت والفرحة تتراقص فوق كل ذرة في جسمي... والفخر بمروءتي وكرمي والاعتداد برجولتي يملأ إهابي.

–أي شيء منك لطيف وجميل يا بروفيسور ! ما كان يجب أن تكلف نفسك مشقة البحث وعناء الحمل...! قالت السيدة جنفيف بتواضع جم وأدب بالغ وهي تمد يديها لتتناول مني الباكيت، وقد أحسست أنها لسلاسة أسلوبها وعذوبة كلماتها ورقة أعطافها، تكاد تتبخر وتتلاشى مع الأثير !

–إنها هدية رمزية تعبر عن سروري البالغ وسعادتي الغامرة، بالتعرف عليكما وبمصادقتكما، أنت وزوجك ! قلت وأنا أجلس وفحولتي تهدر هدراً، وشعور بالرضا عن نفسي قد بلغ أوجه !

–أخذت الزوجة جنفيف الهدية ووضعتها أمامها على الطربيزة دون أن تفتحها...! قارنت بين الزوجين وتساءلت بألم وحيرة، عن السر الذي يجعل

به الخالق سبحانه وتعالى إنسانين على النقيض من بعضهما تماماً، جسمياً وعقلياً وفكرياً وثقافياً بل وسلوكياً أيضاً ، أن يتفقا على أن يعيشا حياتهما معاً ! ثم تساءلت ثانية، كيف تقبل وتتحمل زهرة رقيقة ناعمة كجنفيف، كتلة من غيوم الفجر وباقة عبق من ندى الصباح ، أن يلف جسدها اللدن الأهيف، مثل هذا الشمبانزي الجلف، فتستطيع أن تتبادل معه العناق والقبلات بل وتتحمل حتى النظر إليه...!؟ شعرت بقرف واشمئزاز وتمنيت لو أن أستطيع أن أتقيأ...! وفجأة لمت نفسي فقد أحسست بتأنيب ضمير موجع، إذ معنى ذلك أنني أعترض على حكم الخالق، وأنني أحسد الزوج وأتمنى الزوجة لنفسي...!

–وهل حقاً شعرت بهذا؟! أعني أنك تمنيت الزوجة لنفسك ؟! سأل السيد روبنسون وعلائم الاهتمام والجدية الشديدتين تبدوان في كلامه وفي تعبيرات وجهه وشارات يديه...!

–إن قلت لك نعم أو قلت لك لا، فأنا أكذّب عليك... ! حقاً ، أنا نفسي لم أستطع أن أتبين حقيقة مشاعري وعواطفي...! قلت باتزان وجدية، واهتمام أكثر من جديته واهتمامه هو !

كان كل اهتمام السيدة روبنسون مركّزاً عليّ، وكانت عيناها محدقة بي وأنا أروي القصة، وكان زوجها لا يقل اهتماماً عنها... ولكن بعد أن طرح زوجها سؤاله، صارت تنقل طرفها بيننا نحن الاثنين، وكأنما تريد أن تسأل سؤالاً...ولكنها مترددة !

–المتناقضات في هذه الحياة كثيرة... والغرائب فيها أكثر... ! الحب أحياناً، يصور القبح جمالاً والجلافة نعومة ورقة، والوقاحة أدباً ودماثة أخلاق ! هذا الزوج في رأيي يتخذ من زوجته حبيبة وأمّاً معاً... يعانق الأولى فيشبع غرائزه الجنسية... يلقى بنفسه على صدر الثانية فيحتمي به ؛ ويضع رأسه على كتفيها فيبكي كطفل صغير مذعور ليتخلص من خوفه ووحدته وأحزانه... ! إنه كالأرنب الوليد يعيش في بحيرة حبها وحنانها، ويتفيأ في ظلال رعايتها وحمايتها... ! قال السيد جيمس روبنسون.

تبادل السيد و السيدة روبنسون النظرات ... أكثر من مجرد نظرات ... حاولت أن أجد لها تفسيراً... فلست أدري إن أخطأت في تفكيري أم أصبت ...!؟ أوّلت ... فسّرت ... نظّرت ... حلّلت ... شرّقت ... غرّبت ... ظننت ... شككت ... وطرقت كل باب فلم يفتح واحد منها ولم أتوصل إلى شيء... ولعل السيدة شيلا روبنسون تساءلتْ مثلي... عن سر خلط زوجها بين فلسفة القبح التي نتحدث عنها، وبين الحديث عن اتخاذ الحبيبة كأم وكزوجة معاً ... في كلام لم نتطرق إليه ولم يرد في

مداخلاتنا...!؟ إن السيد جيمس روبنسون يتفوه أحياناً ببعض الكلمات التي تحيرني... !

لاحظت احمرار خدي الزوجة جنفيف واحتقان الدم في أذنيها، فقد استعمل زوجها كلمة عامية نابية لكلمة "يضاجعوا"، ثم وبطريقة تلقائية، رفعت ذراعها اليمنى إلى وجهها لتحتمي به من خجلها، ألقت بعدها بكامل وجهها إلى الأرض... ! وعلى الرغم من أنني لم أسمع الكلمة من قبل، إلا أنني شعرت من الطريقة التي قالها الزوج وألقت الزوجة وجهها إلى الأرض، التي أتبعها بإشارة مقرفة ودونية من يده اليمنى، بأنها كانت كلمة نابية جداً وتجرح الحياء وتخدش المشاعر الأنثوية... !

-حقاً، إنه مخلوق غريب الطباع والتصرف، وأوافق يا بروفيسور دهشان استغرابك زواج النقيضين ! أنا لا أفكر بالفوارق الجسدية بقدر ما أفكر بالفوارق الفكرية والحضارية ! قال السيد روبنسون بحماس ممزوج بالقرف ! ـ ـ وماذا أحضرت لزوجتي؟! سأل الزوج كنارو لوباز وهو يراقب باهتمام وترقب زوجته وهي تنزع الرباط القماشي المبرقع والورقة الملونة الفاخرة التي تحتضن الباكيت.

-شيئاً بسيطاً جداً...أقل بكثير مما تستحق! قلتها بتواضع مصطنع، وإن كنت في داخلي أشعر بالزهو والفخر، و كذلك بالاعتزاز والرضا عن كرمي البطولي وشهامتي العربية...!

-إن زوجتك بمساعدتها لي وحديثها الممتع، خففت كثيراً من غربتي واغترابي وأزالت بعضاً من أحزاني وهمومي في ذلك اليوم...! حقاً إنها امرأة ودودة، تساعد المحتاجين... يجب أن تفتخر بها !

-لا أظن أن السيد بيرت يرى في زوجته ما تراه أنت...! أعني مساعدتها لك ! قالت السيدة روبنسون.

-كان الباكيت نائماً في حضنها وراقداً فوق فخذيها وهي تفتحه... وضعتْ الرباط القماشي على الطربيزة ثم رفعتْ الغطاء... فتوقعت أنا فرحة كبيرة تغمر وجهها وابتسامة سعادة جذلى تعلو شفتيها... وكذلك كلمات شكر حميمة تخرج من فمها؛ كما أنني انتظرت من الزوج أن يقف وينحني لي بأدب واحترام على طريقة الممثلين الذين ينحنون للنظارة من على خشبة المسرح، ويشكرني على كرمي وحسن ذوقي؛ ولكنني بدلاً من كل ذلك، لاحظت صُفرة ممزوجة بزرقة قاتمة تعلو وجه الزوجة، إذ سرعان ما أعادت الغطاء على الباكيت وتطلعت نحوي بنظرات قلقة وجلة وتفوهت

بكلمات جامدة مرتجفة:"شكراً ! هدية جميلة!" وهمّت بالنهوض وهي تجمع وتلف بطريقة عشوائية سريعة الورقة والرباط القماشي والبطاقة... ولكن الزوج الذي كانت عيناه ترقبان باهتمام وترقب شديدين حركات زوجته، مدّ يديه الإثنتين بخشونة وقوة، وسحب الباكيت منها قائلاً: "دعيني أرى ما أحضر لك هذا البدوي ! " قال بغضب لاهب ! " دعني أقدم العشاء أولاً...! " قالت الزوجة وهي تحاول أن تمنعه من أخذ الباكيت، ثم أضافت: " ستراها فيما بعد يا حبيب القلب !"

–يا للمسكينة ! لا شك أن موقفها حرج جداً ووضعها صعب كثيراً ! قالت السيدة روبنسون بحزن وألم ظاهرين .

–امرأة تتزوج هذا النوع من الرجال يجب أن تتوقع هذا النوع من المعاملة ! قال السيد روبنسون باعتداد.

–لا شك أن محاولة اعتراض زوجته على رؤية الهدية قد قوى من إصراره على رؤية ما بداخل الباكيت، فسحبه منها بقوة وخشونة وبطريقة عدوانية شرسة، أوقعت الزوجة على الأرض، والتي سرعان ما استسلمت فتركت له الباكيت وعادت هي إلى مكانها... فلاحظت أنها كانت حزمة من القلق والخوف والتوتر... !

–لو كان إنساناً سويّاً لأدرك أنك لم تقصد سوءاً، وأن غايتك شريفة ! قالت السيدة روبنسون.

–استغربت جداً هذه الحيرة، وكل هذه المناقشات والمجادلات، كذلك كل هذه المشاحنات والمضايقات، فوق هدية متواضعة خجلى... ! تأمل الزوج البطاقة بتمهل وروية، ثم قرأها فمطّ شفتيه... فصل الورقة بغضب وألقى بها فوق الطربيزة أمامنا... ثم فعل بغطاء الباكيت مثلما فعل بالورقة... حملق بداخل الباكيت فاتسعت حدقتا عينيه... قرّب الباكيت إلى عينيه بعد أن انحنى قليلاً... أبعد رأسه عنه إلى الوراء قليلاً، ثم قرّبه منه ثانية... ثم كأنما نخره مخرز في ظهره، فاستقام في جلسته ! نظر إليّ ثم إلى زوجته ثم إلى ما في الباكيت... أعاد الكرّة مرة أخرى، وكأنما يمسك أفعى...! حمل بحذر شديد قميص النوم ورفعه إلى أعلى، فسقط منه السروال القصير الأسود... انحنى ورفعه ثم فرده بين يديه الاثنتين وحملق به... أحسست أن الشرر المتطاير من عينيه قد أحرق السروال المتمدد بين يديه، حتى صار رماداً... !

كان السيد والسيدة روبنسون يرقبان بقلق ونفاد صبر شفتي... وأحسست كأنما كانا يرجواني أن أسرع في الحديث، مخافة أن يمضي الليل قبل أن تنتهي القصة !

-وهل أحضرت هذا هدية لزوجتي أيها البدوي المنحط ؟! ماذا تظنني يا ابن الكلبة، قواداً ؟! ثم تقدمها لها أمامي ودون خوف أو وجل...؟! وهل تظن أن نساءنا ينمن مع كل من يقابلهن ويبدي رغبته في ذلك... أم أن هذه عاداتكم في بلادكم المتخلفة ؟ ! قال السيد كنارو لوباز وهو يغلي غضباً !

-عقدت الدهشة لساني وتجمدت الكلمات فوق شفتي ولم أدرِ السبب الذي جعل الزوج يغضب مني ويقول مثل هذا الكلام الوقح ، بدلاً من شكري على هذه الهدية الثمينة... ! لعل صمتي زاد في حنقه فتفوه بكلمات أحسست وقعها فوق جسمي كأنها سياط من نار... !

-لم لا تتكلم أيها الجبان النذل...!؟ تكلّم يا ابن العاهرة...! قال بغضب ماحق والشرر يتطاير من عينيه، وهو يكوّر يديه ويتقدم مني ليضربني !

-الآن فقط أدركت أنني أتيت أمراً إدّا، وأنني تصرفت تصرفاً مشيناً، وإن كان بدون قصد سيء مني !

-يجب أن يكون قد فهم الآن أنك لم تقصد سوءاً؛ وأنه اختلاف حضاري في العادات والتقاليد، وإلا لما كنت أعطيتها الهدية أمامه! قالت السيدة روبنسون بغيظ ممزوج بالإشفاق.

-إن مثل هذا الزوج غير المثقف وغير المصقول ، لا يمكن إلا أن يفكر هكذا ويتصرف مثل هذا التصرف غير الحضاري! قال السيد روبنسون.

-وماذا كنت ستفعل يا حبيب القلب، لو أنك كنت في مكان هذا الزوج ؟! سألت السيدة روبنسون زوجها وهي تصرّ على مخارج الكلمات وبلهجة تحدٍّ حيرتني !

-لو أن البروفيسور دهشان أحضر لك الليلة، حاجيات نسائية خاصة، بدلاً من صندوق الشوكلاته، لما كنت غضبت، ولما كنت حتى عاتبته، لأنني سأدرك عندها، أنه قد تصرّف طبقاً لعادات بلده وتقاليدها ! قال الزوج روبنسون وهو الآخر يصرّ على مخارج الكلمات، وكأنما يحاضر في جمع من زملائه !

-لو كان هذا حدث فعلاً، لكنت أنا التي غضبت منك أنت ، وثرت عليك أنت ، وليس على البروفيسور، لأنني عندها سأشعر أنك لا تحبني وأنك لا تغار عليّ ! قالت الزوجة شيلا بدلال، وإن بدت شبه غاضبة وقد احمرّت أذناها وتوردت وجنتاها !

وبسرعة البرق الخاطف، وحتى لا أدع مجالاً للنقاش والعتاب الذي قد يتطور إلى غضب فشجار بين السيدة والسيد روبنسون، قلت:

-في الواقع إنني عذرته فيما بعد ، وخصوصاً عندما فكرت ملياً بالأمر ودققت ! فلو كنت أنا مكانه لتصرفت نفس تصرفه وربما أكثر..! كيف لا أثور ولا أغضب وأنا أتصور المرأة التي أحبها تسلم نفسها لرجل آخر... !؟ قلت للسيدة والسيد روبنسون.

لاحظت أن بعض التبدل قد طرأ على وجه السيد روبنسون الذي قال:

-إن مفهوم الحب والتزاماته يختلف من محب لآخر، ومن مجتمع إلى غيره !

-المرأة تسعدها جداً غيرة رجلها عليها، ولكن بطريقة حضارية ! قالت السيدة روبنسون.

لم أفهم ما عنى الزوج ولا ما عنت الزوجة... ولم أحاول حتى أن أعطي كثير اهتمام لما قالاه ! عدت إلى قصة السيدة جنفيف لوباز و زوجها فقلت:

-ماتت الابتسامة فوق شفتيّ ، وتلاشت كل تعابير الفرح والسعادة في نفسي...! تساءلت أية جريمة ارتكبت وأي عار ألحقت بالزوجين !؟ تجمدت في مكاني وبحثت عن كلمة أقولها... أية كلمة... ولكن الله سبحانه وتعالى لم يفتح علي...! لقد كان لساني قطعة حجر حثّان ملقاة في فمي... !

-تكلم يا ابن الزانية.. مالك صامت ؟! هل تعتقد أنك بهديتك القذرة هذه لزوجتي، ترشوني وتشتري سكوتي ؟! هل هذه هي عاداتكم في بلادكم المتخلفة ؟! قال ذلك ثم انتصب واقفاً وكأن خروج الكلمات من فمه وسماعها واضحة جلية بأذنيه، قد انعكست على مرآة عقله، فضخمت له هول الفاجعة وعظم المصيبة التي حلت به، فأشعلت في قلبه وعواطفه غيرته على شرفه " المكلوم " ... وأججت نار حميته على عرضه المستباح ؛ عندها تفجر في داخله لهيب الحقد وسعار الانتقام... ! هجم عليّ كدب جريح، وبكل ما عنده من طاقة وغضب، لف قبضتي يديه الخشنتين الضخمتين حول عنقي يريد كتم أنفاسي، وزبد كرغاء البحر يخرج من بين شفتيه الثائرتين المرتجفتين... ! وبكل ما عندي من قوة وصلابة... قوة وصلابة لم أعهدهما بي من قبل ، أبعدت يديه اللتين كانتا ملتفتين ككلابتي حديد حول عنقي.

-يا له من مخلوق غير حضاري ! حقاً إنه ذو عقل مغلق ! قالت السيدة روبنسون بأسف ممزوج بالغضب.

-حقاً إنه مخلوق ذو عقل مغلق ! إن تصرفاته أثارت حنقي من مجرد الوصف! فلو كنت مكان البروفيسور سهيل لربما أنا الذي اعتديت عليه... ! قال السيد روبنسون بحنق ظهرت آثاره على صفحات وجهه !

-أنا لم أرتكب بحقك جرماً يدعوك للغضب ويجعلك تتصرف مثل هذا التصرف الوقح الأرعن... ! قلت ولكن دون نقمة أو حقد ، فقد أدركت أنني لا بد وأن أكون قد ارتكبت جرماً حضارياً ولكن دون إصرار وسابق تعمد !إنك جلف ومتخلّف! قلت .

-وتشتمني أيضاً ؟! أيها البدوي النتن ! قالها بغضب مسعور وثورة عارمة...!

-حبيبي !روحي ! أرجوك ، حاول أن تفهم ! لا شك أن سوء فهم حضاري قد حدث... ! والبروفيسور دهشان أجنبي لا يعرف عاداتنا وتقاليدنا ! لقد اعتبر أن الهدية هي رد جميل لما قمنا به نحوه ! لقد حضر إلى أميركا قبل مدة ليست بطويلة! قالت الزوجة وهي ترتجف وبجزع يتطاير من عينيها.

كان السيد والسيدة روبنسون يتابعان القصة بأعصاب مشدودة متوترة، وبأنفاس لاهثة مأزومة، وكأنما تجري أحداثها الآن أمامهما... وكانا يحملقان في وجهي مشدوهين مصدومين... يستحثان الكلمات من شفتي.

-لا ! إنه يعرف... إنه خبيث يتصنع البراءة... ابن الكلبة... إنه يريد أن يأخذك إلى الفراش لينام معك... ابن الساقطة . وبعد أن لحس شفتيه بلسانه أضاف:

-لقد أعلموني بأن رجال ذلك الجزء من العالم كالحيوانات، لا شغل لهم ولا يفكرون إلا بما بين فخذي المرأة... ويعتقدون أن الله قد خلق النساء فقط لييناموا معهن... الخنازير... يعني لمتعتهم وشهواتهم ! قال ذلك وأتبعها ببصقة لاهبة تنضح بالحقد والغضب !

-حشرت الزوجة جنفيف نفسها بين جسمينا فباعدت بيننا، وصاحت بغضب بزوجها أن يغلق فمه وأن يكف عن ترديد كلماته الوقحة النابية... إذ جعل من نفسه سخرية وهزءاً !

–لا تشتم والدتي ولا تذكر اسمها على لسانك القذر ! إن والدتي امرأة صالحة أمضت كل حياتها بالصوم والصلاة والزكاة وفعل الخير... ! قلت وقد اشتد بي غضب ماحق، لوصفه أمي بالكلبة؛ وفارقني خوفي وتهيبي فأحسست بشجاعة نادرة لم أشعر بمثلها من قبل.

–لو كانت أمك حقاً كما تقول، لما أنجبت وغداً مثلك يعتدي على نساء الآخرين وينام معهن في غفلة عن أزواجهن. قال وقد تجدد لهيب غضبه، إذ لعله تصور في تلك اللحظة أنني ربما أكون فعلاً قد نمت مع زوجته !

–إنك عقيم الفهم ضيق التفكير. قلت وقد استشاط غضبي لإصراره على سوء قصدي.

–قلت لك كف عن هذا الكلام المشين... إنك تهينني وتؤذي مشاعري يا حبيبي. وهل تشك في حبي لك وإخلاصي ؟! أجبني ! صاحت المرأة المقهورة من أعماق قلبها وقد أمسكت بقميص زوجها وصارت تهزه.

–ليس في السابق ! ولكن بعد أن تعرفت على هذا البروفيسور البدوي راعي الجمال، صرت تفضلينه عليّ... ! أجاب الزوج بصوت كأنما ينبح.

–وما الذي جعلك تعتقد أنني أفضله عليك ؟! سألت المرأة فزعة مستغيثة !

–لأن ابن الكلبة أكثر وسامة مني... وهو مدرس بالجامعة... ومدرسو الجامعة أولاد القحبات يجيدون الكلام الحلو المعسول... وأنتن النساء قليلات عقل... غبيات... تافهات... تصدقن الكلام الحلو ولو كان كذباً ولطع بقر... !

–حبيبي...! روحي... ! لو كان البروفيسور دهشان الممثل " آلان ديلون "، لما فضلته عليك ! أنا ما أحببت ، ولن أحب أحداً سواك ! أنت فقط حبيب قلبي ! أنت في نظري أجمل من جميع رجال العالم ! قالت المرأة وقد انفجرت تبكي بحرقة أحسست أن قلبي يتمزق حزناً عليها !

–وكأنما منطقها قد زادني شجاعة وجرأة فاستعملت كلمات قاسية وجارحة: إنك غبي وأحمق... إنك لا تستحق هذه المرأة... إنها زوجة فاضلة... لو كنت أقصد سوءاً لما أعطيتها الهدية أمامك... ولو كان بيننا أية علاقة مشينة، لما أتيت إلى بيتكم لأقابلك... أنا أحترم زوجتك كأختي... إن معاشرة امرأة متزوجة يعتبر في ديننا زنا يرجم مرتكبه حتى الموت

بالحجارة... ويخلد فاعله في نار جهنم... ثم إن هذا ضد مبادئي ومعتقداتي... ! قلت مدافعاً بصدق وإيمان وحماس... لقد كان منظر الزوجة الحزين يمزق قلبي.

-فلتذهب أنت ودينك ومبادؤك ومعتقداتك، ولطع البقر، إلى الجحيم... أيها الكافر...عبدة الشمس والأصنام... ثم كأنما تذكر شيئاً فتوجه إلى الهاتف، فقال وهو يرفع السماعة !

-سأتصل بـ ِ، الـ " إِف بي آي" ليرحّلوك إلى بلدك أيها الضربان القذر !

هجمت الزوجة على الهاتف بجرأة لم أعهدها من امرأة من قبل ، واستماتت فوق السماعة كلبؤة مهتاجة تريد أن تنزع ابنها من بين يدي صياد شرس ! استغربت أن يكون هذا الجسم الأنثوي الصغير الضعيف... الناعم... الرقيق... بهذه الصلابة والقوة والعناد... ! وظلا في شد وجذب حتى انقطع السلك الذي يصل بين سماعة الهاتف والصندوق.

-أرجوك يا حبيبي ! إنه ليس من العدل أن تؤذي إنساناً لم يخطىء معنا ! قالت الزوجة بتوسل ودموعها تسحّ فوق خديها، كما كانت عيناها تقدحان شرراً !

-أخبرني أيها البدوي العفن ذو الرائحة الكريهة ، هل زوجتي عشيقة لك ؟! وأين تمارسون غرامكم القذر؟!

-أقسم لك أنني لم ألمس حتى يد زوجتك ! إنها أشرف من الشرف نفسه ! قلت صادقاً والعرق يتصبب من كل ذرة في جسمي، وعيناي تنظران إلى الأرض.

-ربما هذه عاداتهم في بلادهم يا حبي ! قالت الزوجة.

-وتدافعين أيضاً عن هذا الوغد القذر ، أيتها الخائنة ! وهوى بيده اليمنى على صدغ زوجته الأيسر، بكل قوته، فرأيت الدم ينزل من شفتيها وفمها، فتمزق قلبي ألماً عليها، وإن لم أستطع فعل شيء يحميها من هذا الوعل البري الشرس... !

هنا رأيت السيدة روبنسون وبعفوية، تتحسس بيدها اليمنى خدها الأيسر، وقد ارتجف جسمها !

-أقسم لك أنني لم أره إلا يوم غسل الملابس.قالت السيدة جنفيف بذلّة وهي تمسح دمعها بأصابع يديها !

-إذن نام معك في نفس اليوم ! استسلمت له بسهولة ودون مقاومة...! كلامه خدّرك... ! قال الزوج، وقد ازداد غضبه وارتفع لهيب أواره... وقبل أن يسمع جوابها تابع صياحه وزعيقه:

-قولي لي، هل أحضرته إلى غرفة نومنا هنا أم أخذك إلى شقته؟ ! ونظر إلى حيث تقع غرفة نومهما وازداد اشتعال عينيه... ثم خطا نحوي وقد أحسست أنه حزمة من غضب محرق فاستعددت لملاقاته، ولكنه وقف نحوي غير بعيد عني فقال وهو يفتح الباب:

-أما زلت هنا يا ابن الكلبة ؟! ثم دفعني بشدة وعنف خارج باب الشقة ، فتطايرت ككرة من الإسفنج، وقد ضرب جسمي في جدار الممر المقابل...!

أحسست بألم شديد في ظهري... خلت عظامي قد تكسرت... ثم فقدت اتزاني، فصرت أتدحرج فوق الدرج ولكن بشكل متماسك... ثم أحسست بشيء حريري ناعم يسقط على وجهي، سرعان ما تبينت أنها الهدية التي جرت لي الويلات !! صفق الباب خلفي بقوة وعنف، فخلته قد تحطّم... وصل إلى مسامعي ، وأنا أغادر العمارة ، شهقات السيدة جنفيف بيرت، وصوت زوجها الثائر الهادر يجلجل في كل أرجاء العمارة، يسب ويزمجر... يهدد ويتوعد... !

-المسكينة المظلومة ! كم أهينت وذلّت وتعذبت ! إنني حزينة كثيراً من أجلها ! قالت السيدة روبنسون وعلامات التأثر والأسى تبدوان على وجهها !

-مثل هذا التصرف يحدث مع رجل غير متعلم وغير مثقف...! ما زال في بلادنا أناس يعيشون بعقلية القرون الوسطى...! كان يجب أن يدرك رأساً أن هناك سوء فهم حضاري ! قال السيد روبنسون.

-من الصعب جداً أن أصف لكما حالتي تلك الليلة ! لقد بزغ نور الصباح وأنا ما زلت مزروعاً على كرسي في شرفة شقتي ، أحدق بالليل وعقلي مسرح لأفكار من كل حدب وصوب... أتمزق ألماً وأذوب حزناً، وأجلد ذاتي ندماً على فعلتي وعلى غبائي أيضاً... ! كنت أشعر بالغثيان وأحس بالانسحاق ، وأنا أتصور السيدة جنفيف مطلقة بسبب حماقة ارتكبتها أنا عن حسن نية... ! لقد توصلت إلى قناعة تامة بأن إنساناً يحمل مثل هذه الأفكار وهذه العقلية لا بد وأن يطلقها... وكلما أتصورها مطلقة أحس كأن سكاكين ضخمة وحادة تغوص في أعماق أحشائي ونيراناً تشتعل في طيات قلبي ووجداني...!! قلت للسيدة والسيد روبنسون.

ـ إن زوجاً هذه صفاته وتصرفاته، لا يستحق زوجة مثل هذه؛ فمن الخير لها أن تتركه . لا شك أنها ستقابل إنساناً يحبها ويحترمها ويراعي مشاعرها أكثر من هذا المتخلف ! قال السيد روبنسون.

-لا شك أنها تحبه وإلا لما بقيت تعاشره كل هذه السنوات ! قلت.

-زوجات كثيرات في أميركا يصبرن على تعسف أزواجهن ، إما من أجل الأطفال وإما كرهاً في الذهاب إلى المحاكم، وأحياناً خوفاً من الوحدة ! قالت السيدة روبنسون بلهجة موجعة !

-أظن أن هذه حقيقة تنطبق على الاثنين الرجال والنساء معاً، وفي كل أنحاء العالم ! قلت.

-الزوج الغيور عاشق ولهان، لا يثق بولاء حبيبته ولا يشعر معها بالأمان ! ولو كان السيد كنارو لوباز قوي الشخصية واثقاً من نفسه، لما أزعجته هديتك بل لما فكر بها أصلاً، فهو زوج محب ضعيف الشخصية مهزوز الإرادة...! قالت السيدة روبنسون.

-أظن أن هذا ينطبق على الاثنين معاً، المرأة والرجل! قال السيد روبنسون.

-وهل تعتقدان، أن سبب غيرة أحد المحبين هو عدم ثقته بنفسه أو عدم ثقته بمن يحب ؟! سألت.

-عدم ثقته بنفسه ! أجابت السيدة روبنسون بحزم وثقة ودون تردد.

-أظن الاثنين معاً ! قد يكون المحب عنده ثقة زائدة بنفسه تصل إلى درجة الغرور... ولكن عندما يفقد ثقته بمن يحب، عندها تحصل الغيرة وتبدأ المعاناة. قال السيد روبنسون.

-ألم ترها أو تهاتفها أو تسمع عنها شيئاً بعد تلك الحادثة ؟! سألت السيدة روبنسون باهتمام وألم، وقلق أيضاً، شعرتها تقفز من عينيها.

-بعد انقضاء الأسبوع الأول على تلك الحادثة ، خطرت لي فكرة الذهاب والاعتذار للزوج، معللاً أن غضبه لا بد وأن يكون قد هدأ الآن... ثم لعله قد أدرك سوء الفهم الذي حدث... غير أنني فهمت من الجيران أن الزوجين قد رحلا إلى جهة غير معلومة !

-إذن لم تعرف ما حدث بعد ذلك ! أسأل الله أن يكون السيد كنارو قد أدرك أنه أخطأ في حق زوجته، فلم يطلقها ! قالت السيدة روبنسون بإيمان وورع رأيتهما في عينيها !

–لا أظن أن مثل هذا الزوج يقدم على تطليق زوجته، حتى ولو لم يقتنع ببراءتها، إذ إنه لا يقدر على فراقها والعيش بعيداً عنها ! قال السيد روبنسون بلهجة الحكيم الواثق !

–صدقت ! صدقت يا صديقي ! بعد حوالي شهر من تلك الحادثة كنت مستلقياً في فراشي أحدق بالسقف... أفكر بالسيد والسيدة لوباز، وأتساءل ماذا عسى أن يكون قد حدث بينهما، وفي القلب أحزان وفي الوجدان ندم عميق عما تسببته لهما من آلام ومعاناة ، عندما رن جرس الهاتف... نظرت إلى ساعتي فإذا هي تقترب من الثانية صباحاً... ! لم أستطع أن أفكر بإنسان وصلت بيننا وحدة الحال لدرجة أن يهاتفني في مثل هذا الوقت ، إلا أن يكون من صديق لي يعيش في شمال كاليفورنيا ، أو من صديق لي في بريطانيا ... ! بعد أن اعتذرتْ المتكلمة عن المهاتفة في هذه الساعة المبكرة من الصباح ، سألتْ إن كان المتكلم البروفيسور سهيل دهشان ، ولما أكدت لها ذلك قالت بأنها جنفيف لوباز ، وفيما إذا كنت أتذكرها... صحت بها وقد فقدت السيطرة على زمام نفسي من المفاجأة والفرح معاً، كطفل صغير حصل على ما تمنى ولم يستطع السيطرة على لسانه فصار كالذي يهرف... ! أعلمتها بأنه صار لي شهر كامل لا أذوق طعم النوم إلا قليلا... وأنني أعيش حالة جنون وهستيريا... ثم تسألينني إن كنت أتذكرك ! اعتذرتْ مرة أخرى، وأخبرتني بأنها تلفنت لهذا السبب، ولتعلمني بأنها وزوجها قد عادا إلى فينيكس ثاني يوم المشاجرة ، وأنهما نسيا القصة تماماً ويأسفان إن كانا قد تسببا بإيلامي ... وأن كل واحد منهما قد عاد إلى عمله... وأنهما سعيدان بالعودة إلى أرزونا ، وأن التجربة التي مرّا بها جعلتهما يعرفان مقدار وقوة حبهما لبعض ، إذ تأكد لكل منهما بأن الواحد منهما لا يقوى على مفارقة الآخر !

–ألم أقل لكما يا حبيبة القلب، أن زوجاً مثل هذا لا يمكن أن يطلّق زوجته أو يبتعد عنها حتى ولو اكتشف عدم ولائها له ؟! إنها رئته التي يتنفس بها الهواء ! قال السيد روبنسون باعتداد وفخر وهو يبتسم ابتسامة المنتصر !

–لا شك أن السيد روبنسون متفهم لما يجري في أعماق النفس البشرية! قلت بعفوية وإن ضايقني بعض الشيء اعتداد الرجل الزائد وثقته بنفسه، ولكن شفعت له عندي محبتي العظيمة واحترامي الشديد، وكذلك تفهمه وسعة صدره وبحبوحته !

–وكيف تعرف هذا يا روحي ؟! سألت السيدة شيلا وهي تتأمل وجه زوجها بإعجاب وفخر !

-لأن رجلاً مثل هذا، عندما يعود من عمله في آخر النهار ولا يجد زوجته تنتظره في البيت، يحس بالخوف والضياع وعدم الأمان، حتى ولو كان يعرف أنها ما زالت في عملها، أو توقفت لشراء بعض حاجيات البيت ! قال السيد روبنسون بتمهل فلسفي.

-وهل يراودك هذا الإحساس عندما تعود إلى البيت ولا تجدني بانتظارك ؟! سألت الزوجة بخبث أنثوي وبلهجة حالمة وقد اقتربت بجسمها قرب زوجها.

-كثيراً جداً ! أتصور البيت زنزانة مظلمة وباردة، إذا لم أجدك ! ولهذا السبب اتأخر أحياناً خارج البيت ولا أعود إليه حتى أتأكد من أنك قد وصلت إليه ! قال الزوج وهو يتأمل وجه زوجته ويلف يده حول خصرها ويضمّها إليه !

الكلام الحلو الجميل، والرومانسية المفرطة، والمناجاة والمناغاة بين الزوجين العاشقين، حرّكت في أعماقي ذكريات غابرة، إذ أحسست أنني على وشك البكاء تأثراً، ولكنني سحقت عواطفي وتجاهلت كل هذه المثيرات واسترسلت في سرد قصتي:

- أعلمتني المرأة بأنها كانت تجربة قاسية ومريرة، ولكنها علمتهما درساً مفيداً لكليهما، وإن كانا يأسفان لما سبباه لي من ألم ! إن زوجها قد أدرك وإن كان متأخراً، حسن نيتي وعدم فهمي للعادات الأميركية، وأنني إنسان طيب وأنه أساء فهم قصدي النبيل... ثم قالت إن زوجها إلى جانبها ويود مكالمتي... ! توترت أعصابي أول الأمر، ثم ما فتئت أن هدأت وفارقني اضطرابي، خصوصاً بعد أن اعتذر السيد لوباز هو الاخر عن مكالمته لي في هذه الساعة المتأخرة... اعتذر ثانية وبحرارة وأسف شديدين عن ما بدر منه تلك الليلة وعن تصرفاته المشينة والتي يغمض عينيه خجلاً من نفسه كلما تذكرها ! كان يتكلم بمنتهى اللطف والرقة حتى أنني شككت بنفسي من أن يكون هذا الإنسان الذي أكلمه الآن على الهاتف، هو نفس الزوج الذي قابلته وجهاً لوجه قبل شهر ! وبعد أن ضحك أضاف:" إنني آسف جداً جداً لأن الغيرة العمياء استبدت بي وجعلتني أتصرف كوحش مفترس... ! إنني أكره لوس انجلوس وأحتقر أهلها، إذ أنهم شاذون جنسياً وتصرفياً... بالإضافة إلى جوها الموبوء...!" وبقينا بضع دقائق نتندر على ما حدث...! وختم كلامه قائلاً: "أتمنى لك حياة سعيدة... لقد تأكد لي فيما بعد بأنك رجل شهم وكريم، وأنك أيضاً لا يمكن أن تخون أو تغدر بالناس الذين يساعدونك لأن عندك أخلاق ومبادئ ! وآمل

أن تزورنا في أرزونا... ولكن لا تخف، لأنني لن أرميك هذه المرة من الباب، وإنما من النافذة !" وانفجر يضحك ضحكات كقصف الرعد !

لقد وعدته بأنني سأعمل كل ما بوسعي لزيارتهما، إذ أنني جد توّاق لرؤيته هو وزوجته. إن لجنفيف حضور متميّز، اذ أن الذي يقابلها سيظلّ مدة طويلة و هو يذكرها لعذوبة و طراوة حديثها و قوّة شخصيتها ! قلت !

–البروفيسور دهشان فنان أصيل يعبد الجمال و يعشق التألق ! قال الزوج و هو يبتسم !

–يجب أن يكونا هاتين الصفتين ، مصحوبتين بالدفئ و الحنان ، قلت و أنا أنظر الى الزوجة !

–أشكر الله أن القضية انتهت بهذا الشكل! لقد كنت أشعر بحزن شديد قلقاً على مستقبل جنفيف ! قالت الزوجة بارتياح، وهي تتنفس الصعداء !

–كنت واثقاً بأنه لن يحدث لها مكروه...! إن زوجاً من هذا النوع لا يمكن أن يقدم على أي عمل يبعد عنه زوجته مهما تصرفت ومهما أساءت إليه...!إنه رجل أقوال وليس أفعال...! إنه جبان من الداخل... رعديد... ولو أنه يبدو غير ذلك...! قال الزوج بحماس!

حاولت أن أجد تفسيراً لما قاله صديقي الجديد، ولكنني لم أستطع...! لقد قال الليلة أشياء كثيرة... كثيرة... حيرتني...! لقد بدأت أشك بذكائي وفطنتي...!

–لو حدث للسيدة لوباز سوءٌ بسببي، لما كنت سامحت نفسي طيلة حياتي، ولبقيت أتعذب من تأنيب الضمير إلى الأبد... ! قلت صادقاً .

–لم تخب نظرتي بك...! لقد أدركت من أول لقاء لنا بأنك إنسان عظيم... شهم... صاحب قلب كبير وطيب و على استعداد ان تضحي بنفسك من أجل صداقائك ؛ و على استعداد أن تضحّي بنفسك من أجل أصدقائك! قال السيد روبنسون بفخر و اعتزاز.

–شكراً جزيلاً يا صديقي ! إن ما عندنا من مكارم الأخلاق، هو بعض مما عندكم! قلت مادحاً إياه على الطريقة العربية.

-إن جيمس محق فيما يقوله عنك يا بروفيسور ! إنك عظيمٌ ودائما متألق ، في كل شيء حتى في إجاباتك ! قالت الزوجة بحماس وقد لاحظت أن السعادة تطفح من وجهها !

-لا تتصوري يا شيلا سعادتي ، لأنني أخيرا نلت رضاكِ ! قلت ذلك و أصررت على كلمة " أخيراً " !

لم تقل شيئا و إنما هزّت رأسها إلى أسفل عدة مرات علامة أن وصلت الرسالة و استوعبت العتاب

* * * * *

في الساعة العاشرة استأذنت لأنصرف، ولكنني لاحظت استغراباً وخيبة أمل على وجهي مضيفي ! وهل عندك موعدا؟ سأل الزوج بدهشة.

ـ موعد بعد الآن ؟! طبعاً لا؛ وإن كنت نادراً ما أنام قبل الساعة الواحدة صباحاً...! سأذهب إلى شقتي وأتمدد فوق السرير وأستمع إلى الموسيقى أو أقرأ... أو أكتب... أو أتأمل... فهذه قمة متعتي في الحياة...!

" من هو هذا الإنسان العربي أو المسلم... في هذا الزمن الرديء... الذي يستطيع الكرى أن يزور جفنيه... ولا يقضي الليل ساهراً مفكراً... قلقاً محبطاً، ممزقاً؛ اللهم إلا إذا كان ينتمي إلى قطعان الساقطين والخونة...! كيف أنام وعندنا من الثروات والخيرات والأرزاق ما لا تأكله النيران... ونملك من الطاقات والعقول والخبرات ما ليس عند كثير من الدول العظمى والمتقدمة... وأدمغتنا ومفكرونا وعباقرتنا، يهيمون على وجوههم كالقطط الضالة والكلاب السائبة... أذلاء... في شوارع الغرب... يستجدون اللقمة من على موائده... ويقدمون له الخبرات والمعرفة والتقدم... فيكبر ويعظم ويشمخ ويتعملق بسببنا وعلى حسابنا... ونحن نصغر... ونصغر... ونصغر... ونكاد أن نتلاشى...! " قلت لنفسي.

-الاستماع إلى الموسيقى متعة لا تعادلها متعة، وسعادة لا تضاهيها سعادة، إلا لقاء من نحب...!قالت الزوجة جذلى... سكرى... وكأنما تغني أو تناجي حبيباً، في محراب الحب المقدس...!

-حبيبة القلب شيلا وأنا نمارس هذه المتعة منذ سنوات... أعني هواية المطالعة والاستماع إلى الموسيقى... وإن كنت أنا قد توقفت في الأشهر الأخيرة بسبب ضغوط العمل المرهقة...! أنا لم أتوقف تماماً عن

ممارسة هذه المتع الجمالية وإنما قلّت ممارساتي لها، إذ يغلبني النوم أحياناً ولا أستطيع الاستمرار في مشاركة حبيبة القلب سعادتها ومتعتها ! إنني دائماً أعيش معها حتى وهي تقرأ أو تستمع أو تفكر...! قال الزوج باستمتاع وهو يتأمل بوَله وجه زوجته، وكأنما هو ناسك يتعبد في محراب قدس الأقداس !

ازداد التصاق الزوجة بزوجها، فثارت عواطفي ! أنا شرقي، جائع ومحروم، لم أتعود هذا النوع من الغزل، يحدث أمام ناظريّ وعلى مسمع مني...! التصقت الزوجة بزوجها وكأنما لتتلاشى بداخله وتتحلل مع قطرات دمه ولتسكن في أعماق وجدانه ؛ فانزاح هو قليلاً أمام ضغط جسدها... وإن كانت قد عانقت يده خصرها من جديد وشدها إليه بحنان وشوق... ! لقد رأيت السعادة تشع من وجهها الضاحك وأعطافها الجذلى، وقرأت الحب تتقد به عيناها الحالمتان... وتنطق به شفتاها الباسمتان القرمزيتان!

تحركت من مكاني وكأنني أهمّ بالنهوض، وفي النفس شوق عارم ورغبة مسعورة، متمنياً لو يطلب مني مضيفاي البقاء وعدم المغادرة... لقد شعرت بشفافية ونقاوة وروحانية لم أحس بمثلها منذ أن غادرت الوطن... ! أحسست في تلك اللحظة، كأنما اغتسلت وتوضأت لتوي ودخلت المعبد لأصلي...! نعم لقد كنت في تلك اللحظات جالساً في محراب الحب المقدس... أصلي حقاً وصدقاً... محراب الحب والجمال... وتساءلت ما الفرق بين محراب وآخر وبين عبادة وأخرى... !؟ وما الفرق بين أن نتعبد هنا أو نصلي هناك... !! أليس كلها أماكن عبادة واحدة لا فرق... نتعبد ونصلي لواحد أحد...! إنها عبادة الخالق... صلاة ابتهال... صلاة تهجد... من خلال ما خلق من جمال... وحب وطهر... وعفة... وفضيلة... والوطن...؟! آه يا وطني الحبيب... ! يا وطني النازف... ! يا وطني المكبل...! وطني يا وطني...! فلينسني الربّ إن نسيتك لحظة واحدة... ولتمحقني السماء إن هوى القلب بقعة في الأرض غير أرضك... أو إن مال إلى الاستظلال بظل غير ظلك... أيها الحبيب الغالي والوحيد...ويا من صورتك الجميلة لا تبرح مخيلتي لحظة واحدة...! إنني أحبك... أعبدك... أقدّسك... أصلي لك ومن أجلك...! تعملق يا وطني واشمخ ، لنتعملق بك ونشمخ معك...! أمّاه... إنني متعب... متعب... متعب... ! أعطني صدرك الحنون لأسند رأسي الممزق فوقه...! صدرك... صدرك... صدرك...!

–إذن... ابق حتى الواحدة على الأقل ! نحن نسهر في عطلة نهاية الأسبوع حتى ساعة متأخرة من الليل! قالت الزوجة بفرحة مشوبة بالحذر !

–إننا لا نريد أن نضغط على حريتك... ولكننا نأمل أن نسهر معاً إلى ساعة متأخرة من الليل... خصوصاً وغداً يوم عطلة تستطيع أن تنام متأخراً... اللهم إلاّ إذا كان عندك التزام ! لقد كنا ننتظر زيارتك بشوق لنتحدث في أمور وقضايا طالما اشتقت إلى التحدث فيها، وأسأل عن أمور طالما احترت في فهمها وإيجاد جواب لها... أمور لها علاقة بحضارة وقضايا الشرق الأوسط...! قال الزوج شبه محتار ومتردداً.

–لأخبركما الحقيقة ، أنا مستمتع جداً وفي غاية الانسجام بالجلوس معكما والتحدث إليكما... ولكنني لا أريد أن أحول بينكماوبين الذهاب إلى الفراش، إذ أخشى أن تكونا متعبين، بعد عمل يوم طويل ! قلت صادقاً ببراءة الأطفال وفرحة العاشق، والتفت إلى الزوجة وأضفت:

–لا شك أن السيدة روبنسون قد زادت أعباء الطبخ في إرهاقها... ثم إنكما تريدان أن تكونا لوحدكما بعد ساعات طويلة من الفراق... !

تبادل الزوجان نظرة طويلة... وسحلت الزوجة فوق الكنبة للمرة الثانية... والتصقت بزوجها الذي مد ذراعه اليسرى وطوقها بها وشدها إليه حتى شعرت كأنما أصبحت جزءاً منه ؛ أو كأنما ذابت بجسمها داخل جسمه... فاتحدا في واحد... وتخيلتها كأنما هي طفلة صغيرة، وادعة، رقيقة؛ استيقظت من كابوس مرعب، فألقت بنفسها في أحضان أمها أو أبيها ليعيدا لها الهدوء والأمان... !

–إننا لا نذهب إلى الفراش ليلة العطلة قبل الواحدة صباحاً، حتى ولو كنا لوحدنا. قال الزوج بإصرار وثقة، ثم ابتسم وأضاف؛ نحن الآن معاً... ودائماً معاً... ولا نفترق ! وأصرّ على كلمة لا نفترق !

ومن جديد بدأ الزوج يضم إليه زوجته ، ورأيت الزوجة تنظر إلى وجه زوجها بعمق وتأمل، ولاحظت أن الحيرة والقلق تبدوان على وجهها... وكأنما تريد أن تستفسر منه عن لغز أو تسأله عن سرّ...!

حيرتني تأكيدات الزوج وترديداته لفكره، إنهما الآن ودائماً معاً، وأنهما لا يفترقان أبداً !!

" أنا من الشرق بلد الأنبياء... بلد الغباء والتخلف... بلد الجهل والتجهيل... بلد الشك والتشكيك... بلد الخرافات والأساطير... بلد ألف

ليلة وليلة، والشاطر حسن وقيس بن الملوح... بلد جميل بثينة وكثيّر عزة... بلاد " التابوهات" ... ! كل كلمة وكل لمحة وكل نظرة أفسرها... وكل لفتة وكل نأمة أُأَوّلها...! أبني منها قصوراً على الرمال... في صحراء الربع الخالي وحفر الباطن... ! كانت تقابلني سميحة... هند...أو زيْنة... فتنظر أمامها كما يجب أن يفعل كل عابر سبيل، وقد تقع عيناها عليّ كواحد من المارة، فيصورها لي خيالي المريض... تفكيري المهزوز... عواطفي المكبوتة... حريتي المسحوقة... أنها ابتسمت لي... أنها تحبني... وأنها تتمنى لقائي والتحدث إلي... مطارحتي الغرام...فيستيقظ المارد في داخلي... ويحطم القيود ويهرب خارج الحدود... ثم فجأة تلطمه صخرة الواقع المرّ فينيكفىء عائداً مخذولاً... فيركع عند أقدام الوطن ، يصلي بحرارة... يتعبد بانسحاق ... بوله ... بعشق... بتدله... ثم ينفجر في بكاء مرّ طويل... طويل... ! اللعنة ! اللعنة ! أريد أن أتحرر من عبوديتي... أن أحطّم أغلالي... أهرب من سجني وأن أقتل السجّان...! أريد أن أحيا... أن أعيش... فلقد أتعبتني المطاردة وأنهكني الهروب...! أريد صدراً حنوناً أسند رأسي إليه... وحضناً دافئاً ألقي بنفسي بين جنباته وفي رحابه...! "

-هل أنتما واثقان من أن بقائي لن يحدّ من حريتكما ؟! سألت بتردد.

-بكل تأكيد ! قال الزوج وهزّ رأسه عدة مرات علامة الثقة، وابتسم.

-إننا سنشعر بخيبة كبيرة إن تركتنا قبل الثانية صباحاً ! قالتها الزوجة بعفوية وببراءة طفلة تعبر عن سرورها لوالدين حققا لها أمنية... ! وفجأة لاحظت كأنما انكمشت على نفسها، إذ لعلها ندمت على تسرعها بالتعبير عما جال بخاطرها !

-لا يا حبيبتي ! نحن لا نريد أن نرهق البروفيسور دهشان ونبقيه حتى الساعة الثانية صباحاً... الواحدة فقط كفاية ! قال الزوج

- ربما تفكرن بالذهاب لتسلق الجبال ! قلت بحرارة.

-هذا صحيح ! نحن نذهب يوماً في كل نهاية أسبوع ... إما لتسلق الجبال أو إلى شاطىء البحر ... هذا يعتمد على الوقت من السنة... فإذا سهرنا متأخرين ليلة الجمعة ولا نستطيع الذهاب صباح السبت نذهب صباح الأحد...إذن نذهب هذا الأسبوع بعد غد... الأحد ! قال الزوج.

-ما زلتما قد عقدتما العزم على الذهاب غداً فلم التأجيل...؟! قلت محتجاً بطريقة تعاطفية.

-جيمس وأنا نستيقظ في معظم الأيام مبكرين لنرقب طلوع الشمس، ونحن نشرب القهوة...! إنه منظر رائع ومهيب ! قالت الزوجة برمانسية حالمة.

" ليتني أكون ثالثكما يا شيلا ! نعم ليتني! لأمتّع نفسي بجمالين معاً... ولأحصل على سعادتين اثنتين في وقت واحد...! لقد كنت أفعل ذلك يوم كنت في الوطن ! استيقظ كل صباح مبكراً ، عند الفجر لأذهب إلى المسجد لأصلّي الصبح جماعة، ولأتعبد في محراب الخالق من خلال حبي لسميحة... ! "

-الرفقة الجيدة عندي خير من النوم ! قال الزوج وأتبعها بضحكة خجلى مؤدبة! وحتى خير من قارورة نبيذ فاخر...!

" ولكنها ليست خيراً من مجالسة امرأة فاتنة فنانة كزوجتك...! إن مجرد مجالستها والتحدث إليها تملأ القلب سعادة وانشراحاً والنفس نشوة وحبورا...! أنا لا أحسدك يا صديقي على شيلا، هذا الكنز العظيم النادر، الريحانة الفواحة والوردة المتألقة، التي تشاطرك المحبة والسعادة...! لقد أدركت أنك تستحق كل هذا! أنا أهنئك من أعماق وجداني وأصلي إلى الله بخشوع وورع من أجل أن يديم عليك نعمه بل ويزيدك منها... حقاً يا صديقي جيمس الطيبون للطيبات، هكذا يقول قرآننا الكريم. "

-أوافقكم من كل قلبي؛ خصوصاً إذا كانت الجلسة فكرية... والجلساء هم الذين نستمتع بأفكارهم ونحب أن نكون معهم، مثلكما...! قلت صادقاً وبحماس وعفوية.

-شكراً لهذا الثناء العاطر ! زوجتي وأنا سعداء أنك تستمتع بأحاديثنا وجلساتنا !

-في اعتقادي، أن أي وقت لا يقضى في ملذات القلب ومتع العقل والروح... هو وقت يجب أن نأسف لضياعه...! هذه فلسفتي في الحياة ! قلت صادقاً ومخلصاً.

تبادل الزوجان النظرات ولكنني كنت ما زلت مندفعاً بحماسي!

-إنني أتمنى من أعماقي، لو أستطيع أن أقضي كل ثانية من وقتي أمارس هذه الهواية ! إنها في معتقدي متعة لا تعادلها متعة ! إنها متعة سماوية!

-وما الذي يمنعك من تحقيق هوايتك ؟! سألت الزوجة وهي تنظر إلى وجهي بتأمل عميق مما أربكني وأخجلني معاً، فحولت نظراتي عن لقاء نظراتها.

-إنها أمنية لا تكلف إلا إرادة العزم على تنفيذها ! تابعت الزوجة.

-لكل منا فلسفته في الحياة؛ وتتكون هذه الفلسفة طبقاً لتربية وأخلاق وثقافة وبيئة حاملها...! كانت فلسفتي وأنا في الوطن، أن كل وقت أمضيه بغير التدريس أو المطالعة أوالكتابة، وبغير التأمل في الكون وما أبدع الخالق من جمال والاستماع إلى الموسيقى... وكذلك التفكير بمشاكل الوطن وهمومه؛ هو وقت ضائع... أحزن لضياعه... ولهذا لم أتعلم شيئاً من متطلباتالحياة خارج نطاق العقل والقلب والروح... فأنا لم أتعلم حتى ترتيب سريري في الصباح...! قلت.

-وأين يقع الحب بين هذه التصنيفات ؟ ! ألا تخرج مع بعض الفتيات أو تدعوهن إلى العشاء أو المسرح أو ما شابه ذلك ؟! سأل الزوج وابتسامة خجلى رقيقة تتراقص فوق شفتيه وتضيء وجهه.

ضحكت طويلاً... ولعل سؤاله شجعني على قول ما كنت خجلاً من ذكره:

-كانت تلك معتقداتي في الوطن... أما بعد وصولي إلى أميركا ، فقد اتسعت دائرة فلسفتي وانضمّت إليها أفكار جديدة؛ وهو أن وقتاً يقضى في غير صحبة النساء الجميلات، هو كذلك هدر للحياة الغالية...!

احمرّ خدا الزوجة وعلت جبينها حبات من العرق، وخرجت من بين شفتيها ابتسامة أكثر سحراً وروعة من قبل... ! أما الزوج فقد صار يقهقه كطفل صغير بريء... ثم تبادل الزوجان نظرات ذات معنى !

-إذن أين صديقتك؟ ! لا بد وأن تكون جميلة جداً وذات ذكاء خارق، ما زالت هذه فلسفتك عن المرأة !! لقد شوقتني لرؤيتها ! سأل الزوج من بين ضحكاته.

-لِمَ لَمْ تحضرها معك ؟! سألت الزوجة وابتسامة دافئة تعلو شفتيها.

-إننا نود مقابلتها والتعرف عليها؛ كنا سنكون سعداء لو أحضرتها معك ! أضافت الزوجة.

-ليس لي صديقة في الوقت الحاضر! لقد عادت إلى ولايتها في الجنوب... إنني أفضّل أن أكون بلا صديقة... على الأقل في الوقت الحاضر! إن ما قلته عن المرأة هو مجرد فلسفة... أفكار... نظريات... تصورات... أما الواقع فهو عكس ذلك !

-إذن يجب أن تكون لك صديقة دائماً، تكون إلى جانبك ! قالت الزوجة.

-وهل معاشرة المرأة تثير بك القرف والاشمئزاز ؟! سأل الزوج بعفوية... ولعله أدرك أنه سأل سؤالاً شخصياً جدياً ومحرجاً أيضاً... وقد يكون سخيفاً ؛ إذ لاحظت أن موجة من العرق قد غطت جبينه ورقبته فاستدرك:

-أعني هل أنت مصمم على أن تكون بدون امرأة ؟!

-إنني على العكس من ذلك ! أحب المرأة كثيراً... وأحب دائماً رفقتها... فأية جلسة وأية مناقشة أو حفلة... وحتى المحاضرة التي لا تتواجد بها المرأة الجميلة تكون محاضرة بليدة لا روح ولا حماس فيها... أتكلم بملل وكسل ودون الهام أو ايحاء...! إنني لكي أبدع لا بد من أن يكون للمرأة الجميلة حضورٌ !

-وهل تحب الخروج ليلاً؟ أعني الذهاب إلى السينما أو المسرح... أو حتى الذهاب إلى النوادي الليلية ؟

سأل الزوج؛ ولست أدري لماذا انتقل من موضوع المرأة والإبداع إلى موضوع السينما والمسرح والنوادي الليلية !؟

-نعم ، أحب السينما والمسرح ، ولكن باعتدال ! أما البارات والنوادي الليلية، وحتى المقاهي فأنا لا أحب ارتيادها أبداً أبداً ! في الوطن لم أذكر أنني دخلت حتى مقهى... لأنها عادة لقضاء الوقت... يدخلونها ليقتلوا الوقت... أما أنا فلم يكن عندي وقت فراغ لأقتله...! كتبي وأوراقي تأخذ مني دائماً وقتي. البلد الوحيد من الوطن العربي الكبير الذي كنت أحب ارتياد مقاهيه والإكثار من التردد عليها هو لبنان ! لقد كنت أدخل مقاهيه ومطاعمه فكأنما أدخل معبداً من معابد الله، فمقاهيه ومطاعمه تغص دائماً بالحسناوات المتأنقات المتألقات، رائحتهن دائماً عطر، إنهن باقات مضمّخة بالأنوثة واللطف والأدب والإتكيت والعلم والمعرفة! إنهن يجعلنك تحس

برجولتك وتحس أنت بأنوثتهن ! إنهن حوريات من الجنة التي وعدنا الله بها!

-يبدو أنك تحب لبنان كثيراً، مع أنه ليس بلدك ! قالت الزوجة.

-أنا لا أحب لبنان حباً فقط ؛ أنا متيّم بهواه...! أنا أعبده ! قلت بحماس وصدق، ثم أضفت:

-كما أنني أعتبر أن كل بلد من بلدان الوطن العربي الكبير هي بلدي، وأن أهله هم أهلي وعشيرتي !

-ولم إذن ترفض أن يكون لك صديقة ؟ سأل الزوج متجاهلاً تعليقي عن لبنان، وإن كانت قد اتسعت حدقتا عينيه، وصار يحملق بوجهي بطريقة خلت أن نظراته اخترقت جمجمتي !

-إن الصديقة تتوقع من إنسان في مثل عمري الزواج، وهذه عملية لا يمكن أن أمارسها يوماً، لأنني أعتبر نفسي متزوجاً من قضية الوطن !إنني ومنذ أن أدركت حقيقتي ووجودي، شعرت أن في عنقي أمانة مقدسة... رسالة... يجب أن أؤديها... والزوجة قد تحول بيني وبين تأدية هذه الرسالة المقدسة... ! وسكتّ لحظة لأستجمع أفكاري ولأكمل بحماس أشد مما بدأت:

-إنها للعنة أحياناً، أن يولد إنسان في بلد معين وزمن محدد، وأن يحمل أفكاراً ملزمة...! إن عشق الوطن أحياناً لعنة تلاحق صاحبها فتدمره...! إنه عشق عذاب وتشريد وتجويع... وأحياناً إلقاء بالمعتقلات والزنزانات... أو حتى الطرد خارج الحدود والتسكع في شوارع الغربة والضياع... وربما الاستجداء على موائد الأعداء...! الوطنيون الملتزمون، هم كالرهبان والراهبات الذين نذروا أنفسهم للخالق ونسوا حتى وجودهم... وداسوا على جميع أمانيهم وأحلامهم ورغباتهم، ليخدموا الرب... !

تبادل الزوجان النظرات ولاحظت الحيرة والاستفسار على وجهيهما وفي عينيهما، إذ لعلهما لم يفهما شيئاً مما قلت، ولا عن ماذا كنت أتكلم، ولا حتى ماذا كنت أقصد...! إنه من الصعب جداً على إنسان عاش كل حياته في ترف باذخ و حرّية مطلقة ... إنسان يستطيع أن يصنع قدره بيديه... وأن يرسم خط سيره كما يريد ويحلو له... غناه وفقره... سعادته وتعاسته... علمه وجهله... مستقبله وحاضره...!

مرّت فترة صمت كان كل واحد منا، نحن الثلاثة، ينقل طرفه بين الاثنين الآخرين، وكأنما ليقرأ أفكاره وما يجول بخاطره، عندما قطعت جو الصمت قائلاً:

-إن الإنسان الذي يأتي إلى هنا من الوطن، أو من أية دولة من دول العالم الثالث، يواجه بعض الفلسفات والآراء والمعتقدات، وكذلك بعض التصرفات والعادات... يحتاج إلى وقت طويل حتى يستوعبها ويفهم مضامينها وأهدافها وأبعادها، والبعض قد يعيش العمر كله، ولا يستطيع إدراكها وتقبلها!

ولما سكتّ لاحظت أن مستمعي ينتظران مني أن أكمل فأوضّح ما عنيت:

-إن بعض ما نعتبره نحن في الوطن واجباً وحقاً وعدلاً... وقيماً وأخلاقاً ومبادئ... قد تعتبرونه أنتم كلمات جوفاء لا قيمة لها ولا معنى... والعكس أحياناً صحيح...!!

-هذا صحيح جداً! ويحدث في نفس البلاد هنا، وبين ولاية وأخرى! عندما رحلنا من بلدتنا الصغيرة في ولاية نيبراسكا قبل أكثر من عامين، ذهلت لبعض عادات وتصرفات الناس هنا في كاليفورنيا، إذ أن بعضها، حتى اليوم لم أستطع فهمها... ولم أستطع تقبل البعض الآخر...! قالت الزوجة بحماس وعفوية.

-إن ما نحتاجه في هذا العالم وحتى نستطيع أن نعيش بسلام ومحبة وإخاء ووئام... فهم الآخرين والشعور معهم... وهذه نعمة لا يمنّ الله بها إلا على عباده الصالحين! إن ما يحدث اليوم وما حدث في السابق، من حروب ودمار وكراهية وأحقاد وتقتيل، هو أن الناس لا يفهمون وجهات نظر بعضهم بعضا! نحن فقط بحاجة إلى نعمة الفهم والتفهم...! قلت بألم وأنا أبتسم!

-صدقت! قال الزوجان يقاطع أحدهما الآخر !

* * * * *

إن الذي ينظر إلى السيدة روبنسون لأول مرة، يعتقد أن جمالها وجاذبيتها وأنوثتها عادية جداً...! إنه ليس ذلك الجمال الباهر الأخّاذ الملفت للنظر...! إنه جمال تراه على كثير من النساء اللواتي تقابلهن... ذلك النوع من الجمال الهادئ... العميق... الوقور... الذي يدخل الفرحة والسعادة إلى

قلبك حالما يقع نظرك عليه ! إنه ذلك النوع من الجمال الذي إذا نظرت إليه وتعمقت في النظر، أثّر بك وتأثرت به، ثم شعرت بأنك انجذبت إليه...! إنه يبعث في نفسك التأمل الطويل والتفيكر العميق... والأحلام الوردية المخملية اللذيذة المحلقة...! هذا الجمال الذي بعد أن تتأمله جيداً وتدرك كنهه وأسراره... يأسرك ويستبد بك... يسيطر عليك... فلا تستطيع أن تنعتق من قيوده ولا أن تتحرر من أسره وعبوديته... وإن كان في أسره لك سعادة، وفي قيوده لك لذّة... وفي عبوديته وأغلاله صفاء روحي ومتعة سرمدية...! إنه ذلك النوع من الجمال الذي كلما نظرت إليه شعرت بشفافية عارمة تدغدغ مشاعرك وتنساب مع أحاسيسك وترتفع بروحك... فتخال نفسك تحلق بالسماء وتطير مع ذرات الأثير... فتسبح في ملكوت الله العلي...! إنه جمال هادئ عميق... كالسيمفونية لا تؤثر بك إلا بعد أن تستمع إليها لفترة طويلة... وكلما استمعت إليها كلما أحببتها أكثر وكلما رغبت بالاستزادة من الاستماع إليها... وكلما تبينت عمق جمالها... ونقاوة عفتها وطهرها... وكلما أثّر بك سحرها وغرقت في بحور أنوثتها...!

إنها نحيفة العود مياسة القد ممشوقة القوام، فارعة القامة... ذهبية الشعر... مرسل إلى ما تحت عنقها... ناعم كشلال منساب راقص... كجدائل الحرير وأغصان الغيوم... لها عينان عسليتان... صافيتان كغدير ماء رقراق... رشيقة... جذابة... رقيقة... فاتنة في حركاتها ساحرة في أحاديثها... في ابتسامتها... في مشيتها وجلستها... جذابة في كل شيء... ولكن في صوتها نغمة حزينة... حزينة جداً... كأنها نغمة كمان حنون يعزف لحناً جنائزياً... باكياً... لا تلاحظه إلا بعد أن تكون قد شربت حتى ارتويت من خمر الدنيا ومن خمر عينيها... من خمر أنوثتها... من خمر سحرها ورقتها ونعومتها... من خمر رشاقتها وجاذبيتها... من خمر تألقها وأصالتها... وبعد أن يندمج كيانك... كل كيانك... في وجودها... وتتحد روحك مع روحها... تشعر وكأنما روحاكما قد اتحدتا في صلاة تعبد وتهجد وخشوع مع روح الخالق الأعظم...!

أما الزوج فقد كان طويل القامة، مملوء الجسم، مفتول العضلات، قوي البنية، جذّاباً تضج الرجولة من جسمه ومن عينيه وحتى من تصرفاته...! إنه كريم... كريم... يذكرك كرمه اللامحدود، بالبدوي الذي ذبح فرسه الحبيبة والوحيدة ليقري ضيفه...! كرم في أقداح الشراب التي يقدمها... وكرم في الترحيب... وكرم في الأكل...! كرم في الأفكار والأحاديث والثقافة...! كرم في الأثاث والتحف المتناثرة في كل زوايا البيت

والمعلّقة على الجدران...! كرم تجده حتى في العواطف وفي الدفء والحنان الذي تحس به وهو يخاطب ضيفه وزوجته...! إنه كرم عاشق ولهان... يناجي حبيبته... ينشد لها قصائد الغزل والشوق والهيام... ويغني لها أغنيات الربابة وعلى دلعونة والعتابا والميجنا...!

لقد غادرت بيتهما بعد أن ودعاني وداعاً حميماً دافئاً... صادقاً... شعرته بعواطفي ولمسته بمشاعري...! لقد غادرت بيتهما وقد تمنيت لو أني لا أغادره أبداً... وأن لو أستطيع أن أبقى به العمر كله، أنعم بهذا الرفاه والخدر والسعادة... التصوفية... الروحية... والفكرية المتألقة والهائمة في ملكوت الخالق الأعظم...! لقد أحسست أن شيئاً جميلاً... سحرياً... خفياً... يجذبني إلى هذين الزوجين السعيدين...! شيئاً لا أدري ماذا أسميه ؟! هل هو تفاهم روحي... تفاهم عاطفي... تفاهم وجداني... إنساني... أم هل هو كل هذه الأحاسيس مجتمعة ؟! لا أدري ؟! إن الذي أدريه هو أنني شعرت ولأول مرة منذ وصولي إلى أميركا بمتعة ربانية لا أستطيع وصفها... متعة لم أمرّ بمثلها في حياتي كلها إلا عندما كنت غارقاً في صوفية تعبدية هلامية غامضة... يوم كنت في السادسة عشرة من عمري... أمرّ بتجربة الحب الأولى...! حب سميحة...! نعم سميحة...! آه أين أنت الآن يا سميحة؟! اللعنة! اللعنة! لم خلق الله العشق ؟! هل نعشق لنسعد أم لنتعذب ؟!

كانت عواطفي، في الطريق إلى شقتي، تغلي باندفاع وقوة، حتى أحسست أن ماتور سيارتي وكل قطعة حديد فيها قد اشتعل ناراً من شدة تأجج مشاعري وغليانها... إلى درجة أنني خفت أن نحرق بعضنا بعضاً... أنا والسيارة معاً... وقبل أن أصل إلى شقتي...!؟

كانت ساعة الحائط تدق الواحدة والنصف صباحاً عندما دسست المفتاح في درباس باب شقتي، وكانت النيران في داخلي ما زالت تستعر، ولا تقلّ غلياناً واشتعالاً وثورة، عن تأجج ذلك البركان الجبار الذي رأيته صيف العام الماضي في ولاية " وايومنق "، وهو يقذف حممه الجهنمية برعونة وغضب، وحوله المتفرجون والسواح من أمثالي، يبحلقون به بعيون مذهولة جامدة... وهو يكرر هذا المنظر كل ستين دقيقة بالضبط، لا تزيد ولا تنقص ثانية واحدة... وهو ملتزم بهذه الانضباطية، منذ أن تفجر داخله وبدأ بقذف حممه، وربما منذ آلاف السنين !

ألقيت بنفسي فوق السرير بكامل ملابسي... بعد أن أسدلت الستائر الداخلية والخارجية، وأطفأت جميع الأنوار حتى صارت غرفة النوم تسبح في بحر لجي من الظلمة الدامسة... وصرت أحدق بالسقف بعيون جامدة وعواطف متأججة... مندلعة... ثائرة... تغلي كماء المرجل... ثم رحت في تفكير عميق... عميق... عميق...!

لقد عايشت في الوطن كثيراً من العاشقين المتيمين المدنفين... وقرأت عن كثير من السعداء المنعمين المترفين... ولكنني لم أر ولم أقرأ عن حب وسعادة وتفاهم وانسجام مثل ما عند هذين الزوجين السعيدين الرافهين...! إنني أستطيع أن أدّعي بأنه تولد عندي ونشأ في داخلي إحساس عميق صادق ومرهف، من كثرة القراءات والملاحظات والتأملات، بأن أعرف حباً حقيقياً من حب زائف مصطنع...! لقد توصلت إلى قناعة تامة، بأن حب هذين الزوجين وسعادتهما وتفاهمهما الروحي والفكري، حقيقة عميقة واضحة لا تحتمل النقاش ولا الجدل...!

إنك تحس كل هذا وتلمسه عندما يتكلم منهما الواحد مع الآخر... أو وهو ينظر إليه... إنه لا يتحدث إلى صنوه كما يتحدث البشر... وإنما يناجيه كما تناجي الوردة ندى الصباح... أو كما يناجي العصفور نسائم الفجر...! إنه عندما ينظر أحدهما إلى الآخر، فكأنه قديس أو صوفي، يطمع أن يتصل بروحه مع خالقه...! كما إنك تلمس هذا الحب بكل قطعة من أثاث البيت... وتحس هذا الحنان في كل سنتمتر من أرضه...!

لقد صرت أقارن بين حياتي وحياتيهما... بين قلبي الذي أحب يوماً حباً عاصفاً مزلزلاً... وتعذب طويلاً... واحترق في نيران الحب... وكأن في هذا العذاب والمعاناة والاحتراق، أملاً دافقاً ونوراً ساطعاً وأحلاماً هلامية ظلالية... ثم فجأة اختفت الحبيبة... وتلاشى الحلم الجميل.. فبدأ التمزق والضياع... وخيم الظلام على حياتي من جديد... وما زلت إلى اليوم هذا، ألعق دمي وألملم جراحي...!

لقد تساءلت وسألت نفسي؛ ماذا يريد حبيبان مدنفان، متيمان ببعضهما... يملكان كل ما يحتاجه الإنسان في حياته، بل وجميع رفاهيات الحياة وبذخها، مثل السيدة والسيد روبنسون؛ وليس عندهما مشكلة مأساة وطن... ولا عبودية وإذلال أمّة... ولا تشريد شعب... ماذا يريدان أن يحصلا على أكثر مما قد حصلا عليه في دنياهما...!؟ لقد كان الواحد

منهما عندما يتكلم مع صنوه، فكأنه يسمعه قصيدة غزل، أو يعزف له على الربابة... أو يغنّي له العتابا والميجنا...!

كنت وأنا أستمع إلى حديث الزوجين وأحس بكل هذا الدفء، وكل هذا الحنان... يخيل إلي كأنهما يبدءان لتوهما رحلة شهر عسل... وأنهما متيمان يتناجيان ويشكوان حلاوة القرب وسعادة اللقاء...! لقد أحسست أن الواحد منهما خائف على الآخر وكأنما يخشى أن تمتد إليه يد الغدر وتخطفه منه يد المنون، وتتركه لوحدته وحسراته وعذاباته...!

لقد أحسست الليلة، ولأول مرة منذ سنوات طويلة، بأنني أجنّ شوقاً وأذوب ولهاً وأحترق حنيناً إلى أن أنهض فأغتسل وأتوضأ... لأصلي...! أربعة عشر عاماً ونيف وأنالم أغتسل وضوء الصلاة... أربعة عشر عاماً ونيف بيني وبين الخالق جدار سميك... صفيق... أصم... من الإثم والخطيئة...! وعلى الرغم من حداثة سني وطراوة عودي في تلك الأيام... وشفافية روحي وعفة قلبي ونقاوة نشأتي... فقد كنت أصلي ، وأقسم برب السموات والأرضين ، خمس مرات في اليوم... وكنت أصلي التهجد وقيام الليل... وصلوات أخرى كثيرة كثيرة، بمناسبة وبغير مناسبة... !

كنت أغلق باب غرفتي من دوني... ثم أتوجه إلى القبلة... وأقف في حضرة الخالق، وأرفع يدي إلى السماء، خاشعاً قانتاً متضرعاً... وأبدأ بترتيل الآيات القرآنية، وتبدأ عواطفي بالاشتعال والغليان... فتصطخب القذائف في جوفي وداخلي كحمم لجيّة من نار... وتندفع دموعي ويتلاشى وجودي... وتصيبني هستيريا الشوق... ويستبد بي حنين الحب... فأتحول إلى كتلة محمومة من الغليان والهيجان تمتد إلى ساعات وساعات... ثم تذوب مع نسائم الليل، وأشعر أن روحي قد انسحقت وذابت فامتزجت بالخالق... وأظل أرتل وأقوم وأركع وأقف وأسجد، وعواطفي تشتعل... ودموعي تنسكب... وجسمي يهتز وكياني يرتجف... حتى أشعر أنني ذبت وتلاشيت، فأسقط على الأرض منهوك القوى، خائر العزيمة فاقد الوعي ؛ ثم أستيقظ بعد ساعات وقد أحسست أنني ولدت من جديد... نعم ولدت من جديد...!

كان هذا يحدث لي قبل أربعة عشر عاماً ونيف يوم كانت صورة سميحة لا تفارق مخيلتي لحظة... ويوم كان حبها يسري في كل ذرة من جسدي ومع كل نقطة من دمي... يوم كان حبها مصباحاً ينير ظلام

طريقي...! آه سميحة! دائماً سميحة...! أين أنت الآن يا سميحة...؟! اللعنة! اللعنة! لقد حلّت عليّ لعنتا حب الوطن وحب سميحة... !

منذ أربعة عشر عاماً ونيف، ومنذ أن طردتني سميحة من جنة حبها العذري، وبعد أن خرجت من بستان طهارتها... وتخلت عني رحمة السماء وانصفق الباب بيني وبين الخالق، وأنا أعيش في بحور من الرذيلة والخطيئة... ومنذ ذلك الحين وأنا أحيا بالضياع... بالتيه... بالسراب... وأقاسي من الوحدة والحرمان، وأتقلب في نيران القلق والحيرة والظلام...!

لقد متّ قبل أربعة عشر عاماً ونيف، وصرت أعيش كبعوضة أضلت الطريق، وأتردى في مهاوي الخطيئة والعذاب والضلال... وعندما عدت البارحة من حضرة شيلا تبدلت سميحة الميتة إلى شيلا الحية والوليدة... وحلّت روح سميحة الغابرة جسم شيلا المولودة... وولدت أنا كذلك من جديد...!!

كانت سميحة طاهرة كالثلج، عذراء كالزهرة، صافية كالغيمة، نقية كمريم العذراء... لم يمسسها بشر...!

ويوم تدنس جسدها... وفقدت صفاءها ونقاوتها وطهارتها وعذريتها... سقطت أنت معها وبسببها ومن أجلها... فتهاوت أحلامك... وانهارت أمانيك... وفجعت في معتقداتك... وتبددت خيالاتك... وتبخرت صوفيتك... فسقطت وتهاويت... فتدنس جسمك... ومات قلبك... وتعفنت روحك...! ومن يومها كفرت بكل القيم والمبادئ... وانكشفت لك حقيقة كبرى، وهي أن الحب العذري... الحب الروحي... الحب الأفلاطوني، هو كذبة كبرى، يحتمي خلفها البلهاء والمغفلون، لعدم قدرتهم الوصول إلى من يحبون... فتحولت من عبادة الروح وتقديس الطهارة إلى اعتناق الجسد وعبادة اللذة... فوقعت بالخطيئة... وأغلق الخالق بابه دوني ونسيتني رحمته... وطردني من جنته... فيا لعذابي و تعاستي...!!

إن شيلا متزوجة، والفتاة الأميركية تمر بتجارب كثيرة... كثيرة؛قبل زواجها وربما بعده... إنها ليست طاهرة كما كانت سميحة قبل أن تطردك من جنة حبها... فلم الآن تحس كأنما قابلت سميحة لأول مرة...؟! ولم تشعر كأنما تحب لأول مرة...؟! وكأنك لم تعرف المرأة ولم تجرب الخطيئة ؟! فهل ولدت من جديد...؟! وهل بعثت ثانية على يد شيلا روبنسون ؟! الله وحده الذي يعلم...؟!

لقد أحسست ، ولتشهد السماء ، بنفس المشاعر الطفولية العذرية، يوم قابلت سميحة لأول مرة، قبل أربعة عشر عاماً ونيف، واعترتني نفس الأحاسيس، قوة وعنفاً... مذاقاً وعذوبة... توهجاً وتألقاً... هلامية وتهويماً... حالما وضعت نفسي بالسيارة وأشعلت ماتورها!

يا الله ويا للعجب! كنت كلما نظرت إلى وجه شيلا... إلى عينيها... نظراتها...شعرها... إلى شفتيها وابتسامتها... إلى قوامها ونحافتها ورقة خصرها... مشيتها... لفتاتها... دفئها...نعومتها... تثنيها... كلما أرى وجه وعيني وشعر وشفتي سميحة... سميحة كلها... بدمها ولحمها...! نعم، سميحة...! يا للغرابة ويا للسخرية معاً!! سميحة العربية لها عينان زرقاوان وشعر ذهبي وشيلا الأميركية لها نفس الشعر ونفس العينين...! يا الله ! ويا لمفارقات القدر... ! لقد اختلطت علي الأمور، فلم أعد أميّز بين المرأتين وأيهما التي أمامي الآن... هنا... في أميركا... وأيتهما البعيدة عني... هناك... في الوطن...! هل استنسخ القدر شيلا من سميحة ؟! أليس هو على كل شيء قدير ؟! أليس هو رب الأكوان والأرضين وخالقنا جميعاً ؟! وما الخطأ في ذلك؟! سبحانك اللهم !

هل تسمع يا شاهر ما أقول ؟! وهل تصدق يا صديقي ما تسمع ؟! أنا لا أهذي يا شاهر ولا أهلوس...! أنا أقول الصدق... أقسم بليالي العذاب التي قاسيناها معاً، أنت وأنا... أقسم "ببياتريس" و "شرلوت"، إنني بكامل قواي العقلية والجسدية... الصدق أقول لكم !

ها أنا الليلة أمرّ بنفس التجربة... نفس النقلة الصوفية... مع فارق بسيط جداً... وهو أن النيزك، في المرة الأولى، سقط عليّ فصعقني حالما وقعت عيناي على سميحة... في نفس اللحظة ورب الكعبة...! أما النيزك الثاني... والذي سقط علي هذه الليلة... فقد تأخر شهوراً عديدة على رؤيتي لشيلا...! فهل كانت النقلة الأولى، مراهقة... جوعى... نزقة... فجّة... طفولية... رعناء... بينما النقلة الثانية، كانت شبعى... ناضجة... عاقلة... حليمة... أكثر رجولية ووعياً ، أكثر صلابة وأرسخ قاعدة ؟!

لقد أمضيت مدة الطريق بين مكان سكني السيد والسيدة روبنسون وبين شقتي ، وأنا أرتجف خلف المقود، كدرويش أصابته نوبة تصوف مزلزلة، إذ رأى الله أمامه... وجهاً لوجه... أو خيل إليه أنه رآه فجأة... فصار جسمه يهتز ويدور حول نفسه في حلقة ابتهالات صوفية... جنائزية ؛

وكأنما ركبته كل عفاريت الأرض وجميع أفراد الجن في السماء... فلم يستطع التحكم بعواطفه ولا السيطرة على جسمه... وهو يرتّل في ابتهالات دينية... الله ! الله ! الله ! هكذا كنت خلف المقود أنطّ وأقفز كعفريت مسعور مذعور...!

دخلت شقتي، ووضعت كل ما عندي من بطانيات وأغطية فوق فراشي... في فصل الصيف القائظ... الله أكبر ، ودسست نفسي بالفراش، ببذلتي وجواربي وربطة عنقي... وغطيت رأسي... وبقي كياني كله يهتز ويتراقص... وقلبي يقفز كالأرنب المذعور... وعاطفة طفولية... لذيذة... لذيذة... تسري في كل ذرة في جسمي، وتداعب كل خلجة في كياني... وعيوني تسفح الدموع الحرّى...! لماذا ؟! لا أدري ! لقد بقيت زمناً طويلاً... زمناً لا أذكر مدته حتى أدركتني رحمة السماء فنمت...!

هل فتحت أبواب السماء ثانية... فكتب لي أن أحب امرأة مرة أخرى، حباً صوفياً عذرياً تقديسياً، له نكهة إلـهيّة ولذة ربانية ؟! هل مللت المضاجعة وعفت الجسد..؟! هل كرهت الشبق والشهوة، وحننت إلى الطهارة والعذرية...؟! هل تعبت من الرجس والقذارة، وقرفت من الدنس والعفونة...؟! نعم، ربما !

لقد كان عشقي الأول، حزمة من الطهارة والبراءة والنقاوة... حزمة من الصوفية والعذرية والنقاوة معاً... ولم أكن وقتها قد مسست حتى يد امرأة خارج محارمي بعد... وأخجل حتى إن نظرت إلى وجهها... ناهيك عن مكالمتها والتحدث إليها... ! أما اليوم، فأنا مخلوق متوحش... جشع... أضاجع النساء بعهر وشراسة... فأتبذل وأتهتك في مضاجعتهن... وأعاقر الخمر، فأمعن وأتفنن في معاقرتها... وأعيش حياة الخطيئة والرذيلة...! كما قد توصلت إلى قناعة تامة، وهو أن جسم المرأة ليس إلا تراكيب بيولوجية... خلقت لكي يشبع الرجل منها شهوته وجوعه ، ويفرغ بها لبيده المحتبس... وإنها ليست إلا حافظة لتفريخ الأطفال وحفظ دوام البشرية من الانقراض ؛ وليست كما كنت أعتقد سابقاً، بأنها معبد مقدس يدخله الرجل الطاهر الصالح... التقيّ الورع... ليتهجد به ويصلي ويتعبّد... !

* * * * *

رحمتك يا رب وعفوك أيتها السماء ! لا شك أنني قد فقدت السيطرة على عقلي، وفلت مني زمام اتزاني... فمنذ أن استيقظت

صباح اليوم الثاني، وأنا لا أفكّر إلا بشيلا وبحديثها... وبنظراتها ولفتاتها وابتساماتها... لقد شعرت بشوق جامح... شوق محرق... مجنون ومسعور... لرؤيتها والجلوس في حضرتها والتحدث إليها... ! إنني، والله والله والله ، لم أفكر بها قط كامرأة من لحم ودم... امرأة ينام معها الرجال ويستمتعون بجسدها ومفاتنها... ! بل لم أفكر بها حتى كامرأة لها ما للنساء من صدر ونهدين وشفتين وساقين، يهيم بها الرجال ويروون شهواتهم وغرائزهم منها...! إنني لم أفكر بها حتى كإنسانة تأكل وتنام وتتنفس...!

لقد فكرت بها كملاك... ملاك من أولئك الملائكة الأطهار الأبرار الذين يدورون حول العرش... يقضون كل وقتهم بالتهليل والتكبير والتسبيح...!! الله ! الله ! الله ! أحدا! أحدا! أحد ! يا للخيال الجامح والتفكير المحموم ! لقد كانت والله ثانية ، هذه نفس الأفكار ونفس المشاعر والأحاسيس التي سيطرت علي يوم وقعت عيناي على سميحة ، قبل أربعة عشر عاماً ونيّف؛ لأول مرة ! لقد كنت يومها، غرّاً ساذجاً، أشتاق إلى المرأة وأحنّ إلى عناقها، والاستمتاع بحبها وحنانها وعطفها...! لم أفكر

لقد كنت وقتها في أوج مراهقتي ، وقمة حرماني ومسغبتي... يقتلني الشوق إلى المرأة... أذوب حنيناً إليها... يسيطر عليّ ويستبد بي ما عندها وما تقدمه من متعة لفتى مراهق مثلي... ومع كل هذا... أقول، والله والله، لم أفكر قط بسميحة كأنثى...! كنت أفكر بها كزهرة... كأقحوانة... كأغنية... كترنيمة... كبسمة... كمخلوق جميل جميل يبعث في القلب والروح معاً، الفرح الدائم والسعادة السرمدية...!

هل سميحة وشيلا حقاً هما كما صورهما لي خيالي المحموم الجامح، وعواطفي الصوفية، تختلفان عن بقية النساء، وأن الله خلقهما من طينة غير طينة البشر... هي طينة الطهارة والنقاوة والبراءة...؟! طينة الملائكة...!؟

يا لي من ساذج، بل يا لي من غبي ! كيف أسمح لنفسي أن تفكر بمثل هذه الأفكار، وكيف أسمح لعواطفي وخيالاتي أن تجمح بي وتحلق إلى هذا العلو وتبعد بي بعيداً... بعيداً... ؟! ماذا حدث لعقلي وماذا جرى لتفكيري ؟! أبمجرد أن أقضي ليلة واحدة أتحدث إلى امرأة... ناعمة... ساحرة... مغناجة... ونحن يلفنا الدفء والمرح والسعادة ، أفكر بها بهذه الطريقة العجيبة، فأجعل منها قديسة...؟! أستغفر الله وأعوذ به من

الشيطان الرجيم ! أين أنت يا شيخ عفيف وأنت يا شيخ عبدالحليم ويا شيخ زيد ويا شيخ عطا ؟! أين أنتم يا رجال الدين ؟! أين أنتم يا جنود الفضيلة ؟! ما خلا رجل بامرأة إلا اشتهاها ! أنا والله العظيم، وأقسم بالوطن النازف، أنني ما اشتهيت سميحة قط، وأقسم برب السماء والأرضين، ولمّا أشته شيلا بعد ! كيف أقارن شيلا، التي ربما ضاجعت عشرات الرجال قبل الزواج، بسميحة التي لم يمسسها بشر طيلة أيام معرفتي لها ؟!

كيف أقارن سميحة... العذراء البتول... التقية النقية ، بامرأة مثل شيلا التي لا شك أنها فقدت عذريتها قبل أن تبلغ الرابعة عشرة من عمرها ؟! الله وحده يعلم عدد الرجال الذين عرفوا جسدها قبل أن يعرفها زوجها ! وهو وحده ، سبحانه وتعالى ، الذي يعلم إن كان لها مغامرات غرامية، حتى بعد زواجها ؟! كيف يمكن أن تختلف شيلا عن كل نساء بلادها، اللواتي تفقد معظمهن عذريتهن في سنوات مبكرة ! ألسن هنّ اللواتي يعتبرن العذرية نوعاً من أنواع التخلف والرجعية والغباء، كما أنها دليل قبح صاحبتها وعزوف الرجال عنها...؟!

* * * * *

الفصل الثاني

عندما رفعت السماعة لأجيب على الهاتف، كان صوت صديقي جورج مونتكيو يلعلع على الطرف الثاني. ـ ـ كدت أقطع الأمل وأغلق السماعة لولا أنني فكرت بأنك لا بد وأن تكون في الحمام ، وأن صوت سقوط الماء يحول بينك وبين سماع صوت الهاتف، فأنا أعرف أنك في يوم العطلة لا تغادر البيت مبكراً، إلا إذا كانت إحدى حريمك قد طلبت منك ذلك ! قال ذلك وأتبعها بضحكته المعهودة الباهتة ! وبعد أن رحبت به وسألته عن حاله وحال زوجته وأولاده وعن حياته الجديدة، قلت:

ـ أنا آسف يا صديقي! لقد كنت مستغرقاً في نوم عميق ولم أسمع صوت الهاتف !

–لا بد وأنك شربت كثيراً ! هذه هي المرة الثالثة التي أطلبك بها خلال ربع ساعة ؛ وأترك الهاتف يرن حتى يتوقف تلقائيا !

ولما سألته عن الوقت أجاب بأنها بعد العاشرة بقليل !

ـ سامحك الله يا صديقي ! وهل تستكثر عليّ نوم ست ساعات في عطلة نهاية الأسبوع...؟! لقد عدت من بيت السيد والسيدة روبنسون متأخراً جداً... ولقد وضعت نفسي في الفراش حوالي الساعة الرابعة هذا الصباح !

–وهل عدت إلى بيتهم ثانية ؟! سأل صديقي باستغراب وحيرة.

–إنني لا أفهم ما تعني...؟! كيف أعود إليهما ثانية وأنا لم أتركهما إلا قبل حوالي ست ساعات...؟! قلت.

–لا شك أنك شربت كثيراً... كثيراً جداً، حتى لا تستطيع أن تميز بين الأيام...! اليوم هو الأحد يا صديقي، وأنت كنت عندهم الجمعة ليلاً...! قال شبه مستاء!

–يا إلهي! لقد صار لي أكثر من ثلاثين ساعة نائماً...! صحت لاشعورياً وقد أتبعتها بتصفيرة من فمي !

–لا شك أنك شربت كثيراً جداً... كالسمكة ! قالها بلهجة ودّيّة تحببية. لم أعلق، لكنه أضاف، ولكن هذه المرة بلهجة الغاضب العاتب:

-مشكلتكم أيها العرب أنكم لا تعرفون حدودكم...! إنكم تتصرفون كالمراهقين المفجوعين، مهما وصل الواحد منكم في السن أو المنصب، وهذا أحد الأسباب القاتلة في تخلفكم! المهم، قل لي ماذا حدث معك ؟! أعني كيف تصرفت "الكلبة"؟! وهل قبلت أن تقابلك وتتكلم معك ؟! سأل.

قلت بسعادة وحبور وقد هزّني الشوق إلى رؤية شيلا والاستماع إلى حديثها.

-إنها ليست كلبة يا صديقي! إنها غزالة...! غزالة مميّزة... ليتك رأيتها يا صديقي، وهي تغدو وتجيء بين زوجها وبيني... كانت تختال بعظمة وكبرياء كأنها ملكة من ملكات الإغريق ! لا شك أنك ستفقد عقلك ويصيبك الجنون، ولكنت لمست عظمة الخالق في إبداعاته الفنية ! إنها تحفة نادرة تفنن الخالق في إبداعها !

-على مهلك يا شيخ البدو؛ على مهلك! قال السيد مونتكيو مقاطعاً إياي.

-يبدو أنها فعلاً استحوذت على البقية الباقية من عقلك ! ولكن لا تنسى أنها متزوجة، ولا تنسى كذلك أن زوجها سيقتلك إن لاحظ أن بينكما علاقة رومانسية ! تذكر أننا نحن الغربيين لا نسامح الذين يسطون على زوجاتنا أو عشيقاتنا، وإن انتقامنا لشديد ! قالها جورج بلهجة الهزل الممزوجة بالجد.

-رغم المدة القصيرة التي عشتها بالبلاد العربية، فإن تفكيرك مازال شرق أوسطي؛ فالمرأة عندك هي فقط للاستمتاع الجسدي ! صدقني ، وأقسم لك برب السموات والأرضين ، إنني لم أفكّر بها إطلاقاً كما تظن ! صحيح أنها استحوذت على عقلي، ولكن ليس بجمال جسدها، وإنما بدماثة أخلاقها ورقة عواطفها ونعومة أنوثتها ! قلت متفلسفاً !

-هل يعني ذلك أنك لا تفكر بمضاجعتها ؟! سأل باستهزاء وسخرية.

-طبعاً لا ! أنا أفكر بها كزهرة... رسمة زيتية... تحفة فنيّة... هل تفهمني ؟! قلت بغضب واحتقار معاً.

-منذ متى وأنت تفكر بالمرأة غير جسد وفراش؟! لا تقل لي أنك تغيرت؛ لأنني لن أصدق هذه الكذبة الكبيرة !

-أنا ما فكرت بالمرأة غير روح وطهارة، إلا بعد أن أتيت إلى بلادكم ! صدّقني يا جورج ، إنني أفكر بهذه المرأة بطريقة تختلف كثيراً عن تفكيري بالنساء اللواتي قابلتهن هنا في أميركا ! أنا أفكر بها كملاك... كحورية من

الجنة... كقطعة من البراءة.. من الطهارة... من العفة...! شيئاً تحب أن تنظر إليه لساعات وساعات، دون أن تفكر حتى بلمسه، إذ أنك تشعر بسعادة لا توصف ومتعة ربانية، وأنت تتأملها !

–لو قلت لها بأنك تفكر بها بهذه الطريقة... كملاك... كحورية من الجنة... كتحفة فنية... لكرهتك واحتقرتك، بل لربما طردتك من وجودها !

–ولم تقول ذلك؟ ! سألته بهلع.

–لأن المرأة تريد من الرجل أن يتفنن في حبه لجسدها... لمحاسنها... لمفاتنها... لصدرها... لنهديها... لشفتيها... لكل ما تملك من مفاتن جسدية، وليست لما تتمتع به من ميزات عقلية وروحية وعذرية... إلى ما هنالك من التفاهات ولطع البقر! إنك إن قلت لها بأنك تحبها لتلك التفاهات التي ذكرت فإنها لا محالة ستحتقرك وتظن أنك أبله ومتخلف ! قالها بعصبية وغضب !

–يا لك من مخلوق غريب التفكير ! قلت باشمئزاز وقرف، ثم أضفت:

–على كل حال سأخبرك عن كل شيء فيما بعد... ولكن قل لي الآن أخبارك أنت فأنا تواق لمعرفتها. قلت .

–لقد دعاني الأولاد وأمهم أول البارحة إلى العشاء، فتعشينا في مطعم إسباني على أنغام الموسيقى الإسبانية الحيّة ! طلبت ابنتي مردث من الفرقة أن يعزفوا لنا قطعة موسيقية اسمها "العودة"...! وبعد الانتهاء من المعزوفة تجمهر الحضور حولنا وكان معظمهم من جذور إسبانية، وصاروا يرقصون ويغنون... وازداد حماسهم وصخبهم وحبورهم عندما أعلمتهم أننا، زوجتي وأنا، نعود إلى بعض بعد انفصال دام مدة طويله ... عندها التهب المطعم كله بالرقص الإسباني، وصار الكل يرفع كأسه... وفتحت قوارير "الشامبانيا" وصارت حفلة كأنها ليلة الزفاف ! وضحك جورج طويلاً ثم أضاف:

–لقد كانت ليلة من ليالي العمر! لقد أمضينا وقتاً رائعاً، ذكرني بأيام الشباب الرومانسية ! لم نعد إلى البيت إلا في ساعات الصباح الأولى ! لقد تذكرتك يا ابن الكلبة وتمنيت لو كنت معنا....!

–لقد فكرت أنا بك أيضاً، ولكنني لم أتمن وجودك معنا !قلت وقد بدأت موجة خفيفة من الانشراح والانطلاق تزحف إلى نفسي!

–لن أقبل أن أكون معك ولو دفعت لي ذهب دول النفط عندكم! قالها وهو يقهقه.

–ولن أقبل أنا أيضاً، ولو نصّبتني رئيساً لجمهوريتكم !

–البارحة ذهبنا إلى سان فرنسيسكو، وتعشينا في " فشرَمن وورف " عشاءً هادئاً، ولكن الأولاد وأمهم أصرّوا على أن نسهر في نادٍ ليلي... وبقينا نشرب ونغني ونرقص حتى الثانية صباحاً ! لقد كان هذا الاسبوع مميزاً بنشاطات الاستمتاع واللهو، إذ استعدت ذكريات الأيام الأولى عندما تعرفت على " جويس " وكنا نخرج معاً ! إنني أحاول الآن أن أعيشها ثانية !

–لا شك أنك مرهق الآن وبحاجة إلى الراحة لتستعيد نشاطك !قلت ببراءة وعفوية.

–خسئت يا ابن الكلبة ! إنني أشعر كأنما عدت ابن الثلاثين، ولو كنت عندك لبرهنت لك بأن ألقيك على الأرض ! قالها بتحد صبياني!

–أصدّق ذلك ! الحب يجعلك تشعر بأنك أقوى من بغل وأضخم من فيل، بل أقوى من أي مخلوق على وجه الأرض ! قل لي، هل تحب حياتك الجديدة، وهل تأقلمت عليها ؟!

–نعم ، كثيراً جداً ! الليلة نحن مدعوون في بيت ابنتي " مَرَدِثْ " ، وسيكون عشاء هادئاً ... إنك تعرف أن عشاء الأحد يكون عادة مبكراً ... ربما في الرابعة بعد الظهر... مشويات... " باربكيو " وقد أدعو الجميع إلى السينما، أو نبقى في البيت ونشاهد على التلفاز لعبة "البيس بول" ! هذا يعتمد على الانسجام...!

–أخشى أن ينسيك الانسجام البحث عن عمل، فتعيش على حسنة الزوجة والأولاد ! قلت مازحاً.

–لا، إطمئن ! أنا لا أخلط بين المتعة والواجب ! أنا لست بدوياً آتياً من حفر الباطن أو صحراء نجد...! وضحك ضحكته الباهتة المعتادة وأضاف:

–عندي لك خبرية ستفرحك كثيراً، وهي أنني قد عينت في جامعة كاليفورنيا ،فرع " سانتاكروز " ؛ اعتباراً من بدء العام الدراسي... أي بعد أقل من ثلاثة شهور !

–مبروك يا صديقي وألف مبروك ! إنك والله قد أفرحتني حقاً ؛ خصوصاً ومدينة سانتاكروز قريبة من مدينة سان هوزيه، ولا تحتاج لأن تنام خارج البيت ! لقد قضيت بها ليلة ممتعة أنا وصديقة لي في طريقنا إلى مدينة كرميل، إنها مدينة ساحرة على شاطئ البحر! صحت بفرح عفوي.

–هذا صحيح ؛ إنها وكما تعرف تبعد من هنا دقائق بالسيارة. قال.

–أنا فرح أكثر، لأنك عدلت عن فكرة المطعم السخيفة تلك! أنا لم أقتنع بها إطلاقاً، ولو أنني كنت أحياناً أجاملك وأوافقك عليها! إذ كيف يقبل أستاذٌ عظيمٌ مثلك، مربٍ فاضل، يسحر الطلبة بغزارة علمه وسعة اطلاعه، أن يستبدل مهنة التدريس بمهنة مدير مطعم!

وكان صديقي السيد مونتكيو قد أعلمني قبل شهور بأنه يفكر جدياً بتطليق مهنة التدريس واستبدالها بمهنة صاحب مطعم، حيث إنها تسعده وتمنحه رضاً عن نفسه، وكذلك فإنها مجزية أكثر من ناحية النقود، إذ قد تعطيه من ثلاثة إلى أربعة أضعاف ما يتقاضاه من التدريس ! وأعلمني أيضاً بأنه قبل أن يذهب إلى الجامعة الأميركية في بيروت ليدرّس بها، كان يملك هو ووالدته وأخوه مطعماً في مدينة سان هوزيه، يدرّ عليهم ربحاً عظيماً؛ وأنه ضحّى به حباً في لبنان ومن أجل رؤية الشرق الأوسط! لذلك لم أفاجأ بجوابه عندما أجابني !

–ومن قال لك بأنني عدلت عن فكرة المطعم؟! وكحقيقة فإنني ذهبت صباح الأمس وجويس والأولاد، فرأينا مطعماً يريد صاحبه أن يبيعه ليتقاعد ، ولكن موقعه لم يعجبنا بسبب وجوده في منطقة شعبية كثيراً ! قال.

–وهل أفهم من ذلك أن زوجتك وأولادك موافقون على أن تستبدل مهنة التدريس بإدارة مطعم ؟!

–في الحقيقة لا؛ ولكنهم يحترمون رأيي، ويؤمنون بأنني حرّ في أن أختار المهنة التي أحب !

–عندنا دعاء يقول: اللهم اهدنا لأن نعمل ما فيه رضاك وما فيه الخير لنا ؛ وأنا أدعو الله أن يهديك لأن تختار ما فيه رضاه وما فيه الخير لك ! وتبادلنا التحيات وأغلقنا السماعات...!

شعرت بجوع عظيم ، وأحسست كأنما جدران معدتي قد بدأت تهاجم بعضها بعضا، وكأنما يأكل الواحد منهما الآخر ! نهضت واستحممت وحلقت ذقني وقصدت مطعماً غير بعيد من مكان سكني ، أستطيع الذهاب إليه سيراً على الأقدام كلما شعرت بذلك، متخصصاً ومشهوراً بالقطائف الأمريكية ! أكلت منها ستاً وشربت أربعة فناجين من القهوة، وعدت قبل الساعة الواحدة.

فكرت أن أذهب إلى شاطىء البحر كعادتي، حيث أتمشى على الرمال ، أرقب السابحات الفاتنات ذوات الأجسام الممشوقة العارية... وعند الغروب ، حيث يكون معظم المترددين على الشاطىء قد عادوا إلى بيوتهم للعشاء، أجلس أنا لأرقب الشمس وهي تختفي خلف الأفق كقطعة من لهب... ولكنني لم أجد الحماس الكافي، إذ شعرت أنني ما زلت متعباً، فعدت إلى فراشي ثانية، وغفوت... ! لا أدري كم دامت غفوتي، عندما نبهني صليل جرس الهاتف ! تجاهلته وفكرت أن لا أجيب، ولكن رنينه المتواصل نبه كل ذرة في جسمي وكل حاسة من حواسي، بل وأثار حفيظتي ؛ واتقاء لصوته رفعت السماعة، ولشدة عجبي كانت المتكلمة السيدة روبنسون ! نعم ، شيلا روبنسون بدمها ولحمها !

–لا تقل لي أنك أمضيت النهار كسلان نائماً ! قالتها حالما سمعت صوتي، ودون أن تلقي التحية أو حتى تذكر اسمها !

–كم هو رائع أن أسمع صوتك ! ويا لها من مفاجأة لطيفة ومفرحة حقاً ! قلتها بصدق وعفوية، وبفرحة طفل يتيم وجد صدفة قلباً حنوناً يحنو عليه وصدراً دافئاً يضمه !

–لن أسألك إن كنت قد تعشيت، إذ إن الساعة قد تجاوزت الثامنة ولم يبق أحد لمّا يتعش بعد ! وضحكت ضحكة تصوّغ عطرها حتى خلت أنني أشم عبير أنفاسها عبر خطوط الهاتف !

–اللهم إلا إذا كان مثلك لا يعرف أن يعمل فنجاناً من الشاي !

–لا، لا ! لقد عدت من المطعم قبل فترة وجيزة. قلت مدافعاً بحماس؛ ولكن بعد أن فكرت قليلاً، وجدت أنه قد مضى على عودتي من المطعم أكثر من ست ساعات... كما أحسست أن معدتي خاوية وأن بي جوعاً شديداً، فقلت مستدركاً:

–أعني لقد تغديت متأخراً، ولا بد من تناول طعام العشاء !

–هذا رائع ! جيمس دعاني لتناول الحلوى في الخارج، وأنا أدعوك لمرافقتنا... عندما تحضر سنبحث في الثلاجة لعلنا نجد لك شيئاً تأكله... فما رأيك ؟! قالت المرأة وهي تتضاحك.

أسعدتني الفكرة جداً، فأنا تواق لرؤية شيلا وجيمس والجلوس إليهما والتحدث معهما... فقد زادت الدعوة في رغبتي وقوّت من شهيتي، وإن كنت قد تباطأت بالجواب حيث كنت أفكر فيما إذا كان من اللائق

والأنسب أن أتوقف في طريقي إليهما بأحد المطاعم وأتعشى، ونكون ثلاثتنا جاهزين لتناول الحلوى، عندما سمعت قهقهة تقطعها كلمات الاعتذار!

–آه أنا آسفة يا بروفيسور! لقد نسيت...! لا تؤاخذني...! لقد غاب عن بالي أن دعوة المرأة للرجل لا تقبل في بلادكم ! لحظة لأنادي لك جيمس حتى يدعوك هو بنفسه، وإن كنت أنا صاحبة الفكرة ! لا شك أنها قالت هذا بعد أن لاحظت ترددي.

–كان هذا في الوطن ! أما هنا في أميركا، فأنا لا أقبل إلا دعوة الزوجات ! قلت ضاحكاً.

–إذن قبلت دعوتي ؟ سألت وقد ازداد ضحكها.

–وهل أنا أحمق أو معتوه حتى أرفض دعوة كريمة من زوجة صديقي المبجل، والذي أكنّ له كل الود والاحترام ؟! قلت ذلك وقد هزتني أريحيتها وكرم أخلاقها !

–طبعاً أقبل الدعوة... مع عظيم السرور... والتقدير... والشكر... والعرفان...أيضاً ! أضفت بطريقة مبالغ بها، وأنا أترنم بالكلمات وكأنما أنشدها شعراً !

–إذن ، أنت تقبل الدعوة فقط من أجل صديقك وليس من أجلي؟! سألتْ معاتبة بشقاوة ومكر أنثوي !

–ولهذا السبب فأنا أسحب دعوتي ! أضافت:

–من أجلكما الاثنين طبعاً ! قلت بتلعثم وقد شعرت أنني ارتكبت خطأ إتيكيتياً !

–وأي رجل لا يدفع عشر سنوات من عمره مقابل أن يقضي بعض الوقت مع ملكة جمال سانتا مونيكا، بل كاليفورنيا كلها... ومع زوجها ذروة الأخلاق والأدب ومثال الشهامة والكرم !؟

–أنت تبالغ في مدحي يا بروفيسور؛ وأخشى أن يصيبني الغرور فأصدق مقولتك ! قالت وهي ما زالت تضحك.

–صدقيني أنني أعني ما أقول وأن هذا هو معتقدي وإحساسي، وإنني لا أقول ذلك مجاملة !

–أشكرك يا بروفيسور دهشان من أعماق قلبي! إن شيلا تحب أن تمازحك، لتخفف من غربتك ووحدتك، ولتنسيك هموم الأهل والوطن... فكلانا يعرف أنك تعاني وتتعذب... وكلانا واثق أنك طيب القلب صادق السريرة صافي النية... شهم وأمين...! وصل إلى أذني صوت الزوج مختلطاً مع صوت ضحكات الزوجة وكركراتها !

تفاجأت جداً، وأدخل في روعي، فهل كان الزوج يتجسس علينا من الهاتف الثاني؟! يا له من إنسان حقير إن فعل ذلك ! التجم لساني ولم أدر ما أقول!

–اعذرني يا صديقي أرجوك !قالها الزوج بترج وأدب شديدين.

–لقد طلبت إليّ شيلا أن أضع أذني قرب سماعة الهاتف وهي تكلمك، فرفضت؛ ولكنها رجتني فلم أستطع رفض رجاءها، فسمعت ما زاد في سعادتي بصداقتك...!

وهممت أن أشكره غير أنه سبقني.

–نحن بانتظارك ونأمل أن لا تتأخر! أدركته قبل أن يغلق السماعة.

–يجب أن تقبلا دعوتي على العشاء مساء الغد.قلت.

–سنتفق عندما تحضر ! قال الزوج؛وأما الزوجة فقالت:

–ولم العجلة ؟ الأيام بيننا... ؟!

*****

–لأول مرّة في حياتي أدعو ضيفاً على مطعم فيدفع هو عني فاتورة الحساب ! قال السيد روبنسون وهو يبتسم ويهزّ رأسه يمنة ويسرة، ويقلب يديه ويحرك أصابعهما بعد أن دخلنا ثلاثتنا شقتهما !

–لقد قرأت بأن الناس في الشرق الأوسط كرماء جداً، ولكن لم أكن أتصور كرماً مثل هذا ! قالت السيدة روبنسون.

–ليس من اللائق أن أتعشى في بيتكم قبل ليلتين وأتعشى الليلة أيضا، ثم أدعك تدفع ثمن الحلوى. بالإضافة إلى أن ما دفعته كان زهيداً جداً، إذا ما قورن بعشائكم الفاخر... اللذيذ...! قلت بخجل وتواضع شديدين.

-الطعام والشراب والسجائر وغيرها... وسائل اجتماعية بسيطة وتافهة... هي فقط لتجمع الناس معاً...! قالت السيدة روبنسون بلهجة مثقلة بالجدية والرزانة، عابقة بالصدق والمحبة.

-أما الرابطة الصادقة والحقيقية فهي الإنسان نفسه... جوهره... صدقه... أصالته... أحاديثه... أفكاره... تصرفاته...! إنه لن يهز مشاعري ولن يثير أحاسيسي، إذا دعاني رجل إلى أرقى المطاعم، وابتاع لي أفخر أنواع العطور والفراء والأنبذة، إذا كان حزمة مسندة من التفاهة و الغباء والبلادة !

-لقد نسيت الشوكلاتة يا حبيبة القلب ! وصل إلينا صوت الزوج من باب المطبخ يهمس بصوت خافت وهو ينظر إلي ويبتسم، مما جعلني أجزم بأن الزوجة لم تسمع جملة زوجها.

-صدقتِ يا أميرة العقل والحكمة ! إنك لا تنطقين إلا درراً ولا تتفوهين إلا لؤلؤاً ! قلت بصوت عال وكأنّنا - الزوج وأنا - كنا نقاطع بعضاً.

-قلت لك إن حبيبة القلب شيلا لم تتعود على مثل هذا الإطراء وهذه المغازلة ، يا صديقي ! قال الزوج هذه المرة بصوت عالٍ تجاوز أسماع الزوجة.

-فأنا غير مؤهل لمثل هذه الرومانسية ، وقد تكتشف يوماً أنني واحدٌ من أولئك التافهين البلداء الذين ذكرتهم، فلا تعود ترضى بي زوجاً !

-ليست السيدة شيلا التي تفعل ذلك ! قلتها بحماس وغيرة وصدق وأمانة.

لم تعلق الزوجة وإنما نظرت إليّ ومنحتني ابتسامة شكر تشبه تماماً ابتسامة سميحة في الوطن...! آه سميحة! دائماً سميحة ! تباً لك ! اللعنة! إن سميحة لم تمنحها لي، وإنما رأيتها في إحدى المرات التي كنت أمرّ بها من أمام بيتهم ، تمنحها لصديقة لها قابلتها في عرض الشارع !

-البروفيسور دهشان دبلوماسي ماهر ! ودبلوماسيته تصل ذروة توهجها وتألقها عند تعامله مع النساء ! قال الزوج وابتسامته لا تفارق شفتيه.

-ليس كل النساء إذا سمحت ! مع النساء الجميلات ...الناعمات ... اللواتي يملأنك دفئا و حنانا ، فقط ! قلت متصنعاً الاحتجاج والغضب.

-حتى ولو كنت جميلة وغبية ؟! سألت السيدة روبنسون وقد أقبلت نحونا من المطبخ.

-عفواً ! الجمال مع الغباء قلما يجتمعان، وإن اجتمعا صدفة، فهو جمال ناقص... إن الذي أعنيه بالجمال هو جمال الشخصية... جمال الروح والجسد... وهاتان صفتان ولله الحمد تجتمعان بزوجة صديقي السيد روبنسون.

لاحظت أن الزوجة تريد أن تقول شيئاً، ولكن الزوج استأذنها للحظة، ثم قال:

-بروفيسور دهشان! عندما نتحدث ثلاثتنا، أشعر بسعادة لا توصف ومتعة سماوية، ولكنني أحس في نفس الوقت أن هناك جداراً سميكاً من الكلفة والرسميات يقف حائلاً بيننا، فلماذا لا نزيل هذا الجدار المزعج ونرتاح منه ؟! قال الزوج.

-وهل تعني جدار الرسميات: مثل قول؛ بروفيسور ؛ السيدة ؛ السيد ؟! سألت.

-لله درك ما أذكاك ! كنت أتحدث وجيمس الليلة الماضية عن هذا الجدار. صاحت الزوجة بفرحة تلقائية.

-صدقاني أنه كان يضايقني أنا أيضاً ! عفواً، أنا لا أعني مخاطبتي لكم ، فهذا أمر لا يزعجني، وإنما مخاطبتكم لي ؛ بالدكتور تارة وبالبروفيسور تارة أخرى وبالسيد أحياناً... ! أحبكما أن تنادياني بسهيل فقط. الإنسان يحب اسمه ، ويشعر بالصميمية عندما يُخاطب به !

-اتفقنا يا بروفيسور سهيل. قال الزوج وانفجر يضحك. أعني يا سهيل فقط ! وعندما كففنا عن الضحك رأيت أن الزوجة ما زالت واقفة أمامنا وفي نظراتها سؤال مجمد.

-عفواً يا حبيبة القلب، والمعذرة للمقاطعة؛ تفضلي وقولي ما تريدين.

-كنت أريد أن أسالكما ماذا تحبان أن تشربا ؟

-لا يا حبيبتي ! هذا لا يجوز ! قال الزوج ونهض واقفاً.

-اجلسي أنت وتحدثي مع سهيل وامنحيني متعة تقديم الشراب ! ثم انحنى بطريقة مؤدبة وجدية.

-ماذا تريد أن تشرب أيها الصديق ؟

–أشرب ما تشربه شيلا ! ونطقت اسم شيلا فأحسست كأنما أحلق في سحاب معطّر.

–أظن يا حبيب القلب أن سهيلاً سيحب الفودكا مع عصير البرتقال ! وابتسمت، ولأول مرة رأيت أن لها أسناناً ناصعة البياض متراصة ومتساوية كأنها عقد من اللؤلؤ أو المرجان!

انحنى الرجل لنا احتراماً وبمنتهى الجدية، وكانت الزوجة قد جلست على الكنبة المقابلة لي ، ثم اعتدل في وقفته وتوجه إلى المطبخ دون أن يتفوه بكلمة.

–آمل أن أكون قد طلبت شيئاً تحبه. قالت الزوجة بعد أن انصرف زوجها !

–أي شيء منك تتكرمين به عليّ ، فهو محبب إليّ عزيز على قلبي وأتقبله بكل الشوق ! خرجت الجملة مني عفوية فندمت على قولها وتمنيت لو أنني استطيع أن أمحوها ، إذ لاحظت أن وجه المرأة وعنقها قد التهبا بحمرة صارخة وعلتهما موجة خفيفة من حبات العرق، وحوّلت نظراتها عني وأرسلتها إلى المطبخ حيث يعدّ زوجها كؤوس الشراب.

–أنا آسف جداً جداً يا شيلا ! لا أدري كيف خرجت الكلمات من فمي، فأنا أعتذر بحرارة... وصدق... ! قلت صادقاً وحزيناً معاً.

لم تقل شيئاً، وتظاهرت كأنها لم تسمع ما قلت...! لعلّ صمتها قد شجعني على الكلام فأردفت:

–أنتِ بالنسبة لي يا شيلا باقة زهور... أحب أن أمضي عمري أنعم بشذى عطرها...! أنتِ رسمة زيتية أتمنى أن أظل طيلة حياتي أتأملها...! أنت قصيدة رومانسية حالمة... أحب أن أظل أردّد أبياتها...! أنت حلم جميل جميل جميل... طالما حلمت به... حتى تحقق...! إنني أتخيلك كأختي الكبرى، أميرة، ولو أنني أكبرك قليلاً ؛ أختي أميرة العملاقة ، ذات العقل الراجح ، و التفكير المتزن ؛ أجلس في حضرتها وأفرغ كل أوجاعي وهمومي وإحباطاتي بين يديها ، و أنا أذرف الدموع...! أحدثها عن أحلامي وأمانيّ وطموحاتي... فتشجعني وتحثني على الصبر و الكفاح و المثابرة ، وهي تجفف لي دموعي !

إن ثوران عواطفي وتأجج ذكرياتي، وما يحس به قلبي من قحط عاطفي، وما أشعر به من ضياع و توهان، بعد رحيل "ألكسِسْ" ثم سكوتها وعدم مقاطعتها لي ... قد شجعتني على الاسترسال فأضفت:

-لقد أمضيت طيلة اليومين الماضيين أفكر بكِ يا شيلا، أفكر بك في كل دقيقة وكل ثانية؛ حتى توصلت إلى حقيقة ناصعة وقناعة ثابتة، بأنني أتمنى لو أقضي كل يوم من عمري معكِ... إلى جوارِكِ... بقربكِ... فإن ذلك يمنحني سعادة أنا أفتقدها؛ وأمناً واطمئناناً، أنا بأشد الحاجة إليهما...! أتعذب كثيراً... كثيراً جداً بسبب غيابهم...! إن محبتك وحنانك ودفئك... يبدد صقيع قلبي، وخواء حياتي... وزمهرير وحدتي... ! صدقيني يا شيلا إن أقسمت لك برب الكون وقلت ؛ بأنني لا أفكر بك كما يفكر الرجل بالمرأة... أنا أفكر بك كأخت واعية... ناضجة... متفهمة... رقيقة... محبة... حانية... توزع محبتها على من حولها لإسعادهم... دون أن تطمع في أجر أو حتى كلمة شكر...! بربّك يا شيلا أن لا تكرهيني وأن لا تحقدي عليّ ، وأن تحبيني... أن تزيديني حباً... أن تغرقيني بالحب... الحب العذري... البريء... الطاهر... النقي ... فإن بي ، والله ، قحطاً عاطفياً، يخنقني ... يكتم أنفاسي ... يصل إلى نخاع النخاع...!

كنت أتكلم بصوت هامس ... رقيق ... حالم ... مثقل بالعواطف والمشاعر... شبه مخدّر بخمر وأنوثة وسحر المرأة التي أجلس بحضرتها... وكانت عيناي لم تتحولا عن باب المطبخ ! أرقبه ! لقد تأخر الزوج... طالت غيبته... عمداً أو بالصدفة...!؟ لا أدري !؟

لا شك أن اهتمامها وإصغائها معاً، قد شجعاني على مواصلة الكلام، ولا شك أنهما زادا في تسعّر عواطفي وتأجج مشاعري، إذ استولت عليّ عواطف عارمة... متأججة... لاهبة... مكبوتة... وأحسست بنشوة صوفية راعشة... غمرني شوق رباني شامل... واستبد بي إحساس هلامي رقيق... فصارت عواطفي تغلي كالبراكين... وأصبحت عيوني مدججة بالدموع فاسترسلت.

-يا لها من لذة روحية تصوفية متعملقة... وسعادة سماوية متألقة يا شيلا، عندما يجلس العابد المتصوف... المتيم... المدنف... الوله... في حضرة خالقه، خاشعاً... قانتاً... ساجداً... متعبداً... في محراب سيد روحه وقلبه وعواطفه... مرتلاً قصائد الوجد والتدله والمحبة... مردداً ابتهالات الشوق والحنين والصبابة...! إن آمالي وأحلامي وطموحاتي، المسحوقة... النازفة... المثخنة الجراح... يا سيدتي الحنونة الدافئة، لتقف هذا المساء بشموخ وكبرياء وشجاعة... وتصميم وعزم وصلابة... وبكل الصدق والأشواق والوفاء... تنشد المحبة وتطمع بالصداقة وتأمل منك القبول... !

–لقد قرأت بأن الدين الإسلامي يمنع شرب الخمر، بل ويحرمه ! قالت بتردد وصوت خافت حيي، غير معلقة على ما قلت؛ وكانت عيناها ما زالتا محولتين عن وجهي إلى الجهة المعاكسة.

–إذن، أنتِ تساءلتِ، لم أشرب، أنا يا سهيل دهشان، بهذه الشراهة والضخامة، ما زال ديني يحرمه ؟! قلت وقد ضحكت لتوارد خواطرنا، ثم أضفت:

–هذا بالضبط هو نفس السؤال الذي كنت أفكر بطرحه عليك يا شيلا، منذ اللحظة التي علمت بها بأنك ابنة رجل دين؛ لأنني أعرف أن الدين المسيحي هو أيضاً، ضد الشرب الزائد... وإن كان الكتاب المقدس يقول بما معناه؛ بأن قليلاً من الخمر تنعش القلب !

لاحظت الامتعاض وعدم الرضا على وجهها، فقد تغيرت ملامحها واصفر لونها... فندمت على سؤالي وعلمت أنني تسرعت وأنني لا شك قد آذيت مشاعرها؛ فاسترسلت محاولاً أن أخفف من وقع ما قلت:

–إن شربي للخمر هي لا شك عادة سيئة اكتسبتها بعد مغادرتي الوطن...! أنا لم أذق الخمر في حياتي إطلاقاً قبل ذلك الوقت ولم أعرف حتى طعمه... ولكن ليالي الوحدة الطويلة القاتلة... والغربة الممزقة المدمرة... والشوق إلى الأهل والأحبة... والبعد عن استنشاق بخور أرض الوطن وترابه... والحنين إليه وإلى من به... كل هذه مجتمعة جعلتني أنشد العزاء وأخفف من نار الشوق وألم التمزق، في معاقرة الخمرة، وإغراق نفسي بين أحضانها...!!

وهنا أقبل الزوج يحمل صينية فضية كبيرة تلمع كأنها قطعة من نور، مع أن ضوء المكان كان يغلب عليه الخفوت والرومانسية، عليها ثلاثة كؤوس فارغة مصنوعة من الكريستال الفاخر، وملقط فضي جميل وقارورة فودكا مختومة؛ وباليد الأخرى يحمل سطلاً مصنوعاً من الخشب الفاخر مملوءاً بالثلج...!

ما كاد الزوج يضع أمامنا ما يحمل حتى نهضت الزوجة على عجل، وبيدها اليسرى فتحت باب السطل وبأصابع يدها اليمنى المجردة، التقطت منه بعض أكعاب الثلج التي سُمع لها صرير... وألقت بها في أحد الكؤوس... وبعصبية ظاهرة وسرعة فائقة، كسرت ختم القارورة... وأفرغت في كأسها بعض السائل رمته في جوفها دفعة واحدة، ثم أعادت الكأس إلى مكانها فوق الصينية... بعدها رمت بنفسها بقسوة إلى حيث كانت

جالسة... عندها تأكد لي بأن جملتي لها، كانت جارحة ومهينة، فأحسست بندم وصل حد الاختناق !

فتحت فمي لأعتذر، لكن صوت الزوج كان سبق صوتي، إذ سمعته يقول وكانت ابتسامة هادئة وحنونة تعلو شفتيه وتغطي وجهه.

-يبدو أن حبيبة القلب جدّ عطشى ! قالها والتقط بيده اليمنى الملقط الفضي من على الصينية الفضية، وبيده اليسرى فتح غطاء السطل وصار يلتقط من جوفه أكعاب الثلج ويرمي بها في جوف كؤوسنا الثلاثة مبتدئاً بكأسي منتهياً بكأسه... ثم، وبكل هدوء وكبرياء، حمل قارورة الفودكا وأزال غطاءها بطريقة رومانسية حالمة... كأنما ينـزع ملابس حبيبته قبل أن يأخذها إلى الفراش، حمل كأسي بحرص وتأن وناولها لي، ثم فعل ذلك مع زوجته، ثم حمل بعدها كأسه ورفعها إلى أعلى وهو يقول: فلنشرب نخب صداقة البروفيسور دهشان! ثم استدرك ؛ صداقة سهيل دهشان !

-فلنشرب نخب صداقتنا الثلاثة ! قلت وقد رفعت كأسي وضربتها بالهواء !

قرّب الزوج كأسه من كأسي وطرقها بمنتهى الرقة والأدب والرومانسية ، ثم نظر نحو زوجته لعلها تنضم إلينا، ولكنها لم تفعل، وإنما رفعت كأسها إلى أعلى، بتراخ وتكاسل، وضربتها بالهواء وأعادتها إلى شفتيها...! حذونا نحن حذوها، وشربنا الثلاثة من كؤوسنا في وقت واحد... وإن لاحظت أن جرعة الزوج هذه المرة كانت كبيرة... كبيرة جداً... أكثر من المعتاد... لا شك أنه هو الآخر... عطش... عطش جداً...!!

-سمعتكما تتكلمان عن شرب الكحول... قال الزوج بعد أن تلذذ لعدة مرات بمذاق ما يشرب، وبعد أن أجلس كأسه على الطاولة أمامه أضاف:

-في الواقع لم يكن أحدنا، لا شيلا ولا أنا، قد ذاق الكحول قبل أن نأتي إلى كاليفورنيا... حتى البيرة لم نعرف طعمها من قبل... ولكن بعد وصولنا إلى لوس أنجلوس، مارسنا شرب الكحول... بدأت أول الأمر بكأس من البيرة ثم بكأسين... ثم شربنا بعض النبيذ مع الطعام... ثم توسعت دائرة شربنا حتى أصبحنا نشرب في كل ليلة... وفي بعض الليالي نشرب كثيراً... كثيراً جداً ، أكثر مما يجب... ! قالها بحزن ظاهر.

إذن، سمع الزوج كل ما قلت لزوجته ! لقد كنا نتحدث بصوت منخفض جداً... جداً... وخصوصاً كلامي إلى شيلا، كان همساً... فكيف

سمع ما قلنا ؟! لا شك أن له أذني خلند...! إذن، لهذا السبب طالت غيبته في المطبخ... حتى يعطينا الفرصة لنكمل حديثنا... لنقول كل ما نريد قوله...! يا له من إنسان عظيم !

هممت أن أقول لهما بأن لا عذر لهما في ذلك، فهما يعيشان في بلدهما، وخلال ساعات قليلة وبأجر زهيد جداً، يكونا قد وصلا إلى أي مكان في أميركا... حيث الأهل والأحبة... ثم أنهما ليسا مثلي، بيني وبين الوطن والأهل قارات ومحيطات... وأن أوضاع بلدينا تختلف كل الاختلاف... كما أنهما وفي أية ولاية يعيشان، فإنهما يعيشان بين أهليهما وفي وطنهما... !

–نحن من بلدة صغيرة من ولاية نبراسكا، ولدنا ونشأنا وترعرعنا بها، وثم درسنا وعملنا هناك، ولم نغادرها إلى أي مكان قط... إلى أن أتينا إلى هنا ! قال الزوج وقد قطع عليّ حبل أفكاري.

–قد لا تكون غربتنا ومعاناتنا ببعدنا عن الأهل والأصدقاء بحجم غربتك ومعاناتك، ولكن صدقني أنها كانت لنا أيضاً غربة ومعاناة...! غربة ومعاناة موجعة أن نترك الأهل والأحبة... حتى ولو أننا تركناهم باختيارنا...! لقد تعذبنا بادئ ذي بدء، ولكن عزاءنا كان أننا نستطيع أن نعود إليهم في أية لحظة نشاء... ثم من ناحية ثانية أنا أكتسب خبرة عظيمة كمساعد لمدير البنك، فرع " وست وود فلج " ، كما أن زوجتي تكسب هي الأخرى خبرة أيضاً، وتتسع دائرة اطلاعها...!

لا أدري لماذا أرعبتني فكرة عودتهما إلى ولايتهما، إذ تصورت نفسي أعود من جديد إلى حياة التشرد والضياع والتمزق... بائساً... وحيداً... تسحق الوحدة عظامي، ويفري الاغتراب كبدي، ويذيب الترقب حشاشتي... ثم لأعود من جديد، فأجوب شوارع لوس أنجلوس ووست وود فلج، وسانتامونيكا، ككلب ضال أو قط متشرد...!

–هل هناك احتمال لعودتكما في المدى المنظور ؟!سألت بقلق ولهفة.

–لا، ليس قبل عامين أو ثلاثة؛ إذ أن أمامي فرصة كبيرة أن أصبح مديراً لأحد فروع البنك ! أجاب الزوج مطمئناً وكأنما أدرك قلقي.

–ولكن العودة لا بد منها في يوم ما ! أضاف.

-يعزّ عليّ جداً أن أفقدكما وقد تعرفت لتوي عليكما ! قلت صادقاً وبفرحة كفرحة الأطفال.

-ونحن كذلك !قالت الزوجة بتحد لاحظته بنبرة صوتها... ولكنه ممزوج بالصدق... رافقتها بابتسامة خفيفة علت شفتيها.

نظرت إليها نظرة امتنان طويلة، وكأنما عيناي تقولان لها شكراً... ولا شك أنها قرأت رسالة عيني فهزت رأسها علامة العفو والتقدير!

مرّت فترة صمت خلتها ساعات، إذ لعل كلاًّ منا كان يبحث في مخيلته عن شيء يقوله، فلم يفتح الله علينا بشيء، إذ لاحظت أن مضيفيّ كانا مثلي يحملقان بكأسيهما؛ وأخيراً فتح الله عليّ:

-وهل يوجد جامعة في قريتكما ؟ وجدت نفسي أسأل.

-ليس في قريتنا بالضبط ؛ الجامعةقريبة من قريتنا إذ تبعد حوالي خمسة وعشرين ميلاً. قال الزوج وابتسم ابتسامة هادئة.

-ذكريات جميلة، جميلة جداً! كنا، حبيبة القلب وأنا، نذهب في الصباح معاً ونعود بعد الظهر، ثلاثة أيام في الأسبوع ؛ هكذا كنا نرتب جدولنا الدراسي، الاثنين والأربعاء والجمعة.

-ألم يكن ذلك متعباً لكليكما ؟سألت دون تفكير، إذ لعلي لاشعورياً، أردت استمرارية الحديث مخافة أن ينقطع... مع علمي أن المسافة وعدد الأيام شيء بسيط جداً؛ وأن أي انسان يتحمل مشقة الدراسة أكثر من ذلك بكثير.

-لا، أبداً، على العكس، كان مريحاً جداً. كنا أربعة طلاب وكنا أصدقاء أيضاً، ومن نفس القرية؛ نذهب إلى نفس الجامعة. بنتان وولدان، سوزان وصديقها مارتن ؛ وشيلا وأنا ! كل واحد يقود سيارته يوماً. أجاب الزوج بصوت منخفض كالهمس !

-تخرجنا الأربعة معاً وتزوجنا في نفس اليوم. قالت الزوجة بفرح مصطنع تشف الحزن من كلماتها !

-هما غادرا إلى ميامي بفلوريدا بعد زواجهما بشهر؛ فقد تعاقد "دقلص " مع شركة هناك ، ونحن أتينا إلى هنا، ولكن بعد مضي حوالي العام. الحياة مملة وروتينية في القرى والبلدات الصغيرة، ولذلك أتينا إلى جنوب كاليفورنيا !قال الزوج ومسحة من الحزن تغطي وجهه.

-مسكينة القرى والمدن الصغيرة ! يهجرها شبابها بعد أن يصبحوا منتجين وقادرين على العطاء، فيذهبوا إلى المدن الكبيرة ويساهموا بتكبيرها وازدهارها وتقديم العطاء لها... ثم عندما يعودون إليها للزيارة، يتذمرون ويتهمون ويتساءلون... لم لم تكبر قراهم وتبقى دوماً على حالها، هي هي، صغيرة وغير مزدهرة... ! قلت بصوت مثقل بالحزن والألم.

-يبدو أن المشكلة متشابهة في العالم كله... الشباب يهجرون قراهم ومدنهم الصغيرة حيث المناصب والنقود والأضواء وحياة الليل واللهو وتحقيق الطموحات والأحلام ! ولكن حب مدينتي الصغيرة يجري مع كل قطرة دم في كياني، ويمتزج بكل نسمة هواء أستنشقها... ولا أستبدلها بكل مدن أميركا وحتى بكل مدن العالم ! قالت الزوجة وزفرت زفرة من أضناه البعد وحرّقه الوجد...!

-العشق لعنة مدمرة أحياناً... إنه مرض عضال... يجري مع الدم في الأوردة والشرايين... إذا عشعش داخل صاحبه فإنه لا يترك مكاناً في كيانه إلا ويستوطنه... يكون مع نبضات قلبه وخلجات روحه...! قلت وقد بدأت قشعريرة تلف حواشي نفسي!

-وهل تعني عشق الإنسان أو عشق الأرض يا سهيل ؟ !سأل الزوج وقد لاحظت اهتماماً شديداً وجدّية زائدة على قسمات وجهه وفي نظرات عينيه !

-كلاهما يا صديقي... كلاهما ! لا فرق بين أن تعشق امرأة أو أن تعشق أرضاً... إذ إن الواحدة تنخر في عظامك كما يفعل السوس المستشري ! ثم التفتُّ إلى الزوجة وأضفت:

-وأنا مثلك يا شيلا، أحب وطني حتى نخاع النخاع ، ولا أستبدله بجنات الخلد، وإن كان الفرق بيننا هو أنك تحبين قريتك أو مدينتك الصغيرة فقط، أما أنا فأحب وطني الكبير كله... بل أحب كل ذرة تراب وكل رملة به، من محيطه إلى خليجه... وطني الذي ساعد الغرب على اغتصاب جزء منه فقدموه هدية للصهيونية العالمية ، وجزء آخر قدموه هدية لتركيا !

-أماكن الطفولة ومراتع اللهو عزيزة علينا جميعاً...! قال الزوج مواسياً.

-إنها ممزوجة بدمائي وتجري في شراييني... وحبها هو الهواء الذي أستنشقه... صدقاني إنها الطاقة التي تجعلني أتحرك على هذه الأرض، والأمل الذي يجعلني أعيش !

-وفجأة أحسست بغصة تقف في حلقي فتابعت معيداً ما سبق وذكرت:

–أنا لا أعشق أماكن طفولتي ومراتع لهوي فقط.. إن عشقي هو عشقي للوطن العربي hالكبير كله !

–إذا كنت تحبه كل هذا الحب، ومتيماً بهواه إلى هذه الدرجة المذهلة؛ فكيف قدرت على فراقه ؟! سألت الزوجة بأدب ورقة ودبلوماسية.

–أنا لم أفارقه مختاراً...! صدقيني لقد أرغمت على فراقه إرغاماً...!!

تبادل الزوجان نظرات متسائلة حيرى، ثم نظرا إلى وجهي كأنهما يطلبان إيضاحاً؛ فتابعت:

–إن معظم المؤسسات في الوطن تمكلها الدولة، ولكي يعمل الإنسان في إحدى هذه المؤسسات فلا بد من أن توافق عليه المخابرات العامة، وهي لا توافق إلا إذا كان ملف المتقدم خالياً من السوابق !

–ماذا تعني بالسوابق ؟! سألت الزوجة محتارة وقد اتسعت عيناها فشعرت القلق بهما.

–إن هذا النظام معمول به عندنا هنا في أميركا، وأظن أنه متبع في جميع بلاد العالم! قال الزوج.

–نعم هذا صحيح !قلت مخاطباً الزوج بحماس، وإن كانت عيناي لا تتحولان عن وجه الزوجة حتى لا تخرج عن دائرة الاهتمام.

–إن كلمة السوابق عندنا في الوطن لها مفهوم مغاير تماماً للمفهوم الأميركي والأوروبي !إن القوانين في تلك البلدان، أعني الأمريكية والأوروبية، تتطلب أن يكون شاغل أي منصب في الدولة حسن السيرة والسلوك؛ أي أن لا يكون قد ارتكب جرماً... كأن لا يكون قد قتل أو سرق أو احتال أو زوّر أو اختلس، أو أن لا يكون عميلاً لدولة أجنبية... أما عندنا في الوطن فالأمر يختلف !

–- القانون في بلادنا هم رؤساء الدولة والمخابرات معاً ! إن المخابرات لا تمنع الشرفاء من العمل في مؤسسات الدولة فقط، بل لا تسمح لهم بالحصول على عمل بالمؤسسات الخاصة ! إنها تطلب من صاحب العمل أن يطرد كل من يندد بالظلم والفساد، وكل من ينتقد النظام، فتلفق له تهمة من تهم عديدة يعاقب عليها القانون؛ كأن ينتمي إلى تنظيم سري غير مشروع يعمل لزعزعة النظام والإخلال بأمن الوطن واستقراره... فيتشرد المسكين وتتشرد عائلته ويتلقفهم الشارع... هذا إذا لم يلقوا به في غياهب السجون ! لذلك، وتحت وطأة الاضطهاد والقمع والمطاردة فقد

هاجرت الأدمغة ورحلت العقول، وأفرغ الوطن من الشرفاء والمخلصين والغيورين، وأصبحوا يقتاتون من فتات موائد الغرب ويخدمون تقدمه؛ أما القسم الأعظم منهم، فإنهم مشردون في شوارع الغربة وأزقة الضياع والإذلال ! إنك لا تجد بلداً أوروبياً أو أميركياً إلا وبه أعدادٌ ضخمة من هؤلاء !

–وما هي تهمتك أنت ؟! وهل وضعوك في السجن ؟!سأل الزوجان يقاطعان بعضهما بعضا.

–لم يعلموني صراحة التهمة ؛ ولم يضعوني في السجن ؛ وإنما جعلوني عاماً كاملاً أتردد على مديرية المخابرات للحصول على إذن يسمح للجامعة بالموافقة على تعييني أستاذاً بها. لقد كنت أعرف سبب رفضهم، فظننت أن الأمر لن يستغرق إلا بضعة أيام ، ويسمحون لي بالعمل لاعتقادي أن "تهمتي" ليست بذات قيمة ولست أتبنى أفكاراً مغايرة للأفكار والشعارات التي يتغنى بها ويتشدق كل حاكم عربي ! لقد كنت عضواً في حزب يدعو دستوره إلى وحدة الوطن العربي الكبير الممزق، في حكومة واحدة ونظام واحد... تماماً كما تعيشون أنتم الآن، خمسون ولاية موحدة !

–وما الخطأ في ذلك ؟! سألت الزوجة باستغراب ممزوج بالاندهاش وقد اتسعت حدقتا عينيها !

–وهل يعتبرون هذا ضد أمن الوطن وسلامته؟ ! سأل الزوج باستغراب وحيرة معاً !

–في الحقيقة أنه ضد سلطة الحاكم وضد من حوله ! في حالة حدوث الوحدة، يكون هناك حاكم واحد فقط للوطن العربي كله؛ ويفقد الآخرون، والذين يزيد عددهم عن العشرين، مناصبهم ! إن كل حاكم في الوطن العربي الكبير لا يريد أن يتنازل عن منصبه لآخر، مع أنه في تصريحاته وخطبه ومجالسه لا ينفك عن التشدق بحبه لوحدة الوطن الممزق، وبسعيه الدؤوب من أجل الوحدة الكبرى !

–في كل بلاد العالم ، لكرسي الحكم سحر عجيب ! قال الزوج وهو يهز رأسه!

–إن كل حاكم من حكام العرب يدعي بأنه أمضى حياته يعمل من أجل الوحدة الكبرى؛ ولكن الآخرين هم الذين يمنعون حدوثها، وهو يطلب لهم من الله الهداية والصلاح!

–وهل سمحوا لك أخيراً بالتدريس ؟! سألت الزوجة باهتمام.

-طبعاً لا ! لقد أمضيت عاماً كاملاً ألفّ بين بيتي وبين مكاتب المخابرات ! كانوا في كل مرة يعدونني خيراً، ويطلبون مني أن أنتظر قليلاً، إلى أن كان يوماً سألني أحد الزملاء إن كنت قد حاولت السفر إلى أميركا، إذ أن كثيراً من الذين يعتقد النظام بأنهم مقلقون له وخطر عليه، ولكنهم لم يرتكبوا جرائم توجب زجهم بالسجون أو المعتقلات، تشجعهم إلى الرحيل خارج الوطن، وأن أميركا ترحب بهجرة الأدمغة إليها، لأنهم كسب لها وتعتبرهم ثروة قومية ! احتججت بأن السفارة الأميركية لا تمنح تأشيرة دخول إلا بعد الحصول على شهادة حسن سيرة وسلوك من المخابرات العامة ؛ فأكد لي هذا الزميل بأن المخابرات ستمنح الشهادة حالما تعلم أنني أريد مغادرة الوطن نهائياً... وقد فعلتْها مع كثير من الشباب المتعلم !! وصدق صاحبي، فقد كانت تأشيرة دخول أميركا في جيبي خلال فترة لم تتجاوز الأسبوع !

-يا لهم من شياطين وأبالسة ؟ قال الزوج باشمئزاز وقرف !

-يا للمسكين! لقد تعذبت في حياتك كثيراً بسبب آرائك ومعتقداتك ! قالت الزوجة بلهجة تفيض رقة وعذوبة وتقطر حناناً ومحبة !

-صدقت يا شيلا ! إنني كثيراً ما أشعر بضياع الهوية وفقدان الذات، وأحياناً أحسّ بتوقف الإرادة وموت الإحساس... ولطالما عجزت عن عدم المقدرة على تحديد الهدف... فيخيّل إليّ أنني قد انتهيت، وإلى الأبد !

-الشكر لله أنه نجاك من شرورهم وأحابيلهم ! قال السيد روبنسون مواسياً ومعزياً معاً !

ولم اخترت ولاية كاليفورنيا من بين الخمسين ولاية ؟! سألت الزوجة.

-صدقيني يا شيلا، أنني لم أختر كاليفورنيا، وإن كنت قد سمعت عنها الكثير... الكثير... إذ أن مناخها يشبه إلى حد كبير مناخ وطني المحتل ! إنني لم أُعطَ حق الخيار، لسبب بسيط هو أنني في لحظة اتخاذ القرار لم يسألني أحد ولم يأخذ رأيي إنسان... إن نفس الإنسان الذي اقترح علي الرحيل هو نفسه الذي أعلمني بأن له صديقة عجوزاً أميركية في كاليفورنيا، وأنها من الممكن أن تساعدني أول وصولي...!

"إنه القدر يا شيلا... نعم القدر... هو الذي اختار لي كاليفورنيا أو اختارني لها... إنه القدر الذي يرسم الخطى ويوزع الأرزاق، يعطي هذا ويمنع عن ذاك... لقد رسم لي خطواتي...! نحن يا شيلا في هذه الدنيا كأحجار الشطرنج، يحركنا القدر كما يحلو له ويحب ، ونحن لا نستطيع

الرفض ولا حتى الاعتراض...! لقد جعل القدر أسناني تؤلمني وأن أذهب إلى عيادة طبيب الأسنان الدكتور إليوت ، وأن تكوني أنت هناك... فتقابلينني وتصبين عليّ بحاراً من كراهيتك واحتقارك... لدون ذنب اقترفته... وها أنا اليوم أقع، أو على وشك الوقوع بحبك... ولكن فليشهد هذا القدر الذي رسم لي خطواتي، أنني ما فكرت بك، ولا للحظة واحدة، كما يفكر الرجل بالمرأة، بأن ينام معها... ولكن كما يفكر الأخ بأخته أو الفنان بموديله... ! لقد قطعت على نفسي عهداً، يوم عزمت على الرحيل عن الوطن ، أن "أنتقم"... وقد سميته انتقاماً طبقاً لعقليتي القبلية وتربيتي الدينية... نعم، لقد أقسمت أن أضاجع كل فتاة أميركية جميلة أستطيع مضاجعتها... وأن لا أوفر عازبة أو متزوجة... ولكن ها أنا اليوم أحنث بوعدي يا شيلا، وأعاهدك الآن أمام الله وأمام نفسينا، أنني لن أطارحك الغرام ولن أضاجعك، حتى ولو طلبت أنت مني ذلك وألححت في الطلب، على الرغم من أنك من أجمل فتيات أميركا اللواتي قابلتهن... ومن أكثرهن رقة وأنوثة وسحراً! "

-وهل ساعدتك تلك السيدة ؟! سألت شيلا روبنسون.

-نعم، مساعدة لا يساعدها أخ لأخيه ! إنه، وبفضلها استطعت أن أكون أستاذاً في الجامعة ! قلت.

-وهل كنت تعرف شيئاً عن كاليفورنيا قبل حضورك إليها ؟ ! سأل الزوج.

-نعم، لقد سمعت وقرأت عنها الكثير... وأن مناخها يشبه كثيراً مناخ فلسطين ! قلت.

-وهل أنت فلسطيني؟ سأل الاثنان معاً.

-كلا، لم يحصل لي هذا الشرف ! قلتها بتحد وعناد وأنا أصرّ على مقاطع الكلمات !

-ولم تقول ذلك ؟! سألت الزوجة وعلامات الاستغراب ظاهرة على وجهها !

-لأنني أعتقد أن الشعب الفلسطيني، الذي تكسر إسرائيل عظامه في كل يوم... وتدوس على آدميته في كل لحظة... وتصادر حريته وتنكر حتى وجوده... وتضعه في سجن كبير، مسحوقاً مقموعاً مذلاً مداساً، هو

الذي سيحرر الأمة العربية، المقهورة المقموعة، من ظلم و عبودية الغرب واستغلاله لثرواتها وأناسها...!

لم يعلق أحد من الزوجين واكتفيا بتبادل النظرات... فتابعت.

-لقد صار لهم قرن كامل يقارعون، لوحدهم، أعتى امبراطوريات الشر والحقد والتعصب... الصهيونية العالمية وحلفاءها... عزّلاً إلا من إيمانهم وصبرهم، مضحين بعشرات الآلاف من الأرواح... ولم ييأسوا...!

ومرة أخرى لم يعلق أحد من الزوجين بشيء... ومرة أخرى اكتفيا بتبادل النظرات... ومرّت فترة صمت طويلة كنا ثلاثتنا يحملق كل منا بالآخرين كأنما ينتظر منهما أن يقولا شيئا... وأخيراً قال الزوج ممزقاً الصمت الذي خيّم على الصالة لبعض الوقت:

-شاب له قوة شخصيتك ودماثة أخلاقك، وعنده عمق ثقافتك وسعة اطلاعك، يستطيع أن يعمل بوزارة الخارجية أو مع مكتبة الكونجرس، فيصل إلى منصب رفيع في زمن قياسي! أنا لا أقول بالوقت الحاضر، ولكن في المستقبل عندما تصبح مواطناً أمريكياً ! قال الزوج.

-بصراحة ، أنا أفضل أن أبقى أستاذاً بسيطاً في الجامعة، من أن أكون وزيراً للخارجية أو مديراً لمكتبة الكونجرس، أو أية وظيفة حكومية ! أنا لا أحب الحكومة الأمريكية ! قلت.

-يبدو أن سهيلاً لا يحبنا، ومغلق قلبه وعقله عن حبنا ! لست أدري ماذا نستطيع أن نفعل له حتى نجعله يتوقف عن كراهيتنا ويبدأ بمحبتنا !؟ قالت الزوجة بدلال عفوي وقد علت وجهها ابتسامة هادئة !

-إنني على العكس من ذلك، أحبكِ كثيراً جداً ! قلت بحماس مدافعاً لأُنفي عن نفسي تهمة باطلة وبدون تفكير؛ ولكنني سرعان ما تبينت أنني أخطأت التعبير بسبب محدودية اللغة الإنجليزية... إذ كأنما قلت للزوجة إنني أحبكِ...! لاحظت أن الزوج قد استغرق بالضحك بينما علا وجه الزوجة بعض الخجل !

-أنا آسف جداً لمحدودية اللغة الإنجليزية ! أنا أعني، أنا أحب أميركا والشعب الأميركي... وإنما الذي لا أحبه هو سياسة الحكومة الأميركية نحونا، نحن شعوب العالم الثالث !

-نحن نعرف ما عنيت ! قالاها بصوت واحد... ورأيت الزوجة تنهض ومن على كرسي قريب حملت حقيبة يدها، ورأيت الزوج ينهض ونهضت أنا تلقائياً.

–يجب أن نذهب الآن وإلا فإننا سنتأخر ! أنا أحب أن أكون جالسة في مقعدي عندما تبدأ المسرحية. قالت الزوجة وهي تقود الطريق إلى الباب؛ وكنت قد عرفت عند حضوري، أن الزوجة قد حجزت أماكن لنا لحضور مسرحية صار لها أكثر من عام تمثل على أحد مسارح هوليوود الشهيرة.

* * * * *

–لم أكن أعرف أنك صاحب ذوق رفيع أيضاً في اختيارك لأماكن الأكل يا سهيل! قال جيمس روبنسون وهو يتأمل جمال المطعم وفخامة زينته؛ وبعد أن أجلستنا المضيفة وناولت كل واحد منا قائمة الطعام، والتي هي عبارة عن كرتونة فاخرة صقيلة وملساء ذات ثماني ورقات مدون عليها وبخط فاخر، كل ما يقدمه هذا المطعم الباذخ من طعام ومشروبات... وكأنما هي سجل خالد مدوّن به كنوز هذا المطعم الفخم، والتي هي عبارة عن أطباق شهية فاخرة ورائعة مع مختارات مشهورة من أنبذة العالم محلية ومستوردة !

–حقاً إنه مطعم رائع ، إذ خيل إلي بادئ ذي بدء، كأنما هو يقع في إحدى قلاع العصور الوسطى التي شاهدناها أو قرأنا عنها ! وهل تأتي إلى هنا كثيراً ؟! سألت الزوجة وهي تسرّح بصرها نحو مياه المحيط، وترى المراكب المضيئة تمر أمامنا كأنها في احتفال كرنفالي ! قلت وقد أسعدني ابتهاجها وسرّني ثناؤها:

–أتيت أربع مرات فقط، مع أنني اكتشفته بطريق الصدفة قبل حوالي خمسة شهور. كنت عائداً في إحدى الأمسيات من أحد مشاويري بالسيارة على الطريق الساحلي عندما لفت انتباهي هذا الشارع الضيق يعبر بين الصخور والأشجار، ورأيت سيارات كثيرة تقف على الجانبين، فقلت لنفسي، لا بد وأن يكون هنا شيء ممتع يستحق التوقف لرؤيته بسبب غزارة السيارات المتناثرة في كل مكان ! وقفت سيارة نزل منها رجلان وامرأتان كان كل واحد منهم يرتدي ملابس فاخرة، تفوح من المرأتين رائحة عطر لذيذ !

–هل الذي جذبك هو العطر أم المرأتان ؟! سأل الزوج وهو يضحك ويغمز لزوجته بطرف عينه.

–إن الذي يجذبني عادة هو المرأة الجميلة، أما في هذه المرة فقد جذبني عطر المرأتين وملابسهما الفاخرة ، لسبب بسيط هو أن المرأتين كانتا حيزبونتين ! قلت وأنا أضحك أيضاً !

-سرت وراءهم وعند الباب استقبلتهم النادلة وسألت أحد الرجلين عن اسم الحاجز، ثم نظرت في دفتر كبير وأشارت بقلم في يدها عليه، ثم سارت إلى الداخل وتبعها الأربعة. أدركت عندئذ أنه لكي يدخل الإنسان دون انتظار طويل، فلا بد من أن يحجز ويحدد الوقت تماماً ! كنت أهم بالعودة لولا أن نادلة أخرى تقدمت مني تسألني عن الاسم، ولما أعلمتها بأنني لم أحجز مقدماً ، أعلمتني بأن علي أن أنتظر حوالي الساعتين قبل أن يأتي دوري... اعتذرت لها وأعلمتها أنني سأفعل ذلك في المرة القادمة بعد أن زودتني ببطاقة مكتوب عليها اسم المطعم وعنوانه ورقم تليفونه، وكذلك ساعات فتح المطعم ! تنص صراحة على الحجز مقدماً وأن المطعم لا يعمل إلا في المساء من السادسة وحتى منتصف الليل...!

-إن جميع مطاعم الخمس نجوم في كاليفورنيا وكثير من المدن الأميركية تصرّ على الحجز مقدماً ! قال الزوج.

-يبدو أنه يسرك أن تكتشف مطاعم فاخرة ذات بناء معماري غريب ! قالت الزوجة وابتسامة مضيئة تخرج من عينيها المتقدتين الجذابتين !

-بنفس الغبطة والسعادة التي أكتشف بها كتاباً قيّماً ، أو أتعرف بها على امرأة ممتعة وجذابة... ذكية وجميلة...! وغمزت بطرف عيني اليسرى إلى الزوج الذي كان يتابع حديثنا باهتمام ويقظة.

لاحظت أن الزوجة قد احمرّت وجنتاها، وحوّلت عني عينيها، إذ لا شك أنها أدركت بغريزتها الأنثوية أنني أعنيها هي !

-يسعدني جداً أن أسمع أن زوجتي ذكية إلى جانب كونها جميلة ! قال الزوج بشقاوة ومكر وعلى شفتية ابتسامة كبيرة !

-ويسعدني أنا أيضاً أن يكون لصديقي الحميم زوجة ذكية وجميلة...! قلت.

يبدو أنه من الصعب على الإنسان أن يتخلص من خلفيته الحياتية، حتى ولو عاش في مجتمع متحرر ومتسامح أيضاً؛ إذ أن تربيتي القبلية وطبيعتي الشرق أوسطية... وكذلك فكرة الجنس الذي هو الأساس، والهم الرئيسي الذي يربط بين الرجل والمرأة ويحدد العلاقة بينهما... ما زالت مسيطرة علي؛ إذ سرعان ما أحسست بحرج شديد وأسف عميق لما صدر مني...! لقد فكرت بأن الزوجين لا بد وأن يكونا قد فهما كلامي ففسراه بغير ما عنيت... ولكن سرعان ما فارقتني شكوكي، فقد سمعت الزوجة تقول:

-إن جمال المرأة الحقيقي والأصيل، يكمن في رجاحة عقلها، وصفاء روحها، وعظمة قلبها، وسمو مشاعرها... تعكسه شفافية عينيها ورقة لفتاتها وسحر حركاتها... ولكي يكتشف الرجل كل هذه الكنوز المخبأة، ويسبر أغوارها السحيقة، فلا بد وأن يتمتع هو نفسه بجمالية الروح وعمق المشاعر... وأن تكون له رؤيا ثاقبة وأحاسيس مرهفة ومشاعر زاخرة... مثل الفنان سهيل...!

-" الله ! الله! رائع! رائع!" قلتها بالعربية وبالإنجليزية، بحماس شديد وبصوت مرتفع... دون أن أعي ما أقول، غير مسيطر على أعصابي... !

كانت القاعة الكبيرة مكتظة بالزبائن الذي يظهر من ملابسهم وتأنقهم، وكذلك من فراء النساء وماركات عطورهن، أنهم جميعاً، من الطبقة المترفة والارستقراطية...! وكان هدوءاً ملتزماً يخيم على المطعم بكامله، لا يزعجه إلا أصوات الملاعق والشوك والسكاكين، وكذلك انفجار قوارير الشمبانيا والنبيذ عند فتحها...!!

كان الزبائن وهم يتكلمون، يتهامسون بأصوات منخفضة، كعشاق يتطارحون الغرام ويتناجون...! ولا شك أن ما خرج من فمي سمعه كل من كان في القاعة المترامية الأطراف... حيث رأيت أن كل من كان بالقاعة، قد حوّل نظره باتجاهنا !

-بروفيسور سهيل ! أرجوك ! اضبط جماح نفسك... نحن في مكان عام ! قال الزوج بغضب وعصبية وقد لاحظت الشرر يتطاير من عينيه، وإن حاول جاهداً أن يبدو طبيعياً... فقد فرد ابتسامة كبيرة، ولكن فاترة فوق شفتيه...!

وكأنما أحدهم بصق في وجهي أو صفعني كفاً، إذ شعرت أن الأرض تميد تحت قدمي، فتمنيت لو أنها تنخسف تحتي وتطمرني بداخلها...!

-والآن، وبعد أن سمعت ما قلت؛ فهل تعتقد أن عندي أفكاراً أدبية جيدة، وأنني أجيد التعبير عما في نفسي، وأن بإمكاني أن أكون كاتبة ناجحة ؟! سألتني الزوجة وابتسامتها لم تفارق شفتيها... وبنفس الجدية التي بدأت بها حديثها... متجاهلة تماماً ما بدر مني وما قاله زوجها !

"آه كم أنت عظيمة يا شيلا ! ما أكبر عقلك وأرقى تفكيرك وأجمل تصرفاتك ! إنك دائماً متألقة... ودائماً متعملقة... ودائماً شامخة... بأقوالك وأفعالك وسلوكك وتصرفاتك...! ما أسعدني أن أكون قريباً منك... وما

أسعدني أن أحظى باهتمامك... ثم ما أصغرني وأحطني... بل ما أتفهني وأحقرني... عندما أتعالى عليك وأحاول ايذاءك...!! "

لم أجب على سؤالها، وتجاهلت وجودها وزوجها تماماً؛ فقد تغلب عليّ طبعي الشرق أوسطي، وصرت كطفل أغضبته أمه فصار ينظر عنها بعيدا، إذ صرت أتطلع إلى طاولة كبيرة، غير بعيدة منا، يجلس عليها ثلاثة أزواج من الرجال والنساء، متقدمو السن ، وأمام كل اثنين منهم قارورة من الشمبانيا المملوءة، بالإضافة إلى قوارير أخرى كثيرة فارغة، إذ لعلهم كانوا يحتفلون بمناسبة تاريخية سعيدة وهامة !

–ما زلت ترفض الإجابة على سؤالي ، فهذا اعتراف منك بأنني غير مؤهلة ككاتبة ، وليس بمقدوري أن أكون مبدعة ! قالتها بأسى وخاطر مكسور، أو كمن يداري جراح كرامته وإذلال كبريائه... ! ولكني سرعان ما فارقني غضبي وهزني شوق موجع إليها ، حتى وهي معي... أمامي... فشعرت بندم شديد... شديد... وحزن عميق... عميق... لتصرفي الصبياني الأهوج ، فقلت بغضب وحرقة معاً، وقد أججت الخمرة أشواقي، وضاعفت من جرأتي :

–إن رأيي بكِ هو أنك إنسانة رائعة... متفهمة... واعية... خارقة الذكاء وغير طبيعية الجمال... وتستحقين العبادة ، لأخلاقكِ الرفيعة النبيلة ، وتصرفاتك الإنسانية وتفكيرك السامي... ! أنت امرأة مثالية، نادرة التربية، ولا يستحقك عالمنا الموبوء هذا !

ومرة أخرى شعرت أنني ارتكبت حماقة أخرى أشد من الأولى وأكثر إيلاماً... فقد صورت لي عقدي المتأصلة وتربيتي المتزمتة... والتي تحاسب على كل نظرة حماقة وتعاقب على كل نأمة جهلاء، بأن لا بد وأن يكون الزوج قد فهم أن ما عنيته، وهو أنه لا يستحق هذه الزوجة الرائعة المثالية...! هممت بفتح فمي لأعتذر له لولا أن سبقني قائلاً:

–لولا أنني واثق من أن حبيبة القلب شيلا، عندها من قوة الإيمان ورجاحة العقل، الكثير... الكثير... وأن الغرور لن يصيبها؛ كما أن مدح الرجال لها لن يقلب دماغها... وأن عواطفها لن تتغير نحوي؛ لخفت عليها منك يا صديقي سهيل..!! قالها بطريقة ودية تحببية، ولكن بلهجة الواثق مما يقول ؛ ثم غمز لي بطرف عينه، وأطلق ضحكة خافتة مبالغاً في تأدبه... إذ لا شك أنه أراد أن يطيب خاطري بسبب تصرفه الخشن والذي لا شك بأنه نادم عليه...!

–شكراً يا حبي الكبير على هذه الثقة المطلقة ؛ ولكن تذكر أننا لا نستطيع أن نأخذ كل شيء كأمر مسلّم به ! ثم حولت عينيها عن زوجها ونظرت إلـيّ وابتسمـت ابتسامـة أحسسـت كأنمـا ضمتني بين رموش عينيها... ابتسامة عذبة... دافئة... حنونة... تُنسي أشد المهمومين همومهم، وأكثر الغاضبين غضبهم...!

–لن أعتذر لك عما بدر مني يا صديقي سهيل! ولكن أريدك أن تتأكد، بأنني لا يمكن، ولا تحت أي ظرف من الظروف، أن أجرح شعورك من أجل أي إنسان في العالم ! قال الزوج بلهجة جادة حاسمة وهو يطبطب بيده اليمنى على ظهر يدي اليسرى الراقدة على الطاولة بيننا.

–حتى ولا من أجلي أنا ؟! قالت الزوجة بخبث أنثوي وهي تضحك؛ وعلى الرغم من أنها لم تكن تتوقع جواباً من زوجها كما أنه لم يكن في نية الزوج الإجابة، على ما أعتقد، إلا أن النادلة أنقذت الموقف، إذ في تلك اللحظة التي بها طرحت الزوجة سؤالها، كانت النادلة تقف أمامنا بكبرياء وفخر، وكأنما لتقول لنا؛ أنا الآن جاهزة لأقدم لكم أطايب الطعام والشراب التي عندنا والتي لن تنسوا لذة مذاقها أبداً ! قالت وهي تبتسم وتنقل عينيها بين ثلاثتنا بأنها تضع نفسها بخدمتنا وتحت تصرفنا، فلنتكرم شاكرين بأن نأمرها بأن تجلب لنا ما نحب أكله وشربه...!!

" كم أتمنى لو أستطيع أن أعانقك... أهصرك... أحرقك بقبلاتي... أركبك ! صدقيني أيتها النادلة الساحرة... أنني دائماً بي سعار محموم وشبق متأجج لمضاجعة أمثالك من الحسان ! إن بي جوعاً متوحشاً، ورثته عن ابن عمي قيس بن الملوح وقيس بن ذريح وعمر بن ربيع ، وأمثالهم الكثيرون الكثيرون... أولئك العشاق المعاميد الذين كانوا يتعذبون ويتحرقون شوقاً لمعانقة روح الحبيب، كما كانوا يدّعون ، ولا يفكرون بما بين الفخذين... لأنهم كانوا واثقين بأن الوصول إليه يثلم شرف القبيلة وينكّس رؤوس أفرادها بين بقية العربان؛ كما وأن دون ذلك خرط القتاد...!!"نظرت إلى الزوجة وقد فتحت يدي أمامي، بطريقة توددية تفضيلية، ثم أحنيت رأسي قليلاً علامة أرجوها أن تبدأ، فنظرت هي بدورها إلى زوجها فتبادلا النظرات ثم اقتربا برأسيهما من بعضهما وتهامسا... ثم أشارا إلى قائمة الطعام وهزّ كل منهما رأسه عدة مرات بطريقة تذوب رقة وتقطر أدباً، وبدأت النادلة تكتب... ثم تبادل الثلاثة بعض الأسئلة والأجوبة... وبعد أن انتهت النادلة من الكتابة التفتت نحوي فأحسست أنها ألقت القبض على خيالاتي التي كانت تعريها وتلبسها، فرمتني بسهام عينيها اللتين نبالهما تصيبان دوما... رافقتها ببسمة غريبة

شعرت أن ابتساماتها وسحر عينيها، لها نكهة وسحر بنات الوطن، ذوات الخفر الفطري والدلال المهيب... والذي لا يتواجد عند نساء العالم إلا عندهن... وكأنما لتقول لي أمسكت بك أيها اللص الظريف النهم المغرم بالتبحلق بنهود وصدور وأعناق الصبايا... المولع بالانسلال إلى ما خلف ملابسهن... المدنف بالهجوع والرقود في ما بين سيقانهن...!!

كنت والمشاورات جارية بين الثلاثة، أحملق بعينين شرهتين جائعتين... في صدر النادلة الأتلع المتوثب النافر المتحدي... أعريها بخيالي المتوحش المسعور.. فتصورت نفسي، ونحن وحيدان، في غرفة نومي أقدم لها أصنافاً من المتعة وألواناً من اللذة... وأذيقها أشكالاً من الجذل والفرح والحبور، والمعركة محتدمة... وأنا أعطي وهي تأخذ... أنا أسرق وأنهب وأحلّق... وهي تبارك هذه السرقة وهذه اللصوصية، وتشجع هذا النهب وهذا الاستلاب... سعيدة طربة.. ترافقني في هذا التحليق وهذا السمو... وبعيني الزائغتين الحالمتين وبنظراتي النهمة، استطعت أن أقرأ اسمها مكتوباً على اليافطة المزروعة فوق نهدها الأيسر المكور، غولدا كوهين !!

الله أكبر ولا إله إلا هو ! اسم نموذجي يهودي ! الاسمان يهوديان ما في ذلك ذرة من شك ! الإبنة والأب... ! والتقت عيوننا فشعرت كأنما عمودان من الكهرباء يحملان " فولتجان " كهربائيان عاليا الضغط تصادما فضربهما تيار صعقهما...! وكحالة اللص الجبان المذعور، أغضضت طرفي وألقيت بالأرض عيني، وإحساس بالهزيمة والانكسار والخذلان تسيطر على روحي وقلبي ومشاعري... وسيل عرم بالمهانة والإذلال والانسحاق يستبد بكل جارحة في كياني وكل نبضة في وجودي...!

ـ هل عرفتني يا ابن العم ؟! لقد قرأت اسمي على صدري، وعرفت منه أنني يهودية ابنة يهودي وكل أجدادي يهود... وكذلك وأؤكد لك بأنني لن أتزوج وأنجب إلا من يهودي... لأحفظ وأقوي وأكثّر من الجنس اليهودي... لكي يتناسلوا ويتكاثروا وليحكموا من قبضتهم على عنق العالم ليتحرك فقط حسب رغبتهم وليتصرف حسب أوامرهم وتعليماتهم !

نعم نحن أبناء عم وجدنا واحد، ابراهيم؛ لكن بيننا وبينكم عداوة ضارية ومستحكمة وعميقة الجذور... عداوة تمتد خمسة عشر قرناً ! لقد بدأت يوم تأكد لكهنتنا ورهباننا بأن محمداً بن عبدالله هو النبي الموعود الذي كانت تحدثنا عنه كتبنا وتبشرنا بمولده... كانوا ينتظرون مجيئه بلهفة

وشوق... لأنهم كانوا يعتقدون أن خاتم النبيين سيكون من سلالة إسحق... أبانا... نحن بني إسرائيل... وليس من سلالة إسماعيل أباكم... فأصابتهم خيبة قاتلة واستولى عليهم إحباط مدمر، واستبد بهم يأس ممزق... فصعقتهم المفاجأة... لأنه كان من نسل أبيكم أيها البدوي !

ـ أقول لك يا ابن العم، وأصدقك القول، بأنه على الرغم مما بين بني قومي وبني قومك من عداوة مستحكمة شرسة... وكراهية مرعبة مدمرة... إلا أن معاملة بني قومي لأهل كنعان، كانت أرحم بهم وأرق قلباً وأكثر آدمية منكم لهم، أنتم يا أبناء الدين والقومية والعشيرة الواحدة.. !!

ـ بروفيسور سهيل !هل أنت معنا أم عدت بأفكارك إلى الوطن ؟! سمعت صديقي جيمس روبنسون يخاطبني.

جفلت وأفقت من تهويماتي فزعاً جزعاً !

–نعم أنا معكم ! لقد سرحت مع خيالاتي وشطحت بي أفكاري قليلاً... ! أرجو المعذرة ! قلت وأنا أنقل طرفي بين صديقيّ الاثنين والنادلة.

–عفواً ماذا تحب أن تطلب ؟ جاءني صوت النادلة رقيقاً ناعماً حنوناً، خيل إلي أن النادلة هذه غير النادلة "غولدا كوهين"، التي ألقت عليّ خطبتها الطويلة الطويلة !

–طلبي هو هو لا يتغير: نيويورك ستيك، نصف استواء مع بطاطا مشوية، وكمية جيدة من الزبدة ، مع سلطة خضار مشكلة ذات توابل الألف جزيرة ! قلت وقد بدأت أستعيد بعضاً من شجاعتي ويفارقني شيء من خجلي وارتباكي !

–وماذا تحب أن تشرب ؟! جاءني نفس الصوت ولكن هذه المرة أكثر رقة وأكثر عذوبة وحنّيّة !

–سهيل يحب كأساً من حليب النوق المثلوج !قالت شيلا وهي تضحك بجذل صبياني.

–ليس الليلة ، أرجوكِ ! قلت محتجاً بطريقة تحببية.

–أريد أجود ما في المطعم من النبيذ ! وأريده الآن فإن الظمأ يقتلني ! قلتها وأنا أسرح طرفي في صدر ابنة صهيون... !

– وأترك اختيار نوع النبيذ لكِ ، ايتها الفاتنة !

ضحك الثلاثة معاً وكأنهم في جوقة موسيقية... ثم أضافت النادلة وهي تشير إلى صديقي الأثنين !

-سأحضر لك نبيذاً إيطالياً لا يتواجد إلا في مطعمنا ! ثم ابتسمت وقد احمرت وجنتاها وأضافت:

-إنه نبيذ صديقي المفضل عندما يدعوني أو أدعوه إلى العشاء هنا !

-وهل صديقكِ يعمل معكِ هنا !سألت بعفوية.

-نعم، إنه صاحب المطعم ! قالت بفخر وتباه.

-"حقاً إنك يهودية نموذجية ماهرة في اختيار الصيد وتعرفين من أين تؤكل الكتف !" قلتها بالعربية ! تجمدت نظرات الثلاثة على وجهي ينتظرون أن يفهموا ما قلت.

-قلت أنتما الاثنان محظوظان... هو له حبيبة جميلة رقيقة وناعمة مثلك... وأنت ستكونين غداً صاحبة أرقى أحد المطاعم في جنوب كاليفورنيا... وربما في كاليفورنيا كلها!

-إنه يرفض الزواج مني مع أننا من نفس الملة، ولنا أكثر من عام نحب بعضنا بعضا...! حجته أنه يكبرني بواحد وثلاثين عاماً... هو في الرابعة والخمسين وأنا في الثالثة والعشرين ! قالت بحسرة وانكسار ، ثم أضافت :

-لقد قلت له بأن فارق السن لا يهمني ما زال الحب يربطنا !

"وهل أنت واثقة بأنك تحبينه حقاً ولشخصه هو، وليست حياة الترف والبذخ والجاه التي ستعيشينها معه ؟! ثم لماذا يربط نفسه بالزواج منك أو من غيرك، ويتحمل مسؤولياته والتزاماته وهو الذي يستطيع أن يستمتع بكِ أنتِ وجميلات غيرك كثيرات... دون التزام... ؟! مجاناً ... صدقيني أنه سوف يملّك غداً ويبحث عن جميلة أخرى جديدة...!"

-إنه على حق فيما يقول ! واحد وثلاثون سنة فرق كبير بين عمري رجل وامرأة ! قالت شيلا وعلامات الجد تبدو على وجهها ويعبر عنها صوتها.

-لا شك أنه يحبك حقاً، وإلا لكان تزوجك وظلمك! قال السيد روبنسون وعلامات الجد تغطي وجهه.

–هذا ما يقوله بالضبط. إنه ليس من العدل أن يتزوج رجل وامرأة لا يكونان متقاربين في السن، ولكن تفكيري أنا يختلف عن تفكيره، إذا كان كبير السن يعوّض الصغير تعويضاً مادياً.

–لا أفهم ما تعنين؟! سألت شيلا روبنسون.

–أعني أن أكون شريكته في المطعم ما زال حياً؛ وعندما يرحل أكون أنا المالكة الوحيدة. !أليس هذا تعويضاً مجزياً ؟! قالت ابنة كوهين.

تبادل الزوجان نظرات ذهول وصدمة، لاحظتها في اتساع عيونهما. أما أنا، فلم أفتح فمي ولم أعلق، لأن تفكيري الشرق أوسطي ومفاهيمي للحياة وللزواج تختلف عن تفكيرهم ومفاهيمهم... ما أكثر ما حدثت زيجات، عندنا في الوطن، كان فارق السن بين الزوجين أكثر من هذا بكثير، ومع هذا لم يفكر به أحد !

جمعت النادلة كرتونات قائمة الطعام الثلاثة، وقالت وهي تطويها:

–سأحضر النبيذ حالاً ! وراحت توسع خطاها نحو مقصف المطعم!

لم يستغرقنا شرب قارورة النبيذ الأولى إلا بضع دقائق، مما رسم علامة الدهشة والاستغراب على وجه مضيفتنا، إذ يبدو من الطريقة التي كنا بها نكرع كؤوس النبيذ، أن كل واحد منا كان يقتله الظمأ لسبب أو لآخر ! ولكنها بعد أن فتحت القارورة الثانية، بدأنا نشرب هذه المرة بطريقة هادئة وموزونة، كما يفعل الحضاريون الذين يتناولون النبيذ قبل تقديم العشاء !

عادة سيئة اكتشفتها في نفسي منذ وصولي إلى أميركا، وبدئي بتعاطي شرب الخمور، وهو أنني دائماً بعد الانتهاء من اجتراع الكأس الثاني أو ، أتحول إلى قطعة ملتهبة من العواطف الرقيقة الجياشة... قطعة شوق مضمخة بعطر تراب الوطن وعبق أنفاسه... تستعر لظاها بكل خلجة في جسمي المثخن بجراح الوطن... المنهوك النازف.. وإن حب الوطن والأهل ونار البعاد والحنين إليهم، تبدأ تستعر في داخلي... بكل كياني ! يتعاظم هذا الشعور ويتعملق ويزداد شفافية وحساسية... فينطلق متوحشاً تصعب السيطرة عليه، خصوصاً عندما أكون في البيت وحدي، حيث أتخيل نفسي وقد تحولت إلى مارد هائل ذي قوى خارقة، وأنني أستطيع أن أفتك بأعداء الوطن ... ! ولكن عندما يخف أوار المعركة، وتنقشع غيوم الوهم وسحب التخيلات وتعود الأشياء إلى حجمها

الطبيعي، فأتبين بأنها كانت مجرد أمنيات وتخيلات "دون كيشوتية" ، يستولي علي إحباط ويأس شديدان، فأنخرط في بكاء مرّ طويل... طويل، قد يدوم لساعات وساعات... !

لقد صارحت صديقي جورج مونتكيو بهذه الظاهرة الغريبة، في إحدى جلسات مكاشفة الأسرار، والبوح بما في القلب من هموم الوطن وأوجاعه ! لقد أكد لي بأن مثل هذه "الهلوسات والبطولات الوهمية" تحدث كثيراً بين أفراد الشعوب التي تعاني بلادهم من التسيب والفساد والرشوة، وتقصم ظهورهم الدكتاتروية والتسلط والقمع ومصادرة الحريات... كما أكد لي بأن هذه الظاهرة تحدث بدرجات متفاوتة حسب خلفية الإنسان التربوية والثقافية والحضارية، وحسب ميوله الأدبية والفنية والجمالية...!!

بعد أن وضعت النادلة أطباق الأكل أمامنا، وقبل أن تنطق جملتها الروتينية " استمتعوا بطعامكم، وآمل أن ينال رضاكم " أفرغتُ ما تبقى بقارورة النبيذ بكؤوسنا الثلاثة بالتساوي، وطلب منها الزوج أن تنجدنا بالقارورة الثالثة ! علّق الزوج بقوله على أن الإنسان يستطيع أن يشرب من هذا النبيذ الفاخر، قارورتين أو ثلاث دون أن يشعر بثقل رأسه أو ألم في بطنه، مما يدل على جودته الفائقة... !

ـ هل تأتي إلى هنا كثيراً يا سهيل؟! سألت الزوجة وعيناها مركزتان على وجهي وكأسها مرفوعة في يدها تهم برشف آخر قطرة !

ـ هذه هي المرة الرابعة، مع أنه صار لي ما يقارب الستة أشهر أعرف هذا المكان! ولما لم أسمع تعليقاً أضفت:

–أنا لا أدعو أحداً إلى هنا إلا إذا كان ضيفاً خاصا... عفواً أعني لا آتي إلى هنا إلا مع صديق عزيز علي ، يستطيع أن يتذوق جمال ورومانسية هذا المكان !!

–إنه حقاً مكان جميل ! قال الزوج بصدق وحرارة.

–وما نوع الناس الذين تدعوهم إلى هنا ؟! هل هم أصدقاؤك في الجامعة؟! سألت الزوجة وهي تحدق في وجهي، وقد شعرت أنها تريد معرفة شيء محدد لم تفصح عنه مباشرة !

-أنا لا أدعو إلى الأماكن الرومانسية إلا نساء جميلات ! قلت ذلك وقد شعرت أن النبيذ هو الذي ينطق لساني وليست إرادتي.

-وهل أفهم من كلامك أنه في كل مرة تحضر إلى هنا يكون بصحبتك امرأة ذات جمال مميز ؟! سأل الزوج وابتسامة خفيفة تعلو شفتيه، كما لاحظت أن الزوجة كانت تراقب شفتيّ باهتمام وكأنما تريد أن تسمع كل ما أقوله !

-تستطيع أن تقول ذلك ! قلت مخاطباً الزوج متجاهلاً الزوجة.

-ولم لم تدعُ هذه الجميلة لتكون معنا الليلة ؟! أم أنك تفضل أن لا نقابلها ؟! سألت الزوجة.

-حقاً يا سهيل؛ لمَ لمْ تدعُها الليلة حتى نكون أربعة... امرأتين ورجلين... فتكون الجلسة أكثر رومانسية وحميمية ؟! سأل الزوج .

-صدقاني وتأكدا بأنها ليست هناك جلسة خارج الوطن أعمق صميمية وأكثر استمتاعاً من وجودي معكما أنتما الاثنين، يا شيلا ويا جيمس روبنسون... إذ أحس بينكما ، واقسم برب السموات والأرضين ، وكأنما أنا مع أهلي في الوطن !

وكأن جوابي قد ألجم لسانيهما، ولعلهما احتارا بماذا يجيبان فاسترسلت:

-السبب أنني لم أدعُها الليلة لأنني متأكد بأنها لن تقبل الدعوة.

تبادل الزوجان النظرات ولم يقولا شيئاً، إذ لعل جوابي فاجأهما !

مرّت بضع لحظات قبل أن تقول الزوجة:

-إنك لم تذكر لنا أن لك صديقة !

-إنها ليست صديقة بالمفهوم الأميركي أو الأوروبي ! وبعد أن تمهلت قليلاً أضفت:

-ولا حتى بالمفهوم العربي... !!

ومرة أخرى تبادل الزوجان النظرات... ثم ركزا عيونهما عليّ كأنما ليقولا لم نفهم ما تعني فزدنا إيضاحاً !

-إنها لا تقبل الحضور إلا إذا تأكدت من أننا نحن الاثنين وحدنا.لا لأنها لا تحب الناس، ولكن لأن اللغة التي نتخاطب بها لا يفهمها أحد سوانا من أهل الأرض قاطبة... لا هنا ولا في الوطن !

-الكثير يعيشون في أميركا لسنوات طويلة ولا يتكلمون الإنجليزية. قالت الزوجة وألحقتها بضحكة... ثم أضافت بخبث أنثوي :

-لغة العيون في كثير من الأحيان أكثر تعبيراً من لغة الكلمات...!!

-ما هذا عنيت ! وأتبعتها بهزة من رأسي ذات اليمين وذات الشمال وعرفت أن إيضاحي قد عقد الأمر بدلاً من أن يوضحه ، فتوقفت عن الكلام !!

-وهل هي متزوجة ولا تحب أن يراكما زوجها معاً ؟! سأل الزوج بطريقة شعرت ولأول مرة، بأنها كانت غير مؤدبة ويتدخل فيما لا يعنيه !

-إذا كنتما تحبان بعضاً ولا تستطيعان أن تعيشا بدون بعض، فلم لا تترك زوجها وتتزوجان ؟! سألت الزوجة .

أدركت أن الزوجين لم يفهما ما قلت وأن خياليهما قد أبتعدا كثيراً في تأويلاتهما... ! كما أحسست بأن جسمي بدأ يسترخي أكثر مما يجب !

-نعم هي متزوجة، ولا تفكر إطلاقاً بترك زوجها؛ وأنا لاافكر أن أطلب منها ذلك ! إن ما بيننا من حب هو عشق روحي فقط... لم يعرفه الجسد إطلاقاً...! وغسلت شفتيّ الجافتين ببعض الماء وأضفت:

-أنا لا أريدها أن تفعل هذا ولا هي تقبل بذلك أبداً ! لكنني سرعان ما أدركت من أنه لا بد وأنهما فهما من أننا نعيش قصة عاطفية من خلف ظهر الزوج، إذ لاحظت عيونهما قد تجمدت فوق وجهي وصارا يحملقان بي... وتأكد لي بأنهما يزدادان حيرة وارتباكاً كلما استرسلت في الكلام...!

-إن ما بيننا من حب هو عشق روحي فقط... لم يعرفه الجسد إطلاقاً... وأقول إطلاقاً ! إن سميحة، وهذا هو اسمها، تعيش في الوطن مع زوجها وأولادها... أحببتها يوم كنت طالباً في المدرسة الثانوية حباً عذرياً عفيفاً... عنيفاً... حباً ملك عليّ زمام قلبي وكل عواطفي وتفكيري...! أحببتها وما زلت أحبها، وفي كل يوم يزداد حبي لها... يتجذر ويتعملق... أحببت فيها العفة والطهارة... الكبرياء والشموخ...! لقد ذاب حبها في عظامي وتحلل مع دمي، مع أن جسدينا لم يلتقيا قط؛ بل حتى يدانا لم تتلامسا ولا حتى للسلام... ! لا أظن أنها في ذلك الوقت كانت

تعرف حتى أنني أحبها... ولم يكن يهمني إن كان تعرف أم لا ! كل ما كان يهمني هو أن أراها ولو للحظة ! كانت العيون هي التي تتكلم، هكذا كان يخيل إلي... غير أني اكتشفت مؤخراً أنها لم تكن حتى تعرف بحبي لها... بل لم تكن حتى تشعر بوجودي كإنسان يعيش على هذه الأرض...!

وهنا أحسست بأن النبيذ هو الذي يتحكم بلساني وهو الذي ينطقه !

-وكيف اكتشفت كل هذه الأمور ؟! سألت الزوجة باهتمام متأجج يطل من عينيها.

-لقد قالت لي هي نفسها ذلك... في رسالتها لي في لندن... وأنا في طريقي إلى هنا... إلى أميركا...!

-وماذا كانت تفعل هي في لندن ؟! سألت الزوجة.

-هي تسكن في الوطن؛ ولكنها جاءت من أجلي... أعني حمل المارد... الخادم ، إليها رسالتي، وعاد يحمل إليّ جوابها !

-أبانا الذي في السموات والأرض ! رحمتك وعفوك وغفرانك ! الطف بعبدك المسكين سهيل ! قالت الزوجة هذا وقد بدأت ترتجف... بهت لونها وصارت دموعها تسفح فوق خديها بصمت !

-لقد أسرفت في الشراب يا سهيل ! أرجوك أن تتوقف عن الشرب ! قال الزوج بقلق ثم أخذ القارورة من أمامنا ووضعها على الطرف الآخر من المائدة... ولكنه عندما نظر إلى كأسي، وجدها فارغة !

-حقاً لقد شربت كثيراً... ولكنني ما زلت مسيطراً على حواسي... صدقوني...! إنني بكامل قواي العقلية... وإن ما أقوله هو حقيقة وصدق...! انساب الكلام من لساني دون استشارتي !

-نصدقك ! نصدقك ! قالا معاً يطمئنانني.

-إن الحب من جانب واحد شيء فظيع جداً! إنه مأساة ! قالت الزوجة وهي تمسح دموعها بالفوطة القماشية.

-نعم، هناك من نحبهم وهم لا يحبوننا !قال الزوج مواسياً وبحسرة، ثم أخرج تنهدة عميقة.

-كانت لنا صديقة تحب صديقاً آخر لنا حباً جنونياً، وكان هو لا يحبها... ولم يزعج نفسه حتى بأن يكون لطيفاً ومؤدباً معها... فماتت حزناً وكمداً بسببه !!

-كان السيد روبنسون يتكلم بحزن وكآبة عظيمين، وبطريقة عفوية مدّ يده إلى كأسه، فتراجع خجلاً، إذ لعله تذكر بأنه طلب إلي أن أكفّ عن الشرب وأنه أبعد القارورة من أمامي !

-كانت امرأة قاسية ! فليسامحها الرب ! قالت الزوجة وقد نزلت من عينها زخات جديدة من الدموع.

ـ إن الله أحياناً يؤجل انتقامه، لعل الظالم يرى الضوء فيرتدع... وأحياناً يتركه لفترة طويلة، ليرى إلى أي حد يذهب! ولكنه في النهاية لن يفلت من عقابه إن عاجلاً أو آجلاً! قالت شيلا بثقة وإيمان.

-ليت عندي الإيمان الذي تتمتعين به يا شيلا، لكنت أسعد حالاً ! قلت.

-يجب أن يكون عندك إيمان راسخ بالخالق وثقة مطلقة به، وإلا تعذبت كثيراً..! قالت الزوجة بإصرار وحرارة أقوى من سابقيه.

-إن مواضيع العقاب والثواب... الإيمان والإلحاد... العدل والظلم... الجنة النار... إلخ... هي مواضيع دينية شائكة ومعقدة، والخوض بها قد يسبب إشكالاً وحساسية... وربما عداوة بين الناس! قال الزوج ذلك، إذ لا شك أنه كان يحاول تجنب النقاش.

لقد تأكد لي أن الزوجة، بالإضافة إلى حبها الشديد لزوجها، فهي تحترم كل ما يقوله، إذ سرعان ما غيرت مجرى الحديث عندما قالت:

-وهل تعني أن المرأة التي كانت تحضر معك إلى المطعم في كل مرة ، كانت هي نفس المرأة التي تتحدث عنها ؟! سألت الزوجة .

-طبعاً هي ! هي نفسها سميحة التي أحببتها وأنا ابن السادسة عشرة ! أجبت بثقة وإصرار، وأنا أستغرب شكّها !

-كم أنت إنسان وفيّ ومخلص يا سهيل ! أنت صادق وملتزم ! هنيئاً لتلك المرأة يا صديقي ! قال الزوج بحماس؛ ثم كأنما تذكر شيئاً فاستدرك:

-إن شيلا عندي أغلى ما في الوجود، بل أغلى من حياتي... ولكني أتكلم عن إخلاصك لامرأة كل هذه المدة الطويلة، وهي لم تعرف أنك تحبها بل ولا حتى أنك مخلوق !! إن هذا إخلاص غريب ونادر!

-صدقاني ! أنا ما أحببت يوماً وطمعت بالحصول على شيء ممن أحب، حتى ولا بسمة ! قلت وقد بدأت أشعر بأن قواي قد بدأت تخونني، وأنني على وشك أن أسقط من على الكرسي !

-ولم إذن تحب ؟! سأل الزوج.

-أولاً ؛ إنني عندما أقع في الحب لا خيار لي في ذلك إطلاقاً... وإن كنت أنا أعتبره هدية من السماء تخصّني بها...! ثم إن الحب شعور جميل ورائع... يدخل إلى قلوبنا الفرح... يمنحنا السعادة... نشعر أن للحياة معنى... نصلي عند قدميه ونتهجد في محراب طهره وقدسيته...!

-وهل أحببت امرأة غير سميحة ؟! سألت الزوجة وعيناها مخضلتان بالدموع.

-نعم ! ولكنه كان حب أطفال! أما الحب الحقيقي فكان حبي لسميحة ! قلت وأنا ألوك الكلمات.

-وأنت ابن السادسة عشرة ؟! سأل الزوج. ولأنني كنت متعباً تجاهلت الرد.

-إن كل معتقداتك وأفكارك غريبة يا سهيل !

ولولا أن الرجل قالها بلهجة حزن وإشفاق، ، لقلت إنه يسخر مني ! ثم أضاف :

-أنت مثالي في كل تصرفاتك... نبيل في حبك... وعطائك... وتضحياتك وكل أفعالك... إنك إنسان فريد في عصرنا هذا ! صدقني !

-شكراً يا صديقي جيمس... إنه حبك لي هو الذي يجعلك تعتقد بي هكذا ! قلت بصعوبة بالغة وأنا ألفظ الكلمات وكأنما ألفظ أنفاسي !

-ولكن الإحساس المفرط في هذا العصر المادي، قد يسبب لك الصدمات والآلام ! قال السيد روبنسون بحرارة وصدق تبدوان على تعبيرات وجهه ونظرات عينيه.

–ولهذا أنا دائماً معذب في حياتي... أشعر أحياناً أنني أطارد السحاب وأجري خلف السراب... أعيش في طيات الغيوم تارة، وفي قمم الجبال وعلى رؤوس الأشجار تارة أخرى...!

–ليس في ذلك من خطأ ما زال هذا الحب يجلب لك السعادة ويمنحك الرضا ! قال الزوج.

عند هذه النقطة فقدت الاتصال بالواقع، ولست أدري إن كان ما حدث بعد ذلك هل حدث فعلاً أم أن ضميري اللاوعي، هو الذي صوّر لي هذا السيناريو !

–وكيف تأتي صديقتك من الوطن فتقابلك بهذا المطعم ؟! سألت الزوجة .

لاحظت ان عينيها كانتا متقدتين... ولست أدري هل هما من الخمر أم من المنظر الدرامي الذي تشاهده، أو من الكلام العجيب الذي تسمعه !؟

–المسألة في غاية البساطة ! قلت وكأن كلماتي تأتي من أعماق الليل ومن خلف الأبدية !

–كنت في كل مرة أهاتف المطعم فأحجز طاولة لشخصين، وحالما أجلس أطلب قارورة نبيذ، ليس هذا النبيذ الذي نشربه الليلة... لا شك أنه أقل جودة! أقول للمضيفة أن تحضر لي أحسن ما عندهم من النبيذ، إذ أنني لست خبيراً بأنواع الأنبذة... فتختار هي ! بالمناسبة أنا لم أر غولداكوهين، مضيفتنا، إلا هذه الليلة ! إنكم تعرفون قصة كراهيتهم لنا. لقد بدأت دينية وتحولت إلى سياسية استعمارية استيطانية اقتلاعية... إنهم يريدون أن يجتثونا من جذورنا، ويلقوا بنا في صحراء الربع الخالي وحفر الباطن. لقد نجحوا بفضل خيانة بعض حكامنا وتخاذلهم...! إنهم يريدون أن يلقوا بنا في الصحراء التي لا بترول فيها... صحراء التيه...! إنهم يريدون أرضنا وبترولنا معاً ! تمهلت قليلاً ، ثم أضفت :

ـ المهم أبدأ باحتساء قارورة النبيذ، وقبل أن أصل إلى نصفها، تكون سميحة قد أتت وجلست قبالتي، وأظل أتحدث معها بحرية ودون خوف من رؤية رقيب أو كلام عذول... وأظل أشتكي لها أوجاعي وهمومي وآلامي ومتاعبي... والشوق المبرح في قلبي وروحي وعواطفي... وهي صامتة لا تتكلم، مستمعة لا تقول شيئاً ! بعد الانتهاء من العشاء تغادر... تعود إلى الوطن... إلى زوجها وأولادها...! في كل مرة نلتقي أقول سأسألها كيف جاءت وكيف ذهبت، وعندما

نتقابل تنسيني فرحة اللقاء أن أسألها، ولكنني سأعمل كل ما في وسعي لأتذكر في المرة القادمة، وسأخبركما كيف تحضر من الوطن وكيف تعود إليه !

-هذا لا يهم! المهم أنها تحضر والسلام ! قال الزوج بصوت يمزقه الألم، وكأنما هو يبكي!

-هذا صحيح ! ربما من الأحسن أن لا أسألها حتى لا أحرجها فأجرح مشاعرها !

-إنك تمزق قلبي يا سهيل ! أنا أراك دائماً قوياً ، إلاّ الليلة ! قالت الزوجة؛ ولا شك أنها لم تستطع كبح عواطفها فصارت تنهنه بصوت مكتوم وتسفح الدموع !

-أرجوكِ لا تبكي يا شيلا ! إن دموعك هي الأخرى تمزق قلبي وتحرق دمي حتى النخاع ! إنك تذكريني بدموع أختي الكبرى... أميرة... كانت تبكي عندما تراني أتعذب ولا تستطيع مساعدتي ! لقد بحت لها يوماً بأنني حزين جداً، ويائس كثيراً ، وأنني أفكر بالانتحار... ارتعبت كثيراً... قالت إياك أن تفعل، لأنك إن أقدمت على هذه الفعلة ستقضي على والدتك وعلينا نحن أولادها، وأنك ستجلب لنا الحزن والآلام...! إنك ستكبر غداً وتحصل على شهادات علمية عالية... وستجد وظيفة تدر عليك نقوداً كثيرة، وستتزوج بأحسن "منها" ! لقد أزعجتني جداً جداً معرفتها بأنني أحب، وأن سبب انتحاري هو فشلي في هذا الحب ! كيف عرفت أنني أحب...!؟ لا أدري...! أنا لم أخبرها إطلاقاً ! إنني أحتفظ بهذا السرّ المقدس، وأخفيه عن الأهل ! إذ ماذا سيقولون ؟! قلت ذلك وبطرف فوطتي حاولت أن أمسح دموع شيلا... ولكن يدي كانت ثقيلة جداً ولم أقوى على رفعها ! لاحظت بطرفي عيني المثقلة المنهوكة بأن الزوج يضع سبابة يده اليمنى على فمه وينظر إلى زوجته... لعله كان يرجوها أن تكف عن البكاء !

مرّت فترة صمت طويلة لم يكن يسمع على طاولتنا إلا ارتطام السكاكين والشوك بالصحون عندما قالت الزوجة:

-أعرف أن بعض النساء في الدول الإسلامية محجبات، فهل تتحجب صديقتك يا سهيل؟

-كلا ! إن لباسها مثل لباسك تماماً ! أنا أعني لباس المرأة الأوروبية.

-وكيف تعرّفت عليها !

-كنت وصديق لي عائدين عصراً من المدرسة، وكان الأسبوع الأول من بدء العام الدراسي، فقابلتنا بالشارع مع زميلاتها، وكن يحملن كتبهن ولعلهن كن عائدات هن أيضاً من المدرسة، عندما وقعت عيناي عليها ! لقد شعرت وكأنما أعرفها منذ آلاف السنين، وأنني كنت أبحث عنها منذ يوم ولادتي... ثم استولى علي شعور غريب عجيب، مزيج من الخوف والفرح... وفجأة استبدت بجسمي حمّى قوية... فصرت أرتجف كدرويش تذكر خالقه فجأة، فعصفت بجسمه حمى مزلزلة...! أقسم لك ياشيلا برب السموات والأرضين ،انني أمضيت تلك الليلة وحتى طلع النهار وأنا أرتجف وأبكي !

- انك تحرق دمي وتمزق قلبي ياسهيل ! قالت شيلا وهي تمسح دموعها الفياضة بخلف يدها !

-إن عندك خيال جامح وتصورات غريبة ! قال الزوج. وفجأة وكأنما أدرك أنه ربما قال ما آذى إحساسي فاستدرك:

-أعني أن خيالك الجامح يضخم رؤياك بسبب إحساسك المرهف !!

-إن سنّ السادسة عشرة سنّ خطر... إنه في رأيي أخطر سنّ...! إنه سنّ التفتح على الحياة وعلى الجنس الآخر... سنّ المراهقة العنيفة والأوهام الوردية البنفسجية ! ذلك السن الذي بدأت به أحبّ جيمس! قالت الزوجة بطريقة تلذذية حالمة، وضمّت زوجها بعينيها حيث أغمضتهما نصف إغماضة وكأنما تحلم! ولاحظت من نظراته إليها كأنما هو ضمّها أيضاً بعينيه !

-أنا لم أعرف المراهقة، ولم أتمتع بطفولتي ! إنني لم أمرّ بها... لقد قفزتها... تجاوزتها... سلكت مسلكاً أخر... ! لقد كانت حياتي في منتهى الجدية والقسوة منذ السابعة... لقد قفزت بعد مرحلة الفطام إلى مرحلة الرجولة مباشرة... مرحلة المسؤولية...!

-وكيف حدث ذلك؟!سألا معاً وقد توقفت أيديهما بشوكتيهما ومعلقتيهما فوق صحنيهما!

-توفي والدي وأنا في السابعة من عمري، ومنذ تلك اللحظة وأنا أحمل مسؤولية إعاشة أمي وأخواتي ؛ أنا ومعي أخي الذي يكبرني قليلاً !

ـ للمساكين !علقت الزوجة.

–أذكر أنه بعد وفاة والدي، كانت والدتي كثيراً ما تجلس في الظلمة في أحد أركان بيتنا الكبير، فتبدأ بالبكاء والندب والنواح، لفقدان الزوج والحبيب والحامي والمعيل؛ فنهرع إليها نحن أولادها الخمسة... ولدان وثلاث بنات وجنين في شهره الثالث ما زال في بطنها... فتفتح يديها وتضعنا جميعاً في حضنها وتلفنا وتضمنا إلى صدرها كالدجاجة تضمّ صغارها تحت جناحيها، فتبكي بألم وتمزق وحرقة... كان بكاؤها وندبها ونواحها وكلماتها التي تلهب المشاعر وتمزق القلب، تشعل النيران بداخلنا، فيصير الكل منا يبكي... فتمتد فترة البكاء حتى تقودنا أحياناً إلى بكاء هستيري... إذ تتفتح الجروح وتتعمق الآلام ويعظم المصاب... ونظل نبكي إلى فترة طويلة، حتى تتخدر منا الأجسام... وتتورم العيون... وتذبل الوجوه... وتتبدد القوى... عندها تتوقف الأم عن البكاء وتكفكف دموعها ودموعنا... وهي تتمتم ببعض الآيات القرآنية المغلوطة والمكسرة، ثم بعد ذلك تطلب إلينا أن ننهض ونغسل وجوهنا ونذهب إلى فرشنا... فنلقي بأنفسنا ونحن بملابسنا، بعضنا فوق الغطاء وبعضنا تحته !

ومرّت فترة سكون طويلة مهيبة، وخرجت من صدري آهة إحباط وقهر وحزن طويلة، وشعرت بأن روحي تنوس كسراج يوشك أن ينضب زيته والنار تحرق الفتيل الناشف اليابس الذي انتهى

أنا أغرق نفسي بشرائح اللحم البقري الفاخر وسمك القريدس " شرمْ " والكافيار المميز، وأشرب مع العشاء النبيذ الفرنسي المعتق، وآكل الحلوى الثمينة النادرة، وأستمتع بحديث الحسان الأميركيات المثقفات المستنيرات، ألتهم شفاههن وأشرب من رحيق خدودهن وأعانقهن... أضاجع أجسادهن الرافهة، وأرقد فوق صدورهن الآبنوسية وبين سيقانهن العاجية، وأنتم يا أطفال الحجارة المقموعون المسحوقون المسغوبون، تأكل الشمس القائظة والبرد القارس أجسادكم، ويكسّر العدو الغادر عظامكم، وتأكل جدران وأرض السجون من قيعانكم، وأنتم تقفون بأجسامكم الهشة تدافعون عن أنظمتنا وتحمون الوطن؛ ونحن نتبرع لكم بالخطب الحماسية النارية والثناء العاطر المبجل، فتتغذون من لهيب خطبنا، وتحتمون بعطر ثنائنا! ما أحقرنا وأعظمكم، ما أحطنا وأنبلكم! إننا أقزام وأنتم عمالقة ! إننا صغار وأنتم جبابرة! إنكم الأعلون ونحن الأسفلون...!

وكنا قد انتهينا من الأكل، فأقبلت النادلة وسألت وهي توزع ابتساماتها وتجمع الصحون وكل ما أمامنا، إن كنا نريد قارورة نبيذ أخرى، قبل أن تقدم لنا الحلويات، ولكن الزوج شكرها وطلب إليها أن تأتينا ببعض "الباين أبل" والتي عادة يجلس على صدرها بعض "الآيس كريم" مع بعض القهوة.

لا أتذكر ما حدث بعد ذلك! فهل أكلت الحلويات أم لا؛ ولكني أتذكر جيداً أن النادلة أحضرت صينية صغيرة فاخرة، وبها الفاتورة نائمة على بطنها، وضعتها أمامنا، وبطريقة مؤدبة قلبها سيد روبنسون وقرأ الرقم... وبسرعة أعادها إلى مكانها، ثم مدّ يده وخلسة، وبطريقة بالغة الرقة، محاولاً أن لا يراه أحد، أخرج بعض الدولارات ووضعها في الصينية...!

أمسكت النقود من الصينية، ورجوته أن يعيدها إلى جيبه، ثم أخرجت محفظتي وسحبت منها رزمة من الدولارات، لم أعدها، ووضعتها في الصينية ! رفع السيد روبنسون حزمة الدولارات من الصينية وبعد أن عدها أخذ قسماً منها وضعه في الصينية، وأعاد الباقي إلى محفظتي، وطلب إلي أن أعيدها إلى جيبي ففعلت ! وأتذكر أيضاً أنه شكرني وكذلك فعلت زوجته على هذا العشاء اللذيذ والأمسية الممتعة، ثم لا أعرف ماذا حدث بعد ذلك... ! لقد وجدت نفسي ضحى اليوم التالي نائماً في سريري تحت الغطاء، ولكن بكامل ملابسي !

* * * * *

نهضت واستحممت ثم أفطرت... جلست خلف مكتبي، لأكثر من نصف ساعة، أحاول أن استأنف العمل على رواية كنت قد بدأتها قبل مدة ليست بالقصيرة، ولكن الله لم يفتح عليّ ولا بكلمة واحدة...! دخلتُ المطبخ وعملت لنفسي فنجاناً من قهوة الوطن... القهوة التركية... ثم عدت إلى مكتبي ثانية ، وأنا أحمل فنجان القهوة، لعلّ الله يفتح عليّ هذه المرّة فأواصل الكتابة... وأمضيت نصف ساعة أخرى، ولكن دون جدوى...! نهضت وألقيت بنفسي فوق الكنبة الكبيرة في غرفة الجلوس، وصرت أحدّق بالحائط أمامي... شعرت برغبة التمدد فوق الكنبة، وصرت أحدّق بالسقف فوقي، ثم فجأة، ولسبب لم أستطع تحديده، أحسست بشوق لاهب وحنين مستعر لرؤية سميحة...! شعرت وكأنما يداً حديدية عاتية قد أطبقت على فمي وأنفي، فلم أستطع التنفس، وأنني على وشك

الاختناق...! لم أمرّ بمثل قسوة هذه المعاناة وشراستها شوقاً لسميحة منذ سنتين ! لماذا هذا اليوم بالذات ؟! هل رؤية شيلا التي تشبه سميحة إلى حد بعيد، وحديثي المسهب معها، ثم غمرها إياي بلطفها ورقتها وحنانها، والتي أكنّ لها شعوراً مشابهاً هو السبب ! لا أدري؟! إن الذي أدريه هو أن ناراً اشتعلت في كل جوفي، وبدأت تلتهمه !

خرجت من شقتي على عجل، وركبت سيارتي وليس في نيّتي مكانٌ محدد أذهب إليه، بل ولست أدري إلى أين سأذهب...! المهم أن أهرب من هذا المكان الذي يطبق عليّ كفكي كمّاشة، يريد أن يكتم أنفاسي ! ولقد نسيت في غمرة انفعالي أن أستبدل ما عليّ من ملابس البيت بملابس الخروج، إذ كنت مرتدياً الشورت وبلوزة وشبشباً...! خرجت ولست أدري إلى أين ؟!

ركبت سيارتي ومررت وسط شارع قرية وست وود الرئيسي... وصرت أتصفح وجوه العابرات والمتسكعات أمام المقاهي والمطاعم...! هل كنت أبحث عن واحدة ؟! لا أدري ! ثم تابعت طريقي إلى سانتا مونيكا... مررت أمام بيت السيد والسيدة روبنسون، فأحسست ببعض الراحة... تمنيت لو أن أرى شيلا... ألمحها ولو من بعيد، تماما كما كنت أفعل أيام كنت في الوطن ! كنت عندما يهزني الشوق إلى سميحة أشعر بأن سياطاً من نار تلهب جسدي وأنني أكادأختنق فأخلع ملابس النوم وأرتدي ملابس الخروج ، وأندفع مهرولا إلى حي "الجدعة" حيث تسكن سميحة، وهناك أظل أتمشى أمام بيتها ذهابا وعودة، علها تخرج لألمح محياها، وأبقى على ذلك وربما لساعات وحتى ينتصف الليل دون أن أراها فأعود محطما محزونا محبطاً... إذ لا شك بأن رؤيتها ستخفف من لهيب الشوق ونار المعاناة في قلبي... ولكن هيهات !

إن شيلا الآن في العيادة، فالوقت ما زال مبكراً؛ ثم بأي حق أطلب أن أراها ؟! وتذكرت العيادة... آه العيادة! أيام المعاناة والإذلال !

أنا لا أؤمن بتناسخ الأرواح ، لأن هذا معتقدي كمسلم ملتزم، و لكن أقول ؛ إن شيلا هي سميحة، وسميحة هي شيلا... وأنا أحبهما الاثنتين معاً... وقد تغني رؤية إحداهما عن الثانية، فإن لم تفعل تماماً، فلا شك أنها تخفف من سعير المعاناة !

واصلت سيري في طريق الساحل حتى وصلت شاطئ "ملبو" وهناك أوقفت سيارتي، وتمشيت على الرمال. كان الشاطئ شبه خال، فقد عاد السبّاحون والمتنزهون إلى بيوتهم لتناول وجبة العشاء. جلست ووضعت قدمي بالماء وبدأتا تداعبان موجاته، بينما كنت أنا أرقب الشمس وهي تتأهب للمغيب!

لا أدري كم طالت جلستي، إذ سرحت في ملكوت الله العلي، عندما شعرت فجأة بالحنين من جديد إلى سميحة، وبدأت المعاناة ثانية، ولكن هذه المرة كانت ممزوجة بشعور لاهب بالغربة والوحدة والضياع معاً، فنهضت مذعوراً وكالملسوع، وجريت مسرعاً نحو سيارتي... ألقيت نظرة على ساعتي فكانت تقترب من السادسة، وعند أول كوخ هاتف توقفت وأخرجت الرقم المجاني لمطعم "الأقيانوس" من الدليل، وأعلمت موظفة الاستقبال بأنني أرغب في حجز طاولة لشخصين. وقبل أن تسألني اسمي أعلمتني بأن أول طاولة أستطيع الحصول عليها لن تكون قبل ساعتين من الآن، أي في الساعة الثامنة؛ حيث أن مجموعة سياحية كبيرة من أوروبا في ضيافتهم، بسبب شهرتهم الواسعة وطعامهم المتميز! وافقت وأعطيتها اسمي.

في شقتي تحممت وارتديت أحسن ما عندي... ملابساً تليق برجل ذاهب لمقابلة حبيبته التي يتحرق شوقاً للقائها !

بعد أن أجلستني المضيفة سألتني عن رفيقتي ، فأعلمتها بأن صديقتي ستنضم إليّ حالاً، ولكنني رجوتها أن ترسل إليّ النادلة في الحال لتنجدني بقارورة نبيذ فرنسية، إذ أنني أموت ظمأ !

-يا سيدي ! إن عيني ملازمتا التطلع إلى طاولتك، أنتظر قدوم من معك، لأضع نفسي في خدمتكما فآخذ طلباتكما لأحضرها لكما ! قالت النادلة بعد مضي أكثرمن نصف ساعة على إحضارها قارورة النبيذ.

-لا بأس عليك يا آنسة ! ونحن آسفان لهذا الالتباس... إننا الآن جاهزان.

-هل تعني أن تطلب الآن، ووقت إحضار الطعام تكون رفيقتك قد وصلت ؟!

- لقد حضرت صديقتي من مدة... وها هي جالسة أمامي على الطاولة... ألا ترينها ؟! قلت ذلك وأشرت لها بيدي أمامي.

-لماذا أغمضت عينيك وهززت رأسك كأنك تفيقين من صدمة أو كابوس مرعب...؟ ألا تصدقينني ؟! لا يهم... هذا شأنك ! إن صديقتي تريد صحناً من شرائح اللحم البقري ، استواء كاملاً مع البطاطس المشوية، وصحن سلطة خضراء عليها قليل من الزيت والليمون... وأنا أريد مثلها تماماً غير أنني أريد اللحم نصف استواء وأحب سلطتي أن يكون عليها بدل الزيت والليمون، توابلكم المتخصص بها مطعمكم !هي تريد فنجاناً من الشاي، أما أنا فأريد قارورة نبيذ ثانية... نفس هذا النوع... إنه نبيذ جيد...! في الحقيقة أنا أحب تناول الحليب المثلج مع طعامي، ولكن في المناسبات السعيدة والخاصة، أستبدل الحليب بالنبيذ...! أرجوكِ يا آنسة.. أحضري قارورة النبيذ الآن ! لقد انتهت القارورة الأولى دون أن تروي ظمأي... وأنا ما زلت في ظمأ شديد! إن رفيقتي لا تشرب الخمر وتعتبره محرماً !إنها ليست من سكان كاليفورنيا ولا حتى من أميركا، إنها من الوطن الحبيب... من الشرق الأوسط ! لقد كانت هناك قبل دقائق، وستعود إلى هناك بعد العشاء...! لقد تكرمت علي فقبلت مشكورة دعوتي للعشاء ! إن زوجها وأولادها ينتظرونها هناك...!ما أجمل رائحة القيصوم والدفلى والزعرور والزعتر والرتم أيضاً، صدقيني إن رائحتها عندي أحلى حتى من عطر باريس ! إنني أشعر بنشوة ربانية وأنا أستنشق عبيرها...! في المرّة القادمة سأطلب إليها أن تحضر لك معها بعضها، عندها ستصدقين وستعرفين عما أتكلم...!

-أصدّق يا سيدي ! أصدقك ! سأعطي طلبك للطباخ ، وسأحضر قارورة النبيذ في الحال !

-آه يا سميحة ! آه ! كم سنة مرّت لم أرك بها وجهاً لوجه؟! تقولين ثلاث سنوات ؟! وأقول لك ثلاثة قرون ! لقد كانت سنوات قاسية وعنيفة ! حقاً ، " لا يعرف الوجد إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها "! صدقيني إن صورتك لم يبرح مخيلتي ولا ثانية حتى ولا وقت النوم... فحتى أحلامي كانت كلها بك وعنك ! آه ما أقسى البعاد، وآه ما أشد الغربة...! إنني أحس نيراناً مشتعلة بداخلي، وأعيش على أمل العودة إلى الوطن الحبيب ، لأراه وأرى الأهل والأصدقاء... ولأراك أنتِ حتى ولو أنني لا أستطيع أن أكلمك أو تكلميني ! أنا لا أطمع بذلك ! يكفيني أن أمرّ كل يوم قرب بيتكم فألمحك بالنافذة أو حتى بالشارع ؛ فهذا غذاء كاف لروحي وقلبي وعواطفي ! عشر سنوات ؟! لا، لا، إنها أربعة عشر سنة ونصف وبضعة أسابيع ، مضى على أول لقائي لك . أنا أحفظها جيداً! وهل هذا شيء ينسى؟! وهل من الممكن أن أنسى اليوم الذي ولدت به وشعرت بأنني إنسان حقاً، ولأول مرّة في حياتي؟! وهل أنسى يوم ذهب العمى من عيني ورأيت بهما النور لأول مرّة عندما قابلتك في أول يوم افتتاح

المدارس ! آه ! إن مذاقه ما زال تحت لساني وأريجه ما زال يعتمر أنفي وحواسي...!

-يا لك من قوي الذاكرة شديد الملاحظة يا سهيل ! أنا لا أتذكر كل ما تقول، وخصوصاً أول لقاء لنا !

-أنتِ تتحدثين عن أول لقاء جسمي... أما أنا فأريد أن أحدثك عن أول لقاء روحي... لقد قابلتك روحي عندما خلق الله الأرض ومن عليها... ولهذا، ومنذ أن ولدت وأنا أبحث عنك... أبحث عن نصفي الثاني... أبحث عن روحي الضائعة ! أبحث عنك يا سميحة ! كيف يمكن أن أنسى هذا اليوم الخالد في حياتي؟ يوم ولادتي...! يوم شعرت لأول مرّة أنني أحس وأتنفس وأرى وأشم وأسمع ؟!

-إنك تحزنني يا سهيل... تمزق قلبي...! أنت حسّاس... خيالي... رومانسي، أكثر من المعهود ! أنا لم أر ولم أسمع وحتى لم أقرأ عن إنسان يملك من شفافية الروح وحساسية المشاعر من هو مثلك ! صدقني !

-لقد كنت قبل لقائك أشعر أنني قطعة متنقلة من الجماد...، ترى ولا تدرك... تتحرك ولا تشعر... تتكلم ولا تحس ! !

-إنك تجعل مني مخلوقة غير طبيعية... ملاك ! أنا مجرد امرأة عادية... عادية جداً ! صدقني إن كلامك يسعدني كثيراً ، فليت زوجي يفكّر بي كما تفعل أنت ! صحيح أنه يحبني ويحترمني كثيراً، ولكن ليس مثلما تفعل أنت !

-يوم وقعت عيناي عليك أول مرة ، اقسم لك بالله العظيم ، لم أنم تلك الليلة ! لقد شعرت كأنما قلبي طائر حبيس بين ضلوعي، يريد أن يهرب من صدري...! لقد شعرت أنني سعيد لدرجة أحسست معها أنني أريد أن أطير وأحلق في أجواء الفضاء... ثم أحسست بعدها بقليل أنني حزين... حزين... وأن الحزن يسحق عظامي، وينخر في كياني ووجودي...! ثم أحسست بعدها بأنني وحيد في هذا العالم وأنه عبارة عن منطقة من الأدغال... وأن سكانه كلهم أعداء لي ، يريدون أن يفتكوا بي... وأنني خائف... خائف... ثم خيل إلي أن كل حيوانات العالم تطاردني وتجري في أثري لتمزقني إرباً إرباً !! وما هي إلا هنيهات حتى أحسست بعاطفة مسعورة محمومة... عاطفة أحسست بأن كياني كله قد تحول إلى كتلة هلامية شفافة، تسبح في ملكوت الخالق الأعظم... فصرت أبكي بحرقة، كصغير أخذ من حضن أمه؛ ثم فجأة شعرتُ بأن يداً حديدية جبارة قد أطبقت على فمي وأخرى أغلقت أنفي ومنعتني من التنفس، وأنني

أختنق... يا الله ! إنني أختنق... أختنق... أختنق... وكالزوبعة العاتية انطلقت نحو باب غرفتي وركضت كالريح وواصلت الجري المجنون حتى وصلت زقاقكم ومررت من أمام بيتكم، فوجدت أن البيوت كلها تسبح في الظلام... ولو أن الحارس الليلي في الحي رآني لألقى القبض علي، إذ لا شك أنه سيظنني لصاً، وإلا ماذا أفعل في هذه الساعة المتأخرة من الليل...؟! فوقت صلاة الفجر لم يحن بعد...! وفي زقاقكم شعرت باسترخاء وراحة... بأمان وسلام... بغبطة وسعادة... فعرفت أنني الآن أتنفس عبق عطر أنفاسك... وأنني أستنشق نفس الهواء الذي تستنشقينه... وشعرت بأن الوحوش قد كفّت عن مطاردتي، ليحل محلها ملائكة يحرسونني... يرددون الأغاني الشجية والأهازيج الحنونة...!

انفجرت سميحة تبكي بحرقة، وعندما رأيت دموعها تنزل فوق خديها، ازداد حزني وأصابني شبه جنون؛ فصرت أكفكف دموعها بالمنديل الورقي، وأرجوها أن تكف عن البكاء رحمة بقلبي وخوفاً من أن يلاحظ الحضور... ولم تتوقف عن البكاء والنشيج إلا عندما رأت النادلة مقبلة من بعيد !

- عدت تلك الليلة يا سميحة إلى غرفتي بخطى ثابتة هادئة... ونفس مطمئنة راضية... وشعرت أن السلام يحتل كل ذرة في جسمي... فألقيت بنفسي فوق فراشي ولكنني لم أنم، بل قضيت الليل أحملق بسقف غرفتي أفكر بكِ وأحلم برؤيتك ثانية...! إنني ما زلت أتذكرها، وكأنها البارحة، رغم مضي أربعة عشر عاماً ونيف !

-كم أنا سعيدة بمجيئي الليلة للقائك، وإن كنت حزينة جداً... حزناً يحرقني ويمزقني بأن أعرف أنني تسببت لك بكل هذه المعاناة دون أن أدري !

-إنني يا سميحة كلما يهزني الحنين إليك، وتبدأ نيران الأشواق تشتعل في جوفي، وأحسّ بالإحباط و الاختناق، أفتح نافذتي قلبي وعقلي؛ وأصير أفكّر بك وأحلم... ودموعي تنزل كالمطر المنهمر ، وأقسم لك ثانية ، فأشعر بالراحة والاطمئنان !

-إنني واثقة يا سهيل بأنك ستقابل يوماً الفتاة التي ستقدّر صدقك وأصالتك، وتثمّن حبك وتضحياتك، وسيسعدها هذا البحر الزاخر من الأحاسيس والمشاعر!

وهنا أقبلت النادلة ووضعت قارورة النبيذ الفرنسي المعتق أمامي واستأذنتني بفتحها، وبعد أن فتحتها صبت لي كأساً منها ومنحتني ابتسامة وتمنت لي شرابا ممتعا !

–شكراً لك يا سيدتي ! أنتِ سحابة متحركة من اللطف والأدب والرقة... فهنيئاً للذي تحبينه ! دعيني أتذوق النبيذ أولاً، ثم أخبرك رأيي قبل أن تذهبي! آه...! آه...! إنه رائع... لذيذ ! إن لك ذوقاً رفيعاً في انتقاء الأنبذة ! آه ما أغباني! هذا صحيح، سامحيني ! إنه نفس النبيذ الذي صار لي ما يقارب الساعة أشربه !

–سيكون العشاء جاهزاً بعد حوالي عشرين دقيقة يا سيدي، ولعل رفيقتك تكون قد حضرت عندئذ !

–سامحكِ الله يا سيدتي ! لماذا لا تصدقيني وتري بنفسك ؟!! قلت لك إنها تجلس أمامي على نفس هذه الطاولة... ها هي ألا ترينها ؟! المعذرة المعذرة ! قد تحتاجين لزيارة طبيب العيون ! ليس عيباً أن يلبس الناس نظارات ! أقول هذا عن قناعة ويقين! لقد أمضيت عامين كاملين وأنا بمسيس الحاجة إلى نظارة، وطبيب العيون يستغرب رفضي شراء نظارة مع أن نظري كان يزداد كل يوم سوءاً، فظن المسكين أنه ربما لا يكون باستطاعتي شراء نظارة... لقد صارحني هو نفسه بذلك... وعندها وجدت نفسي مضطراً لأن أقول له الحقيقة؛ وهي أنني أخجل أن أضع نظارة ، لأن معارفي سيقولون عني بأنني ، أعمى ، وأن لي أربع عيون ! ما كنت أنوي أن أصارحه لولا أنه جرح إحساسي بأن سألني إن كان رفضي هو عدم مقدرتي على شراء نظارة، ولما أعلمته الحقيقة ضحك طويلاً من سذاجتي، وأعلمني أن معظم الذين يتعاملون مع الكتب يلبسون نظارات، وأن رؤساء الجمهوريات والحكام وحتى الملوك والسلاطين يضعونها...! وسألته إن كان أباطرة شرقي البحر المتوسط... الذين يتحكمون بمصائر شعوبهم ويملكونها... ويستطيعون حتى أن يبيعوها كالسوائم... هم أيضاً يستعملون نظارات ؟! فأكد لي حتى أولئك يضعونها...! عندئذ استعملتها ! لا تخجلي فهي ليست عاراً ! آه ! أنت تضعين عدسات لاصقة ! إذن لماذا لا ترين رفيقتي ؟! لقد قطعت عشرة آلاف ميل، من وراء البحار وخلف المحيطات ، من أجل أن تكون معي هذا المساء... في هذا المكان الجميل...! مطعمكم...! إنها ستعود بعد العشاء ثانية ! نعم إلى الشرق الأوسط... لا، لا؛ إنها لا تركب الطائرة... إنها تركب الريح ! نعم، نعم؛ إسمه بساط الريح ! شاهدته بالسينما والتلفاز! هذا هو ! من هي هذه المرأة ؟! قلت لك إنها صديقتي... إنها حبي الأول... حلم الطفولة !! ألم تحبي في حياتك؟ زوجك؟! ولم إذن ينكد عليك؟! هكذا الكثير من الأزواج...؟ يحبون بوَلَه... وبعد الزواج يكرهون زوجاتهم ويعتقدون بأنهم ارتكبوا أكبر غلطة، وأعظم حماقة، لزواجهم ممن يحبون...! ماذا تقولين؟! إنها من الوطن الحبيب... !

عندما ناديت النادلة وطلبت منها قارورة ثانية من النبيذ قالت:

ـ لقد شربت كثيراً يا سيدي، ولكن اطمئن، فإن جميع الأنبذة في مطعمنا من النوع الفاخر، والنبيذ الجيد لا يسبب صداعاً، ولا مغصاً... إنه فقط يجعلك تشعر بالسعادة والاسترخاء... وخصوصاً إذا كنت محزوناً ومحبطاً ! أليس هذا ما ننشده من الحياة، نحن بني البشر؟ السعادة !

-وهل أنت سعيدة يا سيدتي؟ زوجك يسيء إليك أحياناً ؟ آه! هذا حرام والله ! إنه ليس من العدل أن نكفر بنعم الخالق الذي منحنا الحياة وكل ما هو جميل لنعيش سعداء...! لقد منحنا الطبيعة والموسيقى والفن والجمال والشعر والنبيذ والحب... وأشياء أخرى كثيرة كثيرة... فنكافئه نحن بالنكد والشجار والكراهية والحقد والبغض !! يا للعار! يقولون عندنا في الوطن "الإنسان أسود رأس" حقاً إنه لا يستحق كل منح وعطايا الخالق ! آسف يا سيدتي! لقد أعطيتني كثيراً من وقتك إذ أخشى أن يغضب منك الزبائن! آه! شكراً على هذا الإطراء!لم يمر عليك زبونٌ مشوّقٌ وممتعٌ مثلي ؟! أهذا مدح أم قدح ؟! مدح ؟! فكرت هكذا... أنا أعاني من الوحدة ! ومن قال لك ذلك ؟! إنه لا يوجد عندي ثانية فراغ واحدة حتى أشعر بالوحدة... وقتي كله مأخوذ... محجوز بالكامل... للوطن... للتفكير به... بمشاكله... بقضاياه ومآسيه...! كيف أعاني من الوحدة، وكل خلجة في كياني مرهونة للوطن ! أنا بحاجة إلى صديقة تسليني !؟ ومن قال لك ذلك ؟! ومن أين لي الوقت حتى أقضيه معها؟ رفيقتي هذه التي أمامي، قطعت هذه المسافة الشاسعة لتكون معي لعدة ساعات... إذ لو كانت تعيش هنا لربما لم يكن عندي وقت لرؤيتها أكثر من مرة في الأسبوع، مع أنني أفكر بها ليل نهار ! طبعاً الوطن، ولكن هي والأهل والأقارب والأصدقاء وكل سكان الوطن وحتى المشردين والهاربين، كلهم يشكّلون الوطن، ولهذا أفكر بهم جميعاً ! لا بأس، لا بأس زبون يطلبك ؟ تفضلي... آه عدت بسرعة؟ أحضرت الطعام ! يا لرائحته الزكية ! إن رائحته تستولي على الحواس وتخدر العقل، تماماً كالنبيذ! نعم، نعم قدمي للسيدة أولاً، ثم لي بعد ذلك، أليس هذاهو الإتيكيت ؟!

-هذا عشاء صديقتك يا سيدي؛ فهل تريديني أن أحتفظ به ساخناً في الفرن حتى تأتي؟! لقد تأخرت كثيراً...!

-أستغفر الله العظيم! فليسامحك الربّ! لماذا تريدينني أن أقسم لك أن رفيقتي جالسة أمامي؟ إنها ها هي... أنظري إليها. ألا ترينها ؟ أليست هي جميلة ؟ إن جمال المرأة العربية يختلف عن جمال المرأة الأوروبية... أعني له طعم ونكهة تختلف عما سواه ! إنه ممزوج بالعفة والطهارة والحياء... كالنبيذ المعتق... تماماً... كلما شربت منه أكثر كلما شعرت بالظمأ إليه أعظم ! نعم جمال نظيف غير مبتذل ، لا أستطيع وصفه لك إلا إذا كنت تملكين عواطف ومشاعر وأحاسيس وذوق شرق أوسطي !! آه !

إطمئني... لا، لا أحتاج شيئاً... أمامي... أعني أمامنا كل ما نحتاج، فشكراً لك، وكل شيء على أحسن ما يرام.. شكراً لك... مع السلامة... نراك بعد مدة... أنا أريد الآن أن أتحدث مع رفيقتي ! لحظة من فضلك لا تذهبي! لم وضعت بيدك إشارة الصليب على صدرك ؟! هل أنت كاثوليكية ؟ لقد كان لي أصدقاء كثيرون كاثوليك... كانوا لا يقسمون إلا بالسيد المسيح... ولا يطلبون العون والهداية إلا منه... وكانت أمهاتهم دائماً يرسمن بأيديهن إشارة الصليب على صدورهن، كلما يسمعن عجباً أو يرين ما يعتقدن أنه غريب ! أين أولئك الأصدقاء...؟! لا أحد يعلم إلا الله... نعم! الله وحده! فإما أن يكونوا في غياهب السجون أو في زنزانات الوطن، أو مشردون ولاجئون في شوارع الغرب... يأكلون ما تجود به حاويات قماماته...! لماذا؟ إن كل ذنبهم أنهم يدعون إلى الديمقراطية والوحدة... والحاكم عنده حساسية شديدة ضد هاتين الكلمتين! لا يوجد شيء يزعج الحاكم في الوطن العربي الكبير ويسبب له الألم والقلق والنرفزة وضيق النفس والصدر معاً مثل هاتين الكلمتين! إنهما ضد طبعه وتفكيره ومعتقداته!! لا بأس، مع السلامة، سنراك بعد الانتهاء من الطعام عندما تحضرين الحلويات !!

–والآن يا سميحة، نستطيع أن نتكلم دون أن يزعجنا أحد! لقد تغيّرت بعد الزواج... أعني ازددت جمالاً... ولكنك كسبت بعض الجارامات من العافية ! طبعاً الحمل والولادة والرضاعة تغير ملامح الجسم ! طمئنيني هل أنت سعيدة ؟ لقد كنت في الوطن دائماً أسمع أخبارك من أم شاهر... من أخواته...! هنّ يسمعن أخبارك من أمك... وشاهر يسمع منهن... وأنا أسمع منه... نعم... شيء مضحك...! فعرفت أنك سعيدة وأن زوجك يحبك ويحترمك كثيراً ! ومن لا يحبك ويحترمك يا سميحة ؟!

–لم أكن أعرف يا سهيل أنك كنت تحبني كل هذا الحب؛ بل لم أكن أعرف حتى مجرد أنك تحبني ! إنك لم تقل ولم تفعل شيئاً يجعلني أعتقد ذلك...! إنك لم تكلمني ولا كلمة واحدة... ولم تتصرف أمامي بأي تصرف يوحي بذلك! إنك لو قلت لي شيئاً أو قمت بعمل يوحي بأنك تحبني كل هذا الحب، لربما أعطيتك بعض الاهتمام... ولما كنت تجاهلت وجودك كلية! أنا أعرف أنه كان من المستحيل علينا أن نتبادل الكلام حتى ولا إلقاء التحية... ولكن كان باستطاعتي أن أعبّر لك من خلال ابتسامتي ومن قسمات وجهي بأنني سعيدة برؤيتك، أثناء عبور كل منا الزقاق ! إنك تمزق قلبي يا سهيل وأشعر بالحزن لما عانيت وتعاني في سبيلي... إنني حتى لو عرفت آنذاك بحبك لي لما كان باستطاعتي أن أحبك...! كنت في كل مرة تقريباً أخرج من بيتنا إلى المدرسة أو أعود منها... أو أذهب لزيارة صديقة أو إحدى بنات عمومتي... وحيدة أو مع والدتي أو مع أحد أخوتي... فإنني كنت دائماً أجدك أمامي... حتى خيل إليّ أنك تمضي طيلة الليل والنهار مزروعاً في حيّنا، أو أن بيتكم يقع في رأس الزقاق وأنت

مرابط فيه... ولكن سرعان ما تبين لي خطأي، إذ كنت ووالدتي وبعض الجارات عصر أحد الأيام في زيارة جارتنا أم صديقك شاهر، وكنا نجلس في غرفة الضيوف عندما سمعنا وقع أقدام تقترب من صحن البيت... ولمحتكما تمران أنت وصديقك إلى البلكونة المجاورة قبل أن تتمكن مضيفتنا من إغلاق الباب... حتى لا يرى الرجال النساء! لقد سمعنا جميعاً أم شاهر تعتذر عن عدم إغلاق الباب، حيث أن المارين هما ولدان وليسا رجلين، ابنها شاهر وصديقه سهيل... وأنكما ومنذ كنتما صغيرين لا تفترقان إلا وقت النوم أو الأكل... وذكرت اسمك واسم عائلتك وقالت أنك تسكن في الحارة الفوقا...! وأتذكر جيداً بعدها بوقت قصير أنه مضى أكثر من أسبوع لم أرك به، مما أثار تساؤلي، ولكنك عدت بعدها، وقد رأيت شحوباً قد علا وجهك... وذبولاً قد تمكّن من جسمك...!

–لقد كنت وقتها يا سميحة مريضاً بسبب حبك، وكنت أعتقد بأنني لن أنهض من الفراش... وأنني سأذهب لملاقاة ربي كقتيل جديد للحب العذري... وإنني سأتوه كما تاه الرفاق العذريون وماتوا في صحاري الحجاز ونجد وتهامة والربع الخالي؛ وكما انتحر ودفن شرف الأمة العربية وكرامتها وكبرياؤها، في هذه الأيام، في وديان حفر الباطن... دفنه خونة الأمة وزنادقتها وعلوجها؛ فنكون كلنا، الرفاق العذريين، وعروبة الأمة ودينها، وأنا؛ نحن جميعاً؛ شهداء الجهل والتخلف والانحطاط الحضاري والأخلاقي! ولكن يبدو أن الخالق كان يريدني أن لا أموت، لأن لي مهام أخرى في الحياة!! ربما! من يدري؟!

–آسف أن أقول لك، بأنك لو كنت متّ يا سهيل لما كنت قد افتقدتك، ولا كنت حتى سمعت عنك، لأنك لم تكن تعني شيئاً بالنسبة لي.

–كنت تعتقدين بأن مقابلتي لك دائماً، كانت مجرد صدفة، ولم تكوني تعلمين أنني ربما صار لي ساعتين... ثلاث... أربع وربما حتى خمس ساعات... والله، وأنا أتظاهر بالذهاب والإياب علّك تخرجين... فألمحك فيتلبسني الهدوء والسكينة والراحة! صدقيني يا سميحة أن رؤيتك كانت من ضروريات حياتي اليومية؛ وأن يوماً يمر عليّ دون أن أراك، كنت أحس بأنني أختنق وأنني على وشك أن أموت...! كنتِ بالنسبة لي، كالمريض الذي يأخذ أو لا يأخذ دواءه...! عندما كان يمضي علي يوم لا أراك به... كنت أشعر بضيق يكتم أنفاسي... وبإحباط ويأس وقلق يمزق كياني... وعندما أراك أشعر بالسلام والراحة والاطمئنان !كان يكفي أن تقع عيناي عليك لأصبح إنساناً سويّاً... فقد كان ذلك علاجي وبلسمي...! دعيني بربك يا سميحة أضع رأسي على صدرك... وأبكي لساعتين... لثلاث... لأربع... أو لخمس ساعات... لأستعيد ذكريات كنت أعيشها صغيراً... أشبب بك فأنعم وأسعد !

-لا يا سهيل! أنا لا أحبّ أن أراك ضعيفاً منهاراً، فالحياة تحتقر الضعفاء وتدوسهم! إن لك مهمات كثيرة في الحياة، وتقع على عاتقك مسؤوليات جمة، وواجب نحو الوطن كبير وثقيل...! إنك تمزق قلبي يا سهيل، وكم أتمنى الآن لو أنك كنت أخبرتني في حينه، ولو أنه لم يكن بإمكاني أن أحبك لأسباب كثيرة... كثيرة جداً... وكان أحدها أنه لا يمكن أن أحب طالباً صغيراً يعيش على إحسان الأهل؛ وأمي تحلم وتبحث لي عن زوج مثرٍ وذي مركز رفيع ! لو كنت أعلم أنك كنت تحبني... لربما كان فقط ليشبع غروري الأنثوي بأن هناك رجال يحبونني كل هذا الحب... ويتعذبون من أجل حبي كل هذا العذاب !

-لقد كنت في بعض الأحايين، يا سميحة، أتمنى بيني وبين نفسي، لو أستطيع المثول بين يديك والسجود عند قدميك، ولأقول لك بأنني أحبك بكل كياني ووجودي... فأرجوك أن ترأفي بي وتبادليني هذا الحب... كنت أتمنى أن تعرفي فقط كم أحبك...! ولكنني في أغلب الأحايين لم يكن يهمني أن تعرفي حتى أنني خلقت، وأن هناك إنساناً اسمه سهيل!! إن العابد في الدير، يقضي الليل مواصلاً بالنهار، والسنة بالأخرى... يقضي عمره كله يعبد الله ويسبحه... يصلي له، ولا يكف عن ترديد " أحد! أحد! " لا يطلب من هذا الخالق شيئاً سوى أن يكون راضياً عنه، سامحاً له بالتهيام والتحليق في ملكوته، ينعم في بحور محبته وأشواقه ونورانيته...! لقد كنتِ يا سميحة معبودتي الأرضية الهلامية، وكنت أمارس عبادة الرب وأصل إلى سماواته السبع الطباق، وأتهجد في ملكوت رحمته النورانية... والتي تتسع لكل شيء من خلال تعبدي في محراب حبك !!

-إنني أحب زوجي وأولادي يا سهيل حباً جماً، وأمام زوجي فرصٌ كثيرة ليصبح من علية القوم فنبرز نحن ونرتفع... فطموحات المرأة في الوطن محدودة وبسيطة إذ إن أغلى أمانيها ومنتهى أحلامها أن يكون زوجها ذو منصب رفيع مرموق لتفاخر به أترابها وليحقق لها متطلباتها...! أما الحب والعشق والرومانسية فتعتبرها من متطلبات الحياة البعيدة واللاضرورية...! نحن هكذا النساء، يسعدنا أن نظهر في المجتمع لنتفاخر أمام صديقاتنا وزميلاتنا. على كل حال أنا سعيدة بحياتي لأن هذه هي طموحاتي في الحياة !

-آه يا سميحة كم أنا حزين لما تقولين! إنني أحاول أن أرتفع بك وأسمو، وأنت تصرّين على أن تبقي على الأرض! إنك ككل امرأة عربية، كل همّها أن تظهر بالمجتمع وتحصل على متع الدنيا ومباهج الحياة !

-إنني سعيدة يا سهيل بحياتي، لأنني حققت طموحاتي وأحلام أمي، بأن تزوجت من رجل غني وذي منصب رفيع !

–أنا سعيد لسعادتك يا سميحة؛ وداومي على حبك لزوجك وأولادك ، لأن الحب ديمومة الإنسانية وهو سعادتها ! كنت أشعر بالسعار والحمى والجنون تجتاحني شوقاً لرؤيتك، وعندما أقابلك، وكل منا يمر بطريقه، كأيّ غريبين يعبران الشارع ؛ يزاولني هذا الشعور المستعر، ويحل مكانه شعور الأمان والاطمئنان !

–أنت تشرب كثيراً جداً يا سهيل! لقد علّمتك أميركا عادات معيبة ومحرّمة ما كنت لتفعلها لو بقيت في الوطن !

–إنني أشرب يا سميحة لأسلو قليلاً عنك وعن الأهل والوطن ! أنا أشرب لأنسى غربتي ووحدتي وانسحاقي ! لا تظنوا أني نسيتكم ؛ إنكم تعيشون مع نبضات قلبي وفي حشايا وجداني. إن حبكم هو الدماء التي تجري في عروقي والهواء الذي أتنفسه. إنني أعيش بينكم بعقلي وأعصابي وقلبي ووجداني وتفكيري، وإن كان جسمي هنا في أميركا !! فلينسني الرب إن نسيتك يا وطني، ولتمحقني السماء إن غفل عقلي ثانية واحدة عن التفكير بك !

–يا آنسة! يا آنسة ! إن رفيقتي تقول لك بأن أكلكم لذيذ جداً، وهي تسأل إن كنتم تقدمون القهوة التركية، فهي لا تحب أنتشرب القهوة الأمريكية !

–قل لها يا سيدي إنني شربت القهوة التركية في بيت أصدقاء لنا من بلادكم، ولكنني لم أحبّها لكثرة البن الذي يكمن في قاع الفنجان! إن مطعمنا لا يقدمها وحتى لا يعرفها، ولكن اسأل صديقتك إن كانت تريد فنجاناً من القهوة الأميركية، فمطعمنا مشهور جداً بها وهي من خصائصه المميزة...!

–إن مطعمكم مشهور بكل شيء يا آنسة، ولكن آسف، فإن صديقتي تريد فنجاناً من الشاي السيلاني، فهي تكره القهوة الأميركية... وهي تكره كل ما هو أميركي حتى النخاع ! على عكس أبناء عمومتنا الذين يحبون كل ما هو أميركي... لماذا؟! إنها ليست الوحيدة في الوطن الكبير التي تفعل ذلك! إن الأغلبية الساحقة تشاركها هذا الشعور! لقد اعتقل زوجها وعذّب وأهين وضرب عشرات المرات... وأمضى مدة طويلة بالسجون والمعتقلات بسبب أميركا وأشياعها... لقد بلغني أنه كان يقود المظاهرات ويعقد الندوات، ويدرّس الناس ويعلمهم تحدي أميركا وبريطانيا وإسرائيل، واحتقارهم ومحاربتهم! إنهم دول غاشمة باغية طاغية

ومعتدية، تستعبدنا وتسرق ثرواتنا، وتنهب خيرات بلادنا وتغتصب رغيف الخبز منا ! إنها تميت ضعافنا وتيتّم أطفالنا !

ـ وهل تحب أنت أميركا يا سهيل؟ وهل تنوي أن تقيم بها دوماً؟

–كيف تسألينني مثل هذا السؤال يا سميحة ؟! سامحك الله ! طبعاً سأعود !

آمل يا سهيل! آمل! ولكن قل لي الصدق، أرجوك! هل أنت حاقد عليّ؟

–ولم تعتقدين ذلك يا سميحة؟! وكيف أحقد عليك وأنا لولاك لما كنت شيئاً مذكورا، ولكنت نسياً منسيّاً! لقد ولدت يوم التقيت بك، وخرجت من ظلمة الجهل والتجهيل إلى نور اليقين والإيمان يوم أحببتك! أنا ما أحببتك يا سميحة فقط عندما تقابلنا في عالمنا هذا ولأول مرةأمام بيتكم، أنا أحببتك منذ آلاف السنين، بل منذ خلق الله الأكوان ومن عليها؛ كنت فقط أبحث عنك وأنتظر مجيئك! لقد كنت قبل لقائك جسداً متحركاً بدون روح، وكنت أنت روح ذلك الجسد!! إنني منذ بلغت التاسعة من عمري يا سميحة وأنا أقرأ تقريباً في كل يوم رواية ! لقد قرأت كل ما كتب جبران وميخائيل نعيمة وطه حسين وغيرهم وغيرهم الكثيرين الكثيرين... وكذلك قرأت ألف ليلة وليلة وأحفظ جميع أشعارها؛ كما قرأت كل ما ترجم في ذلك الوقت من الآداب العالمية، حتى صرت أعيش في عالم غير عالمنا؛ فاختلطت علي الأمور؛ وكنت أعيش في قلق وحيرة وضياع ، حتى تقابلنا، وعندها وجد الجسد بلا روح، روحك الهائمة في قمم الجبال وعلى رؤوس الأشجار! لقد هللت ملائكة الكون وزغردت صبايا الإنس لمقدمك؛ وفهمت معنى الجمال وأدركت كنه الوجود والخلود يوم التقت عيناي بعينيك، فأحسست أني ولدت من جديد يوم التقت روحانا!!

–أرجوك أن تتوقف عن قول هذا يا سهيل! والله إنه لحرام عليك ! إن مثل هذا الكلام ينسي المرأة زوجها وأولادها وكل ما حولها، ويجعلها تحلّق بين طيات الغيوم !

–أنا لا أريدك أن تتوقفي عن حب زوجك وأولادك؛ ولا يمكن أن أسمح لنفسي حتى بأن تفكر بمثل هذا! إنني على العكس من ذلك، أريدك أن تزدادي حباً لزوجك وأولادك، لأن هذا يسعدني كثيراً ! أنا فقط أريد أن أعلمك كم قاسيت وتعذبت في سبيل حبك، وفي نفس الوقت أريدك أن تعلمي كم جلب لي حبك من السعادة ! إن حبك هو الذي أنار الشعلة المقدسة في تفكيري، ووجودك هو الذي أوقد الطموح في نفسي وهو الذي أيقظ غريزة حب العلم وشهوة المعرفة في وجداني ! إنه هو الذي ألهب عواطفي ورقق أحاسيسي وأضرم النار في مشاعري ! إنه هو الذي

يدفعني دائما الى طلب الاستزادة من العلم و من التقدم و من السمو ... إنني أشعر في كل يوم بأنني أزداد تألقاً و تعملقاً ؛ صدّقيني !

–كم أنا سعيدة يا سهيل أن حبي كان عامل خير وبناء لحياتك وليس العكس!

–عامان كاملان يا سميحة ، و أقسم لك على ذلك ؛ و الله على ما أقول شهيد ؛ ما كان يمضي يوم إلا وأمرّ من حيّكم أكثر من خمسين مشواراً ، جيئة وذهاباً، حتى أستطع أن أراك! كنت كالمدمن يظل جسمي يرتجف وأعصابي متشنجة ونفسي حائرة قلقة ثائرة، حتى إذا رأيتك مقبلة من بعيد فإن موجة من الخوف والقلق والارتباك وجيشان العواطف، كلها تتفاعل في داخلي، فأتمنى لو أستطيع أن أهرب خوفاً من أن أقابلك وجهاً لوجه !

–كنت أقابلك كثيراً في الطريق يا سهيل، فلم أكن أعرف أنك كنت تنتظر خروجي وتترقب قدومي، وإن تواجدك في حيّنا هو فقط من أجلي، فليتك تقدمت مني وقلت شيئاً... أي شيء لتعلمني اهتمامك بي!

–ماذا بوسعي أن أقول لك؟! هل أطلب منك وأرجوك أن تحبيني، وأنا في نظر الجميع لست إلا طالب مدرسة ابن فلاح فقير يتيم الأب، وأنت ابنة قاضٍ عظيم؟ لا شك أنك كنت ستغضبين!

–شكراً يا سهيل على العشاء اللذيذ والأمسية الممتعة ! لقد استمتعت كثيراً بأحاديثك الشيّقة، ولكنني حزينة جداً للمعاناة التي عانيتها في سبيل حبي ! آمل أن تجد الفتاة التي تقدرك! والآن اسمح لي، يجب أن أنصرف.

–أرجوك ابقي قليلاً... إن عينيّ لم تشبعا من رؤيتك بعد ! إنكِ لم تقطعي آلاف الأميال لتبقي هذه المدة القصيرة ! أرجوكِ اجلسي...!

–لا، لا أ ستطيع ! يجب أن أذهب ! سيقلق زوجي وأولادي عليّ، وسيبدأون بالبحث عني. لقدأعلمتهم بأنني لن أغيب طويلاً ! قالت ذلك ونهضت ثم أدارت لي ظهرها وهمت بالمغادرة !

–والآن يا سميحة! أريد أن أقول لك خبرا مهما ... خبرا قد يسعدك كثيرا... خبرا قد يزيل عن كاهلك هما طالما أثقلك وأرق منامك... إنه هو الذي طلبت إليك الليلة مقابلتك من أجله... لقد قابلت هنا في أمريكا فتاة أحببتها مثل حبي لك ... حبا استبد بي فملك علي أحاسيسي وتفكيري... ! لقد أحببتها دون أن أفكر بها كامرأة ودون أن أطمع منها حتى بلمسة يد... الفارق بين حبي لكما الاثنتين هو أنني أحببتك أيام الطفولة

والمراهقة وبساطة التفكير وعدم نضوج الأحاسيس... أيام القحط العاطفي والمسغبة الجنسية ؛ أما هي فأحببتها أيام الرجولة والنضوج ... وأيام الوفرة والكثرة. لقد عشقتك عشقا عذريا يوم كان العشق محرما، أما هي فعشقتها عشقا مثل عشقك، في زمن ومجتمع ليس في قاموسه مثل هذه الكلمات !

–أصدقك القول بأنني حزينة جدا جدا لاعتقادك الخاطئ بأن حبك لي قد أثقل كاهلي وأرّق منامي، ولكن يوجع وجداني أكثر أن أعرف بأنك ستتخلى عن حبي لتتخذ واحدة بدلا مني ! إنني ومنذ أن بحت لي بحبك العظيم وأنا أحس بسعادة عارمة لا أستطيع أن أصفها لك ! لقد أحسست أنني أجمل امرأة خلقها الله حتى يظل يتعذب إنسان ناضج مثلك محاط بهذه الأعداد الهائلة من حسناوات ومثقفات جنوب كاليفورنيا، كل هذه السنوات الطوال دون أن يطمع مني حتى ولا بنظرة... كم أتمنى يا سهيل، وبكل الصدق والأمانة والإخلاص ؛ لو أنك تستمر في عشقي فأظل مثلك الأعلى والطيف الذي يؤنس وحدتك في الليالي الموحشة!

–لقد استنفد حبك كل طاقاتي وتركني أقاسي ويلات الغربة والضياع ! لقد بدأت أعاني من الانسحاق والتمزق والانكسار!

–وهل حقا أتعبك حبي يا سهيل ؟! لقد كنت أظن بأنه جلب لك السعادة وأنار لك طريقك المظلمة في بلاد الغربة رغم عذاباتك ومعاناتك !

–نعم لقد فعل ! ولكن آن الأوان له أن يتوقف... لقد أتعبني الحب من طرف واحد... أريد حبا يتجاوب مع أحاسيسي وتفكيري ويشعر بمعاناتي وغربتي... أريد أن أرى صاحبته... أكلمها... تسمعني... أناجيها... تصغي لهمومي وتواسيني ولو أنني لا أطمع منها حتى ولا بلمسة من يدها !

–ليتك لم تخبرني عن حبك لي أبدا لكنت ما افتقدته الآن ! إنك وبعد أن صعدت بي إلى أعالي السماء تعود وتنزل بي إلى أعمق أعماق الأرض ! إنني سأظل أتألم وأعاني لفقده وأتحسر على ضياعه ! صدقني إن هذا ليس عدلاً !

–وهل يوجد عدل على الأرض يا سميحة ؟! لقد بقيت أربعة عشر عاماً ونيف ،نعم اربعة عشر ونيف ، وأقسم برب السموات والأ ضين ، وأنا في عذاب سرمدي ومعاناة لا يعرف إلا الخالق قسوتها، وأنا لم أستطع حتى أن أوصل لك كلمة واحدة أخبرك بحبي قولا أو كتابة أو حتى بواسطة إنسان آخر لأن هناك يوجد قيود وأصفاد... سلاسل وأغلال... حلال وحرام... عيب وممنوع ...!

-وهل معنى ذلك أنك تتمنى لو أنك ولدت في مجتمع غير مجتمعك هذا؟!

-كلا وألف كلا ! أبدا، أنا فخور بهويتي القومية والدينية، ولن أستبدلهما بأخرى مهما كانت الظروف والمغريات، ولكنني حاقد جدا وناقم أكثر على عادات مجتمعي وتقاليده، الذي يحرم علي أن أحبك وأن أبوح لك بحبي ، كل هذه السنين الطوال !

-سميحة! أرجوك... إنني أتعذب في حبك... إنني أقاسي... لقد تعذبت كثيرا وقاسيت طويلا طويلا... أرجوك إرحميني... إرأفي بحالتي... وأشفقي لتعاستي وضياعي... إن حبك صار يكتم أنفاسي... يسحقني... إنني أحيا وأموت ثم أتلاشى في كل يوم بل وفي كل ساعة... نيران تحرقني تشتعل في قلبي... في دمي... بكل كياني... أرجوك توقفي عن تعذيبي رفقاً بي.. رحمة بالقلب الذي يحبك... رحماك رحماك اتركيني... أرجوك فكي قيودي... أنهي أسري... أطلقي سراحي... أخرجي من جلدي... نعم، أخرجي من جلدي... من دمي... من قلبي... من وجودي... فإنني أريد أن أعيش... أن أحب المرأة التي تستطيع أن تستمع لشكواي وتواسي دموعي!

وبأم عيني هاتين، رأيت سميحة تجمع حاجياتها... تلملم فساتينها... ملابسها الداخلية... أقلام حمرة الشفاه... قوارير عطرها... أحذيتها وصنادلها... نعم؛ بأم عيني هاتين رأيتها تضعها جميعا في شنطة ملابس كبيرة... ثم و بسبّابة يدها اليمنى تشير إلى المارد الواقف غير بعيد عنها والذي كان يراقبها وينتظر الإشارة من يدها، نفس المارد الذي حمّلته رسالتي إليها قبل سنوات خلت ، وأنا في فندقي بمدينة الضباب، وكنت وقتها في طريقي إلى هنا... !

كانت تبكي بحرقة تفتت الكبد وتمزق الوجدان... وكانت عيناها حمراوين كقطعة دم... فشاركتها البكاء، فبكيت وبكيت وبكيت ، حتى احمرّت عيناي أنا الآخر، فخيل إلي أن جسمي كله قد انصهر وتحول إلى دموع خرجت من مآقي عيني... لقد رأيتها تخرج من مسكنها في قلبي هي والمارد ثم غيبهما الظلام... تماما كما رأيت مرة في أحد الأفلام العربية جنياً يخرج من خنصر قدم المريض اليسرى، والذي كان مسكونا بجنية تعشقه بعد أن قرأ عليه الشيخ بعض التعاويذ والأوراد... وبأم عيني هاتين أيضا رأيت شيلا روبنسون تحمل حقائبها ويساعدها زوجها جيمس روبنسون... نعم شيلا روبنسون وزوجها، وبعد أن وضعا الحقائب على أرض غرفة قلبي، رأيت زوجها يشير إليها بيده اليمنى بتحية الوداع وهويخرج،

وبعد أن تأمّلتْ المكان هزت رأسها علامة الارتياح والموافقة وابتسمت بسعادة ورضا ثم فتحت حقائبها ونثرت حاجاتها، وصارت تضع كل شيء في مكانه وكأنما هي سكنت منزلا جديدا !

وهنا نهضت وصحت بسميحة بأعلى صوتي:

لقد صار لي ستة عشر عاما ونيف وانا احبك ياسميحة، ولم تغب صورتك عن مخيلتي ولا ساعة واحدة، ولا نسي لساني ترديد اسمك يوما ! لقد كنت وانا في الوطن، اتسقط اخبارك من صديقي شاهر، والذي كان يعرفها هو بدوره من والدته وأخواته، اما هنا فلا اجد من اسأله عنك، حتى جاء هذا المارد متطوعا واعلمني بانه سيكون سعيدا ان يحمل لك رسائلي الشفاهية ويحمل رسائلك لي ! حقًا لقد كان شهما ؛ اذ لعله وقع بالعشق يوما وجرب معاناة المحبين، فشفق على معاناتي ! لقد طلبت اليه ان يحمل رسالة إلى والدتي في الوطن فرفض ، بحجة انني استطيع ان ارسلها بالبريد، ولكن رسائلي لكِ لن يوصلها البريد إليكِ !

-أرجوكِ ... اجلسي! لا تذهبي! لا أريدك أن تغادري الآن...! تعالي... لا تذهبي... عودي إليّ... لم أقل لك كل ما أريد قوله... عودي ... إنني آمركِ أن تعودي ... عودي ... عودي ... قلت لكِ لا تذهبي ... عودي... عودي... وإلاّ فإنني سأدمرك... سأدمرك...! لقد صنعت منك إلهاً فعبدته، ووجدت أنك لست إلاّ صنماً ؛ فحطمته...! قلت ذلك و وقفت كالعملاق و أنا أرتجف كغصنٍ ليّن في مهب الريح ؛ ثم سقطت على أرض المطعم !

-يا سيدي! يا سيدي ! الساعة قد تجاوزت الثانية صباحاً، ولم يبق في المطعم من الزبائن إلاّ أنت! نريد أن نغلق الأبواب و نذهب الى بيوتنا ، فهل تتكرم غير مطرودٍ ... وتصبح على خير!

الفصل الثالث

-لقد تأخرت طويلاً يا سهيل ! لقد صار لي أكثر من ساعة متجمداً أمام الباب لم أبرحه، أنتظر قدومك! قال لي صديقي شاهر بامتعاض وبعصبية ظاهرة، و كذلك بقلبٍ محبط ؛ وهو يمدّ يده لتقابل يدي الممدودة !

-أتيت في موعدنا المتفق عليه كما هي العادة في كل يوم ! قلت مرعوباً قلقاً مخافة أن يكون قد حدث مكروهٌ لسميحة أو لهاله ، حبيبة شاهر ! .

-ولم تنتظرني أمام الباب والاتفاق بيننا دائماً أن تنتظرني داخل البيت وكالعادة ؟! سألت وعيناي ملهوفتان قلقتان حائرتان تحدقان بوجهه، محاولتان أن تخترقا جمجمة رأسه لتقرآ ما بداخلها !

-هذا صحيح ! قال بصوت أقل عصبية مصحوباً بابتسامة مصطنعة باهتة ! لعله أدرك قلقي ويحاول أن يطيّب خاطري وليبدو طبيعياً.

-لم أستطع اليوم أن أغفو بعد الغداء كعادتي، فقد كنت متوتر الأعصاب محبط القلب. ولما سألته السبب، أجاب بأن سوء تفاهم بسيط قد حدث بينه وبين أخيه الأكبر قد انتهى في حينه وإن كانت آثاره ما زالت تزعجه ! لقد اتهمه أخوه بأنه لم يبذل أدنى جهد لإقناع أفراد العائلة بما هو نفسه مقتنع به؛ ولو أنه فعل ذلك، بصدق وإخلاص وأمانة، لربما حاولوا تفهم عواطف أخيه، ولخففوا من حملتهم الشرسة ضده !

إحساس داخلي عميق وقوي ، أكّد لي بأن شاهر يكذب عليّ ويراوغ في الإجابة ؛ وأن ليس هذاهو السبب الحقيقي الذي دعاه ليقف أمام بيتهم ، في الزقاق العام ، ساعة كاملة ينتظر حضوري خصوصاً والسبب الذي ذكره صار لي أكثر من ثلاثة شهور أعرفه؛ ولكنني جاريت ادعاءه فسألته متصنعاً الاقتناع بما قال:

-وماذا قلت لأخيك؟ ألم تفهمه بأنه من شبه المستحيل أن تقنع أفراد العائلة بفكرة كهذه ؟!

-قلت له بأنه صاحب الشأن، وأنه هو الذي سيسعد أو يشقى، وما زال مقتنعاً بما يفعل، فليذهب كل المعارضين إلى الجحيم ! قالها شاهربغضب لاهب وقد ضرب قبضة يده بالهواء، وكأنما هو يتشاجر مع إنسانٍ آخر!

-ولكن لا تنس أن المعارضين هما الوالدان، وأنهما يهمهما كثيراً أمر ابنهما ؛ ثم أنهما يعرفان ما ينفعه وما يضره، أكثر مما يعرف هو نفسه !قلت بحماس واندهاش.

-حتى ولو كان الوالدان اللذان يجب أن لا نقول لهما أفٍّ وأن لا ننهرهما ! أنا أحبّ فتاة وهي تبادلني الحب... أنا مقتنع بها وهي مقتنعة بي... أنا واثق بأنها ستكون زوجة وفيّة وأم أولاد رائعة: فماذا يهمني من

الأخرين ؟! أجاب صديقي بتحد وغضب وتصميم أكثر من قبل. كان يتكلم بسرعة لاهثة !

كان صديقي شاهر قد أعلمني بأن أخاه ممدوح، مدلّه بحب مطلقة شركسية من سكان العاصمة، تعيش مع أمها الأرملة وحيدتين، وأنها تحمل له نفس العواطف، وأنهما اتفقا على الزواج؛ ولكن والديه وجميع أفراد العائلة الاثني عشر، أولاد و بنات غير مقتنعين بهذا الزواج ويعارضونه بشراسة قمعية ؛ ما عدا شاهر المتردد وصاحب الرأي المتقلب ! ثم أعلمني أيضا بأن والدته ، و منذ أن علمت بالخبر و هي محبطة و لا تنام الليل ، و أنه يخشى عليها أن تصاب بالجنون أو بالانهيار !

لقد كان الأهل يعارضون هذا الزواج لأكثر من سبب ؛ إذ كيف سيواجهون الأقارب والأصدقاء والجيران، وابنهم الضابط الوسيم الألمعي، المحبوب من جميع رؤسائه وأصدقائه ومن كل من يعرفونه، والذي ينتظره مستقبل مشرق مورد، وتتوقع عائلته بأن يصبح في يوم ليس ببعيد رئيساً لأركان حرب الجيش أو على أقل تقدير مساعداً له ! كيف سيتزوج حبة عين أمه، وفلذة كبدها، وفريد عصره ومعجزة زمانه؛ الشهم المقدام... من مطلقة سبق لها أن ضاجعها رجل... وليست عذراء، وهو الذي تتمنى كل عذراوات مدينتنا ، السلط ، الصامدة، بل وكل بنات العاصمة العذراوات، أن يكنّ خادمات عند قدميه، يتلقين أوامره وينفذن تعليماته ؟!!

إن زواج بهذه السن و هذه الوسامة و هذا المنصب ، بمطلّقة أو أرملة ، في مدينتنا الباسلة عارٌ لا مثيل له ! لِمَ يفعل هذا و جميع عذراوات السلط و عمّان ، بل و جميع مدن الأردن ، مملوءة بالحسناوات ذوات الجمال و الحسب و النسب ؟!

لقد أعلمني شاهر أيضاً بأن أخاه ممدوح استسرّ له يوماً، وهو في حالة حبور وجذل، بأنه يذهب أحياناً إلى بيت معشوقته تحت جنح الظلام ،حتى لا يراه أحد من الجيران ، فيجلسا معاً وحيدين، فيستطيع أن ينوّمها تنويماً مغنطيسياً، إذ يبدأ بالنظر في عينيها، وما هي إلا دقائق حتى تنام بين ذراعيه ، مأخوذة بوسامته ، و مبهورة بالنجوم و الأوسمة و النياشين التي تتلألأ على صدره و فوق كتفيه ؛ كطفل صغير !

-وما رأيك في هذه المقولة؟ سألت لأشجعه على الكلام، وإن كان عقلي الباطن ما زال يفكر بالسبب الذي دعا صديقي، لأن ينتظرني كل هذا الوقت في الزقاق العام...!

ـ كدت أعرض على ممدوح أن أرافقه لأسلّي وحدة الأم ولأشبع جوعها... إذ إنني سأنوّمها تنويماً مغناطيسياً وحقيقياً، ولساعات طويلة... ولكنني خجلت منه ! وصار صديقي يصف لي بدقة الجائع وتفنن المحروم، ما سيحدث بينه وبين الأم في غرفة النوم لو سمح الزمان واستطاع أن يخلو بها !

وتساءلت من يكون يا ترى الذي بداخله الذئاب التي تعوي؛ هل هي الأم الشركسية الأرملة، أم هو صديقي شاهر نفسه؟!

أحسست بشيء من الغضب، وبأن صديقي قد تجاوز في هذه المرة الحدود المتعارف عليها بيننا، فشاهر يعرف جيداً، أن الحديث أمامي عن المرأة وبهذه الطريقة المبتذلة، يثير قرفي وسخطي ويجرح إحساسي، وأنني لا أسمح بمثل هذا الكلام مطلقا ، حتى ولو اضطررت لفراقه !

كنا دائماً، نتحدث عن المرأة بصورتها الجميلة الطاهرة النقية؛ كأم وكأخت وكملهمة وكحبيبة عفيفة، ولكنني في هذه المرة شعرت بالغثيان وأحسست بأنه شوّه المشاعر الجمالية العذرية الرومانسية المسيطرة عليّ ؛ فأنا أذكر أنني ومنذ أن وعيت نفسي، وأنا أفكر وأعيش حياة نقية عذرية جمالية حالمة، وأنني كلما أفكر بالمرأة كجنس، أشعر بالقرف والغثيان...! هكذا تربيت وهكذا تعلمت منذ الصغر! ثم نمَتْ الفكرة وترعرعت وكبرت ، كلما ازدادت قرآتي لروائع الروايات العالمية التي كتبت في الفترة الرومانسية ، العربية و المترجمة إلى اللغة العربية ، من لغات اخرى !

لقد تأكد لي بما لا يدع مجالاً للشك بأن لدى شاهر مشكلة كبيرة وقد تكون خطيرة، إذ أحسست بأن صديقي قد فقد السيطرة على أعصابه وأن هناك أمراً هاماً، وأنه يريد أن يقول لي شيئاً خطيراً، وقد يكون مفجعاً، ولكنه لا يجرؤ على التصريح به لسبب لا أعرفه !

إن قصة عدم قيلولته بعد الظهر بسبب مشلكة أخيه لم تقنعني إطلاقاً، وانتظاره لي في الزقاق ساعة كاملة حيرتني وأقلقتني معاً، إذ كان الاتفاق المتعارف عليه بيننا ، أن أحضر إلى بيتهم بعد أن أصلي العصر بالمسجد ، فنخرج لنتمشى في الزقاق ذهاباً وعودة، علّنا وطمعاً أن نرى سميحة و ابنة عمها ، هاله ، أو إحداهما ! هذه هي حالنا منذ أن

بدأت العطلة المدرسية قبل أكثر من شهر، وهكذا أمضينا عطلة صيف السنة الماضية والتي قبلها ! نتقابل بحدود الساعة التاسعة صباحاً في بيت شاهر ونظل نروح ونغدو من أمام بيتهم وبيت سميحة وهالة، حتى يؤذن الظهر فنفترق، فأذهب أنا إلى المسجد لأصلي الظهر حاضراً، ثم أواصل سيري إلى البيت للغداء. وبعد أن أصلّي العصر في المسجد ، أذهب إلى بيت صديقي شاهر ونظل معاً بين بيتهم والزقاق وطريق مدرستنا والسوق وطريق البساتين حتى بعد آذان العشاء بقليل، يودع كل منا صاحبه على أمل اللقاء به صباح الغد. كان هذا هو برنامجنا الثابت والذي لا يتغير إلا في حالات طارئة ! فلم إذن يغير شاهر هذا البرنامج اليوم ، ويصرّ على الوقوف بالزقاق أمام بيتهم ينتظرني ؟!! إنه حقاً لشيء مقلق ومحيّر !

منذ أن تصافحنا، وقد مرّ على ذلك ما يقارب الخمس دقائق، وعينا شاهر لم تتحولا عن المنعطف الضيق المنحدر الذي يؤدي إلى بيتي سميحة وابنة عمها؛ وحتى عندما كان يضطر في بعض الأحايين للنظر إلى وجهي ليرقب تأثير أو انعكاس ما يقوله، فإنه يفعل ذلك للحظات، ثم سرعان ما يعود ليزرع عينيه هناك ثانية ! وفجأة أدرك عقلي الواعي أربع سيارات كانت تقف متراصة الواحدة خلف الأخرى غير بعيدة عنا، مزخرفة بالعديد من الأشرطة مختلفة الأحجام الملونة، إذ لم تكن تعرف مدينتنا بعد، تزيين السيارات بالورود والزهور... دلالة أن هذه السيارات تنتظر عروساً لتنقلها إلى بيت عريسها؛ ولا بد من أن يكون بيت هذا العريس في مدينة أخرى، وإلاّ فإنهم سيأخذون العروس سيراً على قدميها، أو راكبة على بغلة أو فرس...! هذه هي العادة في مدينتنا السلط العتيدة .

كان يحيط بالسيارات حشد من الصغار، بنين وبنات، يتدافرون ويتدازرون ويتزاحمون لمن يكون الأقرب إليها، والذي يستطيع أن يلمسها... برقة وحنّية... كما يلمس العاشق الولهان خدّي حبيبته الناعم ، وكانت هناك مجموعة أخرى من الصبيان الكبار، يحاولون حفظ الانضباطية والنظام؛ يصدرون أوامرهم وتهديداتهم و يهزّون خيزراناتهم ، ويمنعون الآخرين من لمس الزينة أو العبث بها !

إن الأطفال الذين يفرضون النظام و كذلك الذين يطبقونه جميعهم وجوههم معروفة لدي جيداً، حتى أنني أستطيع أن أسمي آباء بعضهم ، فأنا صار لي أمر من هذا الزقاق المقدس وهذه الحارة العتيدة منذ أن

استطعت المشي وإن كنت لا أسكنهما، وأمرّ بهما عشرات المرات في كل يوم ! إنني أراهم يلعبون بالزقاق في روحاتي وغدواتي، ولا شك أن الكثيرين منهم يعرفون اسمي، لكثرة ما رأوا سحنتي ومنذ أن ولدوا ؛ فشاهر وأنا صديقان وأبناء صف واحد منذ الصف الأول الابتدائي، ولا يمر يوم واحد لا نتقابل به ونروح ونغدو مرات ومرات، في أيام الدراسة أو أيام العطل !

لقد كان عقلي الباطن مشغولاً بمحاورة ومحاولة قراءة أفكار صديقي شاهر، ومعرفة سر إحباطه وقهره، وسر انفعاله و ثورته ؛ بينما كان عقلي الظاهر مشغولاً بالأطفال والسيارات وما يجري هناك من إعطاء الأوامر ومحاولة فرض النظام ... ولكن محاولتي معرفة سبب تصرفات شاهر، غيّب في عقلي الباطني، ولو مؤقتاً، رؤية السيارات المزركشة والأطفال والضجة التي تحدث هناك !

-ولم هذه السيارات المزركشة بالأعلام والأشرطة الملونة؟! خرج من فمي سؤال لم أحس بخروجه.

-إنه عرس ندى ابنة موسى المرشود، على ابن عمها في العاصمة. أجاب شاهر بسرعة للمرة الثانية وكأنما هو مطارد !

فعلاً، فقد كانت السيارات تقف أمام بيت المرشود، وأمام بيته وحده، تستطيع سيارة أن تجد لها مكاناً في هذا الزقاق الشديد الضيق، دون أن تعيق مرور سيارة أخرى !

-آه ! وأخيراً تزوجت وكفى الله عشاقها المعاناة وسهر الليالي ! قلت بحماس وصدق وعفوية وأنا أبتسم.

-نعم ، تزوجت ! اليوم اختلّ ميزان الكون وخرجت الأفلاك عن مسارها... وسيطرت على الأرض جيوش الظلام...! اليوم ستذرف دموع... وتنفطر قلوب... واليوم يا صديقي ستنهار أحلام وتتلاشى أمانٍ... اليوم هو يوم نواح وحداد؛ اليوم هو يوم الحزن الأكبر يا صديقي...! قال شاهر كأنما ينوح و هو على وشك ان يبكي !

استعذت الخالق من الشيطان الرجيم واستغفرت الله الأعظم من هذه الأفكار السوداء، واستغربت أن يصدر هذا الكلام الموجع المتفجّع عن خدن الروح وصديق الطفولة؛ فأنا واثق بأنه لا يحب بنت المرشود وإنما يحب هالة ابنة عم سميحة. فقد سقطنا في بحار الحب معاً... واقتلعتنا

أعاصيره سوية... واكتوينا بنيرانه اللاهبة، في نفس الوقت الذي وصلت به سميحة وهالة من العاصمة إلى مدينتنا ! وكم من الليالي الطويلة المحرقة قضيناها معاً... شاهر وأنا، نشتكي للنجوم لوعتنا واحتراقنا... ونبكي للقمر وجدنا وتمزقنا...!

-ولم كل هذا النواح والتوجد على معشوقة أنت لست واحداً من عشاقها المعاميد ؟ ! أم أنك محزون لأبناء زقاقك المتيمين بحبها ؟! سألت بسخرية وتشفي.

-في يوم المصائب الكبرى والنكبات الجلى، يبكي الجميع معاً... دموعاً ودماء... ولكن كل يبكي على موتاه ! قال شاهر وهو يهزّ رأسه يميناً وشمالاً بنغمة مزّقت قلبي وأدمت وجداني !

-لمَ تتكلم هكذا يا صديقي، وكأن التي ستتزوج هي هالة وليست ندى؟! قلت بحماس عاتب.

تجاهل شاهر سؤالي وتجنب النظر إلى عيني، وإنما أرسل بصره إلى حيث تقف السيارات المزخرفة والصغار الذين يتدافرون ويتدازون ! وفجأة قال:

لقد رأيت قبل نصف ساعة "بياتريس" و "شارلوت" تمشيان باتجاه تلة مدرستنا... أسرع لنلحق بهما...!

-صحيح !؟ سألت بفرحة طفل وجد أمه بعد أن أضاعها ؛ وقبل أن أسمع جوابه كنت قد أمسكت بيده وسحبته باتجاه التلة التي تقع عليها مدرستنا العتيدة ، مدرسة السلط الثانوية ؛ تلك التلة التي طالما شهدت ليالي نواحنا وبكائنا ... الطويلة ... الطويلة ؛ شاهر وأنا !

لقد كانت ندى المرشود فتاة مميزة جداً! كانت ذات أنوثة صارخة... متقدة... متأججة... مسعورة... وكانت كتلة من النيران الهادرة... المتحركة... المتنقلة، تشوي بلظاها كل من يمرّ بجانبها أو ينظر إليها... وخصوصاً الشباب المراهقين المكبوتين المسحوقين المسغوبين ! لقد كان كل رجل في الزقاق... بل في الحي كله... يحلم بجسم ندى المرشود... سواء أكان أعزبَ أو متزوجاً ! كان كل واحد يضاجع بخياله ندى المرشود عشرات المرات في اليوم... كلما قابلها أو كلما فكر بها...!

ومن في الحي كله لا يعرف ندى المرشود ؟! ومن في الحي كله لم يفتن بأنوثتها وسحرها ؟! كانت لها عينان كبيرتان واسعتان كعيني بقر

الوحش، وكان لها شفتان مملوءتان ناضجتان كحبتي ديفور خضاري في موسم الندى الغزير في سنوات الخصب والخير والعطاء... وكان لها صدر بارز مملوء يخيل إليك بأنه فاتح ذراعيه بشوق متأجج... ورغبة عارمة وتدله مضن... يدعوك للقيلولة والراحة والاستغفاء فوقه...! كانت رؤيتها تشعل النيران في الدماء الفائرة والعواطف المتلاطمة، وعندما تسلط عليك عينها... وتركز نظراتها على وجهك... تقسم أنت بمعتقدك وصلواتك، بأنها تريدك بعنف وضراوة... وتشتهي مضاجعتك بشوق عارم ورغبة محمومة...! هكذا تجعلك نظراتها تحس... !؟

لقد أحسست بهذا السعير أنا نفسي قبل أن تعطّر روحي نسائم حب سميحة العذري، وقبل أن يوقظ عبق شذى تألقها وتعملقها أحلام القلب الغافي الساهي... ! وكذلك فقد أعلمني شاهر وكايد ومجد، وسمعت الكثيرين يقولون مثل هذا القول ! إن لها طريقة عجيبة بالتسلط على القلوب، وخصوصاً الضعيفة الغرة والمحرومة من الحب والدفء والحنان الأنثوي... وما أكثر أصحابها في مدينتنا الصامدة الصابرة... والتفنن في إيقاظها وتحريكها وإلهابها... فتجعل طيفها يستبد بك وتجعل خيالها يستعبدك، وتجعل جسدها المتقد... المعربد... يثير الحرائق بدمك !

إن الحقائق كثيراً ما تختلط على بعض فتيان الحارة المساكين السذج الضعفاء، فيحلمون ويتوهمون ويقسمون أحياناً وقد يصدّقون بأنهم ضاجعوها، بمكان ما بين الغيوم وفي تلافيف السحب وفوق أغصان الشجر، فاستمتعوا بعطر أعطافها وحلاوة أنفاسها وتأوهات جسدها؛ فينشرون الأخبار بأنهم قضوا وطرهم منها؛ ولكنني أقسم بأن لا أحد منهم حتى قد لمس يدها، وليس السبب عفة فيها، بل على العكس من ذلك، إنها تمنى لو تضاجع كل واحد منهم وتقضي ليلة بين ذراعيه...! إنها شبقة... شبقة... شبقة... ولكن عادات وتقاليد وأخلاقيات الناس في مدينتنا تحرّم الاختلاط... لأنهم يعتقدون بأنه ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما... وتحارب النظرات لأنها تولد الرغبة وتثير الشهوة؛ ولا يسمحون حتى بالابتسامة... لأنها تشجع على الكلام الذي يقود إلى اللقاء، وفي كل لقاء امرأة مع رجل لا بد من أن يرتكبا الخطيئة الكبرى التي تخلد صاحبها في نار جهنم...! ثم إن مدينتنا محافظة... محافظة... حتى النخاع، ويعتبرون مكالمة شاب لفتاة في الشارع ، ممارسة لنوع من الممنوعات بل المحرمات...! إنه احتقار لقوانين العشيرة ، المقدسة و المطاعة !

أخذت وشاهر نلفح باتجاه تلتنا المقدسة، بعواطف محمومة وشوق مستعر ونفوس ملتاعة؛ تماماً كالحاج المشحون بطاقات دينية متجذرة جبارة... شوقاً ورهبة، يقصد مكة المكرمة... ولأول مرة ! لقد صار لنا ما يقارب الأسبوع، لم تكتحل عيوننا برؤية سميحة ولا بابنة عمها وصديقتها معاً... هالة... مما سبب لنا كرباً لا يوصف وإحباطاً مميتاً وألماً ممضاً ومعاناة قاتلة وضيقاً شديداً... مفجعاً... لدرجة الشعور بصعوبة التنفس حتى الاختناق...! لقد كنا نعيش حالات صراع مدمر خلال طيلة هذا الأسبوع وكانت معاناتنا أسطورية وتألمنا خرافياً، فقد كنا نحلل ونفسر ونؤول ونعلل...! أين من الممكن أن تكونا ولماذا اختفيتا !

لمت شاهر لانتظاره كل هذا الوقت ليخبرني برؤيتهما... ولمته أكثر، بل حيّرني وأذهلني عدم فرحته للعثور عليهما !!

–أين تظن كانتا ؟ ! سألته وخطاي تسبقان خطاه؛ ولكنه تجاهل سؤالي، وكان يسير بغير حماس ومعدوم الفرحة !

–هل تظن أنهما كانتا في العاصمة تزوران بعض أقاربهما ؟! سألت وموجة فرح تتراقص بداخلي ممزوجة بقشعريرة رهبة تسكن نفسي !

–قل لي يا سهيل ! وما نهاية حبك لبياتريس ؟! سأل شاهر بصوت وقور... متعب... أجش... لم أعهده فيه قبل اليوم .

شعرت بإهانة مذلة... ماحقة... مزّقت كبريائي وسحقت رجولتي وهزّت عواطفي ورخّصت حبي ومعتقداتي ! سؤاله ألجمني وأرعبني بل زلزل كياني، فقد أحسست كأنه ينبئني بحدوث فاجعة مروّعة، كأن يكون مكروهاً قد حدث لسميحة، إذ ليس هناك من فجيعة في اعتقادي ، إلا إذا كان لها علاقة بها !

–ماذا تعني يا صديقي ؟! سألته بجزع وعيناي تحفران جمجمة رأسه لقراءة أفكاره!

–أعني هل تطمع في يوم ما، أن تعرف هي أنك تحبها... أنها تبادلك الحب... أن تتزوجها ؟! وهنا حوّل عينيه ونظر إلى وجهي نظرات خلتها تأكلني وتتحداني !

–وهل تطمع أنت أن تبادلك هالة الحب وأن تتزوجها في يوم ما ؟! أجبته أنا بدوري بتحد وصلافة وخشونة، وكأنما لأردّ صفعته وإهانته لي !

السؤال الذي ألقاه عليّ شاهر، سألناه لأنفسنا وسأله كل واحد منا للآخر، خلال السنوات الماضية، عشرات المرات بل مئاتها، وكان جوابنا دائماً وأبداً، هو هو لا يتغير... ولم يدخل عليه أي تعديل أو تدبيل... وهو النفي المطلق... نفياً قاطعاً، لأكثر من ألف سبب وسبب، وكان أبسطها؛ إذ على الرغم من أن أربعتنا الآن في مستوى دراسي واحد، وأن أربعتنا بعد عامين سنتخرج من المدرسة الثانوية، إلا أن البنات عادة، وخصوصاً إذا كُنّ بجمال سميحة وهالة وبمركز كمركزي والديهما، واحد قاضي والثاني مسؤل كبير في وزارة المالية ! إنهما ستتزوجان حالما تنهيان الدراسة الثانوية، بل إن الكثيرات منهن لا ينتظرن حتى ينهيانها... بينما شاهر وأنا ما زال أمامنا طريق طويل جداً... من الدرس والسهر والكدّ والكفاح، ومن العرق والدموع... من ستة إلى عشرة أعوام من الآن، وقد تزيد كثيراً، قبل أن تدغدغ خيالنا مجرد فكرة الزواج، وقتها يكون عند سميحة وهالة من الأولاد العديد !

لم يكن لي خيار بهذا الحب، وإن كنت قد شعرت بأنني رأيت النور وأحسست بالحياة، ولأول مرة، يوم لامست نسماته تلافيف قلبي، وداعبت نغماته أعماق روحي، وسرى عبقه وشذاه في كل خلجة في كياني ووجودي ! أنا ما أحببت سميحة لأنني أريد أن أتزوجها؛ فهذا حلم مستحيل المنال حتى وإن أردت، والأسباب ضد تحقيقه، لا تعد ولا تحصى. إن مجرد تفكيري في ضمها وعناقها وتقبيلها، بل حتى مجرد التفكير في لمس يديها، وأقسم بالله العظيم ، يجعل كياني كله، يرتعش فرقاً وقرفاً واشمئزازاً من نفسي! إن سميحة بالنسبة لي، روح صافية... طاهرة... شفافة... تسبح في الفضاء وتحلق في أعالي السماء... إنها باقة ورد... ضمة قرنفل... زهرة ياسمين... أقحوانة ؛ لمسات اليد تذبل شبابها... تخدش شفافيتها... تعتّم لمعانها... تحدّ من تألقها... تكسر عنفوانها، تدنس نقاوة جسدها الطاهر العذري...!إنني أحبها كما يحب المعبود عابده، وأعبدها كما يعبد الوثني صنمه، لا يطمع كلاهما، إلا في رضاء ما يحبان وما يعبدان !

إن سميحة هذه نور رباني ... شعلة مقدسة ... تلبّست روحي أيام القلق والحيرة والضياع والتمزق ... أيام البحث عن الذات ! إنها زهرة فوّاحة قابلتها في صحراء الظمأ والسغب والحرمان والتيه...!

أعدت هذه الأفكار على مسامع صديقي شاهر ونحن ننهب الطريق إلى التلة الحبيبة... المقدسة... التي تقع عليها مدرستنا العتيدة، مدرسة السلط الثانوية ؛ والتي تنشر الآن فوقها سميحة، أريج أعطافها وعطر أنفاسها... سميحة حبيبة القلب وصنو الروح !!

لقد أعدت هذه الأفكار على مسامع صديقي شاهر، ربما للمرة الألف ؛ فأنا لم آت بجديد لا يعرفه؛ إذ طالما تحدثنا طويلاً عن هذه الأفكار وغيرها من الآراء والمعتقدات، ونحن في طريقنا من وإلى المدرسة، وفي الليالي المظلمة والقمرية أيضاً... في جلساتنا بين البساتين، وفي سهراتنا في الليالي الطويلة فوق تلة المدرسة وفي المحباصية أو فوق مزبلة وادي الريح أو في حارة الجدعة التحتى !

-إذن؛ ما الفرق في أن تعيش بياتريس في مدينتنا أو تذهب إلى العاصمة؛ وفيما إذا بقيت في بيت أهلها أو تزوجت ؟! وهل حبك لها سيتبدل ؟! يعني يزيد أو ينقص ؟! إن بياتريس بالنسبة لك، كما أعلمتني، هي فكرة... إلهة... معبودة... صنم... صورة... أوهام... خيالات... أحلام ؛ خلقتها في مخيلتك... زرعتها في وجدانك... ولدت في ضميرك؛ أنجبتها من رحم المعاناة... القهر... الإحباط... الشوق... الرغبة... الحرمان... العدم ؛ نميتها وضخمتها وكبرتها ثم أحببتها، وتفننت في عشقها والتدله بحبها؛ فلتظل في مخيلتك، تهيم بها، تتعذب في هواها، ولتذهب إلى أي بلد تريد ما دامت الصورة التي رسمتها لها في مخيلتك هي هي لا تتغير، تماماً كما يعبد المؤمن خالقه، يصلي له ويصوم ويشعر بوجوده، يحس دائماً بأنه معه، لا يفارقه، يراه، يكلمه كلما اشتاق لمكالمته، ويشكو إليه كلما أثقله الهم، ويبكي في حضرته كلما برّح به الشوق؛ دون اعتبار للمكان الذي يتواجد به أو يرحل إليه !! قال شاهر بتوجع !

-لم تعيد طرح هذا الموضوع الآن وقد ناقشناه عشرات بل مئات المرات خلال السنتين الماضيتين... ثم إنك تعرف رأيي به جيداً...أم أنك تحب أن تحاور على طريقة أفلاطون؛ تسأل نفسك وتجيبها لتبلور الفكرة وتتوصل إلى النتيجة ؟! قلت لشاهر بغيظ وغضب ممزوجين بشيء من الاشمئزاز والتحدي!

-آه ! ليتني أستطيع ذلك !قالها وزفر زفرة حرّى شعرت أن بعضاً من أحشائه خرجت معها !

-المهم ، ها نحن وصلنا التلة ودرنا حول المدرسة ولا نرى أثراً لبياتريس ولا لشارلوت، فهل أنت واثق بأنهما هما اللتان رأيتهما أم أن الأمور اختلطت عليك، بعد أسبوع من المعاناة والتمزق ؟!

-نعم، أريد أن أوصل لك الحقيقة قبل أن يأخذك الطوفان فتغرق ! أجاب متجاهلاً سؤالي !

-وهل توجد حقيقة غير التي توصلنا إليها منذ الشهر الأول على هذا الحب ؟!

-نعم، نعم، حقيقة لم نتحدث عنها من قبل إطلاقاً ! قالها بنرفزة وصوت عال وهو يضرب بشدة قبضة يده بالهواء، وكأنما هو " اسحاق نيوتن " يقول بعد اكتشافه قانون الجاذبية... وجدتها وجدتها "يوريكا " " !

-ولم تعتقد أن الوقت الآن هو الوقت المناسب للحديث عنها ؟! قلت بجزع ويأس وأنا أدير عيني بشوق ووله ولهفة ، أفتش عن سميحة في منحدرات التلة وحول أبنية المدرسة وبين الأشجار المتناثرة ؛ و لمّا لم يُجِب ، سألته ثانية.

-أرجوك قل لي، هل حقاً رأيت سميحة وهالة، أم أنك توهمت ذلك ؟!

وفجأة رأيت مجموعة من الناس جالسين ومطلين على وادي السلط ، الوادي التي تغطي أرضه بساتين التين والرمان وشتى أنواع الفاكهة والخضروات، فقلت بفرحة وقد بدأ قلبي خفقاناً خلته مزق طبلتي أذني وفجر صدري وسدّ طريق التنفس في حلقي وأنفي وأنا أرتجف !

-إنهما هناك تجلسان تحت شجرة صنوبر!

-إن ما تراه ليس هما ! قال شاهر دون حتى أن ينظر إلى حيث أشرْت.

-وكيف عرفت وأنت لم تنظر إلى ما رأيت؟! قلت بغضب وحدّة !

تجاهل شاهر سؤالي وغضبي... نهض وسار بالاتجاه المعاكس لما أشرت، وصار يذرع الأرض ذهاباً وجيئة، وعيناه تحملقان بالأرض ويضرب بحذائه الحصى التي يجدها أمامه، فأحسست أنه يفكر وأنه يريد أن يقول خبراً خطيراً ومهماً !

-لقد سمعت من والدتي وأخواتي بأن أم بياتريس قد أعلمتهن، بأن والد بياتريس لا يريدها أن تكمل الدراسة الثانوية ! وأخيراً قال !

-ولم لا يريدها أن تكمل دراستها الثانوية ؟! سألته بجزع وأنا أحملق به مرعوباً !

–لأنه يريد أن يزوجها ! لقد تقدم لخطبتها الكثيرون ! قال بسرعة وكأنما يلقي قنبلة !

–وهل تعتقد أن والديها سيزوجانها قبل حتى أن تكمل الدراسة الثانوية ؟! سألته ورعب يعصف بكياني !

لم يُجب شاهر على سؤالي، وإنما قال:

–انظر ما أجمل الوادي وما أروع خضرته، بين مجموعة الجبال والتلة التي تحتضن مدرستنا. إنه يوحي لي بقصيدة أنعى بها الأمل المفقود وأبكي بها الحب الضائع...! قال شاهر بنغمة تشبيب ممزوجة بآهة حزينة !

–ولكنك نظمت قصائد كثيرة بها ! قالت أختك بأن سميحة قد قرأتها ، كلّها ، وأعجبت بها ! قلت والرعب ما زال يسيطر على كل خلجة في كياني !

–إن بي الآن شوق مستعر وعاطفة محرقة ماحقة ، لأنظم قصيدة موّارة بالضياع والتمزق ، تختلف عن بقية قصائدي السابقة ! قصيدة أعاتب بها الأحباب الذين ما رعوا الودّ ولا حفظوا العهد... والذين نكثوا بالوعد وغدروا بنا فتركونا ورحلوا... ولم يتركوا لنا سوى الديار المقفرة التي تشاطرنا النواح ولطم الخدود ، وتشاركنا اللوعة والبكاء لرحيلهم والتي كانت دياراً !

كان شاهر في قمة الانفعال، يتكلم بصوت عال مؤثر، وكأنما يخطب في جمع حاشد بقصد إلهاب المشاعر، لتفجير ثورة ضد نظام حكم فاسد !

–أرجوك أفصح !لقد حطّمت أعصابي ! قلت بصوت راعش وأنا أحاول أن أطرد الخوف المستبد بي ؛ تماماً كالجبان الرعديد المأزوم، الذي ترعبه الظلمة ، فيصير يغني بصوت عال ليشجع نفسه ويطرد الخوف الذي يعصف بكيانه !

–منذ أن قابلتك وأنت تتكلم ألغازاً وتلقي أحاجي ! لقد هبّطت قلبي ونشّفت دمي وزلزلت كياني... ! قل لي بربك ما السرّ الذي تريد أن تبوح به ، ولكنك متردد في قوله ؟! وجدت نفسي لاشعورياً وتلقائياً أستعمل المترادفات البلاغية المؤثرة، وكأنما أنا الآخر ألقي خطبة نارية تحثّ الجماهير الحاشدة على الثورة ضد الفساد !

بدأ شاهر يلقي شعراً لم أسمعه قبلاً، ومن المؤكد أنه كان يرتجله، إذ كان يردد قول البيت مرتين أو أكثر. لقد كان يلقي قصيدته بتأن وتحسّر، وكأنما كان يتعايش مع كل بيت شِعرٍ يقوله، ومع كل كلمة يتفوه بها ؛ فإشارات يديه وتغيرات لون وجهه وتقلصات قسماته وانتفاخ أوداجه، وبحلقة عينيه تارة وانكسارها تارة أخرى، ثم إغلاقهما وفتحهما؛ يخيل إليّ أنه كان يعاني ويتألم ويتوجع ! كان وكأنما يقوم بعملية ولادة عسيرة ! لعله لم يتجاوز السطر الخامس أو السادس، حتى انفجر يبكي بصوت راعد... ! خلت الوادي السحيق الكبير ،وادي السلط العتيد، يردد رجع بكائه وصدى انفجاراته الوجدانية !

كان شاهر كلما نظم قصيدة أو أبياتاً من قصيدة، يسمعني إياها حالما نلتقي ويسألني رأيي فيها. هذه عادة صديقي شاهر منذ أن تعارفنا، قبل أكثر من عشر سنوات؛ وقد بدأ ينظم الشعر وهو في السادسة من عمره، كان بادئ ذي بدء شعراً طفولياً ساذجاً بسيطاً، ولكنه كان دائماً انعكاساً للعواطف والأحاسيس والمشاعر، وكان دائماً ترديداً وصدى للوجدان وخلجات القلب وتهياماً في جبال الرومانسية وصحارى الحرمان !

-ما هذا الشعر الحزين الموجع ، وما هذا الفراق المؤسف ورحيل اللاعودة التي تتحدث عنها ؟! قد يمر أحد ويسمعك فيظن أننا معتوهين! صحت به وأنا أصرخ ألماً وأخور كثور ذبيح !

-دع العالم كله يسمعنا ! لم يبق لنا ما نخاف عليه يا صديقي ! لقد فقدنا كل شيء ! أقول كل شيء ! قالها بإصرار وعناد وتحد. وبخطوات واسعة سار باتجاه الوادي السحيق ، وصار ينادي بأعلى صوته وبكل ما عنده من قوة "سميـ يـ يـ حا ا ا ا ه ! سميـ يـ يـ حا ا ا اه ! أعادها شاهر خمس مرات متواصلة ، فذهلت وصار الوادي يردد رجع صدى صوته ويردد بعده كلمة سميـ يـ يـ حا ا ا ا ه ! ا لله الله ويا سبحان الله !!

لقد كنا، شاهر وأنا، ومنذ الأسبوع الأول الذي تعرفنا به على سميحة وهالة، وحتى نخفي اسميهما عن كل من يعرفهما، نشير إلى الأولى بياتريس وإلى الثانية شارلوت ،فقد كان كل أصدقائنا وزملائنا وشباب الحارة والزقاق، جميعهم، يعرفون جيداً اسم ابنة قاضٍ كبير ومرموق... تلك الفتاة الارستقراطية، الطويلة، الشقراء، الفاتنة، ذات العينين الزرقاوين الأخاذتين، التي ترسل شعرها فوق كتفيها كأنه شلال من ذهب... والتي يصمت الشارع احتراماً تحت قدميها وهي تعبر فوقه،

والتي لا تلتفت يميناً ولا شمالاً في سيرها كأنما هي أحد حراس قصر "بكنقهام" في بريطانيا، لا يلتفتون يمنة ولا يسرة، ولا ترمش لهم عين ولا تنفرج لهم شفة ! فها هو شاهر الآن يعلن ميلادها، بكل صراحة وجرأة، ودون خوف أو وجل، من أعلى نقطة في مدينتنا الخالدة، ومن فوق منبر تلة مدرستنا العتيدة ، مدرسة السلط الثانوية ، أرفع منارة علم في بلادنا المحبوبة ، كلها !

-شاهر!! ما هذا؟! لماذا تفعل ذلك ؟! أجننت ؟!

-نعم يا صديقي جننت... وجننت... وجننت...! قالها بطريقة نواح وندب تفجّعية ، و هو يمطّ الكلمات و يترنّم بها !

- ـ وكيف لا أجنّ يا صديقي، وقد رحل الأحبة وصارت الدار تنعى من بناها ؟!

-بحق الشياطين! قل لي ما هي الحكاية؟! صحت به بغضب لاهب وقد فارقني صبري وخوفي معاً !

"ودّعتها وبودّي لو يودعني ، صفو الحياة وإني لا أودّعها !وكم تشفّعتْ بي أن لا أفارقها، وللضرورات حال لا تشفعني! وكم تشبثت بي يوم الرحيل ضحىً ، وأدمعي مستهلات وأدمعها ! استودع الله في "السلطات" لي قمراً، "بالجدعة" من حارة "الحدايدة" مطلعه ! "

كانت هذه بعض الأبيات المحوّرة والتي بدّلنا بها، شاهر وأنا، من قصيدة ابن زريق البغدادي، والتي وجدت تحت وسادته، يودع بها حبيبته، ولّادة بنت المستكفي؛ عندما وجدوه ميتاً في إحدى خانات بغداد ! لقد كنا نرددها معاً أو لأنفسنا، بطريقة ندبية غنائية تفجعيّة، عندما يشتد بنا الشوق ويهزنا الحنين وتهب في قلوبنا نيران الوجد، إلى من نحب ! ويا طالما رددناها ليلاً والظلمة تلف الكون، وبرد الشتاء القارس يلسع أجسادنا، ونحن نرقب نافذة غرفة سميحة من الحارة المقابلة ؛ ودموعنا تنزل كالسيل المنهمر !!

توقف شاهر عن ترديد كلمات قصيدة ابن زريق البغدادي، وتوقف معها نحيبه ونهنهاته، ونظر إليّ نظرة مكسورة... خجلى... حزينة... مثقلة بالهموم والأوجاح ؛ فهالني احمرار عينيه وتورم أجفانهما؛ فسألته، ولكن هذه المرة دون ثورة وبصوت هادئ ولهجة مؤدبة !

–هل لك أن تخبرني ما هي الحكاية؟ ! إنني أكاد أجن لهذه البلبلة التي وضعتني بها !

وكأنما سؤالي قد فتح جروحه وفجّر عواطفه وأثار كوامن ذكرياته من جديد، إذ بدأ يردد أبيات القصيدة الثانية والتي كنا نرددها ونتعزى بترديدها... والتي كثيراً ما كانت تزيد في تأجج عواطفنا وإلهابها...! كنا نرددها ليلاً ذهاباً وعودة، عشرات المرات، بين مدرستنا وبين بيت سميحة، أو أثناء سيرنا على طريق البساتين بين الأشجار الوارفة، أو نحن نجلس ليلاً في الظلمة أو في ضوء القمر، نشتكي للقمر وللنجوم لوعتنا، على مزبلة المحباصية ! قصيدة ابن زيدون المشهورة:

" أضحى التنائي بديلاً من تدانينا، وناب عن طيب لقيانا تجافينا ! بنتم وبنّا فما ابتلت جوانحنا، شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا ! تكاد حين تناجيكم ضمائرنا، يقضي علينا الأسى لولا تأسينا !حالت لبعدكم أيامنا فغدت، سوداًوكانت بكم بيضاً ليالينا ! "

–أرجوك ! كفّ عن هذا الهذر وقل لي ما هي الحكاية ؟! لم يبق بيني وبين الجنون سوى خيط رفيع ... رفيع ... ! صحت به بصوت أعنف من العاصفة وأقوى من الرعد !

–ماذا تريدني أن أقول لك يا صديقي... وماذا عساي أقول ؟! ثم اقترب مني ولفني وصار يطبطب على ظهري كأنما نلتقي بعد غياب طويل ! وجدت نفسي ألفّه أيضاً بطريقة عفوية تلقائية لاشعورياً ؛ ولما انتهى من عناقي صار يقول ولكن بصوت متعب أنهكه التوجد والتألم والبكاء:

–يوم قابلنا سميحة لأول مرة قبل ثلاث سنوات وأخبرتني بما شعرته نحوها، صدمت وذهلت ، فقد كنت يومها غارقاً في حبها متيّماً بهواها ، أحاول أن أشعرها بحبي لها واهتمامي بها ! لقد خبأت هذا الحب عنك، إذ كنت أريد أن أحتفظ بهذا السر الجميل لنفسي أنا وحدي ! وبدأ شاهر يضرب بيده اليمنى على صدره ضربات متتالية ترافقها ندبات نواحية يرددها فمه ويهتز لها رأسه يمنة ويسرة !

–لقد كنت قبلها بأسبوعين أقف وأخاها مروان، إلى جانب الحائط الواقع بين بيتينا، نتحدث كجيران جدد، عندما برزت من آخر المنعطف فتاة كأنها ملاك من ملائكة الجنة أو حورية من حورياتها ! أقبلت تتهادى كملكة متوجة، بكبرياء وعظمة ودلال ورقة...! يا الله كم هي رقيقة وناعمة ودافئة...! يا رب الكون كم هي جميلة وساحرة...! يا خالق الأكوان كم

هي مملوءة ندى وجاذبية ودلالاً!! وقد انسدل شعرها الذهبي الناعم على كتفيها كشلال خمر من أنهر الجنة!

كان شاهر يتفنن في الوصف، إذ يطلق عينيه تارة ويفتحهما تارة أخرى !

-ابتسمتْ وحيّتنا واعتذرت لمقاطعتنا... ثم استأذنت مني ، إذ قالت لأخيها بأن والدتها تريده بعد أن ينتهي من التحدث معي؛ ونظرت إليّ مرة أخرى ومنحتني ابتسامة ثانية كأنما تعتذر عن فعلتها وانصرفت ! ابتسامة لا أظن أن الله خلق أكثر منها حلاوة وسحراً وجمالاً! ابتسامة والله، رغم مضي سنتين، ما زلت أحس بحلاوتها في فمي وتحت لساني...! أما صوتها يا صديقي، وبدأ شاهر يضرب من جديد على صدره، ضربات ذات إيقاع ونغم، كأنما يندب حظه العاثر من الدنيا " فهو موسيقى ربانية تجعلك تحلق في الملكوت العليا... تتمنى أن لا تعود إلى الأرض... وأن تظل في حضرة الخالق وفي جنته تردد مع الملائكة والمؤمنين والصالحين... الله ! الله ! الله ! حتى يقف أمامك عمود من نور يصل الأرض بالسماء ! وعندما انصرفت، ولتشهد السماء، ورفع شاهر سبابة يده اليمنى إلى أعلى كأنما يشهد السماء على ما يقول "شعرت بأنها أخذت معها عقلي وقلبي، وأنها استولت على عواطفي ومشاعري وكل ما عندي... وبقيت متجمداً... مصعوقاً... أحدق بها، والمنعطف يغيبها في طياته! ثم التفت وحملق باتجاه بيت سميحة البعيد المختبئ خلف بيوت عالية ، وصار ينادي بأعلى صوته من جديد " سميحة ! سميحة !" وهنا ردّ إليّ صوابي فأحسست بألم ممزق وحب جارف نحو صديقي شاهر، فهرعت إليه وأنا أصيح به أن يسكت حتى لا يتجمع الناس حولنا، فينفضح أمرنا !

-المأساة حلّت والمسرحية انتهت ، فلم الخوف يا صديقي ؟! صاح بي بخاطر مكسور، ومن جديد صار يبكي، ولكن هذه المرة بتمهل !

لم تنسني تصرفات شاهر اليوم ، التفكير بما فعله معي خلال السنتين الماضيتين ؛ فحتى وهو يمر بهذه الأزمة العاطفية العنيفة، كنت أحملق به مشدوهاً مذهولاً، أسترجع بعض الأحداث، غير مصدق ما تسمعه أذناي ! شاهر يحب سميحة، نفس الفتاة التي أحبها أنا، وليست هالة ابنة عمها؛ الفتاة التي كان يدّعي حبها ! كنت دائماً أشكو له شوقي ومعاناتي ولوعتي في حب سميحة ؛ وكان هو بدوره يشكو إليّ هواه وشوقه وتولهه بحب هالة...! والآن ظهر أننا نحن الاثنين نحب نفس الفتاة ونتعذب في هواها !! يا لسخرية الأقدار ومهازل الزمن... ويا لي من مغفل أحمق... كيف لم ألاحظ ذلك، وقد قابلنا ونحن معاً، سميحة، آلاف المرات

؟! لقد قابلناها في الطريق في اليوم الواحد أحياناً أكثر من مرة ! أين الذي يقول "والصبّ تفضحه عيونه" ؟!

–ولم خبأت عليّ ذلك!؟ صحت به بصوت أجش وكأنما أنا أنبح !

–لقد كان يمزقني الألم عليك دوماً ! قال شاهر كأنما يخطب ليستدر عطف جمهوره !

–فأنا أعرفك منذ أن كنا أطفالاً وأنت دائماً تعيش مع الخيالات والأوهام، بين الغيوم وفي طيّات السحاب ؛ تتحدث دائماً عن الحب الروحي والحب العذري، والحب الأفلاطوني، وتفضل أن تعيش مع خيال من تحب تحلم بطيفه وتعانق الأحلام، وتهرب من لقاء الحبيب ولا تقبل حتى بملامسة يده ! قلت لنفسي، فليسعد صديقي سهيل مع خيالاته وأوهامه وأحلامه، ولهذا لم أغر منك بل شجعتك على مطاردة الخيالات والأحلام ! لقد أحببت أنت روح سميحة، أما أنا فأحببت روحها وجسدها... الاثنين معاً. أنت تنظر إليها حسب فلسفتك، وهي كما ينظر العابد إلى معبوده، والوثني إلى صنمه؛ أما أنا فأنظر إليها كما ينظر الرجل الشبق إلى المرأة الناضجة... يريد جسدها وكل كيانها... يريد أن يضاجعها ويعيش في أحضانها ! أنت تعيش في الخيال وأنا أعيش في الحقيقة والواقع !!

–أرجوك لا تتكلم أكثر يا شاهر ! سأستفرغ الآن ويغمى عليّ ! صحت به وأنا أرفع يدي أخبئ بها وجهي كأنما لأحتمي من عار ماحق !

–أنت تنظر إليها كما ينظر الفنان إلى لوحة زيتية أعجبته في متحف، يقف أمامها خاشعاً يتأملها مأخوذاً بسحرها ، وكأنما يتعبد في محراب حب الخالق ؛ أما أنا فأريد أن أعريها، وكل ذرة من جسدي الجائع الظامئ المحروم المسعور تشتهي جسدها الناضج الصارخ المشتهى، وتستعر شهوة لمعانقتها ومضاجعتها ! تابع شاهر دون اعتبار لرجائي له بالتوقف.

–كنت تنظر إليها كما كان العذريون الخوّافون الانهزاميون من أمثال مجنون ليلى وجميل بثينة وكثير عزة ينظرون ! كنت دائماً تتحدث عن ولهك وهيامك بروحها... بطيفها بخيالها ؛ وكنت تغضب مني وتثور وتتألم عندما كنت أصف لك مازحاً، امتلاء صدرها وبروز نهديها وجمال ساقيها وجاذبية شفتيها ! لقد كنت تريدها في الخيال والأوهام... أما أنا فأريدها في الحقيقة والواقع !إن حب الجسد يا صديقي لأقوى وأصدق من حب الروح؛ فالجسد حقيقة أمامك تراه وتلمسه وتلتقي به وتشبع حرمانك منه؛ أما الروح فهي خيال تضخمه وتكبره، فيطير منك ولا تستطيع أن تقبض عليه ! إنه كالغيمة... كالضباب... كالهواء... لا شيء، لا شيء، لا شيء يا صديقي ! أما أنا فكنت أنظر إليها كما كان يفعل عمر بن أبي

ربيعة وامرؤ القيس وغيرهما؛ يغرقون أنفسهم في أحضانها وبين فخذيها، أشرب من رحيق شفتيها حتى الثمالة، بل حتى أنفجر؛ وأقطف من ثمار جسدها حتى أفنى وأتلاشى! أريدأن أراها ترقص تحتي كالسمكة وتجأر كالثور المطعون !!

-ولم تقول لي هذا الآن فقط، عليك اللعنة؟! لقد اغتلت أحلامي وعهّرت خيالاتي وأوهامي سألته بغضب لاهب !

-لقد كنت والله ، أقول لنفسي في كل يوم أنني سأعلمك عندما نتقابل ؛ ولكنني أجبن لأن أصارحك بالحقيقة حتى لا أفجعك برومانسيتك وشفافيتك واحلامك !

قلت وقد قلدته خوار الثور وجئيره !!

-أستحلفك بحب شرلوت، أعني بحب بياتريس، أن تعلمني سبب إخبارك لي اليوم فقط؟! سألته وأنا شبه مخدر !

-لأن المأساة الآن قد حلّت... وإن المسرحية قد انتهت ! وصار شاهر يردد ويعيد كلمة "انتهت" حتى خيل إليّ أن الكون فعلاً قد انتهى وأن القيامة قد قامت، وأن يوم الحشر والحساب والعذاب قد بدأ...! وكلما أعاد ترديدها كلما ارتفع صوته واخشوشن، حتى خيّل إليّ أن الكلمات تخرج من جاروشة حصى وليس من فم إنسان، وظننت أنه سينفجر الآن أمامي كالبالون الذي تعبأ هواء أكثر من اتساعه ! قالها وهو يصّفق بيديه وكأنما يرقّص سعداناً أو يشجّع طفلاً على المشي!

-السيارات التي رأيتها يا صديقي لم تكن سيارات عرس ندى المرشود... هذه حيلة اخترعتها لتأتي معي إلى هنا... وإنما هي سيارات عرس سميحة ! السيارات الآن في طريقها إلى العاصمة تحمل سميحة إلى عريسها ؟! هل فهمت لماذا أحضرتك إلى هنا ؟! أنا لا أريدك أن ترى سميحة وهي في ثوب زفافها الأبيض، والمغنيات يغنين حولها وهنّ يزففنها ليوصلنها من بيتهم إلى حيث تقف السيارات المزخرفة. إننا لو بقينا في الحارة لكنا راينا كل شيء؛ ولقد ابتعدت بك إلى هنا لأجنّبك الصدمة التي كانت ستزلزل كيانك ! سميحة الليلة سيضاجعها إنسان لم يحبها ولم يتعذب بهواها... إنسان لم يسهر الليالي الطويلة يناجي القمر وينشد لطيفها الأشعار؛ وينظم القصائد للتلة والجبل؛ وبعد أن تنهكه العذابات يتكور في فراشه وتبلل مخدته دموعه ، كما فعلنا نحن طيلة السنتين الماضيتين... إنسان اختارها لتنجب له أطفالاً وتغسل له ملابسه...! سميحة الليلة ستتحول من وردة بيضاء يانعة... من سحابة شفافة... من كومة طهر ونقاء... من أغنية حلوة... من أنشودة وطنية...

من قصيدة شعر رقيقة... من باقة زهر فوّاحة... إلى.. إلى.. إلى لا شيء لا شيء لا شيء... هل فهمت...؟! أقول لك إلى أقل من لا شيء...!! وصار شاهر يجأر ويبكي من جديد... ثم يردد كلمة ، لا شيء... !

لقد أحسست كأنما ضربتني صاعقة، فصيرتني فحمة ثم رماداً، وهبت ريح عاتية أطارت الرماد في كل اتجاه، ثم انمحى كياني من الوجود؛ فأصبحت أنا الآخر، لا شيء !!

كان لساني قطعة خشب يابسة في فمي، حاولت أن أبلله بلعابي فوجدته جافاً، وحاولت أن أحركه فوجدته ميتاً... حاولت أن تنطق شفتاي فكانتا كقطعة من الإسمنت المكسر! تصورت ضربات قلبي المرتفعة المتتالية، تكاد تخرق حجب السماء ! تفوّه داخلي ببعض الكلمات ولكنها لم تجد شفتين لتخرج منهما، فماتت حيث ولدت !

كان شاهر يجعر ويخور كالثور المطعون النازف ، وكانت البساتين تحتنا تردد صدى خواره وجعاره ؛ وأحسست بأن الوادي السحيق ، الممتد الجنبات والشاسع الأطراف لبضعة كليو مترات ، بأشجاره المحملة بالفواكه وأشتاله النائخة المثقلة بكل أنواع الخضروات، كأنما نكّست رؤوسها حزناً على شاهر وتألماً له ، تشاركه المصاب وتتقبل عنه العزاء...! وتراءت لي جبال البلقاء الشامخة العتيدة العنيدة الصامدة، وقمم جبال جلعاد الرابضة الساهرة المتيقظة، يبكين حزناً وألماً ويصرخن توجعاً وتفجعاً، وتتراقص أمام ناظري، رقصات الترنح والسقوط بعد الذبح ؛ وأحسست بأن الظلمة الكثيفة الراعبة من حولنا قد بدأت تلفنا وتضغط على أجسامنا قليلاً قليلاً، حتى لم نعد نستطيع التنفس، وشعرت أنني على وشك الاختناق، واستبدت بي قشعريرة باردة تحفر في عظامي فصرت أرتجف بقسوة ، ثم مادت بي الأرض وزلزلت فسقطت مغشياً عليّ !!

* * * * *

عندما رأتني أمي داخلاً البيت، مغبّر الملابس منكوش الشعر، أصفر الوجه أحمر العينين، منهوك القوى، خائر العزيمة، مهدّم الجسم مرتعد الفرائص، أرتجف وعلى وشك السقوط، أبكي بصمت، تنساب فوق خدي دموع غزيرة متلاحقة؛ هلعت وروّعت، صاحت بي بجزع :

-مالك يا حبيبي ؟! ماذا جرى لك ؟! قل لي: هل اعتدى عليك أحد ؟! ما الذي أبكاك ؟! أمطرتني بهذه الأسئلة، وقبل أن تسمع جوابي انفجرت تبكي بهلع وهي ترتجف !

لا شك أن رؤيتي لها هي والشقيقات، وأسئلتها المتلاحقة لي، وقلقها العاصف عليّ، وجزعها واضطرابها؛ كل هذه الحالات مجتمعة، قد نكأت جروحي وأثارت كوامن ألمي فارتفعت حدة تنشيجاتي ونهنهاتي، مما زاد في هلعها وجزعها !

اقتربت مني وحملقت بعينيّ، وكأنما لتستفسر منهما عن الحقيقة؛ وبيديها الاثنتين بدأت تتفحص جسمي، وكأنما لتتأكد من أنني لم أفقد عضواً منه !

-قل لي من الذي اعتدى عليك ؟! صاحت بي.

-لم يعتد عليّ أحد ! أنا مريض. أنا بردان يمّه ! بردان... بردان ! أجبتها من بين دموعي ! و رميت بنفسي على أقرب مقعد !

-أنت لست مريضاً ! أنت معمول لك سحر... وأنا أعرف من هي التي عملته لك ! الله ينتقم منك يا جميلة يا بنت زانة ! ما بكفيكيش أنك أخذتي المال والحلال والأراضي والكروم ، بدّك كمان تموّتي لي الولد! يا حسرتاه ! يا قطيعتاه !

وبسرعة قياسية، وبمساعدة الشقيقة الكبرى أميرة، جهزت لي فراشاً، ونزعت عني ملابسي الخارجية وحذائي وجوربي ووضعتني بالفراش؛ وبمثل لمح البرق حملت صحناً من الفخّار وتوجهت إلى سدّة مصنوعة من الطين، خطفت من فوقها كيساً من القماش فتحته على عجل وملأت منه قبضتين "شعير مولد" وضعتهما في الصحن الفخاري، ودون أن تعيد رباطه ركضت نحو جرة كبيرة مملوءة بالملح الخشن كمشت منه قبضتين مزجتهما مع الشعير، ثم أشعلت بها النيران ! وضعت كوباً من شنينة اللبن المخيض في وعاء كبير، ثم وضعت فوقه أربعة أكواز من الماء؛ مزجتها جميعاً بيدها بسرعة مجنونة ! مزّقت أربع فتائل من قماش "خلقة" سوداء قديمة ممزقة لم تعد تلبسها، أغرقتها بصحن مملوء بزيت الزيتون. كوّمت كل فتيلة منها بزاوية من زوايا البيت، ثم أشعلتها بعود ثقاب ! وضعت بعض أعواد البخور فوق كومة من أعواد القش في منتصف أرض الدار، ثم أشعلت النار بها، خرج منها دخان كثيف ذو رائحة طيبة ! حملت وعاء المزيج بيدها اليسرى، وباليد اليمنى صارت ترش الخليط في كل جزء

من أجزاء البيت بسخاء وكرم، غير واعية ولا عابئة أسقط على فراش أو على إنسان، وهي ترقص كدرويش هزّه الحنين إلى خالقه وبرحه الوجد إلى معبوده، ثم فجأة دبّت الصوت، وصاحت بكل ما عندها من طاقة:

-يا ساااامعين الصوووت صلووو على النبي، أوّلكم محمد وثانيكو علي، وثالثتكم فاااطمة بنت النبي، المسلم يصلي على محمد، والمسيحي يصلي على عيسى، واليهودي يصلي على موسى؛ إللي شاف وإللي حس واللي دري واللي ضرب سهيل بن أمينه؛ خذو ملح زادنا ولا تأذونا ولا تأذو أولادنا، تبعدوا الضرر والأذى عن سهيل ابن أمينة بنت فلحا، دخيله عليكم وعلى عيالكم !

كانت تردد هذه الكلمات وهي تجوس خلال زوايا البيت وفي كل مكان به، وتنثر حبات الشعير والملح التي كانت تتساقط فوق رؤوس الحضور كحبات البرد!

-يمّااااه! غطّيني الله يخليكي! أنا ميّت من البرد! الحافين يمّه ما بكفّو، حطّي مفرش وبساط وبطانية فوق اللحافين كمان ! إسناني اتكسّرت من البرد يمّه، واعظامي تجمّدت وصارت مثل قطع الثلج ! أرجوكِ يمّه استعجلي، بحس روحي بدها تفارقني !

كنت أهذي بهذه الكلمات المحمومة، أرددها بطريقة تهويمية، هلامية... وبنفسية متشظية، وعواطف مهانة مسحوقة... وكنت أتوقف للحظات بين الكلمات، فقد كانت أصوات ضربات أسناني تتراقص فوق بعضها البعض كأنما هي حفارة تقتلع الصخور من جوف أرض صخرية !

-الدنيا عزّ الصيف يا ولدي واحنا ميتين من كثر الشوب ! ردّت عليّ والدتي وهي تنوح تارة وتبكي تارة أخرى وتضرب صدرها بقبضة يدها تارات... وجسمها يرتجف فرقاً وقلبها يتراقص هلعاً؛ تمزق شعرها وتخشّط خديها، مسرعة تلبي طلبي وتلقي فوق جسمي الراقص الثائر المرتجف كل ما يقابلها من أغطية !

-بس أنا يمّه بعدني ميّت من البرد ! أرجوكِ غطيني بكل اللحف والبطانيات والمفارش اللي عندنا ، وللا أنا رايح اتجمّد من شدة البرد!!

-إنت يا بنت يا أميره، اركضي نادي خالتك مشخص مثل البرق، الله يقطعك يا مشخص طول الوقت وانتي هون بس اليوم لما بدنا اياكي غبتي ! صاحت أمي بأختي الكبرى التي راحت قدماها تسابقان الريح !

-إن كانت مش بدارها بتلاقيها عند جيرانها دار سرو النبر. إسألي عنها عند أم الياس. لحق صوت أمي بأختي التي كانت هي الأخرى مرعوبة تبكي وكانت قد توارت عن الأنظار. ثم صاحت بأختي الثانية آمنة التي كانت ترتجف هي أيضاً ومتجمدة في مكانها، حائرة لا تدري ما تفعل وقد تيبست الدموع في مآقيها !

-نادي لي صبحا ورقية انت يا بنت يا آمنة، وقليلهم أمي بدها اياكن ضروري... هسّاع ... هسّاع ! وأسرعت آمنه نحو بيتي الجارتين القريبتين ` سكناً وصداقة، بينما كانت الأختان الصغيرتان، أمون ورفقة، صاحبتي الجدائل الأربعة المعقوصة فوق أكتافهما كأنها تيجان من ذهب تتباهيان بها، تلاحقان بعيونهما الحيرى وقلبيهما المسكونين بالخوف والقلق، كل حركة وسكنة تقوم بها الأم، غير مدركتين ما يجري حولهما ! وما هي إلا لحظات حتى كانت الجارتان تقفان حول فراشي، المكدس بكل ما في بيتنا من أغطية، تبحلقان بجسمي المدثر الراقص الراجف مذهولتين مشدوهتين ، تسألان عن الحكاية !

في المجتمعات البسيطة، جيران الإنسان هم أهله وعزوته وحماته، يلجأ إليهم عند الشدة ووقت المحن... ليأخذوا بيده وليؤنسوا وحشته وليطردوا خوفه ؛ وكلما تقدم الأنسان تكنولوجياً ، كلما استغنى عن هؤلاء الأهل والعزوة والحماة، وكانت حاجته إليهم أقل وأضعف؛ أو على الأصح، كلما ابتعد هؤلاء الجيران عن بعضهم وقلّت حاجة الواحد منهم للآخر ... ولهذا كان أول من خطر على بال أمي لطلب مساعدته ومشورته، بعد أختها، هما جارتاها العزيزتان صبحاء ورقية ! وكأن حضورهما الفوري واهتمامهما الشديد بي ولهفتهما عليّ، قد أطلق لسان والدتي وشجعها على الاسترسال مع عواطفها والبوح بأسرار العائلة التي كانت دائماً لا تحب الخوض فيها، وتتمنى عدم البوح بها، احتراماً لروح الزوج الحبيب، الشهم، الكريم الذي ما قصّر يوماً بأداء واجبه نحو عائلته، والذي ترك لهم الكثير الكثير، يحفظ ماء وجوههم من طلب مساعدة أي مخلوق مهما كان مركزه ومهما كانت ثروته !

-واويلاه!! واقطيعتاه! يا خراب بيتي وضياع دياري!نهبوا المال والحلال وكمان بدهم يموّتونا العيال! ما بكفيهم أنهم أخذوا كل ما عندنا كمان من حلال وعقار، دايرين ورا الولد بدهم يموتوه؟! ما بكفيهم إني أطلب من الناس وأضيّع ميّة وجهي عشان أعيّش أولادي بعد ما كنت المرأة المعززة المكرمة؟! وكان ممكن أظل معززة ومكرمة لولا طمعهم وقلة دينهم، الله يرحمه المرحوم تركلنا أراضي وكروم ودور وحلال وخيرات الله كثيرة لولاهم، جازاهم الله وانتقم منهم ! يا أبو خيمة زرقا، لا توخذ مني ابني، هوه اللي

امّلّي عليي حياتي...! هوه وأخوه وخواته؛ وإلا كان زمان أنا متت! أنا قبلت العذاب والشقا والذل والإهانة والبهدلة والمرمطة... كله على شانهم... لا تحرمني من سهيل يا رب! ثم أخذت تضرب بيديها الاثنتين، وبكل قوتها على رأسها ووجهها وصدرها، وتخشّط خديها وتمزق شعرها وملابسها ! يبدو أن صبر المرأتين قد نفد وهما تتابعان بقلق وحيرة ما تقوله المرأة دون أن يفهما سبب ما تقوله، فسألتاها شبه غاضبتين وبصوت واحد:

-قولي لنا ما الحكاية يا ام العبد ؟!

-لقد عملوا له سحر! بدهم اياه يموت علشان يحرقوا قلبي عليه حرق الله قلوبهم على فلذة أكبادهم. وين انت يا ابو خيمة زرقا، ياللي بتقاصص العميل من عميله وبتنتقم من القوي للضعيف وللمظلوم من ظالمه ؟! انتقم إلنا منهم. ظلمونا كثير كثير وصبرنا عليهم صبر النبي أيوب على بلواه! ما بدهمش ايانا نعيش مستورين! ما بكفيهمش اللي أخذوه منا، بدهم كمان يوخذوا مني الأولاد. أخذوا كل الأراضي اللي ابتنزرع وأخذوا كروم العنب والغرس كمان! ثم صارت تعدد على أصابعها: أخذوا الأراضي والكروم والفرس والبارودة وثورين البقر والبغلة والحمير والمعزى وحتى الفروة، وما تركوش إلنا إلا البيت اللي ساكنين بيه! وكأنما تذكرت شيئاً "حتى بيت الشعر أخذوه، ولو انهم تذكروا الجاجات والحمامات كان يمكن أخذوها!

لم تسأل الجارتان عمن يكونوا "هم"، لأنهما وكذلك بقية الجيران وقسم من الحي وجميع المعارف وحتى كثيرٌ من أهل البلد يعرفون قصة نهب عمي واستيلاءه على ما نملك بعد وفاة والدي بحجة أننا قصّر وهو وصي علينا... ! وبحجة أن والدتي ما زالت شابة وجميلة، وقد تتزوج يوماً فيأتي غريب ليستولي على الثروة، فاقترحوا عليها أن تختار واحداً منهم الثلاثة مع أنهم متزوجون ولديهم الكثير من الأولاد ليكون لها زوجاً ولنا أباً؛ غير أنها أكدت لهم بأنها لن تتزوج أبداً حتى ولو تقدم لها السلطان نفسه، فهي تريد فقط أن تربّي أولادها؛ عندئذ استولوا هم على ما ترك والدي وتركوها تربي أولادها!!

-وينك أنت يا رب ؟! أنت ياللي فوق بتشوف كل شيء! بيّن فيهم حتى يفكّو عنا ونستريح ! قالت وكأنها تستحث الخالق، سبحانه وتعالى، لينتقم لها وبسرعة، من ظالميها، لأنها ربما تكون قد شعرت بأنه تأخر بالانتقام، كما أنها شعرت باليأس والإحباط إذ أضافت:

-يبدو أنه نسينا !

-لا، لا يا ام العبد! أنت امرأة مسلمة صايمة ومصلية ومزكية وبتقولي هذا الحكي! حرام! حرام! استغفر الله العظيم وأتوب إليك. قالت الجارة رقيّة مستنكرة، وهي تهز رأسها يمنة ويسرة، بأسى وقلق!

-يمهل ولا يهمل! اللي عنده قريب! قالت الجارة صبحاء، بتأنٍ و ثقة!

-سامحني يا رب! أيوه، أستغفرك وأتوب إليك. قالت أمي وقد نظرت إلى أعلى ولعلها ندمت على تهمتها للخالق بالقصور والنسيان!

-واحدة من نسوانهم هيه اللي عملت السحر لأبني.هنه ما بخافنش إنه الله يموّت إلهن جيزانهن واولادهن ويتعذبن مثل ما اتعذبت أنا؟! قالت أمي وقد جددت البكاء بعد أن كانت قد توقفت قليلاً.

-هوه الظالم يا أم العبد بفكر بالموت والعذاب...؟!بالحلال والحرام...؟! بيوم الحساب والعقاب...؟! صدقيني كل ما بفكر فيه هو بس ينهب، ويقول لك؛ ويوم الله يفرجها أبو عبد الله!قالت الجارة رقية كأنما وجدت حلاً للمشكلة وأراحت ضميرها.

-اعمامكو ونسوانهم يا بنات بدهم يموتوا أخوكو. زوجاتهم عملت له حجاب حتى يموت لأني ما قبلتش أعطيكم إلهم! بدهم إخوانك يصيروا إلهم حراثين، وانتن اتصيرن إلهن خدامات، وأنا لازم أروح على بيت أبويا ! وتوقفت قليلاً ثم أضافت:

-زادوها والله يا رب زادوها ! انتقم منهم يا ابو خيمه زرقا واشفيلي قلبي بيهم ! الله أكبر! في عز القيظ الولد يرجف مثل الفقير الشايش ؟!

" أماه ! لم يعمل لي أحد سحراً ولم يكتب لي أحد حجاباً ! إن السحر الذي سلبني لبي هو ليس سحر المشعوذين، ولكنه السحر الحلال يا أماه ! " هكذا قلت في سري.

لاحظت ما يجري وعيناي نصف مغمضتين، وكنت أستمع لحديث النسوة وأنا بين اليقظة والغيبوبة، وجسمي يعلو ويهبط ويتراقص يميناً وشمالاً؛ فمنذ أن سمعت خبر زواج سميحة وبردية عاتية مدمرة تعصف بجسمي وتهز كياني ! حالة مماثلة ونادرة جداً، مارستها قبل ثلاث سنوات ولكن على مستوى بسيط جداً، إذ يوم قابلت سميحة أول مرة، شعرت بقشعريرة تهز كياني ! إن الفرق بين البرديتين يشبه الفرق بين هزة أرضية قوية تخسف الأرض وتصدّع الجبال وتهدّم المنازل وتقتلع

الأشجار وتقضي على الحيوانات؛ بينما الهزة الثانية تلقي الرعب بقلوب البشر!

–ما بدهمش إيّانا نعيش مستورين! أعطيتهم كل شيء ولكن بدهم يوخذو الأولاد كمان بالعصا وإلا بالعصية! وكأنما تذكرت شيئاً فصارت تبكي بدموع أغزر من السابق.

–الولد راح من البيت بعدما صلى صلاة العصر... كان ماشا الله مثل الحصان وخدوده حمر مثل التفاح !

–والله أنا شفته لما راح كنت واقفة قدام دارنا. رد عليّ السلام وقللي كيف حالك يا خالتي أم يوسف. وكمان ذكّرني بأنه لازم يروح يوسف على المدرسة ويتعلم القراءة والكتابة وما يطلعش عامي... هو دائماً يقللي، الله يرضى عليه، وأنا دايماً بقول لأبو يوسف ولكن أبو يوسف، الله يسهل عليه، دايماً بتهرّب وبقول بده واحد يساعده بالأرض ! قالت الجارة صبحاء.

–إبتعرفي يا أم يوسف ! قالت رقيّة وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة ساذجة، وكأنما تريد أن تكشف عن سرّ خطير !

–بعدما مرق وشافك أنا لاقيته بآخر الزقاق وقلت لنفسي ما شاء الله سهيل إشبوبية وجمال ونظافة؛ عمري ما شفت مثلهن، وهالمرة شفته أحلى من كل المرات الأولية وقلت لنفسي جارتنا أم العبد صبرت ونالت والله أكرمها بها الولدين، واحد موظف بالعاصمة والثاني ما شا الله عليه، غمضة عين وفتْحة عين وإلا هو الثاني موظف ! يمكن والله أنا صبته بالعين وحسدته! الله يلعن الشيطان؛ بس والله أنا ما نسيت، أنا قلت ما شاء الله!

توقفت أمي عن البكاء ولطم الخدود وقلع الشعر، وكأنما سمعت شيئاً أغاظها لا تستطيع السكوت عليه !

–سهيل ابنكن مثل يوسف وحافظ وناجي، وأنت مثل أمّه، والأم ما بتحسد ابنها ! أساساً الله ما يقبلش حسيدتها. قالت أمي مخاطبة الجارة رقية !

–ريّحتي بالي الله يريح بالك ! والله أنا من شفته مريض وأنا بفكر ممكن أنا حسدته وصبته بالعين ! قالت رقية بسعادة حالمة.

–اللي حسدنّه يا ولدي عليه، نسوان أعمامه!قالت والدتي بجزم لا يقبل الشك والمناقشة، وكأنما تقول لجارتيها إن الحقيقة واضحة وضوح الشمس !

-إحنا النسوان شياطين مكهنّة ما بقدرش علينا إلا اللي خلقنا ! مرّة وحده عملت سحر لشب ما كانش هوه بحبها، ظل يذوي المسكين حتى مات يا حسرتي عليه! قالت صبحاء بيقين وثقة.

-يعني ولدي بموت ؟! صاحت أمي مذعورة من أعماق وجدانها وبكل ما عندها من طاقة؛ وبدأت من جديد تضرب وجهها ورأسها والدماء تنزف من خديها الغائرتين النحيفتين.

-إيش هالكلام يا أم يوسف ؟! فال الله ولا فالك؛ هذا حكي بنقال؟! قالت الجارة رقية معاتبة ولائمة جارتها صبحاء؛ وشعرت الجارة صبحاء بأنها فعلاً قالت شيئاً ما كان يجب أن تتفوه به، فسكتت مكسوفة نادمة !

عادت الشقيقة الكبرى لتعلن فشلها بالعثور على الخالة مشخص، لا في بيتها ولا عند الجيران، وأن الجارة أم إلياس نفسها سافرت إلى العاصمة صباح اليوم لزيارة ابنها الموظف هناك.

لعل ذكر العاصمة والابن الموظف، ذكّرا والدتي بابنها هي الأخرى، الموظف في العاصمة، فقالت بندب وتفجّع:

-وينك يا كريم يا ولدي؟ يا ريتك موجود عندنا الآن وتشوف إيش سوّوا أعمامكم ونسوانهم بأخوك! همه بغاروا مني أنا الأرملة، أرسلتكم للمدرسة تتعلموا وهمه الزلام ما ودّوش أولادهم للمدرسة، وطلعوا كلهم جاهلين وعاميين مثل أبّهاتهم، طلطميس ما بعرفوا الجمعة من الخميس!

أما أنا فكلمة العاصمة قد زلزلت كياني من جديد، فقد تحولت البردية القوية إلى حالة يأس واكتئاب شديدين، إذ فجّرت عواطفي، فصرت أبكي وأنهنه بحرقة ماحقة، مما أطلق عنان الشقيقات الأربعة في بكاء علني ومفتوح، سرعان ما انضمت إلينا صبحاء ورقية، فصرنا نبكي نحن الثمانية كأننا في مأتم !!

-يمااه ! قلبي بنطنط مثل الديك المذبوح ! صرخت ألماً وقد شعرت بضيق في التنفس يكتم أنفاسي ! يمّه بده يهرب ويلحق ببياتريس إلى العاصمة ! ما بقدرش يمه أعيش بلاها! أنا بختنق يمه...، روحي ابتطلع يمّه! وبكل قوتي ألقيت بعيداً بما عليّ من تلال الأغطية ! يمّه: بدي أمووت، ما بقدرش أعيييش يمه! حياتي ما بتسواش إشي بلا بياتريس يمه ! أرجوكي! ومن جديد تشنجت أطرافي وجحظت عيناي وصرت أهتزّ من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي !

-ومين هيه هايه بوطريس يا ولدي ؟! هيه اللّي عملت لك السحر؟!! هيه اللّي بدها اتجننك واتموتك؟!! قلّلي وما تخبيش علي! أنا أمك يا روح أمك! هيه إللي أطعمتك الطُعم؟! إشوه بدها منك يا حبيبي! انت إشوه عامللها؟!! قوللي وريّح قلبي يمّه!

ولما لم تجد جواباً لأسئلتها صاحت بأعلى صوتها وبملء فمها:

-الله ينتقم منك يا بوطريش! ورفعت يديها ونظراتها إلى أعلى وصاحت:إلهي يلوّعك على أولادك ويحرمك من جوزك مثل ما لوعتيني على ابني! إلهي يرملك حتى تعرفي قديش بتتعذب وتتبهدل وتتهان الأم اللي بموت جوزها! إلهي وانته جاهي انتقم من بطوريس بنت آدم وحواء بجاه حبيبنا محمد وستنا فاطمة الزهراء! ثم كمن تذكرت شيئاً، فوضعت يدها على جبيني ودبّت صوتاً أرعب جميع الموجودات كأنما لتعلن وفاتي:

-ابني بهذي يا نسوان! ابني إنجن! السحر جعله يفقد عقله! جبينه بحترق مثل الجمر المشتعل، مثل المشيدة! وصاحت بأختي أميرة:

-هاتي ميّه وخرقة خليني أسوي لأخوكي كمادات، اركضي!!

في تلك اللحظات تقدمت الجارة صبحاء والجارة رقية ولمستا جبيني، ولعلهما تبادلتا نظرات الذهول والاستغراب والحيرة، فقد كان جبيني حقاً شعلة متقدة، وكانت عيناي حمراوتن كالدم!

خطفت الجارتان وعاء الماء والخرقة من يدي أختي أميرة، وخلال لحظات كان ماء الكمادات يبلل شعري ورقبتي وقميصي والمخدات التي أضع رأسي فوقها!

-آه ! الآن إتذكرت يا بنات الحلال ! والله الواحد صار ينسى من كثر مشاكل الحياة ! صاحت الجارة صبحاء فجأة، وكأنما وجدت كنزاً بعد طول انتظار وبحث !

-كيف أنا ما إتذكرتش هذا دغري؟!! ويلي عليك يا صبحا! والله إنه الواحد خرفن؛ خرفنته مشاكل الدنيا !

كانت والدتي والجارة رقية وأخواتي الأربعة، ينتظرن بصبر نافد إن تفصح الجارة صبحاء عن هذا السر الخطير الذي تذكرته فجأة، إذ كانت عيونهن مسلطة على شفتيها كأنما يردن أن يسحبن الكلمات من على لسانها قبل أن تنطق بها شفتاها !

–قبل سنتين بالزبط ومثل هالأيام، صار مع ابني يوسف مثل ما صار مع سهيل تماماً. كان يا روحي واقف مع أصحابه قدام الدار، واجى يركض وهوه بُرجف مثل الغَرفة وقال يمه أنا ميت من الصقعة غطيني. والله يا ولدي حطيت عليه كل الغطا اللي عندنا بالدار وما دفي ولا توقفت الراجوفه! قعدت على رجليه وقعد أبوه على نصه وما وقفت الراجوفه مثل سهيل هسّاع. ظلّت بيجي ساعتين وهيه بتهز فيه وإحنا اتجمدنا من الخوف والتجمنا وما عرفناش إشوه انسوي غير إنّا نعيط وبعدين الله شفق علينا وبطّلت الراجوفه لحالها. ثاني يوم بنفس الوقت رجعت له، وظلّت تقريب الساعتين. ظلت على هالديداب لمدة شهر ويمكن أكثر، بعدين نصحونا نوخذه على الحكيم طنوس، قال الحكيم هايه ملاريا. أعطاه دوا إلها ومن هذاك اليوم لهذا اليوم ما شاف وجهها ! الله يسهل عليك يا حكيم طنوس ويطول عمرك ويخليلك أولادك ومرتك !

–معناه فيه خوف إنها ترجعله بكره مثل هالوقت؛ قالت الجارة رقية بتأييد وهي تهز رأسها من أعلى إلى أسفل.

–فلازم توخذيه بكره من الصبح على الحكيم؛ وإلا أقلك، انت ليش ما تروحي على الفرمشية وتقولي لأبو هشام بدران ، ابني معه ملاريا ، أعطيني حبوب الملاريا وانشا الله يكون فيه الشفا. قالت وهي تضرب يديها ببعض، كأنما تنفض عنهما غباراً، دلالة على أن المشكلة قد حُلت وانتهت !

–جبتيها والله يا أم يوسف! أنتِ كلك فهم وعقل! قالت الجارة رقية بسعادة!

–أنا بتذكر القصة كويس كأنها هساع ! قالت أمي بغيظ كأنما تستغرب من سذاجة الجارتين وجهلهما!

–بس ابنك كان بالغور وشرب من ميّة السيل وميّة السيل مش نظيفة وكل إللي بيشربو منها بتصير معهم ملاريا وما بطيبوا إلا إذا أخذو حبوب الملاريا. ابني ما راحش على الغور ولا شرب من مية السيل... ابني معمول إله سحر وأنا بعرف مين اللي عملته ! ابني بدّه شيخ يفكله السحر مش فرمشاني يعطيه حبوب. إلهي يبين بإبنها الوحيد. كل اللي عندها ولد واحد ما بتخاف الله يوخذه منها ويلوّع قلبها عليه؟!

وفجأة صار جسمي يتصبب عرقاً، فابتلّت ملابسي، كأنما أنا متواجد في إحدى مناطق خط الاستواء!

-الحُمّة صارت تروح؛ لما الواحد يجدّه العرق بعد السخونة، معناه إنه صار يطيب ! قالت الجارة صبحاء بفرح وبلهجة الواثقة و هي تبتسم جذلى !

-بكفي بكا يا أم العبد! عميتي عيونك. إنتي عملتي العجايب بنفسك.ليش بتفولي على ابنك فال شين؟ حرام عليكي يا شيخة. قالت الجارة رقية.

-إشّوه بظللي من الدنيا إذا راح قطعة هالولد ؟ ! أخوه يا حسرتي عليه وحداني، مالهوش حد، مقطوع من شجرة ، أعمامه وأولاد أعمامه لو يطيب لهم يقبروه غد من الصبح !

وكأنما فكرة موتي قد زادت في إلهاب عواطفها، فصارت تولول وتنوح بحماس أشد من قبل وبصوت أعلى!

لاحظت أن شقيقاتي الأربعة جالسات حول فراشي يبكين بصمت، وكانت عيونهن حمراء كالدم مما زاد في ألمي وضاعف من حزني وتمزقي!

-أنا لازم أودي طارش لأخوه في العاصمة بكرة حتى ييجي بسرعة قبل ما يصير له مكروه ! قالت والدتي ودموعها تسفح بغزارة.

-أنا ما بقدر أتحمل المصايب لحالي. على الأقل هوه رجّال وبعرف يتصرف !

-إيش هذا يا أم العبد ؟! قالت الجارة رقية معاتبة مستنكرة.

-مجرد إنه الولد يمرضله مرضة بسيطة تودي تطلبي أخوه ؟! انتِ مش عارفه إنه رايح يقلق ويهكل الهم ويمكن يسوّي بحاله إشي؟! فال الله ولا فالك يا وليّه ! هيه شده وبتزول! قالت وقد طوّحت بيدها اليمنى بعيداً، وكأنما لتبعد هذا الفأل السيّء!

-إنتي مر عليكي مصاعب ومشاكل كثيرة كثير، الولد الآن صار معه نتفة بردية تفقدي عقلك ؟! ارحمي المسكينات بناتك اللي هلكن من العياط ! حرام عليكي يا شيخة!

لا شك بأن رجاء الجارة رقية لأمي بأن ترحم بناتها، قد شجع الشقيقات جميعهن على كسر حاجز الخجل الذي كن متمترسات خلفه، إذ انفجرن يبكين بصوت عال وكأنهن عاصفة انطلقت فجأة !

مزّقت حالتهن كبدي وزادت في تهييج عواطفي؛ فأحسست بأني وصلت درجة من الضعة والضعف والخور والتعاسة والذل، ليس دونها مهبط، فجّرت ينابيع أحاسيسي وزادت في إلهاب مشاعري، فصرت أبكي بصوت عالٍ أنا الآخر... وأحسست أن البردية بداخلي قد بدأت تخبو قليلاً قليلاً، ولكن نشيجي ارتفع حتى صار يتردد في جميع أرجاء البيت !

–حرام عليك يا خالتي يا سهيل تعمل بأمك وأخواتك هيك. إنته موتتهن وموتتنا معاهن من الخوف ،أنا وأم يوسف ! قالت رقية عاتبة.

–والله أنا متت برب القدرة، نتفة سخونة بتسوي بحالك هيك ؟!

وفجأة أحسست بشوق محرق وحنين ممزق لرؤية أخي كريم، وتمنيت لو أني أستطيع أن أراه الآن وأبكي على صدره وأقول له أسباب بكائي، فقد كان بمقام والدي، وكان دائماً متفهماً لمشاعري وعواطفي وأفكاري ! شعرت بمحيطات من الحب نحوه، ثم أخذت أبكي بصمت أحسست بعدها كأن دموعي نارٌ تغلي وهي تنزل من أجفاني !

ـ بكره الصبح ،إن شاء الله ، رايحه أسري على الشيخ عفيف يعمله حجاب ويفسخ عنه السحر. لولا إنه الدنيا ليل كنت روحت هساع. هوه قللّي إنه ما بحب مراجعته بالليل وإنه الملائكة لا تفسخ السحر إلا بالنهار! قالت أمي بثقة، وهي تهز رأسها وكأنما تطمئن نفسها !

–الصباح رباح ! قالت الجارتان مؤكدتان ومطمئنتان وقد وجدتا الحل للمشكلة.

–أنا بحلفه بالله والنبي محمد وبالنبي يوشع إنه يعمله حجاب قوي يفك السحر عنه باللحظة.

–وسطيله زوجته تمام. هو بحبها وبحترم رأيها وبسمع إلها، وكمان هيه بنت حلال وبتحب مساعدة الناس ! قالت الجارة صبحاء.

–الشيخ بحب الحلو كثير ! الزبيب والخبيصة والقطين بموت عليهن. قالت الجارة رقية.

–هذا بالشتا؛ الدنيا الآن صيف والناس بعدها ما سطحتش. وضّحت الجارة صبحاء.

–بوخذ له اللّي بيه النصيب وإن شاء الله يكون راضي. قالت أمي مطمئنة.

في هذه اللحظة وصل إلى آذاننا صوت المؤذن ، من المسجد الصغير ، يدعو الناس إلى الصلاة.

ـَ يلله قوم إمسح وجهك بالرحمن. قوم اتوضا وصلي العشا، وما تنساش تقضي المغرب." قالت أمي وهي تمسح دموعها بطرف ثوبها الأسود وتحاول أن تتكلم بطريقة طبيعية.

–الولد تعبان !خليه يصلي بالبيت وما فيه حاجه يصلي بالجامع !قالت الجارة صبحاء.

–معك حق. قالت أمي والجارة رقية معاً.

"آه يا أماه لو تعلمين مابي، أنتِ أيتها المرأة العملاقة الطيبة المتفانية ! إن ما بي مرض عضال ميؤوس من شفائه، اسمه الحب ! لن تنقذني منه جميع حجب الشيخ عفيف ولا كل حبوب ملاريا أبي هشام ! إن له عقاراً واحداً فقط، هو رؤية سميحة المستمرة؛ ورؤيتها يومياً بعد الآن من مستحيلات هذه الدنيا العاتية ! سيظل ابنك مريضاً بحب سميحه حتى آخر يوم له على هذه الدنيا ! هكذا سطّر القدر في لوحه المحفوظ!!!"

وهكذا مرّت سنوات وسنين، وحب سميحة، ونكهة عذريتها، وصبابات أحلام أيامها ولياليها، ظلّت إلى اليوم، إلى الساعة هذه، تنخر في عظامي، تختلط بدمي، ترقد بين تلافيف قلبي، تتحكم بعواطفي وتفكيري ومشاعري... بكياني وبقائي ووجودي؛ تلهو بترف ودلال وتألق وتفنن... تصرخ وتزأر وتعربد... بنزق واستبداد وانفعال ومجون !!

أثناء صلاة العشاء، وأنا أقف بين يدي الخالق، كنت أشعر بأني مخذول... مسحوق... ممزق... ومهزوم... فلم تكن قراءتي للقرآن، كعادتي دائماً، تجويداً وترتيلاً، ولا كانت تفكراً وتأملاً وتعمقاً؛ ولم تكن طلباً لغفران المعاصي والتسامح والتغاضي عن الذنوب والخطايا... ولا كانت طلباً للتوفيق بالدنيا والرحمة بالآخرة... كما كنت أفعل في كل صلاة؛ وإنما كانت نزيف قلب، وحشرجات روح، وأنّات مكلوم، وآهات مذبوح، ومرارة محبط مقهور! كانت حيرة عابد، وشكوى عاشق، وعتاب مؤمن وتساؤلات مخذول مصدوم !!

أنا لم أغضب من سميحة، فهي لم تبادلني الحب، ولم أعتب عليها، فهي لم تشعر حتى بوجودي وأنني خلقت، وإن كنا نتقابل في الشارع في كل يوم، كما يتقابل الغرباء... وإنما كان عتبي وحزني، على نفسي التي حلقت بعيداً في الخيالات والأوهام ، وتصورت أن حبي لسميحة سيمنحني ديمومة الدفء والسعادة، والأمان والحلم الجميل!!! لقد خذلتني أوهامي، وخيّبت أملي ورجائي،حتى صحوت على واقع مرير صدمني، وعذّبني ومرّغ بأحلامي وأوهامي التراب ، فصرت أرجو رحمة الله وشفاءه، وأسأله أن يهبني هديه وهدايته !؟

كانت رسالة عذاب وألم وشكوى من المخلوق الذي ظلمته نفسه بأوهامها وأحلامها وتهويماتها؛ وكانت ابتهالات رجاء إلى الخالق بأن يرحمه !

كنت مكسور الخاطر، مهيض الجناح، أشعر بالضياع وأحس بالغربة، بعد أن كنت أعيش في أمن وأمان واطمئنان، تحت جناح حب سميحة الوارف الظلال، العابق بأريج الرحمة والمحبة والسلام!!! كانت دموعي الغزيرة المحرقة، تمتزج بكلمات القرآن الكريم، فتزيدها غزارة وكثافة وتلهبها اشتعالاً ولظى ونزيف دم قلبي، ونهنهاتي وتوجعي، كلها تختلط بكلمات القرآن؛ وكانت نكهة الدموع الطفولية تلهب المشاعر وتؤجج العواطف وتسكر الروح !! اللهم رحمتك وغفرانك، أولاً وأخيراً !

وقفت لأصلي العشاء، ثم بسطت يدي أمامي ورفعتهما إلى أعلى، وأنا مهدم الجسم مرتعشه، مشتت الأفكار مسحوق النفس... ! وقفت بقلب مجروح نازف... ودمع مسفوح محرق... وعواطف مخذولة ممزقة ! وقفت لأصلي وطلبت من الخالق ، جل وعلى ، أن يترفق بحالتي وتمزقي ومذلتي... وأن يرحم ضعفي ويأسي وتشردي... استرحمته أن يصبرني على محنتي ومأساتي وخذلاني... ورجوته بحرارة وتدله ومذلة ، أن يأخذ بيدي ويهون من مصيبتي وضياعي... ثم بعدها استغرقت في الصلاة حيث التحمت بالخالق، فنسيت نفسي وما حولي...!

لا أدري كم مضى من الوقت عندما صحت فجأة بأعلى صوتي ومن أعماق وجداني، وجسمي يرقص كالطير الذبيح؛ ثم خرجت أجري خارج البيت وأنا أردد:

"يا ويلاه ! يا حسرتاه ! يا مصيبتاه ! ويا ضياعي ! لقد جننت وفارقني عقلي ! رحمتك اللهم وعفوك وغفرانك... ارحمني يا الله ! لقد تصورت نفسي وأولاد حارة الجدعة الفوقا حيث بيتنا ، متكئكئين من حولي ، يزفونني كما يزفون عريساً مساء ليلة دخلته ، وهم يصفقون بأيديهم وألسنتهم تردد ... مجنون سميحة... مجنون سميحة... وأنا أهرب منهم وهم يجرون خلفي ويطاردونني من شارع إلى زقاق ومن زقاق إلى حارة ! كما تصورت نسوة حي الجدعة وهن يخاطبن جاراتهن ويشرن إلي متحسرات: هذا هو مجنون سميحة ! يا للمسكين ! لقد فقد عقله ! لقد صرت أبكي بهستيريا وتفجع !

إنني كلما أمعنت التفكير بحالتي، كلما تبين لي حجم المأساة وهولها ؛ فازداد عويلا وازداد تفجعا ! لقد توصلت إلى حقيقة، لا شك بها، وهو أنني فقدت عقلي، وأنني انضممت إلى زمرة المجانين !

خرجت من البيت مهرولا وأنا أصرخ بأعلى صوتي ، فَهرَعتْ إليّ والدتي وأخواتي يسألنني سر تفجعي بعد أن ظنن أنني قد هدأت؛ ولكنني تابعت سيري باتجاه بيت سميحة، دون أن أستجيب لطلبهن ؛ ولما اقتربت منه توقفت عن الندب والنواح ولكن دموعي الغزيرة والمحرقة استمرت في الهطول !

إن الذي أثار شجوني من جديد ، والذي جعلني أعتقد بأنني قد فقدت عقلي حقاً ، هو أنني بعد أن قرأت سورة الفاتحة وبدلا من أن أقرأ بعدها سورة أخرى، كسورة قل هو الله أحد، أو قل أعوذ برب الفلق، أو أي سورة أخرى، فقد وجدت نفسي أقرأ بدلا منها، قصيدة ابن زيدون الشاعر الأندلسي، والتي نظمها في حبيبته "ولادة بنت المستكفي" بعد أن هجرته ورحلت عنه !

أضْحَى التّنائي بَديلاً عنْ تَدانِينَا، ... وَنَابَ عَنْ طيبِ لُقْيانَا تجافينَا
ألاّ وَقَد حانَ صُبحُ البَينِ،صَبّحَنا ... حَيْنٌ، فَقَامَ بِنَا للحَيْنِ نَاعينَا
أنَّ الزَمانَ الّذي ما زالَ ... أنساً بِقُربِكم قَد عادَ

يُـضحِـكُـنا يُبـكـينـا

غِيظَ العِدا مِنْ تَساقِينا بِـأنْ نَغَـصَّ، فَقـالَ الدهر

الهوَى فدعَوْا آمينـَا

فَـانحَـلّ مـا كـانَ وَانْبَـتّ مـا كـانَ مَـوْصُولاً

مَـعـقُـوداًبـأَنْـفُسِـنَـا؛ بأيْدِينَا

وَ قَـدْ نَكُـونُ، وَ مَـا فاليومَ نحنُ، ومَا يُـرْجـى

يُخـشَـى تَفَرّقُنـا، تَلاقـينَـا

بِنْـتُـم وَبِنّا، فَمـا ابـتَلّـتْ شَوْقاً إلَيكُمْ، وَ لا جَفّتْ

جَوَانِحُـنَـا مآقِينَا

نَـكـادُ، حِـينَ تُنَـاجِـيكُـمْ يَقـضي علَـينـا الأسَـى

ضَمـائـرُنا، لَوْلا تأسّـينَا

حَالَـتْ لِـفـقـدِكُـمْ سُوداً، و كانتْ بكُـمْ بِيضاً

أيـّامُـنـا،فغَـدَتْ لَيَالِينَا

ليُـسـقَ عَـهـدُكُمْ عَهـدُ كُـنْـتُـمْ لأروَاحِـنَـا إلاّ

السّـرُورِ فَـما رَياحـيـنَـا

لا تَحْـسَبُـوا نَـأيَكُـمْ عَـنّـا أنْ طـالَمـا غَـيّرَ الـنّـأيُ

يـغيـّرُنـــا؛ المحِـبّـيـنَـا !

وَاللهِ مَـا طَـلَـبَــتْ مِنْكُمْ، وَلا انصرَفتْ عنكمْ

أهْـواؤنَـا بَـــدَلاً أمانينَا

إنْ كان قد عزّ في الدّنيا في مَوْقِـفِ الحَشـرِ

اللّقاءُ بكمْ نَلقاكُمْ وَ تَـلْـقُونَا

لا أكْؤسُ الرّاحِ تُبدي مـن سِيّما ارْتياحٍ، وَلا الأوْتـارُ

شمائِلِنَـا تُلْـهِـينَـا !

عندما وصلت إلى الزقاق الذي يقع عليه بيت سميحة، توقفت عن الندب والتفجع كما توقفت عن البكاء، ولكن دموعي لم تتوقف عن النزول وعواطفي قد اشتد أوارها !

وصلت إلى الزقاق الذي يقع عليه بيت سميحة وتطلعت باتجاهه فوجدته مظلما وتراءى لي وكأنما كان مجللاً بالسواد! لقد تصورته هو الآخر بأنه كان مثلي يبكي ويتوجع لفراق الأحباب !

اللعنة ! اللعنة ! لماذا خلق الله العشق ؟! عشق المرأة ؟! ولم وضع بي كل هذا المخزون الهائل من العواطف والأحاسيس ؟! ولماذا لم يجعله عشقا إلهيا فقط فيجنبنا لوعة الفراق والهجران ؟!

فكرت أن أقرع باب صديقي شاهر المجاور لبيت سميحة ، ولأطلب إليه أن نتحدث فيواسي بعضنا بعضاً، ولكن صديقي قد يسخر مني فعدلت عن الفكرة !

انحرفت في سيري إلى اليمين ودخلت الزقاق الضيق والذي يقع عليه بيتا سميحة وهالة فقط. جلست تحت إحدى نوافذ البيت فقد كان خاليا من سكانه ، لأن الجميع قد ذهبوا مع العروس إلى العاصمة ! لقد كنت أردد في سري بعضا من الأشعار التي أحفظها بالإضافة إلى قصيدة ابن زيدون؛ أشعار ينفث بها قائلوها آهاتهم وزفراتهم توجدا وتوجعا على فراق حبيباتهم!

لقد بقيت أفعل ذلك وعواطفي لا تكف عن التمزق والتوجد والغليان ، وعيناي لا تكفان عن ذرف الدموع ! لقد بقيت أفعل ذلك طيلة ساعات الليل ولم أتوقف إلا عندما سمعت مؤذن المسجد، يرفع أذان الفجر، و هو يشق عنان السماء ، تهجداً و تعبداً ، وهناك توجهت إليه !

لقد كنت وأنا أسمع الإمام يرتل القرآن ، ثم و أنا أرتِّله مرات و مرات ، في سري ودموعي لم تتوقف عن النزول وعواطفي لم تنقطع عن الغليان؛ لقد تساءلت في سري، من أين لي كل هذا الكم الهائل من الدموع ؟! وهل أحيانا ينصهر جسم الإنسان من شدة الألم ومن قساوة المعاناة، فيذيب جزءاً من لحمه وعظمه فيحولهما إلى دموع تنزف تماما كما ينزف منه الدم؟! إذا لم تكن هذه هي الحقيقة، فمن أين لي كل هذه الأنهار من الدموع الغزيرة التي تذرفها عيناي ؟!

* * * * *

الفصل الرابع

كانت الساعة حوالي السادسة عصراً، وقد بدأت حدة لهيب الصيف اللافح تخف قليلاً، وبدأت نسمة باردة منعشة تهب برفق وتدخل من نوافذ شقتي، فترطب جسمي وتدغدغ حواسي فأشعر بانتعاش لذيذ وراحة حالمة...! كنت أستعد لمغادرة شقتي ولأقود سيارتي وأذهب إلى الشاطئ، كما كنت أفعل في كثير من الأيام التي لم تكن عندي بها محاضرات مسائية أو التزامات شخصية! كنت أوقف سيارتي قرب البحر، ثم أتمشى هناك قبيل الغروب حيث يكون الشاطئ عادة شبه خال من الناس! كان يحلو لي بل يسعدني كثيراً السير حافي القدمين فوق الرمال... أغرس فيه قدميّ حيناً، وأضرب الماء حيناً آخر... أسير تارة وأجلس أخرى، وأقف في كثير من الأحايين... أرقب كتلة الشمس الملتهبة كأنها عاشقة... مراهقة... عذراء... تتفجع على فراق حبيب سيغيب إلى الأبد؛ تغيب خلف الأفق الحزين الكئيب...!

كنت في كثير من الأحايين أجلس ساعة الغروب فوق حجر أو على صخرة... وأدخل باتحاد عاطفي مع الشفق البعيد، أحدّق بعيون مسعورة... تائهة... ضالة... ولمدة طويلة... أبحث فيها عن أطياف الأحبة، وأفتّش عن الأهل وأسأل عن الوطن... ولا أفيق من غيبوبتي الهلامية إلا وصدري العاري قد خضبته الدموع المدرارة، فتنتقل حمرة الشمس الملتهبة إلى عيني الحمراوين المشتعلتين...!

كنت قد صفقت الباب خلفي وابتعدت خطوتين اثنتين فقط، عندما سمعت الهاتف يرن بالداخل! حاولت أن أمنع نفسي من العودة، فقد تربيت منذ الصغر، أن لا أعود إلى البيت قبل أن أذهب في مشواري وأحقق هدفي، إذ إن العودة ثم الخروج بعدها رأساً تجلب الحظ السيء والسفرة الفاشلة! في هذه المرة كذبت المقولة، فلم أجد نفسي إلا وأنا أفتح الباب وأجيب على الهاتف:

–ما أخبار الشرق الأوسط اليوم ؟! وكيف معنوياتك وأوضاعك النفسية؟!

–أهلاً بالسيدة روبنسون ! كم جميل ومفرح أن أسمع صوتك ! قلتها وقد ازدادت دقات قلبي ابتهاجاً.

-جيمس وأنا على وشك أن نتناول العشاء، ونتمنى لو تستطيع مشاركتنا !!

-وهل تعنين الليلة ؟! سألت وأنا ما زلت مأخوذاً تحت وقع المفاجأة.

-نعم الليلة ! وهل تعشيت ؟ ! أجاب الصوت الحنون.

-لأقول لك الصدق، لا، ولكن....

-ولكن ماذا ؟ سألتْ السيدة روبنسون بإصرار وحزم.

-ولكنكما لم تعطياني وقتاً لأهيئ نفسي !

-تهيء نفسك لأيّ شيء؟! للأكل؟! حتى الأكل يجب أن تتهيأ له؟! سامحك الله كم أنتَ دقيق ومنظم! قالتها ببساطة ثم ضحكت بدلع...!

أحسست في تلك اللحظة وكأنما أختي الكبرى، أميرة، تخبرني بصوتها العابق بحنية الأم، بأن الطعام جاهز ! صرت أستعيد تلك اللحظات السعيدة الغابرة وأعيشها بمتعة الصوفي ، المغرق بالصوفية ...!

-إذا تعشيت تأكل الحلويات معنا... وإذا لم تتعش ، نتعشى معاً ما على المائدة... لن نضيف طعاماً جديداً... كل ما نفعله نضع صحناً ثالثاً ! قالتها ببساطة وصراحة !

-ولكنني أريد وقتاً لأستعد...لأحلق ذقني وأغير ملابسي...

-تعال كما أنت... أسرع قبل أن يبرد الطعام. نتوقع وصولك خلال ربع ساعة إلى اللقاء ! وأغلقت السماعة.

في طريقي إلى بيتهم مررت بدكان لبيع الزهور واشتريت سلة من القرنفل، قدمتها للزوجة التي فرحت بها وشكرتني !

-لا أريدك أن تشعر أنك في كل مرة تحضر إلى بيتنا للعشاء أو للحلويات يجب أن تحضر معك شيئاً ! قالت.

-لا، اطمئني! سأفعلها بالمناسبات فقط! قلت.

بعد العشاء مباشرة، وقبل أن تبدأ الزوجة بإخلاء ما على المائدة لتأخذه إلى المطبخ، دعوتهما لتناول الحلويات في الخارج.

-وماذا عن " الأبل باي " الذي صنعته شيلا؟ ألا تحبه؟ إنه ما زال في الفرن ساخناً! قال السيد روبنسون بلهجة استغراب.

-هذه إهانة لي يا سهيل! معنى ذلك أنك لا تحب طبخي وأنني طباخة فاشلة!! قالت الزوجة بلهجة عاتبة ولكنها تضجّ بالأنوثة والرقة!

-عفواً! عفواً! أنا لا أعني ذلك! كنت أظن ذلك فرصة للخروج! قلت مرتبكاً خجلاً، وإن كنت في الحقيقة أعني نوعاً من السداد!

-إذن أنت تتضايق من وجودك في بيتنا! قالت الزوجة بدلال ممزوج بالعتاب.

-نحن لا نأكل في الخارج إلا في عطلة نهاية الأسبوع. قال الزوج وأتبعها بضحكة.

-العزّاب هم الذين يأكلون في الخارج كثيراً! قالت الزوجة وهي تضحك!

لملمت عواطفي المنسابة وأخفيت دموعي المتدفقة وفتحت فمي لأعبّر عما يخالجني وأشعر به نحوهما، ولكن الزوج سبقني!

-أما أنا فليس هناك عندي أكل في العالم كله ألذّ وأشهى من طبخ حبيبة القلب شيلا!قالها ونظر إلى زوجته وكأنما يعانقها بعينيه المتدفقتين حباً!

-شكراً يا حبيب القلب، إن هذا يزيد من سعادتي!قالت الزوجة وقد احمرّت وجنتاها وازداد وجهها بهجة وإشراقاً.

-صدقاني أنني لم آكل طعاماً أشهى وألذ مذاقاً من أكلكما، منذ أن تركت الوطن الحبيب! قلت صادقاً ونفسي تزخر بشتى العواطف والانفعالات! ثم استرسلت وقد هيّج الحنين أشواقي إلى الأهل والأحبة والوطن.

-ولم أحسّ بطعم السعادة العائلية الصميمية منذ أن فارقت عائلتي إلا في بيتكما!

-نحن سعداء جداً جداً أنك تشعر بهذا نحونا، وتكنّ لنا كل هذه المشاعر الجميلة! قالت الزوجة وظلال بالرضا تغطي وجهها وإحساس بالسعادة يشع من عينيها !

-أنت إنسان نبيل جداً ومرهف الإحساس و شهم يا سهيل... لا يستطيع من يعرفك إلا أن يحبك ويحترمك ! قال الزوج وهو يُطبطب بيده اليمنى على ظهر يدي اليسرى.

هزني حنين طاغ إلى الوطن ، فصار جسمي كله يرتجف كالطير الذبيح تحت عاطفة شوق عنيفة إلى من فيه... وازورّ حلقي بدموع تكاد تخنقني، فخفت أن يخونني ضعفي أمامهما... ! استأذنت ونهضت مسرعاً إلى الحمام لأتخلص من بحور متلاطمة من العواطف تجيش داخل صدري...!

بعد عودتي من دورة المياه كانت المائدة قد أفرغت من كل ما فوقها، ووجدت السيد روبنسون جالساً في غرفة الجلوس؛ ولاحظت أن زوجته كانت تضع بعض الأوعية المعبأة بالطعام في الثلاجة وتفرغ بقايا الأكل من الصحون في كيس بلاستيكي أسود للقمامة. رحّب الزوج بي وأشار إليّ أن أجلس على كنبة قبالته وتجاذبنا أطراف حديث شامل عن المأكولات والاقتصاد والمنتوجات ومواضيع شتى متفرقة؛ ثم جاءت الزوجة وانضمت إلينا واتسع نطاق الحديث، فدخلنا في السياسة ثم الأدب والفن، فهالني إلمام الزوج واطلاعه على شتى المواضيع في مختلف بلاد العالم على الرغم من صغر سنه!

-كان من سوء حظكم أنتم العرب، أنكم كنتم كالمستجير من الرمضاء بالنار، فقد حاربتم الإمبراطورية العثمانية التي استعبدتكم باسم التوحيد، وأذلتكم تحت راية القرآن، وتاجرت بكم باسم الإسلام، ومزقتكم تحت بيرق الله أكبر؛ مع أنها في حقيقتها وجوهرها وصميمها، دولة طورانية مستبدة شعوبية !

-إنها اليوم عميلة الغرب الأولى ومدافعة عن مصالحه وسياساته التعسفية... وصديقة إسرائيل الحميمة... ومن أشد أعداء الإسلام والعروبة! قالت الزوجة.

-ويوم انتخب الشعب التركي بالوسائل الديمقراطية إنساناً متزناً وملتزماً، كرئيس للحكومة، جعل أولى أولويات حكومته هي مصلحة تركيا العليا، أقاله العسكر وجردوه من حقوقه السياسية لمدة خمس سنوات، بحجة المحافظة على النظام العلماني، مع أن الحقيقة هي المحافظة على مصالح الغرب وإسرائيل ! قلت.

–لقد حاربتموها لتتخلصوا من العبودية والظلم والقمع والتجهيل والتجويع... لتقعوا تحت إمبراطورية شر أخرى، أكثر شراسة وأعتى قمعاً وأكثر تمرساً بالخبث واللاأخلاقية...! فبالإضافة إلى أنها عدوة جميع شعوب العالم الثالث ، إلا أنها العدوة الأولى للأمتين العربية والإسلامية ! إنها هي التي أوجدت فكرة، فرّق تسد، فمارستها بوحشية وعلى نطاق واسع، وخصوصاً في فلسطين، ونجحت نجاحاً باهراً بسبب تخلف الحكّام وجهل الشعوب !إنهاالمسؤولة عمّا حلّ بعرب فلسطين من قتل وتشريد، وهي التي مزقت البلاد العربية إلى دويلات ومشيخات؛ ثم هي التي نهبت خيرات الأمة العربية وثرواتها واستعبدت شعوبها، كما أنها سبب البلاء الذي حدث بين العراق والكويت !

لم أعلق بشيء احتراماً لشعورهما، فأنا عربي ما زلت أحتفظ بواجبات الضيف نحو مضيفه؛ وإنما اكتفيت بالنظر إليه وابتسمت؛ ولا شك أنه فهم معنى ابتسامتي لأنه أضاف:

–إنك تريدأن تسألني؛ والآن ونحن قد حللنا مكانهم، فهل نحن بأحسن منهم حالاً؟! وأقول لك بكل الصدق والأمانة، لا وألف لا ! صدقني إنني كثيراً ما أشعر بالخزي والعار لكثرة ما ترتكبه الإدارة الأميركية من ظلم وقهر ومخازي ! أنا لست الأميركي الوحيد الذي يشعر بهذا، فشيلا تشاطرني هذا الشعور، ومئات الآلاف من المثقفين والواعين يعتقدون ذلك !

–إن ما يقوله جيمس صحيح ! لقد سمعت الدكتور إليوت ينتقد بقسوة ومرارة... سياسة الإدارة الأمريكية ويصفها بالقذارة وباللاأخلاقية؛ وكذلك سمعت نفس القول من دكاترة يزورونه والمراجعين الذين يأتون عيادته ! قالت الزوجة وهي تنقل عينيها بين زوجها وبيني.

–الآن وقد أصبحنا القوة العظمى الوحيدة في العالم، بعد أن تخلى ما كان يسمى بالاتحاد السوفييتي عن قيمه ومعتقداته وباع نفسه لنا وأصبح دولة عادية... صرنا نحن، وبكل غطرسة واستعلاء...نسيطر على دول العالم ونتحكم بمقدراتها وخيراتها وأرواح أهلها ومصيرهم!

–إن العظمة الحقيقية الصادقة والأصيلة، هو أن تمتلك نية الخير والعدل والمساواة وحب الآخرين واحترامهم ومساعدتهم؛ وليس أن تمتلك أدوات التدمير والقتل؛ ولا أن تكون وسيلة ظلم وقهر وابتزاز وخداع؛ بل أن تكون وسيلة عطاء ونشر المحبة والإخاء! قالت الزوجة بهدوء وصوت خفيض، ثم نظرت إليّ ولما وجدتني أحدق بها مفتوح الفم مذهول العقل استطردت:

–في جميع بلدان العالم ذات الشعوب المتحضرة، فإن الحق والقيم والمثاليات والأخلاق والخير والعدل وغيرها وغيرها... هي قوة للإنسان ونظام معيشي للحياة الجميلة السعيدة... إلا في مفهوم إدارتنا، فإن ما يحكم هذه القيم هي شريعة الغاب والاغتصاب..! إن المكاسب المادية عندها هي أهم بكثير من الإنسان وحقوقه وقيمه وطموحاته...!

لقد بدت لي شيلا روبنسون وهي تتكلم، خليطاً متحركاً من البلاغة... والحكمة... والذكاء... والأخلاق... والرقة والنعومة والتهذيب والحساسية والشفافية...!

–الله! الله! رائع يا سيدة روبنسون!كلام جميل وعظيم مثلك! لقد سحرتني والله ببلاغتك، وسلبت عقلي بمنطقك وذكائك! صحت لا شعورياً بأعلى صوتي وقد فقدت السيطرة على أعصابي، فنهضت من على الكنبة ووقفت في وسط الصالة وصرت أهزّ بيدي اليمنى كأنما أنا متفرج يشجع لاعب كرة قدم، معجب به، وقد سجل إصابة الفوز!

–أنا آسف جداً جداً! قلت بعد أن تنبّهت إلى تصرفي اللاحضاري وغير المتزن، وقد عدت إلى مقعدي مكسوفاً خجلاً.

–على العكس من ذلك يا سهيل! أنا سعيد جداً جداً أن يكتشف آخرون غيري ما تملك زوجتي من أفكار عظيمة ! قالها الزوج بفخر وحماس وقد غطت وجهه ابتسامة كبيرة!

–شكراً يا حبيب القلب ! كل هذا بفضل تشجيعك وتوجيهك لي ! قالت لزوجها وقد منحته ابتسامة؛ ثم التفتت إليّ بعد أن أسبلت جفنيها بطريقة دافئة حالمة مغرية، فبدت لي وكأنها فينوس الأغريقية بعثت حية، قالت:

–شكراً يا سهيل! إنني سعيدة أن أفكاري تلاقي قبولاً عندك !

–الشكر لكِ أنتِ على هذه الأفكار الفريدة ! إنها تلاقي قبولاً من جميع الذين يميزون الأفكار الراقية ! قلت بحماس وفرح.

–كان يجب أن تكون أستاذ جامعة ، لأن عندك المقدرة والوسيلة أن تؤثر بالشباب وتنير عقولهم ! قلت للزوج ، بحماسٍ وصدق !

–أنا لا أحب التدريس؛ أنا أحب المطالعة جداً وفي كل المواضيع ؛ وكذلك أحب عملي في البنك ! عقلي اقتصادي. قال وهو يهز رأسه ويمط شفتيه.

-بإمكانك أن تدرّس علم الاقتصاد ومن خلاله تنشر آراءك السياسية ومعتقداتك الأيديولوجية! قلت.

-صحيح ، أن التدريس يتيح للإنسان اطلاعاً واسعاً في شتى المجالات الفكرية، ولكنه في كل بلاد العالم، حتى المتقدمة منها، لا يوفر حياة مادية مريحة لصاحبه؛ اللهم إلا إذا كان يعمل عملاً آخر معه ! قال السيد روبنسون بهدوء وتأن كأنما يزن أو يقيّم كلماته قبل أن يتفوه بها !

-ومع هذا، تبقى في دول الغرب حياة مادية معقولة ؛ ولكنها في دول العالم الثالث لا تكفيه خبزاً حافاً ! قلت بحزن.

-أنا أحقق الرغبتين معاً؛ الاطلاع على حضارات العالم ، وكذلك تحقيق مستوى جيد من المعيشة بعملي في البنك كمسؤول عن القروض .

-جيمس لا يحب التعامل مع الآراء والنظريات... يعتبرها مجرد تنظير وكلام سفسطائي... وإنما يحب التعامل مع الأرقام والحقائق ! قالت الزوجة مفاخرة.

-هذا صحيح جداً ! أساتذة الجامعات يدرّسون طلابهم نظريات في الاقتصاد والعلوم السياسية، ويذكرون لهم إحصائيات وأرقاماً وهمية... أما أنا فأتعامل مع أرقام محددة وحقائق ثابتة ! أنا رجل أفعال ولست رجل أقوال ! قالها بفخر واعتداد وكبرياء !

جملة الزوج الأخيرة آذت شعوري وجرحت إحساسي بعنف ؛ وإن كنت جد واثق بأنه لم يعنِ شيئاً مسيئاً، ولم يقصد إيذائي؛ ولكن لأنني أتيت من أمة متخلفة... أمة أقوال وتنظير فقط ولا تفعل شيئاً... أمّة كل ما يفعله حكامها وشعوبها التنظير والكذب والتدليس والدجل، فعندي مركّب نقص شديد... إذ أفسّر كل قول وأأوّل كل حديث، حسب خيالاتي المريضة وتصوراتي الهلامية، لذا سألته عما يعني !

-قبل أن يوافق فرعنا على إقراض أي إنسان مبلغاً من المال، فلا بد من موافقتي... أحسب الخسائر والأرباح بالأرقام... وأضع جميع الاحتمالات، حتى أتوصل إلى الرقم الصحيح ، وبالسنت الواحد ! قال باعتداد وثقة كرهتهما وأثارا غضبي واشمئزازي ، حتى تمنيت لو أني أستطيع أن أصفعه واركله !

-وهل أخطأت يوماً ؟!سألت بلفهة، ولكن ممزوجة بالسخرية !

-أبداً ! في الأربع سنوات التي عملت فيها لم أخطئ ولا مرة واحدة ! قال باعتداد أشد وثقة أعظم ، وهو يهز رأسه ويحملق في وجهي !

-وما هي حساباتك بالنسبة لي؟! سألت بالعربية ولكن دون وعي مني بما قلت، ودون إدراك بأنه لا يفهم العربية.

-ماذا قلت ؟!

ضحكت ببلاهة وقد ارتبكت واستغربت من نفسي هذا التفكير المشين، فأجبته مرتبكاً خجلاً:

-أعني رائع... ! رائع...! لا شك أن البنك محظوظ أن تكون أحد موظفيه !!

لم يعلق الرجل، ولكن ما قاله لم يعجبني ولم أرتح له، فأنا بطبيعتي كثير الشكوك كثير التساؤلات...! لقد تساءلت بيني وبين نفسي؛ هل ما قاله الرجل سببه الغرور والصلف الأميركي، أم هي الثقة المطلقة بالعقل الغربي المتفوق على العقل الشرقي... ذلك العقل المصفّد بالأغلال والمعتقدات الخرافية ؟! أم هو الاعتداد الزائد بالإنسان الأميركي ؟! أم هو العقل الاحتكاري الخبيث ؟! أم أن الرجل طاهر السريرة حسن النية ؟! لقد كان قبل قليل يهاجم بعنف وقسوة، لاأخلاقية الإدارة الأميركية، وكانت زوجته تتحدث في فلسفة الأخلاق !لا شك أني ظلمته ! أستغفر الله العظيم، إن بعض الظن إثم !!

كانت الزوجة طيلة الوقت تنظر إلى زوجها نظرات إعجاب وتقدير، وكأنما كانت تضمه بعينيها وتقبله على شفتيه اللتين تخرجان عظيم ما يقول، وكانت تنقل طرفها إليّ أحياناً، وكأنما لتقول لي، انظر ما أعظم أفكار زوجي!!

لعلّ شعور الزوج وتفاخره بعقليته الغربية المتفوقة، وإحساسي العميق بتخلفنا الحضاري ، ولّد في نفسي إحساساً شديداً بالهزيمة والانكسار، فقلت بألم موجع:

-إن روحي مثقلة بالهم القومي وبأوجاع الوطن، فأجلس أحياناً على رصيف شارع " ولشر " الطويل العريض، و الآلاف من الناس والسيارات تمر بي... أدلّل على عواطفي ومشاعري، وأسمسر على حبي وأشواقي، وأبيع أحلامي وآمالي، وأبكي على أمتي المهانة المحتقرة، أستجدي الحسنة من معطي الخيرات، تماماً كما يجلس شحاذ على أحد أرصفة

الوطن العربي الكبير ، يستجدي الحسنة من أصحاب الخيرات ، أطلب من الله سبحانه وتعالى، علّه يتكرم على أمّتي فيريحها من المتسلطين عليها !إنني أمسك الوطن، بقوة وعنف، من غرّته، من "شاليشه" وأهزه بشراسة ووحشية، علّه يستفيق من سباته العميق وغيبوبته الطويلة... ولكن يبدو لي أن لا أمل !

–ولم تفعل ذلك؟!سألت الزوجة بانزعاج وحزن !

–لقد قوّضتْ الديمقراطية جميع حصون وقلاع الحكم الدكتاتوري في العالم، واقتلعتْ التسلط والاستبداد والظلم من جذورها، وتنازل الحكّام العتاة الجبابرة عن القتل والقمع والسحق لشعوبهم؛ وانتشرت نسائم الحرية التي تدعو لها جميع شعوب الأرض؛ ما عدا في عالمنا العربي والإسلامي !

ـ ليس هذا عدلاً. لا بدّ وأن المسيح سيهبّ يوماً لنجدتكم!قالت الزوجة بعفوية وإيمان، تصورت طيبة قلبها !

–إننا في الوطن العربي الكبير، نعاني بعنف وضراوة، من نزيف عاطفي وروحي ! لقد سرق منا حكامنا كل شيء... أقول كل شيء، حتى حلم الأمان و الاستقرار! قلت بقهر ممزوج بالحزن.

–صحيح أننا بلد ديمقراطي وعندنا حرية، ولكن الذين يديرون دفة الحكم في بلادنا هم إمّا صهيونيون أصلاً أو متصهينون! الإدارة عندنا دائماً محكومة للصهيونية. إن معظم ساستنا يعانون من الإرهاب الصهيوني، الفكري والجسدي والوظيفي وأيضاً المادي، ولا تهمهم قيد أنملة مصلحة أميركا ولا سمعتها ولا أخلاقها إطلاقاً؛ إن كل ما يهمهم هو أن يرضوا سادتهم من اليهود في أميركا... وأولئك بدورهم يهمهم إرضاء اليهود في إسرائيل...! فلتذهب أميركا إلى الجحيم هي وأهلها ومستقبلها...!! هكذا يفكرون...!

–إن الصهيونية العالمية كالأخطبوط، تلف ذراعيها حول العالم بأسره، وليس حول صناع القرار في أميركا فقط؛ فتتسلل إلى عقول الشعوب فتشكل تفكيرها... ورؤاها... ووجدانها... وأحلامها... وطموحاتها، وتتحكم في ثرواتها ومصائرها !قالت الزوجة .

وتمنيت لو أستطيع تقبيلها على شفتيها للدرر التي تخرجها من فمها؛ ليست قبلة شهوة ، والله ، ولكن قبلة إعجاب واحترام لمثل هذا الكلام الموزون الذي يخرج من عقل واع مستنير، وتنطق به شفتان ساحرتان !

–الشـيء المحزن أن اليهود في كل بقاع الأرض لا يدينون بالولاء للبلد الذي يأويهم ويحميهم ويطعمهم، وإنما يدينون بالولاء المطلق للصهيونية العنصرية...!! قال الزوج.

–ولم لا تفعلون شيئاً لرفع هذا الظلم؟! سألت بحيرة.

–ولم لا تفعلون أنتم ، إنكم الأكثر تضرراً ومعاناة ؟!سأل الزوج.

فكرت فيما قال، وسألت نفسي نفس سؤاله؛ ولم ؟!حقاً، ولم؟! فجاء الرد على تساؤلنا من السيدة روبنسون:

–لا أنتم ولا نحن نستطيع أن نفعل شيئاً !أنتم مقموعون من قبل حكامكم، ونحن مكبّلون بالنظام الرأسمالي المكرّس لخدمة الصهيونية !

مرة أخرى وددت لو أقبلها ولكن هذه المرة على جبينها فقد شعرت أنها أنقذتني من الإحراج.

–نحن في أميركا أمة ساذجة لدرجة الغفلة، تباكينا على الحيوانات البحرية التي نفقت بسبب تدفق البترول إلى البحر أثناء حرب الخليج ، فشكلنا اللجان وجمعنا التبرعات، وأذعنا البيانات، وألقينا الخطب؛ نناشد الضمير العالمي و... و... الـ.. بينما عشرات الآلاف من بني البشر الذين يموتون في كل يوم من جراء الحرب المدمرة التي شنناها عليهم ظلماً ووزراً وبهتاناً، ومن جراء الحصار الذي ما زلنا نفرضه عليهم، والدواء الذي نمنعه عنهم !

–عفواً يا حبيبتي ! اسمحي لي أن أصلح تعبيرات ! يجب أن تقولي؛ نحن أمة دجالة ومنافقة، فقدنا الإحساس بالكرامة والشعور بالآدمية ؛ وليس نحن الأميركان فقط، وإنما الغرب كله. ثم يجب أن تقولي أن عملهم يثير قرفي واشمئزازي، ويجعلني أحتقرهم حتى العظم وأزدريهم حتى النخاع !! قال الزوج.

قلت محاولاً تلطيف الجو المشحون بالغضب والقهر، وتغيير مجرى الحديث أيضاً:

ـ تذكر يا صديقي جيمس؛ أن النساء الجميلات... المؤدبات... المهذبات... الرقيقات... لا يمكن أن يخرج من أفواههن كلامٌ نابٍ مثلنا نحن الرجال !!

–معك حق يا صديقي سهيل، وخصوصاً إذا كان هذا الكلام يخرج من فم حبيبة القلب شيلا ! قال الزوج وهو يضحك ويهز رأسه علامة الموافقة.

–شكراً لكما ! قالتها المرأة بجدية ودون أن تبتسم؛ فأدركت أنها ما زالت تشعر بالسخط والقرف من أفعال من تحدثنا عنهم.

ومرّت فترة صمت قطعها سؤال الزوجة.

–وهل أنتما مستعدان لتناول الحلويات ؟!

–كم أنت رائعة يا حبيبة القلب ! فإنني أشعر بالصداع ؛ إذ ما تكلمت بالسياسة إلا وأحسست بالمغص في جوفي، لكثرة ما بها من نفاق وكذب وعهر ولا أخلاقية. قال الزوج وقد غطت وجهه ابتسامة مشرقة.

–وماذا تأخذ مع الحلوى يا برفسور سهيل ؟ سألتني الزوجة.

–كأساً من الحليب المثلج لو سمحتِ ! قلت بأدب جم واحترام شديد، أمام الفكر والجمال معاً...!

–ضحكت السيدة روبنسون ضحكات كأنها وشوشات قبل؛ فنظرت إليها متسائلاً؛ وكأنما فهمتْ الحيرة بعيني فقالتْ:

–يا للصدفة الغريبة ! شعرت وأنا أشتري حاجيات البيت عصر هذا اليوم ، وكأنما قال لي أحدهم أن أضم كرتونة حليب كامل الدسم إلى مشترياتي... استغربت أنا نفسي الفكرة، إذ لا جيمس ولا أنا نستعمل الحليب، ومع هذا اشتريتها !

–هذا دليل المحبة ! إنه لشيء جميل جداً أن نفكر دائماً بأصدقائنا! قالها الزوج بعفوية.

شعرت بخجل شديد... توردّت وجنتاي واحمرّ خداي، وألقيت بناظريّ إلى الأرض!

–أنت تخجل كالبنات الصغيرات عندما يغازلهن رجل ناضج يا سهيل! قال الزوج.

–الخجل لمن هو في مثل سن سهيل، دليل التربية الجيدة والأخلاق الحميدة ! قالت الزوجة تخاطب زوجها.

شعرت هذه المرّة بموجة عرق ساخنة، تبلل جبيني ورقبتي ! أخرجت لاشعورياً منديلي القماشي وبدأت أجففهما !

–يا إله السماء ! أنت خجول أكثر من اللازم !! إنني أتصورك تلوذ بالفرار لو حاولت إحداهن مغازلتك والاقتراب منك! قال الزوج وهو يقهقه!

–هكذا ربّتني والدتي منذ الصغر؛ أن أحترم المرأة؛ لا أجرح مشاعرها؛ وأن أحافظ عليها وعلى سمعتها ! قلت وأنا مطرق بالأرض وما زالت يدي تمسح العرق بالمنديل من على رقبتي وجبيني !

–نعم التربية ! إنها من الأسباب الرئيسية لنجاح الإنسان ! هذا ما ربّتنا عليه الديانة المسيحية ! و الآن هل تريدان تناول الحلوى على الطاولة أم كل في مكانه؟ سألت الزوجة.

لقد أحسست أنها تريد أن تغير الموضوع حتى لا تزيد في إحراجي !

–إذا لم يمانع سهيل؛ نُفضّل البقاء في أماكننا لأنها أكثر استرخاءً وأكثر استمتاعاً ! قال الزوج وهو ينظر إليّ وكأنما يرجوني المعذرة !

بعد أن انتهيت من صحن الحلوى الذي كان عبارة عن قطعة كبيرة من التفاح المطبوخ داخل قطعة من العجين، والذي يطلقون عليه " أبل باي " وفوقه تتمترس كتلة كبيرة من البوظة الممزوجة بالفستق الحلبي مع كأس عملاقة من حليب كامل الدسم والتي تشبع فيلاً، نهضت لأودّع الزوجين بعد أن شكرتهما على الأمسية الرائعة والطعام اللذيذ.

–سأمرّ عليكما غداً في السادسة مساء، فأنتما مدعوان إلى العشاء في المطعم الذي تختارانه.

–دعنا نتصارح يا سهيل ! قال الزوج وعلامات الجد تعبّر عنها قسمات وجهه، وكان قد وقف لوداعي.

–شيلا وأنا نشكرك على الدعوة أولاً؛ وثانياً نحن نختلف عن كثير من الأميركيين، إذ لسنا مغرمين بأكل المطاعم، ولا نحب أن نأكل عادة خارج البيت إلا في عطلة نهاية الأسبوع أو في المناسبات الخاصة، وكثيراً ما نفعل ذلك للتغيير وحتى ترتاح حبيبة القلب من الطبخ. ثم الشيء المهم الذي أريد أن أقوله لك، هو أن زوجتي عندما تطبخ لشخصين، فطعام الاثنين يكفي لثلاثة، كل ما نفعله هو أن نضع صحناً ثالثاً على المائدة ! زوجتي وأنا يسعدنا جداً أن نتعشى ثلاثتنا معاً في بيتنا... في كل ليلة، ليس عندك التزام بها، أو نكون نحن مدعوان في بيت أحد الزملاء !

هممت أن أقاطعه بأن أقول له، بأن يعتبر هذه الدعوة مناسبة خاصة، لولا أنه استمر قائلاً:

-وإذا أردت أن تدعونا مساء الجمعة أو السبت فنحن نقبل الدعوة مع الشكر. ثم التفت إلى زوجته وقال:

-وما رأي حبيبة القلب؟!

-هذا رأيي أيضاً، اللهم إلا إذا كان سهيل لا يحب طبخي. قالت بدلال أنثوي يفوح منه عطر الكبرياء وتتذوق به طعم الأصالة !

-إذن أنتما مدعوان على العشاء مساء الجمعة أو السبت. فكّرا وسأتصل بكما مساء الخميس لنحدد الليلة ! قلت وأنا أتجه نحو الباب لأفتحه.

-وهل معنى ذلك أننا لا نراك حتى مساء الجمعة أو السبت ؟!سألتْ الزوجة بعفوية ولكن بلهفة وقلق أسعداني وأزعجاني معاً؛ أسعداني لأنه يشبع رجولتي ويرضي فحولتي ويسعد كبريائي أن تهتم بي امرأة تتوقد أنوثة مثل شيلا روبنسون، رائعة الجمال ناضجة العقل محدثة بارعة، تتوقد ذكاءً وتذوب رقة ونعومة؛ بالإضافة إلى أنها طباخة ماهرة؛ وأزعجني إذ أخشى أن يقود اهتمامها أو تعلقها بي إلى نوع من العلاقة الرومانسية، مما أرفضه رفضاً قاطعاً، إذ أحب أن تكون علاقتي بهذين الزوجين علاقة نظيفة شريفة طاهرة نقية... صادقة بريئة... هدفها فقط تنمية العلاقات الإنسانية بأرقى أشكالها الوجدانية وبأروع صورها الشعورية والجمالية، والاستمتاع بعطر وثمار ما يجود به العقل البشري، وبأرقى إبداعاته، من أفكار وفن وأحلام... تماماً كعلاقة أخ بأخيه وأخت بأخيها !

-طبعاً ! سنتحادث قبل مساء الجمعة ! سأهاتفكما مساء الغد لأطمئن عليكما ! قلت متظاهراً بعدم سماع جملتها وكأنما أكمل حديثي الأول متأملاً عدم إحراجهما !

-في الحقيقة إنني أريد أن أقول لك شيئاً؛ أعني أن أطلب منك معروفاً، ولست أدري إن كان الوقت مناسباً أم نؤجله إلى وقت آخر. قال الزوج بتردد والكلمات تخرج من فمه خجلى! ثم نظر إلى زوجته فظننت أنه يريد أن يستمزج رأيها إن كان الوقت مناسباً لطلب ما كانا قد اتفقا عليه، ولكن نظراتها المشدوهة الحيرى، أخبرتني بأنها تجهل تماماً ما يريد طلبه، فتأكد لي بأن نظرته إليها، وكأنما كان ينشد عندها العون والمؤازرة !

لقد توترت أعصابي وتشنج جسمي واتسعت عيناي واستبدّ بي قلق شديد، وتساءلت عما سيطلبه هذا الرجل مني خصوصاً وأنا لا أملك شيئاً لا يملكه هذان الزوجان السعيدان المترفان !

-باختصار شديد جداً! قالها على عجل وكأنما يريد أن يتخلص من مسؤولية تثقل كاهله!

-نحن نقابل كل يوم أناساً كثيرين كزملاء عمل وكزبائن ... شيلا في العيادة وأنا في البنك؛ فخلال وجودنا في كاليفورنيا قابلنا مئات الأشخاص، وحتى الآن لم نتخذ ولا صديقاً واحداً بمعنى الصداقة الحقيقية...! طبعاً لنا معارف وزملاء كثيرون جداً، ولكن صديق بمعنى الصداقة الحقيقية... صديق نتلهف للقائه ونستمتع بأحاديثه... صديق تثير آراؤه وأقواله عقلك، وتشحذ نظرياته تفكيرك وعواطفك... بحيث تحس بسعادة عقلية وروحية وإشباع وجداني... فنحن لم نقابل هذا الصديق ولم نعثر عليه بعد ! لسبب بسيط هو أننا لم نجد من تتفق آراؤه وميوله مع آرائنا وميولنا... وحتى نستمتع بصداقة صادقة حقيقية عميقة!

كان الرجل قلقاً متوتراً يتكلم بعصبية وكأنما يريد أن يسال شيئاً يخجل من طلبه. وهممت أن أفتح فمي لأرحب بهذه الصداقة ولكنه عاجلني بالكلام:

-أنا بطبيعة عملي أقابل كل يوم عشرات الزبائن وأعمل مع عشرات الموظفين، وكل ما يتكلمون عنه الفلوس وطريقة كسبها، ونحن عندنا والحمد لله، ما يكفينا من الفلوس ومن متع الدنيا... ولكننا نتمنى صديقاً نتحدث ونتناقش معه على المستوى الفكري... قراءة الكتب المستمرة، عوضتنا قليلاً عن الأصدقاء، ولكن صديقاً تتحدث إليه ويتحدث إليك أمر ضروري ! وهزّ يديه بطريقة عمودية إلى أعلى وأسفل كأنما يحدد مطلبا.

-باختصار شديد، زوجتي وأنا وجدنا بك كل ما ننشد، فهل عندك مانع من أن نكون أصدقاء ؟! نطق الجملة الأخيرة بسرعة كأنما ليتخلّص من عار يحمله !

-ضحكت من سذاجة الزوجين بل من غبائهما... فالصداقة لا تطلب إقامتها طلباً... ولا تحدث نتيجة مداولات ومفاوضات... ولا يخطط لها مسبقاً... ولا يستأذن طرف الطرف الآخر لبنائها ؛ وإنما تبنيها الأيام وتقويها الممارسة، ويعمقها الوفاء والإخلاص والتضحية !

-أهذا هو الطلب الذي تطلبه مني ، بعد كل هذه المقدمة الطويلة ؟! سامحك الله يا رجل! لقد كنت أظن أنك ستطلب مني أن أديّنك أو حتى أن أهبك مليون دولار وربما أكثر! إنه لشرف ما فوقه شرف وسعادة لا تضاهيها سعادة، وأعتبر نفسي محظوظاً جداً، أن أكون صديقاً لكما !

-شكراً ! شكراً ! قال الزوج وهجم عليّ يعانقني، وبعد أن فرغنا من العناق والطبطبة على الظهر، رأيت وكأنما الزوجة تريد أن تفعل مثله، فتجاهلت رغبتها، لأن عناق امرأة جميلة يفوح عطرها فيزكم الأنوف، لا بد وأن يثير في نفسي الرغبات التي أريدها أن تظل نائمة خاصة بالنسبة لهذه المرأة بالذات!

-إذن نأمل أن تمرّ علينا كلما يسمح وقتك، فعندي أسئلة كثيرة عن قضايا ومشاكل الشرق الأوسط أحب أن أطرحها عليك ونتناقش بها! قال الزوج برجاء.

-جيمس كان دائماً يتمنى أن يقابل إنساناً من الشرق الأوسط عنده الثقافة الواسعة والمعرفة العميقة بما يجري في ذلك الجزء من العالم. وعندما حدثته عنك طلب إلي أن أدعوك باسمه إلى بيتنا، ولكن مشاغل الحياة حالت دون ذلك!كانت تتكلم وهي تنظر إلى الأرض لتتجنب نظراتي الحائرة المتسائلة!

"لا تخافي يا امرأة! سأعرف يوماً سرّ كراهيتك الشديدة لي وحقدك الأسود عليّ، ويومها سأحكم لك أو عليك... ستعظمين في عيني حتى تصلين السماء، أو سأنزل بك حتى أعماق الجحيم...!"

-أنا كمسلم ملتزم، أؤمن بأن كل شيء يسير بقضاء وقدر ! لم نتقابل قبل الآن، لأن الله لم يرد لنا ذلك إلا في الوقت الذي حدده هو! قلت بحماس.

-سأحضر شريحة حلوى لسهيل ليتناولها في الصباح مع كأس من الحليب ! قالت الزوجة مخاطبة زوجها وهي ما زالت تتجنب النظر إلى عيني... ثم سارت نحو المطبخ.

-معروفٌ آخر أريد أن أطلبه منك ! قال الزوج بتردد.

-تفضل! أنا بالخدمة ! قلتها على الطريقة العربية.

-إن بعض الكتب التي أقرأها عن الإسلام أو الشرق الأوسط بها بعض الكلمات العربية التكنيكية الفنية، إما دينية أو تاريخية أو حضارية، فهي أحياناً مكتوبة بالحروف اللاتينية، فيكون نطقها مخالفاً للنطق العربي؛ وكما فهمت، فإنه بسبب عدم وجود بعض الحروف والأصوات في اللغة اللاتينية مطابقة للأصوات والحروف في اللغة العربية، يخيل للسامع أنك تقصد المعنى المعاكس ! فهل عندك مانع أن تساعدني في ذلك ؟!وبلع ريقه ومصمص شفتيه وأضاف:

–نصف ساعة أو ساعة في الأسبوع، كما تشاء وحسب ما يسمح لك وقتك !

–يسعدني أن أعطيك ساعة كل يوم إن شئت، ونبدأ بتعلم الأصوات والحروف الأبجدية التي لا تتواجد بالإنجليزية.قلت بفرح غامر.

–آه! شكراً ! أنت كريم جداًً! لاحظت فرحة غامرة تعلو وجهه.

–وهل أنت وحدك أم معك السيدة روبنسون ؟ سألت بشوق.

–لم أستشرها بعد، وآمل أن تشاركني.

أقبلت الزوجة وناولتني ورقة ذهبية ملفوفة حول صحن لعلّه مملوء بحلوى "الباين أبل" فشكرتها، وعندما شرح لها زوجها الفكرة وترحيبي بها، سرّت وأثنت عليها... وتركنا ساعة الدرس وطيلة الحصة وعدد المحاضرات الأسبوعية للظروف تقررها، وشكرتهم ثانية وأنا أحمل فطور اليوم التالي وانصرفت وفي النفس أحلام وإرهاصات، وفي العقل حيرة وتساؤلات !

* * * * *

الصداقة بين السيدة والسيد روبنسون وبيني، نمت وتوثقت عراها بسرعة فائقة... فقد شعرت، ولا شك أنهما شاركاني نفس الشعور، كأنما نحن أصدقاء منذ أيام الطفولة... بل منذ ساعة ولادتنا !احترام شديد لبعض... حب قوي... مراعاة للمشاعر...!! ولقد تذكرت مقولة قالها بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك ؛ بأن أقوى الصداقات وأطولها عمراً، تلك التي تولد بعد كراهية حاقدة وعداوة ضارية !

لقد زالت الكلفة والرسميات بيننا، فكنت أتحدث مع جيمس تماماً، كما كنت أتحدث مع شاهر وإميل وحكمت ومحمد وكايد وكمال في الوطن؛ وكنت أتحدث مع شيلا وكأنني أتكلم مع أختي الكبرى أميرة ؛ بنفس المصارحة والصدق والمودة والبساطة !

لا شك أنه كان هناك فرق كبير بين شخصيتي المرأتين، فشيلا امرأة وُلدت من قلب الحضارة، ذات علم متقدم وثقافة عالية وعميقة ومعرفة واسعة وتجارب كثيرة ومختلفة، أستطيع أن أتحدث إليها بأمور الكون وأحوال المجتمع وتصرفات الناس ومشاعري نحوهم، وما أؤمن به

وما لا أؤمن، وما أحب وما أكره... فنتحاور ونتناقش وقد نصل إلى قناعة وقد لا نصل؛ فهناك متعة ذهنية دسمة وشعورية سحرية لا حدود لها... غير أن أختي أميرة وُلدت وترعرعت وعاشت في مجتمع بدائي، لم تذهب إلى المدرسة ولم تحصل على أي نوع من المعارف، اللهم إلا ما تعلمته من تجاربها البسيطة البدائية الساذجة، وشؤون البيت والأقارب وأهل الحي... ومع هذا فقد كنت أحصل ، و أنا معها ، على متعة طفولية الأحاسيس، صبيانية المشاعر، مغرقة بالبساطة والسذاجة والرومانسية الفجّة...!

كنت أشعر بسعادة غامرة، وراحة نفسية هائلة، وسلام واطمئنان لم أشعر بمثلهما من قبل... عندما أدخل بيت عائلة الروبنسون وأجلس في مكاني المعهود، مستلقياً فوق الكنبة وبيدي كأسٌ من الكحول أو تنكة من البيرة، أو المرطبات أو حتى فنجانٌ من الشاي أو القهوة... وثلاثتنا أو كلانا، نناقش بعض النظريات ونحلل بعض الآراء، أو نعلق أو نعقب على بعض الأخبار المحلية أو العالمية !

لقد شكرت الله أن الجامعة لم تقدم أياً من المواد التي أدرّسها في برنامجها الصيفي، لعدم توفر النقود في الميزانية، بسبب اللعنة الحضارية والاقتصادية وأيضاً اللاأخلاقية، التي حلّت على أميركا وطعنتها في الصميم، بسبب حرب الخليج الثانية، التي جرّها إليها قادتها المأفونون الموتورون، خدّام وعبيد الصهيونية العالمية! وكذلك كنت أريد أن أريح نفسي من البحث في المراجع والتحضير والاستيقاظ المبكر، وكذلك لأسترخي بعد عناء الدرس والتدريس اللذان صار لي أمارسهما حقبة من الزمان! ثم والأهم من كل هذا، التفرغ الكامل، للاستمتاع بصداقة وكرم أخلاق هذين الزوجين، الطيبين النبيلين، اللذين أستطيع أن أستشف طهارة قلبيهما وألمس نقاوة روحيهما، كلما تحدثت معهما أو جلست إليهما ! تلك الصداقة البريئة الصافية الشفافة العذبة الطاهرة، التي لم أمرّ بمثلها ولم أمارس نوعها طيلة حياتي كلها؛ صداقة رجل وامرأة... صداقة أنثى وذكر، ربطت بين مشاعرهما وأحاسيسهما ألفة تصوفية... وترعرعت بين قلبيهما محبة عذرية سماوية، يغوص كل منهما في أعماق الآخر ووجدانه، وتسبح روحاهما وتحلقان في ملكوت الله العليا، دون أن يشتهي أحدهما لمس الآخر، ودون أن تدنس الشهوة جسديهما !!

لقد لُقنّت منذ الصغر، أنه لا يمكن أن تنشأ صداقة طاهرة بريئة بين شاب وفتاة؛ وغُرست في عظامي فكرة أنه ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما، وكان العناق والمضاجعة كل ما يفكران به ويستبد بهما !! لقد كان أجدادنا وجدّاتنا ولا شك أننا نحن ما زلنا نحمل حتى اليوم فكرتهم ونؤمن بمعتقدهم، يقيّمون بعضهم بعضاً بميزان القضيب والفرج، فيعتبرون أن الأنثى هي فقط عبارة عن فرج يفرغ به الرجل لبيده المحتبس ويشبع شهوة حيوانية تستبد به؛ وكانت المرأة تعتبر الرجل فحلاً يحمل بداخله خزانات من العسل المصفّى يقذفها بداخلها فيفرحها ويسعدها فيطفئ المشاهيب المشتعلة والنيران المتأججة بين فخذيها !

نحن أمة هاجسها الحلال والحرام، والطمع بالجنة والخوف من النار، تعاني من تصحّر شبقي وتصخّر لبيدي؛ يقهرها الكبت الجنسي ويسحقها الحرمان العاطفي؛ ترتع في بحور العطش وترتوي من محيطات الظمأ؛ تحلّق في سماواتالقهر والإحباط، وتهيم في وديان الكبت والتمزق، تبكي من الوجد والشوق معاً، تنتحب من الوحدة والضياع؛ يحرقها الشوق الكاوي ويمزقها الهجر المستعر؛ تندب حظها العاثر وقدرها التعيس؛ تتوجع من الإذلال والمذلة؛ تحنّ إلى الصحراء وتتشوق إلى حضن الناقة!! ولهذا اعتبروا أنه ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكانت المضاجعة تحتل فكريهما وتستبد بهما ! ولكن بعد معرفتي لشيلا وتعمق الصداقة بيننا، صرت أشعر أن هذه هي نظرية المحرومين المسحوقين المكبوتين، وأنه يمكن أن يولد حب عذري روحي قوي وعميق، وصداقة طاهرة بريئة بين شاب وفتاة دون أن يشتهي أحدهما جسد الآخر أو يحلم بمضاجعته !

لقد مررت بهذه التجربة يوم كنت غرّاً مراهقاً أعيش فترة تصوف وعذرية، وعلى الرغم من حبي العنيف لسميحة ، لم أشعر ولا للحظة واحدة أنني اشتهيت جسدها، بل كنت أشعر بالغضب اللاهب والاشمئزاز الشديد والقرف المحرق، كلما فكرت بها كامرأة، وكما كان يفكر بها صديقي شاهر! كان هذا معتقدي، ولكنني لم أخلُ ولا مرّة واحدة بسميحة ، ولم تكن بيننا صداقة حميمة، ولم يكن بيننا حتى مجرد كلام، حتى أضع هذه النظرية للاختبار والتجربة !

كنت أشعر بعاطفة عارمة نحو شيلا ولكنها شعلة روحية مقدسة، تماماً كما يشعر أخ نحو أخته؛ ولا شك أن شيلا كانت تبادلني نفس الشعور والعواطف...! لقد قرأت هذا بعينيها، ولمسته في تصرفاتها،

وأحسست به بفطرتي ! لقد كان يشعر الواحد منا نحو الآخر بعاطفة ملتهبة من الصداقة النقية الطاهرة، المبنية على فهم عميق وثقافة واسعة وتفهم ووعي وإعجاب متبادلين !!

* * * * *

كنت قد فتحت لتوّي باب شقتي، وكنت ما زلت أحمل حقيبة أوراقي المحشوة بأبحاث طلبتي الذين كنت قد سألتهم القيام بها كجزء من متطلبات المساق، عندما رنّ جرس الهاتف. تركته يرن حتى اشتبك مع آلة التسجيل على أمل أن أسمع صوت الطالب لأتميزه، فأكلمه أو أتجاهله؛ ولكن الطالب عندما سمع التسجيل أغلق السماعة ولم يتفوّه بكلمة، فحمدت الله أنه فعل! لقد كنت مرهقاً ومحبطاً، وكنت أشعر باشمئزاز وقرف شديدين!

لقد أمضيت طيلة الوقت بعد الظهر، ولمدة أربع ساعات كاملة في مكتبي أقرأها، ومع هذا لم أنهِ إلاّ جزءاً يسيراً منها ! كنت عازماً أن أمضي ساعة أو بعض الساعة في قراءة بعضها؛ ولكن الآراء والمقتطفات والأقوال التي احتوتها، صدمتني بل أذهلتني وأوقفت شعر رأسي، إذ أحسست بدبيب خوف وقلق معاً يسريان في كل جسمي، ويدخلان كل ذرة من كياني !!

إن ما كتبه طلبتي في أبحاثهم أذهلني... أوقف شعر رأسي... أوجع وجداني وأدمى قلبي ! لقد كان سؤالي هو: نظرة الغرب إلى شرقنا العربي والإسلامي خلال ربع القرن الأخير؛ ما يعتقدونه بنا وما يقولونه عنّا؛ وسألت طلبتي أن يدعموا آراءهم بمقتطفات لبعض الكتاب والمفكرين!

لقد أدركت حقيقة غابت عني؛ وهي أنني لم أقرأ كثيراً مما كتبه أولئك الكتّاب والمفكرون عنّا حديثاً، وإلا لما اخترت هذا السؤال!!

أكلّ هذه الجبال الراسيات من الحقد والكراهية والاحتقار؛ يحملون لنا ولديننا وقوميتنا وحضارتنا ؟!إنهم يحتقرون الإسلام ويعتبرونه ديناً متخلفاً همجياً متعصباً، وداعياً إلى العنف والإرهاب؛ وينظرون إلى المسلمين كقطعان من الصعاليك والأوباش والمرتزقة... المعاقين عقلياً، المنحطين عرقياً، المتخلفين حضارياً، والساقطين أخلاقياً !!

ومن هم الذين يجعلونهم يعتقدون بنا هكذا؛ حتى يقولوا بأنهم يجب أن يرغموا المسلمين حتى يتخلوا عن دينهم بالقوة؛ وأنهم يجب أن يدمروا الإسلام لأنه مصدر القوة الوحيدة لهؤلاء المسلمين؛ وأنه يرعبهم ويقض مضاجعهم ويجب أن يحشدوا له كل طاقاتهم وإمكاناتهم، حتى لا يبتلعهم ويقضي عليهم ؟! حقاً إنها لأفكار متناقضة !!

أهكذا فعلت بنا أموال البترول، أموال الفساد والإفساد، بأن عبأت العالم ضدنا وضد حضارتنا وقيمنا وديننا ؟! أصحيح أن حكّامنا باعونا، نحن شعوبهم، وقبضوا ثمننا دولارات وضعوها في أرصدتهم بالخارج، وكراسي يحكموننا من فوقها ؟! ألهذه الدرجة وصلنا من التسفيه والتسطيح والتشظي ؟! أإلى هذا المستوى من التهافت والارتماءوالانحطاط وصلنا ؟! ألهذه الهاوية من الاحتقار والإذلال والتقزم انحدرنا ؟! أبهذه السهولة والبساطة فقدنا شرفنا وكرامتنا وعرضنا وكبرياءنا؛ فتنازلنا عن قوميتنا وديننا وقيمنا؟! أصحيح أننا فقدنا، كأمّة، إرادة الصراع واتخاذ القرار المستقل، بعد أن سلّم حكامنا وقادتنا مصيرنا ومصير ثرواتنا إلى دول الاغتصاب والتسلط والإرهاب، أميركا وبريطانيا وإسرائيل ؟! أهكذا حشرونا تحت مظلّة الذل والخزي والخذلان، فأسكتوا قلوبنا وعقولنا، وألبسوا عظامنا وعواطفنا صقيع الفشل والخيبة والضياع لقرون وقرون ؟!!

أصحيح أن حكّامنا قد حولوا الوطن إلى غابة وأدغال مستباحة، وحكّموا بها عملاءهم وأذنابهم من ذوي المخالب الجارحة والأنياب القاتلة والقلوب الميتة؛ فحولوا الشعب إلى كمية مهملة من المتحركات البلهاء، والطرشان، وقطعاناً من الحيوانات السائبة؛ لا يجرؤ أحدنا أن يفتح فمه أمام الحاكم، إلا لمدحه والثناء على كرم أخلاقه وديمقراطيته، أو ليهتف بحياته وبطولاته؟! وهل حقاً وصلنا إلى هذا الدرك المنحط من الهوان والتردي، فهانت علينا أنفسنا فهنّا على العالم؟!

لم يكتف أولئك الكتّاب بإظهار حقدهم وعنصريتهم وتعصبهم ضدنا، بل ذكروا أيضاً كيف أن الحاكم المسلم يعامل رعاياه كأنما هم قطعان من الجرذان والصراصير والهوام !!

رنّ جرس الهاتف ثانية، ففكرت أن أتجاهله كما فعلت في المرة الأولى، ولكنني شعرت بقوة خفية تنهضني من مكاني وتقودني إليه؛ وحالما رفعت السماعة وقلت "ألو!" حتى وصل إلى أذني صوت السيدة شيلا روبنسون، ذلك الصوت الحبيب الذي لو قضيت عمري كله أستمع

إليه لما مللته وتعبت منه؛ بل على العكس من ذلك، لازددت له حباً وبه تدلهاً!

خفّ غضبي وقهري، وهدأ غليان ثورتي، فعاد الأمل والطمأنينة إلى نفسي وقلبي، بما أسبلته عليّ من فيض حنانها ومحبتها، ومن حلو كلامها ورقة عواطفها، وبث في نفسي الهمة والعزيمة، وأنارت في جوانحي المظلمة النور والبسمة !

-هل تعشيت ؟! سألتني بطريقة شيطانية ضاحكة !

-الساعة الآن السادسة وأنت تعرفين أنني لا أتعشى قبل الثامنة إلا إذا كنت داعياً أو مدعواً!

-ما رأيك بعشاء مجاني؟!

-وهل من ملاحق سريّة؟! لا شك أنني ذكرت هذا الاصطلاح لأنه ورد في بعض أبحاث طلبتي، فسألت وقد بدأت أحس بالاطمئنان والسعادة معاً، وبدأ يفارقني القلق والخوف اللذان كانا مسيطرين عليّ طيلة الوقت بعد الظهر!

مرّت لحظات قبل أن تجيب:

-لقد قرأت هذا التعبير السياسي ولكنني نسيت ما يعني!

-فكرة الملاحق السرية هذه ورثتها أميركا عن بريطانيا؛ وهي أن أميركا تعقد معاهدة ودّ وصداقة مع دولة فقيرة وضعيفة من دول العالم الثالث المسحوق؛ يوقّعها عادة رئيس تلك الدولة ووزير خارجية أميركا، فتنشر نصوص هذه المعاهدة على الناس حيث تقول بأن أميركا تدفع كذا مليون دولار سنوياً مساعدة خالصة لوجه الله بسبب حبها وعطفها على ذلك الشعب الطيب الصديق؛ وذلك لمساعدته والأخذ بيده، ورفع مستواه العلمي وتقدمه الحضاري!

-أرأيت ما أطيب قلب حكومتنا وما أكرمها؟! وهل صدقت الآن بأن الله أعطى أميركا للعالم كهدية، لتوزع خيراتها عليه ؟!

-انتظري حتى تسمعي بقية القصة ! وتمر الأيام فيكشف النقاب عن ملاحق سرية لم تنشر في حينها؛ وهو أن الحكومة الأميركية دفعت مبلغاً من المال لرئيس تلك الدولة فوافق على هذه الملاحق، والتي هي عادة ما تكون مصائب وويلات واستعباد لذلك البلد؛ حيث توضع مطاراته وموانئه

وأسواقه وكل أراضيه ومقدراته تحت تصرف أميركا مقابل حفنة الدولارات التي تدفعها لتلك البلد !!

-ومتى تتوقف عن انتقاداتك لحكوماتنا وكراهيتك لنا ؟! سألت بلهجة بدت لي غاضبة!

-أنت تعرفين كم أحب أميركا وأحترم أهلها، لأن لهما عليّ وعلى الكثيرين غيري أفضال لا تعد ولا تحصى؛ ولكنني أكره...

-آسفة لمقاطعتك! أنا أعرف حقيقة شعورك نحونا ونحو بلادنا، ونحن نحبك أيضاً؛ ولكن لماذا يقبل حكام تلك البلاد هذه التي تسميها ملاحق سريّة ؟!

-لأنهم لا يعبرون عن آمال شعوبهم وتطلعاتهم !

-إذن، دعوتك الليلة ليس لها ملاحق سرية، وإنما لها ملاحق علنية !قالت وقد غيّرت لهجة الضحك إلى الجد.

-وما هي يا ترى؟! قلت محاولاً تقليد لهجتها الجدية !

-أن تغسل جميع صحون العشاء؛ إذ إن جلاية الصحون معطلة ! قالت وهي تكركر وكأنما أعجبتها نكتتها.

-تعرفين كم هو معيب ومذل للرجل العربي أن يغسل الصحون، وأنثاه تراقبه وتصدر إليه أوامر النظافة وهي جالسة على كرسيها تدخّن سيجارتها وتشرب كأس مشروبها ؟!

-إذن تشتري لي ولجيمس تذكرتي سينما !

تظاهرت بأنني أجمع ثمن ثلاث تذاكر سينما وأقارنها بثمن العشاء.

-إنه لأرخص بكثير أن آكل في مطعم من أن أدفع ثمن ثلاث تذاكر سينما !

-وهل تقارن أكل المطعم بأكلي ؟!قالت بلهجة عتاب وحزن مصطنعين.

-هذا يعتمد على نوع الطعام !

-ما رأيك بالأكلة المكسيكية، مثل التي تناولناها قبل ثلاث ليال وقلت إنها تشبه أكلكم في الوطن؟!

هممت أن أمتدح تلك الأكلة وأن أذكر بأن لذتها ما زلت أشعر بها في فمي وتحت أسناني عندما أردفت:

-أما الحلوى فتكون شريحة كبيرة من ألـ "أبل باي" مغطاة بالكريما والفراولة وإلى جانبها صحن من الآيس كريم، ممزوج بالبندق , مع كأس ضخم من الحليب المثلج !قالتها بأسلوب دلع وشيطنة!

-كفى إغراءً! لقد قبلت شروطك حتى ولو أن بها ملاحق سريّة! قلت وأنا ألحس شفتي بلساني.فأجابت على الفور وبعفوية:

-أبهذه السهولة تبيع وطنك؟!

وكأنما كلماتها قد تحولت إلى حجارة من حجارة أرض الوطن المحتل، يمسك بها طفل من أطفال الحجارة، يضرب بها رأس جندي صهيوني عنصري حاقد؛ وكأنما هذا الجندي هو أنا، فشعرت أنني أترنّح تحت قوة الضربة، فغامت الدنيا أمام عيني ولم أعد أشعر بما حولي، وأنني على وشك السقوط !

يبدو أنني تأخرت طويلاً في الجواب، فقد سمعتها تقول:

-سهيل! هل ما زلت معي على الخط؟!

-نعم ! إنني أسمعك!

-ماذا قلت؟ هل تقبل؟

-أقبل الأولى وأرفض الثانية!قلت كالثمل المرهق!

-يعني تقبل الأكل ولا تقبل الحلوى؟!

-نعم !لا ! وشعرت كأنما أنا أبله أو معتوه.

-أعني أقبل الأكل والحلوى معاً!

-إذن تعال عندما تستطيع ! ولكن حاول أن تسرع، فسنتعشى عندما تحضر ! وأغلقتُ السماعة دون أن أودّعها أو حتى أشكرها، فقد أحسست بانقباض يكتم أنفاسي، وبحزن يمزق قلبي وأحشائي...!

* * * * *

–العشاء لذيذ جداً، والحلوى أكثر لذة، وكنت سأكون الخاسر لو أنني رفضت عرضك ! ما عقدت معك مرة صفقة إلا وكنت أنا الرابح! قلت للزوجة وقد وضعت الكأس الفارغة أمامي على الطاولة بعد أن أتيت على آخر قطرة حليب مثلوج بها.

–أن تكون الرابح دائماً، يجعلني جدّ سعيدة ! لا أحبّ أن أراك مرة واحدة خاسراً، حتى ولو كان الرهان معي! قالت بنغمة صادقة حرّكت وجداني!

في تلك اللحظة تذكرت أختي أميرة، وتذكرت كيف أنها كانت تخصني دائماً بأحسن ما عندها، وتفضلني على نفسها ! فدمعت عيناي !

–الرهان فقط على وجبات الطعام اللذيذ من طبخك الرائع؛ وليس على شيء سواه!

–أنا أعرف أن هذا ما عنيت ! قالت وهي تضحك !

–والآن دعونا نسرع، إذ كلما تأخرنا كلما كانت فرصة الحصول على مقاعد جيدة أضعف! إنني أتضايق جداً من الجلوس في المقاعد الأمامية! ثم وجهت كلامي إلى الزوج:

–وهل صممتما أين سنذهب يا جيمس؟!

–ما الذي تقوله يا سهيل؟ سأل الزوج وهو ينقّل طرفه بين زوجته وبيني.

–وما حكاية الأرباح والخسائر هذه التي تتحدثان عنها؟!

–اتفقت أنا وسهيل على أن نقدم له عشاء مجاناً، ويجلو هو الصحون أو يدفع عنا ثمن تذكرتين للسينما أو للمسرح، ففضل الأخيرة !قالت وهي ما زالت مستغرقة في ضحك عميق.

–ومتى تعقدان الصفقات من وراء ظهري ؟! سأل الزوج وهو يبتسم.

–ألم تخبريه عما اتفقنا عليه يا شيلا؟! سألت أنا الزوجة معاتباً!

–لقد كنت أمزح معك، ولهذا السبب لم أفكر به! قالت من بين ضحكاتها.

–وأنا كنت جاداً! قلت بشيء من الاعتزاز الجاهلي!

–ألم أقل لك يا سهيل بأننا، جيمس وأنا، لا نحب أن نخرج من البيت بعد المساء إلا في عطلة نهاية الأسبوع والعطل الأخرى، اللهم إلا إذا كان لأمر هام يستدعي الخروج؟ قالت الزوجة.

–إذا كنت أنت وسهيل تحبان الذهاب فلا مانع عندي!قال الزوج مخاطباً زوجته، ثم ضحك وأردف:

–بل سأكون لكما شاكراً، حيث يجب أن أكمل بعض الأوراق الليلة قبل أن آوي إلى فراشي.

–أنا أفضّل التحدث هنا على الخروج لأي مكان ! قالت الزوجة ذلك، ورفعت فخذها اليمنى ووضعتها فوق فخذها اليسرى، فانحسر فستانها القصير إلى الخلف، فظهر فخذاها اللذان كانا قطعة من الأبنوس الصافي، والذي تفنن الخالق الأعظم في سكبهما، فبان سروالها وشلحتها ! ارتجف جسمي ورعاً... شعرت بانقباض في نفسي فهززت رأسي كأنما رأيت شيئاً محرّماً عليّ رؤيته ؛ تماماً كنفس الشعور الذي أحسّه عندما أرى بطريقة عفوية عورة إحدى محارمي !!

–أنا في منتهى الجدية !أكون ممنوناً لكما لو أنكما تذهبان وتتركاني أُنهي أوراقي، إذ إن وجودكما معي يشجعني على التكاسل وربما الإهمال ! قال الزوج وهو يصرّ على مقاطع الكلمات.

–تستطيع يا حبيب القلب أن تذهب إلى المكتب فتغلق عليك الباب حتى لا يزعجك كلامنا، وأعدك بأننا سنتكلم بصوت خافت لا يصل إليك !أما إذا أحببت أن تشتغل على طاولة الطعام، فنذهب نحن إلى المطبخ فنغلق علينا بابه، ونتحدث هناك ! صدقاً أنا لا أشعر برغبة للخروج ! قالت الزوجة.

شكرت السيدة روبنسون في أعماقي ورجوت الخالق أن تستمر على إصرارها وأن لا تغير رأيها؛ إذ أنني لا أحبّ أن أكون والزوجة وحيدين خارج البيت، إذ أشعر بالحرج والارتباك، وعدم الارتياح ! إن عادات الوطن وتقاليده ما زالت تتحكم بي وتسري مع دمي وفي عروقي؛ كما أنني أفضل حديث الزوجة على كل مسارح العالم وسينماته !

–إذن أستطيع أن أنهي الأوراق صباح الغد في المكتب ! ولكن إذا كنت وحيداً فأجد نفسي ملتزماً للقيام بذلك! قال الزوج متراجعاً.

–أنا دعوتكما إلى الخارج وما زلت ملتزماً بدعوتي! قلت بحماس.

-نحن نعرف أنك كريم، ولكننا نفضل البقاء في البيت !قالت الزوجة بلهجة صادقة !

-قبلنا الدعوة، ولكن في ليلة قادمة. قال الزوج.

-كم رائع أن يغرق إنسان نفسه في أكلة ربانية مثل هذه الأكلة وحلوى مثل هذه الحلوى، ثم لا يقوم بعمل شيء! قلت منظّراً، ولكن بطريقة هزلية !

-لا يأخذ الإنسان شيئاً في هذه الحياة دون مقابل؛ على الأقل هنا في أميركا !قد لا ندفع الثمن في الحال؛ ولكن لا بدّ من الدفع، يوماً ! قال الزوج وهو يصرّ على مقاطع الكلمات ويضحك.

لم يعجبني أسلوب السيد روبنسون في الكلام، ولم يشرح صدري تعليله، كما كان يفعل دائماً؛ وشعرت بما يشبه الاشمئزاز منه، فهذه ثاني مرة، منذ تعارفنا، شعرت بهما بالغضب والنرفزة نحوه، ولو أنها كانت لبضع ثوان فقط !المرة الأولى يوم قال بأنه دائماً حساباته وتوقعاته صحيحة، عندما كان يتكلم عن البنك الذي يعمل به؛ وهذه المرة؛ ولكنني سرعان ما نسيت قوله وإن كان قوله قد خبّث خاطري وأطار جزءاً من انشراحي وانطلاقي!!

-قلت لكم إنني على استعداد للسداد الآن وليس يوما ما، في المستقبل! قلتها بلهجة المستاء القرف، مما لا يدع مجالاً للشك بأن الزوج قد أدرك تقززي، حيث قال:

-لا تحمل كلامي دائماً محمل الجدّ يا سهيل، ولا تكن حسّاساً نحوي، فأنا أحب الهزار والمزاح، خصوصاً معك !

-ومن قال لك أنني أخذت كلامك على غير مقصد الهزار والمزاح ؟! قلت هذا وهززت كتفي.

-وجيمس يقول لك بأننا قبلنا السداد، ولكن في ليلة قادمة ! قالت الزوجة موضحة وكأنها لم تسمع النقاش.

-تتكلمون عن الديْن والسداد؛ فأنا مدين إلى آيْريسْ بوجبات عديدة!

-ومن هي آيْريسْ هذه؟سألت الزوجة.

-إنها فتاة تعمل في دائرة شؤون الطلبة الأجانب، طبعت لي بحثاً صغيراً رفضت أن تتقاضى عليه أجراً؛ أعلمتني وهي تسلمني إياه بأنها

ذاهبة إلى الغداء وتتمنى لو أقبل دعوتها؛ وافقت وقد كنت عازماً أن أدفع ثمن غدائنا نحن الاثنين، ولكنها أصرّت على أن تدفع هي وأن أقوم أنا بعملية الدفع في المرة القادمة؛ وفي اليوم التالي ذهبنا إلى الغداء فعلمت أن الثمن مدفوع، ولما تناقشنا أفهمتني بأنها تدفع إلى المطعم مرة واحدة في آخر كل شهر؛ أما في المرة الثالثة فقد قالت بأن صديقتها الجالسة غير بعيدة منا، دفعت عنّا نحن الاثنين!.

–لعلها تريدك أن تكون لها صديقاً! ادعُها إلى الخارج! قالت الزوجة وهي تضحك.

–أنت محظوظ جداً يا سهيل ومحبوب كثيراً من جميع الذين يعرفونك، وخصوصاً من الجنس اللطيف ! النساء يضعن حياتهن رهن إشارتك ويفرشن أعناقهن تحت قدميك لتمشي فوقها ! وبعد أن ضحك طويلاً أضاف:

–إنهن يوقعن لك على بياض لتسحب من أرصدتهن من البنوك ما تشاء!

–وهل أنا "ألان ديلون" يا صديقي؟ ! أرجوك أن تتوقف عن مثل هذا القول، لأنني قد أصدقه فيصيبني الغرور ! قلت وقد شاركته ضحكه.

–ثم إنني لا يمكن أن أمدّ يدي إلى فلوسهن، كما وإنني أرفض أن أدوس على رقابهن !

–قد تغيّر رأيك يوماً ! قال الزوج وهزّ رأسه.

–ليس سهيل الذي يفعل ذلك !أنا واثقة من هذا!قالت الزوجة باعتزاز وفخر، وشعرت كأنما هي تتحدى زوجها، فأحسست بفحولتي وأنني تعملقت !

–شهادة أعتز بها وأفخر أكثر مما أعتز وأفخر بشهاداتي الأكاديمية ! قلت وقد غمرتني سعادة جارفة إذ أحسست بأن كلامها هزّني من أعماق وجداني، وجعلها تشمخ أمامي وتتعملق حتى تصل هامتها السماء!!

–ما هذا يا حبيبة القلب ؟! وهل تتآمران عليّ!! قال الزوج وهو يتصنّع الجد والغضب معاً!

–لا سمح الله ! قلت وكأنما طعنت في معتقداتي، على الرغم من معرفتي الأكيدة بأن الرجل يمزح ؛ إذ ما ذنبي، فأنا ما زلت أحمل بين جنبي ترسبات جاهلية قبلية عتيدة !

–تأكد بأن مثل هذا لن يحدث مني يوماً... إطلاقاً !قلتها بلهجة الواثق.

–نعم نتآمر عليك!قالت الزوجة وهي تضحك بشقاوة، وسعادة جارفة تغطي وجهها، وغمازتا خديها ترقصان طرباً؛ ثم التفتت إليّ فأحسست بأن موجة عارمة من العواطف الأخوية الصادقة قد اجتاحتها...!

–إنك نبيل وشهم جداً يا سهيل، وقد كنت أظن أن في العالم رجلين فقط نبيلان وكاملان، هما والدي وحبيب القلب جيمس؛ ولكني الآن تأكدت من أنك ثالثهما !

قام الزوج وانحنى أمام زوجته احتراماً، ثم تقدم وقبّلها على رأسها، ثم طامن بجسمه حتى تساوى مع جلستها فوق الكنبة وضمها إلى صدره وقال:

–صدقيني يا حبيبة القلب، إن هذا هو شعوري نحو والدك ونحو صديقي سهيل أيضاً !

–يكفيكما أيها القوم ، دجلاً ونفاقاً ! وانفجرنا ثلاثتنا نضحك حتى دمعت عيوننا، فقد شعرت أنني سموت إلى ذرى السماء، وارتفعت فوق فصيلة البشر!!

توقفنا ثلاثتنا عن الضحك، ومرّت فترة سكون ليست بالقصيرة، كان كل واحد منا ينظر إلى صاحبيه، دون أن يقول شيئاً بلسانه، وإن كان يقول الكثير الكثير بعواطفه ومشاعره ووجدانه!

يا لها من لحظات رائعة، رجلان يحبّان امرأة، واحد يعانق جسدها ويحب روحها أيضا؛ وآخر يحب روحها ويعانق خيالها ويتعبد في محراب حبها؛ وامرأة تمنح حبها وحنانها وعواطفها لرجلين، ولكنها تسلم جسدها لواحد منهما فقط !!

–أشعر برغبة قوية بأن أذهب وأجلس خلف مكتبي وأكتب التقرير للبنك؛ ولكن أريد أن أسألكما سؤالاً قبل أن أنسى:ما رأيكما بفكرة أن نذهب ثلاثتنا يوم السبت القادم إلى مدينة " بالم سبرنق" ، لقضاء اليوم، ثم نذهب بعد العصر إلى الصحراء بعيداً عن المدينة، وهناك نضع أهدافاً ونسدد إليها الرصاص، ونرى من الذي يسجل إصابات أكثر ؟قال السيد روبنسون وهو ينهض.

–ولكن جميع تلك المدن الصحراوية حارة جداً في هذه الأيام ! قلت.

–لقد فعلنا ذلك في صيف العامين الماضيين واستمتعنا جداً جداً! قال الزوج.

–في غير فصل الصيف نحتاج إلى حجز مقدماً ربما قبل شهر في بعض الموتيلات الراقية حتى تجد غرفة خالية؛ أما في الصيف فالزبائن قليلون، ولتشجيع الإقبال يعمد أصحابها إلى تنزيل الأجرة إلى النصف !

–وكيف يقضي الناس أوقاتهم في هذا الحر الجهنمي ؟!سألت باستغراب.

–في النهار يقضونه في الداخل، إذ إن كل شيء مكيّف بدرجة عالية، ووسائل المتعة والتسلية متوفرة؛ أما في الليل فالناس يستمتعون بالسباحة في مسابح الموتيلات أو في السير بالشوارع أو بالذهاب إلى الصحراء يجلسون في ضوء القمر الساحر، أو يرقبون النجوم إن كان القمر غائباً! قال الزوج.

–أما أنت وأنا يا صديقي جيمس، فلسنا بحاجة إلى قمر... فقمرنا معنا ! لم أكن أنا المتكلم، وإنما كان لساني، وبغير إرادتي !

استغربت جرأتي، بل وقاحتي... وهذا الحق الذي أعطيته لنفسي، وتلك الحرية اللعينة التي لم أتعودها ! احمرّ خداي خجلاً وثقل لساني، إذ أنا نفسي استغربت هذه الحرية !

–أنا آسف جداً جداً ! لقد خرجت الكلمات رغماً عني ! قلت ذلك وجسمي كله يتصبب عرقاً من شدة الخجل!

–هكذا أريدك أن تتصرف معنا!لا رسميات ولا مجاملات!فليقل كل منا ما يأتي على لسانه وما يدور بخاطره وليتصرف كما يحلو له ! لا لوم ولا عتاب، ولا قيل ولا قال ! وإلا لما كانت صادقة حقاً ! قال الزوج مشجعاً ! أما الزوجة فقد التزمت الصمت، ولا شك أنها عرفت، أنها هي التي عنيتها بقولي !

وبعد أن شرب الزوج آخر رشفة قهوة في فنجانه وضعه على الطاولة ووقف ثم أضاف:

–لا حاجة لأن تقررا الآن ! تشاورا بالأمر وقررا ثم أعلماني!!

–ولم لا نذهب إلى الجبال ونصطاد الطيور؟! سألت بصوت متلعثم إذ ما زلت تحت تأثير خجل ما خرج من فمي.

-البندقيتان اللتان عندنا هما للتسديد على الأهداف البسيطة والصغيرة وليستا لصيد الطيور؛ فإذا كنا نريد الصيد حقاً، فلا بد من شراء البنادق المخصصة لتلك الغاية! قال الزوج .

-نكتفي هذه المرّة بالتسديد على الأهداف البسيطة؛ أما صيد الطيور فيأتي لاحقاً!قالت الزوجة.

-أنا أحب ذلك كثيراً! قلت بعفوية.

-في كل مرة نذهب إلى هناك نمضي وقتاً ممتعاً؛ وأفضّل أن ننام ليلة. قالت الزوجة.

-إذن اسمحا لي الآن بالذهاب. قال ذلك وتوجه نحو غرفة المكتب، ثم توقف وأدار ظهره إلينا:

-في منتصف الأسبوع القادم، سيأتي صديق عزيز عليّ من مدينة "كانسيس ستي" إلى لوس أنجلوس، لقضاء بعض الأعمال، وهو يحب أن يراك يا سهيل، لكثرة ما حدثته عنك! إنه هو نفسه لا يعرف اليوم بالضبط بعد، وسيهاتفني حالما يتأكد منه لأقابله في المطار.

-سأكون سعيداً جداً لمقابلته والتعرف إليه! قلتها بطريقة عفوية، وكأنما هذا هو الكلام الذي يجب أن يُقال!

-سأنضم إليكما حالما أنتهي من كتابة التقرير، وإن كنت أحب أن أجلب انتباهكما بأنني قد أحتاج إلى ساعتي عمل !

-لا تفكر بنا؛ سنجد ما نتحدث عنه أو نشاهد التلفاز إن رغب سهيل ذلك! قالت الزوجة.

-لا، لا، أرجوكِ! أنا لا أحب ما يعرض على التلفاز إلا نشرة الأخبار، أو الأفلام الوثائقية؛ أما ما عدا ذلك فهو عندي مضيعة للوقت !

-كما تشاء ! إذن نتحدث ! قالت الزوجة، ودخل الزوج غرفة المكتب وأغلق الباب خلفه.

-ماذا تحبين أن تشربي؟إنني ما زلت أحسّ بحرارة الطعام الإسباني، وأحب أن أشرب بعض البيرة لتطفئ حرارة فمي وجوفي ! سألت أنا الزوجة وقد نهضت واقفاً.

-احضر لي معك تنكة بيرة من فضلك.

–هل الرجل الذي سيحضر الأسبوع القادم صديق لكما أنتما الاثنين ؟! سألت وأنا أناولها تنكة البيرة، دون أن أفتحها.

–في الحقيقة إنني لم أقابله قط في حياتي، وقد ذكر لي جيمس قبل مجيئك الليلة بأن أحد أصدقائه الأطباء، سيأتي إلى كاليفورنيا الأسبوع القادم، ليحضر اجتماعاً علمياً؛ ولست واثقة إن كان هذا الاجتماع في منطقة لوس أنجلوس أو في منطقة سان فرنسيسكو. وبعد أن أزالت غطاء التنكة أضافت:

–هو من " كانسس ستي " ، ونحن من بلدة صغيرة تبعد عنها حوالي ثلاثين ميلاً؛ تعرّف إليه جيمس بعد زواجنا بعدة أشهر، وكان يذهب لزيارته كلّ أسبوع؛ إذ إنه من المساهمين الكبار في البنك، كما فهمت؛ وبعد أن شربَت رشفة من تنكتها أضافت:

–لم أسمع باسمه منذ مجيئنا إلى كاليفورنيا إلا هذا المساء! إنني حتى الآن لا أعرف إن كان طبيباً بشرياً أو طبيباً أكاديمياً !

–على كل حال أهلاً وسهلاً به إلى كاليفورنيا، وسنستقبله استقبال الفاتحين المنتصرين ! ضحكت أنا نفسي لمقولتي، فقد خرجت مني دون تفكير، وشاركتني المرأة الضحك، ولست أدري إن كانت حقاً قد فهمت هذا التعبير العربي، أو أنها ضحكت فقط مجاملة لي !

–لقد اقترحتَ أن نذهب للصيد بدلاً من ضرب أهداف وهمية، فلا بدّ من أنك صياد ماهر! قالت الزوجة.

–صياد من الدرجة الأولى، لا يباريني بها أحد ! قلت وقد انفجرت أضحك لدرجة لم أستطع أن أكمل جملتي!

كانت شيلا تحدّق بي وأنا أهتز من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي، إذ لعلها كانت تحاول أن تعرف سبب ضحكي؛ ولما استطعت الكلام أضفت:

–أنا صياد ماهر فقط باصطياد النساء الجميلات! أما صيد الطيور أو الحيوانات فابن خمس سنوات يتفوق عليّ ! وهنا انفجرت شيلا تضحك بدرجة تفوّقت بها عليّ! ولما توقفنا عن الضحك ومسح كل منا دموعه بمنديل ورقي بدأت ذكريات عزيزة تستيقظ في أعماقي وتهزني هزاً عنيفاً؛ قلت:

–سأقص عليك بعض تجاربي الحقيقية والمضحكة عن صيد الطيور في الوطن، وليس عن صيد النساء الجميلات؛ ولكن دعينا نتساعد أولاً

وننهي غسل الصحون ونحن نتحدث ! قلت ذلك وحملت تنكةالبيرة ونهضت واقفاً.

–لا، لا، سأفعل ذلك بعد ذهابك!ستأخذني دقائق قليلة! إجلس فإنني أحب الاستماع إلى الحديث! قالت ومدّت يدها نحوي وكأنما تحاول أن تمسك بي لتجلسني.

مددت يدي وأمسكت بيدها الممدودة نحوي وأنهضتها بلطف فتجاوبت مع حركتي بخفة ورشاقة !

–صدقيني أن غسيل الصحون لم يعد له المفهوم المهين للرجل كالسابق، بل على العكس من ذلك إذ إنني أحياناً أحب أن أغسل الصحون بل أشتاق إلى غسلها؛ صدقيني ! قلت صادقاً !

–لا بأس ! إذا كانت هذه هي رغبتك ! قالت.

عندها أطلقت أنا يدها فمدتها هي وحملت بها تنكة البيرة، وتوجهنا نحو المطبخ، حيث بدأ الاستعداد لغسل الصحون ومسح المطبخ !

–كان لي صديق عزيز لا يمر يوم واحد، إلا فيما ندر، دون أن نرى بعضنا بعضاً ! كان يملك بندقية صيد، فكنّا نأخذها ونأخذ طعامنا كل يوم جمعة، وهو عطلة نهاية الأسبوع عندنا في الوطن ، ونذهب سيراً على الأقدام بعيداً عن المدينة إلى الأحراش أو السهول أو الجبال ! كنا نمضي طيلة النهار نطارد الطيور بمختلف أنواعها وأحجامها، وعندما نعود في المساء نكون قد صدنا عصفوراً صغيراً أو لا شيء !

–وما السبب ؟! سألت باستغراب !

قلت و شعور لذيذ يختلج في صدري، وذكريات حالمة تهز كياني:

–الأسباب متعددة ! كان صديقي صياداً فاشلاً، وكنت أنا أكثر منه فشلاً؛ فكلانا تنقصنا الخبرة؛ كما أن البندقية التي كان يملكها صغيرة الحجم، لها رصاص وليس خرطوشاً، فتخرج صوتاً يشبه صوت "فيوز" الكهرباء عندما يحترق، لعلها تشبه البندقية التي عندكم والتي قال عنها جيمس بأنها لا تصلح للصيد !

–البندقية التي عندنا لها رصاص صغير بحجم حبة الفاصوليا المنقّطة ! قالت وهي تضحك، وأشارت إلى رأس خنصرها !

–نعم؛ هذه هي ! ولكن هذه لا تقتل طيراً ولا حتى عصفوراً !

–في إحدى المرّات رأينا طيراً ظنناه طير حجل، يقف غير بعيد منا على شجيرة ! سدّد صديقي بندقيته عليه فسقط، ولعله سقط من الرعب وليس من الرصاصة، إذ ربما كان حديث العهد بالطيران؛ ثم إننا لم نجد به جرحاً فيما بعد ! طار ونزل ثانية، ثم طار ونزل، فصرنا نطارده بشراسة، فهذه أول فرصة تتاح لنا لنبرهن رجولتنا ! وبعد مضي بغض الوقت ، استطعنا أن نمسك به! كان يزن حوالي رطلاً أميركياً، وطرنا من الفرح، فحملناه إلى المدينة حيّاً ونحن نتباهى ونتفاخر أمام الأولاد الذين نقابلهم في الطريق ممن هم في مثل سننا؛ وفي كل مرّة نقابل أحدهم كان صديقي يؤكد له أنه هو الذي اصطاده وليس أنا!المهم عندما وصلنا إلى بيت أخ صديقي المتزوج والخبير بالطيور، وبعد أن أعلمناه الجهد والمطاردة والوقت الذي أمضيناه حتى استطعنا اللحاق به، تأمله وضحك طويلاً حتى لكثرة ما ضحك أثار غيظنا وحنقنا!وأخيراً استطاع أن يتكلم ويقول بأن هذا الطير اسمه "أبو سعد" وهو من الطيور ذات اللحم شديد المرارة وأنه لا يؤكل أبداً، وأنه إذا حدث وأكله إنسان فسيحتاج إلى غسل معدة وإلا أصابه التسمم ! لا تتصوري صدمتنا وخيبتنا معاً !

–يا للمساكين! وماذا يشتغل صديقك في الوطن؟

–اسمه زينون. إنه الآن ليس في الوطن؛ إنه في مدينة أكسفورد في بريطانيا! إننا للأسف بدلاً من أن نخدم وطننا نخدم أوطاناً غيره، الكثير منها عدو لأمتنا ولمعتقداتنا، والكثير منها داس وما زال يدوس على كرامتنا وشرفنا؛ وكذلك نهبوا ثرواتنا وخيرات بلادنا!

لم تعلق السيدة روبنسون، فقد لاحظت أنها تحملق بي مندهشة وكأنما تفكر فيما أقول.

–زينون وأنا والكثيرين غيرنا، حلّت علينا لعنة حكّامنا، فتفرّقنا في بقاع الأرض لأننا غير مرغوب بنا في وطننا الكبير! نحن مثل اليهود في العهد القديم لم يمتثلوا لوصايا الخالق فحلّت عليهم لعنته فشردهم في بقاع الأرض! أما نحن فلم نغضب الخالق، ولكننا أغضبنا الحاكم الذي يريدنا أن نكون مطبلين له ومزمرين، فلم نقبل أن نمتثل لأوامره، ونرفض أن نحقق له رغباته، والتي غالباً ما تكون لمنفعته الشخصية، وضد مصلحة الوطن، فحلّ غضبه علينا !! زينون يخدم عدوتنا اللدودة بريطانيا، وأنا أخدم أميركا التي لا تقل عنها عداوة وكرهاً لنا !

–ولم تعتبرهما عَدُوَتَيْكُما ؟! سألت شيلا باندهاش وحيرة !

–لأن الأولى مزّقت عالمنا العربي إلى دويلات صغيرة بمساعدة فرنسا، فأعطت بلادنا فلسطين لليهود القادمين من شتى أنحاء العالم؛

فطردتنا من ديارنا ! والثانية وضعت كل إمكاناتها تحت تصرف الدولة العبرية، حتى أصبحت قوة جبارة تتحكم بمصائرنا وتملي علينا إرادتها وتفرض علينا شروطها!

–الآن فقط أدركت كنه الكراهية الشديدة التي يكنها بعضكم لحكومات تلك الدول! قالت المرأة ومسحة من الحزن تغطي وجهها ثم أضافت:

–لا شك أنك افتقدت صديقك كثيراً!

قلت وقد انتشر لحاف من الحزن والأسى على وجهي، وعصفت بعاطفتي انفعالات وذكريات شتى:

–نعم! كثيراً جداً! إنها صداقة طفولة، ولعلك تعرفين أن صداقة الطفولة هي أقوى الصداقات وأطولها عمراً! إنها تأريخ لخفقات قلب الإنسان... لنبضات وجدانه... لذكرياته... لأحلامه... لآماله !! أ ن عادات وتقاليد الوطن لا تسمح بصداقة شاب وفتاة ! إنني قبل مجيئي من الوطن لم أجرّب ذلك النوع من الصداقة الطاهرة، النقية، الخالية من الأغراض والمقاصد ! الصداقة الروحية التي هدفها فقط غذاء الروح والقلب معاً !

–وهل جرّبت تلك الصداقة التي تتحدث عنها هنا في أميركا ؟!سألت شيلا باهتمام شديد، لاحظته في اتساع عينيها المحدقتين بي !

–نعم ؛ أضاء نورها قلبي وانتشر قبسها في كل وجداني ! لقد جربتها وتأكدت منها الليلة؛ نعم هذه الليلة ! قلت باعتداد وفخر!

توقفت المرأة عن غسل الصحون ونظرت إليّ بخبث ومكر أمّنا حواء، وركّزت عيناها على عيني، مما جعلني أحسّ كأنما عيناها أشعة بنفسجية تدخل في مسامات رأسي وتصل إلى مخي لتقرأ أفكاري !

–تعني هذه الليلة ؟! سألت وهي تقلب شفتيها عجباً، وآه ما أحلى شفتيها عندما تقلبهما! إنهما رسمة زيتية خالدة للمبدع الأعظم !!

–نعم هذه الليلة وفي هذا البيت؛ سكن شيلا وجيمس روبنسون !

–لا بدّ وأن أكون أنا المعنية ! قالت وهي ما زالت تحملق في عينيّ مما حدا بي لأن أتجنب نظراتها وأتشاغل بتجفيف بعض الصحون التي في يدي وأضعها في مكانها !

–نعم أنت المعنية! قلت وقد ارتفع حماسي وازدادت شجاعتي.

–كنت أعرف أن ما بيننا أنتِ وأنا صداقة روحية طاهرة نقية، ولكنها لم تمرّ بتجرية جسدية ليتبين صدق معدنها وأصالة وجودها، والليلة، وعندما كنا في غرفة الجلوس، ونحن نجلس قبالة بعضنا البعض، وضعتِ قدماً فوق الأخرى، فظهرت فخذاك، وبانت شلحتك وكل سروالك، فارتجف جسمي رعباً ممزوجاً بالحياء والاحترام والتهيّب، وكأنما شاهدت سوءة والدتي أو إحدى أخواتي!

احمرّت أذناها وتوردّ خداها، فحولت عينيها عني وتشاغلت بغسل إحدى الطناجر!

–نعم، لون شلحتك كان عنابياً، ولون سروالك نيلياً!

انفجرت تضحك وقد خبأت عينيها بذراعها اليمنى، بينما شرائح رغوة سائل غسل الصحون تتساقط على أرض المطبخ!

–يجب أن ألبس بعد اليوم بنطالاً حتى لا أثير قرفك واشمئزازك!قالت وهي ما زالت تضحك ومغطاة العينين.

–لا حاجة لأن تفعلي ذلك، لأنني سأعمل كل ما في وسعي لأتجنب النظر إلى ساقيك! إنني لم أذكر لك هذه الحادثة لأي سبب كان؛ فقط أريد أن أبرهن لنفسي ولك أنتِ أيضاً، بأن صداقتنا، من جانبي، هي صداقة روحية ذهنية فكرية فقط!قلت وقد حوّلت نظري لما أمامي من الصحون إلى وجهها.

–لم أكن بحاجة إلى برهان! صدّقني يا سهيل إنني كنت أحسّ ذلك بوجداني... بكل كياني! قالت وقد كفّت عن الضحك ورفعت يديها عن وجهها الذي كسته مسحة من الجدّ الصارم! وبظهر يدها اليسرى أعادت إلى مكانها خصلة الشعر التي سقطت وغطّت عينيها.

–وماذا تسمي شعورك نحو الفتيات اللواتي تدعوهن ؟! أليس صداقة ؟!

–لم أعتبر يوماً أن المشاعر التي أكنّها لذلك النوع من الفتيات هي صداقة بمفهوم كلمة صداقة!

–وماذا تسميها إذن؟!سألت باهتمام مبالغ به.

–الصداقة في رأيي هي شوق روح... تلهفها... حنينها... للقاء روح أخرى!أما المشاعر التي أكنّها لذلك النوع من الفتيات فهي رغبة لقاء جسدين جائعين يستمتعان بلقاء بعض !لقاء رجل بامرأة، يتحدثان معاً،

يأكلان، يشربان، ثم في آخر الليل يضاجعان بعضهما بعضاً ! منذ أن وصلت إلى أميركا، وكل امرأة جميلة هي عندي للفراش، ولو كان برأسها علوم وآداب وفنون العالم! المرأة الجميلة تعني عندي فراشاً فقط!

-إذن ! أنا مع قائمة النساء القبيحات !قالت مداعبة وهي تبتسم.

-على العكس من ذلك! أنت في رأيي ومعتقدي أجمل جميلات العالم؛ ولكن من المحرّمات عليّ! قلت بحماس مدافعاً.

جففت يديها بطرف مريولها بسرعة، واحتضنتني بطريقة عفوية وقبلتني على خدي!

ارتبكت واعتراني خجل شديد، واحترت ماذا أفعل؛ هل ألف يدي حولها كما فعلت هي وأقبلها كما قبلتني؟وقبل أن أصمم كانت قد سحبت يديها من حولي وأعادتهما إلى حيث رغوة الصابون والصحون بعد أن مسحت بظهر يديها بعض الدموع من عينيها!

-صدقني يا سهيل، لو أعطيتني أي شيء في الدنيا، لما كنت أسعد حالاً مني الآن، بعد أن سمعت قولك هذا لي! لطالما صليت، ساعات وساعات، ولطالما دعوت الله ورجوت السيد المسيح، بقلب المؤمن وأشواق العابد، أن يكون ما عندك لي من حب هو مثل ما عندي لك الآن، ومنذ أن زرتنا في بيتنا هذا؛ حباً أخوياً مجرداً عن الرغبات والشهوات ! إنني أريد أن يسمو حبنا الأخوي هذا... يقوى... يتعملق... حتى يصل مصاف حبّ القديسين والصالحين!

-لقد خبرت هذا النوع من الحب عندما كنت في السادسة عشرة من عمري، وعندما كنت ما زلت طالباً في المدرسة الثانوية! لقد مارسته مع خيال امرأة، مع طيفها، وليس مع امرأة حقيقية! لقد كنت سعيداً سعادة لا يتصورها إنسان بهذا الحب! كانت سعادة وجدانية، عاطفية، قلبية، روحية، فكرية، ذهنية! كنت أعطي ولا آخذ! دائماً أعطي!أتكلم ولكن لا يجيبني أحد وكأنما كنت أتكلم مع نفسي! أعاني بقسوة، أتعذب بوحشية، أشكو، أتوجع، أتألم، أبكي، أغنّي، أجري، أنادي بأعلى صوتي؛ ولكن لا يعلم بي أحد ولا يراني إنسان! كنت سعيداً سعيداً بهذا الحب الذي هو من طرف واحد! ما أشعر به الآن وأحسه نحوك، هو نفس الشعور والسعادة والبهجة التي كنت أحسها نحو بياتريس، ولولا أنني واثق تمام الثقة من أن بياتريس هذه كانت فتاة حقيقية إنسية تعيش بيننا، لقلت إنها خيال أو أسطورة، أو فكرة ضبابية، لا وجود لها ؛ اخترعتها مخيلتي !

–اسمها جميل! وهل تعرف أن هذا كان اسم حبيبة الشاعر الإيطالي العظيم دانتي؟!

–نعم، أعرف ذلك! العرب لا يسمون هذا الاسم، ولكن مخيلة صديقي شاهر أطلقت هذا الاسم على الفتاة التي عرفت فيما بعد أننا كنا نشترك نحن الاثنين في حبها ! كانت معروفة بين كل شباب الحي بسبب جمالها وشهرة والدها؛ وإنني لا أبالغ إن قلت لك بأنها كانت معروفة أيضاً، وجيداً، من قبل معظم شباب الأحياء المجاورة؛ ولذلك أطلقنا عليها هذا الاسم شاهر وأنا، حتى عندما نشير إليها لا يعرف من يسمعنا أننا نتكلم عنها!لقد كاد اسمها المعطى ينسينا اسمها الحقيقي!

–أذكر أنك حدثتني عنها كثيراً! وأين صديقك شاهر الآن؟

–إنه يعمل مدرساً للأدب العربي في إحدى دول الخليج؛ تعاقد معهم وسافر في نفس الأسبوع الذي عدنا فيه من القاهرة بعد تخرجنا!

–قلت بأن صديقك زينون في بريطانيا، ومتى رأيته آخر مرة؟

–كانت قبل أربع سنوات عندما ودعته في المطار وكان مغادراً إلى بريطانيا. كان يحب الآثار، وكان يعمل مع مجموعة من شباب الوطن بالحفريات عندما زارهم رجل بريطاني عجوز يعمل بدائرة الآثار في بلده، ووصل مركزاً رفيعاً فيها، فعرض مساعدته على زينون، ليتابع دراسته في بريطانيا وعلى حسابه الخاص؛ فقبل زينون العرض. قلت وقد اجتاحتني عاطفة كاسحة من الذكريات الحلوة العذبة الجميلة !

–وهل ما زال طالباً ؟

–لا، لقد تخرج؛ إنه الآن مسؤول عن متحف صغير في مدينة أكسفورد!لقد طلب في حينها من الرجل أن يساعدني أنا أيضاً، فوافق الرجل الطيّب مشكوراً، وأمهلنا حتى يجد مكاناً مناسباً لي، حيث أن لا خبرة عندي ولا ميل للآثار؛ ولكنني حصلت على تأشيرة زيارة إلى هنا؛ وأظن لو أنني انتظرت قليلاً لكنت الآن في بريطانيا !

–أنا سعيدة جداً أنك أتيت إلى أميركا ولم تذهب إلى بلاد الضباب! قالت بحماس وفرح.

–وأنا كذلك! قلت بحماس وفرح لا يقلان عنها.

–ألم تحاول أن تراه في طريقك إلى هنا؟

-نعم! لقد رتبت مع شركة الطيران التي حملتني إلى أميركا، وبناء على ترتيب مسبق معه أيضاً، لقضاء أربعة ليال أمضيها في لندن من أجل أن نكون سوية، ولكن القدر لم يرد لنا أن نجتمع، إذ طلب منه الرجل العجوز أن يرافقه في رحلة مفاجئة وضرورية وعاجلة إلى أستراليا، لزيارة ابنه الذي يسكن هناك؛ إذ يبدو أن صديقي لم يستطع الاعتذار! قلت وقد استولى عليّ فجأة حزن شديد.

-أنا آسفة جداً أن أسمع هذا!قالت شيلا وقد كسا صوتها رنّة حزن.

-كان من المفروض أن يقابلني بالمطار، ولا تتصورين حزني وخيبة أملي عندما وجدت رسالة منه كان قد أبلغها إلى موظفة شركة الطيران على الهاتف، باعتذاره وحزنه الشديد لهذا التغيير الذي حدث في آخر لحظة، واعتذاره بأنه لم يستطع الاتصال بي هاتفياً بالوطن رغم محاولته الشديدة ! الأتصالات السلكيه بين الأردن وأروبا غير متوفرة ؛ لقد حاولت مواصلة الرحلة إلى لوس أنجلوس في نفس اليوم ولكنهم أعلموني باستحالة طلبي لعدم وجود أماكن، وأن أول فرصة ممكنة كانت ضحى اليوم التالي!

وهنا توقفت عن الحديث ، فقد وصلت عواطفي إلى درجة من الغليان والثوران أكاد لشدتها أنفجر كبالون !

لعلّ المرأة قد أدركت ما كنت أمرّ به، فلم تعلق ولم تفتح فاها حتى ولو بكلمة مواساة !

-كنت أسير في شوارع لندن الرئيسية وساحاتها على غير هدى، فسرت بشارع أكسفورد وساحة "بيكادلّي سيركص" ثم بساحة الطرف الأغرّ ! كنت سكران حتى النخاع، إذ كانت المرة الأولى التى أذوق بها الخمر ، وكنت أبكي تارة وأصيح بأعلى صوتي تارة أخرى ! الشعب الإنجليزي شعب بارد... لم يتقدم مني أحد ليسألني ما بي ولِمَ أبكي وأصيح !إنهم يعتبرون ذلك من الخصوصيات الشخصية ! كنت أصيح بأعلى صوتي:"أنا مسحوق حتى عظامي أنا غريب في هذا العالم!أنا ضائع! يا من يدلني على الطريق؟!" وكلما رددتها كلما شعرت بعظم الضياع والانسحاق والغربة التي أنا بها! كنت أول مرة أشرب بها خمراً! في ساحة الطرف الأغر، تقدمت مني فتاة جميلة جداً؛ ولست أدري هل كانت حقاً جميلة، أم أن الخمر صوّر لي ذلك؛ وابتسامة ساحرة فوق شفتيها وسألتني عما بي ولم أبكي وما الذي أقوله!! شعرت بسعادة هائلة إذ إن هناك من يسأل عني ويهتم بي في بلاد الغربة، بلاد الضياع والقلوب المتحجرة؛ فترجمت لها ما كنت أردده وسبب بكائي؛ انفجرت تضحك، مما زاد في حزني وأصابتني بخيبة أمل لا أستطيع أن أصفها لك إذ قالت:

-إذا كنت تريد أن تجد أهلك وأحبابك ووطنك، وتنسى غربتك وحزنك وانسحاقك، فتعال وارقد بين فخذي وفوق صدري، فإنك ستجد الدواء الشافي! قالت ذلك وتابعت سيرها وهي مغرقة بالضحك!

تضاعف حزني وشعوري بالغربة، فازداد بكائي وارتفع صوتي وكثر ترديدي لهذه العبارات وأمثالها!!

-ولم كنت تشعر هكذا؟! ألأنك لم تقابل صديقك؟!

-لا شك أنه أحد الأسباب؛ أما السبب الآخر فقد كانت تلك المرة الأولى التي أخرج بها في حياتي خارج حدود الوطن العربي الكبير، وطني الغالي؛ إذ انتابتني أحاسيس شتى عنيفة من الشعور بالغربة والخوف والانسحاق والضياع ! كنت خائفاً لدرجة مذهلة، وكنت أشعر كأنما أنا مقيد بسلاسل وسيلقى بي في المحيط لتأكلني الحيتان والأسماك!

-لم أقابل، بل لم أقرأ عن إنسان يسيطر عليه حب الوطن مثلك!

-هذا لأنكِ عشتِ في وطن مستقر مترف، ليس عنده مشاكل غياب العدالة ومصادرة الحريات؛ ويمارس به كل أنواع الإذلال البشري؛ عندنا يوجد الكثيرون من يحبون الوطن أكثر مني ويفدونه بحياتهم وأولادهم وأموالهم؛ وطبعاً يوجد الكثيرون أيضاً الذين لا يهمهم ما يحدث للوطن حتى ولا قيد أنملة ويبيعونه للأعداء، لو استطاعوا، أرضا وشعباً، ويقبضون ثمنه !

* * * *

*الفصـــل

بعد مغادرة صديقي جورج مونتكيو إلى شمال كاليفورنيا بأسبوع، عاد صديقنا الدكتور هانس هايدلبيرق إلى ألمانيا، ليقضي عطلته الصيفية ويرى ولده الذي يعيش مع أمه المطلقة؛ ثم ليشاهد، كما أعلمني ونحن بالسيارة في طريقنا إلى المطار، ألمانيا الموحدة تتعاظم وتتعملق وتزدهر ! لعلها تكون يوماً ندّاً قوياً وخصماً عنيداً للولايات المتحدة الأميركية، أو حتى بديلاً لها، بعد إذلال وغطرسة أميركية روسية بريطانية وفرنسية، دامت نصف قرن من الزمان !!

لقد طُلب منه أن يدرّس في الصيف إضافياً ولكنه اعتذر! حملته بسيارتي إلى المطار، وقد رأيت الفرحة تتأجج على وجهه وتنطق بها

عيناه، فقلت بثقة وإيمان وعفوية وأنا أشدّ على يده بحرارة وإعجاب وتقدير بعد أن تعانقنا:

-ستوصلني بسيارتك إلى المطار صيف العام القادم ،إن شاء الله ، وأنا عائد إلى أرض الوطن الحبيب لأحضر ميلاد وحدته بعد خلاصه من التبعية للغرب ومن الجالسين على صدره ، المتحكمين بأقداره !

ضحك اللئيم ضحكة صفراء مليئة بالسخرية والاحتقار، وقال:

-أعتقد أنه سيطول انتظارك... بل أخشى أن ينقضي عمرك قبل أن تتحقق أمنيتك !

فاجأني جوابه بادئ ذي بدء، إذ طالما أمضينا، نحن الثلاثة، هو وجورج وأنا، ساعات وساعات، ننظّر ونحلل ونناقش أنجع الطرق وأضمنها لتحقيق الوحدة بين شطري ألمانيا، وكذلك الوحدة بين الأقطار العربية ! لقد كان الاثنان يبديان دائماً تعاطفاً وغيرة على قضايانا وهمومنا !

-لا شك أنك تمزح يا صديقي! قلت وقد فردت ابتسامة ناعمة فوق شفتي !

-لا، أنا لا أمزح ! أنا في منتهى الجدية! قالها وتكشيرة كبيرة تغطي وجهه!

-وما الذي غيّرك بهذه السرعة؟! لقد كنت حتى صباح هذا اليوم متحمساً لقضايانا متعاطفاً معنا!

-لقد كنت فقط أجاملك ولا أحب أن أفجعك في أمانيك؛ فوجدت أنه من العدل أن أجابهك بالحقيقة وأوقظك من أحلامك! قالها بوقاحة وخشونة!

لقد أغاظني قوله وأثار حفيظتي، فصحت به بقهر مشتعل وغضب لاهب:

-أمحرّم علينا أن ننعتق من نير العبودية الذي وضعه الاستعمار على رقابنا ؟! ألا يحق لنا أن نتحد كما اتحدتم أنتم واتحد غيركم ؟! إن عندنا عقولاً جبارة وإمكانات ضخمة وطاقات هائلة، وبلادنا أكبر من أوروبا وأغنى منها مجتمعة !

-نعم يحق لكم ! ولكن هناك فرقاً بين الممكن والمسموح به؛ وحكامكم سيمنعون وحدتكم بقوة السلاح ولو اضطرهم ذلك لتدمير المدن وسحق أهلها ! أجابني ببرود وهدوء أعصاب.

-أُشكرِ الله إن بقيتم على ما أنتم عليه ، فإن أميركا وبريطانيا وإسرائيل، عازمة على تمزيق أوصال بعض أقطاركم !

-تمهل يا هانس! إن دور الخونة في المحرقة وإلقاء رماد أجسادهم النجسة وأرواحهم الخبيثة الشريرة في الجور الامتصاصية، معدّ سلفاً، فساعة حرقهم آتية لا ريب فيها! إن الصهيونية العالمية وحلفاءها ينتظرون عليهم حتى ينتهوا من مهام الخيانة التي أسندوها إليهم ! قلت بإحباط ومرارة!

-فلنفترض جدلاً أن ما تقوله صحيحٌ؛ فإن قطيعاً جديداً من الأذناب والعملاء معدٌّ سلفاً أيضاً، وهم ينتظرون بفارغ الصبر وشوق مستعر، ليأخذوا مكانهم ولينفذوا مهمات أكثر خطورة وأعمق شأناً! قالها هذه المرة بجدية واهتمام!

-لن يسمح لهم أحرار الأمة أن يفعلوا ذلك !قلت بثقة وإصرار!

ضحك الوقح مرة ثانية، بل قهقه بصوت جلب انتباه المحيطين بنا، فقال بغيظ وتشفي:

-إنك متفائل جداً يا صديقي! فالوطنيون والغيورون والأحرار الذين صدعت رؤوسنا، جورج وأنا ببطولاتهم وتضحياتهم ، قد جعل منهم دولار البترول عبيداً أذلاء ومرتزقة قميئين ، يبيعون الأرض والعرض والولد، وحتى الدين ، مقابل سيارة فارهة يركبونها أو "فيلّا " مترفة يسكنونها !

-لا، لا، أنت مخطئ يا صديقي هانس ! سنتوحّد وننهض ونصبح قوة عظمى مثلكم؛ فعندنا كل المقومات ! قلتها بتفاؤل وهدوء ومحبة، وابتسامة حنونة تغطي وجهي؛ ولكن اللئيم ردّ علي ردّاً حيرني وأذهلني، إذ ظهر حقده وعنصريته؛ فبان على حقيقته إذ قال كأنما يتعمد إهانتي وتحقيري!

-خسئتم يا حثالة الشعوب، ويا هوام الصحراء! تشبّهوننا بكم ؟! هذه إهانة واحتقار لنا، ثم استخفاف بعظمتنا وتراثنا ! لقد دفع نصفنا الغربي إلى نصفنا الشرقي ملايين المليارات من الماركات، من أجل وحدتنا الوطنية وعزتنا القومية؛ ودفعتم أنتم أضعاف أضعاف هذه المبالغ، من أجل تمزيق وحدتكم القومية وتهديم إنجازاتكم الحضارية ! قالها باستعلاء وغطرسة.

وقفت مصعوقاً أستمع إليه وقد انعقد لساني ولم تصدق أذناي عندما أضاف:

-نحن نحمي الوطن بقلوبنا وحبنا وسواعدنا، وأنتم تبيعونه كالمومسات العاهرات، إلى الذي يدفع الثمن !

لم أجد ما أقوله إلى الدكتور هانس من شدة الإحباط واليأس والغضب سوى:

-يبدو أنه من الصعب عليك أن تتخلى عن نازيتك وعنصريتك ! إنك مخلوق...

لم أستطع مواصلة الحديث، فقد غرّد صوت أنثوي حاد النبرات واضح الألفاظ ارتجت له أركان القاعة، يطلب إلى المسافرين على الخطوط الجوية الألمانية " لوفت هانزا " ، التوجه إلى البوابة رقم 14.

في العودة و سيارتي تنهب الطريق السريع بين المطار وسانتا مونيكا، كنت أفكر بما قاله لي الدكتور هانس، فتوصلت إلى قناعة تامة، بأن ما قاله عنّا هو حقيقة ثابتة، وإن كنت بيني وبين نفسي أخاف من الاعتراف بها، خوفاً من الواقع ورعباً من المستقبل! لقد صارت عواطفي تتقد قهراً وحزناً، وصارت دموعي تنزل بغزاة حجبت رؤية الطريق أمامي، مما اضطرني للخروج عن الطريق السريع إلى أحد الشوارع الجانبية والانتظار أكثر من خمس دقائق ، لأتخلص من الدموع المنسكبة والزخم العاطفي .

حقاً إن الأمة العربية بحاجة إلى زعيم تاريخي يأخذ بيدها ويقيل عثرتها ويجتث عفنها! زعيم مخلص شجاع يفقأ دماملها، ويزيل تقيحها ويستأصل أورامها، ويقضي على هوامها وديدانها وحشراتها وجراثيمها... ويخلصها من هوانها وذلها وتمزقها... !!

* * * * *

الفصـــــــــــــــــــــــل الخامـــــــــــــــــــــل

على الرغم من أنني كنت قد وعدت صديقي جورج مونتكيو، عندما ترك مدينة سانتا مونيكا وعاد إلى مدينة سان هوزيه، لينضمّ من جديد إلى زوجته وأولاده، وليسعدوا ثانية بحياة عائلية دافئة حرموا منها عشرة

اعوام ونيّف؛ بأن أقضي عطلة نهاية الأسبوع من كل شهر وكذلك جميع العطل الدراسية، في بيتهم؛ إلاّ أنني لم أفِ بوعدي ولم أزرهم ولا مرة واحدة !لقد كان مبرري الوحيد هو إعطاؤه الوقت الكافي للتفرغ لوضعه الجديد وللتأقلم على حياة العائلة بعد عيشة عزوبية طويلة ! لقد كان جورج عوناً كبيراً لي للتغلب على وحدتي وغربتي القاتلتين، بأحاديثه الشيقة الممتعة والمسلية أيضاً؛ كما كانت نظرته اللامبالية للحياة ومشاكلها وهمومها، وسخريته منها، تشجعني على الصمود أمام زوابع الدهر وعواصف الحياة !

لقد كانت المكالمات الهاتفية بيننا لم تتوقف ! كان ما ينفك يحدثني عن سعادته وهو بين زوجته وأولاده، ويتحسر على السنوات الطويلة التي أضاعها بعيداً عنهم، وأنه الآن يحاول أن يعوضهم ويعوض نفسه عما فات؛ كما كنا نتحدث عن أحداث العالم والمستجدات على الساحة الدولية !

في الحقيقة إنني افتقدت مناقشاتنا المسهبة وتحليلاته العميقة الذكية للحياة ومشاكلها، كما افتقدت كثيراً آراءه التهكمية اللوذعية !

لا بد وأن أكون صادقاً مع نفسي صريحاً مع عواطفي وأحاسيسي، فأعترف بأنه بعد مغادرة صديقي جورج، لولا تعرفي على السيد والسيدة روبنسون، وصداقتي الحميمة، ورؤيتي شبه اليومية لهما، لكان أصابني إحباط شديد ووحدة قاتلة؛ كان من الممكن أن يقوداني إلى الجنون أو الانهيار! لم تكن آراء الزوجين في كثير من الأحيان تقل عمقاً وذكاء عن تحليلاته وآرائه في كثير من القضايا، ولكن تحليلات صديقي جورج فيها مذاق ونكهة العالم العربي بسبب خلفيته العميقة والواسعة بعالمنا، كما إن بها لوذعية مميزة، قلّما تجدها عند كثير من الناس !

كان جورج يتصل بي بعد العاشرة ليلاً، وإذا لم يجدني في شقتي، فقد كان يتكلم معي في منزل السيد و السيدة روبنسون، إذ يعرف أنني أحب البقاء في البيت كثيراً وأكره التأخير خارجه لأي سبب كان ! لقد أسعد الرجل العجوز كثيراً أنني تعرفت على الزوجين بعد رحيله، وأن صداقة متينة العرى قد بدأت تنمو بيننا، فقد غادر سانتا مونيكا وهو قرير العين مرتاح البال كما قال! لقد كان قلقاً جداً عليّ بعد رحيله حتى إنه كان يتمنى لو أن أترك عملي هنا وأجد عملاً آخرَ قريباً من سكنه الجديد؛ فقد عرف شدة شغفي بشخصه وآرائه، وأدرك كم عانيت وتمزقت من الغربة والوحدة قبل تعرفي إليه ! لقد ذكر كل هذه الحقائق للزوجين ، السيد و

السيدة روبنسون ، أكثر من مرة وشكرهما لأنهما عوضاني بصداقتهما واهتمامهما بي بعد رحيله، مما أفرحهما كثيراً !

لقد كنت في كثير من الأحيان أتعجب وأستغرب، بل أصاب بالحيرة والذهول وأنا أستمع إلى آراء الزوجين الذكية الواعية، والناقدة القاسية، وهم يتحدثون بغيظ وغضب عن معاملة الأنظمة الأمريكية المتعاقبة للشعوب الفقيرة والضعيفة، فيقولون بأن الله سبحانه وتعالى قد أعطى أميركا إلى العالم لتكون واحة للعدل والسلام والأمان، ومكاناً لنشر المحبة والفضيلة والأخلاق الحميدة... وجنة مملوءة بالخيرات والأرزاق، وليس كما جعلوا منها قوة صلفة ظالمة للقمع والقهر والتسلط، ولنشر الفقر والجهل بين شعوب العالم الثالث !!

كما كانا يتكلمان بوعي وحماس ممزوجين بالقهر والغيظ عن قضايا الشرق الأوسط، وخصوصاً القضية الفلسطينية ، وحرب الخليج وما وقع بهما من ظلم وقهر وزهق للأرواح !

-إن حرب الخليج من أبشع الحروب وأكثرها انحطاطاً وقذارة، يشنها الغرب على دولة كل ذنبها أنها لا تريد أن تكون عميلة له! قال السيد روبنسون.

-ولكن تذكر يا حبيبي، بأنه لولا موافقة الأنظمة العربية والإسلامية لما جرؤ الغرب على القيام بفعلته الشنعاء هذه ! قالت السيدة روبنسون.

-لقد قامت الحرب من أجل تدمير القوة العربية التي كان من الممكن أن تقف في وجه صلف وغطرسة إسرائيل !قلت.

-إنهم لم يكتفوا بتدمير هذه القوة، بل نهبوا بترول العرب والمسلمين وأعطوا أثمانه إلى إسرائيل لاقتلاع الفلسطينيين من أراضيهم وزرع المستوطنات لليهود الغزاة مكانهم! قالت السيدة روبنسون بغيظ ومرارة!

-أستغرب جداً أن تسمح الشعوب العربية والإسلامية، بأن يتولى مصيرها مجموعة من النفعيين الانتهازيين ! قال الزوج.

لولا معرفتي بأن الزوجين سكسونيين لقلت بأنهما عربيان من حملة راية القومية العربية الأصليين، وليسا من مدّعيها !

كانت مناقشات حامية الوطيس... وكانت حوارات ذهنية فكرية مثيرة، تدوم طويلاً، وتستأنف أحياناً في وقت لاحق! لم تمرّ عليّ امرأة

عربية بعمق تفكير شيلا؛ ولا بقوة تعبيرها ودقة ألفاظها وعمق معانيها؛ وإن كنت واثقاً من أن عندنا ممن يتفوقن عليها وإن كان الحظ لم يسعدني بلقائهن ! لقد أكملت حفظ الإنجيل عن ظهر قلب وهي ابنة العاشرة، في البيت ودروس أيام الآحاد ! أليست ابنة قسيس كنيسة البلدة ؟!كما علمت بأنها قارئة ممتازة في شتى حقول المعرفة.

إن الغيرة لخطر كبير على الحب، وغالباً ما تحدث عندما لا يكون هناك تكافؤ بين الزوجين، علمياً وأدبياً وحضارياً واجتماعياً، وربما جنسياً أيضاً؛ أو أن لا يكون أحدهما غير أهل للثقة ! أما بين هذين الزوجين وكمااستطعت أن ألاحظ، فهناك يرقد حب عظيم واحترام عميق وتقديس للعواطف والمشاعر والأحاسيس، وكذلك للفكر؛ كما إن هناك تكافؤاً متوازناً وثقة مطلقة ! إنني أستطيع أن أجزم بأن ما بين هذين الزوجين نوع من العبادة والتقديس!

كنت أتحدث معهما بلا قيود ولا حرج، تماماً كما كنت أتحدث في الوطن مع أصدقائي، حكمت وإميل وشاهر، وإن كان شاهر ما ذكر امرأة في أحاديثه العادية أو في أشعاره إلا وعرّج على صدرها ونهديها وفخذيها.إنه شاعر حسّي، يحب ما يستطيع أن تعطيه له المرأة، والمرأة عنده لا تعطي روحها وقلبها إلا مجازاً، وهو لا يحب إلا الحقائق الملموسة؛ فكان معظم شعره وصفاً دقيقاً ومسهباً لما يحدث بين الرجل والمرأة في الفراش أو ما يتصوره أن يحدث !

إن شاهر، مثلنا، نحن معظم شباب وشابات الوطن، وُلدنا وترعرعنا بالحرمان، وكل ما نسمعه من حولنا هو حرام وعيب وخطيئة ورذيلة، فعشنا حياة قحط جنسي وجدب عاطفي؛ فجسم الواحد للآخر هو كل ما يحلم به وهو كل ما يتمنى!! إنه عالم الحلال والحرام، وعالم الجنة والنار!!

لقد كان لي أصدقاء كثيرون في الوطن، مسلمون ومسيحيون، تقدميون ورجعيون، عقائديون وغير ملتزمين، مثقفون وأنصاف متعلمين، عذريون وشبقون، من يقدسون المرأة ومن يعتبرونها مجرد وعاء يفرغ الرجل به لبيده المحتبس! كنت أزورهم ويزورونني، وكان لهم أخوات وكان لي مثلهم، ولكن المرأة في عالمنا مفصولة أحياناً عن الرجل، إذ نحن ما زلنا نعيش بتقاليد الماضي وتزمتاته، فلا يسمح أحياناً، للأخت أن ترى صديق أخيها، ولا يجوز أن يكون لها صديق من الرجال؛ لذلك لم أجرب في

حياتي صداقة بين رجل وامرأة، إذ تعلمنا أن هذا حرام في الدين ومخالف للعادات والعرف والتقاليد؛ فلم أجرّب قط، خلال حياتي في الوطن، صداقة المرأة!!

إنني لم أعرف معنى الصداقة الحقيقية... الصداقة النظيفة البريئة الطاهرة النقية... التي لا هدف منها إلا المحبة والمتعة الروحية، إلا بعد أن قابلت شيلا! كانت صداقة روحية نقية طاهرة مبنية على فهم عميق ومشاركة ثقافية وعقلية ووجدانية ! كنا نتحدث بوعي في شتى المواضيع، ولم يكن هناك موضوع محرم علينا أن نخوض به أو نتردد في طرق بابه. لقد تحدثنا في الأدب والسياسة والدين والأخلاق والقيم والفلسفة والاجتماع... تحدثنا عن الأديان والخالق والأنبياء والشيطان... تحدثنا في الجنس والشذوذ الجنسي عند الرجال والنساء... عن الحب الجسدي والروحي والصداقة والمنفعة. تحدثنا عن القيم والأخلاق واللاأخلاق والانتهازية والنفعية... في أي شيء وكل شيء، ولم نكن نجد مطلقاً غضاضة في أن نتناقش في أي موضوع ! ولقد كنت أسعد جداً بآرائهما، إذ كان دائماً كلاماً واعياً ناضجاً موثقاً بالبراهين ومدعوماً بالمنطق !

لقد كنا كثيراً ما نختلف بالرأي حتى أننا نجد أحياناً أن عندنا ثلاثة آراء مختلفة ووجهات نظر متباينة، وإن كنت في كثير من الأحايين أنا الذي أختلف عنهما، فأعزو ذلك لنشأتي وتربيتي وثقافتي وللخلفية التي أتيت منها... خلفية مجتمع محافظ، بل مغلق ومتزمت !! يا لها من متعة روحية عارمة، وأنا أستمع إلى شيلا روبنسون، وهي تدافع عن وجهة نظر، وتؤيدها بالأدلة والبراهين، مع أن الذي تدافع عنه وجهة نظر سياسية أو حتى اجتماعية، وكأنما تدافع عن مبدأ أو عقيدة، ذكرتني بحماستي وأنا ابن الثامنة عشرة، وأنا أدافع عن مبادئ الحزب وعقيدته، وأنا أصرّ على أن أساسيات العقيدة، هي الحرية الفكرية... قبل أيّ اعتبار آخر...!

وأخيراً غادرت إلى سان هوزيه ... إلى حيث يسكن صديقي جورج مونتكيو ، في زيارة قصيرة !

* * * * *

استقبلتني عائلة صديقي جورج مونتكيو بترحاب حار ودافئ، وسعادة متدفقة شاهدتها ترقص على وجه كل واحد منهم، مما هيّج

ذكرياتي وهزّ عواطفي وأنزل دموعي غزيرة وحارّة ! لقد تخيلت نفسي أعود إلى الوطن، وأنني بين أهلي وأحبتي أعانقهم ويعانقونني، نتبادل القبلات والتحيات، نسأل عن الصحة ونستفسر عن الخاطر! ولقد استغربت كثيراً وتساءلت بيني وبين نفسي، بعد أن لقيت هذا السيل الدافق العرم من الحب والحنان والدفء والاهتمام الزائد أيضاً، كيف أن صديقي جورج، ضحى بكل هذه الكنوز التي هي في نظري لا يساويها ثمن في العالم، في سبيل دولارات حقيرة تقاضاها مقابل عمله في الكويت والسعودية!! ولكنني تذكرت أن دولارات البترول هذه، قد أتعست حياة الكثيرين من البشر... وجلبت للكثيرين الكثيرين، الويلات والخراب والدمار... واستطاعت أن تشتري كثيراً من الذمم وتقتل كثيراً من الضمائر... وتدوس على كثير من القيم والمبادئ والمثل العليا...!!

قابلت السيدة جويس مونتكيو وأولادها الثلاثة، مردث وسلفيا ومايك، كما قابلت حفيديها سمانثا وبول! كانوا جميعهم حقاً جميلين جداً، خلقياً وجسمياً؛ فجميعهم زرق العيون شقر الشعر طوال القامة أصحاء الأجسام صافي البشرة، من النسل الآري الذي قال عنه طيب الذكر هتلر؛ بأن دمهم أنقى من دم جميع شعوب الأرض... وأن عقولهم أكثر نضجاً من عقول أهل الأرض... وأنهم عباقرة بالفطرة وقياديون بالسليقة... ويجب أن يحكموا العالم ويقودوه...!

لقد أسعدني كثيراً، وأثار إعجابي، أن ألاحظ أن جميع أفراد العائلة، وحتى الأحفاد الصغار، مشغوفون بالمطالعة وحب الكتب، إذ قلما تشاهد أحدهم دون أن يكون بيده كتاب أو مجلة؛ فكانوا دائماً يتكلمون ويتناقشون فيما يقرأون أو يشاهدون على التلفاز!

كان الابن مايك يكتب المسرحيات ويعدها من الآن لتمثل على المسرح، بعد تخرجه من جامعة جنوب كاليفورنيا في فن الإخراج المسرحي!!

-اعذرني يا صديقي جورج إن اتهمتك بالغباء وقصر النظر، بأن تترك كل هذه الكنوز البشرية، ولو ليوم واحد، من أجل أن تحصل على بعض الدولارات من الكويت والسعودية! قلت بحماس وصدق وعفوية على مسمع من زوجته وأولاده وأحفاده، بعد وصولي بيتهم بقليل، ونحن نتناول المرطبات، وكانوا جميعهم متحلقين حولي يمطرونني بمختلف أنواع الأسئلة!

-إنني والله لو كنت مكانك لما بادلت ساعة واحدة بعيداً عن هؤلاء الملائكة، بجميع ما في العالم من دولارات ! إن كل واحد منهم ثروة قومية بذاته!

انفجر الجميع يضحكون بسعادة وجذل، حتى لاحظت أنهم جميعاً يتمتعون بأسنان بيضاء ناصعة !

-يبدو أن غبائي وقصر نظري الذي اكتسبته من بني قومك المتخلفين المعتوهين، وخصوصاًالذي اكتسبته منك أنت بالذات، وبسبب عشرتي الطويلة لكم، قد جعلت مني إنساناً تافهاً لا يميز بين الغث والسمين! قال صديقي جورج ثم أطلق ضحكته المعهودة الباهتة !

تفاجأ الجميع بما تفوه به الرجل العجوز، إذ صاروا ينقلون نظراتهم بينه وبيني، وبينهم هم أنفسهم، ليروا وقع قوله عليّ! لا شك أن الخبيث لاحظ اندهاشهم فقال يطمئنهم:

-لا تقلقوا ! فإن ابن الكلبة متعود على بهدلاتي له وإهانتي! ومن جديد انفجر يضحك، وكذلك فعلوا هم ! أما أنا فلم أعلق بشيء وإن افترّ ثغري عن ابتسامة خفيفة !

-بالنسبة لما قلت يا بروفيسور سهيل، فأنا واثقة بأن جورج مدرك الآن الفارق بين وجوده معنا وبين سكنه بعيداً عنا ! قالت الزوجة بصوت هادئ رزين يدل على أن المرأة صاحبة عقل كبير.

-لقد أعلمني الوالد ، بأنه كلما يتذكر السنوات الطويلة التي قضاها بعيداً عنا، يشعر بحزن واكتئاب شديدين ! قالت البنت الكبرى مردث.

-لقد أنتجت خلال وجود الوالد بيننا أكثر بكثير مما كتبت خلال عام بأكمله ! إنني كلما تعسّرت عليّ فكرة، أو لم أجد جواباً لمشكلة، أجد عنده الحل السحري! قال الابن مايك.

-منذ أن انضم إلينا الوالد، وأنا لا أطيق البعاد عن البيت؛ إذ ما عدت مرة إليه إلا ووجدت أبي بانتظاري يرحب بي ويحدثني حتى أنام! قالت الأبنة الصغرى سلفيا.

-أنا أحب " جدّو " كثيراً ! دائماً يقصّ علي القصص ويروي لي النكات ! قال الحفيد بول.

-أنا أحبّ "جدّو" كثيراً، إذ أناقش معه ما أقرأ من الكتب وأستوضح منه ما غمض عليّ فهمه ! قالت الحفيدة سمانثا !

مرّت فترة صمت قصيرة، قطعها السيد مونتكيو قائلاً:

–لم أكن أعرف أنني مفيد لكم جميعاً كل هذه الفوائد ! يبدو أنني ابن كلبة كبير وأنا لا أعرف ! وضحك ضحكته المعودة الباهتة؛ أما نحن فضحكنا ضحكات متقطعة !

بعد العشاء الدسم والحلوى الفاخرة، سهرنا جميعاً حتى بعد منتصف الليل، وسهر معنا أيضاً الحفيدان الصغيران، رغم ذكر والديهما المتكرر لهما بضرورة الرواح إلى بيتهم للنوم؛ ولكن الصغيرين كانا يرجوان والديهما بتمديد مدة البقاء بحجة أنهما لم يقابلا عربياً من قبل، وأن أحاديث البروفيسور دهشان عن تجاربه الشخصية الغريبة أحياناً والمذهلة في كثير من الأحايين ، شيقة وممتعة ! حقاً لقد كانت تجاربي ممتعة وشيقة حتى لي أنا، خصوصاً التصرفات التي سببت لي إشكالات ومشاكل، بسبب اختلاف العادات والتقاليد، وكذلك اختلاف الحضارتين... !

حدثتهم بشغف وإسهاب عن صديقي الجديدين السيدة والسيد روبنسون وعن شغفي وولعي بهما، وأنني لو لم يرسلهما الله لي بعد مغادرة صديقي جورج، لكنت فقدت عقلي من الغربة ، ولربما كنت قد متّ من الوحدة ! ثم كيف أنني أمضي معظم وقتي في بيتهم !بعد ذلك تفرع الحديث وكان حديثاً عادياً !

أخيراً انصرف الجميع ليأووا إلى أسرّتهم، وبقيت وصديقي نستعيد الذكريات ونجتر العواطف ونذكر بالخير ونترحم على ليالي سانتا مونيكاوأيامها التي لن تعود ولن تعوض، والتي لن يجود الزمان بمثلها، عندما ابتسم الخبيث ابتسامته التي أعهدها، تلك الابتسامة الباهتة الجوفاء وقال:

–لا بد وأن يكون الذي بين فخذي السيدة روبنسون يختلف كثيراً مما لبقية نساء أميركا، وأنه لشيء فريد في نوعه، وأنها لا بد من أن تكون ممتعة جداً بالفراش... وتذيقك ألواناً من السعادة وفنوناً من الحبور... حتى استطاعتْ أن تستحوذ على عقلك وكل كيانك... فتنسيك أهلك ووطنك...!!

لقد أصابتني صدمة قاسية، واستولى علي ذهول شديد، فغامت الدنيا في عيني ومادت الأرض تحت قدمي، وغلى الدم في عروقي، ففقدت السيطرة على أعصابي وكدت أن أصرخ به أن يكف عن هذره وتصوراته المريضة؛ ثم تحولت الصدمة والذهول إلى قرف واشمئزاز وغثيان

كدت أستفرغ من عنفها ! لقد ذكرني الشعور بالقرف والاشمئزاز الليلة، بما كان يصيبني أيام كان صديقي شاهر يوصف لي صدر وسيقان سميحة، وكيف أنه يريدها أن ترقص تحته كالسمكة ! وقبل أن أفتح فمي لأقول شيئاً استرسل:

–لا بد و أن تكون المرأة ماكرة و ماهرة، حتى استطاعت أن تضلل زوجها وتخدعه... فلا يلاحظ ما يجري بينكما؛ أو أنها هي المسيطرة، ككثير من الزوجات الأميركيات، فلا تسمح للزوج بالتذمر أو الاحتجاج ! وقلب شفته السفلى علامة الحيرة رافقها بهزة من يده وأضاف:

–أو ربما أن الزوج من النوع الذي لا يهمه شرفه ما زالت الزوجة تمارس خيانتها الزوجية مع رجل واحد فقط، وغريب !!

مرّت فترة صمت رهيبة، لا أدري مدتها، فقد كنت أحدّق بوجه صديقي جورج بعينين متحجرتين... مذهولتين... مصعوقتين نازفتين! لقد ذبحني صديقي جورج وأدمى وجداني عن غير قصد ولا سوء نية!

حاولت أن أقول شيئاً... أي شيء... أن أدافع عن الزوجين الطاهرين الطيبين، أكثر مما أدافع عن نفسي، لأنني بطريقة أو أخرى لست المطعون في شرفه ! شيلا وجيمس اللذان أشعر بكل كياني، بأن شرفيهما يعنيان الشيء الكثير بالنسبة لي... فأنا مطعون بقيمي ومعتقداتي، وبعض الناس يجدون بوناً شاسعاً بين الاثنين... وإن كنت أنا أعتقد بأن لا فرق ولا تمييز بين الاثنين... فالشرف والمعتقد سواسية لا فرق بينهما... تنبعان من وجدان المرء وأخلاقياته !!

لا أدري إن كان صديقي جورج قد صدقني، عندما أكّدت له، بعد أن أفقت من ذهولي واستردت جزءاً من حواسي وفارقني بعضٌ من غضبي، أن لا علاقة محرّمة بيني وبين الزوجة إطلاقاً... وأن ما بيننا هو صداقة فكرية وجدانية إعجابيه، بريئة طاهرة... لا تتعدى الكلام ! ثم طمأنته أيضاً، بأن لا أحد في هذا العالم، مهما كان حبي له وتولعي به، وانصهاري بل وانسحاقي بشخصيته وكينونته... يمكن أن ينسيني الأهل والوطن!!

اكتفى صديقي جورج بضحكته الصفراء الباهتة، إذ لا شك أنه لاحظ بذكائه المميز وبصيرته الثاقبة، ثم معرفته الشديدة بي، ما مررت به من معاناة ومرارة، بعد مقولته لي؛ فلقد تجنب ذكرالسيدة والسيد روبنسون طيلة تلك الليلة، ولم يشر إليها لا من بعيد ولا من قريب ! لقد تكلمنا

بعدها في مواضيع مختلفة وإن كنت قد أمضيت بقية سهرتنا مكتئباً... مكسور الخاطر، منقبض النفس، مكروب القلب وقليل الكلام !!

تساءلت بعد أن وضعت نفسي بالفراش، إن كان تواجد صديقي جورج لمدة طويلة في المجتمعات العربية والإسلامية قد أثّرت بمفاهيمه وتفكيره، وجعلته يعتقد بأن لا شيء اسمه صداقة فكرية وروحية من الممكن أن تربط بين ذكر وأنثى، وأن ما يربط بينهما ليس إلا علاقة جنس وفراش! وتذكرت نصيحة لمدرس الدين في مدرستي الابتدائية بالوطن، مدرسة السلط الثانوية ، وهو يحذرنا من اختلاء الرجل بالمرأة، لأنه لا بد وأن يكون الشيطان ثالثهما؛ ولما سأله أحد التلاميذ ما يعني بقوله هذا؛ فقد كانت أعمارنا في ذلك الوقت بحدود الثانية عشرة، وطيف المرأة لم يستبد بخيالاتنا بعد، ولم نضاجع جسدها بأحلامنا وتصوراتنا؛ فقال بصوت غاضب حانق على جهل السائل وغبائه "ولك يا حمار، كلما خلا رجل وامرأة ببعض إلا وفكر كل واحد منهم أن ينام مع الآخر؛ مثل ما ينام أبوك مع أمك!" ضحك بعض منا... قهقه البعض الآخر... احمرّت خدود... عرقت جباه... وصُدم آخرون... وكنت أنا واحداً منهم !

بعد عصر اليوم التالي، بدأنا جميعاً في الساحة الواسعة المغطاة بالعشب، خلف بيت عائلة مونتكيو حفلة شواء على الفحم... فخمة... باذخة... فكانت ولا شك رائحة شواء لحم الدجاج واللحم البقري بمختلف تشكيلاته، تزكم أنوف الجيران وكل الحي وتثير شهيتهم! لقد شربت لوحدي أكثر من نصف دستة من تنكات البيرة، وشاركني الشرب أب أولاد حفيدي السيدة والسيد مونتكيو الذي تأكد لي وللوهلة الأولى من الطريقة التي يتكلم بها والكلمات غير المصقولة التي يستعملها، بأنه لم يحصل على تعليم عال ولا على ثقافة مرضية، وإن كان لطيفاً ومؤدباً جداً، كما علمت بأنه يكسب نقوداً جيدة من مهنة السباكة التي يزاولها! وكذلك كان في الحفل خطيب ابنتهما سلفيا، الذي أخبرني بأنه طالب دكتوراة في علم النفس، كما أعلمني أيضاً وبصراحة، ودون حياء ولا خجل، بأنه لقيط تبناه زوجان يهوديان ليس لهما ذرية، لأنهما لا يستطيعان الإنجاب !

–لا شك أنها قصة ممتعة! قلت باهتمام وأدب مبالغ بهما!

–نعم إنها قصة شيقة! فلقد استيقظا، أعني والديّ بالتّبنّي، صباح أحد أيام الصيف، قبل ستة و عشرون عاما ، فوجداني أمام باب بيتهما في سرير صغير متواضع، أغازل السماء وأبتسم لها، وعلى صدري ورقة مكتوبة بخط والدتي التي لم تذكر اسمها ومعنونة إليهما هما الاثنين، السيد والسيدة بياجيني، تقول فيها: بأن موانع الحمل التي كانت تستعملها وهي تضاجع صديقها قد خانتها، وعندما كبر بطنها لم تستطع احتمال غمزات زملائها وزميلاتها الطلبة في المدرسة، على الرغم من أنهم جميعهم يضاجعون بعضهم بعضاً، ولكن موانع الحمل لم تتآمر ضدهم، ففكرت بتغيير المدرسة خصوصاً بعد أن أنكر صديقها بأنني ابنه! قال وأتبعها بضحكة مؤدبة ولكن جريئة!

–لقد سمعت قصصاً كثيرة عن شباب يختفون من حياة صديقاتهم حالما يعلمون أنهن حاملات منهم! قلت.

–للأسف هذا صحيح خصوصاً إذا كان الشاب لا يفكر بالزواج، وغير جاد في علاقته بالفتاة. كما إنه في معظم الحالات يكون شاب صغيراً لا يستطيع تحمّل المسؤولية!هو يريد أن يستمتع فقط، ولا يفكر بالنتائج!

–على كل حال، إنها قصة تحدث كل يوم في مجتمعنا! المهم لقد عزمت أمي على ترك المدرسة والمدينة معاً وجاءت إلى مدينة " هانتقتون بيش " ! قال.

–لقد قيل لي إن سكان تلك المدينة ذوو غناء فاحش! قلت.

–ولهذا السبب ربما أتت إليها أمي! قالها بطريقة كوميدية!

ضحكنا معاً؛ ثم أحضر تنكتين من البيرة، ناولني إحداها، وأضاف:

–تقول أمي في رسالتها، بأنها علمت بأن هذين الزوجين قد يئسا من الإنجاب ويتمنيان لو يكون لهما طفلٌ، وتعرف أيضاً بأنني سأكون معززاً، وعندي كل ما أحتاج إليه... وأنني سأحصل على دراسة جيدة وعالية... و... و...الخ... وهي تبارك لي بهما وتأمل الاعتناء بي!وبالفعل أرسلاني إلى أحسن المدارس وأرقى الجامعات، ويوفران لي حياة مترفة باذخة، إذ يملكان، كمعظم يهود أميركا ثروة ضخمة، هي مزيج من الأرصدة والعقارات والأسهم بالإضافة إلى عدة مطاعم صغيرة لتقديم الوجبات السريعة!

–لقد قيل لي بأن الشاب اليهودي، ولاعتبارات عديدة، يفضل الزواج من فتاة يهودية؛ وخطيبتك مسيحية! قلت باستحياء وخجل.

-أنا لست واثقاً إن كان والداي الحقيقيان يهوديين! ثم إنه على الرغم من أنني تلقيت في صغري بحراً ضخماً من دروس تعاليم الديانة اليهودية ومارست كثيراً من طقوسها، إلا أنني لم أقتنع بها يوماً قط كدين سماوي، وذلك بسبب ما بها من أنانية وعجرفة وعنصرية. قال ذلك بوضوح وصراحة... وأحسست بأن الشاب يقول هذا ليؤكد لي بأنه ليس متعصباً ضد العرب ككثير من اليهود، وأن عليّ أن أثق به وأصدقه.اكتفيت بابتسامة بلهاء فاستطرد:

-قلت في نفسي لعلّ الصهيونية تحقق ما عجزت عن تطبيقه الديانة اليهودية فعزمت على زيارة إسرائيل، ويا ليتني لم أفعل! لقد شاهدت بأم عينيّ هاتين، كيف يتحول الإنسان الحضاري إلى وحش مفترس، وهو يكسر عظام وأيدي وأرجل أطفالٍ دون الثانية عشرة من أعمارهم، كما يكسر قلم رصاص أو عوداً من قصب السكر ليمتصها!

-لو كنا نحن العرب الذين نتحدث عن شراسة الإسرائيليين ووحشيتهم في معاملة الأطفال والشيوخ الفلسطينيين، لما كان صدقنا أحد من الأميركان والأوروبيين، ولاتهمونا بالكذب والتزوير! قلت.

-هذا صحيح! لقد قرأت في الجرائد وسمعت من شهود عيان عن سوء معاملة الجنود الإسرائيليين والمستوطنين للأطفال والشيوخ والنساء الفلسطينيين، فلم أصدق حتى رأيت بأم عيني! إن الذي أغضبني بل أفقدني عقلي، هو كيف أن الناس الذين كانوا يشكون دائماً من ظلم العالم واضطهاده لهم؛ هم أشد الناس ظلماً وأكثرهم قمعاً للفلسطينيين! قال الشاب بحماس وغضب!

-إنني أتساءل أحياناً، إن كانت أم "بروس" الحقيقية، هي امرأة عربية فلسطينية، وذلك لشدة كراهيته واحتقاره للحكم العنصري في إسرائيل، لولا أنني أتذكر بأنها وضعته أمام بيت تعرف جيداً أن أهله يهود! قالت الخطيبة سلفيا وهي تبتسم.

-إن كراهيتي لهم لم تأت من فراغ يا حبيبة القلب! لقد كنت من المعجبين المتحمسين لهم؛ ولكن بعد أن رأيت من تعصبهم وعنصريتهم وحقدهم ما رأيت، فإنني أكرههم وأحتقرهم حتى النخاع! قال الشاب بحماس ممزوج بالقرف.

-أحب أن أعلق على قول ابنتي سلفيا، بأن أم بروس الحقيقية قد تكون عربية لولا أنها أعطته لأبوين يهوديين! وتعليقي على مقولتها؛ إن العرب لا يكرهون اليهود كيهود، ولكنهم يكرهونهم كصهيونيين وكمحتلين

لبلادهم ومغتصبين لممتلكاتهم! إنهم لم يكتفوا باغتصاب بلادهم، بل طردوهم منها! قالت السيدة مونتكيو بصوت هادئ.

-على الرغم من أن والديّ يتبرعان وبسخاء لإسرائيل، إلا أنهما يعارضان سياستها القمعية الاستيطانية! إنهما من مؤيدي جماعة "السلام الآن"!قال بروس!

-للأسف إن جماعة "السلام الآن" ما زالت قليلة العدد وصوتها غير مسموع، وإلاّ لكان السلام قد عمّ فلسطين! قال الابن مايك.

كنا عشرة أشخاص بالضبط، وكان كل واحد منا يتزاور مع الآخرين ومستمتعاً بأحاديثهم، وكنّا نتحدث بشتى المواضيع! كان السيد مونتكيو يدير معركة الشواء، وكان اللذان يساعدانه حفيداه، سمانثا و دانتيه ، وقد لاحظت السعادة تنفر من عيونهم!

كان صوت فيروز الشجي على المسجلة يصل إلينا من أمام الباب الخلفي، فيبعث في نفس كل منا تخيلات وتأثرات وأحلاماً وانفعالات، حسب خلفية كل منا وحسب طموحاته! فلقد علمت أن الجميع حتى الصغار منهم يحبون صوت فيروز ويعرفون عنها الشيء الكثير، وأن حبها قد انتقل من جورج إلى جميع أفراد عائلته حتى "زوج" مردث وخطيب سلفيا!

-لقد دعوت الجميع في السنة الماضية، باستثناء جورج الذي كان ما زال يعيش في سانتامونيكا ، ولم أكن قد قررت العودة إليه بعد، دعوتهم لحضور حفلة أقامتها فيروز وفرقتها في سان فرنسيسكو! إنه ولشدة حبي لفيروز وتأثري بجمال صوتها قد وقفت على مقعدي في قاعة الحفلة وصرت أصيح بأعلى صوتي مخاطبة فيروز وفرقتها والحضور أيضاً، بأن ما تقوم به فيروز من دعاية حسنة وتجميل لصورة العالم العربي في أوروبا وأميركا، يشوهها أغنياء الأمة العربية وسفهاؤها، بما يرتكبونه من قباحات وقذارات في مواخير أوروبا وأميركا! قالت الزوجة جويس بحماس!

-لقد تصورت والدتي وهي تصيح بأعلى صوتها، وكأنما هي تستحث فيروز وفرقتها والحضور، ليهبّوا ويمزقوا أولئك السفهاء الذين يشوهون سمعة بني قومهم ودينهم! قالت الابنة الكبرى مردث وهي تضحك!

من الغريب العجيب أنه والمرأتان تتحدثان عن الحفلة، كانت فيروز في تلك اللحظات تغني أغنيتها الشهيرة "الغضب الساطع آتٍ وأنا كلي إيمان!" وكنت أشعر كأن حريقاً جباراً قد اندلع في داخلي، وأن الدم يقذف حمماً بشراييني وأنا أفكر بأفعال سفهاء أمتي المترفين الذين مرغوا

ويمرغون في كل يوم، الطهر العربي والقدسية الإسلامية في حانات الغرب ومواخيره؛ والذين يبددون ثروات الأمة على فسقهم وفجورهم وتبذّلهم!

* * * * *

بعد أن أوى جميع أفراد العائلة إلى فراشهم، وبقينا صديقي جورج وأنا نتجاذب أطراف الحديث، ونستعيد ماضينا في مدينة سانتا مونيكا، نجترّ الذكريات ونذكر بالخير تلك الجلسات الهانئة السعيدة، والمناقشات الممتعة الشيقة، ونتحدث في لا شيء وكل شيء، عندما سألني فجأة:

-لقد لاحظت بأنك تأثرت وغضبت عندما ألمحت لك بأنه لا بد وأن تكون هناك علاقة رومانسية، بينك وبين صديقتك السيدة روبنسون؛ فأنا آسف جداً إن كانت قد آلمتك! أنت تعرف كم أحبك وأحترمك وأراعي شعورك! قال صديقي بلهجة تعبر عن ندم شديد لاحظته على قسمات وجهه وبنغمات صوته.

-هل تريد الحقيقة يا جورج؟ قلت وقد اكتسحتني فجأة موجة عاتية من الشوق الشديد لرؤية صديقيّ شيلا وجيمس.

-إنني فعلاً قد حزنت وتأثرت، بل حتى إنني كرهتك ولعنتك في سرّي، وندمت على مجيئي لزيارتكم! قلت محتداً.

-أنا آسف مرة أخرى! ولكنني لم أقل شيئاً يجرح شعورك، بل ولا حتى يغضبك! قالها بعصبية وهو يشدّ على قبضتي يديه ويصرّ على أسنانه!

-طبعا قلت! قلت ما هو أقسى من ذلك! لقد جرحتني في كبريائي...! لقد أهنتني في مبادئي ومعتقداتي...! قلت بعصبية.

-كل هذا لأنني سألتك إن كان بينك وبين تلك "الفرخة" علاقة رومانسية؟! قالها بغيظ.

-نعم! لأنني أحبها حبا عذرياً... حباً نقياً... طاهراً... روحياً... إنني أحبها كأخت! صدقني!

وهنا انفجر اللئيم يضحك ويقهقه، وصار يضرب يديه ببعضهما البعض، وكأنما ألقيت نكتة لوذعية!

-حب عذري بين شاب وفتاة في أوجي شبابيهما؟! يا لها من أسطورة غريبة وعجيبة! وهل أفهم أن الجنين الذي كان في أحشاء ألكسس هو نتيجة حب عذري أيضاً؟! ومضاجعتك لسالي مئات المرات وكاترين وغيرهن وغيرهن، هو كذلك حب عذري؟! أرجو أن لا تكون جاداً فيما تقول يا صديقي، وإلا لاعتقدت أنك تسخر مني وتستهزئ بي!

-وهل لا بدّ من نبش الماضي؟ سألته مغتاظا وقد نهضت واقفا.

-إنك أنت الذي أرغمتني على قول هذا! قالها بانكسار شعرته في نغمة صوته.

-لقد كان حبي لأولئك النسوة يختلف تماما عن حبي للسيدة روبنسون! لقد كان حب رجل لامرأة! قلت بحماس.

وبعد أن ضحك ضحكته الباهتة المعهودة سأل:

-ألست أنت رجل والسيدة روبنسون امرأة؟!

-لقد عدنا إلى السخرية ثانية! إن الذي أعنيه هو أنني عندما كنت أقابل الواحدة منهن وأقع في حبها، فإنني أفكر بمضاجعتها وامتلاك جسدها؛ أما السيدة روبنسون فإنني ما فكرت يوما بجسدها، وإن ما أحبه بها هو روحها... نقاؤها... طهارتها... أخلاقها... كرمها... كِبَر قلبها... صفاء سريرتها... أحاديثها... تصرفاتها... غزارة علمها... حنانها... رقة أعطافها... إلخ... إلخ...!

-هل تعرف يا سهيل؟ قال صديقي جورج وقد غيّر مقعده من على الصوفا التي كان يجلس عليها إلى كرسي مسند خلف طاولة المكتب، الذي لا شك أنه موجود في غرفة النوم ليدرس عليه ساكن الغرفة.

-إنني أشعر بأنك قد تغيّرت تغيراً دراماتيكياً بعد تركي إياك ورحيلي إلى هنا. فأنت أحيانا تقول أو تعمل أشياء تحيّرني بل وتذهلني، بلا شك أنها تحيّر الآخرين أيضاً! لقد أسعدتنا جداً جداً، وجعلتنا نشعر بالاعتزاز والفخر، أفراد عائلتي وأنا، عندما وقعت عيناك على ابنتي سلفيا، وتقدمت منها ووقفت أمامها وأمسكت بيديها الاثنتين ونظرت إلى وجهها وقلت لها بإعجاب واندهاش، بأنها قطعة خالدة من الفن النادر، وأن الخالق تفنن في صنعها؛ إلى آخر لطع البقر من الكلام الذي تسمعه للفرخات...! لقد اقتربت منها حتى فكّرنا أنك ستعانقها و تقبّلها ! أقول، على الرغم من أنه أفرحنا كثيراً، إلا أنه ُيعتبر تصرفاً غريباً بل شاذاً في المجتمع الأمريكي! يجب أن يكون هذا الإعجاب بينك وبين نفسك! لو كان خطيبها من النوع الغيور لكان غضب منك وربما تشاجر معك؛ ثم تأتي الآن وتتكلم عن الحب

الأفلاطوني... والحب الروحي... والحب العذري... وحب لطع البقر...! صدقني، بل تأكد بأنه لا يوجد مثل هذا الحب بين رجل وامرأة إذا كانا طبيعيين وسويين! مثل هذا الحب يحدث بين رجل وزوجة أخيه أو أبيه أو العكس؛ أو بين إنسانين لا يستطيعان ممارسة الجنس بسبب عاهة أو ما شابه ذلك؛ أو أن يكونا محرّمين على بعضهما! أما إذا كانا شابين وطبيعيين، فلا بدّ من أن يكون الجنس هاجسهما القوي! قال بترو وحكمة.

-صدقني يا جورج وأقسم لك برب السموات والأرضين وبصداقتنا الطاهرة المقدسة، إنني ما فكرت يوما بشيلا كما يفكر الرجل بالمرأة! أنا أحبها وأفكر بها وأتطلع إليها، كما أفعل نحو أختي الكبرى، أميرة! قلت صادقاً، وقد أحسست أن الكلمات تخرج من أعماق وجداني؛ وكأنما أنا جالس في حضرة شيلا، وبين يديها، أبثها لواعج شوقي إليها، لبعدي عنها في هذه السفرة إلى مدينة سان هوزيه!

-إذا كنت أنت لا تفكر بمضاجعتها فإنها هي تفعل! قالها بحزم وتأكيد.

ولا أدري لماذا تذكرت في تلك اللحظة الحرجة ما قاله لي يوما صديقي شاهر عندما أعلمته بأن حبي لسميحة، هو حب عذري... أفلاطوني... روحي، ليس للجسد فيه نصيب، عندما أجابني بأنه هو يحب جسدها، ويحب أن يراها ترقص تحته كسمكة خرجت لتوها من الماء، لوطيس المعركة وعنف الشهوة!

-ستشتهيها يوما... وستفكر بمضاجعتها... وستضاجعها فعلا...! وستقول عندها؟ لقد أعلمني ابن الساقطة ، صديقي جورج مونتكيو يوما، فلم أصدقه!

تصورت نفسي أعانق شيلا وأنزع عنها ملابسها لأضاجعها، فأحسست بقرف واشمئزاز شديدين وقف لعنفهما شعر رأسي؛ وأنني على وشك أن أتقيأ... ثم بعدها بقليل استولت على جسمي قشعريرة هزت كل كياني؛ ثم تراءى لي وكأنما أنزع ملابس شقيقتي لأعانقها... ثم لأضاجعها !!

قفزت واقفا وكأنما لدغتني أفعى، وأحسست بضيق شديد بالتنفس وكأنما أحدهم قد وضع يديه بإحكام على فمي وأنفي ليكتم أنفاسي، فخرجت من الغرفة على عجل، وحتى دون أن أستأذن من صديقي ومضيفي! تجاوزت الصالة الطويلة وفتحت الباب الخارجي قاصداً الحديقة، حيث فكرت أن أمكث بها حتى يفارقني ما أنا به، ولكن قوة جبارة ظلت تدفعني حتى أخرجتني إلى الشارع حيث واصلت الجري

لمدة لا أعرف زمنها، بعدها ألقيت بنفسي على أحد جدران البيوت، منهوك القوى خائر العزيمة!

كان الظلام يخيم على البيت عندما رجعت، ووجدت أن الباب الرئيسي غير مقفل، فدلفت إلى غرفتي على رؤوس أصابعي، ومرّت فترة طويلة وأنا أتقلّب في فراشي أحاول النوم ولكن دون جدوى. وقبيل الفجر بقليل أدركتني رحمة السماء فنمت!

* * * * *

صباح يوم الأحد حوالي الساعة التاسعة صباحاً توجهت ثلاث سيارات تقلّنا إلى سان فرنسيسكو!لقد أحسست بسعادة غامرة بهذا الجو الدافئ الذي يحيطونني به، خصوصاً وأنا أرى كل واحد منهم يسألني ليطمئن إن كنت أمضي وقتاً ممتعاً بينهم، وإن كانت هناك أية خدمة من الممكن أن يقدموها لي! عرفوني طيلة النهار على معالم المدينة، ما أكثرها وأمتعها وأجملها... عند العصر كنا نتمشكح فوق الأرصفة الممتدة داخل مياه البحر، تعجّ بآلاف السواح الذين قدموا إليها من جميع أنحاء العالم، والذين تغصّ بهم المطاعم والمتاجر!كان الزوار يشاهدون قطعان عجول البحر وهي تلاعب بعضها بعضاً ويغازل الذكور الإناث، وعندما تكون الأنثى قد وصلت قمة الرومانسية، يقفزان، الذكر والأنثى، إلى ما تحت الماء، فيتبادل السائحون والسائحات الغمزات والابتسامات، وتحمرّ خدود وتعرق جباه، ويتمنى الكثيرون لو يستطيعون القيام بعمل ما تقوم به عجول البحر تحت الماء!!

قبيل الغروب بقليل دخلنا أحد مطاعم "فيشرمن وورف" المشهورة عالمياً، والتي هي من أهم المعالم السياحية التي تجلب السياح إلى هذه المدينة الرائعة، حيث أنها ترتبط بمعدة الإنسان وشهوته!! وبعد وجبة دسمة وفاخرة عدنا جميعاً إلى سان هوزيه!!

على الرغم من اهتمام الجميع بي، والوقت الممتع الذي كنت أقضيه، إلا أن صورتي السيدة والسيد روبنسون لم تفارقا مخيلتي طيلة السفرة، ولم تبرح أذنيّ عذوبة صوتيهما وشفافة عاطفتيهما وحنان مشاعرهما!حقاً لقد افتقدتهما كثيراً على الرغم من أنني هاتفهتما مرات عديدة، ولطالما تمنيت لو أنهما كانا معي أو كنت معهما؛ كما قطعت على

نفسي عهداً، بأنني لن أذهب إلى مكان بعيد عن سانتا مونيكا دون أن نكون معاً!

لقد حاول الجميع إقناعي بالبقاء بينهم مدة أطول، خصوصاً ونحن في العطلة الصيفية، ولكنني اعتذرت بحجة أن عندي التزامات يجب أن أقوم بها! وعند منتصف الليل ركبت سيارتي الفوكس فاجن وتوجهت إلى سانتا مونيكا! فشعرت بنكهة طفولية عذرية، وكأنما توجهت إلى مدينتنا الخالدة... السلط... لأقابل هناك والدتي و أخواني و أخواتي ، لأنني واثق الآن بأنهم ينتظرونني أمام بيتنا في حي الجدعة الفوقا !

* * * * *

الفصل الســـــــــــادس

إن من عادتي عندما أدخل قاعة المحاضرات، وتكون هذه أول محاضرة لي أقابل بها طلابي في بداية كل فصل، أن أدخل القاعة متأخراً دقيقتين أو ثلاثاً، لكي أعطي الفرصة للطلاب ليتجمعوا ويهتدوا إلى أماكن القاعات في العمارات المنتشرة المتناثرة على امتداد مساحات أرض الجامعة المترامية الأطراف؛ أما بعد اللقاء الأول فأدخل القاعة غالباً مبكراً دقيقة أو دقيقتين قبل موعد المحاضرة!

إنني أؤمن إيماناً مطلقاً بأن الأستاذ الذي لا يتقيد بالزمن المحدد ويترك طلابه ينتظرونه غير مبالٍ بوقتهم ومشاعرهم، هو أستاذ فاشل غير أمين على حمل هذه الأمانة، ولا يستحق هذا الشرف العظيم بأن ينتسب إلى هذه المهنة! ولقد تقيّدت بهذه العادة والتزمت بها مع كل الذين تعاملت معهم، في أي واجب أقوم به، منذ أن كنت يافعاً!

وجرياً على عادتي، وبما أن هذا هو اليوم الأول لبدء العام الدراسي الذي أقابل به طلبتي، فقد دخلت القاعة متأخراً، حيث تكون عيون الطلاب ترقب جميع الداخلين، تبحث عن أستاذ المادة الذي سيقضون معه أربعة شهور ونصف، يرون سحنته ويستمعون إلى صوته، ويتحملون وقاحاته وبذاءاته وجهله وغباءه، إن كانت هذه صفاته، أو يستمتعون بعلمه وأدبه وأخلاقه، إن كان ينتسب إلى هذه المجموعة !

وضعت ما أحمل من كتب وأوراق على الطاولة المتواجدة بالقاعة، وسحبت المرتكى الواقف في الزاوية، وأسندته أمام السبورة ليكون في المنتصف وبمواجهة الطلبة، لأقف خلفه مستنداً عليه لألقي محاضرتي؛ فتجمدت في مكاني كأنما صعقني نيزك...! لقد رأيت الطالبة التي تجلس في الصف الأمامي، والتي تجلس أمام المرتكى مباشرة، والتي كانت تحدق بي بعينيها اللوزيتين الأخاذتين، والتي لا تفارق الابتسامة شفتيها، هي الممثلة المشهورة، ليندا هاملتون، بطلة مسلسل "الحسناء والوحش"!

إن الكثيرين من الذين يشتغلون بالسينما والمسرح في هوليوود، سواء أكانوا ممثلين أو كتاباً أو مخرجين، أو في أيّ حقل من حقول السينما، فإنهم دائماً يترددون على الجامعة، وخصوصاً الكليات الإنسانية، لأسباب أكثر من أن تُعد وتحصى... وحتى بعد أن يصبحوا ممثلين

مشهورين وتطبق شهرتهم الآفاق! إن البعض منهم طلابٌ منتظمون يرغبون في الحصول على إحدى الشهادات الثلاثة، بكالوريوس أو ماجستير أو دكتوراة، وإما أنهم يأتون لعمل أبحاث في مكتبة الجامعة وافرة ونادرة المراجع ، أو يأتون ليصوروا بعض المناظر داخل الحرم الجامعي لبعض الأفلام... وفي أحايين عديدة يأتون من أجل أن يلقوا بعض المحاضرات، أو للاجتماع بالطلبة لأخذ آرائهم في بعض قضايا السينما...!

فركت عينيّ المصعوقتين بيديّ المرتجفتين، وهززت رأسي كأنما لأطرد عنه الوسن، ولأتأكد من أن ما أراه هو حقيقة لا خيالاً... وأنني مستيقظ ولست نائماً، وبأنني بكامل قواي العقلية، ولم يصبني مسّ أو لوثة ! إنها ممثلتي المفضلة والمعبودة... بطلة المسلسل الوحيد الذي أتابع حلقاته كل أسبوع بنهم وجوع لا يوصفان، وأنتظر الحلقة التالية بشغف وشوق شديدين، حيث لا أدع حلقة واحدة تفلت مني دون مشاهدة! ولقد صادف مرة وكان عندي موعد هام جداً، ليلة بثّ تلك الحلقة، لم أستطع إلغاءه أو تغيير موعده... وحتى لا أحرم عينيّ من الاكتحال برؤية تلك المخلوقة الناعمة الساحرة، والتي أعتبرها قطعة من الغمام المضمخ بالعطر الربّاني، تتحرك فوق الأرض وعلى رؤوس الأشجار وفي قمم الجبال؛ وكذلك حتى لا أحرم روحي وأحاسيسي ومشاعري من المتعة الروحية السماوية من الدور العاطفي المميّز، التصوفي والوجداني، الذي تلعبه هذه الممثلة المتصوفة... فقد طلبت من زميلة لي في القسم أن تسجل لي تلك الحلقة، وأن أمرّ عليها في نفس الليلة، حتى أشاهد ممثلتي المفضلة قبل أن آوي إلى فراشي...!

لقد كانت آخر حلقة رأيتها لها الليلة الماضية بالضبط... وأني ما زلت حتى هذه اللحظة مأخوذاً بسحر جمالها وتألق تمثيلها، وتحت تأثير أجواء الحوادث الرومانسية الحالمة، والتي لعبت به البطلة دوراً رائعاً سيطر عليّ واستبد بي، فأنزل دموعي لرقته وعذوبته وشفافيته !

لقد أعادتني هذه الأجواء الدافئة الحنونة، أجواء الحب الصوفي العذري، إلى ذكريات يوم كنت يافعاً، أقرأ قصص ألف ليلة وليلة، وما كتبه الرومانسيون الشوامخ من أمثال؛ جبران والمنفلوطي وأحمد حسن الزيات، وما سطّره أناتول فرانس وتوماس مان ومكسيم غوركي ودستيوفسكي وبروست ولامرتين وأمثالهم الكثيرون الكثيرون، أهيم مع الخيالات، وأعيش مع الأحلام، بين الغمائم المخملية وعلى قمم الجبال

السحرية الشاهقة! أعيش مع بطلات تلك القصص التي أقرأها أو التي تخترعها مخيلتي الجامحة المتوحشة، مع النسيم والسحاب والغيوم، أقضي الليل جالساً فوق صخرة كبيرة، على مشارف مدينتنا الحالمة في الوطن الحبيب، أحدق بالسماء وأناجي القمر وأشكو إلى النجوم، وأنشد لها ما نظمت من قصائد الغزل والتشبب والهيام !

لقد كانت حلقة الليلة السابقة، بكاملها أحلاماً رومانسية وطهراً وعفة ونقاوة، على عكس كثير من الحلقات السابقة والتي تتحدث عن قضايا لا علاقة لها بالعواطف ولا بالحب ولا بالرومانسية !

أحنيت قامتي إلى الأمام قليلاً تأدباً، وفتحت يديّ الاثنتين ترحيباً، وفردت ابتسامة مضطربة فوق شفتيّ، محاولاً أن أتجنب النظر إلى عينيها ... يا لجمال وسحر عينيها !

–أهلاً وسهلاً يا آنسة ليندا هاملتون! لقد كان اداؤكِ في حلقة الليلة الماضية رائعاً... رائعاً جداً...! إنني ما زلت حتى هذه اللحظة، متأثراً بالدور الرومانسي التصوفي الساحر، الذي لعبته ! يسعدني جداً جداً أن أقابلك... ويسعدني أكثر أن تكوني طالبة في فصلي...! هذا شرف لي !

قلتها بسرعة كأنما عفريتٌ يطاردني، أو كأنما أخشى أن يتوقف لساني عن الحركة، وتتجمد الكلمات فوقه فأفقد متعة اللقاء وسعادة المحادثة ! كان جسمي يرتجف فرحاً، وقلبي يرقص طرباً، وأسناني تصطكّ تلهفاً وشوقاً...!

لا شك أن المفاجأة أربكت الفتاة وحيرتها، فقد احمرّ وجهها، وتوردّ خداها، فنظرتْ إلى يمينها ثم إلى يسارها... وانفجر جميع الطلاب، والذين تجاوز عددهم الثلاثين قليلاً يضحكون! كان بعضهم يضحك بأدب، محاولين أن يكتموا ضحكهم، وكان الآخرون يقهقهون بأصوات عالية...! أما أنا، فقد بهتّ وأصابني خجل وارتباك وحيرة، أعجز عن وصفها، إذ جفّ لساني وتجمدت الكلمات فوق شفتي، فتعطل عقلي ولم أعرف ما أقول !

–لقد ظننتها أنا كذلك عندما تقابلنا على الباب قبل خمس دقائق؛ ولكن سرعان ما أدركت خطأي، فهذه أنحف جسماً وأصغر سناً ! وصل إلى أذنيّ صوت أحد الطلاب يقول وهو يكتم ضحكه.

مرّت فترة لا أدري أطالت أم قصرت، كنت خلالها ألعق شفتي وأجفف بمنديلي القماشي موجة العرق الغزيرة الساخنة التي غمرت كل

وجهي ورقبتي، محاولاً تجنب النظر إلى وجهها أو حتى إلى وجوه بقية الطلبة...!

-أنا آسف جداً يا آنسة لسوء الفهم! إن وجه الشبه بينكما كبير! قلت بصوت مخنوق خفيض متلعثم، وكأنما أنبح!

لم تعلق الصبية بشيء سوى ذكرها لاسمها الذي لشدة ارتباكي وخجلي، لم أحفظه عندما نطقت به... وإن كانت عيناها لم تتحولا عن النظر إلى وجهي ولم تفارق شفتيها تلك الابتسامة العذبة الهادئة؛ مما زاد في اضطرابي وتوتري...!

عندما قرأت أسماء الطلبة، فيما بعد، عرفت أن اسمها مارثا كارلنقتون؛ كما لاحظت أن أكثر من ثلاثة أرباع الطلبة من الإناث، إذ كان عدد الطلاب تسعة وكان عدد الطالبات ثمانياً وعشرين! إن هذه النسبة لم تثر عجبي إطلاقاً، فقد لاحظت هذه الظاهرة بعد انتهاء تدريسي أول فصل لي في الجامعة... وهو أن الطالبات يتسابقن للتسجيل بالمساقات التي أدرّسها... ولقد سمعت من أكثر من طالبة، أن تهافت الطالبات على أخذ المساقات التي أدرّسها هو بسبب احترامي الشديد وأدبي المتناهي معهن، بالإضافة إلى أنني أعامل طالباتي كصديقات وليس كطالبات! وقد أنكرت أنا هذه التهمة الباطلة أول الأمر ودافعت عنها بحرارة، ولكن شلة كبيرة من الطالبات، وكنّا جميعاً نحتسي القهوة في مطعم الجامعة على جري عادتنا، أكدن لي ذلك وأصررن على مقولتهن. ولقد لاحظت اليوم أن خمس إناث كنّ في صفي في الفصل الماضي، ولكن بمساق يختلف !

-طلابي الأعزاء ! أرحب بكم أحرّ ترحيب وأحييكم أحلى تحية! قبل أن أوزّع عليكم الخطة الدراسية للمساق الذي سندرسه وهو "الشرق الأوسط في العصر الحديث" أستأذنكم السماح لي بالحديث، وباختصار شديد، عن لعنتين أو مصيبتين حلّتا بالشرق الأوسط بعد انقضاء الربع الأول من القرن العشرين...! إن المصيبة أو اللعنة الأولى هي ظهور البترول في بعض أقطار عالمنا العربي... تلك اللعنة التي جرّت المصائب والويلات والشرور المتلاحقة على الأمتين العربية والإسلامية، والتي في رأيي لا تعادلها مأساة في تاريخنا كلّه، إلا المأساة التي تعرضنا لها من الحروب الصليبية، يوم كتب جندي صليبي إلى أمه في أوروبا يبشرها بأن تطمئن قلباً وتهدأ بالاً، فإن حصانه يغوص في دماء المسلمين في ساحة الحرم القدسي الشريف إلى ما فوق الركب ! أو عندما تفاخر جندي صربي بأن عدد النساء المسلمات البوسنيات اللواتي اغتصبهن ثم ذبحهن

حتى الآن، قد تجاوز المائة، وأن عدد الأطفال الذين مزّق رصاص رشاشه رؤوسهم قد تجاوز الخمسمائة... بينما كان عدد المسلمين الذين شطب اسماءهم من قائمة الأحياء، حتى حينه، أكثر من ألف، والحبل على الجرار ! حدث كل هذا، وبلادكم، بلاد الإخاء والحرية والمساواة، بلاد الديمقراطية والعدل والقيم وحقوق الإنسان، تتفرج وتبارك الذبح والحرق والتدمير، ولا تفعل شيئاً لإيقافه !

نحن في الوطن العربي الكبير، لا نلومكم ولا نعتب عليكم، فنحن نعرف جيداً أن أعظم آمالكم وجلّى أمانيكم، هو تدميرنا وتدمير ديننا وحضارتنا ومنجزاتنا... إننا نلوم حكامنا وزعماءنا وقادتنا، فهم الذين سمحوا لكم وشجعوكم بل وآزروكم لارتكاب أفعالكم المنكرة هذه، ولكن اليوم الذي سنحاسبهم على ذلك ويدفعون به ثمن عمالتهم وخيانتهم وتآمرهم لقريب جداً، أقرب مما يتصورون...!

لم تمر الأمة العربية في جميع أزمنة التاريخ، وحتى في عصر الانحطاط، بحقبة أسوأ من حقبة البترول هذه، ولم تعانِ من الإذلال والتبعية والانحطاط الأخلاقي والفكري والحضاري، ولا عاشت حالة من القهر النفسي والتخلف العلمي وفقدان الهوية، ولم تصل إلى حالة من الضياع والهوان والذل، مثلما لحق بها في حقبة النفط! لقد حولنا النفط إلى مجتمع مستهلَك مستهلِك، بعد أن كنا ننتج كل ما نحتاج إليه، واستشرت بنا ظاهرة استهلاكية شرسة مجنونة محمومة، أتت على الأخضر واليابس، وجعلت منا عبيداً محتقرين أذلاء !

طلابي الأعزاء! إن النفط نعمة إلهية أعطانا إياها الله لتكون للأمة مصدر خير وسعادة ورفاهية، ولتكون وسيلة تقدم وازدهار ورقي وإعمار وتثقيف، ولتكون كذلك مصدر عظمة وقوة ومنعة للوطن؛ ولكننا لغبائنا وجهلنا وأنانيتنا، قلبناه إلى نقمة ومصدرٍ شرسٍ للآلام والتعاسة والشقاء، فصار وسيلة تأخر وانحطاط وهدم وإظلام وتجهيل...! إننا، وبسبب البترول، بدأنا رحلة السقوط والتيه والغوص في الأوحال، وتابعنا مسيرة التقزيم والسحق والاضمحلال والتلاشي...!

في ظل الحقبة النفطية المسعورة، ونتيجة للزخم الاستهلاكي الذي طرق باب كل بيت موسر في الوطن العربي، فقد غرقنا في التجاوزات والسلبيات والأخطاء، واستولى علينا الجشع والأنانية والغرور... ولم نقو على ضبط صمام الأمان لانغماسنا في اللذات والشهوات، وصار كل همّنا هو جمع المكاسب بطرق ملتوية وغير مشروعة، وخلق قطاعات

واسعة من الناس تكون عالة على الدولة، ولا تقوم بعمل شيء ولا همّ لها إلا صرف الأموال العامة دون رقيب ولا حسيب، وسيطر على مجتمعنا الجشع والانحراف والفساد والكسب السريع، وسيطرت علينا القيم الاستهلاكية واستغرقتنا الرفاهية اللامحدودة، وابتلعنا جنون التبذير إلى جوفه المثقوب ورفض أن يفرزنا خارج جوفه الأجرب، وسادت روح اللامبالاة واللامسؤولية في كل تصرفاتنا وسلوكياتنا، فدمرت مفاهيم القيم الاستهلاكية حياتنا الجمالية والفكرية والعاطفية والوجدانية... وحتى القومية والدينية! لقد تفككت الأسرة والمجتمع، فأصابنا التشظي والاستلاب والاندحار!

لقد خلق النفط من كثير من المتعلمين والمثقفين، انتهازيين وصوليين منافقين، تخلّوا عن مبادئهم وقيمهم وباعوا ذممهم وضمائرهم ليتسلقوا ويصلوا إلى أعلى، فساهموا في زرع روح اليأس والاستسلام والغبن والقهر والإحباط والانكماش وفقدان الأمل والرجاء، فقاد هذا إلى هجرة العقول والتشرد في أصقاع العالم أو التقوقع والانطواء، فانسحب المثقفون من ساحات المعارك والصراع التي وجدوا من أجلها، وهي توعية وتوجيه ونقد وقيادة وتثقيف الجماهير الحائرة الضائعة! لقد أسهم النفط في ازدياد شدنا إلى التبعية السياسية والاقتصادية، وحتى الحضارية للنظم الرأسمالية، فعملت هي على تمزيق الاقتصاد في الوطن العربي الكبير ... من أجل إخضاعه وتركيعه والسيطرة عليه والتحكم به.

لقد أصابنا خلل في نفوسنا المفرطة بالأنانية واستبد بنا التفاخر في جني الملذات... والسفه في الإنفاق، وغرقنا في سباق مسعور محموم متهافت في نفاق اجتماعي وتملق سياسي، وأصابنا شبق جنسي وبطر عاطفي وخواء روحي، واستبد بنا التردي والتخاذل والتشرذم والانحدار، ودخلنا في عالم الظلمة والتوهان، وأصبحنا شرائح من الكسالى المكبلين والمقموعين وصرنا....

قُرع الباب وفُتح، ودخلت طالبة صغيرة الجسم متوسطة الطول، نحيفة القدّ ذهبية الشعر، مرسل على كتفيها كأنه عناقيد من زبرجد، تبدو وهي تسير كأنما هي حزمة من الغمام أو سلة من زهور القرنفل والياسمين... لنعومتها ورقتها وترنح مشيتها... فخيل إليّ أنني أستطيع أن أرفعها عالياً، وبيد واحدة، لنحافة جسمها ولرقة أطرافها ! كانت وهي تسير كأنما هي ترقص أو تسبح كجنيّة بحر... أو تحلم أو توشوش كلمات

مبهمة في أذن عاشقها... كان الله في عون سامعها! كانت ترتدي صندلاً مشبكاً وبنطالاً قصيراً جداً، تظهر منه أعلى الفخذين حتى قبل أن تجلس؛ وقميصاً أبيضَ شفافاً ذا أكمام قصيرة يظهر منه زغب إبطيها، وصدرية بيضاء يرى الناظر من خلالها تكور نهديها وحجمهما وإطلالتهما...! يلاحظ الإنسان من على شاكلتها الكثيرات اللواتي يتمخترن على شواطئ البحر في سواحل كاليفورنيا أو حول برك السباحة!

عليكن اللعنة ! انه وبقدر ما تكون الواحدة منكن محيطا هادئ من الرقة والدفء والحنان، بقدر ما تكون بحراً ثائراً مصطخباً متلاطم الامواج من الشراسة و الحقد واللئم! ان عقولكن مبرمجة على فروجكن، التى لا تتأثر بهموم الوطن واوجاعه !

تطلع الجميع نحوها لبرهة، حيث كان الباب يقع على شمال الطلاب، ثم سرعان ما أعادوا أنظارهم يبحلقون بي من جديد وكأنما عيونهم تطلب إلي أن أتابع الكلام... فأحسست بخيالي الجامح وعاطفتي المتقدة وحرماني الطويل... الطويل... حرمان أهل صحراء تهامة وجوع سكان الربع الخالي وشبق أهل حفر الباطن، وكأنما عينا الطالبة مارثا، التي كانت تجلس أمامي، وعلى بعد قدمين فقط، والتي كانت عيناها مزروعتين بوجهي طيلة هذا الوقت؛ شعرت أو سمعتها أو تخيلتها... لا أدري... تقول؛ ومع كل ذلك... وحتى لو قلب جمالها عقلك واستولت نعومتها على قلبك، فأنا أجمل منها وأحلى، وتباً لهذه البلهاء التي قطعت عليك حبل أفكارك كما قطعت علينا تفكيرنا وتركيزنا !

اعتذرت الفتاة بأدب جم وحياء أصيل لمقاطعتها للمحاضرة، وطلبت المعذرة بصدق وصميمية، عن التأخير أيضاً... بحجة أنها اختلطت عليها العمارات ولم تستطع الاهتداء إلى هذه العمارة إلا بعد صرف وقت طويل في البحث، حيث أنها طالبة مستجدة !

هززت لها رأسي علامة الاحترام والتقدير والإعجاب، وعلامة قبول الاعتذار... وأشرت إلى المقعد الوحيد الخالي في الزاوية. لقد تأكد لي بأن الطالب الذي دخل القاعة بعد حضور جميع الطلاب وقبل بدئي المحاضرة بثوان، الجالس في الزاوية، ذا البشرة السمراء والسحنة الداكنة، ذا المشية الاسترخائية التهويمية، والنظرات الشرهة الجائعة التي لا ينفك يسددها إلى وجوه وصدور الطالبات وخصوصاً الشقراوات منهن... كأنما يعريهن بخياله ويضاجعهن بأفكاره؛ إذ لا بد وأن يكون من بلاد التيه، بلاد

القحطين والجوعين المعوي والعاطفي! كان مقعده ملاصقاً لمقعدها وعيناه تسرحان وتمرحان وتتجولان في كل مساحات جسمها... بل في كل مسامة وكل خلجة من كيانها... وعلى الرغم من أن المقعدين متلاصقان، إلا أنه حرك مقعده نحوها مما تسبب في اهتزاز مقعدها وجموح جسمها، وبعد أن استقامت رأيتها تبعد كرسيها عنه وكأنما تلكد فرسها لتهرب منه بعد أن رمته بنظرة احتقار وقرف محرقتين... ولكنه طاردها من جديد...! لاحظت كذلك أنها تضايقت كثيراً ونظرت نحوي كأنما لتقول لي سامحكم الله، فماذا فعلت لك حتى تجازيني بهذا العقاب الظالم؛ أو كأنما تستشيرني بما يجب عليها أن تفعل وتستنجد بي لأنقذها من ورطتها... وبلا شعور مني، قلت بصوت متحشرج مخنوق والشرر يتطاير من عيني:

-يضايقني جداً ضياع دقيقة واحدة من وقت المحاضرة ! أرجو أن تفهموا هذا من أول يوم.

لا شك بأنه فهم بأنني غاضب وغير راض عن تصرفه، فقد كفّ عن مطاردتها فأعاد كرسيه إلى مكانه وربما أبعده حتى قليلاً، ثم توقف عن التحديق بها، على الأقل بالدقائق الأولى... لم أنس أن أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم في سري، وأن أقرأ سورتي الفاتحة والصمدية، هكذا علمتني أمي، أطال الله في عمرها وأحسن ختامها، أن أفعل، كلما واجهت موقفاً مثيراً ولم أستطع كبح جماح غضبي؛ ثم واصلت محاضرتي:

-أيها السيدات والسادة! لقد خرّب النفط الإيمان، ودمّر الأخلاق، وزعزع العقيدة وأمات الذمم، واستخدم في الفساد والإفساد، وأوجد في نفوسنا روح التخاذل والخمول، وأمات فينا روح الخلق والإبداع، وانولدت عندنا روح التقليد، وفتح الطريق نحو تبعيتنا الاقتصادية للغرب، مما جعله يملي علينا كيف ومتى وأين نصرف نقودنا، ويمنعها عنا متى يشاء! لقد أضعف الرابطة الدينية، وأمات الرابطة القومية، وطغت المصلحة القطرية على المصلحة القومية، وألغى الشعور بالانتماء الوطني فازدادت التبعية وتضخم الشعور بالإقليمية، وقويت الذاتية ونما شعور المصالح القطرية، وصار الاهتمام بالذات أولاً والأهم!

لقد غيّرت أخلاقيات البترول في سلوكياتنا وعاداتنا وتقاليدنا وطبائعنا وانتمائنا ومواطنتنا، وحتى على عواطفنا ومشاعرنا وأحاسيسنا وتفكيرنا، تغييراً مخيفاً مذهلاً، وأثرت تأثيراً واضحاً ومزعزعاً على قيمنا وارتباطاتنا العائلية والاجتماعية... وسببت زعزعة استقرارنا وتماسكنا !لقد

أفقدتنا الكثير من مقوماتنا الأصيلة الجميلة والتي كانت تميزنا عن بقية الشعوب الأخرى؛ كالكرم والوفاء والشهامة التي كنا نفاخر ونتغنى بها... فنزعنا عنا جلدنا الأصلي واستبدلناه بجلد زائف..! لقد انهزمنا أمام ذاتنا!

لقد تقوقعنا وتشرذمنا... وارتدينا عباءة الانغلاق والتصحر..! لقد غبنا؛ غيّبنا التاريخ داخل حاويات قماماته، وحذفنا من دفاتره، فغرقنا في وحل وقذارة المادة وتهافتنا كالذباب على مصنوعات الغرب الاستهلاكية، وصرنا نتسكع على موائد ما أنتجه لنا من أفلام الجنس والأفلام الرخيصة ! لقد نما بنا الاستهلاك الباذخ والإنفاق الاستفزازي والمظهري الذي بدد ثروة الوطن، وأتاح لمجموعة من اللصوص الانتهازيين والمستغلين والطفيليين والمنحرفين بنهب الثروات وتبذيرها على موائد القمار وبيوت الدعارة في الغرب وهنا في أميركا؛ وأنتجت أنماطاً للسلوك الصبياني المراهق وأفرزت مفاهيم وقيماً جديدة وغريبة، واستشرى السطو على أموال الدولة، وأسيء التصرف بأموال الشعب وانتشرت مراكز القوى والتسلط، فغابت الحرية وانعدمت الديمقراطية.

لقد اغتال البترول حبنا للوطن وانتماءنا إليه، فاستبدلناه بأوطان أجنبية، فالواحد منا يأخذ ما نهب وما سرق، ويشتري بها بيوتاً وفللاً وعمارات... ويسكن حيث اشترى، فتصبح وطنه الجديد ولا يعود إلى وطنه الأم إلا ليحلب البقرة من جديد، وليسرق وينهب، فيأخذ ما نهبه وما سرقه إلى حيث مسكنه الجديد...!

لقد جعل منا الدولار مجتمعاً يحتقر الأصالة في الأخلاق وفي الإبداع وفي القيم الروحية والوطنية والعمل الجاد البنّاء والعمق والرومانسية، وانتشرت فينا السطحية وضاعت الهوية القومية والدينية، وأصاب الناس جشع أنساهم ما يؤمنون به من مبادئ وقيم وأخلاق ومثل عليا، فتخلى بعض العقائديون عن عقائدهم، وطاروا خلف المادة، يجرون للحاق بها بلهفة محمومة!

أيتها الطالبات... أيها الطلاب !

إن قادة الولايات المتحدة الأمريكية تراودهم فكرة تطبيق نفس الفكرة التي قام بها أجدادهم عندما حضروا من أوروبا إلى أميركا، وقضوا على سكان أميركا الأصليين من الهنود الحمر فاقتلعوهم من جذورهم وأخذوا بلادهم مجاناً؛ فلم لا يفعلون نفس الشيء مع سكان البترول

العربي، فيقضون عليهم ويبيدونهم، ويشردون من تبقى منهم في الصحاري العربية الواسعة، خصوصاً وهم في هذه الأيام القوة الأعظم وأسياد الكون وليس لهم منازع وعندهم التكنولوجيا صرصراً عاتياً، تجعل من المدن قاعاً صفصفاً في بضع ساعات !

إن الغرب يعتبر النفط كله ملكاً له، يتصرف بمنتوجاته كما يحلو له ويجود علينا بالفتات القليل القليل. إنهم ينهبون خيرات بلادنا، وأموالنا في بنوكهم محرمة علينا، يعطوننا سيارات وتلفزيونات وأشرطة جنس؛ وهكذا فإننا نمضي سنوات عمرنا في الذل والتشرد والإحباط والانسحاق والتيه.

أيها الطلاب الأعزاء...! صدقوني، إننا لا نملك البترول، وإنما نحن حراس ونواطير عليه، تماماً كما يكون لك بستان أو كرم من العنب وتستأجر من يحرسه لك مقابل أجر يتقاضاه؛ فإن هذا الناطور لا يستطيع أن يتصرف بمنتوجات ما يحرس إلا بأمرك؛ وكذلك نحن أصحاب البترول لا نستطيع أن نتصرف بشيء من ثمن بترولنا إلا إذا سمح لنا أسيادنا الغربيون، وشكراً لاستماعكم.

ما كدت أتوقف عن الكلام حتى رأيت مجموعة كبيرة من الطلاب تترك على عجل ! لمحت إلى ساعتي، فهالني أنه قد بقي على بدء المحاضرة التالية دقيقتان فقط، وأن العشر دقائق التي تعطى بين المحاضرة والتي تليها قد سرقت أنا منها ثماني دقائق، فشعرت بأسف وتأنيب الضمير، إذ إنه حتى الدقائق العشرة لا تكفي في كثير من الأحيان ليصل الطالب إلى قاعة المحاضرة التالية، وخصوصاً إذا كان عليه أن يذهب إلى أبنية كلية أخرى ! أما القسم الآخر فقد أدركت أن عنده فراغا، كما أدركت أيضاً، أن هذه القاعة فارغة هذه الحصة وإلا لكان طلاب المحاضرة التالية قد ملأوها قبل أن نخرج كما يحدث عادة، فقد أحاطوني وأمطروني بسيل من الاستفسارات التي اعتبرتها أنا مزيجاً من الأسئلة الاستفسارية بقصد المعرفة فقط، والقسم الثاني أسئلة وقحة يقصد منها الإحراج والتحدي والإهانة.

لقد كان أول سؤال طرحه عليّ طالب، لا أعرف اسمه، فأنا لم أتعلم أسماء طلبتي بعد؛ فالطالبة الوحيدة التي أعرف اسمها هي مارثا كارلنقتون؛ تبدو عليه علائم النضوج والممارسة، فقد بدا لي أنه أكبر سناً من بقية الطلاب وخلت أنه يدانيني عمراً!

-إذا كنت تكره بلادنا وتحتقرنا، فلم تأتي لتعمل في جامعاتنا وتعيش بيننا ؟! ألقى سؤاله باستعلائية وعصبية ثم بجرأة وبصراحة ودون مواربة !

ابتسمت... وإن كنت في الحقيقة تصنّعت الابتسام، إذ شعرت في أعماقي بالإهانة. لحست شفتيّ الجافتين المتوترتين بلساني الناشف. وقلت متصنعاً الهدوء والرزانة، محاولاً استعمال الحجة والمنطق:

-آسف أن أقول لك بأنك لم تستوعب ما قلت ! أنا لا أكره بلادكم ولا أحتقركم. لو كنت كذلك لما أتيت في المكان الأول، أو لغادرت حالما اكتشفت ذلك. إنني على العكس من ذلك أحبكم وأحب بلادكم ! أنا أكره سياسة حكومتكم الظالمة المنحازة.

كانت الحسناء، مارثا كارلنقتون، ما زالت جالسة في مكانها، أمامي تماماً، ولا يفصل بيننا إلا المرتكى الطويل الذي أقف خلفه. لم تشارك في المناقشة وإنما كانت فقط تنقل عينيها بين الطلبة وبيني.

-ولكن سياسة حكومتنا تعبّر عن آراء شعبنا. أجاب نفس السائل.

-قد يكون هذا صحيحاً في السياسة الداخلية، أما في السياسة الخارجية فحكومتكم تخضع دائماً لجماعات الضغط الصهيونية، وهي تفعل كل ما تطلبه منها.

-هذا صحيح مائة بالمائة! أنت على حق يا سيدي. قالت إحدى الطالبات الواقفات، بحماس فاق حماس الطالب السائل. قالت ذلك وأرفقتها بهزة من رأسها كأنما لتؤكد مقولتها!

-يحدث شيء من هذا في بعض الأحايين، ولكن ليس دائماً. قال نفس الطالب متراجعاً ولكن بإصرار.

-أنا أقول دائماً وأبداً، وليس أحياناً ! ردّت نفس الطالبة بغيظ وغضب!

نظرت إليها نظرة امتنان وشكر لمؤازرتها الأدبية لي؛ وكأنما شكري لها قد زاد من حماسها فأردفت:

-مشكلتنا نحن الأميركان أننا نفكر بأننا دائماً على حق وغيرنا على باطل ! اللعنة! لقد آن الأوان لنواجه أنفسنا ونعترف بأن هناك غيرنا من هو على حق أيضاً !

-حقاً يا أستاذ دهشان إن محاضراتك، كما سمعت عنها، دائماً مثيرة وحافزة، وأنا أحب هذا النوع من المحاضرات والمناقشات. قال الطالب بإذعان. وبعد أن نظر إلى ساعته أضاف:

-اعذروني! يجب أن ألحق بالمحاضرة، إذ إنني تأخرت كثيراً. وقبل أن يغادر أضاف:

-يبدو أننا سنمضي فصلاً حامياً كله متعة وتحد!

اختلست نظرة إلى الحسناء أمامي، فتقابلت عيوننا فمنحتني ابتسامة رقيقة دافئة، وأحسست كأنما تقول لي "برافو" لقد نجحت فتغلبت عليه. أنا فخورة بك! " وكعربي عاش أيام مراهقته الأولى، وثوران عواطفه الحبيسة، في مجتمع متزمت مستبد، يعتبر النظرة إلى المرأة حراماً، واشتهاءها يُدخل جهنم ومضاجعتها جزاؤها الخلود في أعماق السعير، قاسى كثيراً وتعذب طويلاً؛ فقد أسعده جداً وأثار غروره ، أن تمنحه أنثاه التي لها كل هذا الجمال وتتمتع بكل هذه الجاذبية، نظرات دافئة وبسمات مثيرة، فتمنى لو يستطيع أن يهجم عليها الآن، وأمام الحضور، فيعانقها !

- الطلاب الذين نصحوني أن آخذ هذا المسق معك ، اعلموني إنك تلقي المحاضرة أولاً، ثم تعطي ربع وقت المحاضرة للأسئلة والمناقشة؛ ولكنك لم تفعل ذلك اليوم، فهل غيّرت خطّتك؟! قالت طالبة محتجّة.

-إنهم صادقون، فهذه طبيعتي. ولكن اليوم هو مقدمةوللتعارف، فستبدأ الأسئلة والمناقشات ابتداء من المحاضرة القادمة. قلت بحماس وإخلاص، وبدأت أجمع كتبي، كأنما لأقول للوقوف أنه انتهى وقت الأسئلة ويجب الانصراف الآن !

شكراً لزميلتي "أودري" فإنها هي التي نصحتني أن آخذ هذا المساق، لأنني سأتعلم منه كثيراً عن دول عالم الشرق الأوسط عامة ودول البترول خاصة؛ إذ إن في نيتي أن أتخصص علاقات دولية.

قالت الطالبة بسذاجة وطيبة خلتها وصلت حد الغباء. وحالما انتهت من جملتها غادرت القاعة وتبعتها شلة الطلبة الذين كانوا ملتفين حولي؛ بعد أن تمنوا لي يوماً طيباً !

كانت المتبقية الوحيدة في القاعة هي الطالبة مارثا كارلنقتون، التي لم تشارك في المناقشة، ولم تفتح فاها أو تنطق ببنت شفه ، طيلة هذا الوقت، و التي كانت فقط تستمع إلى المحاورات والأسئلة والأجوبة باهتمام وشوق شديدين ، كما لاحظت ! وعندما أصبحنا وحيدين في هذه القاعة الرهيبة ، ارتبكت ... خفت ... خفق قلبي ... ارتجف جسمي ... جدّتني موجة من العرق الساخن و البارد معاً ، فبدأ جسمي يتصبب عرقاً و يرتجف برداً !

نهضتْ من مقعدها بتأنٍ و رشاقة ، فتدفق من جسمها نهر من الأنوثة الدافئة، فأحسست كأنني في حضرة ملكة الأناقة و الرقة و الذوق ، و أنها إلهة الكمال و الأدب و الدماثة، و ربة للحسن و للجمال و للنعومة ! و عندما وقف جسمها الغض اللدن الأهيف، منتصباً أمامي بكل تألقها و شموخها و نديتها ، أحسست أن بها صلابة الصخر ورقة النسيم و نعومة الحرير ... وأنها تمتلك كل أنوثة و سحر أمنا حواء ، وهي تتثنّى و تبدي محاسنها لأبينا آدم الفحل الخارج من رحم الزمن ، وتطلب إليه أن يأكل من الشجرة المحرمة...!

اهتزّ صدرها فرقص نهداها ... تقابلت عيوننا ، فثار الدم في عروقي و ازداد تسارع ضربات قلبي حتى أحسست كأن طبلتي أذني تكاد ان تنفجران ، وأن رأسي تكاد تتطاير أشلاؤه ، وبدأت أنفاسي تخرج فحيحاً كفحيح الأفاعي الغاضبة في يوم قائظ ملتهب ، وجوفي يقذف حمماً كقذائف صقر ، فاحتدمت العواطف و اصطخبت المشاعر ... و تصورت أن أيادينا اشتبكت و تقابلت شفاهنا و التحم كيانانا، فارتعشت أنوثتها ، فأحسست أنها سقطت في أحضاني وتلاشت بين يدي ، حتى قبل أن ألمسها !

ابتسمتْ فخفّ اضطرابي ... خفّت وحشتي وفارقني بعض خوفي ... و استطعت أن أسيطر على زمام نفسي ، بعد أن منحتني ابتسامتها ، وسكبت في قلبي و غمرت روحي ببعض من حنانها ! أرخيت جسدي المتوتر و أعصابي المتشنجة ، و فردت ابتسامة حيي خجلى فوق شفتيّ الجافتين كعظمة شققتها حرارة الشمس المزمنة !

–أظن أنه دوري الآن في السؤال ! وأخيراً نطقت حواء.

-ت... ت... تفضلي! و أخيراً فتح الله عليّ ، و رافقتها بهزة من يدي المضطربتين ؛ إذ على الرغم من هدوء حالي و شعوري بنوع من الاطمئنان و السكينة ، إلا أنه مازال فيّ بقايا خوف و تهيب و توتر أعصاب ! فكرت أن أزيدها ترحيباً ، لأظهر لها كرمنا العربي الأصيل ، بأن أعلمها بأنني مستعد لأسئلتها و أنني تحت تصرفها و لتظل تسأل إلى آخر الدنيا ؛ ولكن لساني، سامحه الله ، رفض أن يتحرك من مكانه رغم محاولاتي العديدة و ابتلاع ريقي أكثر من مرة!

-أريد أن أعرفك! فهل تقبل دعوتي على فنجان من القهوة ؟! لقد سمعت طلابا كثيرين في " الكافيتيريا" يتحدثون عن سعة اطلاعك وجرأتك وكذلك قوة شخصيتك؛ فعزمت على أن آخذ مساقاً معك! قالتها بجرأة فائقة وشجاعة نادرة، وبطريقة مباشرة و دون لفّ ولا دوران ، كما تفعل الكثيرات من بنات جنسها ... جرأة لم أعهدها من قبل في امرأة ، حتى هنا في أميركا قلعة حرية المرأة المطلقة ! لقد أشعرتني و كأنها تمارس حقاً من حقوقها ! استغربت جداً طلبها ،ففي كل تجاربي السابقة فإن الرجل هو الذي يسأل المرأة وليس العكس! وهو الذي يمتدحها وليست هي !

-هذا... هذا... هذا شرفٌ لي ! قلتها و كأنما كان يركبني عفريت أو يطاردني رجل استخبارات من رجال الوطن الأشاوس ؛ أو كأنما أخشى أن يخونني لساني فلا يسعفني و يتوقف عن الحركة !

-إن معرفتكِ تشرفني ! لقد وجدت نفسي فجأة أقول بسهولة ويسر ودون تلعثم ! وكأنما جملتي الأخيرة قد ولّدت في نفسي إحساساً بالجسارة و الشجاعة ، إذ صارت تبدو لي الأمور طبيعية ... طبيعية جداً !

-أنا الذي يجب أن أدعوك ! قلتها بحماس الجاهلية.

-أنا أدعوك ... أنت تدعوني ... هذا لا يهم ! المهم أن نشرب القهوة معاً و نتحدث ؛ إذ إن جرأتك و أفكارك وطريقة محاضرتك ، أعجبتني كثيراً ! قالتها بثقة و بساطة و كأن الأمر من التفاهة لا يستحق المناقشة و لا حتى الكلام !

-هذا ثناء قد لا أستحقه! قلت وقد أخرجت ضحكة مخنوقة جرباء مبتورة أثارت في نفسي القرف والاشمئزاز، وتمنيت لو لم تخرج؛ ثم تذكرت شيئاً تمنيت لو لم أتذكره.

-ولكن بعد نهاية هذه الساعة عندي محاضرة.

-أنا مدركة هذا. لقد لاحظت ذلك بجدول الصفوف؛ وكنت مترددة، أأنضم إلى هذا الفصل أو ذاك ! قالتها وكأنها كانت تتوقع إجابتي وقبولي الدعوة؛ ثم توجهت نحو الباب حيث تبعتها.

-لقد سمعت عنك الكثير... الكثير... من الطلبة الذين كانوا طلابك العام الماضي؛ وكنت أفكر أن آخذ معك مادة في الفصل الصيفي، ولكنني لم أجد لك اسماً في برنامج فصل الصيف! قالت بعد أن اجتزنا باب قاعة المحاضرات ودخلنا قاعة العمارة. احترت على أي جزء من السؤالين أعلق، ولكنها وفّرت عليّ السؤال وأنقذتني من حيرتي:

-قالوا بأنك أجرأ و أصرح أستاذ مرّ عليهم بحياتهم، وأنك إنسان ممتع لدرجة لا تصدق !

ضحكت بجذل ومتعة؛ ضحكة الفحل الذي تنتظره أنثاه في غرفة النوم؛ وفتحت فمي لأعلق، ولكنها سبقتني:

-يقولون بأن لسانك أحدّ لسان عرفوه على الساحة الأكاديمية، وأن منطقك يقنع الصخر!

-اللهم استر! قلتها بالعربية ناسياً أنها لا تجيدها.

-أنا لا أعرف لغتك القومية ولكنني سأتعلمها. هذا هو مخططي! قالتها بعفوية وثقة.

-وهل قولهم عني مدح أم ذم؟!

-إنه مدح طبعاً! إنه ثناء عليك!

-الحمد لله! طمأنت قلبي. قلت وقد شعرت حقاً بالراحة والسعادة ولكن ببعض الغرور!

-يبدو أنني أستغل الديمقراطية والحرية الأكاديمية، وكذلك حرية التعبير عن الآراء والأفكار في بلادكم، فأتحدث بهذه الصراحة واللوذعية. ولما لم تعلق أضفت:

-ولعلّ طيلة تكميم أفواهنا وكتم أصواتنا، هناك في الوطن، وكذلك القمع والتسلط والبطش الذي مورس علينا، جعلت فرامل اللسان وضوابطه وكوابحه تفلت منا هنا، فيصير الواحد منا يتكلم ويتكلم ويتكلم، ولا يتوقف عن الكلام حتى يتوقف نفَسه وتخور قواه، فلا يستطيع مواصلة الكلام!

لعلّ تعبيري أعجبها فضحكت حتى بدت نواجذها، فلاحظت أن لها أسناناً بيضاء ناصعة البياض، ومنظومة نظماً رائعاً كأنها نظم عقد من اللؤلؤ أو المرجان رتبه فنان ماهر!

كانت مارثا غمامة متحركة من الرشاقة والرقة والنعومة، وكانت نهرا من الجمال والسحر والجاذبية! لقد كانت تمتاز عن بنات جنسها برخامة الصوت، وبسحر العينين وبجاذبية الصدر؛ وكانت تفوقهن بطرواة الشفتين وزخم العواطف وتأجج المشاعر!

قبل ان تقابلك مارثا، تحس أنك في صحراء التيه، وانك تموت عطشا وظمئا؛ ولكن بعد ان تراها و تحادثها، تشعر بأنها قد فتحت لك خيمة حبها، لتسقيك من غدير أنوثتها و من بئر حنانها؛ فتدخلك جنتها لتشرب من ماء نبعها البارد، في حر الهاجرة، وتعلمك وبدون ان تنطق بكلمة واحدة، انك أنت جلّ أمانيها ومطمح احلامها؛ وانك أنت الوحيد الذي تهيم به وتسعد بلقائه !

لقد وقفت مارثا امامي، بشموخ وندّية وصلابة، جعلتني احترم واعتزّ وافتخر، بأن لي صديقة عندها كل هذا الشموخ والكبرياء!

أريد ان اشرب من كلماتكِ... وأروي ظمئي من سلافة شفتيكِ... اغرق نفسي في بحر انوثتكِ، واستحم في نهر دفئك وحنانكِ... اعصر جسمك حتى اسمع تكسّر عظامكِ ! قلت في سري !

-إن الطلاب المهتمين بدراسة حضارة وقضايا الشرق الأوسط، يطربون ويسعدون للاستماع إليك ومناقشة آرائك كما أعلموني، وإن كان هناك بعض الطلاب الصهيونيين الذين تضايقهم أفكارك وتغضبهم !لقد فهمت أن آراءك تكشف الحقائق التي يخفونها، أعني الصهيونيين عن زملائهم الطلاب، خصوصاً المستجدين والساذجين منهم، وحتى على الشعب الأمريكي عامة، فهم يحاولون تغيير الحقائق وتجميل صورة إسرائيل بأنها واحة للديمقراطية ومحبة للسلام، وأن العرب هم الرافضون لها، وأنهم يريدون أن يقضوا عليها... إلى مثل هذه الأفكار ! كانت تتكلم بحماس وصدق وتستعمل أحياناً يديها وعينيها ورأسها في التعبير عن أفكارها !

-جميع أكاذيبهم وألاعيبهم وخدعهم، كلها قاسيت منها وحاولت كشفها، قد أنجح أحياناً وقد أفشل؛ ولكنني أريد أن أسمع رأيكِ فيّ أنتِ ؟! ما رأيكِ أنتِ مع أنك لم تسمعيني إلا مرة واحدة ؟!

هنا شعرت أنني الآن عدت طبيعياً، سهيل دهشان، الأستاذ الذي يتحدث مع طلابه وطالباته، ببساطة وعفوية، دون حياء ولا خجل ولا ارتباك ولا حيرة !

-وهل رأيي مهم عندك ؟! سألتني وقد رمتني بنظرة خلت أن سهماً خرج منها واستقر في قلبي!

-طبعاً ! ألست إحدى طالباتي ! قلت متصنعاً الاستغراب !

-أعتقد أنهم لم يوفوك حقك من الوصف! إن عندك قوة إقناع مذهلة، فمنطقك وحججك تجعلان من الملحد مؤمناً! قالت وأتبعتها بضحكة أحسست وكأنها تنشر في الجوّ عطراً!

-وهل تعتقدين أنني يجب أن أستبدل مهنة التدريس بمهنة التبشير؟ ! كأن أصبح داعية للديانة اليهودية أو المسيحية أو حتى الإسلام؟! وبعد لحظة أضفت:

-ربما داعية بوذي أو كونفوشيوسي أو زرادشتي؟!

-ولم لا تكون داعية إسلامياً ! ذلك الدين الذي أعتقد أنه سيعتنقه العالم يوماً !

شعرت الصدق في كلامها، وقرأت البراءة في عينيها !

-إياك أن يسمعك أحد! قلت مخفضاً صوتي، وملتفتاً حولي لأتأكد من أن أحداً لم يسمعنا! ألست متربياً في مجتمع الخوف والقمع والمخابرات؟!

-إن مخابرات وطنك تسكت على لوذعية لساني وجرأة أفكاري، لأنها تعتقد أنها أفكار تطير في الهواء ولا تؤثر أو يتأثر بها أحد؛ ولكنها إذا سمعت كلمة إسلام وداعية وأصولي، فقد لا تتركني لحظة واحدة.

-لا تخف! سأحميك منهم! خرجت الكلمات من فمها بعفوية ؛ ثم وكأنما ندمت على قولها فأضافت متراجعة:

-عفواً ! إن مخابراتنا وحتى أنظمتنا غبية وقصيرة النظر! لقد قرأت كتباً كثيرة وعديدة عن الإسلام، كتبها مفكرون إسلاميون وغير إسلاميين، من عالم الغرب والشرق معاً، فتوصلت إلى قناعة بأن الإسلام من أحسن الأديان؛ فهو دين محبة وإخاء ومساواة !

-إنهم لا يعتقدون هذا لا هنا ولا في الغرب ! إنهم يقولون بأنه دين إرهاب وتخلف وجهل.

–ثق بي إنهم هم أنفسهم لا يصدقون ذلك ! القليلون يصدقونهم؛ والكل يعرف أن هذا من أجل مصلحة إسرائيل وخدمة لها ! قالت.

في طريقنا إلى مقهى الطلبة قابلنا الكثيرين من طلابي وطالباتي، القدماء منهم والجدد، فبعضهم كان يحييني بيده وبعضهم كان بهزة من رأسه، الفتيات عادة بابتسامة؛ ولقد لاحظت أن لمارثا معارف كثيرين، إذ إن عدد الذين واللواتي حيّوها، كانوا أكثر مني بكثير !

لم تحاول أن تدفع ثمن قهوتنا، مع أنها كانت تسير أمامي ووصلت "المحاسبة" قبلي... ولقد سألتها إن كانت ترغب في قطعة من الكيك المغطى بشرائح التفاح ، فاعتذرت وشكرتني، فلأتفضل أنا وأفعل إن أحببت، ولكنني اكتفيت بفنجان القهوة.

–شكراً لك على قبولك دعوتي! قالت بعد أن جلسنا على طاولة في إحدى الزوايا.

–أنا الذي أشكرك على دعوتك لي. لقد كانت لفتة جميلة وكريمة منك. قلت بصدق وسعادة وجذل.

–كنت أخشى أن ترفض عندما لاحظت ترددك أول الأمر! قالت وهي ترميني بنظرة من عينيها.

–لقد فاجأتني دعوتك، فكنت متردداً بين القبول أو الاعتذار! وبعد أن أخذت رشفة من فنجاني أضفت:

–على كل حال لقد أعجبتني جرأتك! إنك لا تتصورين مقدار سعادتي عندما أقابل امرأة جريئة !

–وماذا سيكون سبب رفضك لو فعلت ؟! سألتْ.

–ربما لأنها من أنثى أولاً ولأنها من طالبتي ثانياً!

–قد أعطيك بعض العذر لأني طالبتك، أما لكوني أنثى فلست أفهم السبب ! قالت باستغراب !

–لأنه لم يسبق لكِ أن عشت في مجتمع محافظ يحرّم أحياناً حتى مكالمة المرأة للرجل!

لم تعلق، ولم تنطق حرفاً، وإنما اكتفت بهزة من رأسها مرتين أو ثلاثة علامة المتفهم المدرك، مما ولّد عندي إحساساً بل قناعة، بأن مارثا

عظيمة في تفكيرها راقية في تصرفاتها وسامية في أحكامها؛ فهي لم تتهم الرجل العربي والمسلم في مجتمعنا وفي المجتمعات الشرقية بل وحتى بظلم المرأة واضطهادها وعبوديتها، كما سمعته من نساء كثيرات جداً، أوروبيات وأميركيات، بل وحتى نساء شرق أوسطيات!

-لكل مجتمع ظروفه وعاداته وتقاليده ! قالت بعد فترة صمت قصيرة، ثم أضافت:

-من يدري! ربما نساء بلادكم أسعد منا حالاً وأكثر اطمئناناً على مستقبلهن؛ نحن اللواتي نعتقد أننا حصلنا على كل ما نصبو إليه ونطمع في هذه الحياة !

-لقد توصلت إلى حقيقة مهمة في رأيي، وهو أن لكل مجتمع حسناته وسيئاته، لكل شيء؛ وأقول كل شيء !

هزّت رأسها علامة الموافقة ولم تعلق!

أجلت ناظري حولي أتعرف على طلابي وطالباتي، وقد رأيت شيئاً أذهلني؛ فقد رأيت الطالبة التي اعتبرتها قطعة من الغيوم المتحركة، تجلس مع الطالب الذي كانت متضايقة من اقترابه منها والنظر إلى وجهها؛ يشربان القهوة ويتضاحكان بمرح وسعادة؛ ثم فجأة توقفا عن الضحك وبدأ هو يتكلم وهي صامتة تنظر إليه وتستمع باهتمام شديد، ثم انفجرا يضحكان معاً، فأدركت أنه قد يكون قد قصّ عليها نكتة !

-سبحان الله إنه عالم عجيب غريب ! قلت بصوت عالٍ أخاطب نفسي.

سألتني مارثا عن سبب قولي هذا، فأشرت إلى الطالبين الجالسين هناك فميزتهما؛ وقصصت عليها ما حدث في الصف، إذ لا أظن أن أحداً غيري قد لاحظ المشكلة ! وفجأة شعرت بشوق مجنون ورغبة عارمة للكلام، استبدت بكل ذرة من كياني وكل خلجة من خلجات نفسي؛ أريد أن أمارس رجولتي وأستعرض فحولتي أمامها فقلت:

-حدثتني والدتي بأنه بعد أن خلق الله أمّنا حواء وأبانا آدم، وكانا ما زالا في شهر العسل، أن حدث وذهب أبونا آدم لوحده لقضاء حاجته فاستطولته أمّنا حواء فخرجت خلفه قلقة... مرتاعة... ملهوفة... تبحث عنه وسط الغابة؛ وأمضت معظم النهار دون أن تعثر له على أثر، فأخذت تنوح وتبكي وتولول... وفجأة لمحته مقبلاً من بعيد، يتلفت ذات اليمين وذات

الشمال؛ بجزع وقلق ووله... فعرفت أنه هو الآخر يبحث عنها وأنه جزع لبعدها عنه! تمددت تحت شجرة متظاهرة بعدم رؤيته و غير عابئة بغيابه ! طار فرحاً عندما رآها وسألها أين كانت، إذ صار له ساعات طويلة يبحث عنها، فأكدت له بأنها لم تغادر مكانها هذا، وأنها طيلة الوقت كانت مستلقية تحت الشجرة تستظل بوارف ظلالها!

ضحكت مارثا وقالت بصوت رزين هادئ، ونغمة موسيقية:

-نحن بنات حواء لغز محيّر مثل أمّنا، عجز عن حله حتى المفكرون والفلاسفة!

-ربما لهذا السبب لا يكف الرجال عن الجري واللهاث خلفكن! قلت محاولاً أن أبدو ظريفاً خفيف الظل!

-لم أرِ أحداً يجري خلفي! فلقد دعوت أحدهم على فنجان قهوة، فتردد طويلاً حتى قبلَ دعوتي! قالت وهي تحدق بي بنظرات ناعسة عاتبة.

-لا شك أن لتردده ما يبرره. إنني واثق من أن الكثيرين من الرجال، أهفوا نعالهم من كثرة مطاردتك والجري وراءك!

انفجرت تضحك، وسقطت خصلة من شعرها المتموج غطت جزءاً من جبينها فوق عينها اليسرى فأعادتها إلى مكانها وهي ما زالت تكركر. وبعد أن مسحت دموعها بطرف أناملها قالت:

-هذا تشبيه بمنتهى البلاغة، لم أسمع أجمل منه ولا أروع!

-إنه تشبيه من صميم واقعنا العربي! إنّ البدوي أو القروي إذا أحبّ امرأة وتعززت عليه، ولم تقبل الزواج منه، فإنه يهري حذاءه، وقد يحتاج إلى حذاء جديد، من كثرة ما يمشي بين بيته وبيتها، أو وهو يجري خلفها في الحقول أو في القفار، حتى يكسب قلبها فترضى به زوجاً! قلت وأنا ما زلت أشاركها الضحك.

-كم أتمنى لو أكون بمكانها، وتكون لي مثل حياتها! إنها رومانسية رائعة! قالت وقد كفّت عن الضحك واعتدلت في جلستها؛ ثم أضافت:

-إن الذين يجرون خلفي ويطمعون في صداقتي عادة هم الذين أهرب منهم ولا أريدهم!أما الذين أتمنى صداقتهم فهم يتهربون مني...!

–قد تكونين تظلمينه في حكمك عليه! لعلك لو لم تدعينه لقام هو بدعوتك! من يدري؟! قلت وأنا أسرّح ناظري بشعرها الطويل المتموج، وأتأمل قسمات وجهها الذي لا شك أن الخالق قد تفنن في إبداعه !

لاحظت إشراقة تغطي وجهها وبسمة تعلو شفتيها وضياء مشعاً يخرج من عينها.

–أحقاً ما تقول ؟! سألت بلهفة وعفوية، وعيناها تتأملان وجهي !

–آسف... فأنا أمزح ! فمن الصعب جداً أن أكون البادئ بدعوتك؛ بل من الصعب أن تكون هناك دعوة في الأصل!

–ولم تقول ذلك ؟! هل السبب هو أنا شخصياً أم أنك تكره النساء ولا تحب صداقتهن؟! سألت بقلق وحيرة لاحظتهما في لهجتها!

–على العكس من ذلك تماماً، فأنا أهيم بالجميلات من أمثالك! فقد كنت أتمنى من أعماقي وأحلم طويلاً بلقاء مع ليندا هاملتون، ولو لدقائق؛ وها أنا أراكِ أمامي كأنكِ هي، أعني كأنها أنتِ ! ثم أيّ أحمق أو معتوه هذا الذي تسمح له الظروف بالتعرف عليك، وأن يستحم بدفء صداقتك، وينهل من بحور معرفتك وطيب حديثك و... و... و... يرفض ذلك؟! قلت بحماس صادق.

–لم أكن أعرف أنني أملك كل هذه الصفات المميزة! قالت بنشوة وجذل.

–أنتِ تملكين الكثير الكثير...!أنتِ أقحوانة برية نادرة الوجود...! ولكنك كنتِ بحاجة إلى من يكتشفك.

–أنا في غاية السرور لهذا الذي تسميه اكتشافاً، وفي قمة السعادة أنك أنت الذي اكتشفتني، وليس أحد سواك! قالت وكأنما تنهل الكلمات نهلاً وتتلذذ بمقاطعها وأواخرها. ثم سددت إليّ نظرة حالمة أحسست بعدها وكأنما رمتني بسهم رقص قلبي كالذبيح...!

–إنني لا أستطيع أن أشاركك الرأي! قلت وعيناي تهربان من لقاء عينيها.

–ولم تقول ذلك؟!سألتْ بانزعاج وترقب وقلق.

–صدقيني أن سعادتي بلقائك لا تقل عن سعادتك، ولكنني أتمنى لو أن لقاءنا كان لظروف غير هذه !

-أرجوك أن توضح !إنني لا أفهمك! قالت بعصبية قفزت عن مقعدها وقد سمعت تأوّه الكرسي تحتها!

-ولكن السبب يختلف كلية!

-وهل لي أن أعرف؟! سألت بترقب وقلق.

-لأنك طالبتي! وأنا لا أحب أن تكون لي علاقات حميمية مع طالباتي... عفواً.. أعني علاقات صداقة...! قلت غير صادق.

لا شك أنها كانت مفاجأة محيّرة لها فقد سألت بانفعال وعصبية:

-وماذا إذا كنت طالبتك؟ فهل هذا محذور؟

-إنني أعتبر العلاقة بين أستاذ وطالبته أو بين أستاذة وطالبها، ذات خصوصية مقدسة يجب أن تحترم وتصان. أجبت بهدوء وبصوت منخفض، متصنعاً الرزانة والوقار!

-ولم تسميها علاقة ؟! لم لا تسميها صداقة؟! زمالة... مناقشات آراء وأفكار... أي شيء من هذا القبيل؟! سألت بانزعاج وثورة وتحفز، وكأنما طُعنت في شرفها وديس على كرامتها، فتحاول أن تدافع عنهما.

-التسمية لا تهم. المهم أنهما يلتقيان خارج قاعة المحاضرات ويعملان أشياء سوية خاصةً بهما! قلت بلهجة أكثر هدوءاً وبصوت أكثر انخفاضاً.

-وما الخطأ في ذلك؟ وهل هذا عيب وعار؟ وما الفرق بين أن أكون طالبتك أو زميلتك في التدريس أو موظفة في أحدأقسام الجامعة؟! أو ربما تقابلنا وتعارفنا في أي مكان عام أو خاص! أنا لست طالبة صغيرة غرّة في الرابعة أو الخامسة عشرة من عمري حتى تستطيع أن تغرر بي وتؤثر على تفكيري، فتحصل على ما تريد مني من دون رضائي وقناعتي! أنا امرأة ناضجة على أبواب الرابعة والعشرين وفارق السن بيننا ليس كبيراً، ومسؤولة عن تصرفاتي!

ولما لم تسمع مني جواباً استرسلت:

-نحن دائماً مجموعات كبيرة من الطالبات والطلاب نجلس معاً في المقهى؛ نحتسي القهوة أو الشاي أو نأكل الساندويشات ونتناقش في أمور شتى وقضايا مختلفة! كنا، عندما غزت قواتنا "بنما" واعتقلت رئيس جمهوريتها، وكذلك أثناء حرب الخليج، نتناقش لساعات وساعات، هنا في هذا المقهى، طلبة وأساتذة!

-أنت قلت مجموعات! هذا لا غبار عليه؛ أنا أتحدث عن اثنين فقط.. رجل وامرأة... في عنفوان شبابهما... مثلاً أنت وأنا. قلت وعيناي تتأملان صفاء وجهها وتشربان من رحيق شفتيها.

وهنا خطرت على بالي فكرة ماكرة مدحت لها نفسي وأثنيت بها على بديهتي، سرعان ما نفذتها؛ إذ فكرت بتحويل مجرى الحديث لأخفف من غلوائها وأهدئ من ثورتها، ولأبدد غضبها!

-ماذا يفكر الذين يروا بدوياً مثلي، قد لوّحته الهاجرة، وقرّح جفونه السهر؛ حرّقه الشوق وأضناه البعاد؛ مفتول العضلات، عريض ما بين الكتفين؛ ثاقب العينين، ملتهب النظرات؛ غليظ الشفتين، مسعور الرغبات؛ متأجج العواطف متقد الشهوات؛ يعشق التعبد والتهجد في محراب الجميلات، لا يمل من الاستماع إلى أحاديث ربات الحسن والجمال؛ في داخله محيطات من نار، وفي قلبه مخزون لا ينضب من الأسرار؛ جاء قادماً من الشرق، يحمل على ظهره وفوق كتفيه جوع الصحراء وحرمانها وقحطها... غموضها وأسرارها ويقينها؛ يجلس مع ملكة جمال جامعة كاليفورنيا، بل ملكة جمال كل كاليفورنيا؛ الذي تفنن الخالق وأبدع في تكوين جسدها... فسما وتألق وتعملق في تصنيف عقلها وفهمها وذكائها...! هذا البدوي العربي، بخشونة طبعه، وغلاظة عقله، وبنقص في صقله... ولكن برقة قلبه ورهافة مشاعره... يمد يده ليصافح هذه الأميركية، الناعمة... الدافئة... الرقيقة... الجالسة أمامه؛ الآنسة مارثا كارلنقتون... ناشداً صداقتها، طامعاً في موافقتها !

كنت أتكلم بصوت عال قليلاً، وكأنما أخطب في جماهير غاضبة أحثّها على الثورة ضد حاكم جائر؛ وكانت هي، طيلة هذا الوقت تصغي لما أقول بانتباه وتمعن شديدين؛ وكانت محدقة بي، تراقب تعبيرات وجهي ونبرات صوتي! ثم نهضتُ قليلاً من على مقعدي ومددت إليها يدي، فمدّت هي يدها بعفوية فتصافحنا، فلم تستطع أن تبقى يدانا متشابكتين حيث انفجرت هي تضحك بصوت عال جلب انتباه جميع المحيطين بنا... فصار بعضهم ينظر إلينا، ولكن للحظات، مما سبب لي خجلاً وإحراجاً شديدين، خصوصاً وأنا أحسّ منذ دخولي ببعض القلق والتوتر، حيث إن هذا مقهى ومطعم للطلاب وليس للأساتذة، والكثيرون منهم يعرفونني، وكنت أستاذاً لهم !

-يسعدني... بل يشرفني، قبول صداقة هذا البدوي القادم إلينا من أعماق الصحراء؛ ونتمنى له إقامة طيبة وحياة سعيدة بيننا... هنا في كاليفورنيا!قالت بعد أن خفّ ضحكها واستطاعت التكلم، محاولة أن تكون

جدية، وجاهدة في أن تقلد طريقتي الخطابية... ولكنها لم تنجح بسبب تسلط موجة الضحك الشديدة عليها! وبعد أن أخرجت من حقيبتها منديلاً وصل منه إلى أنفي عطر منعش ولذيذ مسحت به دموعها أضافت:

–صدقني يا بروفيسور دهشان، إنني لم أضحك في حياتي كلها من صميم وجداني، مثلما ضحكت اليوم !

–وصدقيني أنني لم أسعد بجلسة دافئة وحميمة منذ وصولي إلى أميركا كما سعدت اليوم! قلت ولكني ما كدت أنهي جملتي، حتى شعرت بمزيج من الندم وتأنيب الضمير، فلقد كنت غير صادق في قولي، ناكراً جميل السيد والسيدة روبنسون اللذين غمراني بحبهما وحنانهما وصداقتهما وكرمهما و... و... و...! استغفرت الله العظيم في سري وطلبت مسامحته وتوفيقه في مهمتي هذه...!

–لا أريدك أن تكرهني يا بروفيسور دهشان! محاضرتك بدأت قبل دقيقتين، وكذلك محاضرتي! قالت الصبية وقد نهضت بعد أن لمحت إلى ساعة يدها. خرجنا من المقهى على عجل، وعند الباب مدّت يدها إليّ وابتسامة تعلو شفتيها، وتعانقت اليدان، وأحسست لحظتها كأنما الكون لي والعالم ملك يدي! أبقيت يدي في يدها للحظات... متأملاً اليد والأصابع! لقد كانت أصابع يد جميلة، ناعمة، دافئة، أبدعها سيد الخلق الأعظم، بتأنٍ وتعمق وفخر... وعاطفة رقيقة رحمية أيضاً !

–مرة ثانية شكراً على قبول دعوتي وعلى الوقت الممتع الذي قضيناه معاً. لقد انسجمت بكل ثانية منه ! إلى اللقاء، وسأراك بعد غد في المحاضرة !

–إن شاء الله ! قلتها بعفوية.

افترقنا وذهب كل منا إلى محاضرته... انحرفت هي إلى اليمين وأنا إلى الشمال. في تلك اللحظة، وفجأة، أحسست بالوحدة والخوف معاً... وحدة مرعبة وخوف ممزق، وتمنيت لو أن جلستنا امتدت واستمر حديثنا... وأنه لم يكن عند كلينا محاضرة ليذهب إليها ! فجأة توقفتُ في سيري، والتفت خلفي وناديتها فلم تسمع، إذ يبدو أن صوتي كان منخفضاً ! ناديت ثانية بصوت أعلى قليلاً فلم تسمع أيضاً، فتبرعت طالبة كانت في منتصف المسافة بيننا تسير باتجاهي فنادتها وأشارت إليّ. في تلك اللحظة كنت قد جريت خلفها فأدركتها.

–نسيت أن أقول لك... عندي محاضرتين متتاليتين، إذا أحببت سنلتقي في نفس المكان وسنأكل شيئاً معاً. قلت وأنفاسي تصعد وتهبط ودقات قلبي متلاحقة بسبب الجري والشوق معاً.

–آسفة ! عندي محاضرة واحدة فقط ويجب أن أعود بعدها إلى البيت مباشرة. عندنا عادة في العائلة نحافظ عليها؛ يجب أن نتغدى ونتعشى معاً، إلا في حالات الإعلان المسبق ! قالت بأدب وبجد، وإن كانت الابتسامة لم تفارق شفتيها. أما أنا فضحكت بفتور ومرارة... ضحكة بلهاء، إذ لم أفهم شيئاً مما قالت ولا ماذا تعني من شدة الخيبة والانقباض. ولكنني تابعت:

–الثلاثاء والخميس عندي محاضرة واحدة فقط من الحادية عشرة حتى الثانية عشرة والنصف؛ قبلها أو بعدها أستطيع أن أراكِ. هذا إذا أحببتِ!

–آسفة جداً ! الثلاثاء والخميس ليس عندي محاضرات، ولذلك لا آتي إلى الجامعة !

–آه... إذن أنت تأتين الاثنين والأربعاء والجمعة فقط ! برنامج مريح جداً. قلت بخيبة أمل مريرة محاولاً أن أداري خجلي وارتباكي.

–هذا صحيح ! لقد جمعت الأربعة مواد في الثلاثة أيام ! أنا طالبة دراسات عليا، أكتفي باثنتي عشرة ساعة معتمدة ! إلى اللقاء بعد غدٍ في قاعة المحاضرات. قالت ذلك بحزم وأوسعت خطاها إلى حيث تقصد.

لا أدري بالضبط ماذا حدث بعد ذلك! لقد كنت كالمنوّم ! فقط تنبهت إلى أنني أقف في الساحة أمام عمارة دراسات الشرق الأوسط، وغير بعيد مني نافورة كبيرة، يخرج الماء من فمي وأنفي أسدين اثنين ضخمين. وقفت منتصباً، وأنا حزمة من العواطف المتدفقة المتأججة... وباعدت بين قدمي، متوجهاً إلى الشرق، نحو الوطن الحبيب، تماماً كما كان يفعل حماري مشهور عندما كنت صغيراً... حماري الذي كنت أطعمه بدل التبن شعيراً خالصا، وألبسه بدل الحلس سرجاً، وكنت أركبه بين بيتنا وكروم العنب، في منطقة الخارجة وسوادا ! كان كلما مرّ بطريقه على بول حيوان، يتوقف، رغماً عني ورغم لكدي المتواصل إياه وضربه على بطنه بقدمي وعلى قفاه بالخيزرانة؛ فيستنشق البول ويظل يستنشقه ويستنشقه ويستنشقه، لدقيقة ودقيقتين وثلاثة، بشبق مسعور وشوق عارم ولهفة جامحة وصميمية متقعرة أصيلة، ثم فجأة يرفع رأسه إلى أعلى ويعيده إلى الخلف كثيراً وبعناد، حتى أخاف أن يضرب رأسه برأسي

أو أن تنكسر رقبته لكثرة ما أرجعها إلى الوراء، فيفتح فمه وأنفيه ويغمض عينيه... يفتح قنوات أحاسيسه، ويطلق مسارب شهواته، فيظل يستنشق ويستنشق ويستنشق، بعمق وصميمية ولذة، وكأنما يرسل هذه الرائحة العطرية الزكية إلى أعماقه حيث مختبر دماغه، فيحللها ليعرف إن كانت لأنثى مشابهة لأنثاه أو لدابّة غيرها! أمّا إذا وجدها لدابة غير أنثاه، فإنه يتركها ويسير، فأحسّ بخيبته وحزنه وخذلانه؛ ولكن إذا وجدها لأنثى من نفس فصيلته، فإنه يفتح فمه ويصيح من أعماق جوفه، وبكل ما عنده من قوة... يُخرج صوتاً عالياً وطويلاً يسمعه سكان مدينة السلط وأهل الكروم؛ ويفهمه جميع ذكور وأناثي المنطقة من إخوانه وأخواته، فيجيبونه بأصوات مشابهة... حيث يطلق كل منهم العنان لحنجرته، وكأنما ليوصلوا رسالتهم إليه: "نحن معك... لا تجزع نحن معك... عشاق معاميد، نقاسي مثلك الشوق والوحدة، ونبحث بوَلَهٍ مسعور عن نصفنا الآخر!" ويظل متمترساً في مكانه، متخندقاً تحتي، فلا يسير ولا يتحرك ولا يترك مكانه قيد أنمله لو انفلقت وطقطقت، ولو ركلته وضربته بكل أقدام البشر وعصي الأرض، حتى يرتوي فيسير بإرادته... على كيفه ومزاجه... فيهرول جذلاً طرباً نشواناً !

عندما قابلت مارثا لأول مرة، كنت وأنا أحاضرفي الطلاب أنقل أطرافي بينهم واحدا واحدا، وأتوقف بعينيّ لحظات عند كل واحد، قد تطول وقد تقصر بالنسبة لما يترك في نفسي هذا الطالب أو تلك الطالبة، ولكنني عندما وصلت بنظراتي إلى مارثا توقفت عندها ربما أطول من بقية الطلاب، هكذا أحسست وعندما التقت عيوننا شعرت وكأنما تعانقت روحانا بعد هجر طويل وشوق جامح ! لقد شعرت في جسمي رعشة لذيذة، ربما لم أشعر بحياتي كلها بلحظة أسعد منها، وشعرت وكأنما الجنة التي قرأت عنها ، قد فتحت لي جميعها أبوابها فجأة، ودون سابق إنذار؛ فأدخلها وقد خلعت كل هموم الحياة ومشاكلها وحتى قضايا الوطن، فخطوت الخطوة الأولى بارتقاء سلم السماء، وهنا منحتني ابتسامة من شفتيها ومن عينيها أيضا، وشعرت بموجة من العاطفة الصادقة تهز كل كياني، وتجعل عيني تكادان تدمعان من جمال المنظر وعذوبة اللقاء ! لقد أحسست بفرحة غامرة حتى إنني لا أستطيع الاستمرار بالمحاضرة، وأن عواطفي المرتعشة قد خانتني !

حشوت منديلي القماشي في فمي، وحدّقت بالأفق البعيد... البعيد؛ وباعدت بين قدمي؛ جحظت عيناي واتسعتا، ورأيت بأم عيني

هاتين، مدينتي الحبيبة منتصبة أمامي، مدينة السلط الخالدة، تماماً كالذين يكاشفون أو يفتحون بالمندل، ورأيت بيوتها الكالحة الشاحبة، وحواريها المتربة وأزقتها الضيقة، وناسها المسحوقين المهزومين والمحبطين ! رأيت سميحة وهالة، تحملان كتبهما، كما كانتا تفعلان أيام المدرسة، والمارة من الرجال، يأكلون بنهم شبق مسعور، أجسادهن الناعمة البضّة، بعيونهم الجائعة الشرهة... يسرن في الشارع إياه، جنباً إلى جنب، مقبلات من ناحية التلة، ولا شك أنهما كانتا عائدتين من مدرستهما.

انحرفتا إلى اليمين ونزلتا في الزقاق الصغير الضيق، ثم عرجتا إلى الشمال، ودخلت كل منهما بيتها! وقبل أن تدخل سميحة، وبينما كانت تنتظر فتح الباب، صحت بها من أعماقي، بصوت خلت أن جميع سكان مدينتي "وست وود فلج" وسانتا مونيكا، وربما المناطق المجاورة، قد سمعوه، سميحا...ا...ا...ا...ا... إني خائف... خائف... مرعوب... أرجوك احميني! ضعيني في حضنك وخبئيني ! التفتتْ سميحة وراءها فلم تر أحداً، وفي تلك اللحظة كانت والدتها قد فتحت لها الباب فدخلته وأغلقته خلفها!

أغمضت عينيّ بشدة وعصرتهما بقسوة، فَنَزَلَ منهما فيض من دموع وأحسستهما كأنهما جمرتان لاهبتان أو شهابين من نار، فانفجرت أبكي بصمت موجع، وبقيت على هذه الحالة حتى أحسست بأن جبال القهر والإحباط والتيهان المتأججة المستعرة في داخلي، قد تخدّرت وخفّ سعيرها ! بعدها شددت أزري واستعدت رباطة جأشي ومسحت دموعي؛ ثم تلوت بعضاً من تسبيحاتي وتعويذاتي وأورادي، التي حفّظتني إياها أمي، وأنا صغير، والتي أتلوها كلما داهمتني ساعات الشعور بالضياع والخوف والتمزق، قبل أن أتابع سيري إلى قاعة المحاضرات !

خرجت من قاعة المحاضرة الأخيرة وأنا أشعر بضيق شديد في صدري وبصعوبة في التنفس ! لقد أحسست كأنما وضع أحدهم يده على فمي بقسوة وغلظة، محاولاً كتم أنفاسي !

لقد أحاط بي، كالعادة، الكثيرون من طلبتي يمطرونني بوابل من أسئلتهم الممتعة والمتنوعة، الذكية والغبية، المثيرة والمقرفة أحياناً، فكنت أجيبهم، على غير عادتي، باقتضاب شديد وفقدان الرغبة بالإجابة !

لقد لاحظت، وبشكل عام، أن طلبة بعد الظهر، كانوا أكبر سناً وأكثر نضوجاً وأعمق معرفة بخبايا السياسة وما يجري خلف الكواليس؛ من طلبة الصباح ، كما كانت نسبة الرجال أكثر من النساء ! لقد كان بعضهم يسأل بطريقة مؤدّبة مهذبة، بينما كان البعض الآخر يسألون بطريقة وقحة وغير مصقولة، أسئلة محيّرة ومثيرة ومتحدية معاً ! كان الكثيرون منهم يسألون بأسلوب تشفّي وتحقير واستهانة بنا، وكان البعض الآخر يسأل بطريقة الغاضب المقهور المشفق علينا؛ بينما كان الكثيرون يسألون لمجرد الوصول إلى الحقيقة !

سرت باتجاه مطعم ومقهى الطلبة، وعندما دخلته وجدته شبه خال اللهم من طالب هنا وطالبة هناك؛ وكانت أغلب الكراسي موضوعة فوق الطاولات والمنظفون يشطفون الأرض ويلمعونها. سلكت الطريق التي سلكتها مارثا، وخيّل إليّ أنني أشم رائحة العطر الذي كانت تتعطر به ! كنت أسير بخطى بطيئة، أتصفح وجوه الغادين والرائحين؛ أنظر تحت الأشجار وفوق الحشائش وعلى المقاعد الحجرية المتناثرة...! عمّن كنت أبحث ؟! من أريد أن أرى ؟! لا أدري ؟! وحتى إن دريت فإنني أخجل من الاعتراف بيني وبين نفسي ! هل كنت أبحث عن مارثا، أم كنت أبحث عن سميحة ؟! أم عن ذاتي الممزقة الضائعة ؟! بقيت أمشي حتى وصلت بوابة الجامعة عند مدخل "وست وود فلج"، ثم عدت بنفس الخطوات البطيئة ! لم أقابل وجهاً أنثوياً إلا وتطلعت إليه، ولا قفاً آدمياً إلا ونظرت إلى مقدمته !

عدت إلى مكتبي... رميت بكتبي وملفاتي فوق الطاولة، ورميت معاً جسدي المنهك وعواطفي المحروقة على الكرسي... تصفحت بطاقات الطلبة التي سلموني إياها عند بدء المحاضرة فلم أجد عليها عنواناً ولا رقم هاتف. نهضت مسرعاً، فلقد خطرت ببالي فكرة؛ عند بدء التسجيل يعطي كل طالب بطاقة خاصة يكتب عليها اسمه وعنوانه، أسماء المساقات التي هو مسجل بها، اسم العمارة ورقم الغرفة أو القاعة، واسم بروفيسور المادة. تحفظ هذه البطاقات حسب الحروف الأبجدية في غرفة خاصة عند مدخل عمارة شؤون الطلبة، يستطيع كل إنسان أن يصل إليها فيحصل على حاجته بأن يجد ذلك الطالب الذي يبحث عنه ! قلت علّني أجد رقم هاتف مارثا؛ ولكن ما كدت أفتح باب مكتبي وأهمّ بالخروج حتى تذكرت أن هذه الخدمة لن تكون متوفرة قبل أسبوع أو عشرة أيام من بدء الفصل الدراسي، واليوم هو اليوم الدراسي الأول !

من على أحد رفوف مكتبي، تناولت دليل هاتف مدن وست وود فلج وسانتا مونيكا وبعض المدن المجاورة! بحثت عن اسم مارثا مع أسماء كارلنقتون فلم أجد؛ إذن ربما يكون هاتفها وعنوانها غير مذكورين بدليل الهاتف كما يطلب كثير من المشتركين، أو أن هاتفها ليس باسمها !

توقفت قليلاً، فكّرت ماذا يجب أن أفعل، فخطرت على بالي فكرة سرعان ما نفذتها وهي أن أهاتف جميع الأرقام التي تحمل اسم كارلنقتون، وأطلب أن أتكلم مع مارثا، وكان عددها ما يقارب الدستة ! بدأت من الأول فكان جواب الأربعة الأوائل بأنهم آسفون إذ لا يوجد إنسان بهذا الاسم؛ فتوقفت قليلاً وفكرت، ثم سألت نفسي؛ فإنني حتى إذا وجدتها فماذا سأقول لها ؟! فهل أقول لها بأنني افتقدتك ومشتاق إليك وبأنني على وشك أن أحترق وأختنق معاً، وإن بي ما يشبه السعار لرؤيتك ! أرجوك تكرّمي عليّ وتحسني وقابليني ! فكيف تستطيع حتى نفسي أن تواجه ذاتي، وكيف تستطيع عيناي أن تفتحا وتقابلا "الأنا" ؟! وبأي حق أفعل ذلك؟! ثم ماذا تقول عني، وبماذا ستتهمني ؟! ألا يمكن أن تحتقرني ؟ إن امرأة من الوطن إذا قلت لها بأنك اشتقت إليها بعد أول لقاء، وحتى لو صارحتها بحبك، فقد تصدق مقولتك؛ لأن هذا من أحد خصوصيات المجتمعات المتأخرة، وربما من أحد فضائله أو أحد عيوبه؛ فهذا يعتمد على تربيتنا الاجتماعية والثقافية؛ وقد تقول بأنك تضحك عليها لتصل إلى غاية في نفسك، ثم تتركها بعد أن تحقق وطرك منها؛ أما الأميركية فهي لا تؤمن بهذا... ولا حتى تصدقك ! إنهم يؤمنون أن الحب يولد ويقوى نتيجة المخالطة الطويلة والعشرة المستمرة...! كيف تقنعها بأنك حقاً مشتاق إليها، وأنك افتقدتها بشراسة، وأنت لم تعرفها إلاّ لمدة ساعة ؟!

توقفت... هذا الذي أشعر به ، ماذا ؟! ماذا أسميه ؟! حباً ؟! الحب لا يمكن أن يحدث بلقاء واحد ! على الأقل هكذا يؤمن الغربيون ! ولكنني تذكرت... أو حاولت أن أجد المبرر لنفسي... أن طيف مارثا، أعني طيف ليندا هاملتون، صار له يعيش معي أكثر من عام، وصار لي أحلم برؤيتها ولقائها منذ مدة طويلة ! الحب عند الأميركان والأوروبيين يحتاج إلى معاشرة طويلة... طويلة جداً... قد تمتد لشهور وربما لسنوات، قبل أن يولد ويصبح حقيقة !

أما نحن، أبناء القحط الأنثوي والمسغبة الجنسية، التي عانينا منها واحترقنا بنارها؛ نحن الذين ولدنا في سنين التيه العاطفي، وعشنا حِقب

الضياع الروحي، وتربينا أيام الحريم والممنوعات والمحرمات؛ وبسبب حرماننا الأنثوي، وجوعنا الشبقي، وبسبب المقولة التي تصرّ على أن كل ما تملك المرأة من أعضاء جنسية وأعضاء أنثوية، هي محرّمة علينا، وكذلك النظر إليها، قد ولّد في أعماقنا قحطاً أبدياً، فجعل الحصول على ما عند الأنثى هو جلى همّنا ومرتجى أملنا، وقد نتداعى أمامه ونركع له !

قد يتزوج الرجل منا أحياناً مثنى وثلاث ورباع، وقد لا يستطيع أن يضاجع واحدة من زوجاته، ولكنه في ركام جوعه، وفي سعير مسغبته الطفولية، الأنثوية المحرومة يتلهف للحصول على الخامسة والعاشرة والمائة والألف، وإلى كل حريم الأرض!

فجأة شعرت أنني أختنق ! تركت مكتبي وتمشيت باتجاه المكتبة الرئيسية، كانت الشمس حارة، قابلتني أعداد ضخمة من الطلبة في الحرم الجامعي، لم أتوقف عن التحديق في الوجوه ! مررت على كل الأماكن التي من الممكن أن يتواجد بها الطلبة، فعلى الرغم من أنه اليوم الأول لبدء الفصل الدراسي، إلا أن المكتبة كانت عامرة نوعاً ما ! لم أترك قاعة من قاعات المكتبة العديدة إلا ومررت بها، ولم أترك مكاناً من الممكن أن يرتاده الطلبة إلا وتطلعت به !

الآن أدركت تماماً أن ما أبحث عنه هو مارثا كارلنقتون؛ وأستطيع أن أقولها، أمام نفسي وإلى الآخرين، دون حياء ولا خجل، وحتى بأعلى صوتي ! نعم... إنني أبحث عن أنثى غزت قلبي وخلبت لبّي واستبدت بعواطفي وأحاسيسي ومشاعري... بكل ما عندها من شخصية قوية محببة، وبكل ما تملك من جمال جسم وعظمة فكر! لقد ماتت عندي مقولة الحب العذري وتلاشت من عقلي وخاطري وكل كياني، أحلام وشطحات الصوفيين، وسبحات وتهويمات القدريين ! لقد انتصرت نظرية صديقي شاهر على معتقداتي وممارساتي !

"الحب العذري يا صديقي هو مصيدة الجائعين والمحرومين الذين يعيشون في مسغبة أبدية؛ الذين لا يستطيعون أن يصلوا إلى شيء صعب الوصول إليه ! صدقني يا صديق الطفولة، لو كان باستطاعتك أن تعانق سميحه، وتحصل على جسدها وما يخبئه من الكنوز والثروات، لاحتقرت نفسك ولكرهت وجودك وأنت تفكر بهذا الشيء الأجوف القميء الذي اسمه العذرية ! ليس هناك من شيء يا رفيق الدرب العذري، ألذّ وأهنأ من أن تغرق نفسك، بل وجودك وكيانك، في أحضان امرأة جميلة

تنهل من خيرات الخالق وكرمه، وتجود عليك بنفسها وجسمها وكيانها ! هل أقسم لك بأن المجنون لوعرف أن ليلى العامرية لا تملك مثلما تملك النساء بين أفخاذهن، وليس لها ما لهن ، لما أحبها ولتجنّب حتى مكالمتها ؛ وأن روميو لو استطاع أن ينام على صدر جولييت، وأن يأكل شفتيها وخديها وصدرها، بل وكل جسمها لما تردد لحظة واحدة في أن يفعل ذلك ! إن الشفتين والنهدين وما بين الفخذين، هي السعادة الكبرى والمتعة الأزلية ! فسبحان من جعل اللذة العارمة ترقد بين فخذي امرأة جميلة !" تمهل شاهر لحظة وكأنما كان يفكر فأضاف:

-"لو كانت ليلى العامرية تعرف أن ليس لقيس بن الملوح ما للرجال الفحول من صولات وجولات ، لخلعت خفيها ولانهالت على رأسه بضربات موجعة كأنها صليات سلاح أوتوماتيكي، و لبقيت تفعل ذلك حتى هربت من رأسه جميع أفواج القمل والصيبان !"

-"أرجوك يا شاهر! إنك تثير قرفي واشمئزازي، فيرتجف جسمي ويصيبني الهلع وترتطم في داخلي بحور من الغثيان، فتجعلني أكاد أبكي على العفة والطهارة والعذرية ! إنك لطّخت كل ما في نفسي من جماليات، ولوّثت كل ما في وجداني من طهارات ! إنك بأقوالك هذه تهدّم كل معتقداتي عن الحب".

-"هنيئاً لك يا صديقي بسذاجتك وجهلك وقصر نظرك، وطوبى للذين من أمثالي لا يفكرون إلا بالجسد ولا يحلمون إلا بما بين الفخذين... فخذي المرأة !"

-صدقني يا صديقي شاهر، وأقسم لك برب السموات والأرضين ، أن مجرد ذكرك لكلمتي " فخذي المرأة " يجعل جسمي كله يرتجف قرفاً و اشمئزازا، من قمّة رأي الى اخمص قدمي ! لقد قلت لك أنني أحب سميحة كما أحب باقة ورد؛ شيء جميل؛ شيء مقدس؛ عذري !

قال شاهر: بلهجة جدية وان كان في الحقيقة يسخر من معتقدي!

-سلامات ياحب عذري... وين هالغيبة...؟! وحشتنا والله يارجل...! صدقني ياسهيل لو ان قيس المجنون، ابن اللوح، جاء يوماً وقال لحبيته ليلي العامرية، بأن حبه لها هو حباً عذريا، و أنه فقط يحب روحها و لا يفكر بجسدها و لا حتى بلمسها ؛ لكانت خلعت زنوبتها ولبقيت تضربه على رأسه بعنف وشراسة، حتى تقطعت اوصال الزّنوبة، ولحتى قضتْ على كل ما برأسه من قملٍ و صيبان؛ ثم لركلته بعدها برجلها ركلةً قوية ألقت به إلى الارض، ولكانت قالت له، والشرر يقدح من عينيها والزبد يخرج من

فمها: "أليس ما بين فخديّ ورمانتي صدري وشفتي وما عندي من كنوز ثمينة ونادرة تجعلني مرغوبة عندك، أيها الغبي الأبله ؟!"

-ارجوك ياشاهر! توقف عن هذا الكلام الذي يفقدني عقلي! انك تشوّه صورة الحب العذري الجميلة ! صحتُ به بغضب لاهب، وقد غطيت عيني بذراع يدي اليمنى وكأنما اخفيهما لكي لا ارى الفحل وقد انقض على سميحة ليضاجعها !

-افق ياصديقي من احلامك ! ان افكارك توجع قلبي ! صاح بي صديقي شاهر بانفعال وغضب لايقل عن انفعالي و غضبي !

* * * * *

في الدور الثالث من المكتبة، حيث قاعة طلاب الدراسات العليا، وحيث يكون من السهل عليّ أن أميّز الأشخاص المألوفة لدي أشكالهم، مددت نظري خلال الزجاج أتصفح وجوه من على الطاولات؛ وعلى الرغم من أن مواصلة أبحاثهم ودراساتهم لا تتأثر كثيراً ببدء فصل وانتهاء آخر، إلا أنني وجدت أن الأعداد المتواجدة منهم كانت نسبياً قليلة.

استمريت أنقّل طرفي بين الحاضرين، وفجأة تجمدت في مكاني؛ فقد أحسست كأنما سهم أو رصاصة قد اخترقت قلبي وأنه بدأ ينزف ! ثم أحسست كأنما مجموعة من السكاكين الحادة قد دخلت جوفي وبدأت تمزقه، ثم أمعنت به طعناً وتقطيعاً ! صحت من أعماقي صوتاً لعله جلجل المكتبة، ولكن لم يسمعه إنسان سواي ! مددت يدي اليمنى لأتحسس غزارة النزيف ومن ثمّ لأحاول إيقافه ! وخلال لحظات شعرت بأن جسمي كله، من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي، قد بدأ يهتز مرعوباً وأصابني ما يشبه التشنج؛ وبعدها بلحظات استبدت بنفسي عاطفة هوجاء مدمرة بالشعور بالوحدة وعدم الأمان والتمزق ! فلقد رأيت مارثا تجلس مع شاب أشقر طويل، يتبادلان الهمسات والابتسامات، ظهرها إليّ ووجهها قبالته ! لم أشعر كم مرّ من الوقت حتى أحسست كأن بحوراً من الدم الملتهب الثائر المستعر، بدأت تتلاطم داخل أوردتي وشراييني وكأنما تبحث عن مخرج !

لقد شعرت بإحباط وإذلال وإهانة وتحقير من الصعب وصفها، إذ أحسست بأن كرامتي وشرفي وكبريائي، وحتى قيمي ومعتقداتي، قد أُلقيت، كلها، في حفرة امتصاصية؛ تماماً كما يشعر البدوي الشريف

الشهم عندما يجد حليلته وأم عياله في فراشه، تضاجع غريباً ! لقد صوّر لي تفكيري البدوي وتربيتي القبلية بأن أذهب الآن إلى مارثا، وأعلمها بوجهها وأمام صاحبها، كم أكرهها وكم أحتقرها؛ وأنها سقطت من عيني بعد أن كانت في قمة الشموخ؛ وإنني لا أريد أن أرى وجهها بعد اليوم، وأن تذهب وتستبدل المساق الذي تأخذه معي بمساق آخر ! خطوت باتجاهها خطوتين أو ثلاث، أحسست بأنني أجبن من دجاجة وأكثر فزعاً من فأر، وأن مجرد التفكير بمواجهتها والتحدث معها، جعل الكون برحابته مكاناً لا يتسع لأختبئ به ! لم أنتظر المصعد فأخذت الدرج، وبكل ما بقدمي من طاقة وبحذائي من قوة، صرت أضرب أرض الدرج واحدة تلو الأخرى، كأنما لأحطمه فأنتقم لكرامتي المهدورة !

لعلّ هذا التنفيس البدائي قد أتى ثمره وحقق غايته؛ إذ عندما وصلت الدور الأول وسرت بالقاعة الطويلة في طريقي إلى الباب الخارجي، كان تفكيري الجاهلي وطبعي القروي وتصرفي الصبياني، قد بدأ يفارقني ويحل محله تفكير حضاري مهذب، يتعامل بلغة الحوار والمنطق والإقناع والاقتناع ! لقد كان أول سؤال خطر على بالي هو ؛ ما زلت أنني لم أجد عذراً مقنعاً لأكلمها في بيتها فأسألها عن حالها، فكيف يكون لي الحق أن أذهب إليها وأحاسبها على جلوسها مع شاب ربما تحبه وحتى تنام معه وقد يتزوجها يوماً ! ثم من أنا، وماذا أعني لها حتى أكلمها بأي شيء، إطلاقاً، عن غير المحاضرات وشؤون الدرس ؟! بحق السماء، كيف أعطي لنفسي حق معاقبتها ؟ !

على الرغم من توصلي إلى هذه الحقيقة ؛ فإن مجرد تصوري لمارثا وهي تعانق إنساناً قد ألهبت غيرتي ، وأشعلت النيران في داخلي وثقل التنفس في صدري ؛ فأحسست بالخذلان واليأس والمسكنة من جديد !

لقد تأكّد لي بأن تصرفي اللامسؤول ؛ الأحمق والمتهور؛ سيضرّ بقضية الوطن كثيراً، خصوصاً وأنا أعتبر نفسي واحداً من الذين يحملون هموم الوطن ويدافعون عن قيمه ومعتقداته في المجتمع الأميركي !

إن قضية الوطن في رأيي، فوق كل القضايا الشخصية، وحتى العاطفية، إذ لولا قضايا الوطن وعذاباته، فلماذا إذن نحن هنا، نقاسي مرارة الاغتراب وتمزق قلوبنا لواعج البعاد ؟!

شعرت ببعض الراحة فجأة، فقد تذكرت، أني ومنذ قدومي من الوطن، فلطالما جلست الساعات الطوال، أتكلم مع مختلف فئات الشعب الأميركي، بمنطق وحجة وإقناع، وما أكثر ما وجهت إليّ أسئلة متعمدة؛ مستفزة ومهينة وجارحة، ومع كل هذا كنت أبتسم فأجيب بهدوء ومنطق واتزان. لقد توصلت إلى حقيقة واضحة، هو أنني في تعاملي مع العلاقات العاطفية، أختلف كلية مع تعاملي مع أوجاع الوطن وشرح قضاياه ! إنني إنسان أهوج أحمق أمام قضايا العاطفة، وفيلسوف حكيم عندما يتعلق الأمر بمصلحة الوطن ومشاكله !

قبل أن يكمل الباب الكهربائي دورة إغلاقه خلفي، كنت وجهاً لوجه أمام زميل من الوطن، ما كاد يراني حتى تقدم مني مصافحاً وسائلاً كعادته عن الصحة والأحوال وأخبار الوطن. تكلم كثيراً فلم أعِ معظم ما قال، فقد كان كل تفكيري وحواسي مركّزة، في الطابق الثالث؛ ولكنني تنبهت وهو يسحبني من يدي، على الطريقة العربية الأصيلة، بأن أرافقه إلى أحد مطاعم القرية ليتعشى "بمعيتي" ! وبعد جدال طويل أقنعته بأنني أكلت قبل ساعة، وأنني سأقبل دعوته في مرة قادمة.

لقد تعرفت عليه العام الماضي؛ طالب دكتوراة في علوم الكومبيوتر، يدرس على نفقة أهله، طالما تحدثنا عن قضايا الوطن وتناقشنا في أوضاعه، وقد حضرنا معاً عدة محاضرات ومناظرات بيننا وبين طلاب صهيونيين ، أبلينا بها بلاءً حسناً ! فعلى الرغم من أن السياسة هي ليست موضوع دراسته، وعلى الرغم من أنه ينحدر من طبقة برجوازية، إلا أن طارق كان من المطلعين على قضايا الوطن الخبيرين بآلامه، المتحمسين والمدافعين عن قضاياه.

أعلمني طارق بأن لي عنده مجموعة من الجرائد والمجلات العربية المهاجرة ؛ وأنها مملوءة بالأخبار عن ما يحدث من تجاوزات وتسيب في كل قطرٍ من اقطار الوطن العربي الكبير ! كثيراً ما كنا، طارق وطلاباً عرباً آخرين وأنا، نتبادل مثل هذه الجرائد والمجلات، وحتى بعض الكتب أحياناً، تلك الكتب التي تتحدث عن سفاهات وتصرفات بعض رجالات و نساء العرب في أوروبا ، وخصوصاً لندن وباريس ! لقد كانت هذه الكتب وأمثالها، مادة دسمة وبرهاناً ساطعاً للذين يكرهوننا للطعن في عروبتنا وللسخرية من إسلامنا ! عروبة التعصب وإسلام الجهل والتخلف، كما كانوا يقولون !

طلب إليّ طارق مرافقته لإعطائي الجرائد والمجلات، حيث إنها موجودة في درج طاولته بالدور الثالث، فتوترت أعصابي من جديد، وعاودتني غيرتي وحنقي، إذ كيف أستطيع أن أرى مارثا وهي تغدق حنانها وحبها على صديقها، فقد أتصرف تصرفاً غير مسؤول فأجرّ على نفسي عواقب وخيمة، وأحرج زميلي طارق ! اعتذرت للصعود معه، استغرب جداً اعتذاري، وخصوصاً وقد كنا نسير مسافات بعيدة ونسوق عشرات الأميال للحصول حتى على جريدة أو مجلة واحدة. ! لم أجد بداً من مرافقته، وإن كان قلبي في داخلي يتراقص كفزّاعة مقثاة الفقوس في يوم ريح عاصف، وكنت أشعر بخوف ورهبة كجندي غرّ جبان أرغمه ضابطه على مقاتلة الأعداء وجهاً لوجه، وبالسلاح الأبيض ! كان صراع جبار يدور في داخلي، إذ كيف أستطيع أن أتحمل الصدمة ثانية ! إذن، يجب أن لا أصعد معه، فليقل ما يقول عني، وليعتقد ما يشاء بي؛ ولكن القدر الذي يرسم الخطى ويحدد المسارات لكل منا؛ وذلك المتربع على عرش الأكوان سبحانه، خالق السموات والأرضين، لم يرد لي أن أتعذب أكثر مما فعلت وأن لا أكفر بقضائي وقدري أكثر مما كفرت، وليؤكد لي بأن أدعية المرأة الصالحة التي تعيش هناك، وراء البحار وخلف المحيطات، مسموعة ومستجابة ! وكذلك لأنه هو أيضاً كان قد قدّر منذ أن ولدت مارثا كارلنقتون، وولد سهيل دهشان، بأن شيئاً ما سيحدث بينهما؛ وأنهما سيردّدان مع عبدالحليم حافظ "على كف القدر نمشي، نمشي على المكتوب " !

إذ ما كدنا ندخل القاعة، وأنا أسير خلف طارق، وعيناي مشدودتان إلى الأرض، تحاولان تجنب النظر حيث تجلس غريمتي، حتى نهضت الفتاة ونهض الشاب وعندما مرّت من أمامي، التفتت وحيتني بهزة من رأسها، وبابتسامة رقيقة ونظرة دافئة من عينيها !

لحيرتي واستغرابي، بل لذهولي وصدمتي، لم تكن الفتاة مارثا، وإنما كانت إحدى طالباتي في أول عام بدأت به التدريس بالجامعة؛ طالبة صهيونية شرسة رغم حداثة سنها وغضاضة تفتحها...! إن قصتها معي من الحوادث التي لن تنسى، والتي كلما أتذكرها أشعر بحنين طفولي جارف، إلى مجالستها والتحدث إليها، فتـنـزل دموعي ، وبغزارة ، رغماً عني !

* * * * *

رجعت إلى مكتبي بعد أن وعدت ابن بلدي طارق بأنني سأهاتفه قريباً لنتفق على موعد نحدده لنتناول الغداء أو العشاء معاً... دخلته وكل كياني، وكل ذرة في جسدي نيران متأججة مستعرة...! لقد كانت عواطفي تغلي كبركان نزق أحمق غاضب، يرمي بحممه إلى كل اتجاه وفي كل مكان، لم أستطع كبحها أو السيطرة عليها، إذ أحسست أنني أرتجف كدرويش هزه شوق ملوّع للقاء ربه، وعناق الذاتية الإلهية، فبدأ بترديد الترانيم وإنشاد قصائد الوله والشوق في الهيام بحبه والتدله بعبادته !

كانت عمارة دراسات الشرق الأوسط خالية، فقد انصرف تقريباً كل من بها من الموظفين والأساتذة معاً، وأحسست أنه يسيطر عليها هدوء موحش مخيف...! تعاظم إحساسي بالخوف والقلق والوحدة، عندما بدأت أفكر بمارثا، وهل هي ملتزمة أو حرة طليقة ؟! إن فكرة ارتباط قلبها بإنسان آخر، وتصوري لها تعانق رجلاً وتمنحه نفسها وجسمها، أطارت البقية الباقية من هدوئي واتزاني معاً، إذ أحسست بغيرة ماحقة، وأنني لا أستطيع التنفس وعلى وشك الاختناق، وكأنما لنا سنوات وسنوات نحب بعضنا، وجاء آخر ليأخذها مني ... فصرت كمسكون مطارد، ترعبه النأمة وتزلزل كيانه الحركة...!

لقد كنت حزمة مشتعلة من الديناميت المتفجّر ! كان أول إنسانأريد أن أراه... أن أتحدث إليه... أن أبوح له بمكنون قلبي... أن أحتمي به من مخاوفي وأطلب مساعدته... هو الأخت الحبيبة... الحنونة... شيلا... نعم شيلا روبنسون...! ذلك الملاك الجميل الطاهر، التي ومنذ أن وطأت قدماي أرض أميركا، ما أحسست بالهدوء والاطمئنان والأمن والسلام، إلا بعد أن عرفتها وأدخلتها بين طيّات قلبي وروحي، وفي تلافيف وجداني !

لا شك أنها هدية السماء لي... استجابة لأدعية والدتي الصالحات! " اللهم، يا بني أن يجعل لك صديق في كل طريق، وأن يكثّر في الدنيا أصدقاءك وأن يقلل في الدنيا أعداءك ! اللهم اجعل السماء تحدر لك والأرض تخرج لك، خيراً وبركة وسعادة !" إن حب والدتي لي هو سراجي المنير الذي أستنير بنوره، في الليالي المظلمة الحالكة... وهو الأنيس الذي يؤنس وحشتي في الليالي الخاوية المفزعة...!

اتصلت كالمحموم بشيلا في العيادة، فلم يجب أحد... نظرت إلى ساعتي فإذا هي الخامسة والنصف تقريباً ، فعرفت أنها لا بد وأن تكون قد توقفت في طريق عودتها إلى البيت للتسوق كعادتها، وفي السادسة استطعت الحصول عليها... وعندما سمعت صوتها الحبيب صحت بعاطفة مشبوبة ثائرة مشتعلة، وشوق دفين متفجر:

-شيلا... لا... لا ! أنا خائف ! خائف جداً ! أرجوكِ احميني ! خبئيني في داخلك... فأنا أموت رعباً ! قلت هذا وانفجرت أبكي فوق الهاتف !

-سهيل ! قل لي ما الحكاية ؟! ما الذي يرعبك؟! هل ارتكبت جرماً ضد القانون ؟! قل لي ! لا تخبئ عليّ ! صاحت بي بفزع وقلق معاً !

-لا...! لا...! أشعر بالوحدة...! بالغربة...!بالخوف... بالتمزق...! بالضّياع ...! لقد حدث اليوم ما قلب كياني !

-إذن... قل لي ما الذي حدث ؟!

-أنا خائف...! خائف جداً...! أموت من الخوف ! أنا مرعوب..! أنا مشتاق إليك...! أتمزق لرؤيتك...! أذوب ولهاً للقائك...! أنا أحبك...! أنا أموت بك حباً...! أشعر بشوق مدمر لأعانقك، أستنشق عطر أعطافك..! لألقي بنفسي بين ذراعيك... لأرمي برأسي المتفجر على صدرك الحنون...!

انقطع الصوت... لم تجب... ورغم انفعالاتي وقلقي وحيرتي، فقد أدركت أنني ربما أكون قد آذيت إحساسها بتجاوزي حدود الصداقة والكلمات المسموح استعمالها... فأنا لم أذكر لها يوماً بأنني أحبها... ولم تسمع مني قط كلمة حب... فقلت مستدركاً:

-شيلا ! أشعر أنني أحبك حتى الجنون... ومشتاق إليك حتى النخاع ! إنني أعبدك يا شيلا... أعبدك ! أعبدك ! هل تفهمين ؟! هل تحسين بي ؟! أشعر بالضياع بعيداً عنك ! أموت بك هياماً يا أختاً لي لم تلدها أمي...! يا أختي أميرة الثانية...!

إنني لا أبالغ إن قلت بأنني سمعت تنهدات راحة وانعتاق عميقة خرجت من صدرها... فقد جاءني صوتها فوق أسلاك الهاتف، كأنما انفكّ لتوّه من كابوس خانق مرعب !

-سهيل ! أرجوك ! قل لي ما الحكاية ؟! لقد مزّقت قلبي ! لقد أقلقتني عليك ! قالت وكأنما تستغيث !

–لقد قابلت اليوم ليندا هاملتون ! نعم قابلتها وتكلمت معها... تكلمنا طويلا بمودة وصميمية ؛ بل وشربنا القهوة معاً... جاءت اليوم إلى صفي؛ إنها إحدى طالباتي. قلت وأنا أرتجف فوق الهاتف...!

–ليندا هاملتون ! الممثلة ! بطلة مسلسل الحسناء والوحش ؟ ! المسلسل الذي تحبه وشاهدنا معاً بعضاً من حلقاته ؟!

–نعم ! نعم ! ليندا هاملتون ! أعني واحدة مثلها... مثلها تماماً... ظننتها هي ربما تقمصت جسمها وروحها معاً ! قلت وجسمي يرقص فرحاً ورعباً معاً.

انفجرت شيلا تضحك أول الأمر، ثم توقفت فجأة عن الضحك، إذ لعلها أدركت بذكائها الحاد وحساسيتها المفرطة، أنها قد تكون قد جرحت إحساسي وآذت مشاعري ، فقالت مستدركة:

–هذا شيء يفرح بل يسعد جداً ! شيء لا يدعو إلى الحزن والخوف والقلق... يجب أن تفرح بهذا اللقاء... أن تسعد به ! أنا سعيدة جداً من أجلك... آمل أن تكون متفقة مع أحلامك وطموحاتك !

شعرت بالراحة، وبدأ بعض القلق والخوف والتوتر يفارقني، وسرحت مع خيالاتي وأحلامي.

–سهيل ! لا بد وأنك عدت إلى شقتك في النصف ساعة الأخيرة. لقد حاولت طيلة بعد الظهر الاتصال بك فلم أجدك ! إذ إن جيمس عنده عشاء عمل وقد اقترح أن أدعوك إلى العشاء الليلة، فقد لا يعود إلى البيت قبل العاشرة ! تعال... أنا أهيّء عشاء لأثنين . قالت وقد أيقظتني من سرحاني، ثم ضحكتْ:

–نيويورك إستيك مع البطاطا ! إحدى أكلاتك المفضلة !

–أنا لست في بيتي. أنا ما زلت في مكتبي بالجامعة. قلت وقد شعرت بانتعاش روحي... وبراحة نفسية غامرة... لقد فارقني الخوف والقلق والتمزق، وكأنما كلام شيلا روبنسون، كان حبة منشط، تطرد الهموم والقلق والخوف أيضاً !

–!تعال ! لا تذهب إلى شقتك. الأكل سيكون جاهزاً خلال نصف ساعة وأنا جائعة جداً! أرجوك لا تتأخر ! أحبّ أن أسمع قصة طالبتك الجديدة. مع السلامة ! قالت بحزم حنون... وأغلقت السماعة.

فرحت شيلا كثيراً بعد أن قصصت عليها ما حدث بالكامل، وبكل تفاصيله... خصوصاً وقد أضفت إليها كثيراً من البهارات والتوابل... فقد رأيت الفرحة تخرج من عينيها، وينتشر الرضى فوق وجهها ! لقد كان عندها تحفظ واحد، وهو أن الفتاة التي أريدها هي طالبتي، وقد تسبب هذه العلاقة بعض الإشكالات مع إدارة الجامعة... ولكنني أخبرتها أن هذا هو نفس ما كنت أفكر به... ثم أخبرتها تفاصيل النقاش الذي جرى بين مارثا وبيني، وكيف أنها دافعت وبحرارة عن الفكرة، بحجة أنها ليست طالبة غرّة حتى تخاف من أستاذها، وأن فارق السن بيننا ليس كبيراً !

كان رأيها ؛ قبل أن أذهب بعيداً مع عواطفي، وأسترسل كثيراً مع أحلامي، ولكي أتأكد من صدق مشاعري، وأن ما أشعره نحوها هو مجرد عاطفة نزقة؛ فإنه يجب علي أن أدعو مارثا ثانية إلى فنجان من القهوة، ثم إلى غداء أو عشاء، ثم أدعوها إلى الخارج... إلى معرض للرسوم أو إلى السينما أو المسرح، وإذا أحببت أن أدعوها إلى العشاء في بيتهم، لتتعرف عليها هي وجيمس، فإن ذلك يسعدهما ويتمنيانه !

لقد شجعتني شيلا كثيراً لإقامة صداقة مع مارثا، فقد أدركت أنني أميل إلى هذه الفتاة ميلاً شديداً، ثم أنها تملك كثيراً من المواصفات التي أنشدها في المرأة التي أحب أن تكون صديقة لي... كالنضوج الفكري وقوة الشخصية، الشجاعة الأدبية، وبلاغة المنطق، ثم عذوبة الكلام وجمال الجسم...! إن شيلا تعرف جيداً أن جميع هذه الصفات هي التي أنشدها في الفتاة التي أحب أن تكون صديقة لي !

لقد عرفتْ أيضاً من أحاديثنا المسهبة ومناقشاتنا الطويلة ، من أنني لا يمكن أن أتزوج يوماً من أجنبية ولا حتى من عربية، مهما كانت درجة حبي لها وتولعي بها، وأنني دائماً أضع حاجزاً صلباً وجداراً صفيقاً بين عاطفتي ورغباتي، وبين واجبي القومي والوطني... هذا بالإضافة إلى أن مجرد فكرة الزواج عندي غير واردة إطلاقاً ، إذ كيف يستطيع إنسان أن يصرف وقته ويضيّع طاقاته وجهوده في شؤون البيت وتربية الأولاد، وقد نذر نفسه للوطن ومشاكله... !

* * * * *

–حبيب القلب ! سهيل وأنا عندنا لك أخبارٌ سارّة ستسعدك كثيراً كما أسعدتنا ! قالت شيلا وهي ترقص طرباً وتتمايل حبوراً وجذلاً، وشعرها

الناعم المرسل على كتفيها يتموج و يتراقص كشلال من ذهب، حالما فتحت الباب لزوجها عند عودته في الساعة العاشرة والنصف ليلاً.

-وهل عينته حكومته أحد أفراد بعثتها في هيئة الأمم ، أو بالسفارة في "دي سي" أو شيئاً من هذا القبيل ؟! سأل الرجل بانزعاج وقلق، عزوته إلى أن حدوث مثل هذا التعيين، سيأخذني بعيداً عنه !

-إن هذا لن يحدث ! ولكي يحدث مثل هذا التعيين، لا بد وأن تكون واحداً من رجال النظام ؛ وأنت تعرف أنني لست واحداً منهم ! قلت وأنا أضحك بمرارة !

-لقد جاءت اليوم إلى فصل سهيل طالبة أمريكية بها جميع المواصفات التي ينشدها سهيل في صديقته ؛ من ثقافة واسعة ونضوج وذكاء، بالإضافة إلى الجمال وقوة الشخصية... إلخ... إلخ... وقد أعجبته كثيراً، ويعتقد بأنها تبادله نفس الشعور !

وصارت الزوجة تقص على زوجها ما حدث بالتفصيل كما رويتها لها، بل زادت هي في تفاصيل أنثوية لم تخطر لي على بال، وأنا أساعدها في ذكر وتوضيح أمور نسيت هي إيضاحها أو ذكرها !

كانت عيناي وتفكيري وجميع حواسي ومشاعري مركّزة على شفتي الزوج ؛ وأعتقد أن الزوجة أيضاً كانت تفعل مثلي ، إذ كنّا ننتظر تشجيع الزوج ومباركته ! وبقي الزوج صامتاً يستمع إلينا ولا يعلق حتى انتهينا من قول كل ما عندنا؛ ثم تكلم بهدوء وبطء شديدين، وكأنما هو فيلسوف يحلل قضية فكرية أو أخلاقية شائكة ومعقدة:

-آسف أن أخالفكما الرأي ! فهذا النوع من العلاقة أو الصداقة، سمياها ما شئتما، ستجلب التعاسة والدمار لكليهما ! قال وكأنما يلقي بقنبلة أو يذيع سراً خطيراً !

استغربت الزوجة كما استغربت أنا، بل أصيب كلانا بإحباط فظيع وخيبة أمل شديدة، لجواب الزوج السلبي ولرد الفعل الفاتر الذي قابلنا به ! لقد كان عندنا، الزوجة وأنا، شبه يقين بأن فرحة الزوج لهذه الأخبار لن تقل عن فرحتنا وأن تشجيعه ومباركته لي لن يكونا أقل من مباركة وتشجيع الزوجة لي !

-ولم يا حبيب القلب ؟! سألت الزوجة بانزعاج وحيرة وقد فتحت عينيها على وسعيهما ! أحزنتني نغمة صوتها المحبط الخائب أكثر مما

أحزنني جوابه، إذ لا شك أن قوله أدهشها وحيّرها كما أدهشني وحيّرني... فتجمد كل منا بمكانه لا يبدي حراكاً لثوان.

-لأن سهيلاً ملتزم كما تعلمين بقضايا وطنه الغارق في الصراعات والمآسي، الرازح تحت نير الفقر والجهل والتخلف... ثم المحسوبية والرشوة والفساد... و... و... وليس عنده الوقت ولا الاستعداد النفسي لقيام علاقات عاطفية تستغرق جزءاً كبيراً من وقته. سيجد نفسه سريعاً بين فكي كماشة ضخمة وشرسة، بين واجبه القومي وعاطفته الشخصية !

"إنك عبقري يا صديقي جيمس، وإنك حقاً لمفكر عظيم ! أنت تعيش الواقع فقط، بعيداً عن الأوهام والخيالات والغيبيات، تزن كل شيء بميزان العقل والمنطق، وليس بميزان العواطف والمشاعر، وتحسب كل أمر بدقة وحذر ! ما أحوجنا في الوطن العربي الكبير إلى رجال من أمثالك ! إن ما تقوله يا صديقي العزيز، صحيح جداً، مائة بالمائة، ولكن رأيك لم يعجبني رغم إيماني المطلق بما تقول ! لقد أتيت من عالم يختلف عن عالمك تماماً، وهو أن الصحيح هو ما أريده أنا، وليس الصحيح هي الحقيقة الناصعة ! شيء واحد يا صديقي لم يخطر على بالك، ولست أظن بأنه سيخطر... فأنا من الشرق... لا أستطيع أن أعيش بدون امرأة وبدون حب ومشاعر وعواطف... ولو كنت واثقاً وأعرف سلفاً، أن هذا الحب ربما يجلب لي التعاسة والدمار كما قلت... ! ومع هذا فإنني سأواصل المسيرة... مسيرة الغلط... إذ إنني لا يمكن أن أتصور نفسي بعد اليوم بدون مارثا كارلنقتون ! إن حتى مجرد التصور بأنني أعيش بدونها أو بعيداً عنها، يجعلني أشعر بالاختناق والإحباط معاً ! فأرجوك أن تبارك لنا هذا الحب، وأرجوك أن توافق عليه وأن ترضى به، إذ ربما برفضه قد تجعلني أقلل من حبي لك واحترامي... وقد أذهب أبعد من ذلك مرغماً، ربما بالانسحاب من حياتيكما، أنت والأخت العظيمة شيلا ! ذلك الملاك الذي سيكون من الصعب عليّ جداً، بعد الآن أن أعيش بعيداً عنها ! صدقني يا جيمس، بأنني سأفقد عقلي... نعم سأجن إن أرغمت على فراق شيلا ! إنها قدري الذي لا يمكن الهرب منه ! إنها دائي ودوائي معاً ! فأرجوك أن لا تضعني بين خيارين، كلاهما مرّ، لأنني سأفشل حتماً !".

-آسف جداً جداً يا حبيبة القلب شيلا، وحزين كثيراً يا صديقي بروفيسور سهيل، أن جاء رأيي كصدمة لكما ومخيباً لآمالكما، ولكنكما أيضاً

تعرفانني جيداً! إنني أقيّم القضية بطريقة علمية حسابية منطقية، بعيدة عن العواطف والأحلام والرومانسية...!

ولأول مرة منذ مدة طويلة استعمل الزوج معي الرسميات باستعماله كلمة "بروفيسور" والتي لم أحبّها منه أبداً، لأنها تجعلني أحسّ ببعدي عنه !

–وحتى لو لم يكن عند البروفيسور سهيل التزام وطني ومشاكل قومية، فالفتاة الأميركية لا تصلح لأن تكون زوجة لرجل عربي إلا في الحالات النادرة جداً.

وهنا فتحت زوجته فمها، وكذلك فتحت أنا فمي لنقاطعه، إذ لعلّ شيلا أرادت أن تقول كما كنت أنا أريد أن أفعل، وهو من الذي يتكلم عن الزواج ، ولكن الرجل ، لا شك كان كعادته، في منتهى الذكاء وقوة الملاحظة ، إذ رفع يده وكأنما ليقول لنا: عفوكما... انتظرا حتى أكمل وعلّقا على ما أقول.

–بسبب خلفية كل منهما البعيدة كل البعد عن الأخرى كاختلاف التفكير والتصرف والحضارات والعادات والتقاليد و... و... قد تنجح زيجة هنا وأخرى هناك، ولكن نجاحها بسبب أن الزوج العربي قد يكون جاء من محيط مسيحي يسكن في الوطن العربي، جاء من مجتمع متحرر منذ أجيال طويلة يمارس كثيراً من التفكير والعادات الغربية ... وكما عرفنا من البروفيسور سهيل، فقد جاء من مجتمع جدّ محافظ ولا أقول جدّ متزمت ! وبعد أن بلل شفتيه بلسانه أضاف ولكن بحماس وبصوت أعلى وبشبه انفعال:

–إن الأسوأ من هذا كله، هو أن البروفيسور دهشان، إنسان عاطفي جداً، وعواطفه تتحكم في تفكيره وتصرفاته، حتى في اتخاذ القرار الوطني، وهذه نقطة ضعف قاتلة ! ثم نهض باتجاه المطبخ بعصبية ظاهرة وهو يقول:

–أشعر بظمأ شديد، فهل يحب أحدكما أن يشاركني كأساً من الويسكي ؟

وقبل أن يسمع جوابنا كان قد دخل المطبخ وسمعت ارتطام مربعات الثلج بالكأس وصوت تكسرها، والويسكي يسكب فوقها ! وبعد أن احتسى نصف الكأس برشفة واحدة، عاد إلى مكانه واستأنف حديثه، ولكن دون انفعال وتوتر هذه المرّة، وبصوت هادئ منخفض:

-أنا أعرف جيداً أن صديقي سهيل ليس برجل زواج، فهو كما يقول وكما نعرف متزوج من قضية وطنه، والفتاة، أية فتاة، بعد أن تخرج مع شاب لفترة ولو وجيزة، وخصوصاً إذا عرفت أنه يحبها، وأيضاً أنهما ينامان معاً، فإنها لا بد من أن تطمع من صديقها أن يتزوجها، بل وستطالبه علانية وبصراحة... وعندها يحدث التمزق والقهر والإحباط، ويبدأ الصراع بين ما يجوز وما لا يجوز.

-ولكن سهيلاً صادق وأمين يا حبيب القلب، مع نفسه ومع الآخرين، وسيعلمها منذ البداية بأنه ليس رجل زواج ويعملها أيضاً الأسباب، فإذا لم يعجبها، فستنسحب من حياته في أي وقت تشاء. قالت شيلا بحماس وقد توردت وجنتاها.

-صدقيني يا حبيبة القلب... وحتى لو أعلمها منذ البداية... وحتى لو وافقت هي عن قناعة وطيبة خاطر، فإنها ستغير رأيها فيما بعد، وتعود فتطالبه بالزواج منها، لسبب بسيط جداً، إذ تعتبره حقاً من حقوقها، والتزاماً منه للقيام بواجب من واجباته نحوها ! قال السيد روبنسون بنفس الصوت الهادئ المنطقي المنخفض الرزين.

-ليست إذا كانت امرأة عندها كرامة واحترام لنفسها ! قالت الزوجة، ثم وتوقفت للحظة وكأنما تذكرت شيئاً:

-إنها ستفقد ماء وجهها ولا تستطيع لخجلها وعارها أن تواجه نفسها.

وكأنما سمع نكتة لاذعة، إذ انفجر يضحك مما أغضب الزوجة، أو على الأقل أثار بعض غضبها، وإن كانت لم تظهر ذلك أمامي، إذ لاحظت موجة من العرق الساخن قد علت جبينها، وتوثباً في عينيها وصدرها ! وبعد أن أفرغ بجوفه كل ما كان في الكأس قال برقة وعذوبة وصوفية، وهو يناجي زوجته وكأنما يتعبد في محراب حبها:

-الحب يا حبيبة القلب، وكما تعرفين، يصهر المحبين في بوتقة شفافة، فيصبحان حزمة من الغمام الممزوج بالعطور والبخور، يتّحدان روحاً وجسداً... فكلمة "تخجل من نفسها أو منه، وتفقد ماء وجهها أمامه أو يفقد ماء وجهه أمامها"؛ هذه كلها كلمات وعبارات لا توجد بقاموسهما؛ فعندما يقول أحدهما شيئاً للآخر فكأنما يقوله لنفسه، ولكن بصوت عالٍ، تماماً كما يفكر أحدنا بصوت مرتفع !

وقبل أن أسمع تعليق الزوجة، نهضت مستأذناً بحجة أن الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بخمس دقائق، وأن الوقت متأخرٌ ويحتاج كل منا إلى قسط من النوم والراحة ليواجه يومه التالي.

لم يحاول أي من الزوجين إيقافي، أو يعترض أحد منهما، كما كانا يفعلان دائماً، حتى ولا كلمة مجاملة،إذ إن انصرافي في منتصف الليل من بينهما وقت مبكر بساعة على الأقل !

في طريقي إلى البيت، وحتى بعد أن تمددت في فراشي، كنت ما زلت أفكر بما قاله عني صديقي جيمس؛ فكلما تعمقت بالتفكير، وكلما أمعنت التدقيق في كلماته وأفعاله، كلما ازددت قناعة، بأن كل ما قاله عني، كان منطقياً ومقنعاً وصحيحاً، ولكن الذي أزعجني وأقلقني هو موقفه الرافض والمتصلب من المشكلة لماذا لا يريد لهذه العلاقة أن تنشأ ؟! فلماذا لا يريدني أن أقع في حب فتاة ؟! هل يخشى أن تصرفني عنهما، أم أنه يحبني جداً لدرجة أنه يخاف عليّ من المعاناة والعذاب والفشل ؟!

إن انزعاجي وحيرتي فارقاني عندما رنّ جرس هاتفي في الساعة الثانية صباحاً، وكانت المتكلمة شيلا. إنها لم تعتذر عن مكالمتها لي في هذه الساعة المتأخرة، إذ لا شك أنها واثقة بأنني ما زلت غارقاً في التفكير بما حدث، وأن النوم لم يزر جفني بعد...!

–لقد استطعت أن أعرف حقيقة سرّ معارضة جيمس لتعرفك على مارثا ! قالت وهي تضحك ضحكات السعادة والبراءة والدلال.

–وهل توجد حقيقة غير ما ذكر ؟! سألت بدهشة.

–نعم ! إنه بالإضافة إلى خوفه عليك من أن تتعذب معها، فهو يخشى أن تأخذك مارثا منا، فتبعدك عنا وتحرمنا من صداقتك ورؤيتك المستمرة !

–وماذا كان جوابك له ؟ ! سألت بقلق.

وبعد أن أخرجت ضحكات كأنها أنغام سمفونية، قالت بهدوء الواثق:

–قلت له بأن هذا لن يحدث، إذ ليس من المعقول على سهيل أن ينسى صداقة متينة كصداقتنا.

-بارك الله بك ! حقاً إنك أصيلة ابنة أصل وعراقة! هذه هي الحقيقة، إنه لا يوجد إنسان على وجه الأرض، هنا أو في الوطن، يستطيع أن يأخذني منكما أو ينيسني صداقتكما، ولا حتى أن يبعدني عنكما !صحت بسعادة غامرة وقد ازددت حماساً. وبعد أن توقفت للحظات استرسلت، وقد بدأت عواطفي تصطخب في داخلي كالحمم:

-إنكما أنتما الوحيدين فقط اللذين باستطاعتكما أن تفعلا ذلك ! صدقيني يا شيلا إن صداقتك وجيمس لا أبادلها بكنوز الأرض؛ وقد أصبحت ضرورة من ضروريات حياتي كالأكل تماماً، إذ لولا أنني أخشى المبالغة... لقلت كالهواء! إنني أشعر بوحشة قاتلة وفراغ مخيف إذا لم أكلمكما أو أراكما !

لا شك أن الجوّ الرومانسي المدغدغ للمشاعر، والجلسة الحميمة الصميمية قد أيقظت رواسب دفينة في أعماقي، وهزّت ذكريات بعيدة في وجداني... وهنا فلت زمام نفسي مني فصرت أتكلم كلاماً كالهذيان:

-إنني أحبك يا شيلا حباً لم يحب أحد مثله من قبل ! أحبك بكل خلجة في قلبي، وكل ذرة في جسمي ! إنك أنتِ أنا ! أحسّ أحياناً بأن روحينا قد اتحدتا حتى أصبحتا كياناً واحداً، فأشعر أنني تعملقت وحلّقت حتى وصلت إلى ما فوق السماء ! إنك لا تستطيعين أن تتصوري كم أجلّك... ولا كم أنا مغرم بشخصيتك ومولع بذاتك.... صدقيني إنني سأموت إن بعدت عنك !

-سهيل ! أنا واثقة من ذلك، وليس عندي ذرة من شك، ولكنني أريدك أن تكون لك صديقة تسعدك...! قالتها بنبرة الغيور المتحمس !

صحت بها محتجاً:

-لا أحد يستطيع ذلك ! صدقيني لا يوجد امرأة في هذا الكون الواسع من بمقدورها أن تحتل مكانتك ! قد أحبّ امرأة ما يوماً، ولكنها لن تكون بـمنـزلة حبك !

شعرت أنها بدأت تخفض صوتها وكأنما هي خجلى مما تقول:

-هناك احتياجات لك لا أستطيع أنا أن أعطيها، ولهذا يجب أن يكون لك صديقة !

-إنني أستطيع العيش بدون تلك الاحتياجات التي تعنينها... إذ إن ما تمنحينني إياه لا تستطيع واحدة منحه لي، ويكفيني هذا العطاء !

-إنه يسعدني كثيراً أن تكون لك حبيبة تتبادلان الحب ! فتلك هي الطريقة الصحيحة والطبيعية ! إن حبك لي وحبي لك هو حب أخت لأخيها، ولا بد لكلينا من أن يكون له حبيب خارج نطاق الأخوة ! هكذا أرادها الخالق... ! أنا لي جيمس وأنت يجب أن تكون لك مارثا أو فتاة غيرها... المهم أن يكون لك فتاة ! قالت بحماس.

-بالمناسبة، وأين جيمس الآن ؟!

-إنه نائم ! لقد شرب كثيراً، فقد كان محزوناً ومهموماً جداً، ولكنه ارتاح بعض الشيء بعد أن أكدت له بأن مخاوفه في غير محلها ! جيمس دائماً يفكر بالمستقبل ! إنه دائماً ينظر إلى البعيد...!

-وهل تعتقدين أنه اقتنع ؟ !سألت باهتمام صادق.

-آسفة أن أقول كلا ! لست أدري لماذا هو متخوف من هذه الصداقة ! صدقني إنها المرة الأولى التي لا أفهمه، ولكن لا تقلق... سأوضح له الأمور غداً وسيقتنع. أنا واثقة... جداً !

توقفنا نحن الاثنين فترة عن مواصلة الكلام ، ولست أدري بماذا كانت هي تفكر، ولكنني كنت أشعر بألم ممزق على صديق يحبني كل هذا الحب ويخاف عليّ كل هذا الخوف ! وفجأة خطرت ببالي بعض الأفكار التي اعتقدتها مفزعة ومقلقة، ولكنني استبعدت الفكرة جداً وطردتها من مخيلتي بإصرار وعناد، واستعذت بالله من شر الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس، خصوصاً وقد استعرضت تاريخ صداقتنا منذ بدئها حتى هذه اللحظة، فلم أجد سبباً واحداً، بل ذرة من سبب، يدعوني لأن أشك مثل هذه الشكوك التي اخترعتها مخيلتي الجامحة ! لو كان هناك شيء من هذا لكانت الزوجة أول من اكتشفه !

إن طبيعتي الشرق أوسطية طبيعة شكاكة، وشكوكها غالباً نحو الشر وليس باتجاه الخير ! إن عربة وراثتنا التي نحملها على ظهورنا أثقلت كاهلنا بمفارقات عجيبة غريبة لأسرار الحياة وكنه الوجود ! لقد كونتنا وأوجدت بنا حياة البداوة والحل والترحال، ثم حياة الفقر والعوز والحاجة، وكذلك حياة الخوف والقلق وعدم الاستقرار، والبطش والقهر والظلم والدكتاتورية، جميعها خلقت منا أقواماً لا نثق بأحد ولا نصدق إنساناً ! وهل من المعقول أن يكون جيمس إنسانا شاذا جنسياً ؟! لا يارب ! أرجوك أرجوك ! لا تفجعني بأحلامي ! لا تدمي قلبي بمعتقداتي، لا تعهر صورة العذرية والطهر التي أراها في هذا الإنسان النبيل ولا تدنس فكرة النقاوة

والبراءة التي أكنها لهذا الصديق الملاك ! أرجوك أرجوك ! سأفقد عقلي سأجن، ربما سأطلق الرصاص على نفسي إن عرفت أن زوج المرأة التي أحب شاذ جنسياً !

–سهيل ! هل ما زلت هناك ؟! سألت شيلا بعد أن طال انقطاعنا عن الكلام.

–نعم... إنني هنا ! قلت وأنا ما زلت كالمنوّم تحت كابوس تلك الفكرة الملعونة.

–لعلك سرحت بعيداً !

–بعيداً جداً ! أختاه لقد هاجمني الخوف من جديد ، أدفع عمري لو أستطيع الآن أن أسند رأسي على صدرك الحنون !

–وبماذا تفكر؟! سألت بدلال المحبوبة.

–صدقيني إنه من الصعب عليّ أن أشرحه لك، ومن الأصعب عليك أن تفهميني !

–لا تنس أنني درست الفلسفة وعلم اللاهوت دراسة متبحرّة منذ أن بلغت الخامسة ولسنوات عديدة !

–إن ما أفكر به ليس بفلسفة ولا علم لاهوت ! إنه دستور العشيرة والبداوة ، لعنة من لعنات الشرق العربي !

–إذن حدثني عنها عندما نتقابل.

–سأحاول...! نعم، سأحاول ! وإن كنت واثقا أنه من الصعب عليك أن تفهمي !

–لقد نسيت أن أقول لكِ خبراً سيفرحكِ جداً !

–لا خبر يفرحني أكثر من أن أسمع من شفتيك كلمة أنك تحبينني !

–لقد طلبتُ إلى جيمس أن يعمل على استبدال تصريحك بالعمل إلى إقامة دائمة، ثم بعد خمس سنوات تصبح مواطناً أميركياً، فتكون لك حرية البقاء هنا.

–أنت تعلمين أنني لا يمكن أن أستبدل هويتي العربية بأية هوية أخرى !

-نحن لا نتكلم عن استبدال الهوية ! الهوية ممزوجة بالدم وتسري بالأوردة والشرايين... نحن نتكلم عن استبدال أوراق بأخرى ! فقط تعطيك الحق في البقاء إن أردت وأن تسافر إن أحببت!

-وتعلمين أيضاً كم أكره سياسة حكامكم نحونا وكم أحتقرها ! إنهم لا مصداقية لهم ولا أخلاق عندهم، يتشدقون بالحرية والعدالة وحقوق الإنسان وهم الذين ينتهكون حرية الإنسان وحقوقه في كل يوم وكل ساعة ! إنهم عبيد لدولة داوود والصهيونية العالمية !

-صدقني أننا نكرهها ونحتقرها أكثر منك ! لقد جعلونا نتعار من أميركيتنا ! إنهم خليط غريب عجيب. فإمّا ممثل مهرّج، أو مأفون أحمق، وإما مغرور حاقد عنده غرور العظمة متعطش للبطش وللدماء... وآخرهم عنده مركب عقدة النقص ومهزوز ! نحن نريدك أن لا تجد نفسك يوماً مرغماً على مغادرة البلاد. إننا نريد حمايتك !

-الحاكم السيء يجلب العار لأمته وبني قومه، وما أكثرهم في عالمنا العربي والإسلامي !

-وهل سترى مارثا غداً، أعني اليوم ؟

-سأراها غداً الأربعاء. صدقيني إنني خائف من مقابلتها ! خائف جداً! لا أدري لماذا ؟!

-هذه دلائل الحب الصادق والحقيقي ! حاول أن تتصرف طبيعياً. أشعرها بأنك مهتم بها فقط، وليس مجنون بحبها !

-سأحاول يا شيلا، سأحاول ! وتذكري أن حبك هو الذي يمنحني الشجاعة والمنعة.

-تعال للعشاء غداً... أعني اليوم !

-الساعة الآن تقترب من الثالثة صباحاً وبعد خمس ساعات يجب أن تكوني في العيادة وتعملين حتى الخامسة، فكيف تستطيعين بعد كل هذا العناء أن تدخلي المطبخ وتطبخين؟!

-سأدعوك وجيمس إلى العشاء في الخارج، وسأقضي وقت إعداد الطعام في غفوة !

-سآتي في الثامنة وآخذكما أنا إلى العشاء!

-لا يهم من يأخذ الآخرين ! تعال الساعة الثامنة، وتصبح على خير.

-وأنتِ أيضاً. وأغلقتُ السماعة.

طلع النهار وأنا ما زلت أتقلب في فراشي ، لم يزر جفنيّ النوم ، ولم أذق طعم الكرى ، قلق... خائف... محتار... لا أدري ممن ولا على ماذا ؟! كل ما أعلمه أنني حزمة من الأعصاب المتوترة... الثائرة... المشتعلة ! أنا خائف من المجهول ! خائف لدرجة لا تصدق... ولعلي لولا حب شيلا الكبير العظيم، وطمعاً في حب مارثا، لنهضت من فراشي، ولارتديت ملابسي، ولصرت أجري في شوارع "وست وود" و"سانتا مونيكا"، على غير هدى !

أين أنت يا جورج !؟ وأين سخرياتك اللاذعة من الحياة وقوانينها ونواميسها ؟! أريدك الآن إلى جانبي لتأخذ بيدي ولتشد أزري ! لقد افتقدتك ! لقد اشتقت إليك ! "وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر" يا صديقي جورج ! أيها البدر المتلألئ...! أيها المخلوق المتجدد ! أيها الإنسان المستهزئ بالحياة وبأقدارها ومقدراتها...! لقد اشتقت إليك بهوس... إلى حديثك... إلى نكاتك وتهكماتك...! ولولا الخوف من الانتقاد... والاتهام بالجنون... لكلّمتك الآن... فقد تكون مستيقظاً على أية حال... هذه هي التزامات العائلة يا صديقي... تعيق تصرفك وتفكيرك أيضاً... !

* * * * *

الفصل السابع

-أراك اليوم قلقاً مضطرباً، فهل ذلك بسبب وجودك معي ، أم أن هناك أسبابا أخرى قد اكتشفتها بعد فراقنا ، أو أنّ كلّ ذلك لم يعد يزعجك ؟! سألت مارثا، عندما جاءت الى مكتبي في اليوم التالي وقد توجهنا بعدها الى " الكافيتيريا"، و حالما جلستْ إلى الطاولة ووضعت فنجان قهوتها أمامها، وما زلت أنا واقفاً أنتظر جلوسها احتراماً لها واحتفاءً بها.

-وهل تريدين الصدق ؟ ! إنني اليوم أكثر قلقاً وأشد ارتباكاً من المرة الماضية ! قلت وأنا أهم بالجلوس وآخذ رشفة من فنجان القهوة معاً، لأرطّب بها شفتي الجافتين ولساني المتجمد، ولعلها أيضاً تهدئ من أعصابي الثائرة المتوترة، وتخفف من الرجفة التي تجتاح كل ذرة في جسمي ! ولما لم تقل شيئاً واصلت كلامي:

-وإن كان السبب اليوم يختلف كثيراً عن سابقه...!

-تعني أن السبب تبدّل ولكن المسبب واحد ؟!

سألت وهي تسلط عينيها اللوزيتين، اللتين خلتهما بركتين من عسل مصفى، على عيني المتأملتين في نقاوة وبراءة وجهها، السابحتين في بحر أنوثتها، الغارقتين في طهر وصدق حديثها ! أو كأنما تريد أن تقرأ من خلالهما ما أكنّ لها في داخلي.

-ما أذكاك يا آنسة مارثا ! نعم هذا ما عنيت. قلت وقد أذهلتني فطنتها.

-أرجوك كفّ عن كل أنواع المديح؛ فقد يركبني حصان الغرور ويشتط بي فلا أستطيع له كبحاً ! قالت وهي تبتسم وتحدق بي وكأنما لتقرأ في داخلي ما أكنّه لها !

-الله ! الله ! حتى تعبيراتك وتشبيهاتك بلاغية... منتقاة ومميزة ! إن لها نكهة كإطلالة ابتسامتك، ويفوح منها عبيرٌ كعطرك الذي تتعطرين به !

-أحبّ أن أتشبه بأستاذي القادم إلينا من الصحراء! قالت وقد استغرقت في الضحك.

-والآن أخبرني السبب إذا سمحت ! قالت وهي ما زالت تبتسم، وعيناها ما زالتا تحدقان بوجهي !

–لقد كانت الصحراء طاهرة عذراء يا مارثا، لها نكهة طفولية... ساذجة... بريئة... و كان أهلها يعيشون على حليب النّوق و لحم الجمال ! لقد كان لها نكهة كنكهة الحب العذري، وكان لها جمال كجمالك الفتان، ولكن لها الآن رائحة نتنة تزكم الأنوف..! في المرة الماضية كان خجلاً من جلوسي مع طالبتي، في مطعم الطلبة؛ أما هذه المرة فالسبب هو جلوسي معك أنتِ شخصياً يا آنسة مارثا كارلنقتون !

–وما الفرق بين الحالتين وأنا أنا لم أتغير ؟! سألت وقد تبدلت الابتسامات إلى ضحكات !

–في المرة الماضية حدث لقاؤنا عفوياً وبدون ترتيب ولا تفكير مسبق؛ أما هذه المرة فقد أمضيت يومين كاملين بلياليهما أفكر بك وأستعجل رؤيتك ! إنها لا شك معاناة الانتظار وفرحة اللقاء ! ولما لم تقل شيئاً تشجعت:

–لست أدري إن كان صحيحاً أم خطأً ، أخلاقياً أم لا أخلاقياً ، أن أجلس في هذا المقهى ، أبثّ طالبتي أشواقي ومشاعري نحوها، وأبوح لها بلواعج حبي وهيامي بها ! لقد اكتشفت أن طاقات الحب الجبارة والمخزونة في قلبي لبطلة "الحسناء والوحش" ليندا هاميلتون، قد تحولت وبأقوى مما كانت عليه لك أنت يا آنسة مارثا كارلينغتون ! أنني أحبك بتوحش يا مارثا، وأنني سأصاب بالجنون إن لم أركِ ! قلت بورع العابد وخشوع المتبتل !

–أنت تتملقني يا بروفيسور دهشان؛ وأنا سعيدة بهذا الحب ! إنني أقدّر وأحترم شعورك نحوي، بل إنني أثمّنها كثيراً ؛ ولكن ألا تعتقد أنك قد تكون تسرعت قليلاً وأنك يجب أن تتمهل وتتروى، فقد لا أكون الفتاة التي تصورها أحلامك وتوقعاتك، وعندها ستصاب بخيبة أمل قد تؤلمك ؟!

كانت تتكلم بجدية وصدق وإخلاص ! تجاهلت تعليقها واسترسلت مع عواطفي وأحاسيسي:

–منذ لحظة افتراقنا، وأنا أشعر بشوق محموم لرؤيتك... وكنت أحس بالإحباط والضيق والاختناق بسبب بعدك... فأعيش على أمل أن تكتحل عيناي ثانية برؤية وجهك الحبيب والاستماع إلى صوتك الحنون الدافئ... صدقيني ! أنا لا أبالغ ! إنه ولولا هذا الأمل، لكنت الآن، ربما، أجوب شوارع وست وودفلج وسانتا مونيكا، على غير هدى أبحث عنكِ !

مارثا ! انا خائف... انا مرعوب... الكون كله يطاردني... يريد ان يلقي القبض علي...ان يمزقني إرباً إربًا... ارجوكِ... ادخليني في رحمك وخبئيني... ولا تخبري احداً بوجودي... مارثا... اني احترق !

احبيني بحنيّة... احبيني حقيقة... أحبيني بصدق ولا تكذبي عليّ؛ وقولي بأنك حقاً لي، وانك ملك يديّ ! دعيني انام بين يديك وهدهديني كطفل صغير، وعلى صدرك وفي احضانك؛ ودليلني، ولكن بالله عليك لاتحبينني زلفى ولا تملقاً، بل حقيقةً ! دعيني اسند رأسي المتعب على صدرك، وانظر في عينيك؛ إنني اشعر بالخوف، فدعيني ابكي بين يديك وعلى صدرك وفي احضانك ! حبيني فانني اموت جوعًا للحب، لحبك أنتِ، بالذات ! أنتِ نفسك وليس سواكِ؛ ارجوكِ! ارجوكِ! ارجوكِ حبّيني بعنف، بتدلّه، بجنون، بحنية؛ وحقيقة لا كذبا ولا زلفي ولا تملقاً ! حبّيني ولتربّت يديك الناعمتين على شعري ولتمسحا شفتيك الدافئتين دموعي الغزيرة المتساقطة !

آه ! انا ظمآن...دعيني بربك أروي ظمئي بالنهل من رضاب شفتيك... و اشبع مسغبتي من ما يختبئ بين حضنيكِ ! انا كالصحراء ، امطار الكون لاتروي ظمئي ، و أعشاب البراري كلها ، لا تشبع جوعي !

اهيم في شوارع الذكريات وحواري الماضي واتجول في ازقة العدم وملاعب النسيان !

لاحظت أن لون وجهها قد مال إلى العبوس والتجهم والاكفهرار، وفارقه بعضاً من الإشراق والحيوية والسعادة؛ ولكنني واصلت حديثي:

–أنا أعرف أن كلامي هذا قد يخيفك ويزعجك، فتقولين ما هذا الحب الطائش المجنون الذي يحدث بعد لقاء واحد ؟! ولكن دعيني أوضح لك السرّ ! ورشفت رشفة كبيرة من فنجان القهوة، وبللت شفتي بلساني، وهززت جسمي وكأنما أستنهض شجاعتي وأستنفر جسارتي !

–إنه وبسبب تربيتي الدينية المتزمتة، وبسبب أفكاري وخيالاتي الشاطحة الجامحة، ولاعتبارات حضارية كثيرة، غريبة ومعقدة، وربما تبدو لكم شاذة، فقد وقعت بحبك من أول لقاء ! وكما قلت لك بسبب اعتبارات حضارية، فإن كثيراً من الناس في مجتمعاتنا يحبون من أول لقاء، ولكن وبسبب اعتبارات حضارية أيضاً فإنكم هنا في أميركا تحتاجون إلى وقت طويل حتى تقعون في الحب وتشعرون به ! وبشكل أوضح، أنتم عندكم مناعة وحصانة ضد الوقوع بالحب أكثر منا نحن في الشرق ! أعني؛ حتى

الإنسان يقع في حب إنسان آخر، فإن ذلك يتطلب وقتاً طويلاً عندكم، قد يمتد لشهور !

-إنكم في الشرق تظلموننا كثيراً. ألسنا بشراً مثلكم، لنا قلوب تخفق كقلوبكم وعواطف ومشاعر تحب وتكره مثل عواطفكم ومشاعركم ؟! قالت عاتبة وشبه محتدة وقد احمرّت وجنتاها، فأدركت أنني ربما قد أكون أهنتها فقلت محاولاً إصلاح خطائي :

-أرجو المعذرة إن أسأت التعبير ! إن ما عنيته هو أنكم هنا في أمريكا لا تؤمنون بالحب من أول لقاء... إنكم تعتبرونه استلطافاً... إذ أن الحب عندكم يحتاج إلى معاشرة طويلة حتى يولد ويترعرع !

-ومن أعلمك بهذا ؟! يبدو أنك لا تعرفنا جيداً، وأن عندك أفكاراً غير منصفة لنا ! إن الحب عندنا كما هو عندكم ، يولد أحياناً عند أول لقاء، وخصوصاً إذا كان القلب مهيأً له، وأحياناً يستغرق وقتاً طويلاً حتى تقدح شرارته !

-إذن دعيني أصارحك وأخبرك الحقيقة دون لف ولا مواربة... لقد اكتشفت يا مارثا أنني وقعت في حبك، وأنني أحبك بكل طاقاتي، وكل ما عندي من عواطف وأحاسيس ! إنني ومنذ لقاءنا في المقهى وأنا لا أفكر بإنسان إلا بك، ولا أتمنى رؤية إنسان والجلوس معه أو التحدث إليه إلا معك ! فهل تقبلين حبّي ؟ ! وهل تسمحين لي بأن أحبك، حتى ولو كان الحب من طرف واحد ؟! قلت بحماس وقد شجعتني كلماتها وسهلت عليّ أمر المصارحة.

سكتت ولم تجب ! لاحظت أن إعلامها بحبي لها وطلبي منها السماح لي بحبها لم يفاجئها أو يربكها، وكأنما كانت تتوقعه...! مرّت فترة صمت، لم أسمع خلالها، على الرغم من الضوضاء التي تملأ المقهى، من أصوات آدمية، وقرقعت ملاعق وشوك وسكاكين وصحون وكراسي وطاولات؛ إلا ضربات قلبي المتوثبة المتلاحقة والتي خلت إن جميع من في المقهى قد سمعوها ! لقد لاحظت أنها كانت تفكر، كما لاحظت أنها تريد أن تقول شيئاً، ولكنها كانت مترددة، إذ لعلها كانت خجلى... وأخيراً قالت وهي تنظر إلى إحدى الطاولات البعيدة، وكأنما تتجنب النظر إلى عيني:

-وهل تستغرب إن قلت لك بأنني، ولشدة اشتياقي لرؤيتك، أتيت أمس إلى الجامعة، وانتظرتك أمام العمارة حتى تخرج من المحاضرة ولكي نتغدى معاً ؟!

-وهل حقاً ما تقولين؟! ما أسعدني ! ولكن لم أركِ ! فهل غيّرت رأيك ؟! صحت بصوت عال وقد أخذتني المفاجأة، وعيناي تحدقان بشفتيها، وكأنما أستحثها على الكلام.

-ولكنني رأيتك تخرج ومعك طالبة طويلة نحيفة ذات شعر طويل أسود، لعلها من جزيرة هاواي، وكنتما تتحدثان بودٍ وصميمية؛ فشعرت بانقباض شديد وأنني يكاد أن يغمى علي !

-ما أقسى قلبك يا مارثا ! تأتين إلى هنا وأنا أتحرق شوقاً لرؤيتك، وتحرمينني من هذه السعادة التي لا يعادلها شيء في العالم ! صحت لاشعورياً بصوت عال جلب انتباه زبائن الطاولات المجاورة.

-صدقني إن دموعي حجبت الرؤية عمّا أمامي ! لقد كانت دموعاً لها نكهة عذبة، لذيذة، ما زال مذاقها في فمي؛ لم أشعر بمثلها أبداً من قبل ! كانت دموع غيرة من تلك الطالبة الهوائية؛ عندها أدركت أن ما أشعر به نحوك هو حب حقيقي وليس عاطفة نزقة... لقد سألت وتساءلت فيما إذا كنت تحب ذوات الشعر الذهبي الطويل المسترسل والعيون الزرقاء، كما أخبرتني ؛ أم أنك تحب ذوات الشعور الطويلة السوداء، صاحبات العيون المكحلة والبشرة الحنطية، كالتي كانت تسير إلى جانبك؟!

-أنا أحبّ كل النساء الجميلات الفاتنات الساحرات يا مارثا ! أنا مولع بالجمال، أذهب إليه في أي مكان وأتبعه إلى حيث ما يذهب ! نعم أنا أحب النساء الجميلات كلهن، ولا فرق عندي، ما لون شعورهن وعيونهن وبشرتهن ! أنا أعشق كل النساء الجميلات، وعندي طاقات جبارة... جبارة... جبارة للحب والعشق والهيام ! طاقات ولدت من رحم الصحراء العاقر، تربّت وترعرعت في هجيرها اللافح ؛ ففيها عنفها وقوتها وصلابتها ؛ وفيها صدقها وعظمة حبها وأصالة محتدها ! عندي طاقات مخزونة... وعواطف... تفوق الوصف وتحيّر العقل... فإنني أحب كل جميلات الأرض، ولكنني الآن أحبكِ أنتِ... أنت فقط يا مارثا كارلنقتون... ولا أريد امرأة إلاّك... ! إن جميع ما في نساء جميلات العالم من أنوثة وسحر وشوق وصبابة ووله، لا يكفي لإشباع جوعي العاطفي الذي سعّرته شمس صحراء حفر الباطن ! لقد اضمحلّ جمال كل جميلات الأرض يا مارثا، وتلاشى كل سحرهن من الكون، واختفت كل أنوثتهن وجاذبيتهن وحنانهن من الوجود، وتجمعت جميعها... جميعها فيكِ أنتِ، أنت فقط يا مارثا !أنا أحبك بمقدار ما يخبئ جوف حفر الباطن من غل واحتقار وحقد؛ وبمقدار ما يكره شرفاء العرب وأطفال العراق حكامك وساساتك ومتسلّطيك! أنا أحبك يا مارثا حباً لو تحبينني مثله... لصابك من وجد عليّ جنون...!

استغربت أن الصبية لم تسألني عن أسماء الأماكن التي ذكرت، ولم تغضب أو حتى تبدي أي انزعاج على ذكري كراهيتنا لحكام وطنها، وكذلك لم تعلق على شطحاتي العاطفية والرومانسية ! لقد كان كل تفكيرها مركّزاً على حادثة حضورها أمس إلى الجامعة، وشعورها عندما رأت تلك الطالبة تخرج معي بعد المحاضرة ! استطردتْ:

–شعرت بالراحة، وكأنما ثقْل ناطحات سحاب مدينة نيويورك كلها قد انزاحت عن كاهلي... بعد أن تابعت الطالبة الهوائية سيرها، ودخلت أنت عمارة دراسات الشرق الأوسط! لقد خفت أن تكون قد دعوتها، كما دعوتني، على فنجان قهوة.

–صدقيني يا مارثا، إنني لا أحب الآن حباً عاطفياً امرأة في الوجود إلا أنتِ ! إن الشعر الذي أحب أن أشمّ عطره وأدفن به وجهي هو شعرك... والوجه الذي لا أشبع من النظر إليه هو وجهك... والصوت الموسيقي الذي أحب أن أقضي طيلة عمري أستمع إليه هو صوتك... والعينين اللتين أحب أن اقرأ بهما مستقبلي هما عينيك... يا ماضي وحاضري ومستقبلي... ويا أغلى ما في الوجود ! وبعد أن بللتُ شفتيّ بلساني أضفت:

لقد غرستِ مسامير العشق في جسدي، واشعلتِ حرائق التدلّه في دمي و كذلك أيقظتِ لهيب الشوق في قلبي ! قلت بحرارةملتهبة .

–ولكن حبك بدّد ظلمتي و أضاء سراج حيرتي ! قالت.

–إن عذوبة أنوثتك و قوة شخصيتك و كذلك أصالة كرمك، جميعها، جعلت منكِ في عينيّ، معجزة العصر و أعجوبة الزمان ! قلت و أنا أتأمل " الموناليزا " الجالسة أمامي!

–أرجوكَ ! توقف عن مدحي و الثناء عليّ، و لا تقل أكثر ، حتى لا أصاب بما لا أحب أن أكون ! قالت.

–لقد قطعت على نفسي عهداً لو ذهبتما معاً إلى المقهى لكنت ما رأيت وجهي أبداً !

قولها أرعبني... زلزل كياني... دمّر وجودي... لقد تصورت نفسي تائهاً... ضائعاً... أهيم على وجهي في شوارع وست وود وسانتا مونيكا وما جاورهما ، من مدن شاطئ ساحل كاليفورنيا، أبحث عن مارثا وأهيم بها كما هام أبناء عمي قيس بن الملوح وكثيّر عزّة وجميل بثينة ، في صحراء نجد وتهامة والربع الخالي، فقلت مروعاً مرتاعاً:

-ما أقسى قلبك يا مارثا ! كنت ظلمتني وظلمت نفسك ! وكنت والله أصابني الجنون !

أشرق وجهها وعلت شفتيها ابتسامة جذلى، إذ لا شك أن قولي أفرح قلبها وانتشت أحاسيسها !

-يسعدني حديثك الصريح عن عواطفك نحوي؛ دون تردد ولا مواربة ! تتحدث عنها كأنما هي مفاخر وبطولات قمت بها ! قالت بصوت حالم ، وهي تغمض عينيها !

-العواطف جزء مقدس منا يا آنسة مارثا، ولست أقول الأقدس ! يجب أن لا نقلل من شأنها... نتجاهله أو نستهين به !

"لقد تجاهلت حبي طويلاً في الماضي... دفنته... أخفيته... قمعته... دست عليه... لأنهم في الوطن يخجلون منه... ينعارون... ينكرونه ! إنه من التابوهات ! "

-هذا صحيح ومن دون أدنى شك. ولكن بعض الناس يحاولون إخفاء عواطفهم، حتى لا يتهموا بالضعف ! قالت بحماس وقد ازداد وجهها إشراقاً !

-وهل هي قضية مبارزة حتى نصفّق للغالب ونواسي المغلوب ؟! إنها قضية الإنسان الأولي ومنذ الأزل ! قلت.

-صدقت ! صدقت ! قالت بفرح وحماس !

-المرأة، أعني الطالبة التي رأيتها معي هي إحدى طالباتي، ولكنها ليست من جزيرة هاواي، إنها من الوطن الحبيب ؛ بلد البطولات واتضحيات ؛ إنها من العراق البلد الذي دمّر حقد بني قومك وخيانة بني قومي ، طموحات كل العرب وأحلامهم وتطلعاتهم... أتعرف عليها لأول مرة ؛ زوجها طالب دكتوراة فيزياء في الجامعة، ولقد منعوه من الدراسة لمدة عامين أثناء حرب الخليج، وهي معه هنا وتريد أن تحصل على شهادة البكالوريوس في إدارة الأعمال. لقد دعتني إلى بيتهم للعشاء في المستقبل القريب لأتعرف على زوجها، وسألتها إن كنت أستطيع أن أحضركِ معي !

-أصحيح هذا ؟! سألت كطفلة صغيرة أعطيت لعبة... وكأنما تذكرت أنها تصرفت برعونة ، فأضافت:

-لقد تسرعت فظلمتك! قالت بندم وانكسار.

-ظلمك لي منتهى العدل عندي ! صدّقيني ! قلت.

ضحكت بسعادة وبراءة مما شجّعني على الاسترسال ، فقلت:

-أنا أعرف أن عمر صداقتنا قصير جداً، ولكن صدقيني بأنني أشعر كأنما أعرفك منذ ساعة مولدي !

فكرت أن أخبرها عن قصة محاولتي الاتصال بها هاتفياً فعدلت! لاحظت أن كثيراً من الطلاب والطالبات بدأوا يخلون أماكنهم من حول الطاولات، فنظرت إلى ساعتي، وفعلت هي أيضاً، فنهضنا معاً بطريقة عفوية !

-هل دعوتك لي إلى الغداء ما زالت قائمة ؟! أعني هل تقبل دعوتي إلى الغداء؟! سألت.

-دعوتي لكِ ما زالت قائمة وستظل قائمة إلى أبد الآباد ! قلت، وقد استبدّ بي كرم حاتمي.

-أنت مدعوة اليوم وكل يوم إلى الغداء ! أعدت .

-سأقبل دعوتك في يوم آخر، ولكن إذا سمحت ؛ أنا أحب أن ادعوك اليوم إلى مطعم في القرية أظن أنك ستحب طعامه وجوّه أيضاً ! سأذهب بعد المحاضرة إلى المكتبة لأستعير بعض الكتب وكذلك للاطلاع على بعض المراجع ، نتقابل أمام باب المكتبة في تمام الساعة الثالثة ! قالت بصوت يقطر أنوثة ويسيل رقة، ثم ضحكت بدلال وقالت:

-قل لطالباتك المعجبات اللواتي يتجمهرن حولك، بعد انتهاء المحاضرة، بأنك لم تتناول غداءك بعد، وأن عندك ارتباط، فليؤجلن أسئلتهن إلى المحاضرة القادمة !

-اطمئني ! سأكون في الموعد المحدد ، إن شاء الله ! قلت كلمة "إن شاء الله" بالعربية، وأنا أرقص فرحاً.

-ماذا قلت ؟! سألت، فترجمتها لها وفسرت معناها.

-آه ! ما أغباني ! لقد قرأت عنها كثيراً ومتى تُقال، وماذا يعتقد الناس فيها في آداب الشرق الأوسط، وآداب البلاد الإسلامية. قالت.

* * * * *

-أهلاً وسهلاً بروفيسور...! تمهلت النادلة قليلاً، إذ لعلها كانت تحاول أن تتذكر اسمي...!

-كم لطيفٌ أن نراك مرة ثانية هنا في المطعم! أضافت.

-أهلاً بك يا آنسة بروين! وإنه ليسعدني جداً، أنا أيضاً أن أراك ثانية، وأن أدخل مطعمكم الرائع لتناول وجبة أخرى من طعامكم اللذيذ. قلت.

-نحن سعداء أنه نال رضاك ! قالت النادلة وهي تمد يدها البضّة الصغيرة، الرقيقة الناعمة لمصافحتي ؛ وقد غطى وجهها الحنطي الجميل البشوش ابتسامة كبيرة أضاءت كل جنبات وجهها، والذي ذكرني لونه الحنطي، بلون حنطة الوطن أيام المدّ القومي... أيام الرجولة والعزّة والمروءة والكرامة ... ! أيام كان الرجال رجالاً ، والنساء خيولٌ مطهمات !

-لا شك أن لمطعمكم سمعة عالية وإلا لما دُعيت إليه من صديقين لا يعرف أحدهما الآخر، لهما ذوق رفيع في الطعام !

-شكراً جزيلاً. إن صديقتك جميلة وأنيقة وجذابة جداً ! إنها تتردد على المطعم كثيراً ولكن لم يحدث لي الشرف للتعرف عليها. قالت بروين وقد ازداد احمرار وجنيتها وكبرت ابتسامتها.

-آنسة كارلنقتون ! هل لي أن أقدم لك الآنسة بروين جليلي ، أرق و أجمل نادلة في جنوب كاليفورنيا كلها، كما قال عنها صديقي السيد روبنسون ! فتحت فمها لتقول شيئاً ولكنني سبقتها وقلت:

-آنسة بروين ! هل لي أن أقدّم لك صديقتي وطالبتي الآنسة مارثا كارلنقتون، أجمل وأذكى طالبة في كاليفورنيا كلها، وليس في جنوبها فقط. كما أقدم لك نفسي، سهيل دهشان ! قلت جملتي الأخيرة بطريقة هزلية تمثيلية لأساعدها على تذكّر اسمي !

تبادلت الفتاتان المصافحة والترحيب بادئ ذي بدء، ثم انفجرتا تضحكان !

-شكراً لك يا بروفيسور دهشان... وشكراً للسيد روبنسون ! إنه رجل عظيم أكنّ له كل احترام وتقدير شديدين. وبعد أن فتحت لنا يديها علامة الترحيب وأن نتفضل، أضافت:

-لقد كان هنا وقت الغداء ومعه ضيف، لعله من الصين أو اليابان! قالت وهي تسير أمامنا ونحن نتبعها.

-أظن أنني ذكرت لك بأن لي هنا صديقين حميمين جداً، أعتبرهما أهلي في أميركا، زوج وزوجة ! كانت المرة الأولى التي تعرفنا على بعض في هذا المطعم. قلت مخاطباً مارثا، ثم التفت إلى النادلة وأضفت:

-كما أعلمني فإنه قلّما يمر يوم دون أن يكون دعا ضيفاً أو أكثر إلى الغداء أو العشاء.

-هذا صحيح ! أن عمله يتطلب ذلك ! قالت، ثم أشارت إلى طاولة تتسع لاثنين، وأرجعت الكرسي لمارثا فجلست، ودارت لتسحب لي الكرسي ولكنني كنت قد سبقتها إليه وجلست.

عندما ناولت النادلة كلاً منا قائمة الطعام وضعتها أمامي دون أن أفتحها، ولعلّ مارثا ظنّت أنني أعرف ما أريد ، خصوصاً وقد سبق لي أن كنت هنا، فوضعت هي قائمة الطعام فوق الأولى دون أن تفتحها !

-يبدو أنك تعرفين ما تريدين ! قلت.

-أو لست أنت كذلك ؟ ! سألت وقد اتسعت حدقتا عينيها فرأيت فيهما سحراً حلالاً، وأنوثة عذبة مثيرة ، فتمنيت لو أستطيع تقبليهما !

-استعمال قائمة الطعام دائماً يسبب لي مشكلة! إنني دائماً أنشد مساعدة من معي؛ أمّا إن كنت وحيداً فإنني أنشد مساعدة النادل أو النادلة.

قلت ، ثم أغرقت في الضحك ! إذ تذكرت أنني كنت مرة في مطعم إسباني لوحدي، ولم أستطع أن أتفاهم مع النادلة بسبب عدم معرفتها المطلقة بالإنجليزية؛ فقلت لها أحضري الأكلة التي تحبينها فأنا واثق بأني سأحبها أيضاً...! ولما تعذر التفاهم بيننا بعد نقاش طويل، تبرعت فتاة كانت تجلس على الطاولة المجاورة، أفهمتْها ما أريد... فأعجبت الفكرة النادلة، وهزّت رأسها فرحة وأحضرت لي طعاماً كان عليه أكداساً من الفلفل والبهارات الحارة، مما جعلني أهرول إلى الحمام !

استغرقت مارثا بالضحك وكذلك برفين التي كانت تقف منتظرة إعطاءها الطلب.

-هل أفهم من ذلك أنك تريدني أن أختار لك ما تأكل؟! سألت مارثا وهي ما زالت تضحك.

-أرجوكِ ! أنا واثق بأنك ستختارين لي طعاماً ليس مجموعة من الفلفل والبهارات ! ثم صدقيني إنني أحب جميع أصناف الطعام، وإن كان على قدر متباين! قلت وأنا الآخر ما زلت أضحك.

بعد أن أملت مارثا على النادلة ما تريد سألتها بروين:

-أنا أعرف أنك دائماً تشربين ماء فقط مع الطعام، وأعرف أيضاً أن البروفيسور دهشان يشرب حليباً مثلجاً مع طعامه ! واحمرّت وجنتاها... فهزّت مارثا رأسها بأنها تريد كأساً من الماء القراح ، وأبديت أنا رغبة بطلب كأسٍ من الحليب !

-لا شك أنك تركت في نفسها انطباعاً مؤثراً حتى تظل تتذكر ما طلبت، مع أنها رأتك مرة واحدة فقط ! قالت مارثا بعد أن غادرت النادلة، وهي تسدد إليّ عينين فاحصتين !

-لا بدّ وأن يكون كذلك ! قلت بسرور وتفاخر وأنا أشرب من نهر عينيها الرقراقتين.

-وهل يزعجك أن يكون الإنسان الذي تعرفينه يترك دائماً انطباعاً في من يقابلهم، فيكون من الصعب نسيانه ؟!

-على العكس من ذلك تماماً، يسعدني جداً. أنا أريد الإنسان الذي أهتم به ويهتم بي ليس شخصاً عادياً... أريده أن يختلف عن الناس الآخرين بمكارم الأخلاق ونبل المحتد ! قالت بلهجة حازمة وجادة.

-وهل لأنك أنت تختلفين عن كثير من الناس ؟!

-ربما...! أجابت وقد أتبعتها بهزة من كتفيها رافقتها ابتسامة دافئة.

-وهل تعتقدين أنني أختلف أنا أيضاً عنهم؟!

-كثيراً جداً ! وقبل أن أسألها عن وجوه الاختلاف أضافت:

-سأخبرك بها يوماً، ولكن ليس الآن !

-كما تشائين ! ولكنني أحب أن أؤكد لك بأن كل ثانية تمضي على معرفتي بك وحديثي معك، يزداد حبي لك واحترامي... كما أنني أكتشف فيك خصالاً حميدة وآراء نبيلة، تزيد من سعادتي وجذلي أنني أعرفك... ! قلت بحماس .

-وأحب أن أؤكد لك أنا أيضاً، بأن هذا هو نفس شعوري ؛ فمنذ جلسة المقهى هذا الصباح، تضاعف تقديري لك واحترامي وإعجابي !

لقد استعملت أنا اليوم كلمة "أحبك يا مارثا" كثيراً، ولكن الشيطانة لم تقلها لي ولا مرة واحدة؛ وإن أوحت إليّ بأنها تحمل لي نفس الودّ، وتبادلني نفس المشاعر والأحاسيس !

-آسفة إن كنت قد تأخرت عليكما ! لقد أعلمت الطباخ بأن هذا طعام خاص، وآمل أن يعجبكما ! قالت حفيدة الملك " قورش " ، وهي تضع صحون الطعام أمامنا، والابتسامة لا تفارق شفتيها !

-رحمتك اللهم ! وشكراً أن خلقت لنا الطعام إلى جانب المرأة ، ليدخلا السرور إلى قلوبنا ! صحت حالما رفعت النادلة الغطاء عن الطعام، حيث كان البخار المضمخ برائحة التوابل والبهارات يتصاعد منه ! ثم أضفت:

-إن رائحة الطعام توقظ كل ذرة في شهيتي، فأزداد جوعاً وشوقاً، فتجعلني أفكر أن أهجم عليه فألتهمه دفعة واحدة !

تضاحكت المرأتان، وغمرني إحساس الفحل الشرقي الذي يضطجع بدلال وكسل بين حريمه، ليختار منهن أيهما يقضي ليلة دافئة معها !

-إنك تعرفين كيف تصلين إلى قلب الرجل فتسيطرين على جميع مشاعره وأحاسيسه ! قلت مداعباً مارثا، بعد أن غادرت النادلة ؛ وكنت ألتهم الطعام بنهم شديد ! لقد صار لي أكثر من سبعين ساعة لم آكل وجبة واحدة متكاملة .

-أنا أصل إلى قلب الرجل الذي أحب من خلال عقله وعلمه وثقافته وأشياء أخرى؛ وليس من خلال معدته فقط ! إن التي تفعل ذلك هي امرأة من نوع آخر... ! قالت مارثا باعتزاز وفخر !

توقفت عن الأكل للحظات... وحملقت بها... لقد سحرني جوابها... وأيقظ في نفسي أحاسيس وتأملات دافئة... !

-أرجوكِ ! لا تعملي ولا تقولي أشياء تجعلني أحبكِ أكثر... أرجوكِ ! إنني إنسان ضعيف أمام الأنوثة والدفء والنعومة... إذ أخشى أن يفلت زمام عواطفي، فأصير أدور في شوارع القرية أصرخ وأعلم الناس عن حبي لكِ...! أو أن أهجم عليك وأشبعك تقبيلاً وعناقاً ! قلت وعلائم الجد الصارم على وجهي.

-شكراً على الثناء ! إلا هذا... لا أريده ! قالت وضحكت بدلال، فازدادت إغراءً وجمالاً.

مرّت دقائق لا يسمع بها إلا أصوات القبل المسعورة تخرج من الملاعق والشوك والسكاكين ، تعانق الصحون بشراهة ونهم ، فقد كان روّاد المطعم قليلون، حيث أن تواجدنا به كان بين وجبتي الغداء المتأخر جداً، والعشاء المبكر !

بعد أن ملأت نصف معدتي بالطعام، شعرت فجأة بسعادة غامرة، وجذل طروب، وحبور مريح، فأحسست بالطمأنينة والأمن والأمان... ثم الاسترخاء؛ وعندما يحس الإنسان بالشبع ويشعر بالأمان، يتمنّى لو يرقد فوق صدر أبنوسي دافئ... ناعم وحنون، يرضع النهود، ويشرب من رحيق الشفاه... يشعر بشهية عارمة متوقدة صارخة، بأنه يريد أن يمارس فحولته وأن يطلق عنان شهبه، ويقذف حممه... فلقد شعرت بنيران تتأجج في داخلي، وبلهيب مستعر يخرج من عيني... ! نظرت إلى مارثا وأنا أرقص شهوة وأستعر شبقاً فاحمرّت أذناها، وتوقّدت وجنتاها، فأسبلت عينيها حياء وخجلاً، مما زادها فتنة وسحراً وإغراءً، ومما ضاعف في توقدي واشتعالي !

لا شك أن المرأة بغريزتها الأنثوية، تقرأ في عيني فحلها ما يفكر به وما يريده منها، فيسعدها ويعزز ثقتها بنفسها؛ فقالت وهي ترقص طرباً:

-تمتّع بطعامك الآن، ولا تفكر بشيء آخر !

-ومن قال لك بأنني أفكر بشيء غير ما أمامي من الطعام ؟! قلت متصنعاً البراءة وعدم المعرفة !

ابتسمتْ... وألقت عينيها في صحنها، وقد اشتعل خدّاها احمراراً حتى خلت الدم يتدفق منهما، وقالت:

-نظراتك... !

-إذن سأتوقف عن النظر إليك ، إن كانت نظراتي تزعجك ! قلت وقد حوّلت عينيّ إلى ما أمامي من الطعام !

-على العكس... فإن نظراتك تفرحني، وتثير بي نشوة لذيذة حالمة ! قالت وقد ارتعش جسمها وبُحّ صوتها واشتدت نبراته، وتراقص نهداها... ! لم أعلق بشيء، وتابعت تناول الطعام... بعد فترة نظرت إليها ثانية وأنا

أرقص شهوة وأتفجّر شبقاً.. فأمسكتها تختلس النظر إليّ... فأسبلت عينيها خجلاً.

"أريد أن أمزق شفتيك... خديك... عنقك... صدرك ونهديك بأسناني ! أريد أن أركبك... أن أسحقك بين ذراعي... أن أحرقك بأشواقي... بجوعي... بقحطي... بقبلاتي وعناقي ! أريد أن آكلك... أن أهضمك، أن أذوب وأن أتلاشى بكِ ومعك...! أريد أن أحترق بنارك وأحرقك، فأصبح رماداً، فأختلط برمال صحراء الربع الخالي وحفر الباطن... ! "

"أريد أن أبكي على أمتي المهزومة... المقهورة المسحوقة...! أمتي التي دُفنت بكاملها، حيّة، في تخوم حفر الباطن، مع كل آمالها وأحلامها وطموحاتها... مع كرامتها وكبريائها وشرفها...! أريد أن أستصرخ أحرار العرب... إن كان قد بقي منهم أحد، علّهم... علّهم... يستيقظون من سباتهم العميق الذي طال؛ في هذا الزمن الرديء... الرديء... زمن الإندثار و الإنكسار... و زمن الرب الجديد... المعبود العتيد... الإله الجديد... الدولار...! "

" الحب الروحي... أو العذري، الذي تتغنى به وتترنم على ذكراه، هو حب الجائعين المحرومين ، يا صديقي سهيل... ! الجائعين في معدهم ودبورهم... والمحرومين في عواطفهم وقلوبهم...! أن تحب سميحة كما تدعي، هو حب قحط... مسغبة... فعندما تملأ معدتك وتشبع عواطفك، وتشعر بالأمن والأمان، فإنك تشتهي أن تنام على صدرها، وترقد بين فخذيها، وتغرق نفسك في المختبئ فيما بينهما، وعندها فقط تشعر بالسعادة الحقيقية والمتعة الرائعة ! إنك تدعي العذرية وتختفي خلف أسطورة حب الروح ؛ لأنك لا تستطيع الوصول إلى جسدها... إلى عمقها.. إلى وجدانها... إلى كينونتها... فتغرق نفسك في خيراتها... في نعمها...! "

"أرجوك... ! أرجوك ياصديقي شاهر ...! دعني أعيش مع ما تسميه أحلامي وخيالاتي! قلت لك آلاف المرّات، كلامك يغضبني... يقرفني... يجعلني أستفرغ... أتقيأ...يثير سخطي ونقمتي... يجعلني والله والله والله أرتجف... أرتعد قرفاً واشمئزازاً ! أرجوك...! أرجوك... يا صديقي شاهر... ! كفّ عن هذا الكلام واتركني مع أوهامي...فإنني سعيد بها... أتعبد في محراب حبي العذري... ! لقد أطلق حب سميحة طفولتي من شرنقة العبودية و الأغلال و القهر إلى باحات الحرية المطلقة ! "

"أنا أشفق عليك... أموت حزناً...! معتقداتك تستنهض قرفي واشمئزازي... ! غباؤك يثير شفقتي... وجهلك يمزق قلبي ! حتى سميحة نفسها ، لو قلت لها أحبك حباً عذرياً... أفلاطونياً... أحب أن تعانق روحك روحي ، وليس جسدي جسدك ، لاحتقرتك وسخرت منك، ولظنتك لست رجلاً؛ ولطردتك وظنتك أبلهَ معتوهاً... ! سيأتي اليوم الذي تعرف به يا صديقي سهيل ، أن حب الرجل للمرأة أو المرأة للرجل هو لما يقدمه كل منهما إلى الآخر، من متعة جسدية ! ".

–لقد أخبرت قصتك معي إلى والديّ وأخي وزوجته، وكيف أنك أحنيت قامتك وفتحت يديك وقلت أهلاً وسهلاً بك يا آنسة ليندا هاملتون، أنا سعيد أن تكوني طالبة في فصلي، وكان تمثيلك الليلة الماضية رائعاً ! لقد ضحكوا حتى دمعت عيونهم ! قالت مارثا وهي تقلدني بيديها وكل جسمها وتغرق بالضحك.

–لا شك أنهم تساءلوا عن هذا الأستاذ المعتوه الأحمق، الذي يتصرف مع طالباته ، بهذه الطريقة البدائية الساذجة ! طريقة القرون الوسطى ! قلت وما زالت كلمات صديقي شاهر تصل إلى أذني من وراء البحار وخلف المحيطات... من أرض الوطن الحبيب !

–على العكس من ذلك ! قالت وقد كفت عن الضحك وعلت وجهها سحابة من الجدّ الممزوج بالاحترام.

–لقد قالت والدتي بأن تصرفك هذا يدل على الرقة والأدب والتهذيب ؛ وقال والدي بأنك تصرفت كما يتصرف "الجنتلمان" الحقيقي والأصيل؛ وقال أخي يبدو أنك معجبة به كثيراً من الطريقة التي تتكلمين بها عنه؛ أما زوجة أخي ، فقد قالت بأنها تحب أن تقابلك وتتعرف عليك لتهنئك على هذا الإنجاز العظيم التي لم يستطع أحد أن يحققه قبلك ! قالت مارثا ذلك واحمرّت وجنتاها، إذ صارت تنقل طرفها بين الصحون أمامها وبيني.

–عفوك ! لم أفهم ما عنتْ زوجة أخيكِ بكلمة الإنجاز ؟!

–لأن كل شاب أتعرف عليه أجد به عيباً من أول أو ثاني لقاء، فأتركه.

–وهل أفهم من ذلك أنني اجتزت الامتحان ، أم أن ذلك يحتاج إلى اختبارات أخرى ؟!

–لا أدري ! من المبكر جداً أن أحكم ! أستطيع أن أقول بأنك اجتزت امتحان القبول ! قالت بشقاوة محببة وخبث أنثوي ، وقد أغرقت بالضحك من جديد وصارت عيناها ترقصان طرباً وحبوراً !

-ما أسعدني ! لقد حصلت على تأشيرة دخول الجنة ! صحت بصوت سمعته النادلة فظنّت أنني أناديها فجاءت على عجل، وبعد أن انصرفت واصلت حديثي:

-إذن، لقد حققت إنجازاً جباراً لم يحققه أحد غيري، فنلت شرف حبّك !

-كل أهلي يعتقدون بأنني خصوصية المزاج والمتطلبات ، أحادية النـزعة و الميول ؛ وأنه من الصعب إرضائي، مما أخاف الجميع وأقلقهم، حتى صار بعضهم يلمّحون بأنني يجب أن أرى طبيباً نفسانياً، إذ ليس من الطبيعي لواحدة في مثل سني أن لا تتخذ صديقاً مستمراً !

-مثلما أن حكومتك أحادية القوة والجبروت، خصوصيةالحب والتحيّز ! قلتها بعفوية ساذجة، فندمت في اللحظة على قولي، إذ شعرت أنها تدل على ذوق سقيم وتصرف أرعن ، فتمنيت حقاً لو أنها لم تخرج من فمي؛ إذ لا شك أنها فهمت من أعني بالبلد التي تحبها أميركا وتتحيز لها دائماً ضدنا ! لم تعلق... ففكرت أن أقول شيئاً لأطيّب خاطرها، خصوصاً وقد لاحظت بعض التغيّر على وجهها، إذ علته سحابة خفيفة من الكدر والاكتئاب.

-أحاديّة جمالك ورقة أنوثتك؛ خصوصية تفكيرك وقوة بيانك؛ طلاوة أحاديثك وسحر جاذبيتك، توهج ذكائك وتألق شخصيتك، سموّ ذوقك وحلو شمائلك، جميعها... جعلت هذا البدوي القادم من هجير الصحراء وتخوم حفر الباطن... يتدلّه بهواك ويهيم بحبك... يبني خيمته أمام باب دارك، ويعقل ناقته إلى جانب سيارتك... يخطب ودّك ويرجو رضاك فيطمع في قبولك حبه لكِ !

-رائع ! رائع ! يا بروفيسور دهشان ! قصيدة رائعة ! إنك لم تقل لي بأنك شاعر أيضاً ! قالتها وهي مغرقة في ضحك متواصل، ثم فتحت بعدها حقيبة يدها وأخرجت منها قلماً وبدأت تكتب.

-وماذا تكتبين ؟! سألتُ باستغراب.

-أكتب القصيدة التي نظمتها بي ! أريد أن اقرأها على أهلي وأصدقائي ! سأحتفظ بها... سأبروزها وأعلقها في غرفة نومي... ! أية حمقاء تُنظم بها مثل هذه القصيدة الرائعة، ولا تحفظها عن ظهر قلب !

-سأنظم بك كل يوم قصيدة جديدة... إلى آخر عمري ! سأظل أتغنّى بجمالك... بمحاسنك... بشوقي الذي لا يخمد ولا ينقطع... بحبي لكِ وتدلهي بكِ ! قلت بحماس.

-أولا تتعب مني ؟! سألت بدلال مدلع وهي ترميني بسحر عينيها.

-وهل يتعب الإنسان من روحه... قلبه... نفسه... وناظريه ؟ قلت وأنا أقترب بوجهي من وجهها وكأنما أهم بتقبيلها !

-أرجوك لا تجعلني أريدك أكثر! لم تبق مساحة في كياني لم تملأها ذاتك !قالت وقد تراجعت بكرسيها إلى الوراء، وأبعدت وجهها عن وجهي.

-أرجوكِ أريديني... حبّيني... حبّيني أكثر... وأكثر... فإنني قنوع جداً بكل شيء من الحياة ، حتى بالفتات، إلا في حبك؛ فإنني طمّاع... شره... جشع... لا أشبع... ! قلت بغِلّ من أعماقي، وقد قرّبت مقعدي نحوها، وكأنما لأعانقها !

-ولم أنت هكذا؛ حزمة من العواطف المشتعلة، والأحاسيس المتدفقة ؟! سألت.

-لعنة حلّت بي من يوم مولدي ! من يوم جلبتني أمي إلى هذه الدنيا ! إنه قدري !

-لقد بدأت أخاف من حبك ! قالت بوجه جاد وملامح صارمة !

-لا تخافي، فإنك مهما تعمق حبك لي وتعملق، فإنه لن يصل إلى درجة حبي لكِ ! ولما لم تعلق واصلت:

-لو مررتِ بما مررتُ به في اليومين الماضيين ، لهفة وشوقاً ، لعرفت ما أعني ولربما عذرتني ! لقد كنت على استعداد أن أدفع نصف عمري مقابل سماع صوتك... رؤيتك... بسمة من شفتيك ! توقفت لحظة علّها تقول شيئاً، ثم استرسلت:

-لو عرفت أنني نذرت لرب العالمين ، إن كنت بادلتني حباً بحب ، بأنني سأذهب إلى مكة حاجّاً، عاري الرأس حافي القدمين، ماشياً؛ امتناناً لله وشكراً له !

-ما أعظم حظي ! لم أكن أعرف أنني سأكون يوماً بهذه الأهمية لبعض الناس ! قالت وهي تتفحصني إذ لعلها كانت تريد أن تتأكد من صدق ما أقول !

-أنتِ لستِ فقط مهمة بالنسبة لبعض الناس ؛ أنتِ أغلى من نورع عيونهم ! قلت وأنا أستحم في نهري عينيها وأتشمس على شاطئ شفتيها !

-بروفيسور دهشان ! أنت تبالغ كثيراً في مدحي وتمجيدي ! أنا لم أتعود على هذا الغزل ! أنا أشعر وكأنما أحلّق بين الغمام ! قالت وأغمضت عينيها وكأنها هناك حقاً !

-أريد أن نحلّق نحن الاثنين معاً ، ونبقى هناك إلى آخر عمرينا، ليس لي من واجب أؤديه سوى التعبد في محراب حبك، لأنني لا أجد مكاناً على الأرض يليق بك ! قلت بصوت منخفض حالم ، وقد قرّبت وجهي من وجهها حتى كانت تصل إليه أنفاسي !

-أرجوك ! فلتتوقف هنا! عقلي لا يحتمل الاستماع إلى أكثر من ذلك، لقد قلبت دماغي وأججت عواطفي ! دعنا نغيّر الموضوع ! قالت وقد تراجعت إلى الوراء وفتحت عينيها، وأشارت بيدها وكأنما تحسم أمراً !

-كما تشائين ! قلت وقد أرعبتني جدّيتها ! لقد خفت حقاً وأُسقط في يدي. إن استقلالية المرأة الأميركية، واتخاذها القرار المفاجئ أحياناً يرعبني ! إنه ليس من المستغرب ولا المستبعد، أن تنهض مارثا الآن وتحمل حقيبة يدها وتغادر المكان دون أن تنطق ببنت شفة ولا حتى كلمة بخاطرك، وتختفي من حياتي وإلى الأبد، وتتجاهل كل ما دار بيننا من حديث جميل وأحلام وشطحات رومانسية !

لقد استبدّ بي خوف قاتل وقلق ممزق وأنا أتصورها وهي تنهض على عجل وتنصرف وتتركني دون حتى كلمة وداع ! لم يفارقني هلعي إلاّ بعد أن فتحت فاها وقالت:

-لقد صار أفراد عائلتي يحبونك لكثرة ما حدثتهم عنك، ومتشوقون كثيراً لمقابلتك ! أنا واثقة أنك ستحبهم عندما تقابلهم، إنهم أناس طيبون ! قالت مغيّرة حديث السياسة، ومستأنفة حديث العواطف ! ما أغرب تصرفات المرأة... وخصوصاً المرأة الغربية !

-صدقيني إنني أحبهم أيضاً دون حديث عنهم وحتى قبل أن أقابلهم ! أنا أحب كل من يحبك، وكل من تربطه رابطة بك !

-هم تواقون لرؤيتك ويريدون التعرف عليك. يريدون أن يتعرفوا إلى هذا الرجل الذي وأخيراً نال استحسان ابنتهم !

-هذا يسعدني جداً؛ فما رأيك أن أدعوكم إلى العشاء ؟ غداً... بعد غدٍ... في أي وقت تشاؤون !

-نقبل الدعوة بعد أن تأتي إلى بيتنا أنت أولاً.

هممت أن أسألها إن كانت تعيش مع أهلها أو لوحدها، كما تفعل معظم الفتيات الأميركيات، وتذكرت أنها قالت في أول يوم أنهم ملتزمون في وقت العشاء؛ فقلت قد تكون تسكن لوحدها ومدعوة فقط.

-وهل ترين أهلك كل يوم ؟ ! سألت.

-نعم ! أنا أسكن في البيت، وكذلك أخي المتزوج. أنا أحبّ غرفتي وسريري وحاجياتي ! أحبّ منطقتنا وشارعنا وجيراننا ! وفوق ذلك أحب بيتنا وحديقتنا ! قالت بفخر وسعادة.

تبادلنا النظرات، لا شك أنها أدركت ما أفكر به فقالت:

-لا أسكن خارج البيت، كما تفعل معظم الأميركيات والأميركيين الشباب، لأنني أتمتع بحريتي المطلقة في بيتنا، إذ ليس هناك من نشاط أستطيع ممارسته خارج البيت لا أستطيع ممارسته في بيت العائلة، كما أنني أحب والديّ حبّاً جمّاً، وكذلك أخي وزوجته. إنها فتاة رائعة جداً جداً... فنحن كلّنا أصدقاء لبعض!

-ما أروعك يا مارثا ! إنك حقاً أحادية في كل شيء ! إن لك عقلاً رائعاً ونظيفاً، أظن أنه فريد في أميركا !

-هناك الكثيرات من هنّ أحسن مني... صدقني ! السبب هو أنك لا تعرف أميركا جيداً !

لم أجبها، فقد سرحت أفكر فيما تقول. نظرت إلى ملابسها فبدت لي عادية جداً، وإن كانت في منتهى الذوق والأناقة والاحتشام... وتساءلت في أي مستوى أصنفها اقتصادياً ! ولكن المشكلة هي أن معظم البنات في أميركا، الغنيات منهن والفقيرات، يلبسن ملابس عادية، اللهم إلا في الحفلات والسهرات والمناسبات الخاصة... إنهن لسن كبعض نسائنا في الوطن ، يصرفن ما عند آبائهن أو أزواجهن لشراء الملابس الغالية من أجل أن يكدن جارة أو صديقة لهن. وكذلك لكي يغطين مركب النقص الذي يعانين منه، بسبب الجهل والتخلف والعقل الأجوف، أو بسبب خلفية وضيعة يحاولن إخفاءها !

-عندنا في الوطن يسكن الابن المتزوج مع والديه في بعض الأحايين، لأن إمكاناته المادية قد لا تساعده على فتح بيت مستقل، وتمكث البنت في بيت أبيها وهي عازبة، لأن سكنها لوحدها مخالف للعادات والتقاليد. قلت.

-في حالتنا أنا وأخي السبب الوحيد هو حبّنا للبقاء مع بعض ليس إلاّ ! أخي وزوجته يكسبان جيداً وأنا لست بحاجة لنقود والدي، إذ إن عندي أكثر من منحة دراسية، لن أقول لك عددها ! قالت بحزم وضحكت.

-لقد ألقيت بندقيتي ورفعت راية التسليم ! طبعاً واحدة مثلك،تتمتع بكل هذا الجمال والذكاء وقوة الشخصية، وعندها كل هذه الثقافة والمعرفة والاطلاع، لا بد وأن يكون عندها منحٌ عديدة ! قلت وأنا أضحك؛ متجاهلاً طلبها تغيير هذا النوع من الحديث.

-أنت تمتدحني كثيراً يا بروفيسور دهشان ! أرجوك كفّ عن هذا، فقد يصيبني الغرور وأصدق ما تقوله !

-أما وصفي لك، فأنت تعلمين أن ما أقوله عنك هو حقٌ وصدقٌ؛ وأما أن يصيبك الغرور، فهذا ما لا أعتقده؛ لأن الغرور عادة لا يصيب أصحاب العقول الناضجة النيّرة، وإنما يصيب ذوي العقول المظلمة الجوفاء !

-لقد أخجلتني حقاً ! قالت وقد توردّت وجنتاها واحمرّ خدّاها.

-إنك تصلين ذروة الجمال والإغراء معاً عندما يستولي عليك الخجل؛ فتتورد وجنتيك ويحمر خديك وتلقين بالأرض عينيك ! قلت وقد ازدادت خجلاً حقاً!

-بروفيسور دهشان ! أنت لا تتكلم معي باللغة البسيطة الدارجة ! أنت تتكلم باللغة الأدبية العالية... لغة البلاغة والسجع والبديع، لغة الشعر المقفى والموزون ! لقد سمعتك تستعملها في قاعة المحاضرات أيضاً... ولكنني لم أسمعك تستعملها مع بقية الطلبة !

-لغة الشعر هذه، أستعملها فقط مع الفتيات الجميلات أمثال الآنسة مارثا كارلنقتون؛ لأننا عندما نخاطب الأزهار والورود وكل ما هو جميل وفاتن، فيجب أن نستعمل اللغة التي تليق به ؛ وإلاّ أنت لك رأي مخالف ؟! لم تجب، وإنما استغرقت في ضحك طروب من جديد !

لقد بدت لي مارثا فجأة امرأة ناضجة مغرية، ذات صدر أتلع ونهدين بارزين مكورين، وشفتين مزمومتين متأججتين، فأحسست أنني تحولت فجأة إلى واحد من زمرة المراهقين المحرومين، المرأة عندي ليست إلا جسداً في فراش وشبق وقذف... وددت لو أستطيع مضاجعتها لأفرغ بداخلها كل حرماني وجوعي وشبقي !

لا شك أنها لاحظت البريق المتأجج الذي يخرج من عيني الشرهتين، فتوقفت عن الكلام، ووضعت الشوكة والسكينة من يديها إلى جانب الصحن أمامها، ففي هذه المرة لم تحمّر خديها وتسبل جفنيها خجلاً، بل نظرت في عينيّ نظرة تحد وندّية، وكأنما لتقول لي؛ نحن نساء الغرب لنا الحق في العملية الجنسية والإغراء والإقناع وحتى الطلب المباشر، كالرجال لا فرق، فإياك أن تنسى ذلك ! في هذه اللحظة أنا الذي احمرّ خداي وأسبلتُ جفنيّ حياء، ونفرت حبات من العرق فوق جبيني ورقبتي، فقالت باندهاش واستغراب:

–يا إلهي! لقد اكتشفت خصلة جديدة بك يا بروفيسور دهشان ! وهو أنك تخجل مثل الأطفال الأبرياء، أو مثل طالبات المدارس الصغيرات !

–وهل تعتبرين هذا مدحاً أو مذمة ؟! سألتها وأنا ما زلت أتجنب النظر في عينيها.

–أنا أعتبره مدحاً طبعاً ! ميزة حميدة أخرى تضاف إلى خصالك ! أنا أحبّ الرجل الخجول المؤدب... الشجاع...! أما الرجل الوقح المغرور فإنه يثير سخطي وقرفي واشمئزازي.

–أرجوكِ لا تمتدحينني أكثر، فأصدق ما تقولين، عندئذ أكون أنا الذي يركبني الغرور، لا أنت !

–أنا فقط أعبّر عما أشعر به ! ألم تقل عني بأنني صريحة وجريئة، أم غيّرت رأيك ؟!

صمتّ ولم أقل شيئاً، وإنما تابعت الأكل، وقد سرحت مع أفكاري وأحلامي.

–لم اكن اعرف ان عندك كل هذا الذكاء المتوهج، بالإضافة إلى جمالك الباهر ! قلت.

–هذه نعمة من نعم الله الكبرى التى انعم عليّ بها ! قالت بحرارة وصدق وحماس !

–هل أنتِ مسلمة ؟! سألتها !

–ولمَ تعتقد ذلك ؟! سأَلتْ باستغراب.

–لان هذا الجواب المفعم بالإيمان، لا تجيبه الا مسلمة مؤمنة موحدة !

ضحكت حتى بدت نواجذها، وقالت:

-ربما اكون مسلمة مؤمنة موحدة ، ولكن هذا دون علم مني !

-اذن ، أنت مسيحية من المتجددين ؟!

-ربما ! قد اكون مسلمة، وقد اكون مسيحية، وقد اكون غير ذلك !

-لاشك انك من المؤمنات المتجددات، وإلاّ لما رأيت المسيح في نومك !

-اعتبر نفسي من المؤمنات؛ ولكنني لا ادري عمق ايماني !

وهنا شعرت بأنّي اقف امام امرأة قوية الشكيمة، بالأضافة إلى الجمال والذكاء وقوة الشخصية؛ عندها قلت محاولا ان ألطّف الجو المثير، الذى خلقته بسذاجتي وتهوري .

-عفواً ! عندنا في الوطن، وربما عندكم ايضا، لايسأل الإنسان عن معتقده، لأن هذا بينه وبين الخالق، وانا آسف ان سألتك هذا السؤال، لانه بنظري غير حضاري؛ ولكن طيلة وجودي في امريكا، لم اسمع بمثل جوابك هذا؛ فلذلك ظننت انك مسلمة !

-لا تتأسف ! أيٌّ شيء تسأله سأجيبك عنه، ان كنت اعرف الجواب؛ لأنه لا يوجد في قاموسي كلمات عيب ولا حرام؛ ما زالت ضمن الأخلاق والآداب ! قالت بمنتهي الجدية و ابتسامة ملائكية تغطي وجهها !

-لقد بدأت أخاف من أنكِ ستعقّدينني ! قلتها وقد تصنعت ضحكة باهتة، ثم أضفت:

-ان كلماتك كلها معبرة ومختصرة وواضحة. قالت؛ ثم ضحكت وبدت نواجذها البيضاء اللامعة !

-اذن، انا آسفة ! إنني لايمكن ان أقول شئيا يجرح احساسك او يحطُّ من كرامتك ! هكذا قد علماني والديَّ، وهو ان اكون صريحة وإلى الأمام ودون مواربة.

-يبدو انك صعبة الإرضاء ومتطلباتك رفيعة !

-على العكس تماماً ! إنّ جميع متطلباتي بسيطة وسهلة التحقق؛ اني أريد انسانا اقتنع به فكريا وعاطفيا؛ وحتى الآن لم أجده !

تمنيت، ولكن كإنسان ما زال يرزح تحت عبودية اغلال العيب و الممنوع و المحرّم؛ لو أستطيع أن اسالها إن كانت تدرس و تعمل، لتعيش، كما تفعل معظم الطالبات؛ ولكنها قطعاً ستحتقرني ! وسرحت مع نفسي للحظات، افكر بوضعي وبدراستي، وكأنها قد فهمت ما جال في خاطري فقالت:

–قلت لك بان عندي اكثر من منحة دراسية؛ وانني لست في عجلة من امري حتى اتخرج واعمل لاكسب نقوداً؛ او ان افكر بالزواج ! ان سعادتي الآن هي في الدرس والبحث؛ وعندما اكمل ذلك سأعمل ان وجدت عملا مناسبا لميولي وسأتزوج ان وجدت من اعتقد انه يستحق ان أمنحه قلبي و محبتي ! قالت.

–ألا يوجد في حياتك من تحبين ؟!

كم تمنيت لو انني لم اسألها، فقد شعرت بخجل شديد من نفسي.

–الذين احبهم ويحبونني كثيرين. انني احب والديّ واخي وزوجته؛ ولي عمّين اثنين وعمّة وخالتين وخال وكذلك عائلاتهم، و أحب أيضاً جميع أصدقائي. كما أنني أحب الانسانية جمعاء !

ولعلها ادركت ما يجول بخاطري فأضافت؛ لكي تزيل شكوكي !

–أمّا اذا كنت تعني ان كان لي حبيباً خاصاَ، " بوي فريند " ، فالجواب لا، حتى الآن !

شعرتُ بسعادةٍ لا توصف، و شكرتُ الخالق لما قالت !

–لقد سها عن بالي أن أقول لك بأنه كان مع والدتي طالب في الجامعة وبنفس الكلية، من بلادكم، تقول بأنه وصل إلى منصب رفيع جداً في الدولة بعد تخرجه وعودته، عين وزيراً للصحة. قالت فجأة كمن فطن لشيء غاب عن ذاكرته... وأحسست بأن وجهها قد ازداد إشراقاً.

–وهل ذكرت لك اسمه؛ فقد أكون أعرفه أو سمعت عنه ؟! الأردن بلد صغير كما تعلمين ومن السهل جدا معرفة الناس المشهورين.

–نعم ذكرته لي ولكنني نسيته. سنسألها عنه عندما تتقابلان. قالت ورقصت غمازتاها وزغردت عيناها.

–في أية جامعة، وماذا كانا يدرسان ؟! سألت وقد ازدادت في نفسي غريزة حب الاستطلاع.

-كانا طالبان في جامعة "ستانفورد" في منطقة وسط كاليفورنيا، وكانا يدرسان الطب معاً.

-إذن والدتك طبيبة ؟! لا شك أن لها نفوذاً واسعاً ! ولهذا قلت سأحميك منهم عندما ذكرنا أنّ مكتب التحقيقات الفدرالي سيطردونني لو عرفوا أنني أدافع عن الإسلام ! قلت بعجب.

-وهل قلت أنا ذلك ؟! آسفة!إنها زلّة لسان ! قالت بلهجة ندم !

-لقد زرت تلك الجامعة وأحببتها كثيراً... ولكنني أعرف أن دراسة الطب هنا في أميركا غير مباحة لغير المواطنين الأمريكيين.

-لا أدري ! لعل معه جواز سفر أميركي ! هناك الكثيرون من بلاد العالم من يحملون الجنسية الأميركية ويعيشون خارج أميركا، إما في بلادهم الأصلية، أو بلد أخرى لأسباب كثيرة ومختلفة.

-والدتك وأخاك طبيبان، هذا شيء رائع ! وهل والدك كذلك ؟!

-كلا. إنه رجل أعمال ! قالت وهي تبتسم.

-وكيف يجتمع الطب والأعمال معاً ؟! سألت بطريقة أقرب إلى الهزلية.

-لا تستطيع أن تتصور يا بروفيسور دهشان كم هما سعيدان وعلى اتفاق، وكم يحبان بعضاً ! أنا لم أسمعهما يوماً... إطلاقاً... يتكلمان معاً، بغير لغة الاحترام والتبجيل... إنك تظنهما وهما معاً، وكأنهما في شهر عسل...! قالت بحماس وقد كست وجهها علائم الجد.

-لا عجب، فالبرهان ها هو ماثل أمامي ! أنتِ يا مارثا ! تتهمينني بالمبالغة إن قلت لك بأنك حزمة من الغمام المتحرك... ! وماذا عن زوجة أخيك ؟! فهل هي طبيبة أيضاً ؟! سألت.

-نعم؛ هي طبيبة أمراض صدرية، وأخي طبيب أمراض تناسلية !

-أظن لو كان لوالديّ نفس المهنة لما كانا متفاهمين كما هما الآن. صدّقني كأنهما ما زالا في شهر العسل ! لا يستطيع أحدهما أن يفارق الآخر ليوم واحد ! لوذهب أحدهما في اجتماع لأبناء مهنته، حتى ولو كانت بمسافة سان فرنسيسكو، فإن الآخر يجب أن يرافقه وإلا لما ذهب ! كثيراً ما يتهاتفان في ساعات العمل ليسمع الواحد منهما صوت الآخر، وليبثه أشواقه ! لم أسمعهما في حياتي كلها يتكلمان إلى بعض ولو بشيء من

الخشونة أو الغضب ! دائماً برقة واحترام وأدب ! قالت وقد زاد حماسها ولمعت عيناها فرحاً وسعادة.

-إذن هذا الحب الرائع أعطى الحياة لابنة أحادية الجمال والعقل ! قلت.

-ولهذا السبب لا أتصور نفسي أسكن بعيداً عنهما ! أشعر بالوحدة والضياع !

-أنا لا ألومك، لو كنت مكانك لما فعلت غير ما تفعلين ! إنسان يحيط به كل هذا الحب والحنان والاهتمام، فماذا يريد من دنياه أكثر من ذلك ؟! ثم خطرت على بالي فكرة:

-ولكن ماذا لو وافقت على الزواج من إنسان وطلب إليك الرحيل معه إلى ولاية أخرى أو حتى الى بلد آخر ؟! وراء البحار مثلاً ؟!

-هذا سؤال لم يخطر على بالي، ولم أفكّر به حقاً ! ثم بعد لحظة تأمل أضافت:

-ربما سأحاول أن أقنعه بأن يبقى هنا في جنوب كاليفورنيا.

-وأن أصرّ لسبب منطقي؟! فتضاحكت:

-سأذهب معه ولو إلى الصحراء العربية ! إلى "الربيء الهالي!"

-تعني الربع الخالي؟ إنها والله تخرج من شفتيك سحراً حلالاً !

-عندها ستكون الصحراء وهو معي بجمال جنوب كاليفورنيا، وربما أكثر!

في الحقيقة إن جوابها أخجلني وأحرجني وحيّرني معاً ! ماذا تعني هذه الماكرة ؟!

-الحب الأول هو الأقوى والأطول عمراً؛ وأظن السبب أن حب والديك الشديد لبعضهما البعض وصعوبة ابتعاد الواحد عن الآخر،ولو ليوم واحد، قد يكون سببه، أن الواحد للآخر كان حبه الأول! قلت.

-والدتي كانت الحب الأول لوالدي، ولكنه هو لم يكن الحب الأول لها! قالت وضحكت بخبث وشيطنة.

-وكيف عرفت ذلك ؟!

-هي قالت لي !

-وهل عرفتِ حبها الأول؟ عفواً! هذا إذا لم يكن سؤالي محرجاً !

-طبعاً! حدثتني عنه بكل صراحة !

هممت أن أسألها إن كانت قد أعلمت والدها بهذا الحب أيضاً، فكأنما الشيطانة قد قرأت أفكاري فقالت:

-وكذلك أخبرتْ والدي ! إن والديّ لا يخفيان شيئاً عن بعضهما! وسكتت لحظة وكأنما لتجمّع أفكارها:

-هي قابلت والدي بعد أن عاد حبيبها إلى وطنه!

-ماذا ؟! صحت لا شعورياً بصوت عال تردد صداه في جنبات المطعم ؛ جاءت النادلة مرة أخرى على عجل ! وفي لحظة... تحولت إلى حزمة متأججة من العواطف والانفعالات معاً، فقد استبدّ بي طبعي البدوي وأصابتني الهلوسة العشائرية، وصرت مرتعاً لتشنجات وشهامات وبطولات قبلية؛ فانعقد لساني وتجمّد في فمي ولم أستطع حراكه؛ وحتى لو استطعت فقد هربت الكلمات من مخيلتي ، إذ كنت أفتش عن كلمة أو جملة أقولها، ولكنني فشلت !

-عندما أخبرتها عنك وكم أنت وسيم وجذاب وذو شخصية قوية وعلم غزير ، رأيت دمعتين كبيرتين تسقطان من عينيها، وإن كانت قد حاولت إخفاءهما !

-لقد هرب النذل وتركها... أليس كذلك ؟! عندما أقابلها سأسألها عن اسمه، وسأكتب له رسالة قذرة مثل تصرفاته ! في الوطن، ليس من الصعب الحصول على عنوانه، إذا كان قد وصل إلى منصبٍ رفيع في الدولة ! قلت والألم يعصرني وصرت أزأر وأزمجر وأرتجف كأسد حبيس اً

-إنه لم يهرب ! لا تدنه قبل أن تسمع بقية القصة. إنه على العكس من ذلك؛ كان في قمة الأخلاق والوفاء ! قالت بغيض زاد في تألق جمالها وتورد خديها، إذ ربما حكمي المتسرع قد أغضبها !

-لقد عاد المسكين إلى الوطن وقلبه ينـزف دماً !

حملقت بها بعينين تشتعلان ناراً، وكأنما أرجوها أن تكمل.

-لقد طلب يدها ورجاها وألح في الرجاء ولكنها هي التي رفضت !

وكدت أقول، إذن هي الخائنة القذرة.

-والدتي لا تؤمن بالزواج المختلط، وتقول إنه بسبب الفرق الشاسع بين الحضارتين، فإن نتيجة الارتباط ستكون الطلاق، أو الشقاء المتواصل.

-إذن والدتك لم تحبه ! قلت بحماس وتحزّب.

-صدقني أنها فعلت ! لقد أحبته بصدق وإخلاص وعمق، ولكنها وصلت إلى قناعة أنه لن يكون زواجاً ناجحاً. لقد طلب منها أن ترافقه إلى وطنه فرفضت بحجة أنها لا تستطيع أن تعيش في دول العالم الثالث، ولا تقوى على فراق كاليفورنيا حتى ولا إلى ولاية أخرى ! لقد وافق هو على البقاء معها، هنا في كاليفورنيا، ولكن لأنها لا تؤمن بالزواج المختلط ، إذ إنه يجلب التعاسة إلى الاثنين معاً؛ فقد أدركت بأنه لا بد وأن يندم يوماً على زواجه منها، ولو بعد مدة، وأن هذا الزواج سيحول بينه وبين خدمة وطنه الذي هو بأمس الحاجة لمهاراته !

-أنتم الأميركان دائماً تزِنون كل شيء بميزان الربح والخسارة... ! عليكم اللعنة! قلتها بانفعال عفوي.

توقفتْ عن الطعام ونظرتْ إليّ نظرة عتاب وأسف، فندمت كثيراً على ما قلت؛ وتصورتها تحمل حقيبتها وتغادر، فانزعجت جداً، ونظرتُ إليها بعينين قلقتين حائرتين.

-أنا آسف جداً. لقد ذهبت مع عواطفي بعيداً... لم أقصد إيلامك وجرح شعورك. لقد حملتني عاطفتي بعيداً، حزناً على عاشق مهزوم ! قلت وقد نكست عيني حتى تتجنبا مقابلة عينيها.

طبطبت بيدها اليمنى على ظهر يدي اليسرى الموضوعة على الطاولة وقالت:

-لا بأس ! أنا أتفهم الوضع ! أنت عاطفي جداً ! ثم تابعت تناولها لطعامها.

-ما أقسى قلبها ! لقد كان حكماً جائراً ! كان من الممكن أن يكون نصفك عربياً !

-تقول والدتي بأنها مدينة كثيراً لتلك العلاقة؛ فقد وسّعت مداركها الذهنية وعمّقت وعيها السياسي، وفتحت عينيها على أمور كثيرة في العالم، وبصّرتها بحقائق ما كانت ستفقهها لولا صداقتها لذلك الأجنبي ! لقد أدركت أن هناك انتهاكاً قذراً، واستغلالاً بشعاًوإذلالاً مهيناً من الدول

القوية للدول الصغيرة المستضعفة؛ وأن الإنسان في تلك الدول المستضعفة تنتهك حقوقه وتصادر حريته من قبل الحاكم المستبد في كل ساعة. إنها الآن عضوة نشطة في جمعية الدفاع عن حقوق الإنسان في دول العالم الثالث، فهي دائماً تتكلم وتحاضر عن القضايا الساخنة في العالم خصوصاً وأن معظمها متواجدة في العالم الإسلامي.

وكأنما تذكرت؛ فأضافت:

-لقد كانت في حرب الخليج لا تنام إلا قليلاً ! فقد كانت مع غيرها الكثيرين يطالبون بوقف تلك الحرب القذرة ومحاكمة مسببيها... كانت مكروهة من اليهود، ومن وكالة الاستخبارات المركزية والحكومة الفدرالية أيضاً !

-لعلّ معرفتنا لبعض واهتمامي بك قد أزعجها وأقلقها ؛ فهي لا تريد أن تتكرر المأساة ! قلت بلهفة وقلق متمنياً وبحرارة أن أسمع منها نفياً قاطعاً !

-إنها لم تذكر لي شيئاً ولم أسألها رأيها في هذا الموضوع ؛ ثم إن والدينا، أخي وأنا، قد علّمانا منذ الصغر أن نعتمد على أنفسنا، فهما لا يتدخلان بتصرفاتنا ، ولا يقولان شيئاً، إلاّ إذا طلبنا رأيهما !

جوابها لم يرحني ولكنه لم يقلقني أيضاً.

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة عصراً عندما انتهينا من تناول الطعام، ولقد فتحت مارثا محفظتها لتخرج منها نقوداً لتدفع فاتورة الحساب، ولكنني حلت بينها وبين ذلك ! رجتني فرفضت، ألحّت بالرجاء فازددت إصراراً !

-إنه لشيء محيّر وعجيب حقاً ! كيف تدفع فاتورة الحساب وأنا التي دعوتك ؟! قالت بشبه انفعال.

-إنه لمن غير اللائق في الوطن، أن يدخل رجل وامرأة مطعماً وتدفع المرأة، حتى ولو كانت هي صاحبة الفكرة ! قلت بحماس وغيرة شديدين.

-أنا لست صاحبة الفكرة فقط أنا الداعية وأنت المدعو !

وبعد أن أعادت خصلة من شعرها التي سقطت على وجهها إلى مكانها أضافت:

-إنك الآن في أميركا، ويجب أن تعرف وتعوّد نفسك على أن لا فرق إطلاقاً بين الرجل والمرأة بالحقوق والواجبات !

-أنا مدرك لهذا جيداً، ولكن تربيتي وتفكيري ورجولتي، ما زالت ترفض الفكرة ومن الصعب تقبلها.

-وهل معنى ذلك أن تدفع عني كلما كنّا معاً في مكان عام ؟!

-ولم لا ؟! إنني أخجل من نفسي أن تدفع عني امرأة حتى ولو كانت امرأة مميّزة عندي !!

-امرأة...! امرأة...! ما هذا التفكير ؟! إنك تتحدث عن المرأة وكأنما تتحدث عن مخلوق وضيع... تافه... منحط... دونك في المستوى ! قلت لك إنه لا فرق هنا بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات، وإذا أتيت من بلادك بأفكار مغايرة لهذه، فأرجوك أن تستوعب هذه الحقيقة !

-أقسم لك أنني واعٍ لهذه الحقيقة مدركٌ لها تماماً، ولكن فكرة أن تدفع عني امرأة ما زالت تزعجني... أحس أنها ضد كبريائي... ضد رجولتي وتربيتي...!

-وهل تتحمل ميزانيتك أن تدفع عني دائماً ؟! ولما لم أُجب قالت:

-تدفع عني مرة مرتين ثم ماذا بعد ذلك؟! قد يجوز هذا، لو أننا نتقابل في فترات متباعدة، ولكنني أحب أن أراك دائماً، وأنا لا أقبل أن تدفع عني كل مرة... ضميري يؤنبني... ومثلما هو من الصعب على رجولتك أن تدفع عنك امرأة، كذلك تتأذى أنوثتي أن تدفع أنت عني كل مرّة...!

ثم كأنما تذكرت...:

-أم هل تريد أن يدفع كل منا عن نفسه ؟!

قلت وقد أحسست بالإهانة حقاً:

-وهذه أيضاً لا أقبلها ! إن هذه تجعلني أحسّ كأنما نحن غريبان تقابلنا في مطعم صدفة فجلسنا على نفس الطاولة لعدم وجود طاولة مستقلة لكل منا.

-وصدقني أن هذا هو شعوري. قالت وأتبعتها بضحكة.

-إذن ما الحل ؟! سألتُ وقد حيّرني منطقها.

-إن الذي يدعو هو الذي يدفع ! ببساطة ! ما رأيك بهذا الحل ؟!

–قبلت ولكن لا بدّ من أن أدفع أنا هذه المرة، أرجوكِ ؟ إن ذلك يمنحني متعة سماوية ! قلت ذلك وعانقتها بحدقتيّ عينيّ !

–موافقة على أن أدفع أنا إكرامية النادلة.

–أرجوكِ ! دعيني أدفع الاثنتين هذه المرّة !

–موافقة؛ إذا كان هذا يسعدك.

–يسعدني جداً ! قلت بفرح.

أحسست، والنادلة الإيرانية، بروين، سليلة الإمبراطور الفارسي قورش والإمبراطور كسرى، تودعنا إلى الباب، كأنما أجدادي العرب لم يقهروا الإمبراطورية الفارسية فقط ويحوّلوها إلى بلاد إسلامية، وإنما قهروا إمبراطورية القرن العشرين ، الأحادية القوة والسيطرة والكلمة، وحوّلوها إلى تابع للإمبراطورية العربية الإسلامية الجديدة !!

–إنك لم تقل لي متى أتيت من الوطن ؟! سألتني مارثا بعد أن غادرنا المطعم وكنّا في طريق عودتنا إلى الحرم الجامعي.

–هذا هو الأسبوع الخامس من عامي الثالث !

–وهل تعاقدت مع هذه الجامعة وأنت في الوطن ؟

–لا ! عندما أتيت إلى أميركا لم تكن لي وظيفة ولم أكن أعرف ماذا سأشتغل، بل لم أكن حتى متأكداً من أنني سيسمح لي بالعمل أصلاً؛ فقد دخلت البلاد بتأشيرة زيارة، وكما تعلمين فإنه غير مسموح للزائر أن يشتغل !

–إذن كيف حصلت على وظيفتك الحالية ؟! سألت باستغراب وقد توقفت عن السير وأدارت وجهها نحوي !

المجد للخالق، والعظمة له لما صوّر فأبدع !! كم كانت عيناها جميلتين، وكم كانت روحها شفافة وصافية !! لقد أحسست لحظتها بأنني تحولت إلى قطعة من الغمام، أريد أن أغرق نفسي في أنهار عينيها وروحها، وأشرب حتى الثمالة، بل حتى الفناء... بل حتى التلاشي ! لم تستطع عيناي أن تصمدا أمام سحر عينيها طويلاً، فحولتهما بالاتجاه المعاكس وتظاهرت بمراقبة العابرين ! قلت بعد مرور بعض الوقت:

-لقد طرقت أبواب جامعات وكليات مجتمع ومعاهد كثيرة في جنوب كاليفورنيا، فكانوا يعتذرون دائماً بعدم وجود شواغر؛ ولقد عرفت فيما بعد بأن ذلك كان غير صحيح ! لقد كانوا في منتهى الأدب فلا يقولون لي بصدق وصراحة بأن التأشيرة التي دخلت بها البلاد لا تسمح لي بالعمل، فقط يعتذرون بعدم وجود شواغر.

-وكيف كنت تدبّر أمورك فتذهب إلى كل تلك الأماكن، والمسافات شاسعة والطرق معقدة ؟! سألت مارثا وهي ما زالت في وقفتها، وعيناها ما زالتا تنظران إلى وجهي.

-السيدة التي سكنت في بيتها هي التي كانت تأخذني إلى كل تلك الأماكن بسيارتها ! إنها سيدة رائعة فاضلة، وإنها على خلق عظيم وأنا مدين لها بالكثير الكثير ! إنها هي التي أصرّت بأن لا أعمل في أية مهنة غير مهنة التدريس، مع أنني أخبرتها بأنني سأكون قانعاً وسعيداً إن وجدت وظيفة كاتب وحتى نصف الوقت، في أية مؤسسة أو شركة أو حتى في فندق بسيط !

-إنك لو فعلت ذلك لكنت أضعت أفكاراً وطاقات قيمة، ولكنت قتلت موهبة نادرة ! قالت مارثا. ولكنني لم أعلق وواصلت حديثي:

-لقد أصرّت تلك السيدة بأنني يجب أن أعمل في المهنة التي أحمل شهاداتها وعندي خبرات فيها ! كانت في المساء تخطط ماذا يجب أن نفعل في اليوم التالي، وما هي المعاهد والكليات والجامعات التي يجب أن نذهب إليها، ونستفسر منها ونقدم طلباً، فكنّا نترك البيت في الصباح الباكر ولا نعود إليه إلاّ مساءً. ومع أنهم جميعهم اعتذروا، ومع أنني أنا يئست واستسلمت، إلا أنها لم تيأس ولم تستسلم ! لعلّ السبعة والستين عاماً التي كانت تحملها على كاهليها قد علمتها أن لا حياة مع اليأس، وأنه من العار على الإنسان أن ينهزم أمام مصاعب الحياة ورفضها الانصياع لمتطلباته ! صحيح أنها كانت كبيرة في السن، وأن الدهر قد ترك بصماته على وجهها المملوء تجعدات وأخاديد، إلا أنها كانت أيضاً مملوءة نشاطاً وتتدفق حيوية !!

-وكيف تعرفت عليها ؟! سألت مارثا وقد بدأنا استئناف السير.

-صديق من الوطن، كان طالباً في كاليفورنيا وكان قد عاد قبل قدومي بعامين، سألني عندما علم أنني مسافر إلى أميركا عن الولاية التي أقصدها، ولما أجبته بأنني لم أحددها بعد، نصحني بأن أذهب إلى كاليفورنيا ، لأن جوها يشبه جو فلسطين الحبيبة، ولما استحسنت الفكرة أعطاني عنوان وتليفون سيدة قال بأنها فاضلة، وليست الفلوس

غايتها، وإنما مساعدة الآخرين، وخصوصاً الغرباء منهم ! ولقد أعلمني أيضاً بأنني سأكون محظوظاً جداً إن وجدت الغرفة التي عندها خالية واستطعت السكن فيها، فالمرأة ليست بحاجة إلى نقود إيجار الغرفة، وإنما هي بحاجة إلى المحبة والتعاطف الآدمي، وإلى أن يكون هناك إنسان في البيت سواها، يدخل إليه ويخرج منه، لتطمئن أن هناك قلباً ينبض في البيت حولها ! لقد عرف أنها كانت موظفة في الدولة وأنه كان لها وظيفة مهمة وحساسة، ولكنها لم تفصح عن نوع هذه الوظيفة !

-وهل كان يسكن عندها ؟

-نعم، لقد سكن عندها عامين كاملين، وكان يعتبرها أمّه في الغربة، ولكنها لم تكن متقاعدة في ذلك الوقت !

-العالم مملوء بالطيبين الخيرين ؛ كما أنه مملوء أيضاً بالأشرار والحاقدين !

-المهم، اتصلت بها من المطار وأعلمتها من أكون وماذا أريد، فانفجرت في ضحك متواصل كأنما سمعت نكتة غريبة، ولم تستطع أن تتوقف عن الضحك لفترة، حتى ظننت أن المرأة مخبولة أو تسخر مني؛ وعندما توقفتْ عن الضحك اعتذرت بحرارة وأدب شديدين، فقد أعلمتني بأنها صباح نفس ذلك اليوم، قد أخذت الطالب الذي سكن مكان منصور طيلة السنتين الماضيتين، إلى المطار ليعود إلى بلاده اليونان، كما فعلت مع منصور نفسه بعد أن أنهى دراسته الجامعية !

-حقاً إنك محظوظ جداً جداً ! قالت مارثا وهي تضحك.

-أنا أعرف ذلك جيداً ! وأكبر دليل على ذلك هو لقائي بك ! قلت وأنا أشاركها الضحك.

-بروفيسور دهشان ! توقف عن إغاظتي ! قالتها بدلال العاشق.

-ألا توافقينني رأيي بأنني محظوظ جداً لتعرفي عليك ؟! سألت بلهجة جادة.

-لا أدري ! ربما ! الأيام هي التي ستحكم ! قالت وقد تمايل جسمها وبدت أكثر أنوثة وأكثر إغراءً.

-وأنا أيضاً أستطيع أن أعرف مقدماً ! قلت وقد نفخني الغرور وسيطرت عليّ العقلية القبلية والشعور بالذكورية ؛ ثم تابعت حديثي:

-المهم، أتينا إلى الجامعة هنا واستقبلنا مدير دائرة الشرق الأوسط باحترام وحفاوة، وتحدث معي بكل بساطة وتواضع، فصُلنا بأحادينا وجُلنا، وشرّقنا وغرّبنا، ويبدو أن الرجل تأثر بأحاديثي، كما أنني تأثرت بآرائه وأفكاره؛ فالرجل بحر من العلم والمعرفة، وخصوصاً في التاريخ والأدب الإسلامي والعربي.

-ألم تكن تعرف أنه مستشرق ؟! سألت مارتا باستغراب.

-وهل تعرفينه ؟! سألت بدهشة شديدة واستغراب أشد.

-أيّ دارس لشؤون الشرق الأوسط والحضارة الإسلامية، لا بد وأن يكون قد سمع عنه وقرأ له ! إنه معروف على مستوى العالم، وكتبه ترجمت إلى لغات كثيرة من بينها العربية. إنه يجيد عدة لغات من بينها العربية !

أحسست بالخجل من مارتا ومن نفسي أيضاً، فأنا حتى تلك اللحظة لم أكن قد سمعت عنه؛ ولعلّ الشيطانة أدركت ما اعتراني فأضافت:

-لقد عرفت عنه لأنه صديق للعائلة، وهو نمساوي الأصل وكذلك والدتي ووالدي !!

-إن الدكتور "غوستاف فانجرونبام"إنسان عظيم، وأنا مدين له بالكثير... الكثير! إنه أستاذي وصديقي؛ فهل تعرفين أنه قاعد نفسه بدءاً من حزيران الماضي ليتفرغ للأبحاث ؟

ضحكت مارتا بخبث محبب، وقالت:

-لقد أعلمنا بعزمه على التقاعد منذ أكثر من عام، وكان والدايّ هما اللذان طلبا إليه التمهل، إذ إن إحساس الإنسان، الذي يتعود على العطاء دائماً ومنذ صغره وبسخاء، بتوقفه فجأة عن هذا العطاء قد يسبب له الألم والإحباط والاكتئاب؛ ولكنه أكّد لهما بأنه على العكس من ذلك، فهو عندما يجلس ويبدأ الكتابة كان يتمنى لو لم تكن هناك وظيفة تنتظره، لأنها تقطع عليه مواصلة الكتابة، كما تنهي متعته الفكرية.

-إنه لم يقل لي كما قال الآخرون بأنه لا يوجد عندهم شاغر، وإنما قال بأن عندهم لي وظيفة نصف وقت، فهي ليست عملاً تدريسياً، وإنما شيئاً مشابهاً له... إنها مهام متنوعة؛ وكذلك فإنه سيسعى لتغيير تأشيرة الزيارة إلى تصريح بالعمل. ألا تعتقدين بأنه إنسان نادر الوجود ؟!

–لا تتصور يا بروفيسور دهشان، كم أحب هذا الرجل وأحترمه ! إنه إنسان رائع !

–أن تحترمينه وتقدرينه وتعجبين به، فأنا لا أعترض على ذلك؛ أما قولك بأنك تحبينه فهذا ما لا أوافق عليه، إذ إنه يثير غيرتي وغضبي معاً! قلت متصنعاً الجد !

ضحكت مارثا طويلاً وبجذل وكأنما سمعت نكتة نادرة وغريبة، فبدت لي حزمة من الفتنة والإغراء، فتمنيت لو أستطيع عناقها وتقبيلها !

–أحبك أن تغار عليّ، وتسعدني هذه الغيرة، ولكن ليس من الدكتور " فان جرونبام". أنا أحب أفكاره... طريقة تفكيره... عقله الكبير... ثقافته الواسعة... كبرياءه... معاملته للناس...! قالت وهي تمسح دموعها بظهر يدها !

–المهم، كانت أول مهمة طلب إليّ أن أقوم بها هي، أن بعضاً من كتبه التي كتبها بالإنجليزية - وبالمناسبة فإن كل ما كتب، كان عن العرب المسلمين؛ ديناً وتاريخاً وأدباً- وتُرجمت إلى العربية، يريدني أن أقرأها، وأن أقارن الترجمة بالأصل وهل كانت ترجمة ملتزمة؛ ثم أبدي رأيي الشخصي في تقرير مفصل أكتبه له، إذ لا وقت عنده لقراءة ترجمات كتبه العديدة من الإنجليزية إلى لغات أخرى، مع أنه يجيد الكثير من تلك اللغات!لقد استطعت بمساعدة هذه المرأة الطيبة العظيمة، وبالعمل الدؤوب المتواصل، وسهرنا حتى ساعة متأخرة من الليل؛ فقد كانت توضح ما غمض عليّ من أفكار، فتطبع التقرير، وتصلح ما به من أخطاء إملائية ونحوية، وبفضل مساعدتها استطعت أن أقدم له التقرير الأول خلال أربعة أيام، والتقرير الثاني خلال ثلاثة أيام، مما أسعده كثيراً... كثيراً؛ خصوصاً تعليقاتي الشخصية على آرائه، وكذلك على آراء المترجم الذي كان كثيراً ما يعلق على أفكار المؤلف، فكال لي المديح وأجزل لي المكافأة! ! ثم أعلمني بأنه يريدني أن أكون مدرساً في القسم من أول العام الدراسي الجديد، وأن الجامعة قد كتبت إلى دائرة الهجرة من أجل تغيير تأشيرتي !

–ألم أقل لك بأنك محظوظ جداً ؟! لقد يسّر الله لك هذين الإنسانين الطيبين، فأخذا بيدك؛ هذا بالإضافة إلى أن عندك المؤهل العلمي والثقافي، وكذلك إلى الجد والجلد والمثابرة... وضحكت... وكذلك قوة الشخصية وجمالها !

–شكراً لك لكل ما ذكرته عني؛ ولكن أحب أن أقول لك شيئاً أؤمن به إيماناً مطلقاً، قد لا توافقينني عليه، وقد لا تؤمنين به أيضاً؛ وهو أنني أعزو

كل ما ذكرته عني، يعود الفضل فيه إلى رضاء والدتي عني وأدعيتها الصالحات لي !

لم تعلق مارثا على معتقداتي، وإنما صارت تفكر بما نطقت... وأخيراً قالت:

-قالت لي والدتي نقلاً عن صديقها العربي، وقرأت أنا أيضاً، أن الآباء في بلادكم يزوجون أبناءهم في سن مبكرة جداً للحفاظ عليهم من ارتكاب الخطايا وتجنباً للمشاكل التي من الممكن أن يقابلها الشاب، فهل زوجتك معك هنا أو ما زالت في الوطن ؟!

ضحكت طويلاً وكأنما أقول لها اطمئني أنا غير متزوج، ولو كنت كذلك لما سمحت لنفسي أن أذهب في أحاديثي العاطفية معك كما فعلت.ثم مددت لها يدي الاثنتين وقلت:

-انظري لا يوجد بواحدة منهما خاتماً، لا خاطباً ولا متزوجاً.

-الكثيرون من الرجال وحتى النساء عندنا لا يلبسون خواتم الزوجية، إما عدم اهتمام أو لأسباب أخرى ! فتشجعت وسألتها:

-وماذا عنك أنتِ ؟ ! هل أنتِ متزوجة أو مخطوبة؟! وهزّت رأسها بالنفي .

-وهل أنت ملتزمة ؟!

-وماذا تعني بالالتزام ؟! سألت بخبث أنثوي وإن كنت واثقاً أنها عرفت ما عنيت!

-يعني ملتزمة... ملتزمة...ولم يفتح الله عليّ بإيضاح.

-اطمئن ! لست ملتزمة، ولا أحب أحداً، وليس لي صديق ! وكأنما لتنتقم مني فتردّ لي الكيل كيلين ! قالت:

-إذ لو كنت ملتزمة بأي شكل من الأشكال، لما سمحت لنفسي أن أنطلق معك كما فعلت !

سكتّ ولم أعلق ومرّت ثوان خلتها قروناً ثم قلت:

-لقد بدأت أخاف يا مارثا ! وأحسست فجأة بعاطفة قوية، وأن دموعي على وشك السقوط.

-تخاف ممن ؟! سألت وقد اتسعت حدقتا عينيها !

-أخاف من حبي المجنون لك !إذ كلما أتصور نفسي وحيداً وبدونك، بقية هذا النهار والليل بطوله، ونهار الغد وليله البطيء الثقيل، ثم نهار بعد غد وليله، أشعر برعب مدمر وكأنما إنسان يضع يده على فمي فيخنقني ! إنه شعور مخيف ! قلت صادقاً وقد تملكني شعور بالخوف حقاً !

-ولم لا تطلب أن تراني إذن ؟! قالتها بشيطنة صبيانية وهي تضحك !

-صحيح ! يا لي من مغفل ! لم لم أفكر بذلك ؟! صدقيني أن هذه الفكرة لم تخطر على بالي ! حبك عطّل تفكيري !

-الحب يوقد الذهن ويلهب الخيال ! كنت أنتظر منك أن تطلب لقاءنا، ولكنك لم تفعل ! قالت معاتبة.

-حقاً ! ما أغباني ! ثم فجأة أحسست بالأمان وبانشراح صدري.

-أتمنى لو تقبلين دعوتي على العشاء الليلة ! وبعد أن ضحكت طويلاً ببراءة طفولية ! سألت:

-وهل بعد ما أكلناه قبل ساعة ، نحتاج إلى عشاء؟! وبعد أن نظرت إلى ساعتها أضافت:

-الساعة الآن الخامسة والربع !

-هذا صحيح ! إذن إلى فنجان شاي... إلى فنجان قهوة... إلى صحن من الآيس كريم...أي شيء ! قلت بفرح ممزوج بتوتر أعصاب.

-لا تكن عجولاً ! لقد تحدثنا اليوم طويلاً ! قد تملّ التحدث إليّ ! قالت ولعلها تمتحنني !

-كلما حدثتك أكثر كلما ازددت شوقاً إلى حديثك ! قلت.

-سأهاتفك الليلة، وندردش على التليفون، ونحدد موعداً للقاء غداً نهاراً أو مساء !

-فكرة رائعة وسأظل أحلم بهذه المكالمة حتى أسمع صوتك ! وأمليت عليها رقم هاتفي وأملت عليّ رقم هاتفها.

-سوف لن أتأخر في بيت أصدقائي حتى لا تفوتني مكالمتك ! قلت.

-ألا أستطيع مكالمتك عندهم ؟!

–طبعاً ! طبعاً ! هما سيفرحان كثيراً لو كلمتني في بيتهما ! وأمليت عليها رقم هاتف عائلة روبنسون.

وتذكرت أن السيد روبنسون لم يكن مرتاحاً لهذه الصداقة فاستدركت قائلاً:

–لقد شجعتني الزوجة كثيراً على صداقتك !

–لا شك أنك حدثتها كثيراً عني، ورفعتني إلى منـزلةٍ لا أستحقها. على كل حال اشكرها نيابة عني وبلغها تحياتي الحارة، وأني تواقة للقائها ! يجب أن أسرع ، أحب أن أجلس مع بقية أفراد عائلتنا على مائدة العشاء ولو أنني لست بجائعة !

–دعيني أوصلك إلى سيارتك، فهذا يمدد فترة بقائنا معاً! قلت وقد بدأت أسير باتجاهها.

–أحبّ ذلك كثيراً، ولكن إن فعلت هذا فسيسرقنا الوقت بالكلام، وقد لا أعود إلى البيت قبل العاشرة ! إلى اللقاء. قالت ذلك وأعطتني ظهرها وحثّت خطاها نحو مواقف سيارات الطلاب.

وبقيت واقفاً أحدّق بها وأنظر إليها نظرات طويلة... عميقة... بتصوف... بتعبد... بتهجد؛ شاكراً المبدع الأعظم، الذي أعطانا البرهان الناصع على عظمة إبداعه وروعة فنه، بأن خلق فسوى لنا معجزة فنية نادرة، كمارثا كارلنقتون...! فحتى مشيتها تدل على تألقها وكبريائها، وكذلك خطواتها تعبّر عن رقتها ونعومتها...!

كنت آملُ أن تلتفت خلفها ولو للحظة، لأسعد بنظرة من عينيها أوابتسامة من شفتيها، ولكنها سامحها الله لم تفعل، وظلّت سائرة حتى غيّبتها إحدى العمارات الشاهقة !

* * * * *

الفصل الثامن

كنت قد خرجت لتوي من الحمام عندما رنّ جرس الهاتف في شقتي، وكانت المتكلمة شيلا روبنسون ! لقد أعلمتني بأن الطعام سيكون جاهزاً خلال عشر دقائق، وأنهما سيتناولان العشاء في أقلّ من نصف ساعة، وأن عليّ أن أسرع الخطى قبل أن يبرد الطعام ! شكرتها واعتذرت لها عن عدم قبول الدعوة حيث إنني أكلت قبل ساعتين فقط، فليتفضلا وليتناولا عشاءهما بالهناء؛ ولكنني سأشاركهما بتناول الحلوى؛ كما أعلمتها بأن عندي لها أخباراً كثيرة، سارّة وممتعة عن مارثا؛ فطلبت إليّ أن لا أتأخر حيث أنها جد تواقة لسماع هذه الأخبار بالتفصيل!

اعتذر السيد روبنسون بتركي وشيلا لوحدنا، ننقل إلى المطبخ ما على طاولة الطعام من صحون وطناجر وبقايا أكل، واستأذن بالذهاب إلى مكتبه، لأن عنده، كما أعلمنا، بعض الأوراق المهمة والتي يجب أن ينتهي منها قبل ذهابه إلى الفراش ! لم أخبر شيلا كثيراً عن مقابلتي لمارثا أمام زوجها، وإن كانت هي قد لاحقتني بأسئلتها المتعددة ! لقد لاحظت أنه لا يحب سماع أخبارها، ولا يطيق حتى سماع اسمها؛ ولكنه ما كاد يغادرنا حتى بدأت أقص عليها كل شيء وبالتفصيل الدقيق؛ فأمضينا طيلة وقت النقل والتنظيف ووضع الصحون في الجلاية الكهربائية، وأنا أحدثها عن كل شيء وأجيب عن أسئلتها !

كانت الساعة تمام التاسعة والنصف، وكنت وشيلا مسترخيين فوق كنبتين متقابلتين وأمام كل منا فنجان قهوته، نواصل حديثنا عن مارثا، عندما رنّ جرس الهاتف، فتناولت المرأة السماعة، ففهمت من الحديث أن التي على الخط هي مارثا، حيث سمعت شيلا ترحب بها بحرارة وتعلمها بأنها هي وزوجها سعيدان جداً لتعرفي عليها ، إذ كان يقلقهما، بعض الشيء، عدم اتخاذي صديقة، كبقية خلق الله !

لقد لمت شيلا أول الأمر لضمّ اسم زوجها معها بالمسرّة لهذه الصداقة الجديدة، ولكنني بعد أن تمعنت بالأمر أدركت أنه ليس من اللياقة ولا من حسن الذوق أن لا تشمل زوجها معها بهذه الفرحة ! ولقد فهمت أيضاً من حديث المرأتين أن مارثا أعلمتها عن سعادتي لصداقتهما وأنني أعتبرهما كأخوين لي، وكيف أنني أعتبر أن بيتهما كبيتي؛ وسمعت شيلا تعتذر لمارثا عن قبول دعوةٍ هي وزوجها مساء الغد لحضور مسرحية في

هوليوود، لأنهما مدعوان في بيت مدير البنك مع مجموعة من الموظفين؛ ولكنها تتمنى لو أن مارثا تقبل دعوتهما إلى العشاء في بيتهما مساء بعد غد للتعرف عليها ! ومرّت فترة ليست بالقصيرة والمرأتان تتحدثان بأمور عادية؛ بعدها ناولتني شيلا السماعة وانسحبت من الصالة حيث انضمّت إلى زوجها وأغلقت الباب خلفها.

لا شك أن الزوجة تريدني أن أتكلم مع مارثا بحرية وأن لا أشعر بالحرج أمامها !

-كم كان لطيفاً منك أن تزعجي نفسك وتكلمينني ! قلت لمارثا بعد أن تبادلنا التحيات.

-يبدو لي أن السيدة روبنسون وزوجها إنسانان عظيمان؛ لا شك بأنك محظوظ بصداقتك لهما!قالت مارثا وهي تضحك.

-ألم أقل لك إنني محظوظ جداً، وأن والدتي تدعو الله لي، بأن يكون كل أصدقائي أناساً طيبين؟! وهل هناك من هو أسعد مني على وجه الأرض، وصديقتي مارثا كارلنقتون؟! قلت وأنا أشاركها الضحك.

-بروفيسور دهشان! إنك تحرجني بمدحك المتواصل لي! أنت تمتدحني كثيراً!

-ومتى ستلغين الرسميات بيننا، فتناديني سهيل فقط؟!

-من الصعب عليّ أن أفعل ذلك وأنت أستاذي !

-وإن رجوتك أن تفعلي ذلك ؟!

-سأحاول !

-حاولي !

-نعم يا بروفيسور دهشان! وتضاحكت... أعني يا بروفيسور سهيل!.

-آه ما أحلاها تخرج من فمك ! إنها والله تطربني أكثر من موسيقى بتهوفن ! أرجوكِ ألغي كلمة بروفيسور؛ سهيل فقط !

-سأفعل ! ولكن لا تضغط عليّ، أرجوك !

-على راحتك! قلت.

-إنني تواقة جداً للقاء السيد والسيدة روبنسون، وآسفة أنهما لم يستطيعا مرافقتنا غداً مساءً. قالت.

-إنهما أيضاً تواقان للتعرف عليك! بالمناسبة، وهل أنا مدعو أيضاً ! سألتها،فانفجرت تضحك.

-ما أغباني ! لقد نسيت! أحبّ أن أدعوك غداً مساء إلى تمثيلية في لوس أنجلوس اسمها "Phantom of the Opera" فهل تقبل الدعوة أوّلاً؟ ثم هل تحب مشاهدة التمثيليات أم تحب عمل شيءٍ آخر؟!

-أحب عمل شيءٍ آخر؛ وهو أن أحملك بين يدي، وأطير بك ونذهب إلى صحراء حفر الباطن، وهناك نبني خيمة من شعر الماعز نعيش بها وحيدين، ونأكل خبز الصاج، ونشرب حليب النوق!

-ما أوسع خيالك، ويا لك من رومانسي! ولكن، ألم تجد لنا مكاناً خيراً من هذا المكان المنعزل والبعيد ؟! قالت وهي تتضاحك.

-لا تغضبي ! فما رأيك ببيت بين الأشجار الكثيفة في مدينة "كرميل باي ذي سي" ؟!

-وهل تعرف تلك المدينة ؟! إنها رائعة... ساحرة...! سألت بفرحة واستغراب شديدين.

-إنها المدينة التي أحج إليها، كلما هزني الشوق للحجّ إلى الطبيعة ! إن واحداً من أحلامي الكثيرة هو أن أسكنها لعام أو عامين على الأقل، أقضيهما لا أعمل شيئاً إلا التعبّد في محراب الخالق، وكتابة قصة حياتي !

-حلم ما أسهل تحقيقه !! قالت وقد بدت لهجتها جدّية معبّرة ! ثم أكملت:

-أنا أستطيع... ولكنها توقفت عن الكلام.

-هذا ما تظنين! قلت وإن كنت أنا نفسي لا أعلم ما عنيت أنا، ولا أعلم ما عنت هي، ولا لماذا لم تكمل جملتها ولا ماذا كانت تريد أن تقول؛ ولا حتى لماذا قلت جملتي المبتورة هذه ؟! ومرّت لحظات صمت قطعتها بقولي:

-إن أيّ مكان معك هو جنة بالنسبة لي!!

-شكراً ! شكراً جزيلاً! إنني أشعر بالفخر وأحسّ بالزهو؛ يا أستاذي سهيل!

-رائع ! رائع ! وهل أفهم من ذلك أنك قبلت دعوتي، بالهرب معي ؟! لم تُجب على سؤالي وإنما قالت:

-بالمناسبة، والداي وأخي وزوجته يُسملون عليك؛ ولقد أعلمتهم بكل ما دار بيننا هذا اليوم من حديث، فسرّوا جداً ! ويتشوقون للقائك !

-وهل أخبرتهم بأنني سآتي إلى بيتكم في إحدى الليالي القمرية راكباً حصاناً أبيضَ مصنوعاً من الغمام، وأنني سأخطفك وأذهب بك إلى الصحراء أو إلى بلاد الواق واق ؟!

ضحكت بسعادة وصميمية وببراءة طفولية وقالت:

-إلا هذا لم أخبرهم به !

-وهل قلت لهم بأن ذرة رمل من صحراء الوطن العربي الكبير، لن يبادلها هذا البدوي التائه المشرّد، بذهب العالم وثروات الأرض ؟! قلتها بفخر جاهلي، وحمق قبلي !

ندمت على مقولتي وأحسست برداءة ذوقي وصبيانيتي، فتمنيت لو لم أتفوّه بجملتي المتخلفة، فهذا قول ليس مكانه هنا؛ ولكنني أوجدت العذر لنفسي، أمام نفسي، حتى لا تفقد نفسي ماء الوجه، وعللت ذلك بأن حب الوطن عندي هو حبي الأول والأخير، وهو حبي الأساسي والثابت والدائم والوحيد؛ وأن حب المرأة... أية امرأة، ما عدا والدتي وأخواتي، هو حب عابر، تفرضه أوضاع عاطفية طارئة، في أزمان معينة وظروف محددة؛ ولكن مارتا لم تعلق، وبقيتْ صامتة فقلت صادقاً:

-هل تعرفين يا مارتا ماذا أتمنى الآن في هذه اللحظة، من أعماق قلبي وبجميع حواسي ووجداني وبكل طاقاتي ؟ قلتها بصوت عارم بالشوق مشحون بالوجد مثقل بالحنين !

-اللهم استر ! ماذا تتمنى ؟! وصلت ضحكتها إلى أذني كالنسيم المضمّخ بالعطور فدغدغت عواطفي وأطربت مشاعري !

-أتمنى لو أستطيع أن أحلق معك في أجواء السماء العلى، ونعيش هناك في كوخ متواضع محاط بالأزهار والورود ؛ وحيدين بين الغيوم وبين تجمعات الضباب... فقط أظل أتطلع في عينيك وأتعبد في محراب حبك وجمالك، أصلّي للخالق الأعظم، شكراً له وتمجيداً؛ أسبّح بحمده، لأنه تكرم ومنحني إياك... أعني أنعم عليّ بصداقتك !

-إنك لرومانسي هائل ! إن هذا يسعدني كثيراً، خصوصاً وأن كل ما يحيط بنا ماديٌّ صرفٌ، تكاد الروحيات تنعدم به، إلا قليلاً هنا وقليلاً هناك، لأحسّ أنني أحلّق معك في تصوّفك وأعيش لحظات تهويماتك ورومانسيتك !! قالت وهي تضحك، ثم أضافت:

-يخيل للذي لا يعرفك جيداً، بأنك تعيش فقط في عالم الأحلام والخيال والتصوف ؛ وأنك لا تنتسب إلى سكان هذا الكوكب لا بكثير ولا بقليل !!

-لعلّ حديث الرومانسية والصوفية، والعيش مع الخيالات والأحلام، سببه الكبت العاطفي والقحط الفكري، والحرمان الطويل الطويل من استنشاق نسائم الحرية، ثم القهر الاجتماعي والسياسي!! قلت.

-إذا كانت هذه السلبيات تعطينا كل هذه الروائع، فلنشجع السلبيات ولنباركها ! قالت من بين ضحكاتها.

-فلنفعل ما زالت تسعدك ! قلت مازحاً وقد شاركتها ضحكتها.

-وهل تعتقدين أن هذا النمط من التفكير والتصرف هي روائع ؟!

-إنها ليست روائع فقط ! إنها روائع الروائع!قالت بحماس وجدّيّة !

-إن أقوالك تشجعني على أن أتمادى في جنوني وشطحاتي ! قلت.

-إن ما تسميه جنوناً يشعرني حقاً أنني أعيش في عالم جميل رائع !! ينقلني إلى ضباب سحري أتمنى لو أظل به إلى الأبد ! قالت بطريقة حالمة.

-ما زال جنوني لا يضايقك ويسعدك فلن أتوقف عنه !

-أرجوك! أنا لم أسمع في حياتي كلها من إنسان مثل هذا الكلام ولا بجماله ! قالت كأنما تتوسل.

-ولكن الكتب مملوءة به ! قلت.

-لم يقله أحد لي ! قالت.

-ولكن صدقيني أنني أعني ما أقول؛ ولست أقوله لمجرد القول فقط !

-أنا أعرف ذلك ! صدقني !أشعر أنه يخرج من أعماق قلبك، وأشم فيه رائحة الصدق، ولهذا يسعدني كثيراً جداً! قلت مدافعاً !

-بروفيسور سهيل! قالت مارثا فانتشلتني من سرحاني ثم تابعت:

. ـ إنني واثقة الآن بأنك إنسان ذو مبادئ وعقيدة ثابتة وقوية لا تزعزعهما أمور عابرة أو تغييرات تحدث؛ وإنسان مثلك تستطيع الواحدة منا أن تثق بمحبته وإخلاصه!

-شكراً يا مارثا على هذه الثقة التي أعتز بها وأفتخر! ثم ضحكتُ وقلت:

-من يدري! فقد تغيرين رأيك يوماً، وتوافقينني على معتقداتي!

-نعم، من يدري؟! قالت بحماس. ثم فجأة غيّرت مجرى الحديث.

-بروفيسور سهيل! جاءني تليفون، فهل لك أن تنتظر لحظة حتى أجيبه؟

-تفضلي تفضلي! قلت وانتظرت؛ عادت بعد قليل وهي تضحك.

-إنه والدي؛ يتساءل عن سبب تأخري عن موعده ! إنه لا يعرف أن ينام إلا إذا قرأت أنا أو قرأت زوجة أخي، له بعض الأشعار الرومانسية العاطفية، والليلة هو دوري !

-يبدو أن والدك إنسان عاطفي جداً ومغرق في الرومانسية ! قلت وأنا أقهقه !

-جداً! قالت وهي تضحك أيضاً وأضافت:

-وإذا كنا نحن الاثنتين خارج البيت، فأمي تقوم بالمهمة !

-وماذا عن أخيك ؟!

واستغرقت في ضحك أشد.

-إن والدي لا يحب إلا قراءة النساء... فأصواتهن، كما يقول دائماً، بها سحر معطّر لا يتوفر في أصوات الرجال.

-إنه ليس الرجل الوحيد الذي يعتقد هذا؛ فمثله كثيرون ! ومن هو المعتوه الأبله الذي يستمع لقراءة أشعار رومانسية من رجل خشن، صوته يطرد الرومانسية ويرعب العاطفة، إذا كان يستطيع سماعه من حسناء فاتنة ؟!

-إذن أنت توافقه ؟! سألت.

-وبدون تردد ! أجبت.

-سأعلمه ذلك ! وأظنه سيفرح كثيراً ! إنه عادة يضع نفسه بالفراش في حوالي الساعة العاشرة، وواحدة منا نحن النساء تقرأ له لمدة عشر دقائق أو ربع ساعة، بعدها يستغرق في نوم عميق !

-ما أسعده من رجل !

-أوافقك ! إنه ينام بعدها كطفل !

هممت أن أستفسر عن عمره، ولكنها عفتني من السؤال، حيث تابعت حديثها:

-إنه في الثامنة والخمسين من عمره.

-إنه سن الشباب ! ولو كان في الوطن لربما طالب بالزواج بثانية، خصوصاً إذا كان وضعه المادي يساعد على إعالة زوجة أخرى !

-ضحكت ولم تعلق؛ ثم أضافت بعد لحظات: أعطني عنوان شقتك، أم هل تريدني أن آخذك من بيت السيد والسيدة روبنسون ؟!

-لا، هما مدعوان غداً ! سأنتظرك في شقتي، فقط اضربي بوق السيارة، وأنا سأنزل إليك. ثم أضفت:

-وهل تعتقدين أنني أستطيع أن أصبر على عدم رؤيتك، حتى الساعة السادسة مساء الغد ؟! إن هذا وقت طويل !

-عوّد نفسك ! تصبح على خير ! قالت وهي تتضاحك... ثم أغلقت السماعة !

* * * * *

حالما أغلقت سماعة الهاتف حتى فتح باب المكتب وأقبلت شيلا وعلى شفتيها ابتسامة كبيرة ؟ ولكنني لاحظت بأنها لم تكن ابتسامة صافية جذلي كعادتها، وإنما يعتريها بعض الكآبة والألم، وفيها شيء من التصنع والمبالغة !

–كان لطيفا من مارثا أن تدعونا لنذهب معكما إلى المسرح ؛ ولولا أن عندنا ارتباط عشاء لحاولت إقناع جيمس بقبول الدعوة. قالتها بنغمة فتور ينقصها الحماس، بعد أن جلست على الكنبة المقابلة لمقعدي.

–ليتكما تستطيعان الذهاب ! لا شك أن ذلك سيسعدني كثيراً؛ أولاً، لأن متعتي ستتضاعف بأن نكون أربعتنا معاً؛ وثانياً إذ ربما اجتماع فكتور بمارثا وحديثه معها، قد يخفف من كراهيته لها ، أو لنقل يغير من موقفه المتحيز والمتشدد ضدها ! قلت.

–إن جيمس كما أفهمني، وقد أكد لي هذا مراراً، بأنه لا يكره مارثا إطلاقاً، وإنه ليس متحيزاً ضدها؛ إذ كيف يكره إنسانة ويتحيز ضدها وهو لم يرها ولم يكلمها، بل ولم يعرف عنها شيئاً ؟! هو فقط يحبك كثيراً ويخاف عليك من الصدمة !

–لماذا هو متشائم ومصرّ على أن سوءاً لا بد وأن يحدث ؟! عندنا في الأحاديث يقولون: " تفاءلوا بالخير تجدوه!" فلم هو لا يتوقع حدوث الخير بدلاً من الشر ؟! سألت باستغراب وحيرة.

–على كل حال لا تقلق. أنا واثقة بأنه سيغير رأيه، وأنه سيحب مارثا ويعرف كم هي عظيمة بعد أن يقابلها ويتحدث إليها. لقد أحسست من كلامها بأنها فتاة لطيفة ورقيقة، وأنها مؤدبة وناضجة فكرياً.

–نعم، إنها فتاة رائعة؛ إذ لا يستطيع أيّ إنسان بعد أن يجلس إليها ويتحدث معها، إلاّ أن يحبها ويحترمها؛ هذا بالإضافة إلى أنها كريمة الأخلاق وأصيلة المحتد... أنها دافئة جداً جداً ! قلت بسعادة وحماس.

–لقد حدثتني كثيراً عن صفاتها ومزاياها، ولكنك لم تحدثني عن جمالها ! فهل هي جميلة حقاً ؟! وما رأيك أنت بجمالها ؟! سألت باهتمام زائد.

لا أدري، لماذا اعترتني في تلك اللحظة موجة من الحزن الشديد، واستبدت بعواطفي زوبعة من الهم الثقيل؛ فقد صوّر لي إحساسي بأن

شيلا تشاطر زوجها شكوكه وتحفظاته، وأنها هي أيضاً ليست سعيدة لمعرفتي بمارثا، وإن كانت قد شجعتني وأبدت سرورها، بادئ ذي بدء؛ وأنها هي كذلك تخاف من حدوث سوء لي ! فقلت:

-إنني أعتبر نفسي إنساناً مؤمناً، وأنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، سواء خيراً أو شرّاً ! ولكن قبل أن أصفها لكِ، فإنني أريدك أن تتأكدي يا شيلا، بأنه ليس هناك في الكون كله، في اعتقادي ونظري؛ من تضاهيك جمالاً... ولا أخلاقاً... ولا رقة... ولا أنوثة... ولا نعومة.. ولا كرماً... ولا طيبة قلب... ولا نقاوة سريرة... ولا... ولا... ولا... إلخ... الخ ! إنني وبعد أن قابلتكِ يا شيلا ووقعت بحبك كأخت، ازدادت مساحات الفرح في قلبي، واتسعت آفاق الأمل من حولي، واضيقّت دروب التعاسة واليأس في نفسي! إن حبك بحر عميق كبير... محيط هادر عظيم... أسبح به...! أهرب إليك... إلى دفئك... إلى حنانك، كلما تضايقني حقارات الناس ونذالاتهم... تفاهاتهم... قسوتهم... غدرهم... ظلمهم... خداعهم... وكذلك خياناتهم للوطن ! أنا مسحوق فيك يا شيلا، متيم بهواك؛ يدفعني إليك الضياع والحرمان، وكذلك الجوع والظمأ؛ ويشدني إليك الحنان والدفء، ثم السلام والأمان ! صدقيني يا شيلا، إن بي رغبة جامحة... مجنونة... أن أهرب إلى داخلك... أن أتلاشى في ذاتك... أن أنسحق في كينونتك...! فبالله عليك دعيني... اسمحي لي... تكرّمي عليّ... أن أختبئ في داخلك... أن أبقى هناك، ولا أخرج منك...!

كنت طيلة هذا الوقت جالساً قبالة شيلا، أحدّق بوجهها وأتابع نظراتها، متأملاً ومفكراً، ما أبدع الخالق سبحانه وتعالى والشكر له، من جمال وجهٍ ودقة أنف وسحر عينين، ونصاعة بشرة.

كانت هي الأخرى، تحدق بوجهي، صامتة تصغي لما أقول دون أن تأتي بنأمة ! كنت أجلس في حضرتها، تماماً كما يجلس الوثني في حضرة صنمه، يبثّه لواعج شوقه وهيامه، ويشكو إليه صدّه وهجرانه؛ عندما حوّلت وجهها إلى اليمين متظاهرة بالتطلع إلى صورة لها ولزوجها في ملابس الزفاف، معلقة على الجدران، محاولة أن تخفي دمعتين كبيرتين سقطتا من عينيها، تظاهرتُ بأنني لم أرهما !

نظرت إليّ ولمدة ليست بالقصيرة، وكأنما تريد أن تخرق جمجمتي لتقرأ ما بداخها، ثم سألتني فجأةً:

-ما حقيقة شعورك نحو مارثا يا سهيل ؟! ألقت شيلا سؤالها عليّ بحذر شديد وكأنما كانت تزن كلماتها قبل ان تخرج من فمها !

-حبذا لو اعرف ! صدقيني، لو كنت اعرف حقيقة مشاعري لأخبرتك بها ! لقد كنت انا الآخر ازن كلماتي وافكر بها.

-اعني كم مقدار حبك لها ؟ ! هل هو حب عابر، أم قويٌّ مثير ؟!

-ان قلت لكِ انني مجنون بحبها، فصدقيني؛ وان قلت لك انني اكرهها حتى النخاع، فصدقيني ايضا !

-وكيف تفسر ذلك ؟! سألت و هي تحدق بي مذهولةً !

-لا اعرف ! صدقيني إنني لا اعرف؛ وهذا ما يعذبني كثيرا ! انني عندما لا تكون معي افتقدها حتى الجنون، واشعر بان حبي لها يزداد ويقوى ويصبح اعنف واعنف مما هو عليه؛ ثم اشعر عندما تكلمني انها تملا قلبي وتروي ظمائي وتشبع أحاسيسي ومشاعري؛ أما عندما تقوم احيانا ببعض الأقوال أو التصرفات فان هذا يجعلها تتعاظم وتكبر بعينيّ !

-هذا شعور جميل ورائع ! قالت.

-اننا نتنازل عن حياتنا في سبيل من نحب! صدقني ياسهيل! انني مستعدة ان القي بنفسي من فوق نا السحاب، لو انني اعرف انني بفعلتي هذه، اسعد جيمس!

-ولكن جيمس هو زوجك، وانتِ زوجته، وبينكما رباط مقدس، تعاهدتما عليه امام الله !

-الرباط المقدس هو الحب، وليس عقد الزواج ! انني أعني أنه ليست الورقة التي تكتب وما يتبعها من مراسيم واحتفالات! إنّ حبي لجيمس لم يَزدَدْ زنة حبة خردلٍ واحدة منذ أن تزوجنا ! إنني ومنذ وعيت نفسي وانا احب جيمس، وعقد الزواج لم يزد في هذا الحب قيد أنملة !

كلام شيلا اذهلني، فلقد استغربت ان تخرج هذه الكلمات الغريبة من بين شفتي ابنة سادن الكنيسة، والتي من المفروض ان تؤمن بعقد الزواج كرباط مقدس وليس الحب !

-ولكنكِ منحتهِ كل هذا الحب وانتِ مدركةً مسبقاً، انه سيتزوجك يوما ! قلت بحماس واصرار !

-ابداً ! ابداً ! لقد احببت جيمس عندما ادركت بكل مشاعري، بانه يشاطرني نفس الحب، وقد ادركت ذلك بغريزة امرأة واعية ومن خلال معاملته الطيبة لي ! قالت وهي تصرُّ على مقاطع الكلمات؛ ثم أضافت:

- إنه يعمل بكل طاقاته من اجل ان أكون سعيدة، هذا بالاضافة الى احترامه الشديد لعواطفي ومشاعري ! انني لا أقول ان حبي الشديد له بسبب تحقيقه لرغباتي ومتطلباتي، لانها جميعها متطلبات بسيطة وسهلة التحقيق ! إنني أقول ذلك لأنني لا اذكر أنني طلبت منه شئيا إلّا وحققه لي، مهما كانت الصعوبة في تحقيقه ! قالت ذلك باصرار وحماس وعناد !

-انا لا اشك اطلاقا، ولا للحظة واحدة، بحب مارثا لي؛ ولكن حبها هذا يخيفني بل ويرعبني !

-وما الذي يخيفك ويرعبك ؟!

-أقول لك بكل صدقٍ وإخلاص؛ بأن مارثا ليست امرأة ! عفوا؛ اعني ليست امرأة عادية؛ إنها معجزة من معجزات هذا العصر! لعلي لا ابالغ ان قلت لك؛ ان مارثا تعرف اكثر مما يعرفه جميع أستاذتها مجتمعين ! انها بحر من المعرفة بل محيط من الذكاء والنبوغ ! انا لم اناقشها بموضوع إلّا ووجدتها تفهمه جيدا، بل احيانا تكون تعرفه اكثر مني، أنا أستاذها !

-الا تعتقد انك تبالغ وان حبك الجامح لها قد صور لك ذلك ؟!

-ليت ما تقولينه حقيقة يا أختي؛ ولكن للأسف الشديد، هذا هو الواقع ! لو تعرفينها كما اعرفها انا، لقلت بانني لم اوفها حقها من الثناء !

-اذن تزوجها ياخي، فأنت مثقف و ذكيّ وتحب المثقفات والذكيّات؛ وهي جميلة وانت تحب الجميلات؛ وهذه فرصتك فلا تضيعها من بين يديك ! وبعد ان ضَحكتْ بخبث أنثوي، اضافت:

-وهي كما فهمت غنية جدا جدا !

-والديها هم الاغنياء وليست هي ! قلت.

-ولكن بالنهاية ما يملكه والديها ينتقل اليها !

لم اجب وصرت افكر، ولكنها قطعت عليّ حبل افكاري قائلة:

-ربما تكون خائفا من الزواج !

-ولما لا تقولين بأنني لست كفؤاً للزواج ؟!

-إن هذا غير صحيح !

-قد اكون انانيا، لا احب أن اتحمل مسؤولية زوجة واولاد ! قلت.

-أنتَ بحر من العطاء ياسهيل ! صدقني انك لا تعرف من الانانية الا اسمها، ولا تسألني كيف عرفت ذلك ! إنني امرأة واعرف الرجل الكريم من البخيل والاناني من المضحّي، والمتفاني من اللئيم ! أنت كريم ماديا وعاطفيا ! أنت ياسهيل، كما سبق وان اعلمتني، سرت في ادغال الحياة ومتاهاتها وحيداً، وانحرمت في طفولتك كثيراً ! إنّ لديك خيال جامح؛ مطالعات كثيره منذ الصغر؛ ضغوط اجتماعية وسياسية؛ انعدام الحرية السياسية والاجتماعية؛ وآمال واسعة واماني واحلام عظيمة ! كل هذه اختلطت عليك فلم تعد تميز بين الخير والشر والصح والخطأ ! قالت وهي تصرُّ على مقاطع الكلمات !

-قد تكونين على حق ! نعم، قد تكونين ! قلت وأنا أهزُّ رأسي إلى أعلى وأسفل !

مرت فترة صمت ليست بالقصيرة وشيلا تحدّق بالصورة، عندما حوّلت عينيها باتجاهي، فلاحظت أنهما كانتا حمراوتين كجمرتين متقدتين، مما أحرق دمي وأفقدني صوابي؛ قالت:

-تباً للأقدار التي تتحكم بمصائرنا وترسم خطانا ! كفى... كفى... كفى...! قالت شيلا ذلك بصوت غاضب مقاطعة إياي، ونهضت مسرعة ودخلت المطبخ ! أما أنا فقد نقز قلبي، وتجمدت الكلمات فوق لساني؛ إذ أصابني حزن شديد وضيق ممزق، وأنا أرى شيلا غاضبة ولأول مرة طيلة فترة صداقتنا !

على الرغم من أنني فكرت طويلاً وعميقاً علّني أعرف السبب الذي أثارها وأغضبها، إلا أنني لم أستطع التوصل إلى قرار حاسم، فعزمت أن أترك الأمر للأيام القادمة علّها تكشف السبب !

لم تغب شيلا طويلاً في المطبخ، إذ سرعان ما عادت وهي تحمل في يديها كأسين مملوءتين بالويسكي، ناولتني أحدهما وشربت هي نصف كأسها في جرعة واحدة !

-آسفة للمقاطعة؛ فقد شعرت فجأة بأنني جد عطشى إلى كأس من الويسكي ! قالت بعد أن رمت بنفسها فوق الكنبة !

-تستطيع الآن أن تكمل حديثك عن مارثا... أعني وصفك لجمالها ! قالتها بعصبية ظاهرة لم أعهدها منها !

-أرى أنه من الأفضل أن نتحدث في أمور أخرى أكثر أهمية واستمتاعاً من الحديث عن مارثا ! قلت بعد أن رشفت جرعة كبيرة من كأس الويسكي.

ولما أصرت عليّ بأن أتابع وصفي لمارثا، قلت:

-إن مارثا ممشوقة القوام، طويلة القامة، هيفاء ونحيفة؛ شقراء الشعر، فإنك عندما تنظرين إليه تشعرين وكأنها حزمة من ضوء القمر، وأنها شلالٌ من نهر عذب دافق ! زرقاء العينين، عندما تنظر إليك تشعرين بالدفء والمحبة والحنان، وتحسين بالراحة والأمان والاطمئنان ! وتزيل من قلبك وروحك وكل كيانك، جميع مشاعر الخوف والقلق والإحباط، وتتفيأ روحك بالقناعة والرضا والسلام؛ إنها طويلة الرقبة، وكأنما خلقت من الأبنوس الخالص؛ واسعة الصدر، تفكرينه لرحابته وانسيابه وكأنما هو ميدان لسباق الخيل؛ دقيقة الأنف فتظنين أنفها وكأنما هو زهرة أقحوان؛ رقيقة الشفتين، تتمنين لو تستطيعين أن تبني لك خيمة فوقهما تسكنينها حتى لا تضطري لفراقهما ! إن مارثا إذا ما تحدثت إليك، يغمر قلبك فرح طفولي بنفسجي، وتهز أعطافك نشوة وردية مخملية، وتعانق روحك بسمة عذرية... إلهية؛ فيرقص جسمك رقصة درويش أحرقه الحنين إلى صوفيته، فيتمايل ويهتز ويدور، ويظل يتمايل ويهتز ويدور، بسرعة الطاحونة الهوائية، ثم يسقط في غيبوبة تهويمية ! إن سماع صوتها يغمر النفس والقلب والروح ببحور من السعادة والنشوة ! إن مارثا امرأة عذبة، بديعة التكوين الجسدي، رشيقة الحركة، صاحبة ذوق جمالي رفيع؛ أنيقة الملبس ! إنها فتاة متفجرة الأنوثة، متقدة العاطفة، جياشة المشاعر، تتمتع بذهن ناضج متقد، وبإحساس شفاف مرهف، زاخرة بالتأملات العميقة، إنها في تفجر دائم، ورمز كاسح للنضج والرومانسية ! إن كل ذرة في جسمها تشتعل رغبة، وكل نأمة في روحها تصرخ بأن خذني إلى أحضانك... ! إنها...

وهنا دَخلتْ الى المطبخ ثانيةً و خرجت منه، وهي تحمل كأساً مملوءً بالويسكي ! عادت بعدها وطلبت إليّ، ثانية وباصرار، أن أتابع الحديث عن مارثا، ولكنني رجوتها هذه المرة بأن نتحدث بمواضيع أكثر أهمية واستمتاعاً من حديثنا عن مارثا !

-وهل هناك ما هو أكثر أهمية واستمتاعاً من الحديث عن حبيبة المستقبل ؟! قالت وقد لمستُ أن بلهجتها شيئاً من المرارة والإحباط ! وهنا شعرت بأن حزني قد تعمق وقسى، وأن ألمي قد كبر واشتد، وأن همّي قد تعاظم واستشرى؛ إذ أحسست بضيق في التنفس، وأنني أكاد

أختنق من شدة القهر والقلق معاً، فقلت بعد أن جمعت فلول نفسي الممزقة، ولكن بصوت غاضب هادر!

–اسمعي يا شيلا ! إنني بعد أن قابلتك ووقعت بحبك كأخت، لم أفكر قط بأن أحب يوماً امرأة سواك، إذ إن حبك قد ملأ علي دنياي، وأضاء مصابيح الفرح والأمل معاً؛ وكل زاوية من زوايا وجداني؛ ولكنني وبسبب تشجيعك وإصرارك وتزيينك الأمور لي، فقد سمحت لنفسي أن أحب امرأة سواك، وبحب يختلف كثيراً... كثيراً جداً ، عن حبي لك ! ولكنني أراكِ الآن تتضايقين وتحزنين عندما وجدت المرأة التي أعتقد أنها تحبني ! والآن، أريدك أن تعلمي أنك أنت حبيبة الحاضر والمستقبل... بل أنت بالنسبة لي حبيبة كل الأزمان ! إنك أنت الهواء الذي أتنفس، والسراج الذي ينير لي طريقي ! قلت بحزم ممزوج بالقسوة استغربته أنا من نفسي !

–شكراً لهذا الثناء ! أنا أعرف أن هذا هو رأيك بي؛ ولكنني أحب منك أن تصف لي مارثا، كما تتراءى لك ! قالتها بلهجة آمرة حازمة حيرتني، وإن كانت في نفس الوقت قد أسعدتني !

ـ فهل هناك حديث يسعد القلب وينعش الروح، أكثر من التحدث عمن نحب ؟! كما أنني لم أنزعج ولم أتضايق، ولكنني أخاف عليك من هذا الحب ! قالت بضعف وبلهجة حزينة منكسرة !

–إذن ، أنت تشاركين جيمس رأيه ؟! سألتُ.

لم تجب على سؤالي، وإن بقيت تحدّق بوجهي لبعض الوقت.

–ما زلتما متفقين بالرأي، فلا بد وأن تكونا على حق، وأنني أنا المخطئ ! قلت.

–القضية هي ليست قضية مخطئ ومصيب. القضية هي أننا، جيمس وأنا، نخشى عليك من الصدمة العاطفية؛ لأنها إن صادف وحدثت ، فإنك ستحتاج إلى زمن طويل لتنهض منها ! أنت عاطفي وحساس لدرجة أنني لا أذكر أن قابلت أو قرأت عن إنسان مثلك ! وبعد أن صمتت قليلاً تابعت:

–هذا إن قدّر لك أن تشفى منها !

–كلامك أرعبني ! قلت بسخرية ولكن بلهجة جد.

–إنني أتفق مع رأي جيمس، بأنه من الممكن جداً أن يدمّر هذا الحب أحدكما أو كليكما، بسبب الزخم العاطفي المتخزن في داخلك !

هززت رأسي عدة مرات، واستغرقت في تفكير عميق، وصرت أفكر بما قالته شيلا، محاولاً أن أستوعب قولها. إنها هي صاحبة فكرة أن يكون لي صديقة أحبها وتحبني؛ وهي التي فرحت جداً عندما أخبرتها بقصة تعرّفي على مارثا؛ وهي التي شجعتني على حبها والطلب إليَّ أن أدعوها إلى بيتهم لتقابلها هي وجيمس؛ وهي نفسها التي وعدتني بأنها ستقنع زوجها فيغير تفكيره نحو مارثا؛ فما الذي حدث الآن ؟! وهل كانت غير مؤمنة بما قالت لي ؟! وهل هي ضعيفة الشخصية ضحلة التفكير، حتى يستطيع جيمس أن يؤثر عليها فتغير رأيها بهذه السهولة وبهذه السرعة ؟!

نظرت من جديد إلى شيلا، فهالني شحوب وجهها، واصفرار خديها، وكذلك ذبول وجنتيها، واستغربت من نفسي كيف أنني لم ألْحظ هذا وفجأة اعترتني موجة من العرق اللزج الساخن ، بللت كل مساحات جسمي ؛ واستبدت بي عاصفة من الحزن العميق العميق، أحسست بأنها اخترقت العظام مني، واقتلعتني من جذوري...! لم أدر كم مضى من الوقت وإذا بي أشعر بوحدة قاتلة... مجنونة؛ فلم أر إلاّ ودموعي تنزل من مآقيّ مدراراً، أمام نظر شيلا وبصرها، وأن يداً قوية قد أطبقت على فمي تمنعني من التنفس، فبقيت محدّقاً بها ودموعي تواصل نزولها، وأنا أكافح جاهدا لأتخلص من اليد الموضوعة على فمي ! ثم بعدها بقليل أحسست بمسحة صوفية أراحتني كثيراً، ثم نقلتني إلى عالم ضبابي...!!

لا أدري كم مضى من الوقت ونحن صامتان ! وكل واحد منا يحدّق بالآخر بعيون جامدة، عندما بللت شيلا شفتيها برشفة من كأسها، وقالت:

–أنا آسفة جداً جداً أن قاطعتك وأنت تتحدث عن مارثا، وأعدك بأنني سأكون طالبة مطيعة وغير مناكفة، وأنا أستمع لمحاضرة أستاذي العظيم والمبجّل عن حبيبته مارثا !

–قلت لك دعينا من هذا الحديث، على الأقل الليلة ! قلت وأنا أتأمل العينين المسبلتين، وبرجاء ممزوج بالضعف الصوفي؛ وكأنما أتهجد !

–وإن رجوتك وألححت بالرجاء! قالتها بضعف تجاوز ضعفي، وبصوفية فاقت صوفيتي !

-إن مارثا ذات ثقافة عميقة، عالية ورفيعة، وذات خيال خصب جامح خلاّق ! إن لها روحاً شفافة صافية وكأنما خلقت من الغيم المضمخ بعطور أزهار القرنفل والياسمين ! إنها ذات شخصية جذابة، ساحرة وقوية؛ ترغم جليسها على احترامها بل وتقديسها ! إنها طاقات ضخمة من الجد والاجتهاد؛ وشعلة متفجرة من الحركة والنشاط! يحسّ المرء ببساطتها وتواضعها ودماثة أخلاقها، كما يلمس شفافية روحها وأصالة محتدها ! إنك تشعرين بالسعادة والرضا وهي تنظر إليكِ، وتحسين بالحنان والدفء وهي تكلمكِ! وعندما ترسل إليك بسمة، تضيء عيناها ويشرق وجهها... فتحسين وكأنما ترسل لك باقة زهور من الأقحوان والقرنفل والياسمين الذي تحبين، فتجعلك تغرقين في بحور صافية رقراقة من الأنوثة الدافئة ! إن الذكاء والفهم وقوة الشخصية، وكذلك الجرأة والبساطة والشجاعة الأدبية، بالإضافة إلى الإغراء والفتنة... كلها تقطر من نظراتها وحركاتها وبسماتها...! إنها طليقة اللسان، في صوتها رخامة محببة...! إنك وأنت تسمعين إلى كلامها تظنين وكأنما تقرأ لك قصيدة غزل، أو كأنما تستمعين إلى عزف حنون على الكمان ! إنها نار ملتهبة من العواطف المتأججة، وكتلة مضطرمة من الخيال الخصب المتقد...!

-سهيل! أرجوك! قالت شيلا مقاطعة.

-صفني كما وصفت حبيبتك مارثا! ألست أنا أختك التي تحب أيضاً؟! أرجوك! سألت بعاطفة متفجرة، وموجة من الألم والحزن تطل من عينيها؛ وقد أحسست بأنها لا شك كانت تبكي بداخلها، فقلت بشوق ووله متقدين، وقد أحسست بحزن وصل مني النخاع!

-أنت يا شيلا باقة متحركة من الأنوثة والرقة والنعومة... أنت فرحة متوهجة متجددة... أنث محيط من العطاء والمحبة... أنت مثل عود الخيزران، طرية وناعمة؛ ولكنك صعبة الانكسار خشنة؛ يظن من يعرفك أن الذي يتحكم في حياتك ويستبد بتصرفاتك هي عواطفك؛ ولكنه سرعان ما يكتشف أن الذي يقوم بكل ذلك هو عقلك الكبير وتفكيرك السديد وبصيرتك النافذة...! أنتِ يا شيلا مشعل تنيرين الدروب المظلمة لمن حولك ! وهنا غيّرت لغة التخاطب من الشخص الثالث "هو" إلى الشخص المتكلم "أنا "!

-لقد أرسلك الخالق لي يا شيلا، جل وعلا، هدية من عنده، لتعيدي إلى نفسي القلقة... المعذبة... الحائرة اليائسة... الهدوء والأمان والاستقرار؛ ولتزرعي في قلبي الطمأنينة والراحة والسلامة ! أقسم لك بأنني وأنا أكلمك أشعر بموجة عارمة من السعادة الربانية، والتي أحسّ لصفائها وصوفيتها وكأنما أحلّق في ملكوت السماوات العلى، فأجد نفسي وكأنما أتحدث مع الخالق، سبحانه وتعالى، وأنني قد انضممت إلى ملائكته وأسبّح معهم، أحدٌ أحد! أحدٌ أحد ! أحدٌ أحد ! وأظل أفعل ذلك

لساعات وساعات، ودموعي تسفح غزيرة غزيرة، حتى إخالها قد شكلت نهراً مقدساً يجري من أمامي... ! أنتِ يا شيلا واحتي الظليلة في صحراء التيه والضياع، وشجرتي الوارفة في صحاري الفيافي والقفار! أنتِ نهري الخالد الذي أرتوي منه في ليالي الظمأ وأيام الضياع ! أنت مرساتي التي أعبر بها إلى شاطئ الأمان... !

–كفى ! كفى ! اللعنة ! اللعنة ! صاحت شيلا بأعلى صوتها، ثم نهضت على عجل وتوجهت إلى الحمام فدخلته وأغلقت الباب خلفها. وهنا فتح باب المكتب وخرج منه السيد روبنسون مستفسراً عما حدث؛ فأعلمته بأنني كنت أقص على شيلا قصة طفولتي البائسة بعد موت والدي رحمه الله !

ابتسم الزوج ابتسامة لا أعرف كيف أصفها، ولكنني شعرت وكأنما يقول لي بأنني لم أصدقك أيها البدوي القادم إلينا من تخوم حفر الباطن، فسمعته يقول:

ـ لا تنس إن شيلا رقيقة المشاعر، وعاطفية جداً جداً؛ فحاذر من إثارة عواطفها في المستقبل! قال ذلك وعاد إلى مكتبه وأغلق الباب خلفه. أما أنا، فانتظرت جالساً لوحدي ما يقارب العشرة دقائق، ولمّا لم يأت أحد من الزوجين، انسللت خارجاً من البيت وتوجهت إلى بيتي !

لقد أمضيت طيلة الطريق إلى شقتي، وحتى بعد أن وصلتها وعملت لنفسي فنجاناً من القهوة العربية وانتهيت من شربه؛ وأنا ما زلت مرتعاً لهواجس وأفكار، عصفت بي في كل اتجاه وأخذتني كل مأخذ... محاولاً أن أعرف السبب الذي جعل شيلا تتصرف هذا التصرف الصبياني، الأرعن... السخيف... الأهوج... والغريب أيضاً، والذي لم أعهده منها...! إنه ومنذ معرفتي بشيلا، أي منذ أن زرتهم في شقتهم، وهي تتصرف معي تصرفاً رزيناً... عاقلاً... موزوناً ! إنها لم تقل كلمة ولم تعمل عملاً، إلا وينضح بالحكمة ويدل على عقل كبير وسداد رأي ! هل شيلا حقاً تشاركِ زوجها مخاوفه وقلقه، وحبه الشديد لي، من أنني لا بد وأن أصدم عاطفياً بسبب هذا الحب، وأن هذه الصدمة قد تقضي عليّ ؟! لماذا هذا التشاؤم، ولماذا هذا الفأل السيئ ؟! وهل صحيح أن هذا هو ما يخيفهم ويقلقهم ؟! أم أن الحقيقة هي أنهما يخشيان على علاقتنا من الوهن وربما الاضمحلال، حيث إنني سأنصرف عن صداقتهما والاهتمام بهما، إلى حب مارثا وقضاء معظم وقتي معها ؟! أم أن شيلا بدأت تغار من حبي المندفع لمارثا، وأن صداقتنا الروحية قد تضعف، وأن قهوتنا قد تبرد، وأن نبيذنا سيتحول إلى خل، بعد لقاءاتي وخروجي معها ؟! ولكن حبي لشيلا هو حب أخ لأخته... حب أفلاطوني... روحي... تصوفي... وجداني... بينما حبي لمارثا هو حب

رومانسي... حب رجل لامرأة... للجسد والرغبة الجنسية فيه نصيب كبير !

كان دماغي يكاد ينفجر من ضغوط الهواجس وقسوتها، إذ كنت أحياناً أضع رأسي بين يدي، أضغط عليه بعناد وقسوة، وكأنما لأمنعه من أن يتفجر وتتطاير أشلاؤه ! لم يخرجني من دوامة التساؤلات والحيرة إلا صليل رنين الهاتف، وشيلا تسأل عن سبب مغادرتي بيتهم، دون أن أتمنى لهما ليلة سعيدة، كعادتي في كل ليلة !

–أنا آسف لهذا القصور، فلقد كنت أنت تستحمين، وكان جيمس مشغولاً في المكتب؛ ثم كان الوقت متأخراً؛ والأهم من ذلك أنني تذكرت بأنني يجب عليّ أن أكتب رسالة إلى الأهل في الوطن ، قبل أن آوي إلى فراشي ! قلت غير صادق.

–وهل كتبت الرسالة ؟! سألتْ بلهجة شعرت أنها لم تقبل حجّتي !

–نعم، لقد كتبت القسم الأكبر منها، وبعد حوالي نصف ساعة سأكون قد انتهيت من كتابتها كاملة !

–وماذا قلت لوالدتك وأخواتك ؟!

–لم أفهم ما تعنين ؟!

–ألم تقل لهن بأن لك معجبات كثيرات ؟ ! سألتْ، ثم أتبعتها بضحكة مفتعلة.

تجاهلت سؤالها وأجبت:

–لقد قلت لهن بأن أختي الحبيبة شيلا، التي لا أستطيع أن أعيش بعيداً عنها، والتي أشعر بالتعاسة والاختناق إذا مرّ يوم واحد لم أرها أو أكلمها؛ قد بدأت الشكوك تساورها بأن حبي لها قد بدأ يخبو؛ وأن إحداهن قد تستحوذ على عقلي وقلبي وعواطفي، فتحل مكانها ! إنها لم تعرف بأنني لن أستبدل إظفرها بجميع بنات العالم ! ضحكت هذه المرة بصميمية ومن أعماق قلبها، ولم تعلق على ما قلت !

–لقد هاتفتك لأعتذر لك عما بدر مني الليلة ! لا أدري ما الذي حدث لي ! فلقد تصرفت تصرفاً غير طبيعتي، مما سبب لي ألماً وخجلاً شديدين !

-أولاً؛ أنا لا أعرف عن ماذا تتحدثين ! وثانياً؛ لقد أكدت عليك في السابق بأنه يجب أن لا يكون هناك اعتذار بين الأصدقاء الحميمين ، فكيف يكون بين الأخ وأخته- لأن الاعتذار في رأيي ينـزع صفة الصداقة الصادقة الحميمة بين الأحباء ! إنني أكرر ما قلته في السابق، بأنني أحب من أصدقائي أن يقولوا ويفعلوا ما يشعرون بقوله أو فعله، وأن لا يفكروا بأن هناك حسيب ورقيب على ما يفعلون ويقولون ! قلت بصوت جهوري وكأنما أخطب !

-أنت دائماً عظيم ومتألق! قالت.

-وأين جيمس الآن؟ سألت.

-لقد أوينا إلى الفراش قبل نصف ساعة، ولم يستطع كل منا النوم؛ فطلب إليّ أن أنهض لأستفسر منك عن سبب مغادرتك دون إخبارنا، إذ لعلنا عملنا أو قلنا ما يغضبك، ونحن غير مدركين لذلك !

-قولي لأخي جيمس، بأنكما لم تقولا ولم تفعلا إلاّ ما يسرني ويسعدني ، وأن المحبة والدفء اللذين تمنحانهما لي، لن أحصل عليهما في أي مكان من العالم، ما عدا من والدتي وأخواتي وإخواني. صدقيني !

-سأخبره بذلك وسيسرّ كثيراً ! تصبح على خير ! قالت ذلك وأغلقت السماعة.

* * * * *

الفصـــــــــــــــــــــــــــــــــــل التاسع

بعد أن فتحت باب سيارة مارثا ودخلتها وأغلقت الباب خلفي، شعرت وكأنما قد انتقلت إلى عالم آخر أدخله لأول مرة في حياتي... عالمٍ سحريٍّ من الأبهة... والفخامة... والفخفخة... والرفاهية... واستبدت بي عاطفة جياشة، شعرت لعنفها وحميميتها بأنها لامست العظم مني، ولست أدري لماذا دمعت على إثرها عيناي ؟! لقد كان الهواء البارد داخل السيارة مضمّخاً بالعطور الرافهة التي تفرح القلب وتنعش الروح، وتخدّر الأحاسيس، إذ لا شك أنه عبق رائحة العطور التي كانت تتعطر بها مارثا؛ والذي كان هواء التبريد يضاعف من سحرها وروعتها وفاعليتها ! أنا لم أعتد

على هذه الرفاهية الباذخة ! لقد كان روث البهائم و لطع البقر و بول الماعز هي العطور التي نستنشقها و نتعطّر بها أحياناً؛ فسبحان مبدّل الأحوال و سبحان مغيّر الموازين؛ و سبحان موزّع الخيرات و النعم ! سبحانه ... ! سبحانه ... ! سبحان ... !

لقد جعلني هذا الجو الرافه الراغد، أستمتع بأجمل المشاعر وأروع الأحاسيس، إذ نقلني إلى عالم مضمخ بعطر أريج الرتم والدفلى والزعرور، وبعبق أرومة البلوط والبلاّن واللّبيد والزعتر ، التي تغطي شجيراتها ونبتاتها جبال وسهول ووديان مدينتي الصامدة، هناك وراء البحار وخلف المحيطات؛ وكانت عواطفي الجياشة المندفعة والمتدفقة تتلاطم في صدري كأمواج البحر الثائر ! انحرفت إلى شمالي حيث تجلس مارثا خلف المقود، وكانت قد انحرفت هي قليلاً لتواجهني؛ وبدلاً من أرحّب بها وألقي التحية عليها، سمعت صوتي يخرج من داخلي دون استئذان وبغير إرادة مني ويقول:

-لا إله إلا الله والشكر والحمد له، الذي خلق فأبدع، إذ تكرم علينا وتفضل، فمنحنا كل هذا الجمال ! قلتها بورع العابد الناسك المتصوف، وبالعربية، غير واع أنها لا تفقهها !

-ماذا تقول ؟! سألت وعلى وجهها ابتسامة يعجز الإنسان عن وصفها ، مهما أوتي من تمكن اللغة ودقة الوصف وعمق التعبير ؛ وقد سدّدت إليّ عينين أحسست وكأنما أطلقت سهمين أصابا قلبي؛ إذ سرعان ما حولت ناظري عنها !

-إنني أشكر الله وأصلي له، أن تكرّم عليّ وتلطف بأن كتب لي أن أقابلك، فسمح لي أن أحبك ! قلت بتمهل ووله، وبصوت منخفض، حنون ودافئ، وكأني أناجيها، فقد أحسست أن الكلمات تخرج من أعماق قلبي ! سألتْ وهي تتضاحك، وقد احمرت وجنتاها، وبصوت عذب رخيم ودافئ، بعد أن حوّلت عني نظراتها إلى مقود السيارة:

-وهل أعجبتك أناقتي ؟!

سحرتني نغمات صوتها العذب، الرقيق الحاني، وأسرني بريق أخّاذ أطل من عينيها الصافيتين الساحرتين، فشعرت بأنني غرقت في عالم مفعم بالسحر والرقة والعذوبة ! نظرت إليها وتأملتها طويلاً... كانت تحفة جمالية من الفن الخالد أبدع الخالق الأعظم- جل شأنه- في صنعها وتصويرها ! لها وجه كوجه الموناليزا، وعينان كأنهما سراجان مضيئان تنيران طريق المدلج ليلاً في دروب الحياة المظلمة المقفرة، لها شفتان

كأنهما زهرتا أقحوان ! ذات أنف رقيق وخصر أهيف نحيل؛ وكان شعرها الطويل الناعم مرسلاً على كتفيها كأنه شلال متدفق هادر لنهر من ذهب؛ وكانت فتحة فستانها تنفرج عن نهديها المكورين المتوثبين المتحديين !

–ليست الأناقة فقط هي التي أعجبتني ، إن الذي سحرني هو جمالك ! لقد سلبني عقلي... ألهب مشاعري... أشعل الحرائق بدمي... !

وفجأة أصابني ما يشبه السعار، إذ استبدت بي شهوة عارمة، والتهب في داخلي شبق محموم، وبسرعة البرق الخاطف قفزت من مقعدي وألقيت بنفسي إلى جوارها، ثم طوّقت رأسها بذراعي، وهجمت على شفتيها لأطبق عليهما؛ ولكنها وقبل أن تصل شفتاي إلى شفتيها، كانت قد وضعت يدها اليمنى حاجزاً بين وجهينا، ورفعت رأسها بعيداً عنها إلى الخلف، ولكن بأدب ورقة ودلال، وقالت و هي تتضاحك:

–أرجوك أن لا تفعل حتى لا تشوّه زينتي ! وبعد أن تمهلت قليلاً أضافت:

–ثم إنني لست مستعدة ولا بالمزاج للعناق وتبادل القبل !

–أريد ان آخذك إلى الفراش، فان كل ذرة في جسمي تشتعل ناراً وتنادي جسدك !

–انني لا استطيع الآن، فانا لست في المزاج ! قالتْ وقد هزّت كتفيها !

–ما هذا الهراء؟! ما هذا الكلام السخيف!؟ هذه مزحة أم لعبة انثوية؟!

–صدقني؛ انني اعني ما أقول؛ فانا لست في المزاج! قالت بإصرار وعناد.

–نحن، رجال الوطن العربي الكبير، دائما في المزاج ودائما مستعدون للانقضاض؛ للكر والفر؛ حتى ان نساءنا تعودنا على هذا، ودائما مستعدات لتلبيتة رغباتنا ! قلت لها بحماس !

–قد تكون نساؤكم في الشرق، مهجّنات مدجّنات و مستباحات، و لكننا نحن في الغرب، مستقلّات مستنيرات و متحررات؛ نتمتع بكامل الحقوق التي يتمتع بها الرجال؛ إن لم يكن أكثر !

–إسمعوا يا قوم ! إسمعوا و عوا ! فحل يعربي، يتكرم و يطلب من أنثاه أن يطارحها الغرام، فتقول له، بكل جرأة و تصميم؛ " أنا لست بالمزاج! " فهل هذه نكتة أم حزّورة؟! "

حقاً؛ لقد تبدّل الزمن وتغيّرت المفاهيم؛ فسبحان الذي بدّلها و سبحان الذي أوجدها!

عدت إلى مقعدي مرتبكاً مكسوفا، وقد جدّتني موجة من العرق الساخن، كما انزرعت الخيبة والتوتر في كل ذرة من كياني، فلم أعلق على ما ذكرت، وإنما بقيت أحملق بها مذهولاً حائراً، أفكر بما قالت وفعلتْ !

ما هذا الكلام الذي نسمع ؟! عاشق برّحه الشوق إلى معشوقته... أضناه الانتظار، وبه ما يشبه السعار لرؤيتها... وعندما يلقاها ويلقي بنفسه بين ذراعيها لاحتضانها وعناقها وتقبيلها، تتمنع عليه بحجة أنها ليست عندها رغبة... وليست هي بالمزاج ؟! يا سبحان الله ! متى كانت الأشواق... والعواطف... والرومانسية... بحاجة إلى مزاج ؟! ما هذا المزاج الذي يتحدثون عنه ؟! وما هذا الكلام السخيف ؟! وهل هذه مزحة أم حدوثة ؟! ما هذه الأساطير التي طلعوا علينا بها، هنا في أميركا، حتى تأتي فتاة أمريكية وتقول لفحل عربي، دائماً مشرع سلاحه وجاهز للانقضاض والنـزال والطعان، بأنها ليست عندها رغبة للعناق والتقبيل، وليست هي بالمزاج ؟! الفحل العربي دائماً وأبداً به شوق إلى أنثاه... به رغبة محمومة إلى جسدها... إلى أن يشعل الحرائق بدمها... دائماً جاهز ومستعد لصولاته وجولاته الغرامية... مستعد للضم... للعناق...للتقبيل... وللمضاجعة أيضاً ! إنه دائماً مستعد للهجوم... للانقضاض... للعراك...! دائماً جاهز للحب ومطارحة الغرام...! وأنثاه هي الأخرى دائماً جاهزة لاستقباله... لتلبية جميع رغبات فحلها وسيدها ! هكذا تعلمنا منذ الصغر، ورضعناه مع الحليب...! وهذه هي قوانين العشيرة، وهذه هي شرائعها!!

انطلقت بنا السيارة إلى مدينة هوليوود، تلك المدينة العجيبة الغريبة؛ وبعد لحظات قليلة سألت مارثا وهي تبتسم، دون أن تحوّل نظرها باتجاهي وعيناها ما زالتا مسمرتين على مقود السيارة:

-وهل أنت غاضب مني؟! سألت بلهجة مغناجة وهي تتضاحك.

-أنا غاضب منك ؟! ولماذا؟! وماذا فعلت حتى جعلتني أغضب؟! سألت غير صادق، محاولاً أن أبدو طبيعياً، وإن كان شرر الغضب يتطاير من عيني !

-نعم أنت غاضب وإن كنت تحاول جاهداً أن تخفي غضبك! قسمات وجهك ونبرات صوتك تقول ذلك! قالت وقد استفزني إصرارها وشجعني عنادها!

-نعم، أنا غاضب منك! غاضب جداً! وهل تريدين الحقيقة؟! أنا غاضب منك لدرجة أتمنى لو أن باستطاعتي أن أضربك كفّاً! قلت ذلك وقد حركت يدي وضربت الهواء دون إرادة مني، وكأنما أريد أن أصفع أحدهم كفّاً !

انفجرت تضحك وتقهقه بطريقة زادت في غضبي، وإن جعلتها تبدو أكثر جمالاً وأكثر إغراءً!

-أبهذه السرعة يتحول حبك لي إلى كراهية؟! معنى ذلك أنك لم تكن تحبني حقاً! لأن الحب الحقيقي يكون راسخاً كالجبل، لا تزعزعه أعتى الهزات؛ فكيف بمسألة تافهة وبسيطة، كممانعتي السماح لك بعناقي وتقبيلي، حتى لا تفسد زينتي!

-حتى لا أفسد زينتك، أم أنك لست بالمزاج؟!

-صدقني كلاهما. قالت وقد توقفت عن الضحك وكست وجهها موجة من الجد والعبوس.

-ياله من عذر أقبح من ذنب ! هكذا تقول الأمثال الشعبية في بلادنا.

-كم أحب بلادكم وناسها وأمثالها الشعبية ! قالت بفرح وتحبب، وقد فارقتها موجة الجد والعبوس.

-شكراً ! قلتها بعبوس وغلاظة فجّة!

-صدقني أنني أعذرك لغضبك مني! وصدقني أنني متفهمة جداً جداً سبب غضبك! يجب أن لا تحكم علي حتى تسمع حجتي.

-حجتك هي أنك لا تحبين أن أفسد زينتك وأنك غير معتدلة المزاج! قلتها بتهكم وسخرية مبالغ بهما!

–ليس هذا هو كل السبب! قالت وقد حوّلت عينيها عن مقود السيارة ونظرت إليّ؛ وعندما التقت عيوننا شعرت كأنما مسٌّ كهربائيٌّ قد اخترق كل ذرة في جسمي فهزني بعنف وقوة؛ فأثار عواطفي من جديد! لا شك أنها أدركت تأثير سحرها عليّ، ولا شك أنها لاحظت وقع جمالها على قلبي، إذ سرعان ما حوّلت ناظريها إلى مقود السيارة.

–وما هو كل السبب ؟! سألت وما زالت لهجة السخرية والتهكم تسيطر على كلماتي، بالرغم من هيجان مشاعري، وتسارع ضربات قلبي!

–قل لي أنت أولاً؛ لماذا أنت غاضب مني؟! وهل عدم قبولي بالسماح لك بتقبيلي لها عندك كل هذه الأهمية؟!

–نعم! لقد صار لي يومٌ كاملٌ وليلة أيضاً، وأنا أحلم برؤيتك وأمني النفس بضمّك وعناقك؛ وعندما رأيتك لم تسمحي لي حتى بتقبيلك! إنك لا تتصورين كم آلمني ذلك! لقد شعرت بخيبة مريرة!

–يا لي من إنسانة قاسية القلب! أنا آسفة جداً جداً! قالت وقد توقفت عن الضحك، وعلى وجهها مسحة من الجدّ والرزانة زائدين! التزمت الصمت ولم أعلق على ما قالت، وإن كنت قد خففت من حدة التكشيرة القاتمة التي كانت تغطي وجهي.

–ألم تقل لي مرة بأنك لا تستطيع أن تقوم بأية كتابة إبداعية إلا وأنت مرتدٍ كامل ملابسك؛ ومهيئٌ نفسك للكتابة من قبل، ربما قبل ساعات، بل وربما قبل يوم كامل أحياناً؟!

–نعم، لقد ذكرت لك ذلك؛ وهذه حقيقة. نعم، أنا لا أستطيع أن أقوم بأية عملية كتابية إبداعية، إلا إذا كنت مرتدياً بذلتي وربطة عنقي، ومنتعلا حذائي أيضا، وكأنما أنا ذاهب لأقابل عظيماً! لقد حاولت أن أتحلل من هذه العادة، ولكنني لم أستطع. فلقد جلست مرة دون أن يكون عندي الاستعداد النفسي للكتابة، وبقيت ساعة كاملة أفكر بما أريد كتابته فلم يفتح الله عليّ بكلمة! ومرة أخرى كانت الفكرة مختمرة برأسي، ولم يبق علي إلا أن أدونها على الورق، جلست وأنا مرتدٍ البيجاما، ومنتعلا الشبشب، فأفرغت الفكرة على الورق، فكانت تافهة كغثاء السيل، لا عواطف فيها ولا روح! باختصار، يجب أن أكون مهيأً نفسياً للكتابة مسبقاً، وربما قبل بضع ساعات؛ ثم مرتدياً كامل ملابسي، وكذلك حالقاً ذقني!! ولكن ما علاقة هذا بإفساد زينتك وأنك لست بالمزاج؟! سألت وقد شعرت فجأة بجرأة غير طبيعية، إذ انحرفت قليلاً لأواجه وجهها!

لا شك أن حواء الماكرة أدركت بغريزتها الأنثوية ما حل بالمسكين آدم من ثوران عواطف وإرباك، فقد حوّلت عينيها عن مقود السيارة، وقابلت بهما عيني! فيا سبحان الخالق الذي أبدع وتفنن! فيا لجمال وجهها، ويا لصفاء عنقها الأتلع؛ ويا لجاذبية شفتيها؛ ويا لطول أهدابها وسحر عينيها! فشكراً لك يا رب، وألف شكر على هذه النعم التي تكرمت ومنحتني إياها!

–إنه نفس الشيء تماماً! أنا أعني، وكما أنك لا تجيد ولا تحقق في كتاباتك الإبداعية، إلا إذا كنت بكامل لباسك، وقمت ببعض زينتك، ومستعداً نفسياً وذهنياً، مسبقاً ومن قبل؛ كذلك أنا! فلكي أمارس وأستمتع بمراسيم وطقوس الاحتفالات الرومانسية، فلا بد من أن أكون مستعدة له عاطفياً ومهيأة نفسياً! وبعد أن تمهلت قليلاً أضافت:

–إن عواطفي ترفض رفضاً قاطعاً، ولا تستجيب لرغبات رجل يريد أن يعانقني أو يقبلني أو يأخذني إلى الفراش؛ حتى ولو كنت أهيم به حباً! إنه يثير قرفي واشمئزازي، إذ أعتبره نوعاً من المراهقة الفجّة! اعذرني إن قلت بأنني أشعر بأنه لا صميمية به! إنه وإن صادف وقبلت به لسبب ما، فإنني أحس أنني أقوم بمجاملة فقط إرضاء للإنسان الآخر... يعني تمثيل... وأنا لا أحب أن تكون علاقتي بك بها أي شكل من أشكال المجاملة والتمثيل! أنا أريدها أن تكون علاقةصدق وصراحة... متينة وعميقة!

فتحت فمي لأشكرها على صراحتها، ولكنها رجتني بيدها أن أدعها تكمل فكرتها،فاستطردت:

–قد تضحك إن قلت لك بأن أي شيء أريد فعله لا بد وأن أهيئ نفسي أولاً وقبل أن أفعله؛ والفترة الزمنية التي أحتاجها لأهيئ نفسي لعمل هذا الشيء أو ذاك، تختلف بالنسبة لنوع ذلك العمل! فمثلاً إذا أردت أن أشرب فنجاناً من القهوة أو الشاي أو المرطبات، فلا بدّ من مضي عشر دقائق على الأقل وأنا أهيئ نفسي لتناول ذلك المشروب! وقس ذلك على الدراسة والطعام والنوم وغيرها... أما في حالة الرومنسيات فلا بد من أن يجلس الحبيبان ويتحدثان لفترة ليست بالقصيرة؛ ثم يتناجيان ويتناغيان لفترة طويلة طويلة، قبل أن يتبادلا القبلات، بل حتى قبل أن تلمس يد أحدهما الآخر...!

–الله! الله! ما أروعك وما أعظمك! إنك والله أحادية بكل شيء... بعواطفك... بتفكيرك... بتصرفاتك... حتى بالعناق والتقبيل! وجدت نفسي أقول دون إرادة مني! وبغير إرادة مني كذلك، وجدت نفسي أرمي

بجسمي باتجاهها لأقبل تلك الشفتين اللتين نطقتا بكل تلك الحكم والفلسفة، ولكني لا شعورياً عدت إلى مكاني!

-وهل معتقداتي هذه تضايقك وتزعجك؟! سألت وقد بدأت تحملق بي من جديد.

-إنها على العكس من ذلك تماماً! إنها تجعلني أحبك وأحترمك أكثر وأكثر! أنا لم أكن أبالغ وغير جاد عندما قلت لك بأنك أحادية في كل شيء...! أنا أعنيها من صميم قلبي وبكل الصدق والإخلاص! ألم أقل لك بأنك فتاة متميزة عن بقية الفتيات؟! قلتها بحماس وصوت حنون وكأنما أناجيها!

-شكراً على الثناء؛ على كل حال هذه طبيعتي، أحببت أن أصارحك بها في بداية علاقتنا، حتى إذا صادف وتصرفت تصرفاً قد لا يعجبك فتعذرني!

-إن جميع تصرفاتك وأقوالك أيضاً، قد زادتا من حبي واحترامي لك! أنا لا أريدك إطلاقاً أن تتخلي عن ما تؤمنين به، لا من أجلي ولا من أجل غيري؛ وإنه ليفرح قلبي ويسعدني سعادة لا حدود لها أن أتأكد بأنك متقيدة بتطبيق ما تؤمنين به ! قلت بحماس أكثر من السابق.

-الحمد لله أن معتقداتي لم تضايقك، والشكر له أنك متفهم لمشاعري! وبعد أن أعادت إلى مكانها بيدها اليمنى خصلة من شعرها سقطت فغطت عينها اليسرى، أضافت:

-يجب أن نبني علاقة قويمة على أسس متينة! قالت.

-أوافقك من كل قلبي! قلت وأنا أهز رأسي تأكيداً.

مرت فترة صمت قصيرة لم يقطعها سوى صوت ماكنة السيارة تنهب الطريق السريع، عندما سألتُ فجأة:

-بالمناسبة، كيف صحة والديك وأخيك وزوجته؟! آمل أن يكونوا جميعاً بخير.

-إنهم جميعاً بخير ويبلغونك تحياتهم. لقد أعلمتهم بأننا ذاهبان الليلة إلى المسرح، إنهم متشوقون جداً للقائك، ويتساءلون متى ستأتي لزيارتنا! وأنا أسألك بدوري متى تأتي إلى العشاء في بيتنا لتقابل أفراد عائلتي؟!

–انتظري لحظة من فضلك! دعيني أربط جرس منبّه ساعة قلبي وعواطفي وأسدّده باتجاه عائلتكم؛ وعندما ينطلق جرس إنذار المنبه أكون في المزاج للحضور إلى بيتكم! قلت ذلك وحركت أصابع يدي وكأنما أربط حقاً جرس منبه ساعة الطاولة، إشارة إلى قولها بأنها لا تعمل شيئاً ولا تقوم بأية مهمة إلاّ بعد أن تنضج فكرتها في عقلها وقلبها وعواطفها!

لا شك أن الصبية قد فهمت ما أعني، إذ انفجرت تضحك بقلب شجيّ حتى دمعت عيناها؛ ولم أجد نفسي إلا وأنا أشاركها الضحك معجباً بنفسي لهذه الفكرة الذكية! وبعد أن مسحت دموعها بمنديل ورقي سحبته من الباكيت الموضوع أمامها، قالت:

–لم أكن أعرف أنك إلى جانب ما عندك من مزايا حميدة، أنك أيضاً تتمتع بميزة سرعة الإجابة واتقاد البديهة!

لم أعلق على ما قالت، وإنما شعرت بسعادة غامرة... سعادة الفحل العربي الذي تمتدحه أنثاه، والتي توحي إليه بطريقة ذكية، بأن عليه أن يتمهل ولا يتعجل، فإنه بالنهاية واصل إليها...! وهنا خرجت السيارة عن الطريق السريع، ودخلت شارع "غروب الشمس- صن ست"، حيث بدأت أمتع ناظري بالمحال التجارية وبالناس الذين يسيرون على الأرصفة! وما هي إلاّ دقائق حتى كنا نقف في الخط الطويل لنحصل على تذاكر دخول المسرح!

بعد انتهاء المسرحية، دخلنا، مارثا وأنا، أحد المطاعم التي تقدم أطباق البيتزا؛ وعلى الرغم من أن الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحاً، وأن المطعم عظيم الاتساع، إلا أنه كان من غير الممكن لنا أن نجد مكاناً نجلس فيه! فلقد لاحظنا أن العديد من الزبائن يشترون بعض شرائح البيتزا أو حتى صواني كاملة، فيأكلونها إما وهم وقوف أو وهم مستندون إلى جدران المطعم أو إلى سوره.

وبينما كنا نهم بالمغادرة والذهاب إلى مطعم آخر، سمعت صوتاً أنثوياً مألوفاً يناديني من آخر القاعة، "أستاذ دهشان! أستاذ دهشان! تفضلا هنا نحن مغادرتان!"

نظرت حيث مصدر الصوت، ولشدة عجبي وجدت أن صاحبة الصوت هي الطالبة حنان الرمحي، والتي كانت قد أخذت معي مساقاً في العام السابق، تجلس مع فتاة في مثل سنها، تدل ملامح وجهها على أنهاهي

الأخرى عربية، وكانت مغطاة الرأس أيضاً، وتلبس ملابس طويلة ومحتشمة، وإن كنت لم أذكر أني قابلتها قبل اليوم.

وهنا كنا قد وصلنا، مارثا وأنا، إلى حيث تجلس الفتاتان حنان وصديقتها، اللتان وقفتا لتحيتنا والترحيب بنا.

ـ الآنسة حنان ! هل لي أن أقدم لك حبيبة القلب و"ماي ڤيرل فرند"، أرق وأنعم، بل وأعذب فتاة قابلتها في حياتي؛ الآنسة مارثا كارلنقتون. الآنسة مارثا! اسمحي لي أن أقدم لك الآنسة حنان الرمحي، فلسطينية، من الوطن العربي الكبير، طالبة سابقة لي، وصديقة كفاح، ومن أنشط وأجرأ الطلبة العرب في الدفاع عن قضايا الأمتين العربية والإسلامية؛ و خصوصاً القضية الفلسطينية!

لاحظت أن وجنتي مارثا قد اشتعلتا ناراً، وأن خديها قد التهبا احمراراً، وأن موجة من حبات العرق الباردة قد غطت عنقها! أما حنان فقد اتسعت حدقتا عينيها وهي تحملق بمارثا وتشد على يدها! بعد تقدمتي لمارثا، أحسست فجأة بتفاهتي، بل وبضحالتي؛ وبأنني إنسان باهت... مشروخ... ومسطح؛ وبأن عقدي النائمة قد بدأت تستيقظ وتطفو على السطح، إذ ما حاجة هذه المفاخرة القبلية التي لا معنى لها؟!

–بروفيسور دهشان! أقدم لك صديقتي من الوطن الآنسة سلمى المنصور، طالبة معنا في الجامعة تدرس لتكون مدرسة أطفال! الآنسة سلمى! أقدم لك البروفيسور سهيل دهشان، أستاذ العلوم السياسية عندنا في الجامعة وأستاذي أيضاً! وبعد أن ضحكت أضافت وبالإنجليزية أيضاً!

–فبالإضافة إلى أنه خصم شرس في مقارعة أعداء الوطن، وخصوصاً الصهيونيين المتزمتين؛ إلا أنه أيضاً معشوق الطالبات الأرستقراطيات، الجميلات منهن وغير الجميلات! قالت ذلك وانفجرت تضحك، وشاركناها نحن الثلاثة ضحكها!

–أنا أعرفك جيداً، ولو أنك أنت لا تعرفني! لقد استمعت إلى الكثير من محاضراتك ومناقشاتك؛ وأنا من المعجبات بالطريقة التي تحاضر بها، ثم تناقش! أنا عازمة أن آخذ معك مساقاً الفصل القادم. قالت الفتاة وهي تمد يدها لمصافحتي.

–أنا سعيد بمقابلتك يا آنسة سلمى؛ وسأسعد أكثر عندما تكونين إحدى طالباتي! قلت ويدي تعانق يدها.

-والآن، اسمحا لنا بالانصراف. سعيدة بمقابلتك يا آنسة كارلنقتون. أمضيا وقتاً ممتعاً، وتصبحان على خير! قالت حنان، وقلدتها سلمى، ثم انصرفتا.

لاحظت أن شفتي مارثا قد همتا بالكلام؛ ولكنني استمهلتها حتى أذهب وأطلب واحدة من البيتزا الكبيرة، مع كأسين عملاقين من البيرة، إذ أشعر بجوع شديد؛ ولكنها اعتذرت عن البيرة بحجة أنها لم تذقها في حياتها.

-إذن، سأحضر لك بعض النبيذ! قلت.

-أنا لم أذق أي نوع من الكحول في حياتي؛ وليس في نيتي أن أفعل! قالت بحزم.

-وإن رجوتكِ ! قلت.

-سأرفض بشدة! وأرجو أن لا تحرجني؛ إذ يؤلمني أن أرفض لك طلباً! قالت بإصرار أكثر.

-وهل تمانعين إن شربت أنا؟! سألتها بقلق.

-طبعا لا؛ وإن كنت أفضل لو أنك لا تتعاطى الكحول! قالت بأرستقراطية.

-وهل السبب ديني؟

-لا، أبداً! أنا أكره كل أنواع الكحول بدون استثناء! إذ أعتقد أنها تضعف شخصية الإنسان وتقلل من احترامه! قالت.

-وهل والداك وأخوك وزوجته يحملون نفس أفكارك؟ سألت.

-لا، أبداً! جميعهم يشربون النبيذ مع الطعام ويشربون البيرة لقتل العطش، كما يقولون! إنهم لا يشربون الكحول الثقيلة ، ابداً ! ابداً ! كالويسكي والفودكا وغيرهما!

-ألا يجعلك هذا تبدين شاذة بينهم؟ أعني كأنك تغردين خارج السرب!

-على العكس من ذلك! جميعهم يحترمونني، ويثنون على شجاعتي وانضباطي. وبالمناسبة، ولا واحد منهم يدخن ابداً، فإن والدي يدخن بعض السيجار، وربما يكمل في الشهر واحداً !

هممت أن أسالها عن نصيب المخدرات في عائلتها، ولكنني لمت نفسي كثيراً لهذا التفكير المبتذل، إذ إن الذين يملكون هذا التفكير الأرستقراطي، لا يمكن أن يتعاطوا المخدرات !

لم أعلق على مقولتها، وإنما توجهت إلى حيث تقف النادلات الأنيقات الفاتنات، خلف"الكاونتر" الطويل، لأخذ طلبات الزبائن، ومن ثم المناداة عليهم فيما بعد، واللواتي، عندماتكون جاهزة ! لا شك أنهن اختُرن بعناية وحرص ليتواءمن مع المكان الذي هن به، لقد أذهلني طول الطابور الذي وقفت به أنتظر حتى جاء دوري على الرغم من أنه كانت هناك مجموعة لا بأس بها من اللواتي يأخذن الطلبات !

على الرغم من أن الساعة تقترب من الثانية صباحاً ،إلا أن زبائن المطعم يزدادون عدداً ! لقد علمت فيما بعد أن معظم سكان ذلك الحي المترف من مدينة لوس أنجلوس؛ وكما هي الحال في بعض أحياء مدينتي هوليوود وبفرلي هلز، يعملون في صناعة السينما، إذ ينامون نهاراً وينشطون ليلاً !

إن الطالبة حنان من ألمع وأذكى الطلبة، عرباً وآخرين، الذين درّستهم في حياتي. فبالإضافة إلى جمالها المتميز وأنوثتها الطاغية... وبالإضافة إلى استقلاليتها الكاملة، وشخصيتها القوية... وبالإضافة إلى أنها حضرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية قبل أكثر من عشر سنوات، وأنها قد بلغت الرابعة والعشرين من عمرها...! بالرغم من كل هذا، إلا أنها وحسب علمي، لم تخرج مع شاب قط، ولم تقبل دعوة أيّ رجل ! إنها فتاة فلسطينية ، بلد البطوت المتميزة والتضحيات النادرة ، من مدينة البيرة؛ حضرت هي وعائلتها إلى الولايات المتحدة الأمريكية، هرباً من القهر التوراتي، والقمع الإسرائيلي. إنها ملتزمة بقضايا الوطن العربي الكبير، وبقضايا المسلمين عامة إلى درجة التعصب، بل الاستشهاد في سبيلها إذا دعت الضرورة ! إنها لا تسمع عن محاضرة أو اجتماع أو حلقة نقاش لها علاقة بقضايا العرب والمسلمين إلا وحضرتها وأدلت بدلوها ! وبسبب إجادتها اللغات الثلاثة العربية والإنجليزية والعبرية، وبسبب معرفتها العميقة بمشاكل العرب والمسلمين، واطلاعها الواسع على خفاياها، فقد كانت في كثير من الأحايين تفحم المتكلمين الصهيونيين وأنصارهم، مما يثير حنقها واستياءها، والذي قد يؤدي إلى السباب والشتم، وحتى إلى الاشتباك بالأيدي، والتدافع بالمناكب !

على الرغم من أن حنان تعيش في بلد ديمقراطي وحرية المرأة لا حدود لها، إلا أنها تصر على أن تتزوج على الطريقة الإسلامية التقليدية؛ وهي أن على الذي يفكر بالزواج منها، أن يذهب إلى بيت أهلها ويطلب يدها من والدها، عندئذ يذهب الوالد بدوره ويسأل عن هذا الشاب المتقدم لابنته، حتى إذا أعجبه وافق على طلبه ! وكما قيل لي، فإن الذين تقدموا لطلب يدها كثيرون، ولكن حتى الآن لم ينل ولا واحد منهم الرضا، لأسباب لا أفقه سرها ؟!

إنني ومنذ اللحظة التي تعرفت بها على الآنسة حنان وحتى الليلة، فإنه قلما يمرّ أسبوع دون أن نرى بعضنا بعضاً، حتى ولو للحظات ! إننا قد نتقابل وكل منا مسرع في طريقه إلى محاضرته، فنتبادل جملاً قصيرة عن الصحة أو عن الأهل، وغالباً ما تكون عن أخبار الوطن، أو عن محاضرات أو ندوات عقدت ! لقد كانت في كثير من الأحيان تمرّ على مكتبي لتدعوني إلى محاضرة أو اجتماع سيعقد في حرم جامعتنا أو في حرم إحدى الجامعات الأخرى؛ وأحياناً تمرّ لتوصل لي جريدة أو مجلة أو نشرة تريدني أن أقرأها لما فيها من أخبار الوطن. على الرغم من أننا كنا دائماً ملتزمين بمناقشاتنا وجادين في أحاديثنا، إلا أنني سألتها في إحدى المرات مازحاً، وكنت أعرف الجواب مسبقاً؛ وكانت قد جاءت إلى مكتبي بالجامعة لتطلب إليّ إن كنت أوافق على إلقاء محاضرة عن انتفاضة أطفال الحجارة وأبعادها في الوطن المحتل فلسطين؛ في إحدى المدارس الثانوية المتواجدة في مدينة "أناهايم" والتي معظم طلبتها مزيج من أبناء المهاجرين العرب والمسلمين:

–هل أستطيع أن أدعوك اليوم، أو في أيّ يوم تشائين، إلى الغداء أو العشاء؛ أو إلى فيلم سينمائي أو مسرحية ؟!

–لا، أنا آسفة ! أنا لا أقبل دعوة أيّ رجل كان.

–ما رأيك أن تدعوني أنت؟ أنا أقبل دعوتك، وبكل سرور! قلت مبالغاً بالترحاب!

–ولا هذا أيضاً! أنا لا أدعو أحداً ولا أقبل الدعوة من أحد ! قالتها بعصبية شديدة!

–وهل أفهم أن هاتين الشفتين القرمزيتين الناضجتين كحبتي كرز، ما زالتا عذراوين لم يقبلهما أحد ولم يتذوقا سعادة القبلة ؟!

-طبعاً! طبعاً! وهل في هذا خطأ أو عيب؟! قالتها بعصبية أكثر.

-وهل أستطيع أن أنعم بقبلة منهما؟!

-مستحيل! لن أسمح لإنسان بتقبيلي إلا للذي أرتبط معه بميثاق الزواج المقدس. ثم أرجوك يا أستاذ دهشان أن لا تتكلم معي مثل هذا الكلام، فإنه يضايقني ويزعجني !

-وهل إذا طلبت يدك من والدك، فهل تظنين أنه سيحصل لي شرف الموافقة؟! قلت مازحاً وإن تظاهرت بأنني في منتهى الجدية !

- لقد توقعت منها أن تجاملني على الطريقة العربية بأن تقول؛ سيحصل لي الشرف... أيّ فتاة تتمناك زوجاً لها... وهل يمكن أن يتقدم لخطبتي من هو أحسن منك...؟! إلى آخر هذه الكليشيه التجاملية، حتى ولو كانت لا تعني كلمة مما تقول؛ ولكن لشدة دهشتي، وجدتها تقول، دون مجاملة ودون مواربة:

-آسفةأنا أقول لك كلا؛ بل مستحيل! قالت ذلك وضربت إبهام يدها إلى الأرض. ومع أنني لم أعن ما قلت، وأنني أيضاً كنت متوقعاً رفضها، إلا أنني تأثرت جداً، وشعرت بإهانة بالغة ! فأنا فحل عربي، تربى في مجتمعٍ الرجلُ فيه كل شيء، والمرأة أقل من لا شيء، ومن المستحيل أن ترفض الأنثى له طلباً ! فسألتها بغضب ممزوج بالتحدي:

-ولم ؟! ألست كفؤاً لك ؟! وماذا ينقصني حتى أصبح ندّاً لك ؟!

-أراك قد غضبت بدلاً من أن تحترم صراحتي ! قالت وقد خففت من حدة لهجتها.

-إنك لم تجيبيني على سؤالي؟! قلت بغضب لاهب.

-أنت كفؤ لكثير من الفتيات كزوج؛ ولكن ليس لي! قالت بصوت خفّت حدة نبرته.

-وهل أنا ضعيف الشخصية؟! وهل أنا مكروه من الآخرين؟!

-على العكس من ذلك! أنت قوي الشخصية جداً، وقوة شخصيتك هي من الأسباب التي تخيفني! إنها من المميزات التي تحبب النساء بك...!

-أنا لا أفهم ما تعنين!

-أنا لم أقابل في حياتي كلها إنساناً ملتزماً بقضايا الوطن... يقوم بواجبات الصداقة... يحترم شعور الآخرين... واعياً... مثقفاً... شهماً... كريماً... صادقاً... خلوقاً... نبيلاً... أشعر بالفخر والاعتزاز أنك أستاذي... أنك عربي... مسلم... نناضل معاً في سبيل القضايا العربية والإسلامية... أشعر بسعادة غامرة وفرح لا يوصف ونحن نناضل سوية... إنني أعتمد عليك اعتمادا كاملاً، وأثق بك ثقة عمياء مطلقة عندما أطلب منك القيام بمهمة؛ ولكنني لا أستطيع أن أحس بالأمان معك كزوج... أعيد، كزوج... وليس كصديق نضال... إذ إن لك معجبات ومعشوقات كثيرات، لا تستطيع أن تقاوم جمالهن وإغراءهن! أنا أريد زوجاً لا يحب واحدة سواي، ولا يهمه أمر امرأة إلاّ أنا!

-شكراً للخطبة العصماء الطنانة الرنانة! قلت ساخراً.

-سامحك الله ! تسخر مني ؟! إنك لا تعرف كم أعزك وأقدّرك !

-ألا يسعدك أن يكون الرجل الذي يتزوجك إنساناً محبوباً؟!

-محبوباً؟! نعم! ولكن ليس من النساء! وخصوصاً أنك لا تستطيع أن تخلص لامرأة واحدة! إنك إن فعلت فقد يدوم إخلاصك لشهور، وربما لعام، ثم ينتهي شهر العسل! لعلها شعرت أنها كانت قاسية في صراحتها فأضافت:

-إنك تعرف أنني فتاة مسلمة وملتزمة في إسلامي، وأنت لست كذلك! أنت وكما أعلمتني في معرض حديثنا، وأكثر من مرة؟ لا تصلي ولا تصوم، وتشرب الخمر، وتنام مع النساء بدون عقد زواج! هذه كلها أعمال ضد الدين الإسلامي، والتي هي ضد معتقداتي، وقناعاتي أيضاً، وأنا أريد زوجاً بالإضافة إلى أشياء أخرى كثيرة كثيرة؛ أن يكون متقيداً تقيداً كاملاً بتعاليم ديننا الحنيف! قالت.

-صدقيني يا آنسة حنان، واقسم لك ، إنني عندما دعوتك للخروج معي للعشاء أو للسينما... أو عندما طلبت إليك أن تدعيني أنت، إذا كان ذلك مقبولاً عندك... ثم اقتراحي عليك القبول بأن تتزوجيني... إلخ... إلخ... أنني كنت غير جادٍّ في طلبي وأنني كنت أمازحك، ولم أكن أعني واحداً منها إطلاقاً ! فلقد كنت أعرف مسبقاً أنك لن تقبلي! لذلك فأنا آسف جداً إن كنت قد أغضبتك وأثرت حفيظتك !

-سامحك الله! ما كان يجب أن تفعل ذلك! لأنك حقاً أثرتني! إنه يؤلمني ويحزنني جداً أن أقول كلمة واحدة نابية بحقك، وأنت الذي له كل هذه الإنجازات العظيمة !

-شكراً لهذا الإطراء، ومرة أخرى أنا آسف! قلت وأنا أشعر حقاً بندم شديد.

-أنا دائماً أنظر إليكَ نظرة زميل... بل صديق نضال، أثق به وأعتمد عليه، ولكن ما فكرت بكَ يوماً كصديق رومانسي...! أنا أريدكَ كثيراً، وأحترمك جداً جداً، ومعجبة بشخصيتك وتصرفاتك ونضالك إلى أبعد الحدود !

-صدقيني إن هذا هو شعوري نحوكِ ! قلت صادقاً.

-أريد أن أقول لك سراً ما كنت أفكر يوماً أن أبوح به لأحد، وإن كنت قد أسريته لأمي، وهو لو أنك كنت مثلي ملتزماً دينياً، لكنت أنا التي طلبت إليك أن تتزوجني، لأنك تتمتع بجميع الصفات التي أتمناها في زوج المستقبل! قالت وهي تنظر إلى وجهي بجسارة حيرتني !

-أنت مناضلة قوية الشكيمة، وخصمٌ عنيدٌ ضد الأعداء...! كما ستكونين زوجة رائعة وأمّاً مثالية، وأنا لا أريدك أن تغرقي في مستنقعات مشاكلي العاطفية وعقدي النفسية ! صدقيني أنني تمنيت يوماً لو أنك لست عربية ولست مسلمة، لربما كان لي شأن آخر معك ! إنني أتمنى من صميم قلبي ومن أعماق وجداني أن يرسل الله لك زوجاً صالحاً وملتزماً دينياً وأخلاقياً، يسعدك وتسعدينه !

-وأنا بدوري أتمنى لك زوجة تتفهم عقليتك وتسعدك! قالت.

-والآن، وبعد هذه المصارحة الشاملة، والتي لا شك أنها عمقت ثقتنا ببعض وقوّت روابط صداقتنا؛ فما رأيك بأن لا نعود إلى مثل هذه المواضيع بعد اليوم إطلاقاً، وأن يكون حديثنا مقصوراً على مشاكل الوطن ومواضيع عامة لا علاقة لها بالعواطف ولا بالرومانسية ؟! قلت .

-أوافقك! وأن نكون أصدقاء كفاح ونضال فقط! قالت.

-إذن، دعينا نتصافح! قلت هذا ونهضت من على مقعدي ومددت لها يدي دليلاً على تتويج اتفاقيتنا بالمصافحة! ولشدة عجبي فقد تلكأت بمد يدها، إذ فتحت حقيبة يدها وأخرجت منها منديلاً قماشياً فردته ثم أحاطته حول كفها اليمنى، وبعدها مدت يدها وصافحت يدي الممدودة !

انفجرت أضحك دون إرادة مني، إذ لم تمرّ عليّ مثل هذه الحادثة، لا هنا ولا في الوطن؛ كما أنني لم أتذكر، على الرغم من كثرة لقاءاتنا، أنني صافحت يد حنان ولا احتجت لمصافحتها، قبل اليوم ! لقد تعودت ومنذ

صغري أن لا أمد يدي لمصافحة امرأة، حتى ولو كانت من محارمي، إلا إذا كانت هي البادئة.

-أنا آسف جداً يا آنسة حنان؛ إذ إنني لم أستطع كبح جماح ضحكي! كما أرجو أن لاتفكري أنني أسخر من معتقدك، بل على العكس من ذلك تماماً، فإنني أزداد إعجاباً بك واحتراماً لك، لالتزامك الديني، كلما عرفتك أكثر ! ولكنك بفعلتك هذه، ذكرتني بسنوات طفولتي ويفاعتي أيام كنا نسكن في مدينتنا العتيدة الصامدة، فقد كنت أشاهد الكبار عندما يتصافحون، يلف الرجل يده اليمنى بطرف عباءته، وتلف المرأة يدها بردن ثوبها، حتى لاتتلامس الأيدي فيفسد وضوؤهم ا! فهل أنت الآن على وضوء ؟!

-أنا لست على وضوء، ولكنني كمسلمة ملتزمة يجب أن لا أصافح الرجال من غيرمحارمي. لمس الإنسان المسلم لآخر يختلف عنه في الجنس غير مسموح به في المذاهب الأربعة،وإن طلع علينا في هذه الأيام من يفتون بجوازه ! قالت.

مرت قصتي مع حنان الرمحي بمخيلتي وأنا أنتظر دوري في الصف الطويل لإعطاء طلبيةالبيتزا!

-على الرغم من أنك أسعدتني كثيراً كثيراً لما قلته عني للفتاتين، إلاّ أنني شعرت بحرج شديد أمامهما! قالت مارثا حالما عدت من إعطاء الطلبية وجلست قبالتها.

-أنا آسف جداً جداً أنني سببت لك الحرج؛ ولكن صدقيني أنني ما عنيت ذلك! إن شدةفرحي بك وسعادتي بمعرفتك، هما اللذان جعلاني أتصرف بهذا الشكل! قلت صادقاً.

-أنا جد واثقة من أنك لم تقصد إحراجي، ولكن ما قلته أربكني وأخجلني كثيراً!

-وما سبب خجلك؟! أهو لأنك طالبتي وأنا أستاذك؟

-لا، لا، أبداً! ليس لهذا السبب إطلاقاً! أنا امرأة ناضجة بلغت سن الرشد، أخرج مع من أشاء، وأحب من أريد! قالت بحزم ممزوج بالإصرار.

-إذن ما المشكلة ؟!

-أنا أعني قولك لهما؛ بأنني حبيبة قلبك، وأنني "يور قيرل فرند"!

-وهل تشكين بحبي العظيم لك؟! ثم ألا تقبلين بأن تكوني "ماي قيرل فرند"؟!

-عندما يقول إنسان عن آخر "بوي فرند" أو "قيرل فرند" فمعنى ذلك أن بينهما صداقةحميمة، وعلاقة جنسية؛ ونحن ليس بيننا هذه العلاقة! قالت بهدوء وتأنٍّ، وبأسلوب فلسفي !

-وماذا كان يجب عليّ أن أقول؟! سألتُ وقد رسمتُ علائم الجد على وجهي، وإن كنت أعني التهكم!

-كان يجب أن تقول "فرند" فقط؛ لأن المحبين الناضجين عادة لا يتحدثون عن حبهم ولايظهرون مشاعرهم أمام الأخرين !

-الله ! الله ! ما أجملك يا مارثا ! إنك وأنت تفلسفين الأفكار، أشعر أنك قد تفوقت على"موناليزا" بكل جمالها وحلاوتها، وأنها تتلاشى أمام سحرك وعذوبة أنوثتك ! ولو لم نكن بمكان عام، لانقضضت عليك آكلك أكلاً ! قلت وعيناي تلتهمانها التهاماً !

-لن أسمح لك أن تفعل ذلك؛ وقد أستنجد بالمارة! قالت وهي تتضاحك مما زاد في إغرائها وسحرها!

ولأول مرة منذ أن غادرت حنان وصديقتها، أرى مارثا قد تركتها صرامتها وعبوسها وتجهم وجهها!

-منذ أن قابلنا حنان وصديقتها وأنت تتكلمين بطريقة هجومية خشنة، وكأنما تتكلمين مع عدو لدود لك، فهل هناك من سبب؟! سألتُ.

-هل كانت "هنان" في يوم من الأيام "يور قيرل فرند"؟! سألتْ وقد غطت علائم الجد و التجهم وجهها من جديد!

-أبداً! أبداً! قلت وقد فاجأني سؤالها.

-وهل سبق وأن خرجت معها، كرجل وامرأة؟

-أبداً! أبداً! قلت وأنا أبتسم وسرور هائل يدغدغ أعطافي.

-وهل صادف ودعوتها للخروج معك فرفضت؟!

-سؤالك هذا، أحيله عليك لتجيبي أنت عني ! قلت وقد أحسست بفحولة الفحل العربي تستجوبه أنثاه، بل تحقق معه، إن كان قد ضاجع غيرها !

-لا أظن أنها سترفض! قالت.

-شكراً! شكراً جزيلاً لدفاعك عني أمام نفسك! ولكن هل لك أن تعلميني عن سبب سؤالك هذا؟! قلت وقد أحسست أنني وصلت عنان السماء فحولة وتعملقاً!

-لأن الطريقة التي قدمتني بها لها، والكلمات التي قلتها لها عني، جعلتني أشعر وكأنما تتحداها وتريد أن تؤكد لها، وبطريقة تفاخرية، استعلائية، فتقول: أنت رفضت دعوتي... أو لم تقبلي الخروج معي... أو لم توافقي على ما عرضته عليك... أو لا تريدين أن نكون "بوي فرند و قيرل فرند"... فها أنا أحصل على واحدة، لا تقل عنك جمالاً وثقافة، هذا إذا لم تكن أحسن منك...! هكذا أحسست...! قالتها وهي تبتسم، ثم أتبعتها بهزة من رأسها.

وبدون إرادة مني، صحت بصوت عالٍ جعل جميع من حولنا ينظرون إلينا مندهشين:

-لله دركِ ما أذكاك وأحذقك يا مارثا! حقاً إنك والله عبقرية! لأن هذا ما حصل، وإن كنت قد تصرفت به لا شعورياً!

تنبهت لغلطتي، فشعرت بإحراج شديد وخجل لا يوصف لتصرفي اللاحضاري؛ ولا شك أن مارثا أصابها ما أصابني، إذ لاحظت أنها تغطي وجهها بيديها من العيون التي أكلتنا بنظراتها المستنكرة!

-أنا آسف إذ أظهرت إعجابي بذكائكِ المفرط بهذه الطريقة التظاهرية، ولكن عذري الوحيد هو سعادتي المفرطة بالتعرف عليكِ، وحبي الشديد لكِ! قلت بانكسار.

-ومع أن هذه التصرفات تزيد في سعادتي، إذ تؤكد لي وباستمرار شدة حبك لي، إلا أنها أحياناً تحرجني، وبعضها يحرجك أنت أيضاً! أرجوك اضبط عواطفك أمام الأخرين! قالت بلطف ودلال!

-أعدك أني سأفعل! ولكن ما حدث قبل قليل خرج دون إرادة مني! قلت.وقصصت على مارثا، وبالتفصيل، قصة مزاحي مع حنان، دون أن أخفي عنها شيئاً.

-وهل أفهم من ذلك أنني كنت صائبة في تفسيري للموقف؟! سألت.

–قبل أن أجيبك على سؤالك هذا، أقول لك ما حدث بكل صدق وإخلاص. عندما قدمتك إلى حنان وصديقتها على أنك حبيبة قلبي وصديقتي الحميمة، كنت مخلصاً في قولي صادقاً بادعائي، وأنني عنيت ما قلت؛ وإذاعته بهذه الطريقة التظاهرية، هو لشدة حبي لك وعظم فرحي بك! ولكن بعد أن قلت ما قلت شعرت بالندم ولمت نفسي على تصرفي، وسألت نفسي عن السبب الذي دعاني لقول مثل هذا الكلام، ففسرته على أنه ربما كان العقل الباطني هو الذي تصرف هذا، وإن كنت غير مدرك له! وعندما سمعت تفسيرك لتصرفي، صار عندي شبه يقين بأن ما قلته أنتِ لا بد وأن يكون صحيحاً، ولهذا صحت استحساناً ودون شعور مني! قلت.

–وهل لو وافقت "هنان" على دعوتك لها، فهل ستخرج معها؟

–طبعاً! ولكن كما يخرج اثنان طبيعيان من نفس الجنس؛ رجلان أو امرأتان، مثلاً. أعني شخصين ليس بينهما أية عاطفة رومانسية، ولا يفكران ببعض إلا كما يفكر اثنان خرجا لأداء واجب يقومان به! قلت.

–ولم؟! وبالمناسبة فإن "هنان" فتاة جميلة جداً، حتى إنني استغربت أن يخرج من جوّ الصحراء مثل هذا الجمال! ما كنت أفكر أن عندكم فتيات جميلات إلى هذا الحد! ثم استدركت و كأنما شعرت بغلطتها:

–عفواً! إن ما عنيت هو أننا نعلم أن الصحراء تحرق الوجه و تجعله حنطياً يميل إلى السمرة؛ إذ لم أكن أعرف أن عندكم مثل ما عندنا بل وأجمل! عيناها زرقاوان... بشرتها ناصعة البياض وذات صحة جيدة... لها أنامل رقيقة جداً... نحيفة... طويلة... ممشوقة القوام! أنا لم أر شعرها لأنها كانت تغطي رأسها بمنديل، ولكنني رأيت حاجبيها. لقد كانا أشقرين، ولا شك بأن لها شعراً ذهبياً...! إنها تستطيع أن تكون منافسة لأية فتاة مهما كانت جميلة! لا شك أنها مثقفة ما زالت طالبة جامعة! قالت بحماس.

–أشكرك نيابة عن حنان لكل هذا الإطراء و المديح، وأحب أن أطمئنك أن عندنا فتيات جميلات مثلما عندكم! عندنا من الحامض إلى الحلو! قلت بلهجة يغلب عليها التهكم!ضحكتْ لتعبيري الغريب بتصنع ممزوج بعصبية وقالت:

–ولم تحمل لها هذا الشعور المسبق؟ سألت باهتمام شديد لاحظته على قسمات وجهها وفي طريقة سؤالها!

-لأنني لا أشعر أن عندها الزخم الكافي من سحر ورقة وعذوبة أنثوية تثير عواطف الرجل نحوها! هكذا هي بالنسبة لي، وإن كانت لا شك عندي بأنها ليست كذلك بالنسبة للرجال الآخرين؛ لأن عندها كل تلك الصفات الجيدة التي ذكرتها أنت! لقد فقدت حنان سحر أنوثتها ورقتها وجمالها بالنسبة لي، عندما رأيتها ولأول مرة، بعد محاضرة لي عن قضيتنا الأولى،مأساة فلسطين، وكنت قد ألقيتها في جمع حاشد من الطلبة في ذكرى وعد" بلفور" في مركز منظمة الطلبة العرب في لوس أنجلوس، وهي تناقش بل تجادل الرجال والنساء بطريقة أذهلتني! ولقد تكرر فعلها هذا بعد كل محاضرة أو مناظرة وطنية! إنني أتصورها رجلاً يريد أن يمزق خصمه الذي أمامه، والذي يخالفه الرأي ولا يتفق معه في القول! أنا أحب في المرأة ضعفها الأنثوي...رقتها... حنانها... نعومتها...! وليس عراكها واستئسادها... ثم ضحكت وأضفت:

-على كل حال اطمئني! أنا لا أحب امرأة؛ ولا أفكر بأنثى... بل ولن أحب ولن أفكر بواحدة سواك! أنت عندي أغلى ما في الوجود! أؤكد لك وصدقيني!

وقبل أن أكمل جملتي الأخيرة سمعت صوت النادلة من على المايكرفون ينادي على رقمنا ، فاستأذنتها لأذهب وأحضر ما طلبناه.

-وأين البيرة ؟! سألت مارثا حالما وضعت الطلبية على الطاولة، ولمّا أجلس بعد!

-أحضرت عصيراً بدلاً منها! أجبت وأنا أضمها برموش عيني.

-العصير لي، أنا أعرف ! ولكن لِمَ لَمْ تحضر لك بيرة، ما زلت تحب أن تشربها مع البيتزا؟!

-أنا لا أحب أن أشرب شيئاً تكرهه حبيبة القلب مارثا! قلت وأنا أتهجّد في محراب جمال ما تكرم به علينا الخالق!

-وما علاقة ما تحبه أنت وما أكرهه أنا؟! سألت وقد اتسعت حدقتا عينيها، فشعرت أنها ازدادت جمالاً وتألقاً معاً!

-سامحك الله! وكيف تسألين مثل هذا السؤال، وأنت الذكية الواعية؟! ليس من الضروري أن تطلبي إليّ عدم فعل شيء ما، أو التصرف بطريقة ما، حتى لا أفعله! يكفي فقط أنأعرف أنك تكرهين هذا فأتجنبه أنا، وأن هذه هي رغبتك حتى أنفذها، وبكل المحبة والسرور ! قلت بحماس ولكن بتأنٍ !

-ولكن رغبتي هي ما يسرك؛ ولقد فهمت أنك تستمتع في شرب البيرة مع شرائح البيتزا!

-نعم، هذا صحيح ! وقد كان قبل أن أقابل الآنسة مارثا كارلنقتون وأقع أسير حبها !أريدك أن تعلمي بل وتتأكدي بأنني بعد الآن، أن كل شيء أنت لا تحبينه فإنني أكرهه، ولن أعطِه أي اعتبار! إنني وكما يقول إخواننا المسيحيون قد رأيت النور ! نور الخالق، من خلال حبّـي لك! قلتها بطريقة دراماتيكية وكأنما أقف على خشبة المسرح !

-وهل حبك لي أراك النور؟! ما أسعدني! سألت باندهاش.

-إنه لم يرني النور فقط، وإنما أحياني من جديد! لقد كنت قبل أن أقابلك وأقع أسيرحبك ، أتخبط في الظلام، وأسير على غير هدى! إنني وبعد أن قابلتك شعرت أنني ولدت من جديد! صدقيني!

-وماذا عن حبك لشيلا روبنسون؟! سألت باهتمام شديد لاحظته في لهجة حديثها ومن تعابير وجهها!

-قلت لك أنا أحبها كأخت! كإنسانة أتحدث معها دون قيود ولا حدود! أفتح لها قلبي...أحدثها عن همومي وأحزاني ومشاكلي... أحدثها عن أماني وآمالي وطموحاتي... أطلب إليهاأن تدلني على الطريق الصحيح... أستنير برأيها...! لقد أعلمتها عن حبي لك فشجعتني على التمسك بك! إنها تعني الكثير بالنسبة لي...!

-وأين أقع أنا من هذا الحب؟! سألت ولهجة الجد ما زالت تستبد بها!

-إنني أستطيع أن أفلسف القضية فأقول بأن حبي لك هو امتداد لحبي لها، مع اختلاف الحبّين طبعاً! هي زوجة مخلصة لزوجها كل الإخلاص، وفيّة لقدسية الزواج! أحبها وأحترمهما كثيراً جداً، وبيننا نحن الثلاثة صداقة داقة ومحبة واحترام يفوق الوصف! إنني أشكر الله أن يسّرهما لي بعد رحيل صديقي السيد جورج مونتكيو إلى سان هوزيه، والذي عاد إلى زوجته وأولاده وقت بدء تعرفي عليهما! إنهما زوجان مثاليان! إنك لا شك ستحبينهما عندما تقابلينهما! قلت.

-لقد أحسست بأن الزوجة مؤدبة جداً، ودافئة؛ ليلة تحدثت معها على الهاتف! لقد كانت بشوشة جداً، ورحبت بي ترحيباً حاراً، وأحسست وكأنما نحن صديقتان منذ زمن بعيد!

-أنا أقدسها... أجلّها... أفديها والله بنفسي! إنها مثال الوفاء والإخلاص والتضحية...مثال النبل والطهارة والعفة! أنا أحب روحها...

الجلوس إليها... التحدث معها... الاستماع إلى آرائها... إنها كريمة... معطاءة... صادقة...مخلصة...بهاكل الصفات الحميدة في البشر !
كنت وأنا أتكلم، أتكلم بصدق وإخلاص وحماس أيضاً، وكأنما أخرج الكلمات من أعماق قلبي، ومن صميم وجداني، أرافقها بحركة من يدي ورأسي!

-وهل تعتقد أنني سأصل في يوم من الأيام إلى درجة المحبة والاحترام، وكذلك الثقة التي منحتها إلى السيدة شيلا ؟! سألت بعد أن أعادت إلى مكانها خصلة من شعرها سقطت فوق عينيها.

-إنني أطمع بعد أن يتجذر حبك في قلبي ويتعملق أن ألجأ إليك أنت في كل هذه القضايا بدلاً منها، وأن أتركها لشؤون بيتها وزوجها ! أليس هذا هو الذي من المفروض أن يحدث ؟!

-أنت الآن بدأت تفلسف الأفكار! لا تستبق الحوادث... دعنا ننتظر...! قالت وهي تتضاحك.

-لقد كان هذا هو شعوري نحو الزوجين، قبل أن أقابلك؛ شعور يصل درجة التقديس! ولولا أنني مسلم ملتزم، لقلت لك بل إلى درجة العبادة؛ وإن كنت أحسب بأنني أقرب كثيراً إلى الزوجة مني إلى الزوج ! أستطيع أن أبوح لها بأسراري، في الوقت الذي أحس فيه ببعض الحرج أن أقوله للزوج ! أما الآن فأنا أطمع أن تقومي أنت بهذه المهمة ! قلت.

-قناعاتي القوية تؤكد لي بأنك لست بحاجة إلى السيدة شيلا ولا لغيرها للاستنارة برأيها ولمساعدتك في حل مشاكلك ! إن عندك من الحكمة وسداد الرأي، وكذلك الثقة بالنفس، ما يغنيك عن اللجوء إلى أيّ إنسان !

-شكراً للثقة المطلقة! ولكنني ما زلت أعتقد أنني بحاجة إلى إنسانة ذات قلب كبير وتفكير سديد؛ وأنا واثق جداً بأن عندك طلبي! قلت بحماس وصدق.

-وأنا بدوري أشكرك للثقة المطلقة بي، وآمل أن لا أخيب ظنك! لقد رددت كثيراً فكرة أنك تحب روحها، مما جعلني أتساءل؛ ألا تحب روحي أنا الأخرى؟! قالت وقد لاحظت علائم السعادة تغطي وجهها وتشع من عينيها !

-طبعاً أحب روحك! إن الذي عنيته بحبي لروحها هو؛ وبما أنها امرأة متزوجة وملتزمة،فإنه لا يجوز أن أحب بها أشياء محرّمة عليّ ! يعني حبي لها حب روحي... أفلاطوني...عذري...! أما أنت فأحب بك كل شيء!

-وماذا تعني بكل شيء؟!

-أعني أحب روحك وجسدك، وكل جزء من أجزاء تكوينك! قلت.

احمرت وجنتاها، وعلت جبينها ورقبتها حبّات من العرق، ورمت بوجهها إلى ما أمامها، ثم أخرجت منديلاً قماشياً من حقيبة يدها وصارت تجفف ما عليها من العرق.وهنا فتحت كرتونة البيتزا ووضعت قطعة في صحنها، ثم فتحت تنكة العصير و وضعتهما أمامها؟وفعلت نفس الشيء لنفسي، ثم أغلقت الكرتونة لأبقي على ما بها ساخناً، وبعد أن رشفتْ من تنكة العصير بعضاً مما بها قالت:

-آمل أن يظل حبكما لبعض هكذا، وأن لا ينحو منحىً آخر! قالت بخبث وشيطنة.

-وماذا تعنين ؟! سألتها، وإن كنت أعلم ما عنت.

-أعني أن الحب الذي تسميه روحياً... أفلاطونياً... عذرياً... قد يتحول إلى حب رومانسي ! أما العكس فلا يمكن أن يحدث ! أعني أن الحب الرومانسي لا يمكن أن يتحول إلى حب أفلاطوني...! قالت ذلك وتضاحكت.

-حنانيك ورحماك ! ثم بالله عليك، لا تعقديني بعمق فلسفتك وصواب آرائك ! سلبتني عقلي بجمالك وذكائك، وكذلك بأدبك ودماثة أخلاقك! قلت وقد فردت يدي أمامي علامات التوسل و الاستعطاف، وبطريقة مسرحية، ولكن بمنتهى الجدية والاهتمام !انفجرت تضحك ضحكات كأنها همسات ووشوشات عاشقين... ضحكات احتشام وأدب،فيها تألق وفيها أرستقراطية! نظرت إلى أسنانها، فسبحان المبدع الأعظم ! كانت بيضاء ناصعة البياض، وكأنما سكبت في قالب عُمل خصيصاً ليناسب هذا الفم الذي كأنه زهرة أقحوان ! شعرت وكأن ما بفمها من أضراس وطواحين وأسنان، ليست إلا قطاراً أو مركباً شراعياً يتهادى بي وأنا أركبه، ولم ينزلني حتى أوصلني جنة عدن !

قالت بعد أن كفّت عن الضحك وأعادت للمرة الثانية، إلى مكانها، خصلة الشعر التي سقطت على وجهها:

-وأنا أقول لك بدوري! أرجوك أرجوك... أن لا تعقّدني بكرمك وشهامتك، كما عقدتني بغزارة علمك وقوة منطقك !

-والآن أنا أقترح أن نتوقف عن مدح بعضنا البعض حتى نستطيع أن نأكل طعامنا قبل أن تبرد البيتزا ! قلت ذلك وأتبعتها بابتسامة خفيفة.

-معك الحق! قالت ذلك ورفعت شريحة البيتزا إلى فمها وقضمت قطعة صغيرة منها، بينما بدأت أنا ألتهم شريحتي باستمتاع وتلذذ ! كنت أنا قد انتهيت من الشريحة الثالثة ، وهي ما زالت تداعب الشريحة الأولى.

-يبدو أنني سآتي على الشرائح الخمسة المتبقية، وأنتِ ما زلت تداعبين الشريحة الأولى! قلت.

-إذا كنت تستطيع أن تأكل الشرائح الخمسة المتبقية فأرجوك أن تفعل؛ أما إذا لم تستطع فاترك لي واحدة وسآكل نصفها، وهذه هي مقدرتي! قالت.

قلت وأنا أتضاحك وأمدّ يدي داخل الكرتونة لأخرج الشريحة الخامسة:

-أشكر الله أنني لست امرأة، وإلا لكنت حُرمت من نعمة التمتع بخيرات الله الوافرة، إذ كان عليّ أن آكل القليل القليل حتى أحافظ على نحافتي ورشاقة جسمي!

-وأنا أشكر الله أيضاً أنك لست امرأة، وإلا لما كنت أجلس إليك الآن، بل ولربما لم نعرف بعضنا بعضاً ! قالت وهي تبتسم!

واصلت التهام شرائح البيتزا وشرب سائل العصير، دون أن أتفوه بكلمة واحدة؛ وانتهت هي من أكل الشريحة الأولى، ووضعت لها الشريحة الثانية في صحنها، دون أن تمسها أصابع يدي، وكما فعلت بالشريحة الأولى، محافظة على النظافة! عندما انتهينا من أكل شرائح البيتزا وشرب سائل العصير، جمعت كل ما أمامنا وألقيته في حاوية النفايات المعدة لذلك، وعندما عدت وقفت أمامها فاتحاً يدي الاثنتين لتمسك بهما لتساعداها على النهوض زيادة في الترحيب والاحترام، ولكنها لم تستجب ليديّ الممدودتين، وإنما طلبت إليّ أن أجلس، وكأنما تريد أن تقول شيئاً !

-لوالدتي صديقة عزيزة؛ توطدت صداقتهما منذ الدراسة الثانوية، وبسبب حميمية الصداقة بين المرأتين، فقد ولدت صداقة عميقة ومتينة بين زوجيهما ! لهذه الصديقة ولد يكبرني بعامين، ودرس علم الحاسوب

في جامعة نيويورك، وتوظف في إحدى الشركات الكبرى في نفس المدينة. قالت.

–لقد لاحظت أن الفتاة أو الشاب، هنا في أميركا، لا يحب أن يلتحق بجامعة في نفس المنطقة ولا حتى في نفس الولاية التي يسكن بها أهله، مما حيرني، إذ إن كثيراً ما تكون الجامعة التي تغرّب عن أهله من أجلها أدنى مستوى وأقل سمعة من الجامعات القريبة من أهله! قلت.

–هذا صحيح! إنهم يعتقدون أنه نوع من الاستقلالية والحرية، وكذلك نوع من المغامرة واكتشاف ألوان ممتعة من الحياة! الكثيرون من صديقاتي وأصدقائي أيام الدراسة ذهبوا إلى ولايات أخرى، مجاورة وبعيدة، ليلتحقوا بجامعاتها؛ والكثيرون منهم استغربوا بقائي في كاليفورنيا، وبعضهم صُدموا أنني أسكن مع والدتي وأخي وزوجته، لأن بعضهم يتركون منازل أهلهم حتى قبل أن ينهوا دراستهم الثانوية!

–يبدو أنك لا تحبين الاستقلالية والحرية التي يحلمون بها ! قلت مازحاً.

–على العكس من ذلك؛ فأنا أعبد الحرية والاستقلالية، ولن أتنازل عنهما مقابل أي فائدة أخرى؛ ولكنني أحصل عليهما دون أن أغادر ولايتي، ولا حتى منزل العائلة! قالت بحماس وهي تحرك رأسها ويديها علامة التأكيد الحاسم.

–ما أجملك وأعظمك يا مارثا ! إنك تكبرين وتتعملقين في عيني كل يوم، بل وفي كل ساعة وثانية! إنك كلما تتفوهين بكلمة، أدرك سمو أخلاقك وعظم تفكيرك! ما أسعدني بك! كم أنا شاكر للخالق الذي جمعني بك وأوقعني بحبك! قلت وأنا أنظر في عينيها وأتأمل قسمات وجهها وجماله!

لم تعلق على ما قلت، واكتفت بهزة من رأسها علامة الشكر، وابتسامة من شفتيها علامة الرضا!

–كلما رأتني هذه الصديقة، وما أكثر ما نرى بعضاً، تختتم حديثها معي، بأن الشاب الوحيد الذي يستحقني ويستطيع أن يفهمني ويقدرني ويسعدني، هو ابنها "دريك"، لأنه وحسب مقولتها، شاب شهم وكريم بكل ما تحوي هاتان الكلمتان من معاني، واسع الثقافة، عظيم الأخلاق، مؤدب... إلى آخر قائمة المديح والثناء؛ حتى شعرت أنني أقع في حبه قبل حتى أن أكلمه!

-يقولون بأمثالنا العربية الشائعة، بأن القرد في عين أمه غزال! قلت معلقاً! ضحكتْ، فشجعني ضحكها على الاسترسال.

-ويقولون أيضاً بأن سيدنا النبي سليمان عليه السلام، كان يفهم لغة الحيوانات ويتكلم معها، وله عليها سلطة ونفوذ، منحها له الخالق جل شأنه ! طلب من البومة يوماً أن تحضر له أجمل طير في الكون، وغابت قليلاً وعادت تحمل ابنها، فضحك سيدنا سليمان وشكر لها حسن ذوقها ! ومن الطبيعي أن تفكر صديقة والدتك بأن ابنها يتمتع بجميع الصفات الحميدة التي من الممكن أن تتواجد بالإنسان !

-لا أريد أن أطيل عليك فأزعجك بالتفاصيل المملة؛ إذ أخيراً جاء "دريك" إلى كاليفورنيا من أجل أن يقابلني ويتعرف عليّ، ودعاني إلى العشاء، ثم نذهب بعد ذلك إلى المسرح ! لا أكتمك أنني كنت متشوقة جداً جداً للقائه ! جاء وأخذني من البيت وذهبنا إلى مطعم فخم جداً في مدينة "بفرلي هلز" وأنا أتصور نفسي ذاهبة مع زوج المستقبل، لكثرة ما شوقتني والدته إليه!

-هل تصدقين أنني بدأت أغار منه؟! قلت مازجاً الجد بالهزل.

-المهم، سألني وهو يتصفح قائمة المشروبات الروحية، عن نوع النبيذ الذي أحب أن أتناوله مع العشاء؛ ولما أعلمته بأنني لا أذوق ولا أي نوع من الكحول، استغرب جداً، وقال بأن الفتاة التي لاتشرب الكحول في هذه الأيام هي فتاة رجعية، وربما لا تكون حتى طبيعية ! أزعجتني مقولته فضحكت وتجاهلتها، وقلت له: أتناول القهوة مع العشاء. لم يحتفظ بسكوته وإنما قال بأنني وفرت عليه ثمن ما أشرب وأنه هو يستطيع أن يشرب قارورة نبيذ لوحده ودون أن يشاركه بها أحد! قالها بفرح صبياني مقزز. مرة ثانية أزعجتني مقولته، ومرة ثانية بلعت الإهانة وتجاهلت كبريائي المجروح وضحكت!

-يا له من إنسان غير حضاري! ذلك المخلوق الذي تسبب في إزعاج حبيبة القلب مارثا! قلت بقهر ممزوج بالغضب؛ وقد أمسكت بيديها الاثنتين وصرت أتأمل في عينيها الدعجاوين!

-عندما أحضر النادل قارورة النبيذ، صار يغازلها ويداعبها وكأنما هي حبيبة، ودون أن يعيرني أقل اهتمام، فشعرت بإهانة مذلة؛ وقهر لا يوصف، وأنني على وشك الاختناق... وبعد أن انتهى من الكأس الثاني صار يتكلم كلاماً سخيفاً... كلاماً كلما أتذكره يصيبني دوار وغضب ماحق؛ إذ صار يحدثني عن عشيقاته اللواتي يهمن به ويتمنين الزواج منه... إلى آخر هذا النوع من الكلام المقرف... فكرت أن أستأذنه وأنهض فأتصل بأخي أو

بزوجته ليأتيا ويأخذاني، ولكنني ضغطت على أعصابي وصبرت حتى قُدِّم العشاء. تظاهرت بالأكل وهجم هو على ما بصحنه كأنه يرى الطعام لأول مرة، وظل يأكل بشراهة و يشرب بجشع حتى أتى على كل ما أمامه من الطعام والنبيذ معاً!

-- لا شك أن لك أعصاباً من حديد؛ وتتمتعين بطاقات هائلة من الصبر! قلت مواسياً.

-لم أستطع أن أصبر حتى أكمل عشائي، فقد طلبت إليه أن نعود إلى البيت بحجة أن عندي صداعاً ومغصاً شديدين! "والمسرحية؟! ألا تريدين أن نذهب إلى المسرح؟!" سأل فأجبته، بأننا سنفعل ذلك في ليلة أخرى. وكانت المرة الأولى والأخيرة التي أقابله بها!

-والله إنك أحزنتني بقدر ما أفرحتني ! قلت صادقاً.

-قصصت ما حدث على والدتي وزوجة أخي، وأعلمتهما بأن يخبرا والدته بما حدث، وأن يؤكداعليها أيضاً بأن تخبر ابنها بأن لا يهاتفني أبداً، وأنني لا أريد أن أرى وجهه مرة أخرى !

ولما لم أعلق، أضافت:

-منذ تلك الليلة! لم تذكر أمه قط اسم ابنها أمامي، مع أننا نرى بعضاً في كل يوم تقريباً!

-شكراً لك أن منحتني ثقتك بأن أطلعتني على سر من أسرارك! قلت جاداً بعد أن نشرت سحابة من الكآبة فوق وجهي.

-لقد رويت لك تلك الحادثة لأعلمك كم كبرت في عينيّ، وقد تنازلت عن رغبتك في شرب بعض البيرة من أجلي، مع أنني لم أطلب منك ذلك!

-أنا أتنازل لكِ عن عيوني... عن قلبي... عن حياتي كلها! صدقيني! قلت مندفعاً بحماس عفوي.

-أنا واثقة من ذلك، ولا حاجة لأن تؤكد لي! من الكلمات البسيطة التي نطقت بها، والتصرفات الصغيرة التي قمت بها؛ شعرت أنك إنسان عظيم تستحق المحبة والاحترام !

-وهل عدم طلبي للبيرة هو الذي كوّن قناعتك بي ؟!

-لا، أبداً! إنك حتى لو طلبت البيرة فإنك تظل في عينيّ إنسان عظيم! إنك تختلف كثيراً عن جميع الذين عرفتهم! قوة شخصيتك... غزارة

علمك... سعة اطلاعك... شجاعتك الأدبية... رهافة عواطفك ورقة أحاسيسك... احترامك لمشاعري... كل هذه مجتمعة جعلتك عملاقاً في عيني! قالت و كأنما كانت تلقي قصيدة غزل !

-واو! لم أكن أعرف أن عندك كل هذه البلاغة اللغوية! يجب أن تكوني كاتبة! وبعد أن انتظرت قليلاً، ولما لم تعلق أضفت:

-كما أنني لم أكن أعرف أيضاً أنني أملك كل هذه المميزات الخارقة! إذن أنا هدية السماء لجميلات جامعة كاليفورنيا! قلت ذلك وأتبعتها بضحكة، ثم نهضنا وغادرنا المطعم.أ

أخذت مفتاح السيارة منها، وبعد أن فتحت قفلها أعدت المفتاح إليها؛ وبيدي اليسرى فتحت الباب وبقيت ممسكاً به؛ وفرشت لها يدي اليمنى رافقتها بانحناءة من ظهري، وقلت:

-تفضلي يا حبيبة قلبي ويا مالكة عقلي! تفضلي يا أغلى من في الوجود! قلتها بطريقة دراماتيكية مسرحية!

-شكراً يا أعز صديق، ويا أكثر شهامة وأكثر نبلاً من أي إنسان عرفته! كم أنا سعيدة ومحظوظة أيضاً أن أكون صديقتك! قالتها هي الأخرى بطريقة دراماتيكية مسرحية، مقلّدة إياي؛ ثم منحتني ابتسامة ودلفت إلى السيارة ، وتركت لي إغلاق الباب ! لم تقل الماكرة يا أعزّ حبيب، ولم تقل إنها سعيدة ومحظوظة أن أكون حبيبها ! إنها دائماً تستعم لكلمة صديق! إنها ومنذ تعارفنا وحتى الآن لم تذكر لي أنها تحبني، ولم تذكر لي أنها افتقدتني، وإن كانت تصرفاتها كلها تدل على الحب، وتدل على الاشتياق أيضاً! لا شك أن كلمة الحب عندها تعني التزاماً و مسؤولية كبيرين، ولا تقولها جزافاً كما أفعل أنا ويفعل الكثيرون من أمثالي!

-إن حبك يخيفني في بعض الأحايين! إنه كالحلم الجميل من الصعب تصديقه! قالت حالما جلست إلى جانبها وانطلقت بنا السيارة.

-ولمَ تقولين ذلك؟! وهل أفهم من هذا أنك تشكين في حبي لك؟! سألتُ وقد حوّلت وجهي إلى اليسار باتجاهها، فأدارت هي وجهها نحوي وقد علت شفتيها ابتسامة هزتني وكأنما أراها لأول مرة، فتقابلت عيوننا، وتعانقت أرواحنا !

-لقد أسأت فهمي! أنا ما عنيت هذا! إن ما أردت قوله هو أن كل هذا الحب الذي تحبني إياه،وكل هذا الاحترام لمشاعري، في هذه الفترة

القصيرة، حدث من الصعب أحياناً تصديقه! إنني أشعر ومنذ قابلتك أنني أعيش بحلم! صدقني! قالت وهي تستعمل يديها في بعض الأحايين!

–صدقيني أن هذا ما أشعر به أنا! إنكِ وأنت تتحدثين وكأنك تعبّرين عن مشاعري! ثم إن الأحلام عندي دائماً أجمل من الحقيقة! قلت.

–ولكنني أحياناً أشعر بأنني خائفة... بل مرعوبة! خائفة أن أستيقظ يوماً ولا أجد لهذا الحب أثراً! قالت بحزن شديد شعرته بصوتها وأحسست به بمشاعري!

–فليكن دائماً عندك ثقة بالله، واطردي الوساوس من عقلك؛ وثقي به، وبمشيئة الله لن أخيب ظنك!

–صدقني إن ثقتي بالله مطلقة؛ ولا تضحك مني إن قلت لك إنني أعتبر نفسي من المؤمنات! لقد رأيت الليلة الماضية في منامي جدتي التي توفيت قبل عام تلبس لباساً أبيض وصليباً كبيراً مدلّى على صدرها، فسألتها عنك فلم تجبني! أعدت السؤال عليها عدة مرات، فبقيت صامتة؛ ألححت عليها فاستمرت بصمتها تحدق في وجهي! وبعد إلحاح شديد نطقت: "افعلي ما فعلته أمك" ثم اختفت!استيقظت من نومي منزعجة وأنا أنادي جدتي! جدتي! ولا أكتمك أنني ما زلت حتى هذه اللحظة تحت تأثير ذلك الحلم! قالت.

أرعبني كلامها وأقلقني لدرجة جعلتني أحس بالاختناق! لقد قصّت عليّ حب والدتها لذلك الطبيب العربي والذي طلب إليها أن يتزوجا وأن تعود معه إلى وطنه، فرفضت الزواج منه حتى ولو عاش معها في أميركا!

–ولكنني لن أطلب منك أن تعودي معي إلى الوطن... ولا أن تغادري كاليفورنيا... بل ولا حتى أن تتركي مدينتك التي تسكنينها ! وفكرت أن أذهب أبعد من ذلك، إذ كدت أن أقول لها: وتستطيعين إنأحببت أن تبقي في نفس بيتكم الذي تسكنينه الآن! ولكني خفت أن يُساء فهمي! قلت وخفقات قلبي تضرب طبلتي أذني، هلعاً وقلقاً!

–هذا كلام سابق لأوانه! نحن الآن أصدقاء فقط، ولسنا ندري ما يكتب لنا القدر! قالتها بحزم وتأكيد، وشدّدت على كلمة "فقط" مما زاد في هلعي وقلقي! ولكنني تذكرت حديثها لي عن "دريك" فعاد إليّ بعض الهدوء والاطمئنان !

طيلة بقية الطريق لم يفتح أحدنا فمه، ولم يسمع إلا صوت ماكنة السيارة التي كانت تنهب الأرض؛وموسيقى خافتة... ناعمة... حنونة...

دافئة... تنبعث من مذياع السيارة ! أما أنا فقد كنت أشرّق وأغرّب ! إذ استبدت بي أفكار مقلقة ومعذبة ! إنني أعرف عناد واستقلالية المرأة الأمريكية؛ فإن قالت شيئاً فلن تتردد في تنفيذه، ومن الصعب جداً التراجع عنه! ماذا لو أعلمتني مارثا الليلة بأن هذا آخر لقاء لنا خارج قاعة المحاضرات ؟ ! بل آخر مرة نرى بها بعضنا بعضاً ؟! إنها قد تفكر بالانسحاب من المساق الذي أحاضر به؛ بل وليس من المستبعد حتى أن تنسحب من الجامعة كلها وتذهب إلى جامعة أخرى ؟! إنه من السهل جداً عليها أن تفعل ذلك ! هذا يعتمد على متانة وعمق حبها لك !

أين أنتِ الآن يا أم العبد، وأين أدعيتك الصالحات ؟! لقد افتقدتها كثيراً ياأمي ! أنا الآن أحوج ما أكون إليها، فأرسلي لي شيئاً منها ! إذا تركتني مارثا، فإنني سأفقد عقلي وأجن...! نعم، يوجد شيلا وحبها، ولكن... وقطع علي حبل أفكاري وقوف السيارة أمام عمارة سكني، ومارثا تقول:

-شكراً لك على الوقت الممتع الذي قضيناه سوية؛ لقد استمتعت بكل ثانية منه. وشكراً أيضاً لسلة الورود. إن عندك ذوقاً جمالياً متميزاً! إنها جميلة حقاً. رائعة ! آسفة، لقد نسيت أن أشكرك لحظة دخولك السيارة، ولكننا انشغلنا بالحديث !

-صدقيني يا مارثا! لو قدّمت لك كل ما في العالم من ورود، وزهور أيضاً؛ لما كانت في رأيي كافية؛ ولشعرت أنني يجب أن أقدم لك أكثر وأكثر! أنت لا تعرفين مقدار معزّتك عندي!

وكنت لحظة دخولي السيارة قد قدمت لها سلة من الورود الثمينة الفاخرة، اشتريتها لها من محل لبيع الزهور، تملكه سيدة لبنانية مغتربة، في الخمسين من عمرها، ذات جمال وذوق مترفين ورائعين، تعرفت عليها وعلى زوجها قبل أكثر من عام. لقد كانت دائماً تختار لي أحسن ما في محلها، وأدفع لها في نهاية كل شهر! لقد كنت أبتاع منها مرة في الأسبوع على الأقل، لكثرة المناسبات عندهم هنا في أميركا؛وكانت معظمها تقدم إلى شيلا روبنسون، بمناسبة وبغير مناسبة ! وبعد أن ابتلعت ريقي أضفت:

-شكراً لك على دعوتي؛ كان لطفياً وعظيماً منك أن تتكرمي وتأخذيني لمشاهدة تلك المسرحية الرائعة !

-الشكر لك أنك قبلت دعوتي، إذ لولاك فلربما توقف عرضها قبل أن أستطيع رؤيتها! وكأنما تذكرت شيئاً فأضافت:

-كانت هي نفس المسرحية التي دعاني إليها ابن جارنا "دريك" !

-وهل لهذه المسرحية كل هذه المدة ؟! سألتُ باستغراب !

-نعم، لقد صار لها أكثر من عامين! وقد تبقى عامين آخرين!

لم أعلق على ما ذكرت وإنما قلت:

-أحب أن أقول لك تفضلي لأريك شقتي و كتبي و أوراقي، ولكن الوقت على ما أعتقد متأخر!

-نعم، إنه متأخر جداً ! الساعة الآن تقترب من الثالثة والنصف صباحاً، وصدقني إن هذه أول مرة، في حياتي كلها، أبقى خارج البيت بعد الواحدة ! قالت بعد أن نظرت إلى ساعة السيارة.

-لا شك أنني محظوظ جداً جداً حتى أحصل على كل هذا الاهتمام منك! قلت محاولاً أن أطرد مخاوفي وأبعد القلق من نفسي.

-طبعاً! أنت إنسان مميز عندي؛ وهل عندك شك في ذلك؟! سألت وقد سددت إليَّ نظرات فاحصة! أفرحني جداً جداً ما قالت؛ إذ شعرت ببعض الهدوء والاطمئنان، وتأكد لي بأن أوهامي كانت في غير محلها!

-أنا أعرف ذلك! صدقيني! قلت وقد اقتربت منها لأقبلها على شفتيها، ولكنها أعطتني خدها وهي تقول:

-تصبح على خير! أكلمك غداً... أعني اليوم !

-تصبحين على خير! وشكراً مرة أخرى على الدعوة!قلت ذلك وفتحت باب السيارة وخرجت، وحالما أغلقته خلفي كانت قد انطلقت.

* * * * *

الفصل العاشـــــــــر

قالت لي مارثا بعد ما انصرف جميع الطلبة الذين تجمهروا حولي بعد المحاضرة، كعادتهم في كل مرة، وبعد أن أجبت على أسئلتهم وتركنا قاعة المحاضرات في طريقنا إلى مكتبي كما كنا نفعل بعد كل محاضرة.

–لك عندي أخبار سارة ستفرحك كثيرا! قالت وقد أضاء وجهها وعلت شفتيها ابتسامة ساحرة.

–شكرا! شكرا! ما أسعدني بك وبحبك! أما الخبرية المفرحة التي أردت أن أقولها لك هي بأنني سآتي الليلة إلى شقتك وأقضي الليلة في ضيافتك، فغدا السبت وليس عندنا التزامات نقوم بتأديتها.

–ما أسعدني بذلك! وأخيرا تكرمت علي بالحضور فقبلت دعوتي. لقد مضت أربعة أسابيع على معرفتنا وأنا أمني نفسي في كل ليلة بزيارتك، إنني أكاد أحلق بأجواء السماوات العلى! وبعد أن فكرت قليلا أضفت:

–ومتى تنوين الحضور؟! أريد أن أحجز طاولة من الآن لأن المكان الذي أريد أن آخذك الليلة إليه لنتعشى به مزدحم دائما، وإلا فإن علينا الانتظار طويلاً.

–لا أريد أن نأكل في الخارج ، أحب أن يكون أول لقاء طعام لنا منفردين في شقتك، أطبخه لك أنا وأطعمك إياه بيديّ هاتين، وسأحضر كل ما يحتاجه الطعام معي، إذ إنني أريد أن أطبخ لك أكلة ستحبها كثيرا، ولكنني لن أقول لك ما هي!

–كل ما تطبخه يداك سيكون طعاما ربانياً وسآكله وآكلك معه، أنتما الاثنين بشراهة وشهية! قلت وقد استيقظت غرائزي الجنسية شوقا لعناقها؛ إذ في تلك اللحظة عريتها بخيالي وضاجعتها، ثم فكرت أن أهجم عليها وأعانقها أمام الغادين والرائحين لولا الخوف من العاقبة.

منذ أن غادرتني مارثا وعقلي لا يفكر بشيء إلا بجسمها وبالطريقة التي سأتعامل بها معه، فأتصور نفسي حالما أفتح لها الباب وتدخل بأن أحملها بين يدي هاتين كما أحمل طفلا صغيراً، أهدهدها وأداعبها وأناغيها، وأدخلها غرفة النوم فأعريها وأرقد فوقها، وأضاجعها مثنى وثلاث ورباع وربما أكثر! سأظل أفعل ذلك بنهم وشراهة حتى لا تبقى بي قوة تمكنني من الحركة! هكذا فكرت وهكذا خططت، ولكن الذي حدث هو ليس بالحسبان، شيء قلب كل موازيني رأسا على عقب !

فهل أحملها إلى الفراش عارية وأدفن وجهي في صدرها،وأرضع نهديها بنهم وشوق، كمايرضع الوليد ثدي أمه؛ أم هل أجلسها فوق السرير وأظلّ أدور حولها وأنا أنشد لها قصائد عشقي وهيامي وتدلهي بها تارة، وتارة أخرى أعزف لها على الربابة وأغني لها أغاني دلعونة والميجنا؟!أم هل أحمل طبلي وعصاي الاثنتين، كدرويش هزه الحنين إلى طبله وعصاه وأضناه الشوق وبرحه الوجد إلى خالقه،وأدور حول فراشها، بتهجد وتعبد، وأظل أدور و أدور، أقرع الطبل وأقرع و أقرع،وأنا أردد وأعيد؛ الله! الله! الله! أحدٌ أحدٌ أحد! شكراً على ما أعطيتني! شكرا على هديتك لي! لك الشكر ولك الحمد! حقا إنك رب يعبد! يعبد! يعبد؛ يعبد؛ حتى تنقطع مني الأنفاس, وحتى أرى خيطاً من النور يرتفع حتى يصل عنان السماء، وبعدها أسقط على الأرض مغشيّاً عليّ, فاقد الوعي إلى جانب سريرها!

* * * * *

في تمام الساعة السادسة ضرب جرس باب الشقة وكنت قبلها واقفا خلفه منذ مدة طويلة، مزروعا خلفه لاعتقادي بأنها ستنقاد إلي حالما أطلب منها ذلك. ألست أنا سيدها ومولاها؟! ألست أنا فحلا من فحول العرب تتمنى الكثيرات ممن يعرفنني في الحرم الجامعي أن يقضين ليلة بين ذراعي؟!لقد كنت في تلك اللحظة قطعة مستعرة ومسعرة من الشهوة المتقدة، تستبد في كل ذرة من ذرات جسمي !إنه ولشدة استغرابي وحيرتي بل ولذهولي فقد سمحت لي فقط بطبع قبلة سريعة على شفتيها حال دخولها ثم دفعتني عنها بشدة حالما استمريت في عناقها حيث قالت:

–تعال الآن وساعدني في تقطيع اللحم وتقشير البطاطا والبصل وغسل البندورة والخس!

–أنا لست جائعا إلى الأكل الآن، أنا أموت جوعا إلى جسدك! قلت بانكسار ومذلة وقد شعرت بإهانة بالغة واندحار لرجولتي وفحولتي أيضاً !

لم أكن أتصور أن امرأة مهما سمت مكانتها العلمية والاجتماعية ترفض لي طلبا، فأنا يعربي من سلالة عمر بن أبي ربيعة، الذي كانت جميلات الحجاز وحرائرها، يلقين بأنفسهن من فوق نوقهن؛ ليحظين بنظرة من عينيه أو بابتسامة من شفتيه !كان يذهب إلى مكة حاجاً أو معتمرا فينسل إلى هوادج وخيم الحرائر ليلا فيسعد بهن ويسعدن به، فلا يتمنعن

عليه ولا يصددنه! فهل أنا أقل مكانة من ابن عمي، وهل هذه الأمريكية خير من بنات عمي الحجازيات المخدرات في هوادجهن وخيام نومهن؟!

-ما لك قد برد حماسك؟! وهل رفضي لطلبك قد جرح إحساسك وآذى مشاعرك؟! سألت وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة وتنظر إلي نظرة عتاب.

-كنت أفكر أن عندك أشواقاً عامرة مثلما عندي، وتنتظرين أن نكون وحيدين بشوق مستعر، فلماذا الممانعة؟ أم أنك تمثلين لأزداد بك هياما وولعا؟!

-إن شوقي إليك لا يقل عن شوقك إلي، ولكن لكل شيء في هذه الدنيا أصوله وقوانينه، تريدنا أن نتطارح الغرام تماما كما تفعل الحيوانات، يرى الذكر الأنثى فيشمها ويمر بأنفه فوق جسمها، وخلال دقيقتين يكون قد ركبها وانتهت اللعبة. لا تقبيل... لا عناق... لا بث عواطف... لا تدليل... لا مداعبة... لا شيء.... إذن بماذا نفرق عنها، تذكر أن للعبة أصولها، وكل شيء يجب أن يحدث بطريقة حضارية رومانسية، إذا كنتم هكذا تعاملون نساءكم؛ فأقول لك بكل صدق وصراحة إن هذا ليس صحيحا. إنكم تظلمونهن وتحتقرونهن، وكذلك تظلمون وتحتقرون أنفسكم ! تعال الآن وساعدني وبعد العشاء نفعل ما يفعله الحضاريون.

كلام البنية أنبني.. وبخني... أخجلني... أيقظني من أحلامي... من تهويماتي... من شطحاتي... من سبحاتي...! جعلني أخجل من منشأي... من معتقداتي السفسطائية... من فحولتي الوهمية... من صولاتي وجولاتي الدونكيشوتية والورقية...لقد شعرت الآن بأنني أحب مارثا أكثر وأكثر وأكثر، وأنني أهيم بها بل وأعبدها... أعبد روحها... صفاءها... نقاوة سريرتها... صدقها... صراحتها... حنّيتها.... عقلها... منطقها... قوة حجتها... أصالتها... تألقها... جمالها... رومانسيتها... كل شيء فيها وعندها ولها !

لقد أحضرت معها مريولي مطبخ، لبست هي واحدا وألبستني الآخر ، وقمت بعمل كل ما طلبت مني عمله ! لقد كنت مساعد طباخ ماهر، أنفذ الأوامر وأطيع التعليمات، قشّر البطاطا فقشّرت... أفرم البصل ففرمت... اغسل الخس والبندورة وافرمهما، فغسلتهما وفرمت... اعصر الليمون فعصرت... أحضر قارورة النبيذ من الثلاجة وضعها على طاولة الطعام، فأحضرت ووضعت !

بعد أن جلسنا حول طاولة الطعام أغمضت عينيها فطلبت مني أن أقرأ صلاة شكر الخالق لهذا الطعام، فسميت بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وأضفت ؛ بارك لنا في ما أعطيت، ثم سكت ونظرت إليها، وكأنما أقول لها انتهيت.

أغمضت عينيها وتمتمت ببعض أدعية الشكر لله على هذا الطعام، ثم رفعت قارورة النبيذ وناولتها لي وطلبت إلي أن أفتحها ففعلت. قلت بعد أن فتحتها وملأت كأسها:

–ماذا حدث حتى غيرت رأيك ؟! إن هذه هي أول مرة تشربين بها كحولا !

–سأشرب كأسا واحدة فقط ولأول مرة في حياتي، نخب حبنا ! قالت ذلك ورشفت رشفة صغيرة من كأسها وبلعته بصعوبة، ثم فتحت عينيها.

–كيف وجدته؟ ! سألتها.

–لا أدري إن كنت سأكمل الكأس! قالت وقد هزت رأسها عدة مرات.

–ألهذا الحد مزعج ؟ ! سألتُ.

–لم يلق قبولاً لدي، مع أنني أعلمت البائع أن يختار لي أجود الأصناف وأخفها.

–حقاً إنه أجود الأصناف وأغلاها. قلت.

–كنت أتمنى أن تحبيه فتشربي أكثر من كأس حتى تدخلي في الصميمية. قلت.

–جميع كحول العالم لا تدخلني في الصميمية، الحب وحده هو الوحيد الذي يفعل !

–كنت أتمنى أن نتقاسم شرب القارورة معا، ولكن يبدو أن أمنيتي لن تتحقق ! قلت.

–سأحاول أن أكمل الكأس وآمل أن أفعل ! قالت.

–اطمئني سآتي على القارورة كاملة وإن احتجت إلى المزيد فعندي الكثير منه !

–لن أدعك تشرب أكثر من هذه، إياك أن تحاول ! قالت بحزم وأشارت إلى القارورة الموضوعة أمامنا.

-كما تشائين! بالمناسبة طبخك رائع، لم أكن متأكدا أنك تعرفين عمل حتى صحن سلطة، لم أكن أعرف أنك تجيدين الطبخ كما تجيدين أشياء كثيرة !

-أمي طباخة ماهرة، وأعلمتني بأن طريق الحب إلى قلب الرجل معدته.

-ألهذا السبب أنت ماهرة بالطبخ ؟! سألت.

-أؤكد لك لا ! إذا كان سبب حب الرجل لي هو لأنني طباخة ماهرة، فأنا أرفض هذا الحب بكل قوة وعناد ! قالت وحركت يديها لتؤكد مقولتها.

-أوافقك القول! إنه لحسن جداً أن تكون الزوجة طباخة ماهرة، بالإضافة لعشرات المزايا، أما إذا كانت هذه كل مزاياها فتلك حقا مصيبة !

-أنا أصل إلى قلب الرجل الذي أحب خلال عقلي؛ تفكيري؛ علمي معرفتي ثقافتي شخصيتي ذكائي تألقي؛ وليس خلال طبخي الجيد.

-اطمئني لقد حققتها جميعها؛ فهل نستطيع الآن أن نذهب إلى الفراش؛ أنا أستعر شوقا لعناقك! قلت ذلك وتقدمت منها لأقودها.

-يجب أن نغسل جميع الأدوات التي استعملناها أولاً.

-لا تقلقي! سأغسلها أنا صباح الغد! قلت و أنا أرتعش!

-لا؛ سنغسلها نحن الاثنين؛ أنت وأنا. قالت ذلك ونهضت ثم ملأت يديها بما على الطاولة.

لم أعاندها ولم أجادل معها؛ فأنا أعرف أنها لن تتراجع، وبعد أن انتهينا من غسل كل ما استعملناه تقدمت منها وأحنيت جسمي لأحملها وآخذها إلى الفراش.

-كيف نذهب إلى الفراش وقد نزل عن جسمينا عرق كثير؟! قالت.

-سألحس العرق عن جسمك بلساني وسأشربه بشفتي. قلت.

-ستفعل ذلك بعرق الفراش وليس عرق التعب.

-سوف نستحم بعد الفراش! لا أستطيع أن أنتظر، إنني أكاد أنفجر. قلت ذلك وقد بدأت الخمرة تلعب بعقلي كما وبدأ جسمي يرتجف ويرقص كشمبانزي دربه صاحبه على الرقص. ثم أضفت:

-لا أستطيع أن أنتظر؛ فقد بلغت الشهوة مني أوجها! قلت ذلك وحملتها لآخذها إلى غرفة النوم و لكنّها دفعتني حتى كدت أقع فوق الكرسي.

-يا إلهي أنت قوية ! قلت وقد بدأت الشهوة في داخلي تتلاشى ويقل تأثير الخمر علي ويعود إلي بعض من عقلي.

-لقد تعلمت الجودو والكراتيه، فأرجوك أن لا تلجئني لاستعمالهما! أحب أن أذهب إلى الفراش بعد أن أقوم بكل ما يجب أن نفعله! لقد أعلمتك مسبقاً بأننا يجب أن لا ندع جمالية و رومانسية العملية الجنسية تمارس بطريقة غير حضارية، لقد نزل عن أجسادنا عرق كثير أثناء النهار، وأثناء عملية الطبخ وكذلك بسبب النبيذ؛ فكيف نعانق بعضنا في الفراش، ونستمتع ببعض وأجسامنا غارقة في العرق ؟! قالت بحزم.

-سامحك الله! كل شيء تعملينه بوعي وإدراك وحكمة وكذلك بكبرياء وأنفة وتألق !

-تعني كل شيء بطريقة حضارية، هذا ما يجعل الحياة جميلة ! ولما لم أعلق أضافت:

-أدخل أنا الحمام فأستحم وأذهب إلى الفراش أنتظرك حتى عندما تأتي يتعانق جسمانا كما تعانقت روحانا عندما تقابلنا أول يوم، وهكذا نكون قد اكتملنا روحين وجسدين، رجل وامرأة ! قالت ذلك وتوجهت إلى الحمام؛ أما أنا القادم من بلد الأنبياء فقد تجمدت في مكاني مذهولا أحدق بظهرها وهي تدخل الحمام، ثم وهي تغلق الباب خلفها، ثم وأنا أسمع صوت خرير الماء، ثم وأنا أتفكر بما قالت وفعلت.

-وعندما يأتي سليمان ويتعرى زقا كما ولدته أمه، وقضيبه منتصب كوتد من حديد، ويهجم على سميحة ليمارس فحولته معها، تقول له بخجل وعيناها محدقتان بشوق ولهفة عارمتين بهذا المنتصب كالعملاق، يحدق بها، والغريب الذي يتوثب للانقضاض عليها؛ تقول له بخجل مصطنع: انتظر يا حبيبي حتى أخلع قميص النوم الحريري فيلتقي جسدانا وتقطف ثمرة حافظت لك عليها ثمانية عشر عاما !

وهنا صحت بغضب لاهب والدموع تطفر من عيني والزبد يخرج من فمي وقلت:

-أرجوك يا شاهر ؛ إنني أرتعد من القرف والتقزز، إن سميحة مزيج من الغيم والسحاب والعطور... إنها حزمة من أزهار الفل والياسمين والقرنفل تنظر إليها وتتأمل جمالها.. تشم عطر رائحتها وتستحم بندى

عنفوانها وتألقها.. تتعبد في محراب حبها وقدسيته، ولكنك لا تلمسها...! إنها حورية من حوريات الجنة بشكل آدمية أرضية! إنها أطهر من الفضيلة وأنقى من العذرية، إنها ليست للمس الرجال!

-إنها امرأة شبقة ! إنها جسد وشهوة؛ ولو كان لها الرأي والخيار لأرادت جميع الرجال أن يضاجعوها وهي سعيدة سعيدة.. صدقني !

-إن كلامك يملؤني بالتقزز والقرف... إنه يوقف شعر رأسي... ويقشعر ويرجف بدني بسببه!

-أنت تعيش في خيال مراهق وأحلام محروم ممزق، صدقني يا سهيل، لو قال سليمان لسميحة أنا أحبك... أعبدك... أموت فيكِ... ولكنني لن أضاجعك حتى لا أدنس جسدك الطاهر، لصاحت به وقالت له: أيها الأبله المعتوه... اذهب عني أنا لا أريدك، أنا أريد من يغرقني في بحور من الشهوة العارمة واللذة المتدفقة... اغرب عن وجهي... أريد من يشعرني بأنوثتي وأنني حقا امرأة ! أريد رجلا يؤكد لي أنني أملك كل ما يطلبه الرجل من أنثاه... من معشوقته !

-إذا كانت هذه هي حقيقة سميحة، فدعني أبكي حتى يذوب كل ما على جسمي من لحم وعظم، ويتحول إلى دموع... دعني أبكي على خيالاتي المبددة وأحلامي الضائعة... أبكي على عمري الذي قضيته أجري وراء الخيال ومع الأحلام !

-إبكِ يا صديقي سهيل ما طاب لك البكاء، واجلس على ركام أحلامك وخيالاتك و أوهامك، فإن الحياة تحتقر الضعفاء الخوّافين البكّائين... إن سميحة لن تلقي عليك حتى نظرة رثاء... إنها تريد فحلا جاهزا للانقضاض، وثوراً هائجاً يغرق نفسه بكل حاسة في جسدها المتأجج الملتهب؛ يعانقها... يشبع نهمها... يمزق قميص نومها... يرمي بعيدا بحليها... يعانقها... يلقي بها أرضا... يرقد فوقها... يأكل شفتيها... وصدرها وعنقها... يداعب نهديها... يرضعها...يهصرها...يشرب الحليب من نبع صدرها !

لم تخالجني ذرة من شك بأن كل ما قالته مارثا كارلينغتون وكل ما فعلته كان صحيحا وصائبا ! لله درك يا مارثا ما أجملك وما أعقلك وما أحكمك! إنك، والله ثلاثاً، قطعة متحركة من الفضيلة والإخلاص والمحبة ! فطوبى للبطن الذي حملك وشكرا للأم التي أرضعتك المحبة والوفاء، وسبحان الخالق الذي سوى هذا العقل الناضج ! فهل حقا أنا أستحقك وجدير بحبك ؟! أنا القادم من بلاد السحر والشعوذة والخرافات والدجل والكذب والنفاق والأنانية والجهل ؟!

إنني والله وأقسم بكل ما أؤمن به أنني شعرت وجسمي يعانق جسم مارثا وكأنما أعانق الفضيلة والأخلاق والمبادئ، الصدق والأمانة والاستقامة، الصراحة والشجاعة والثبات؛ الصبر والإيمان والأمل؛ الحب والمحبة والوفاء، كلها مجسمة أمامي ساطعة سطوع الشمس في كبد السماء !

الله أكبر حقا، الله أكبر؛ وحدوه ولا إله إلا هو سبحانه وتعالى؛ حقا إنه رب يعبد على هذه الهدية التي منحني إياها !

* * * * *

بقينا نتطارح الغرام حتى الفجر ، هي تهبُ و تمنح بكرم و سخاء ، و أنا أنهب و استمتع بشراهة و جشع ؛ ثم نمنا بعد ان انهكت عواطفنا ، و همدت أجسامنا ! استيقظت عند الظهر و تأملت الجسم الراقد الى جانبي فشعرت و كأنما كنت في سبات عميق فاستيقظت ؛ فخالجني شعور العابد الذي يدخل و لأول مرة في حياته، معبدا من معابد الله ، فيشعر، برهبة وورع ، و كأنما هو وجها لوجه في حضرت الخالق الأعظم !

لو بحثت في معاجم جميع لغات العالم ، أحاول أن أجد صفة أستطيع بها أن أصف جمال مارثا ، لما كنت قد وفّقت ؛ و لكنني وجدت وصفه فقط في كتاب الخالق حيث يقول : " حور عين ، ذوات اللؤلؤ المكنون ! " فسبحان الخالق، و الشكر له لما خلق و أبدع !

انه ، و لولا خوفي من غضب الخالق سبحانه و تعالى لقلت، بأن مارثا تملك صفاتٍ جمالية ، مما تملكه حوريات الجنة المذكورات بالقرآن الكريم؛ كأشباه اللؤلؤ المكنون و الحور العين، و لكني أتساءل؛ أليس الذي خلق و ابدع حوريات الجنة، هو نفسه الذي خلق و ابدع مارثا ؟!

–آمل أن يكون جسمي قد نال استحسانك كما نال عقلي من قبل ! قالت و هي تبتسم !

–انه لم ينل استحساني فقط ، بل انه خلب لبّي ! أنتِ لست جميلة فقط يا مارثا ؛ أنت قطعة فنّية خالدة أبدع الخالق سبحانه و تعالى ، في خلقك ! أنتِ أجمل من الموناليزا ! أنا أسعد رجل في العالم أن تكرّم عليّ الخالق و منحني شرف حبّك !

-و أنا أسعد امرأة، انك أحببتني؛ قالت ذلك و اقتربت منّي بجسمها و انهالت عليّ عناقاً !

تطارحنا الغرام من جديد ، و بعد ان همد جسمانا و ارتحنا بعدها لفترة ليست بالقصيرة، نهضتْ و اعلمتني بأنها ستعمل لنا فطورا؛ فعرضت عليها أن نذهب الى مطعم قريب يقدّم وجبة " البان كيك " مع البيض فلم تقبل لأنها تريد أن تعمله هي بنفسها !

حقا؛ لقد كان فطورا لذيذا ، اذ أكلنا بشهية متميزة عدنا بعدها الى الفراش و انخرطنا من جديد في أحاديث متفرّعة؛ و بحدود الساعة التاسعة ليلا طلبت إليّ أن أرافقها الى المطبخ لأنها تريد أن تسخّن ما بقي من طعام الليلة الماضية، لنتناوله كوجبة عشاء ؛ غير أنني عرضت عليها أن نتعشى في الخارج فرفضت رفضا قاطعا !

* * * * *

طلبت إليّ مارثا أن أعمل لها نسخة من مفتاح شقتي ، اذ أعلمتني بأنها تريد أن تحضر كل ما يكون عندها متسع من الوقت، لتنظّف الشقة و ترتبها، ثم لتغسل ملابسي و تكويها ! لقد أعلمتها بأن الشغالة تأتي كل أسبوع يوماً لتفعل ذلك؛ فأجابت بأنها تعرف هذا و لكنها تريد أن تقوم هي بنفسها بالمهمة؛ لتكتمل سعادتها، و لترتاح نفسيّتها! لقد أعلمتني أنّ الشقة بحاجة الى العناية يوميا، لتكون صحية و لتليق بانسان حضاري؛ كما أنّ أسبوعا بكامله وقتا طويلا للانتظار!

حقا يا مارثا ؛ انك لا تنطقين إلا حكما و لا تتفوهين إلا درراً ! كنتُ قبل أن تتولى مارثا إدارة نظافة الشقة، و عندما أعود اليها أجد أن غرفة الجلوس تشبه الى حد كبير سوق حراج في الوطن العربي الكبير؛ فالشباشب و الأحذية و البنطلونات و أحيانا بعض الصحون و الكاسات و الملاعق ثم الكتب و المجلات و دوسيهات و أوراق مختلفة، كلها تكون ملقاة فوق الكنبايات و فوق السجاد ! أما المطبخ فالطناجر و القلّايات و الصحون و الشوك و فناجين الشاي و ابريقه كلّها ملقاه فوق الغاز و في كل بقعة فيه؛ أما الحمام؛ فكانت الغيارات المستعملة و البشاكير و المناشف القذرة، ملقاة في كل زاوية !

إنك عندما تكون في غرفة النوم لا تعرف أين مكان رأسك و لا أين مكان ساقيك، إذ أنّ المخدّات و الأغطية ملقاة فوق السرير و تحته!

بعد تلك الأمسية فقلّما يمر يوم أو تنقضي ليلة دون أن نرى، مارثا و أنا، بعضنا بعضا! عندما كنت أخرج من قاعة المحاضرات أحيانا، بعد انتهاء المحاضرة؛ أجد أن مارثا بانتظاري، هذا اذا لم تكن عندها محاضرات معي؛ و أحيانا أجدها تنتظرني أمام المكتب أو تجلس مع سكرتيرة القسم فنجلس في مكتبي نتحدث لفترة ثم نخرج بعدها، إمّا لتناول وجبة خفيفة أو نتناول بعض المرطبات!

عندما أكون متواجدا خارج قاعة المحاضرات، تكون مارثا دائماً بصحبتي، و حتى عندما كنت أحضر اجتماعات الطلبة العرب، كانت هي تشارك في نقاش الطلبة و تقدّم اقتراحاتٍ ذكيّة و صائبة، و كانت تلاقي استحسانا من الحاضرين!

كان الجميع يحبونها كثيرا و يحترمونها، و كان الكل، حتى زملائي في القسم، يعاملونها على أنها خطيبتي! كان الكل يعرف أننا مخطوبان و أننا سنتزوج صيف العام القادم، و أنّنا سنذهب إلى الأردن لأقدمها لعائلتي، و بعدها سنكتب عقد زواجنا على الطريقة الإسلامية، و سنقيم هناك الأفراح و الليالي الملاح !

كانت تأتي الى الجامعة فقط ثلاثة أيامٍ في الأسبوع، و هي الأيام التي عندها بها محاضرات؛ أمّا بعد تلك الليلة، فقد كانت تأتي طيلة أيام الأسبوع ! إنّها إذا لم تكن متواجدة في قاعة المحاضرات أو معي، فإنّها تكن متواجدة إمّا في المكتبة أو في شقتي تدرس أو تنظف أو تطبخ ! لقد كانت لا تحب الأكل في المطاعم إلّا نادرا، و كانت تفضّل شراء حاجيات الأكل بنفسها و تطبخها هي ! حقا لقد كنّا نعيش كزوج و زوجة !

* * * * *

الفصل الحادي عشـــر

أيام كنت طالبا في مصر، في آخر عام لي في جامعة القاهرة، زرت، ولأول مرّة، سوق خان الخليل، المشهور دوليا و عربيا؛ لما تحتويه محلاته الكبيرة و كذلك دكاكينه الصغيرة من عجائب و غرائب التحف و الهدايا !

زرته بعد سنوات عديدة من وجودي في القاهرة كطالب في جامعتها، مع أن المتعارف عليه أنه من أولى أولويات القادم إلى مصر، بالإضافة لزيارة الأهرامات وكذلك المتاحف و الأماكن الأثرية؛ هي زيارة خان الخليلي! إنه سوق فريد من نوعه غريبٌ فيما يحويه !

لقد زرته و في نيّتي أن أشتري بعض الهدايا لأفراد عائلتي، بمناسبة تخرّجي من الجامعة و مغادرتي لمصر نهائيا!

لقد كان هذا السوق يحتوي على عشرات التحف و الهدايا التي عشقتها، بل و وقعت في غرامها؛ و التي كانت أثمان بعضها أسعارا خيالية بالنسبة لوضعي المادي، كطالب يعيش على دريهمات قليلة يرسلها له الأهل بالتقتير عن أنفسهم !

لقد تمنيت لو أن باستطاعتي أن أشتري كل ما أحببته، لأقدمه لأحبتي و أقاربي في الوطن؛ و لكنني كطالبٌ نقوده قليلة و إمكانياته ضعيفة، فقد اكتفيت بشراء أربع قطع منها؛ ثوبان سوداوان نسائيان مصنوعان من الساتان الناعم، مطرّزتان بالحرير و موشّيتان بالقصب؛ تسعدان قلب الناظر إليهما و تنعشان روح من يلمسهما !

إنني عندما دفنت وجهي في قماشيهما، أحسست و كأنما أدفن وجهي و كل كياني في حضن كاعب، أسرّح ناظريَّ بصدرها و تداعب شفتيّ حلمتي نهديها !

أما التحفة الثانية التي عشقتها فقد كانت عبارة عن "روب ديشمبر"، مصنوع من القماش الكشميري الفاخر، والذي يرتديه عادةً كبار رجال الأعمال بعد الانتهاء من عقد صفقة تجارية كبيرة في بيوتهم؛ أو يرتديه احد الفنانين الذين انتهوا لتوهم من عمل فني جبار، و هو يحتسي فنجان قهوته و يسترخي بكسل بعد تناول وجبة عشاء دسمة !

على الرغم من أنني لم ألعب طاولة الزهر قط في حياتي و لم أفكر بأن ألعبها يوما، إلا أن منظر خشب الزّان المصقول و اللامع، ثم نعومة ملمسه و جمال شكله و نصاعة خشبه، كل هذه مجتمعة جعلتني

أعشقها و اشتريها، على أمل أن أتعلم اللعبة يوما ما؛ فأنا اعرف أنها لعبة مشهورة تحتاج الى عقل كبير و تفكير عميق و صبر طويل لممارستها!

حملت الهدايا الأربعة و كأنما أحمل كنزا، فخورا بنفسي و سعيدا بما اخترت؛ و ان كنت طيلة الوقت الذي قطعته بين خان الخليلي و مكان سكني، أفكر بمن سأعطي له هذه الهدايا الأربعة، لأنه كان هناك أكثر من عشرين شخصا ينتظرونها، من بين أفراد عائلتي و أقاربي، إذ كلٌّ منهم يتوقع هدية منّي !

نعم، الكل " عشمان "، و الكل "يطمع"، و الكل "يتوقع"، و الكل يعتب و قد يغضب، غير مفكرين و لا معنيين بأنني طالب و حالتي المادية لا تقدر على ذلك!

بعد عودتي من القاهرة و حصولي على شهادة علمية عالية، تؤهلني لأن أحتل منصبا رفيعا جدا في الدولة، ولكنني رفضت هذا، إذ أن آمالي كانت بأن أذهب إلى أمريكا و أحصل على شهادة علمية أعلى؛ تشبع طموحاتي الأكاديمية و ترضي توقّعاتي المنصبية !

لعل قلة عدد الهدايا التي أحضرتها معي، وعدد المتوقعين بالحصول عليها، جعلني عمداً أو لا شعوريا، أغضُّ الطرف عن توزيع تلك الهدايا و الاحتفاظ بها لنفسي؛ إذ أنني عندما غادرت الى امريكا وجدت نفسي أضع الهدايا الأربعة في حقائبي و احضرها معي!

لقد تثقفت منذ صغري بأننا مسيّرون في هذه الدنيا، و ان الخالق سبحانه و تعالى هو الذي يسير خطانا و يلهمنا أن نفعل هذا و أن نتجنّب ذاك؛ و رغم دراساتي المتعددة و المختلفة لكثير من الفلسفات، المؤمنة و الملحدة؛ اسلامية و غير اسلامية؛ سماوية و غير سماوية؛ إلا أنني أؤمن ايمانا مطلقا لا يتزعزع، بأن الخالق، جلّ جلاله و عز شأنه، هو الذي يسدّد خطانا و يلهمنا بأن نفعل هذا و نتجنب ذاك ! إن الدليل على ذلك كلّه، هو أن المولى، عز وعلى، الهمني أولا أن اشتري هذه الهدايا الأربعة، بعينها؛ و كذلك ألهمني أن لا أعطيها لأحد بالأردن، و أن احضرها معي إلى امريكا !

لقد أخذتها معي الليلة، كهدية لاعطيها لعائلة "الكارلنقتون"، كما أخذت معها أيضا سلة زهور و قارورة نبيذ فرنسي فاخر، تقدم مع وجبة العشاء !

لقد كان الشهر منتصف ابريل، وكان اليوم هو يوم السبت، وقد اتفقنا، مارثا و أنا، أن أكون في منزلهم بحدود الساعة الرابعة عصراً، حيث أننا سنقضي حوالي الساعتين بالتعرف على أفراد عائلتها و بالتزاور أيضاً، و من ثم نتناول وجبة العشاء بحدود الساعة السادسة !

لقد كتبت لي مارثا عنوان المنزل و وصفت لي الطريق الذي أسلكه إليه.

وأنا في طريقي، في أول زيارة إلى بيت أهل مارثا، أوجعت قلبي كلمات اغنية جريحة وأثارت عواطفي الكمينة وهيجت احزاني الدفينه واحسست بعاطفة متأججة كالقشعريرة الصارخة المتعربدة تسري في كل ذرة من جسمي ، فنزلت دموعي بغزارة وبنت سدا صفيقا بيني وبين الرؤية، فانحرفت إلى جانب الطريق واوقفت سيارتي وانفجرت ابكي بهدوء وبصمت، بادئ ذي بدئ، ثم علا صوتي شئيا فشئيا حتى خلت انه قد وصل عنان السماء، شعرت ان صداه يتردد بين جنبات الوادي حتى وصل إلى جبال "ولسن" العملاقة و الممتدّة، والمطلّة على مدينة لوس أنجلوس و ما يحيط بها من مدن عديدة أخرى !

بقيت ابكي بلوعة و حرقة حتى خيل اليّ بان جسميى كله قد تحول إلى دموعٍ ولم يبقَ منه إلا عظاما ناشفة، لو رآها احدهم لظن انها ملقاة على قارعة الطريق تحت حر الشمس اللافح، منذ عشرات السنين !

لم يكن السكن الذي كانت تسكنه عائلة الكارلينقتون منزلا، و انما كان قصرا ضخما مترامي الأطراف! لقد كان مبنيا على أرضٍ مساحتها أربعة دونومات، مسوّرة بأسلاك شائكة، و محاطة بأشجار صغيرة و كبيرة، مثمرة و غير مثمرة، و كانت جميع الأراضي المحيطة بالمنزل مزروعة بجميع أنواع الورود و الأزهار؛ أما المدخل المؤدي من الشارع الى البيت، فقد كان مهندسا بطريقة معمارية جميلة جدا، تفرح القلب و تسر العينين !

كان البيت مؤلفاً من ثلاثة طوابق و تسوية؛ و كما لاحظت فيما بعد، فإن الطابق الأرضي هو للجلوس و به مطبخ كبير و صالة طعام فخمة؛ أما الطابق الثاني و الثالث، فهما للنوم فقط؛ أما طابق التسوية فهو للخادمتين، وبه غرفة واسعة لتغيير ملابس السباحة ومجهزة بجميع ما

يحتاجه السابحون من مواد و أدوات ! كما يوجد غرفة للبلياردو و أخرى للتنس!

كان يوجد أمام التسوية غرفة كبيرة ، تحتوي على كل ما يحتاجه السابحون و السابحات.

لقد كان المنزل صورة طبق الأصل عن فندق "الهيلتون" ، المتواجد في مدينة "بيفرلي هيلز"! لقد رأيته اذ دعتني اليه صديقة لي قبل عام و امضينا به ليلة رائعة !

اللعنة! اللعنة! لماذا الذكريات المحزنة و المؤلمة، تلاحقني و تطاردني و كأنما ارتكبت اثم جريمة قتل انسان بريئ و هربت من القصاص و وجه العدالة مع ؟!

لقد كنت، في الوقت الذي كانت به مارثا تريني داخل البيت و ما حوله، و تشرح لي شرحا مسهبا عنه ، خطرت على بالي و فجأة، أزقة و زراريب حارة الجدعة في مدينتنا السلط الخالدة، و أنا أقطعها ذهابا و مجيئة، راكبا حمارنا مشهور، الذي عملت له بدل الحلس سرجا، و بدل الرسن عنانا؛ أطعمه شعيرا بدل التبن تكريما له و حباً به! أركبه صباحا، و أنا ذاهب من كرمنا أيام العطلة المدرسية صيفا؛ و أنا ذاهبٌ الى بيتنا في السلط، ثم أركبه عصرا و أنا عائد الى سكننا في الكرم، حيث نقضي ثلاثة أشهر الصيف !

حالما فتحت لي مارثا الباب و قدمتني لوالدها، قال:

–أرحّب بحرارة بالشاب العظيم الذي نال رضا و قناعة ابنتي الحبيبة مارثا ! قال الأب و هو يعانقني ويلفني في حضنه و يمطرني بوابل من قبلاته، و كأنما أنا ولد صغير !

–لا تنسى يا عمي ، أن الآنسة مارثا فريدة في كل شيء ؛ في جمالها و ذكائها ؛ في رقتها و نعومتها ؛ في كبريائها و أنفتها ؛ في ألقها و تألقها؛ في ثقافتها و سعة اطلاعها ؛ و كذلك في شهامتها و عزة نفسها ! أجبته.

لقد شعرت أن ما تبادلناه من ثناء عن البنيّة ، والدها و أنا ، و كأنما كان معداً مسبقا وليس للتو واللحظة !

-كفاكما أيها الرجلان مدحا لي ؛ اذ أخشى أن يصيبني الغرور فأصدق نفسي ! قالت البنية .

-ان ما يقوله والدك و البروفيسور دهشان عنك ، هي حقيقة يا حبيبتي ! قالت الأم بعد أن أطلق الأب سراحي ولفت هي ذراعيها حول رقبتي و عانقتني و بدأت بتقبيلي !

-ما أسعدني برؤيتك يا بني ! و أخيرا رأيتك ! مرحبا بك في بيتنا ! قالت المرأة بحرارة ملتهبة و بعواطف متوقّدة و هي تتأملني بعينيها النجلاوتين، و اللتين شعرت و أنا أنظر إليهما، و كأنهما غديرين من العسل المصفّى!

عطر المرأة أسكرني، بل دوّخني؛ نسمة أنفاسها أشعلت الحرائق بدمي؛ أما قبلاتها لي على الخدين فقد قضت على البقية الباقية من عقلي !!!

اللعنة! اللعنة! نحن لم نتعود في الوطن العربي العتيد على معانقة النساء الجميلات المعطرات المغناجات، و انما تعودنا على معانقة عماتنا و خالاتنا، و غالبا ما يكون عطرهنّ رائحة روث البهائم و لطع البقر؛ مع قليل من بول الغنم! ؛ لأن هذا لا يجوز؛ عيب ؛ حرام ! أما هنا، فهذا هو الاحترام؛ الايتكيت؛ اللباقة؛ الواجب !

عندما انتهيت أنا من عناقي لزوجة الأخ او انتهت هي من عناقها لي، كانت نار جهنم أقل توقدا و احتراقا و تأججاً من جسمي؛ أما عندما عانقني الأخ و طبطب على ظهري، فلم أعه و لم أشعر به؛ فلقد كنت وقتها حقا خشبة مسندة !

الأمريكان باردون جدا بالترحيب بالضيف ، اذا ما قورنوا بنا نحن العرب؛ فهم يرحبون بك عند قدومك ، ربما بحرارة ، و انتهى الأمر ؛ أما هذه العائلة فقد شعرت و كانما بهم جذور عربية او عاشوا في احدى دولها، و خصوصا التي بها جذور بدوية كالاردن مثلا !

لقد قادني الأب الى غرفة الاستقبال بيدٍ ممسكة بيدي ، و يده الأخرى يلفّها على ظهري، زيادة في الترحيب؛ ثم أجلسني و جلس الى جانبي؛ كما جلس بقية أفراد العائلة قبالتنا وهم يبتسمون و يرحبون !

–لم أكن أعلم أن عند العرب رجالا بهذه الوسامة و الرجولة و قوة الشخصية؛ حتى رأيت اليوم البوفيسور دهشان ! قالت الدكتورة " برتيني " زوجة الابن " دريل "!

–نعم ، نعم عندهم ؛ و لكن ليس بوسامة و رجولة و قوة شخصية البروفيسور سهيل ! قالت الأم و هي تنظر الي و تبتسم ثم أضافت:

–صديقي العربي الذي كنت أعرفه بالجامعة ، و الذي حدثتكم عنه ، كان وسيما جدا و ذكيا أيضا ؛ و لكن ليس بوسامة و حيوية البروفيسور سهيل ! البروفيسور سهيل يجذبك اليه بمجرد أن تسمعي صوته ! قالت الأم مخاطبة زوجة ابنها.

–لو ترين يا ماما كم يحبه طلبته و خصوصا الطالبات منهنّ ، فإنهن يلاحقنه باسئلتهنّ الأكاديمية و الشخصية، حتى بعد انتهاء المحاضرات ! ان الفصول التي يحاضر بها دائما مكتظة ، و اذا لم يسجل الطالب مبكرا فانه لن يجد مقعداً ! قالت مارثا و هي تبتسم بسعادة وقد أضاء وجهها و تورّدت خداها !

–إنهُنّ رغم كثرتهنّ، فلا واحدة منهن استحوذت على قلبي و عقلي، يا ماما نديدا، إلا ابنتك مارثا؛ إذ أنني حالما وقعت عليها عيناي، ألقيت بأشرعتي واستسلمت ! قلتها و شعور الفحل العربي الذي تمتدحه انثاه يلامس عنان السماء، و ان كنت قد قلت ما قلت دون تفكير او ادراك مني !

انفجر الجميع يضحكون ويقهقهون، بينما مارثا توقدت وجنتاها، وألقت برأسها الى الأرض حياء و خجلا ! أمّا انا فقد أحسست فجأة بالخجل الشديد فالقيت برأسي الى الأرض و صرت أمسح عرقي بمنديل اخرجته من جيب جاكيتي !

–هل لاحظت يا أماه؟ ! انه يخجل كالعذارى؟! قالت الدكتورة برتني، مخاطبة أم زوجها!

–هذه علامات الرجولة و الأدب ! الذي يتكلم هذه المرة كان الأب ، ثم أضاف:

–أرحب بك مرة أخرى يا بني ، عضوا جديدا لتنضم الى عائلة " الأرلنقتون " !

-هذا شرف عظيم لي يا عمي أن أكون أحد أفراد عائلتكم الكريمة! قلت بصعوبة و انا اخرج الكلمات من فمي بتلعثم بسبب الخجل و الاحراج .

-نرحب بك عضوا كريما في عائلتنا ! قال الابن الدكتور دريل بحماس و بصوت جهوري، و لكن حنون جدا!

-مرحبا بك ابناً ثانٍ لنا ! قالت الأم و هي تتأملني باحترام و محبة؛ بينما كانت تمسح دموعها بظهر يدها اليمنى!

-ان للبروفيسور سهيل لكنة محببة جدا ، كلما استمعت اليه تحب أن تسمعه أكثر! قال الابن و هو يبتسم !

-و له شخصية جذابة جدا أيضا ، قالت زوجته .

ضحكنا كلنا، و عندما توقفنا، سأل الأب و هو يتأملني باحترام و محبة، موجها كلامه الى النسوة الثلاثة:

-أما آن الأوان لتتكرمن علينا بشيء نشربه ، أيتها الحبيبات الجميلات ؟! قال و هو يبتسم و قد غطّت الابتسامة وجهه، ناصع البياض و الذي يضج صحة و عافية !

-هذا صحيح ! نحن آسفات يا عمي ! قالت الدكتورة بريتني ، زوجة الابن ، ثم خاطبتني؛

-ماذا تحب أن تشرب يا بروفيسور سهيل؟

-قبل أن أقول لكِ ما أحب أن أشربه، لي رجاء عندكم جميعا، و هو أن تخاطبونني باسمي المجرد ، سهيل، اذ أنني أشعر و أنا بينكم ، و كأنما أنا في الوطن بين أهلي و أحبّائي، كما أشعر بالسعادة الصميمية و كذلك الاسترخاء!

-نفعل ذلك، على أن تخاطبنا أنت بالمثل ! قال الابن الدكتور دريل!

-سأفعل معكم أنتم الثلاثة ، مارثا و أنت يا دكتور و أنتِ يا دكتورة ؛ و لكن مع والدي و والدتي ، فسأخاطبهما بالبابا و الماما ؛ لأنهما بمقام أبي و أمي؛ هذا إذا تكرما عليّ و منحاني هذا الشرف !

ضحك الجميع و لم يعلقوا و انما لاحظت أن سعادة علت وجوههم جميعا، و هم يتبادلون النظرات !

-أحب أن اشرب بعض البيرة من فضلكم! قلت.

وهنا نهضت زوجة الابن و رفعت سماعة الهاتف المتواجدة في الزاوية، و سمعتها تخاطب الخادمة:

-احضري يا " كونستانت " من فضلك " " شوب " بيرة للضيف، و أحضري لنا نحن المعهود؛ قالت ذلك و اغلقت السماعة ثم عادت الى مكانها.

بعد دقائق قليلة أحضرت الخادمة صينية كبيرة مصنوعة من الفضة و عليها أكواب مترعة بالشراب، وضع تحت كل كأس منها منديلا قماشيا ناعما، حيث وضعتها على الطاولة المحاذية لطاولة الهاتف و الغير بعيدة مني!

لا أدري ما الذي حدث لي و لا كيف تصرّفت هذا التصرف الغريب العجيب ، اذ حالما وضعت الخادمة الصينية على الطاولة و همّت بحمل " شوب البيرة " لتقدمه لي ، إلّا ووجدت نفسي أقف منتصباً و أطلب إليها وبحماس؛ من فضلها أن تتوقف !

تطلّع الجميع إلي فنهضت و سألتها أي المشروب للماما فأشارت إليه؛ و كان مشروب عرفت فيما بعد أنه نوع خفيف جداً من التي يقدّم للسيدات الأرستقراطيات؛ حملته و سرت حيث تجلس الأم ، الدكتورة نديدا؛ أحنيت قامتي احتراما و أنا أقدّم لها الكأس قائلا: " الى الأم الحبيبة صاحبة القلب الكبير"؛ شكرتني و ابتسمت؛ ثم سألتُ الخادمة عن مشروب الدكتور الأب؛ فحملته و انحنيت ثم قدّمته له و قلت : " الى الوالد الحبيب " ثم لاحظت أن أحد الكؤوس المتبقية يشبه كأس الأم، فعرفت أنه لا بدّ وأن يكون لزوجة الابن، الدكتورة بريتيني؛ فحملته ثم احنيت قامتي و قلت: " الى أرق طبيبة و صاحبة أجمل ابتسامة في كاليفورنيا، زوجة أخي الحبيب! "

انفجر الجميع يضحكون، و تابعتُ توزيع كؤوس الشراب، ثم عرفت أن كأس " الكولا " لا بدّ و أن يكون لمارثا، إذ أنني أعرف أنها لا تشرب الكحول فوقفت أمامها و قلت : "الى اجمل و أغلى حبيبة على وجه الأرض "، ثم حملت بعدها كأس الويسكي الأخيرة و قدمتها للإبن دون أن أحني نفسي كما فعلت مع البقية، و قلت : " الى أخي الجديد، الحبيب، مع كل

المحبة و الاحترام ! " ، ثم حملت " شوب" البيرة و عدت الى مقعدي ، و رشفت منه رشفة ثم و ضعته أمامي !

لم يعترض أحد منهم على فعلتي هذه، و لم يفتح أحد منهم فمه؛ و انما بقوا يراقبونني بعيون مذهولة مدهوشة ، و هم يبتسمون و وجوههم تضجّ بالفرح و السعادة ، ويتبادلون أحيانا فيما بينهم بعض نظرات الاعجاب و الإمتنان !

حالما أشارت الخادمة الى كأس الأب فعرفت أن الكأس التي مثلها تماما لا بد و أن تكون للابن ! لاحظت كذلك أن كأسين متشابهين مترعين " بالفوتيكا " ممزوجين بعصير آخر فعرفت أنه لا بد أن يكون برتقالا و اما ان يكون " كريب فروت " فادركت انه لا بد أن يكون للمرأتين الوالدة و زوجة الابن ، اما الكأس الأخيرة و المملوءة بالكولا فلا بد أن تكون لمارثا فأنا أعلم أنها لا تشرب الكحول !

كان الأب طويل القامة ، ضخم الجثة ،ناصع بياض الوجه، جذابا جدا ، ذو شخصية مرحة ، لا تفارق الابتسامة شفتيه، ذو عينين تتقدان حيوية و ذكاء ، تكاد تشعر و هو ينظر اليك و كأنما عيناه تخترقان جمجمة رأسك لتعرف ما بداخلها و كيف تفكر! كان حليق الوجه له لحية بيضاء صغيرة " سكسوكة " في أسفل و جهه ! كان يرتدي بدلة سوداء و قميص أبيض و ربطة عنق محافظة و صدريّة أقرب منهما إلى السواد و حذاء أسود؛ لا شك أن جميع ما يرتديه من النوع الثمين جداً و المتميّز !

إن الغريب و العجيب هو أن الابن كان صورة طبق الأصل كالأب تماما ، اذ لا شكّ أنه ورث جميع مواصفاته عن الأب، بالطول و الملابس و اللحية ، و ان الفرق بينهما هو فارق السنّ فقط !

أما النسوة فكنّ يرتدين ملابس الخروج ، اذ لا شك أن هذه الملابس التي يرتدينها الآن هي نفس الملابس التي يرتدينها عند الخروج من المنزل ! لقد كانت ملابس غالية جداً، و كنّ أنيقات لدرجة مذهلة !

بعد أن قدّمت لكل منهم كأسه، وقف الاب منتصبا كالعملاق بحماس و كبرياء و إنفه، و هو يحمل كأسه و قد رفعها بفخر و اعتزاز الى أعلى، و كأنما يحمل جائزة حصل عليها نتيجة عمل بطولي حققه ؛ ثم قال بصوتٍ يضجُّ رجولة و أنفه !:

-إنه يسعدنا أن نشرب نخب انضمام عضو جديد الى عائلة الأرلنقتون، وكلنا أمل أن يكون فيه خيراً و سعادةً لنا جميعا! قال وهو ينظر إليّ بعينين متّقدتين حماساً و توهّجاً !

حالما وقف الأب و حمل كأسه، رأيت جميع أفراد العائلة يحملون كؤوسهم و يقفون ثم يرفعونها إلى أعلى و كأنما كانوا مستعدون للقيام بهذه المهمة و أنهم يعلمون بما سيحدث مسبقاً !

و قفت أنا لا شعوريا و فعلت مثلما فعلوا ، و عندما و ضع الأب كأسه على فمه و شرب منه رشفة قلّده الجميع ، ثم ضرب كأسه بكأسي و كذلك فعلوا جميعهم في آنٍ واحد فالتقت الكؤوس في الهواء و ضرب بعضها بعضاً ! بعدها أعاد الأب كأسه الى مكانها ثم تقدم مني و عانقني بعاطفة متّقدة و قبلني بحرارة؛ و بعد ان اطلق سراحي كانت الأم تعانقني هي الأخرى؛ و من جديد، ألهبت أرومة عطرها و عبير أنفاسها كل ذرة في جسدي فصارت تصرخ و تستغيث ! أما عندما تقدمت منّي زوجة الابن و عانقتني و قبلتني هي أيضا على خدّي، فإن شذى عطرها و كذلك أرومة أنفاسها قد أوصلتاني إلى أرومة التهيّج ! ولكن عندما عانقني الابن كنت ألتقط انفاسي الاخيرة؛ أما عندما تقدمت مني مارثا كنت انا الذي أهجم عليها و اعانقها و اكل شفتيها بوحشية مسعورة، مما جعلها تستجيب لعناقي و قبلاتي بحماس لا يقل عن شوقي و اشتعالي؛ حتى صار الجميع يضحكون بل و يقهقهون !

عندما رأت الخادمة ما يحدث انسلّت خارجة و هي مطرقة عينيها الى الأرض !

للحقيقة و التاريخ، لو كنت أعرف هذه العائلة من قبل، وكانت الرسميات قد أزيلت من بيننا،وكذلك لو أن هذه المقابلة لم تكن الأولى ولم أكن خجلا منهم كثيرا، لكنت استأذنتهم و خرجت أقود مارثا إلى غرفة نومها لأعانقها ! لقد كنت قطعة تشتعل من الشهوة المسعورة !

أنا يعربي، أتيت من بلاد التعصب و التخلف؛ بلاد الجهل و التجهيل؛ بلاد "التابوهات"؛ بلاد الممنوع و المحذور؛ بلاد الحلال و الحرام؛ فأنا لا أرى امرأة جميلة إلا و أتمنى لو أستطيع أن أعانقها... أن أغرق ذاتي بذاتها... أن أذوب و أن أتلاشى بداخلها؛ لأنني أعتقد أن لا سعادة في الدنيا تعادل سعادة الرجل، و أنثاه تلفّه في حضنها، وتغرقه بدفئها و حنانها، ثم تهدهده كما تهدهد الأم صغيرها!

–نأمل أن يقضي سهيل جميع عطل نهاية الاسبوع معنا، قالت زوجة الابن ، الدكتورة بريتني .

–لا ؛ نريده أن يأتي كل وقت ليس عنده التزامات ، ليلا أو نهارا ! قالت الأم .

–نحن الآن أهله ، و بيتنا مفتوح له و مرحب به ، في كل وقت يشاء ! قال الأب بحماس و سعادة !

–يجب أن يأتي كل مساء ليتناول وجبة العشاء معنا ، بدل من أن يقضي وقته بالمطبخ أو بالذهاب الى المطاعم . قالت الأم.

–لا تقلقوا ؛ سنأتي سويّة على الأقل في الأيام الثلاثة التي عندي بها محاضرات في الجامعة ، قالت مارثا و هي تبتسم بجذل و تضمني بعينيها !

لقد لاحظت أن مضيفي لم يكونوا يستهلكون الخمور كما يفعل بعض أصدقائي " الروبنسون " ، الذين أعرفهم ، بل هم يشربونها باحتشام و خجل شديدين و خصوصا الأم و زوجة ابنها ! فقد شربتْ كل منهما كأسا واحداً فقط ، حتى خيّل إليّ ، كعربيّ ، أنهما تناولتاه ليقنعاني بأنهما ليستا رجعيّتين و أنهما حضاريّتين ! أما الأب و الابن فقد شرب كل واحد منهما كأسين فقط ؛ بينما شربت أنا ثلاثة كؤوس من البيرة !

–متى تقدمون العشاء ؟ الساعة الآن تجاوزت السابعة ! سأل الابن بعد أن نظر الى معصمه !

–اعلمي يا حبيبتي، " كُونستانت"، أن تجهز طاولة الطعام ! قالت الأم لزوجة ابنها .

–قبل ان نتناول طعام العشاء ، اسمحوا لي أن أقدم لكم ما أحضرته! قلت ثم نهضت وتوجهتُ الى حيث تقف السيارة.

–و هل أحضرت شيئا غير سلّة القرنفل و قارورة النبيذ ؟! سألت مارثا.

لم أجبها، وانما خرجت و لحقت هي بي و رافقتني الى حيث تقف السيارة، ثم قالت عاتبة:

-ألم أقل لك يا حبيبي ، عندما سألتني أمس ماذا يجب أن تحضر معك ، بأن لا تحضر شيئا أبدا ! و انك انت نفسك هدية ثمينة لنا جميعا ؟! ألم ترَ فرحتهم و سعادتهم برؤيتك ؟!

-لو أحضر لكِ و لعائلتك كنوز الأرض كلّها، يا أغلى من في الوجود بعد عائلتي ، لما شعرت أنني أعطيتك ما فيه الكفاية؛ قلت صادقاً !

-و هل تحبني إلى هذه الدرجة ؟! سألتْ و هي ترقص طربا و سعادة، وبسمة كبيرة تزيد في جمالها !

-و الله ؛ إنني احبك بكل ما عندي من طاقات! إنّ حبك يمنحني سعادة و رضى و طمأنينة يعجز اللسان عن وصفها ! قلتُ صادقاً وقد لففتها و بدأت أقبلها بنهم و هي تتضاحك ، ثم أضفت:

-و هل من المعقول أن أحضر لمقابلة عائلة الفتاة التي أمضيت عمري أبحث عنها حتى وجدتها ، خاليَ اليدين ؟!

و هنا، كنت قد أخرجت من السيارة الحقيبة التي بها الحاجيّات التي أحضرتها معي لهم، فحملتها و سرت وسارت هي الى جانبي ممسكة بيدي الطليقة !

عدنا، مارثا و أنا، الى مكانينا فوضعت الحقيبة أمامي و اخرجت منها أولا طاولة الزهر و ناولتها الى الأب؛ و عندما أخرجها من كيسها و تأملها صاح بإعجاب و قد اتسعت حدقتا عينيه و انتفخت أوداجه، فقال:

-تحفة فنية رائعة ! أهذه لي ؟ ! شكرا ! شكرا يابني ! صاح ثم نهض و لفّني ثم قبلني على الخدين ؛ بعدها ناولته الروب " ديشمبر " فاخرجه و تأمله و اعاد نفس جملته ، بأنه رائع و تحفة فنية نادرة!

-هل تعرف كيف تلعب طاولة الزهر ؟ سألني.

-لا ؛ إنها اللعبة الوحيدة التي لا أعرف أن ألعبها! قلت.

-سأعلّمك إياها ؛ و سأعطيك أول درس هذا المساء ، قال باعتداد و فخر و ابتسامة جذلى تضيء كل جنبات وجهه!

ثم ناولت الثوبين الى الأم فقلت و انا نادم و حزين جدا، اذ انهما ثوبان فقط بينما النسوة ثلاثة وعندما فتحتهما بمساعدة زوجة ابنها و ابنتها، صِحنَ ثلاثتهنّ بصوت واحد:

–جميلٌ جدا ! رائع ! فائقة الجمال ! يا لها من هدايا نادرة !

–أنا حزين جدا ، إنهما ليسا ثلاثة على عددكنّ؛ قلت و أنا حقاً حزين؛ لم يقلن شيئا ، و بعد أن تأملنها طلبت الأم الى زوجة ابنها ان ترتدي احداهما و طلبت الى ابنتهما ان ترتدي الثاني! لقد كانا نفس الحجم و نفس التطريز ؛ الاثنان طبق الأصل؛ لقد كانا كأنهما فصّلا عند الخياط خصيصا لهما؛ فقالت الأم:

–هذان الثوبان يليقان جدا بشابتين صغيرتين، اكثر مما يليقا بامرأة في مثل سنّي؛ و أنا احب أن تأخذي أنتِ يا بريتني واحداً ، و انتِ يا مارثا الثاني؛ و مبرووك عليكما ! قالت الأم و الفرحة يضجّ بها وجهها !

لا أدري ، لماذا أحسست في تلك اللحظة، و كأن هما ثقيلا قد انزاح عن كاهلي! بارك الله بكِ يا ماما نديدا !

نهض الأب و نهضنا نحن جميعا ، فامسك بيدي اليمنى و سرت الى جانبه و اتجهنا الى غرفة الطعام؛ وقف على رأس الطاولة و أشار اليّ أن أجلس على الكرسي الذي على يمينه . لم أجلس و إنما بقيت و اقفا ، فطلب إلى مارثا أن تجلس إلى يميني و بقيت هي أيضا واقفة و لم تجلس؛ ثم رأيت الأم تجلس على الطرف الثاني من الطاولة، قبالته؛ و جلست الى شمالي زوجة الابن و جلس زوجها الى جانبها .

فكّرت أن أمسك الكرسي احتراماً لأم الحبيبة مارثا، و لكن الزوج عفاني من هذه المهمة ، اذ أنه ما زال ممسكا بيدي !

بعد أن جلس كل منّا في مكانه طلب الأب الى الخادمة أن تقدم الشوربة لي أولا فأعلمتهم، بانني ما زلت أعتبر نفسي أحد أفراد عائلة "الكارلينقتون " ، فيجب أن نتبع أصول المائدة و هو أن يكون الشخص الذي يُخدم أولا، هو سيدة البيت ، ثم بعدهما سيّده ، و النسوة بعدها ، بدءً من أكبرهن سنا ، ثم بعد ذلك الرجال ، كيفما أُتُّفِقْ ! ضحك الجميع و هلّلوا للفكرة !

–ليت سهيل شرفنا بالحضور الى منزلنا منذ أن تَعرفتْ عليه مارثا ، لكان صار لنا الآن مدة طويلة نستمتع برفقته ! قالت الدكتورة بريتني وهي تنظر إليّ وتبتسم!

–لقد دعوته قبل مدة طويلة ، و لكنه كان دائما يعتذر! قالت مارثا بلهجة عتاب و هي تنظر إليّ !

–الحقيقة أنني كنت متهيّباً وخجلا من الحضور؛ أما الآن و قد عرفتكم ، وعرفت مقدار اهتمامكم بي، فإنني أشعر بالأسف و الندم الشديدين، اذ أنني لم أقبل الدعوة من أول مرّة ، لقد حرمت نفسي، كل هذه المدة، من محبة و دفء عائلتي الجديدة ! قلت بحماس و صدق و اخلاص !

–آه يا بني ... يا سهيل! لقد أدميت قلبي! قالت الأم وعلامات الحزن و التأثّر تغطي وجهها !

–إذن، تعال و تعشّى معنا كل ليلة ! قالت زوجة الابن بحماس.

–سيأتي ! سيأتي ! و ان لم يفعل، سأذهب أنا و احضره بنفسي ! قال الأب بحماس و هو يضحك و يهزّ يده ليؤكد مقولته !

–لا حاجة لأن تزعج نفسك يا عمّي، سأحضر و بكل سرور! قُلت .

–و الآن أرجوك يا بني أن تقول " صلاة الطعام "، قالت الأم ثم أحنت رأسها للأمام و فعلنا نحن مثلها ، ثم بدأت أنا البسملة و بعض الأدعية ، فشكرت الله على تكرمه علينا ، بأن منحنا هذا الطعام و رجوته أن يباركه ، و أن تكون معرفتنا ببعض دوام خير و محبة للجميع ؛ و عندما قلت آمين ... ردد الجميع معا: " آمييين ".

لم يسألني أحد ما قلت و لم أترجم أنا لهم ذلك و انما رفعوا رؤوسهم بعد أن انتهيت استعدادا لتناول الطعام !

ان جميع الذين دعيت الى منازلهم لتناول وجبة الطعام او الغداء، كانوا دائما إما أن يقول أحدهم مباركة الطعام، أو يطلبون إليّ هم أن أفعل ذلك!

كان كل حديثنا و جميع أسئلتهم طيلة تناول وجبة العشاء ، تدور حول المواد التي نستهلكها في الأردن و بقيّة بلدان الشرق الأوسط ، و فيما اذا كنت قد أحببت الأكل الاميركي ، و أي نوع أحبه أكثر من الآخر ؛ ثم اذا كنت قد وجدت صعوبة في التعود عليه اول وصولي ، وهل كنت اجيد طبخ الطعام قبل حضوري و فيما إذا كنت أمارسه بمحبة أو كراهية ؛ إلى آخر هذه الأسئلة .

لم يقدّموا نبيذا على طاولة الطعام، كما يفعل الكثيرون من الأمريكيين الأغنياء ، و إنما سألوني إن كنت أريد بعضا منها ، فاعتذرت !

سألتني الأم بعد أن انتهينا من الأكل، ان كان لا مانع عندي من أن ننتقل الى غرفة الجلوس و نتناول الحلوى بعد فترة، فحبّذت الفكرة، حيث أن الطعام كان لذيذا جدا و أكلت منه أكثر مما يجب و حتى يكون هناك متسع في المعدة، مما أسعد الجميع و أضحكهم أيضاً!

حالما انتهت الخادمة من تقديم الحلوى و صب القهوة للجميع و انصرفت رحّبوا جميعهم بي من جديد و كذلك شكرتهم أنا من جديد أيضا على دعوتهم و على كرم الضيافة ، عندما قالت لي الدكتورة بريتيني و قد فردت على وجهها ابتسامة تسعد ناظريها :

–لا شكّ أن لك طفولة ممتعة، فهل لك أن تحدّثنا عنها، من فضلك؟

لا أدري لماذا انقبض صدري و فارقتني الفرحة و تجهّم و جهي فقلتْ و كأنما كنت أخطب :

–لم تكن لي طفولة! لقد تجاوزتها ! لقد قفزت فوقها!

تبادل جميعهم، و دون استثناء، نظرات استغراب و اندهاش، دون ان يفتح احدا منهم فمه ! أما أنا فواصلت حديثي:

–نعم لم يكن لي طفولة! لم أعشها و لم أستمتع بها! لقد قفزت من الرضاعة إلى الرجولة ومن ثم إلى حمل المسؤولية !

–انك تتكلم ألغازا يا بنيّ ؛ فهل لك أن توضح ما تقول ؟! سألتني الأم باندهاش و حيرة و هي تحملق في وجهي و كأنما تراني لأول مرّة !

– توفي والدي و أنا في السابعة من عمري، فحملنا أنا و أخي الذي يكبرني بثلاث سنوات مسؤولية العائلة مع والدتنا! لقد كان والدي مزارعا يملك أراضٍ زراعية كثيرة جدا في أماكن مختلفة من البلاد، وكذلك كان يملك كرمين كبيرين من العنب و التين و الزيتون، مساحتيهما أضعاف أضعاف كل ما تملك عائلة الدهشان، و التي يقدّر عدد أفرادها بألف شخص مجتمعة، كما كنا نملك مساحات واسعة من أراضٍ واسعة مزروعة بالخضار كالبندورة والبطيخ والشمام والفقوس والفليفلة والباذنجان و القرنبيط؛ و غيرها الكثير؛ وكذلك كُنا نملك حيوانات كثيرة، كالبقر و البغال و الحمير و الماعز و الدجاج والحمام؛ وكذلك كنا نملك فرساً أصيله، ذات حسبٍ و نسب ، لها شهادة ميلاد كالإنسان تماما، وكان اسمها "عُبَيّةَ" و كانت شهرتها تصل الى كل بيت من بيوت السلط !

–و أين ذهبت كل هذه الثروات؟! سألت الدكتورة بريتني!

-إنها قصة طويلة و محزنة! وسأقصّها عليكم يوماً ما ! قلت .

-لقد أحزنتني كثيرا يا بني ! إن حياتك كفاح مرير ! قالت الأم و كلماتها تقطر حزنا و هي تكاد تبكي !

-أنا لا ألومك عندما تقول بأنه لم تكن لك طفولة ! قالت زوجة الابن و كلماتها هي الأخرى تقطر حزناً !

-عندما أعلمني سهيل قصة حياته ، تأثرت كثيرا حتى صرت أبكي ! قالت مارثا و قد توقفت عن رشف قهوتها !

-نعم ! إنها قصة محزنة حقا ، قال الابن و هو يرشف قهوته بكسل و تراخٍ !

-إنها ليست قصة محزنة ، بل هي على العكس من ذلك تماما ! إنها قصة مفرحة ! قصة مولد بطل ! قصة رجلٍ عصامي ! لو كان سهيل عاش حياة سهلة و راغدة لما كان قد وصل الى ما وصل اليه الآن، و لما كان جالساً الآن بيننا أصلاً ! قال الأب بحماس و قد اتقدت عيناه بعد أن شرب من فنجان قهوته جرعة كبيرة !

-شكرا لك يا عمي، هذا ما اعتقده أنا أيضا! إنّ حياة الألم و المعاناة هي التي كانت تدفعني دائما الى التقدم و الاصرار و السمو ! و بعد أن شربت رشفة كبيرة من فنجان قهوتي لأرطّب بها لساني الجاف ، أضفت:

-إنني كلما أنظر الى الخلف، و أتذكر أيام الذل و العذاب و القهر و المعاناة؛ أشعر بأنني كبرت بل و تعملقت ! قلت ذلك ؛ و بعد أن تمهلت قليلا أضفت :

-بقينا أخي و أنا نساعد والدتي مع الحرّاث الذي كان يساعد المزارعين الذين كانوا متواجدين أيام والدي ! أمّا في الصيف، و بعد وقت الحصاد، فقد كنّا نقضي ثلاثة أشهر نصطاف بها في كرومنا ، و نمضي أسعد الأوقات؛ كنا نستنشق الهواء النقي ، و نستمتع بأكل العنب و التين من كرومنا ؛ و نصنع الزبيب و الدبس و طبيخ العنب و الملبن و نجفف البندورة و نخزنها؛ لنستعمل كل هذه الحاجيات أيام الشتاء . بقينا نفعل ذلك الى ان جاءنا " هادم اللذات و مفرّق الجماعات " !

بعد ان انتهيت من سرد قصتي كانت عائلة الكارلينقتون بجميع أفرادها مركزة عيونها على شفتي تستمع إلى الكلمة قبل أن تخرج من فمي و عيونهم محدقة بي مذهولة مرعوبة !

تجنبت الإجابة على أسئلتهم العديدة و لم أعلق على ملاحظاتهم مخافة أن ندخل في متاهات و ايضاحاتٍ عشائرية وحضارية

انتهيت من سرد قصّتي ، لعائلة الكارنقتون بحدود الحادية عشر ليلا ، و كنت لحظتها منهك جسميا و عاطفيا ، اذ جددت الذكريات الحزينة أوجاعي و آلامي! نهضت بعدها مستأذنا بالانصراف فطلبت الأم منّي أن أقضي الليلة في بيتهم فاعتذرت شاكرا ، بحجة أن لدي التزامات لا بد عليّ من القيام بها صباح الغد ؛ عندها طلب الأب مني ، متكلما باسم الجميع ، أن آتي غدا بعد أن أقوم باداء هذه الالتزامات ، لانه يريد أن يعطيني ثاني درس لي في لعبة طاولة الزهر ، فشكرته و رحّبت بالفكرة.

-لولا أنه دوري الليلة في قراءة الشعر للوالد، لرافقت سهيلاً و لكنت خففت عليه من وحدة الطريق، في هذا الوقت المتأخر من الليل ! قالت مارثا بأسفٍ و ألم !

ذبت خجلا، وقلت لابد من أن الجميع سيلومونها ، بل و سيؤنبونها على مقولتها هذه ، و لكن لشدة عجبي واستغرابي ، عندما قالت زوجة الابن بأنها ستقوم بالمهمة، ولتذهب مارثا مع سهيل وتقضي الليلة معه بدلا من أن يقضيها لوحده ! فشكرتها الأم لتبرعها، وكذلك فعل الأب و الابن !

*****

كان عقربا الساعة متعانقين عندما دخلنا ، مارثا و أنا شقتي ، فهرعت الى الهاتف و اتصلت بصديقيّ الروبنسون و انا أتحرق شوقا لسماع صوتيهما، و لأسألهما كيف قضيا يومهما، ثم لأعلمهما كيف قضيته أنا أيضا.

كانت التي ردّت على الهاتف شيلا ، و بعد ان رحبت بي بحرارة زائدة ، سألتني و هي ترقص فرحاً :

-كيف كان يومك ؟! و هل افتقدتني ؟! و كأنما تنبّهت إلى غلطتها فأضافت:

-اعني و هل افتقدتنا؛ جيمس و أنا ؟! و هل أمضيت وقتا ممتعا ؟!

–طبعا ! طبعا ! لقد غمروني بمحبتهم و كرم أخلاقهم ! لقد كان يوما من أسعد أيام حياتي ، هنا في أمريكا ! لقد دعوني بأن أقضي الليلة عندهم، و لكنني أتيت لأنني أفتقدكما وأريد أن أراكما ! قلت.

–و هل أنت قادم الى بيتنا، الآن ؟! سألتْ بفرح !

–أجل؛ لقد حضرت مارثا معي أيضاً ! قلت.

–آآآه ! أنت لست وحدك؟! قالتها بصوت فقد فرحته و حماسه فجأة !

–نعم؛ و سنقضي الليلة معا، سنعود غدا الى بيتهم ! قلت.

و لمّا لم أسمع تعليقا منها ، أضفت :

–لا تقلقي! أنا مشتاقٌ جدا لرؤيتكما ، و أظن أن مارثا تشاركني نفس المشاعر !

–لا بأس ! امضيا وقتا ممتعا، وسنراكما عصر الغد ! تصبح على خير ! قالت ذلك و أغلقت السماعة !

لقد شعرتُ أنها قالتها باحباط ممزوج بالغضب، و فجأة، و لأول مرّة؛ منذ بدء علاقتنا ، تنبّهتُ إلى حقيقة غابت عني قبل الآن، و هي أن شيلا صارت تشارك زوجها نفس المشاعر و نفس التفكير، بأنه يجب أن لا يكون لي صديقة؛ و هو ما آلمني و أحزنني كثيرا !

لقد تساءلت عن السبب الذي غير رأي شيلا ! لقد كانت تشجعني بل و تؤكد عليّ بأنه يجب أن يكون لي صديقة، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك؛ اذ طلبت الي أن أتزوج مارثا لأنها كما قالت؛ ستسعدني و ستوقف حيرتي و عذاباتي !

فتحت لنا شيلا الباب عصر اليوم الثاني ، عندما زرناها مارثا و أنا، وبعد أن تعانقت المرأتان كالعادة، و لأول مرّة لاحظت أن عناق شيلا لمارثا كان عناقاً روتينيا و باردا ! لم يكن يحمل ذلك الشوق ولا تلك اللهفة اللذين كنت ألاحظهما عندما كانت تتقابل المرأتان !

أما عندما تعانقت يدانا ، شيلا و أنا ، فقد شعرتُ بأن يدها كانت ترتجف و غير مستقرّة ، و أن أنفاسها كانت تعلوا و تهبط و كأنما عادت لتوّها من سباق طويل ! اقتربت منّي حتى خلت أنها ستعانقني و تقبلني !

لقد قطعت الشك باليقين، بعد أن عرضت علينا شيلا أن تعمل لنا قهوة ، اذ قالتها بطريقة مصطنعة لا اهتمام بها و لا شوق، على عكس عادتها بكل زيارة نقوم بها، حيث اعلمتها مارثا بأنه لا حاجة لها بأن تزعج نفسها حتى سكتت و لم تزد ، بينما كانت سابقاً لا تسأل و انما تعمل القهوة و تقدمها مع قطعة من الحلوى و الترحيب المتكرر بنا.

كانت شيلا دائما ترحب بنا ترحيبا حاراً و متواصلاً، مارثا وأنا ، و تقدم لنا القهوة مع الحلوى دون أن تسألنا، إذا صادف و أتينا لزيارتهما، هي و زوجها، في أوقات لا غداء بها و لا عشاء ! أمّا هذه المرّة فقد سألتنا ، ببرود و بغير حماس إن كنّا نحب أن نتناول بعض الطعام !

لم يكن جيمس موجودا ، و لم تعلمنا أين ذهب؛ كما كانت تفعل كل مرة في الماضي ، و عندما أعلمتها بأنني مشتاق له و افتقدته، لم تعلّق كما كانت تفعل أيضا في السابق ، بل و لم تقل شيئا ؛ و عندما استأذنا بالانصراف و لم يكن قد مضى على وجودنا عشر دقائق بعد، لم تطلب إلينا، كعادتها، أن نمكث أطول !

لقد لاحظت شيئا آخر و هو أن شيلا ليست بنشاطها و حيويتها المعهودتين ، مما يدل على أنها لم تنم الليلة الماضية !

عندما سألتني مارثا، بعد أن غادرنا، ان كنت قد لاحظت البرود و عدم الاهتمام في تصرف شيلا و كذلك كيف أنها كانت ذابلة العينين حزينة الوجه مرهقة الجسم ، هززت رأسي عدة مرات موافقا ، و لمّا سألتني ان كنت قد عرفت السبب الحقيقي، اعلمتها بأنها ، للاسف الشديد، صارت تؤمن بما يؤمن به زوجها؛ و لكنها هزّت رأسها نفيا و قالت: بأن السبب هذه المرة هو غير ذلك !

كنت قد اعلمت مارثا في أول تعارفنا، عن معارضة جيمس الشديدة من أن أتخذ صديقة، و اعلمتها أيضا سبب معارضته ، و كيف أن زوجته تخالفه الرأي تماماً، بل وتحاول اقناعه لتغيير رأيه، و لكنه يزداد عنادا في كل يوم !

–آسفة أن أقول لك بأن السبب الحقيقي لمعارضة السيد روبنسون بأن يكون لك صديقة هو ليس ما يقوله ، و ان كنت لا اعرفه بعد، و هو ما ستكشفه الأيام؛ أما تصرف السيدة روبنسون اليوم و هو الذي لم أعهده منها قبل الآن فاعتقد انها بدأت تغار مني و أنها صارت تحبك !

-ولمَ تقولين ذلك ؟! سألتها مستغرباً و متعجباً! وتقولين صارت؛ و أنا أقول لك بأنها تحبني منذ أن تعارفنا !

-سهيل! حبيبي ! أنت تعرف ما أعني ! قالت شبه مستنفرة !

- لا يا حبيبتي ! لقد شطح بك الخيال بعيدا !

وهنا فجأة تذكرت ما قاله لي صديقي جورج مونتكيو يوما، بأنه: " لا يوجد حب عذري بين رجل و إمرأة، إلّا إذا كانت من محارمه و محرّمة عليه ! "

إستعذت بالله من الشيطان الرجيم، و هززت رأسي عدة مرات يُمنةً و يسرةً، لأطرد الفكرة الشيطانية التي خالجتني !

-خيالي لم يشطح بي و لكنك أنت طيّب القلب، حسن النية ! أنا امرأة و افهم عقليّة المرأة و ما تفكر به ! يبدو لي الآن أن السيدة روبنسون قد انضمت الى زوجها في كراهيتي و احتقاري ؛ مما يحزنني و يقلقني أيضا!

-آسف أن أقول لكِ يا حبيبتي بأنك واهمه، و أن محبة شيلا واحترامها الشديدين لكِ لم يهتزا و لم ينقصا ! ثقي بي ! قلت.

-الأيام هي الحكم ! انتظر و سترى ! قالت مارثا.

و هنا قد وصلنا المنزل، فاستمهلتها حتى أنزل أنا اولاً و افتح لها باب السيارة ، فقالت بدلال وهي تتضاحك:

-و متى ستتوقف عن تدليلي و تفسيدي أيضا ؟ !

-عندما يتوقف قلبي عن الخفقان ، و أكون تحت الثرى ! قلت بعد أن فتحت لها باب السيارة .

-لا تقل ذلك؛ أرجوك! انك ترعبني! قالت بفزع و قد تعكّر صفاء وجهها ثم خرجت من السيارة !

*****

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ظهرا بدقائق ، عندما دخلنا ، مارثا و أنا ، من الباب الرئيسي لمنزلهم ، اذ ما كاد أهلها يسمعون فتح

الباب و اغلاقه، حتى هرعت المرأتان لاستقبالنا، و كلمات الترحيب الحار و الابتسامات الجذلى تعلو شفاههما !

تقدمت الأم و فتحت ذراعيها على وسعيهما، و عانقتني بحرارة و شوق، و كذلك فعلت أنا؛ إذ ضممتها الى صدري، وبالغت في عناقها و تقبيلها، فاسكرت حرارة أنفاسها و عطر جسدها جميع حواسي !

لقد قبّلتها هذه المرة بتمهل على خديها الاثنين و بكل راحة واطمئنان، لاني كنت اليوم مستعدا لها و أتوقعها ، هذا بالاضافة لأنه لم يكن أحداً من الرّجلين موجودا ، حيث يتسبب وجود أحدهما أو الاثنين بخجلي و إحراجي، غير اني قبلتها قبلة خاطفة على شفتيها مما اسعدها كثيرا لانها هكذا فعلت معي بالامس، و هكذا ارى بعض الامريكان يفعلون عندما يتقابلون!

لم أكن اليوم متوتراً كما كنت بالأمس، عندما عانقت الدكتورة بريتيني، ربما لأنه سبق و أن قابلتها ، و كذلك ربّما بسبب الترحيب الحار و المتميّز و كذلك حرارة العواطف التي قابلتني بها ! لم تمانع المرأة عندما رفعت ذقنها وقبّلتها على عنقها،إذ لاحظت بأنّ ذلك قد أسعدها، بل و شعرت و كأنها تطلب المزيد، حيث صارت ترتعش على صدري و بين ذراعي !

لا أدري لماذا تذكرت في تلك اللحظة أحد أجدادنا الشعراء "عمر بن ربيعة " ، عندما طلبتْ منه حبيبته، بعد أن قبّلها على شفتيها أن يقبلها على عنقها؛ حيث قالت له: "قبّلت فاهي فلا تبخل على عنقي!"؛ والذي كان جوابه "قلت العناق حرام لست أفعله، فقالت إذن فاجعل هذا الحرام يكون في عنقي ! "

الحقيقة أنني ندمت ندما شديدا على فعلتي هذه، فقد شعرت بتأنيب الضمير و أنّني خنت الثقة و كرم الضيافة؛ و لكنني شكرت الله أن لا أحد من المرأتين، لا الأم ولا الابنة قد لاحظتا ما حدث بيني وبين الدكتورة بريتيني !

اللعنة! اللعنة! لقد استغليت طيبة قلوب مضيفيّ ، و كرم أخلاقهم ، و ثقتهم بي؛ كما استغليت أيضا، فحولتي و اعتدادي بنفسي، فتماديت بتصرفاتي !

-هل قضيتما ليلة ممتعة ؟! سألت زوجة الأخ موجهةً الكلام الى مارثا.

-هزّت مارثا رأسها عدة مرات من أعلى إلى أسفل، علامة الموافقة، و ابتسامة سعادة تنير كل مساحات وجهها !

-ما عادت مارثا من زيارة سهيل، إلا و كانت في قمّة السعادة ! قالت الأم بتلذذ و حبور هي الأخرى!

و أنا كرجل شرقي ، و لدت و رضعت حتى ارتويت من حليب " التابوهات " و المحرمات و العيب و العار، خجلت جدا عندما سمعت جواب الأم لزوجة ابنها من أن ابنتها ما عادت ، و لا مرة واحدة ، من قضاء ليلة غرام في شقة حبيب ابنتها ... عشيقها ... لا زوجها ! سبحان مبدّل المفاهيم و قالب الموازين ! نعم، سبحانه !

-ادوارد و دريل يسبحان، اذا احببتما ان تنضمّا إليهما، و سنلحق بكم بعد قليل! قالت الأم تخاطبنا، مارثا و أنا.

قادتني مارثا الى غرفة تغيير الملابس فناولتني سروال سباحة جديد، أخرجته من ورقته؛ و اعلمتني بأنها اشترته لي قبل أسبوعين، عندما كانت تتسوق في مخازن " نورث ستورم "، فضحكت لأنني كنت قد حملت سروال السباحة لاحضره معي هذا الصباح، و لكنها اعادته هي الى مكانه و هي تضحك ! لم اعارضها و لم تقل هي لي السبب؛ ثم تعرّت تماما و صارت ترتدي ملابس السباحة فهجمت عليها لأعانقها، فقالت و هي تتضاحك و تمنعني من تقبيلها و تطلب مني أن أشبكه خلف ظهرها !

- " أرجوك توقّف ! أنا لست بالمزاج! " مما جعلني أنفجر ضاحكا، اذ تناقشنا يومها لمدة طويلة عندما قالتها لي لأول مرة !

قادتني من جديد الى حيث والدها و اخيها، فوجدناهما يعومان وسط الماء، فتبادلنا التحية و رحّبا بنا ترحيباً حاراً وسألانا، ان كنا قد أمضينا وقتا ممتعا ! ضحكت أنا و اجابتهما مارثا بأننا فعلنا، بأن هزّت رأسها بنعم و هي تبتسم !

بعدها مسكت هي بيدي ثم قفزنا بالماء! لم تمضِ إلا دقائق قليلة حتى انضمت الينا الأم و زوجة الابن و كانتا حقا جميلتين جداً! لقد كانت

الأم، رغم أنها تجاوزت الخمسين من عمرها، إلا أنها كانت ذات جسم نحيف، جميل جدا و متناسق، و ذات قوام أهيف؛ أما زوجة الابن فقد كانت قطعة فنية رائعة أبدع الخالق، سبحانه و تعالى، في تسويتها !

لقد سألتني الزوجة أمام الجميع و هي تضحك ، ان كانت بدلة سباحتها جميلة، فأجبتها بصوت عالٍ سمعه الجميع، بإنها رائعة جدا جداً، و لكن الجسم الذي تلبسه البدلة أجمل بكثير!

قلتها و لا أدري كيف خرجت الكلمات من فمي ! فقد أحسست فجأة بندم شديد و بخجل أشد ، فاحمر و جهي و أذناي! و لكن و لشدة عجبي واستغرابي عندما انفجر خمستهم يضحكون، مما زاد في ارباكي و خجلي !

–شكرا جزيلا، يا سهيل! يا أخي! لقد اسعدتني كثيرا ! لم أذكر أن دريل قد قال لي مثل هذا الكلام يوما ! قالت الزوجة بتمهل و هي تتلذذ بنطق الكلمات و تصر على مقاطعها !

–سهيل ، استاذ جامعة و عنده ملكة تحليل قويّة مدركة و واعية ! لقد لفت انتباهي بل أكد لي بأن لي زوجة رائعة الجمال ، مما أسعدني كثيرا ؛ فشكرا لك يا أخي! قال الزوج و الفرحة تنير وجهه، إذ كان هو الآخر يتلذذ بنطق الكلمات و يؤكد على مقاطعها !

لعلّ قوليّ الزوج و الزوجة قد شجعني على الكلام فقلت:

–ما أسعدنا نحن الرجال الثلاثة، أن يكون لنا حبيبات نهيم بهن عشقا، و يملكن الى جانب الرقة و النعومة جمالا متميز ؛ و كذلك عقول كبيرة نيّرة ؛ و على رأسهن الأم الحبيبة نديدا ، و التي تغمر كل من يعرفها بكرم أخلاقها و محبتها ! قلت ذلك بتمهل و حماس و صوت عالٍ، و أنا أنقّل الطرف بينهنَّ الثلاثة ، بتلذذ و اعجاب و شوق، و بصوت يسمعه الجميع ، و كانما انشد قصيدة غزل !

كانت الأم و زوجة ابنها على الطرف الثاني من بركة السباحة ، و كنا مارثا و أنا في المنتصف ، فسبحت المرأتان، الأم و زوجة الابن، نحونا و عانقتاني بحرارة، ثم قبّلتاني على خدّي الاثنين و قالتا و وجهيهما يطفحان بشرا و عيناهما مغرورقتان بالدموع:

– صدقاً يا بني ؛ لم أقابل بحياتي كلها رجلاً مثلك، من يملك فيض المشاعر و رقة الاحساس و كذلك الجرأة و الشجاعة الأدبية، إلّا زوجي

ادوارد ! انك تشبهه الى حد كبير ، و أنا استمع لك ، وأنت تتكلم ! إنني أتذكر كيف كان يتكلم معي في أول لقاءاتنا. قالت المرأة وهي تمسح دموعها بظهر يدها اليسرى !

–صدقيني يا زوجتي الحبيبة ، أنني حتى اليوم لم أقابل إمرأة من لها كبر عقلك و رجاحة تفكيرك و زخم عواطفك ، من جميع النساء اللواتي نعرفهن ، أنت و أنا ، من أصدقاء و معارف ! قال الزوج باصرار و حزم و ان لم ألاحظ أي تغيير على وجهه من الفرح !

فقلتُ في سرّي، ان هذه هي طبيعة رجال الأعمال الجديّين !

–حقاً ! ان شخصية سهيل متميّزة جداً ! لقد تعرّفت أيام كنت طالبة على الكثيرين من الشباب، و الكثيرين من المرضى، و كذلك في الحياة، فلم أرَ له مثيلاً ! قالت الدكتورة بريتني !

نظرت إليها و لم أعلق و إنما شكرتها بأن ابتسمت ثم هززت رأسي !

–ما أسعدني يا أماه ! أن نلت رضاكِ و شكرا لله أن كتب لي أن أتعرف على عائلتكم الكريمة ؛ تلك العائلة النبيلة العظيمة ! قلت .

–و نحن سعداء أن تكون ابناً و أخاً لنا ! قالت زوجة الابن .

–أما أنا فلست أدري ماذا أقول ، سوى أنني سعيدٌ جدا جدا ، أن يسر الله لي أخا كريما ! قال الابن، الدكتور دَريل.

لاحظت أن مارثا لم تفتح فاها و انما كانت تتابع بنظراتها ما يجري من حديث حولها ، فقلت و أنا أتأملها و ابتسامة تفيض بالمحبة و الاحترام :

–ما بال حبيبة القلب واجمة لم تفتح فاها و انما تراقبنا و تستمع لما نقول ؟!

–صدقاً ؛ لقد ألجمت السعادة لساني ! انني و منذ وعيت على نفسي، لم أتذكر انه مرّ علينا يوما لم نكن به سعداء ، و لكن سعادتنا في الأمس و اليوم كانت متميزة ! قالت مارثا.

–هذا بسبب وجود سهيل بيننا ! قالت الدكتورة بريتني و فرحة جذلى تملأ إهابها

–هذا صحيح ! قالت الأم و الاب و الابن بصوت واحد و كانما يرددون في كورَس.

–يسعدني ذلك جدا، قلت ذلك بتواضع خجل.

–أريد أن أقول لكم شيئا مهما، أنا أموت جوعا، فهيّا الى الطعام ! قال الأب و هو يخرج نفسه من الماء، ثم صار يضحك و يقهقه ! ثم تبعناه نحن بعدها !

*****

كان غداء خفيفاً ، بعض الشطائر و كؤوس بيرة ، حيث أن وجبة العشاء ستكون بعد حوالي ثلاث ساعات من الآن ، أي في الساعة السادسة ! لقد لاحظت أن العائلة كلها ، ما عدا مارثا التي لا تتناول شيئا منها اطلاقاً ، لا يهتمون كثيرا بتناول المشروبات المسكّرة ، و انما يتناولون قليلا من البيرة مع شطائر وجبة ، و كأساً من النبيذ مع وجبة العشاء ! لقد لاحظت كذلك أنهم أيضا ، لا يذهبون إلى الكنيسة كل يوم أحد ، و انما يذهبون اليها في الأعياد و المناسبات ، كما لاحظت أيضا انهم كلهم ملتزمون اخلاقيا و سلوكيا و دينيا ! كانوا دائما يستعملون في أحاديثهم كلمات ، صدقني ؛ ثق بي ؛ فليسامحنا الرب ؛ عندما يتحدثون عن شيء ما !

بعد الغداء استأذن الأب و الام ليرتاحا لمدة ساعة ، و بعد أن يعودا يعطيني الأب أول درس لي في تعلّم طاولة الزهر ، كما وعدني بالأمس عندما قدّمتها له كهدية ! و قد أعلمته بأنني لا أعرف لعبها !

أثناء استراحة الوالدين لعبنا نحن الأربعة " البلياردو ، و طاولة التنس " و تحدثنا بمواضيع مختلفة ، و لكن عندما نهض الأب ذهبنا هو و أنا فقط الى غرفة الجلوس و جلسنا قبالة بعضنا البعض، ليعطيني أول درس في لعبة طاولة الزهر ! لقد عرفت من كلامه أن الرجل حقا متعمقٌ في هذه اللعبة العتيدة .

ما كدنا نجلس ، هو و أنا ، حتى نظر الرجل إليّ طويلاً و ابتسم ، ثم قال:

–نحن ، أربعتنا ، نعرف جيدا يا بني ، أن مارثا تحبك حبا جمّا ؛ و نعرف أيضا أنه اذا مرّ يوم و لم ترك به ، تتضايق جدا بل و تحزن حزنا عظيما ! اننا

واثقون جدا من حبّك العظيم و احترامك الشديد لها ، أقول هذا لأنني عدت من عملي الأسبوع الماضي فسألت بريتني عنها لأنني رأيت سيارتها و لم تأت و تحتضنني كعادتها عندما تعود ! فوجدت أنها في المنزل ! انها عادةً حالما ادخل المنزل تأتي مهرولة إليّ و تحتضنني و تسألني كيف كان يومي ! و إنني انا بدوري أسألها كيف كان يومها و كيف قضته ، اما اذا عادت بعدي فهي تهرع إلي حالما أدخل المنزل. وبعد أن صمت قليلاً أضاف:

–صدقني يا بني أنه عندما كانت تقضي الليل معك ، فعلى الرغم من فرحتي الشديدة الا انني كنت أفتقدها بشدّة ، أقول هذا لأنني عدت الأسبوع الماضي من عملي فاعلمتني بريتني بأنها في غرفتها و انها حزينة جدا وانها كانت تبكي ؛ و لما سألتها السبب ، قالت بأنك فضلت عليها رفقة تناول طعام الغداء مع شيلا ، زوجة صديقك الروبنسون !

ابتسمت؛ و هممت لأن أعلّق على ما قاله، و لكنه رفع يده اليمنى، و كأنما يستمهلني ليكمل حديثه فأضاف :

–لقد قالت بأنك طلبت منها أن ترافقك ، بل رجوتها و ألححت في الرجاء ، فاعتذرت هي بحجّة أنها تعتقد بأن تلك المرأة تحبك، لا كأخت كما تدّعي هي، و إنما كما تحب المرأة الرجل ، بينما أنت تحبها كأخت ! انها صارت لا تريد مارثا و انها تغار منها ! لقد قالت بأنك عملت كل ما بوسعك لاقناعها بان شكوكها بغير محلها ، ثم اعلمتها أنت بأنك ستعتذر لزوجة صديقك فلا تذهب و تبقى معها، و لكنها اقنعتك بأنك لا بد و ان تذهب ! وبعد أن ذهب بدونها أعلمتني بأنها ندمت ندما شديدا ، إذ لولا كبريائها للحقت بك!

و مرة أخرى ابتسمت و هممت لأعلق على ما قال ، و مرة أخرى رفع يده اليمنى ليستمهلني و ليقول :

–لا أكتمك يا بني أننا أربعتنا ، و كذلك أختي و أخي ، كنا دائما قلقين و نتسائل لسنوات عديدة عن عزوف مارثا عن الخروج مع شاب ، أو اتخاذ صديق كما تفعل كل البنات ، خصوصا و هي ليست جميلة و ذكية فقط ، و انما هي عبقرية !

–اعذرني يا عمي بان اقاطعك و ها أنا قد فعلت ! لقد قلت أنت نفسك بأنها عبقرية ، وان جميع الشباب الذين تعرفت عليهم إما متوسطي الذكاء أو معدوميه ؛ حتى أن بعضهم بالاضافة الى سطحيتهم و غباءهم فانهم متعجرفون ؛ و لهذا السبب لم تتخذ لها صديقا و كانت عازفة عن صداقة كل الرجال ؛ الى أن تقابلنا هي و أنا !

–بارك الله بك يا بني ! و هنا دمعت عينا الرجل و قال بفرحة الذي يموت جوعا و قدمت له وجبة دسمة !

–انك و الله نبّهتنا إلى حقيقة كانت غائبة عنا جميعاً ! كنّا عندما نتسائل بيننا لم يهتدي أحد منا الى ما قلت ! و لقد كنا لا نفكر إلا بانها غير طبيعية ! قال ذلك و مسح الدموع المنهمرة من عينيه بظهر يده !

–أنا لا أقول يا عمي بأن ذكائي و مهواهبي تتوازى مع ذكائها و مواهبها، لا، و لكن أقول بأنّ عندي شيء أقدمه لها ، يقنعها و ترضى به !

–صدقني يا بني إن عندك الشيء الكثيير الكثير الذي تقدمه الى مارثا و الذي يقنعها و يرضيها ؛ عندك المعرفة الواسعة ؛ قوة الشخصية ؛ الأدب الجم ، الشجاعة الأدبية ؛ فيض العواطف ؛ " الاتيكيك " ثم الوسامة و الرجولة !

–شكرا لك يا عمي ! ما أعظمك ! لقد غمرتني و الله بلطفك و كرم أخلاقك ، و أسأل الله أنني أملك كل تلك الصفات التي تعتقد أنني أملكها ! قلت .

–ان مارثا يا بني عندي أغلى من أي فرد من أفراد عائلتي و حتى زوجتي ! انني افدي سعادتها بكل ما أملك ؛ فهل تعدني يا بني بأن تحافظ عليها و أن لا تخيب آمالها فيك ؟! لقد أعلمتني بأنها تحبك بكل أحاسيسها و عواطفها ، و انها لا تتصور نفسها اطلاقا ، بدونك و بدون حبك !

–ليلة أن عادت مارثا و اعلمتنا انها قد تعرفت عليك و انكما قد تناولتما طعام الغداء معا ، فان الفرحة لم تسعنا أربعتنا ؛ و ليلة أن قضت ليلتها في شقتك ، اعتبرنا ، نحن جميعا و دون استثناء ، أن ذلك أسعد خبر نسمعه في حياتنا ! و بعد أن ضحك أضاف :

–أيام كنّا ، نديدا و أنا ، كان ممنوعا بل و عاراً أيضا أن ينام المحب مع حبيبته قبل أن يتزوجا رسميا بالكنيسة و بعقد زواج ، و لكن هذه الأيام فإنه حدث طبيعي !

كلام الأب أحزنني حتى النخاع ! بل و أحرق دمي حرقا ، اذ شعرت بحزن مُمَزّقْ و احباط شديدين ، و تمنيت و بكل الأمانة و الصدق ، لو أنني أستطيع أن أعد الرجل مخلصا بأن أحقق له طلبه ، و لكنني أعرف جيدا بل واثقا بأنني لن أستطيع ! لقد شرحت الأسباب و الموانع كلها لمارثا مطولا و باسهاب ، و لكنها لم تقتنع !

ما أقسى قلبي ، و ما أنكرني للجميل ؛ إنني لم أقل للأب كلمة مُطَمئِنة لتفرح قلبه و تزيل قلقه ! لقد قلت له بغير حماس و لا مصداقية ؛ بل و حتى بعدت به قليلا حيث قلت :

-سأعمل كل جهدي يا عمي ؛ و لكن لا تنسَ أن مارثا راسخة كالطود العتيد ، لا تزعزعها العواصف و لا الأعاصير !

يصيب الإنسان منا أحيانا بلادَة ؛ غباء ؛ سرحان ؛ تشتت أفكار ؛ يلتجم لسانه عن قول كلمة تسعد و تطمئن سامعه ، و لكن و كأنما يصاب فجأة بالعيي و البله و الغباء، فلا يقول شيئا ، و قد ينطق لسانه بكلام ليس ما فكر عقله بقوله ؛ و هكذا حدث معي و أنا جالس أحدّث والد مارثا و يحدّثني هو عنها ؛ فبدلا من أن أقول له كلاما يطمئن قلقه و يفرح قلبه ، نطق لساني بفلسفة ساذجة غبية و بلهاء !

-أرجوك يا عمي ، بأن لا تطلب مني ان اقطع على نفسي عهدا ، بأن أحافظ على مارثا و ان لا أخيب آمالها ؛ و لكنني أرجوك و بصدق و حرارة ، أن تطلب أنت هذا الطلب منها نيابة عني أن لا تبتعد عني و هو ان لا تتركني يوما أعيش بعيدا عنها ! إن مارثا يا عمي هي بالنسبة لي عيناي اللتين أرى بهما ، إنها رئتي التي أتنفس بها ! انها عندما لا تكون معي أشعر بوحدة قاتلة ممزقة ، و بضيق بالتنفس و انني أكاد اختنق !

نهض الرجل من على مقعده بنشاط أذهلني ، ثم عانقني بحرارة و قبلني على خديَّ ، فبللت دموعه وجهي وقال و هو يبتسم من بين دموعه :

-لقد أسعدتني يا بني ! لقد بددت حيرتي و شكوكي ، و طمئنت قلبي ! بارك الله بك ! حقًا ؛ انك انسان شهم و نبيل ! ما أسعدنا بك ! لقد عرفت مارثا من تحب و من تختار لتقضي حياتها معه !

كان الرجل يتكلم بسرعة عجيبة و غريبة ! لقد أصابته فرحة أفقدته السيطرة على زمام لسانه ، اذ صار يتكلم و كأنما هو يهذي مما أسعدني و أحزنني أيضا ! أسعدني أن أدخلت السرور و الطمأنينة الى قلبه ، و احزنني ، حتى النخاع ، أن أرى هذا العملاق شموخاً؛ نفوذاً وثراء؛ بكل هذا الضعف و بكل هذا القلق !

عاد كل منا الى مقعده ، و قبل أن يستأنف الرجل توضيح بعض خفايا لعبة طاولة الزهر قال :

–لي طلب آخر عندك ، و أرجوا أن تحققه لي أيضا ! قال بتردد و خجل ، وقد تورّد خدّاه واحمرّت أذناه!

–سأفعل ذلك و بكل سرور ، ان شاء الله ! أنت تأمر و أنا أنفّذ ! قلتها على الطريقة العربية التجاملية و أنا أصرّ على مقاطع الكلمات و أُشِرْ بيدي اليمنى لتؤكد مقولتي!

–إن سيارتك " الفوكس فاجن " صغيرة و قديمة ، و حجمك أنت ، يباركك الرب ، كبير ، فانه يسعدني جدا جدا أن اشتري لك سيارة جديدة و ذات حجم كبير ! و لما رآني محدّقاً به أنظر اليه باستغراب و حيرة و دون أن أقول شيئا أضاف :

–سأدفع أنا ثمنها للشركة ، و تسددني أنت المبلغ على أقساط مريحة حتى لا تزعج ميزانيتك !

–آسف جدا جدا يا عمي ؛ أن أرفض لك هذا الطلب رفضا قاطعا ! ان عمر سيارتي عامان فقط و هي مريحة جدا و انا سعيدٌ بها ، و ارجوك أن لا تزعج نفسك بذكر هذه القصة مرة أخرى ! قلت باصرار و حزم و شبه غاضب !

–كما تشاء يا بني ! قال الرجل و علائم الألم و الأسف و كذلك الخيبة بادية على وجهه !

شعرت أن رفضي لطلب هذا الرجل الشهم و الكريم، قد أخجله جدا بل أحرجه؛ اذ لاحظت بعض قطرات العرق تبلل جبينه و رقبته ! وكذلك كان ممعناً في التفكير ولكن قبل أن يفتح فمه ، وما هي الا لحظات قليلة ، حتى دخلت زوجة الابن تسألنا كيف تسير الدراسة، و إن كنّا جياعاً، ومتى نريدها أن تطلب الى كونستانت أن تقدم لنا الطعام !

–تسالينني يا عزيزتي كيف تسير الدراسة ؛ و أقول لك بكل الصدق و الأمانة ، انني أخشى اذا لعبت طاولة الزهر مع سهيل بعد الآن أن يغلبني؛ اذ انه سريع التعلم لدرجة أذهلتني ! قال الرجل و هو يمشّط لحيته بأصابع يده اليمنى، بفرح و هو يبتسم و قد أضاء و جهه و تراقصت شارباه !

ومرة أخرى لاحظت أن الرجل غارق بالتفكير، و أنه يريد أن يقول شيئاً؛ ولكن قبل أن يفتح فمه دخل علينا ابنه وسأل كيف يسير تعلّم طاولة الزهر، و قبل أن يجيب الأب قالت زوجة الابن:

-لا تنسى يا عمي أن سهيلا استاذ جامعة متميز، و هو يعلم الآخرين! وبعد أن ضحكت ورقص جسمها أضافت :

-إن الرجل الذي استطاع أن يؤثر على تفكير مارثا ويستولي على عقلها و عواطفها، و التي تعرف أنت كم هي انتقائية و ذات متطلبات عالية ، و يوقعها بحبه ، لا بد و أن يكون هو نفسه ذا ذكاء متوقد حاد و عقل كبير متميز !

-شكرا لك يا أجمل و يا أرق و يا أنعم دكتورة رأيتها في حياتي ! إنك تتحدثين عن الذكاء و رجاحة العقل و قوة الشخصية و كذلك الانتقائية ؛ و هذه جميعها صفاتكِ و مزاياكِ ! قلت و أنا أتأملها باعجاب و وله شديدين ، فارتبكتْ و احمرّت و جنتاها و نظرت الى الأرض ! و بعد أن رطّبت شفتيها بلسانها قالت:

-ان داريل لم يقل لي يوما أنني أتمتع بكل هذه الصفات التي ذكرت ! قالت و هي تتضاحك وقد امتلأت عيناها سعادة و حبوراً، فأحسست والله، و كأنما هما بحراً من الحنان و المحبة، يستطيع الناظر اليهما أن يغرق نفسه بهما !

-أنا لم يحصل لي شرف معرفة أخي داريل إلا بالأمس ، إلا أنني لاحظت أنه من النوع قليل الكلام و المؤدب و الخجول ، و تلك صفات في رأيي حميدة في الانسان! قلت بحماس و صدق .

-هذه واحدة ، و الثانية أن ابني داريل يحب زوجته إلى درجة التقديس، و لكنه يخجل أن يعبر لها عن عواطفه بالأقوال؛ انه يكتفي بالأفعال ! أنا أعرفه جيدا ، قال الأب .

- و أنا أحبه أيضا يا عمي، ان لم يكن أكثر من حبه لي ؛ و لكن المرأة منا تحب أن تسمع كلمة رقيقة من زوجها ، بين الفينة و الأخرى !

-معكِ كل الحق يا ابنتي ، و لكن هذه هي طبيعته ! قال الرجل باستسلام و هو يهزّ رأسه ليؤكد مقولته ؛ و لما لم يعلق أحد منا على ما قال أضاف :

-ان كلمات سهيل الجميلة و الرقيقة لكِ يا ابنتي ، تذكرني بأيام الشباب، أول معرفتي بنديدا ، فقد كنت اشعر نحوها بعاطفة متأججة، فأبثها أشواقي بمثل هذا الكلام الذي يسعدها و الذي كانت دائما تطلب المزيد منه !

–و لم توقفت عن قوله لها يا عمي ؟ ! لا شك أنها افتقدته الآن ! قالت بريتني و علائم الجد و الحيرة تبدوان على وجهها !

–صرت أخجل من نفسي و منها أن أقوله لها في هذا السن ، و لكنها تعرف مقدار حبي و احترامي وكذلك اعجابي بها ! قال الرجل العجوز وقد توقدت عيناه و اشرق وجهه من جديد!

–المعرفة وحدها لا تكفي يا عمي ؛ نحن النساء ، نريد أن نسمعها دائما من محبينا ! انها تجدّد بنا الشعور بأننا ما زلنا جميلات، و اننا ما زلنا معشوقات! أنا أعرف أن داريل يحبني كثيرا و يقدرني و يحترمني ، و لكنني أتمنى دائما لو يقول لي كلمات جميلة ؛ خصوصا و نحن ما زلنا صغاراً !

–معك كل الحق يا حبيبتي ؛ و لكن هذه هي طبيعته ؛ و من الصعب تبديلها . قال الرجل بأسف.

–اسمحي لي أن أقول لكِ نيابة عن أخي داريل ؛ أنكِ أنتِ تحفة فنية رائعة أنعم الخالق بها على أخي داريل، و أنعم كذلك علينا، نحن المحيطين بكِ!

–ما أجمل كلامك يا بروفيسور؛ أعني يا سهيل؛ انك و الله تجعل الواحدة منا تحلّق في السماوات العُلى، و تتمنى لو أن زوجها ... حبيبها يتمتع بنفس المزايا التي تملكها أنت ! قالت و كأنما هي تتهجّد !

–أظن أننا الآن جاهزون لتناول طعام العشاء ! قال الأب ذلك و نهض و نهضتُ أنا ثم سرنا ثلاثتنا نحو الباب و ذهبنا إلى غرفة الطعام .

طلبت مني الأم ، بعد أن اتخذ كل منا مقعده حول طاولة الطعام أن أقول " مباركة الطعام " ، و بعد أن فعلت، قدّمت الطاهية الشوربة و لم تبدأ بي أولاً كما فعلت بالليلة الماضية، و إنما قدمتها للأب أولا ثم للأم ثانيا و لزوجة الابن و لمارثا ثم لي و بعدها للابن ، و حالما انتهينا من احتساء الشوربة و بدأنا بتناول الخضار و السمك " القريدس " و غيرهما من خيرات الله و أطايب الطعام قالت زوجة الابن و هي تنظر إليّ و تبتسم :

–هل لاحظتم بأن عطلة نهاية الأسبوع هذه ، كانت من أمتع العطل الماضية و أكثرها بهجة ؟ !

-هذا لأن الحبيبان سهيل و مارثا مودجودان بيننا ! قالت الأم بسعادة غامرة و قد رقص جسمها و أضاء و جهها !

فتحت فمي لأشكرها و لكن الابن سبقني فقال:

-اذن فليكونا معنا كل اسبوع !

-سهيل عنده التزامات نحو أخته الحبيبة و أخيه العزيز ، يجب أن يقضي مساء السبت على الأقل معهما ! قالت مارثا بنبرة حادة وشبه غاضبة !

-ألا يستطيع أن يراهما خلال ليالي الأسبوع ؟ ! سأل الابن .

-ليالي الأسبوع جميعها يقضيها بالتحضير للمحاضرات و تصليح الأبحاث و اجتماعات القسم و كذلك لقاء الطلبة العرب ! أضافت مارثا و لكن بلهجة أخفّ حدة !

-كان الله بعونه ؛ مسؤولياته كثيرة . قال الأب .

-سهيل انسان ملتزم نحو محبيه و أصدقاءه! قالت الأم .

-عندي فكرة و آمل أن تلقى قبولا من الجميع ؛ و هي أنه عندما يفكّر سهيلا بزيارتنا في عطلة نهاية الأسبوع ، هو أن يأتي مساء الجمعة و ينام عندنا و نقضي يوم السبت و ينام تلك الليلة و مساء الأحد يعود الى شقته بدلا من مساء السبت ، و يأتي صباح الأحد ثم يتركنا مساء كما فعل هذا الأسبوع ! قالت الدكتورة بريتني !

-فكرة رائعة ؛ فسرير مارثا كبير و يتسع لأربعة و ليس لاثنين فقط ! قالت الأم بحماس و الفرحة تملأ إيهابها !

حقا لقد خجلت جدا جداً فاحمرّت أذناي و تورّد خدّاي و بلل العرق رقبتي ! فأنا أعرف ان المجتمع الأمريكي غير المجتمع العربي بمعتقداته و تفكيره و تصرّفاته؛ أن الجميع سعداء لأن مارثا و أنا نمارس الجنس و نعيش كزوج و زوجة و دون عقد زواج !

-إن عندي فكرة أكثر ايجابية، و هي أن يتخلى سهيل عن شقته و يسكن معنا ، و كما فهمت فالمسافة بين شقته و الجامعة أربعين دقيقة تقريبا ! و نحن نبعد عن الجامعة أكثر من ذلك قليلاً ! قال الأب .

–فكرة رائعة ! ليته يفعل و تكتمل سعادتنا ! إنّ سهيل ابني الثاني و أحب أن استمتع برؤيته كل يوم ؛ و يرتاح بالي بأنه لم يذهب الى الفراش جائعا ! قالت الأم.

–فكرة رائعة ؛ ليته يفعل و تكمل سعادتنا ! قال اربعتهم يقاطعون بعضهم بعضا ، و الفرحة تهزّهم ، و ان كنت قد لاحظت أن مارثا و زوجة أخيها ، و هما تتكلمان تهزان رأسيهما و تطلبان مني بعينيهما راجيتين إياي أن أوافق !

–الحقيقة يا أحبائي أنه لا يوجد في معاجم اللغات جميعها، كلمات كافية تعبّر عن سعادتي و شكري و امتناني لما غمرتموني إياه بمحبتكم و كرمكم و أصالتكم ؛ و لكنني أعتذر عن قبول دعوتكم في الوقت الحاضر ؛ أرجوكم امنحوني فرصة لأفكر ! أنا لا أحب اتخاذ القرارات السريعة . قلت.

–معك كل الحق يا بني ، خذ وقتك و فكّر ! قال الأب و الأم معا !

–ليس من الحكمة و لا العقل اتخاذ قرار قبل قضاء الوقت للتفكير به . قال الابن ! أما المرأتان ، مارثا و زوجة أخيها ، فلم تقولا شيئا .

بعد الانتهاء من تناول وجبة العشاء و الحلوى مع القهوة ، استأذنت لأنصرف، حيث أن الساعة كانت بحدود الثامنة مساءً ؛ و بعد الانتهاء من تبادل العناق و القبلات و شكر كل منا للاخر على قبول الدعوة و التكريم و الترحيب الزائدين وهممت أن أنصرف ؛ طلبت مني مارثا ان لا أنسى ، و أن أمرّ على منزل أصدقائنا الروبنسون و أن أقضي معهما بعض الوقت، و كذلك ان اعتذر منهما لانهما لم يرياني طيلة هذا الوقت !

–ما أكبر قلبك و أكرم عطاؤك ، و ما أوسع صدرك و أعظم حبّك يا مارثا ! حقا إنك قمّة الوفاء و الاخلاص ؛ و حقا انك نادرة الوجود و درّة زمانك ! قلت.

لم تعلّق على ما قلت، و إنما غادرت إلى الداخل على عجل ، فشعرت بأنها فعلت ذلك حتى لا تنفجر في البكاء أمامنا !

*****

عندما عدت الى مكتبي بعد آخر محاضرة عندي ، يوم الاثنين الذي يلي عطلة نهاية الاسبوع الذي قضيتها في بيت عائلة الكارلنقتون ؛ و كان الوقت بحدود الثالثة بعد الظهر، و جدت أن مارثا تنتظرني خلف الباب،

فسألتني إن كنت أريد أن أرافقها لنتناول معاً وجبة غداء كبيرة أو أريد شيئا خفيفاً ؛ فاعلمتها بأنني لا أريد هذا و لا ذاك ، اذ انني عازم على أن أكون بأقصى جوعي؛ حتى عندما أغرق نفسي هذا المساء ، بالطعام الذي ستطبخه لنا كونستانت الليلة !

بعد أن ضحكت طويلا قالت:

-كم أتمنى و من صميم قلبي لو كنت جادا فيما تقول ، لشعرت عندها أنني أسعد مخلوقة على وجه الأرض !

لم أقل لها شيئا و انما رفعت سماعة الهاتف و ناولتها لها و قلت لها من فضلك ؛ اديري الرقم و اطلبي لي كونستانت؛ و بعد أن فعلت غير مصدّقة و هي كالمنوّمة ، ناولتني السماعة و عندما أجابت كونستانت أعلمتها من أكون و شكرتها على وجبة طعام الليلة الماضية و التي قبلها ، ففرحت فرحا عظيما و ضحكت بسعادة ، عندها أعلمتها بأنني سأكون كذلك الليلة ضيفهم ، لأستمتع بأطايب ما تطبخ؛ فسألتني ماذا ستطبخ لي ؟ و بلهجة جادة تفيض احتراما و محبّة أعلمتها بأنني سآكل مهما تطبخ يداها .

شكرتني المرأة من أعماق قلبها، و أعلمتني بأنها ستطبخ لي ما تعتقد أنني سأحبه !

قبل أن تفتح مارثا فمها لتقول شيئا أعلمتها بأني اشتقت جدا لرؤية الوالدة و الوالد و كذلك الأخ و زوجته ، اذ أنني أريد أن أستمتع الليلة برؤيتهم ، فإذا كانت تريد أن تتكلم مع أربعتهم فالتـفضل !

-متى تريدنا أن نتوجه الى بيتنا ؟ سألت مارثا وهي ترقص فرحاً و ابتسامة كبيرة تغطي كل وجهها !

-أتركيني الآن لمدة ساعتين على الأقل ، لأنني لا بد من أن أصحح بعض أوراق امتحان أحد الفصول و رصد علاماته ، قبل أن أرافقك الليلة ! قلت لها و انهمكت أنا بتصليح أوراق الامتحان ، و بدأت هي بمكالمة والديها و أخيها و زوجته ، تزف لهم البشرى !

لقد فهمتُ من حديث مارثا مع زوجة أخيها بأنها سألتها ؛ ان كنت قد قررت الرحيل و السكن مع العائلة ، فضحكت و أعلمتها بالنفي !

أثنت مارثا على فطنتي و كرمي عندما أخبرتها بأني أريد أن أشتري هدية قيمة لكونستانت و سألتها عما يجب أن أشتري ؛ و ماذا تحب؛ فأعلمتني بأنها تحب الشوكولاته ؛ و في طريقنا توقفنا عند أحد المحلات التجارية ، و اشتريت لها صندوقا لفّته البائعة في ورق هدية فاخرة ، و كتبت أنا على البطاقة " إلى أجمل و أمهر طباخة في جنوب كاليفورنيا " مما أسعدها حتى خلت أنها تكاد تبكي ! لقد عانقتني المرأة ، ابنت الثالثة و الخمسين عاما ، و قبّلتني على خدّيَّ و هي تمسح دموعها تأثراً !

استغربت أن يكون ترحيب العائلة هذه الليلة أكثر حرارة من الليلتين السابقتين ، و خصوصا بعد أن أعلمتهم بأنني افتقدتهم بمقدار ما افتقدت عائلتي في الوطن ! لقد أعادوا على مسامعي مرّات و مرّات بأنهم يتمنون من صميم قلوبهم و أنهم سيكونون سعداء جدا ، لو قبلت و سكنت معهم ؛ و لكنني و عدتهم بأنني سأفكر بالأمر جدّياً .

ان الذي أجّج عواطفي و أثار كوامن ذكرياتي الدفينة ، هو ما ذكرته زوجة الابن ، و نحن نتناول طعام العشاء ، من أنها وحيدة والديها ، و أنها لم يكن لها أخ و لا أخت ، و أنّها لطالما أمضت الليالي تدعُ الله أن يرسل لها أحدهم ! فها هو أخيرا قد استجاب لدعائها !

بعد العشاء و الانتهاء من تناول الحلوى، شكرت الجميع واحدا واحدا على كرم الضيافة ومحبّتهم التي غمروني بها، و على العشاء اللذيذ و الوقت الممتع الذي قضيته معهم !

استأذنتهم لأنصرف ، فقالت الأم :

-إننا سنكون أكثر سعادة لو أن تتكرم علينا و تقضي الليلة عندنا ، فأنا أعرف أن محاضراتك الثلاثاء و الخميس ، تبدأ في تمام الساعة الحادية عشر ، و هذا يعطيك فرصة التنقل !

طلب الأم أسعدني حقا ، اذ شعرت و كأن التي طلبت مني ذلك كانت والدتي أمينة ، و لكنني بقيت صامتاً ولم أجب !

هلّل الجميع للفكرة و رحبوا بها و عمّت الفرحة القلوب ! لقد رجتني المرأتان ، زوجة الأخ و مارثا ، أن أحقق للوالدة طلبها ، و أضافتا بأنها

ستكون من أسعد ليالي العمر ؛ و علّق الابن بأن قيادة السيارة نهاراً خيرًا من قيادتها ليلاً ، غير أن الأب قال بفخر و اعتزاز :

-أنا واثقٌ جدا بأن ابني سهيل يملك من الشهامة والمروءة ما لا يملكه الكثيرون غيره ، و أنه لن يرفض لأمّه طلباً !

-صدقت يا عمي ، لن أرفض لها طلبا ولو كان على قطع رأسي ! قلتها بفخر جاهلي على الطريقة العربية !

ضحك الجميع لهذا التعبير الغريب ، و أصاب القوم هرج و مرج و هم يتضاحكون !

-لو كنت أعرف انني سأقضي الليلة عندكم لكنت قد أحضرت " بيجامتي " و أدوات الحلاقة و فرشاة الأسنان ! أضفت.

-جميعها ، و كذلك حقّاية ، اشتريتها لك من مدّة ، و هي تنتظرك في غرفة نومي ! قالت مارثا بسعادة !

لقد خجلت لدرجة أنني تمنيت لو أنني أختفي من أمامهم و خصوصا الرجلين ، فأنا ما زلت مقيّدا بأغلال العيب و العار ، و أرزح تحت جبال من المحرّمات و الممنوعات !

رجلٌ غريب ينام مع ابنتهم و يضاجعها في غرفة نومها و في بيتهم ، و بدون عقد زواج ، و لا حتى خطبة ؛ و هم سعداء و يباركون هذا الفعل ؟ ! ما أعجب و أغرب ما يجري !!! حقا لقد تغيّرت المعتقدات و تغيّرت المفاهيم فسبحان الله !

لقد أعلمت مارثا أهلها بعد العشاء ما دار بيني و بين كونستانت ، مديرة المنزل ، و كيف أنني هاتفتها و أعلمتها بقدومي للبيت و طلبت إليها أن تطبخ لي شيئا أحبه ، ثم و كيف أنني أحضرت لها هدية صندوق شوكولاته التي تحبها ، و

كم فرحت بها ! ثم و انها شكرتني بحرارة !

لقد اسعدهم ذلك كثيرا و امتدحوا ذوقي و تفكيري و شهامتي ! كما أعلموني بأنها فقدت زوجها في غزو أمريكا للعراق ، و أن لها ابناً واحداً فقط هو الآن عريف بالبحرية الأمريكية ! وهو ما زال أعزباً؛ وكذلك أعلموني

بأن لها في خدمتهم واحد و عشرون عاما و نيّف، ويعتبرونها واحداً من أفراد العائلة في كل ما يقومون به و ما يعملونه!

لمحت الأم إلى ساعة يدها ثم نقّلت طرفها بين ابنتها و بيني وابتسمت ثم قالت:

-خذي يا حبيبتي سهيلاً، و اذهبا الى غرفتكما لتنالا قسطاً من الراحة ! ينتظره غداً يوماً طويلاً من المحاضرات ؛ سنراكما صباح الغد على طاولة الافطار !

-فكرة ممتازة ! شكراً يا أماه ! إذن، اعذرونا و تصبحون على خير ! قالت مارثا ذلك و نهضت ثم أمسكت بيدي و قادتني ثم توجّهت بي نحو الباب.

اعتذرت أنا أيضا من أفراد العائلة و تمنيت لهم ليلة سعيدة و خرجت مع مارثا و أنا أشعر بشيء من الحرج و عدم الارتياح !

صعدنا الدرج الى الطابق الثاني و رأيت الباب مفتوحا ، فلاحظت أن جميع باب غرف النوم المجاورة كلّها مشرّعة الأبواب أيضاً ؛ فادركت أن هذه هي العادة عندهم هنا ، في أمريكا ، على عكسنا نحن في الوطن !

لم تكن الغرفة التي دخلناها غرفة نوم واحدة ، و انما كانت و كأنها غرفتين ضخمتين مبنيتين سويّة ، تتسع لسريرين مزدوجين ، و ان كان الذي بها هو سرير واحد فقط ! أما الأثاث التي بها فكان و لا شك من أفخر و أغلى الأثاث المتواجد في أمريكا ! كان الفراش و كذلك الغطاء جميعها من أجود الحرير و الستان معا.

-لم أر أجمل و لا أفخم من غرفة نومك في حياتي و لا حتى في فنادق الدرجة الأولى ، لا هنا و لا في أوروبا ! قلت و أنا أسرّح ناظري في جميع أرجاء الغرفة و أحملق مشدوها بأثاثها !

-أنا سعيدة جدا أنها نالت اعجابك ؛ ثم لا تنسَ أنها غرفة نومنا نحن الاثنين ، و ليست غرفة نومي لوحدي ! قالت و هي تبتسم و قد أضاء وجهها !

قولها أسعدني جدا جدا ، اذ منحني شعورا بالسلام و الأمان و الاطمئنان ، و ان كنت لم أعلق على ما قالت ، اذ اكتفيت بابتسامة كبيرة و نظرة شكر و امتنان !

توجّهت هي الى احدى خزائن الحائط و اخرجت منها حاجيّاتي التي ذكرت بأنها اشترتها لي، ثم فردتها أمامي فوق طاولة مكتب مصنوعة من الزان الفاخر موضوعة في الزاوية ! صارت بعدها تفتح كل واحدة منها و تشرح لي عنها و أنا أعيد نفس الجملة و أكرر : " جميلة جدا ! رائعة ! ممتازة ! يسلموا يديك ! " و عندما انتهيت عانقتها و ضممتها بحرارة و قبّلتها ، فقالت :

-اجلس الى المكتب و تصفح بعض المجلات حتى انتهي من الحمام و انتظرك بعدها في الفراش ؛ ثم تدخل أنت و تستحم و تلحق بي إلى هناك ! قالت لي ذلك ثم ابتسمت و رمتني بنظرة من عينيها ، ثم توجهت بعد ذلك الى الحمام !

ان تصرف مارثا يختلف عن جميع تصرفات الفتيات الأمريكيات اللواتي عاشرتهن و كانت لي علاقة رومنسية معهن ! لقد كانت الواحدة منهن تطلب مني أن ندخل الحمام سويّة ، إما أن نستحم في " البانيو" او ان نستحم و الرشاش يرش أجسامنا ! كنّ دائما يطلبن إليّ أن يليّفن جسمي أو أن أليّف أنا لهنّ أجسامهن ، كما كان بعضهن يصررن عليّ أن يعملن لي مساجا أو أن أعمل أنا لهن ذلك ، ثم يطلبن إليّ بعدها أن أحملهن الى الفراش ! أما مارثا فإنها تصرّ على أن يستحم كل واحد منا لوحده ؛ تبدأ هي أولا ثم تذهب الى الفراش ثم استحم أنا و الحق بها !

أقول بكل الصدق والأمانة، بأنني شعرت هذه الليلة بسعادة وصميمية لم أشعر بها من قبل، وأنا ألفّ ذراعيّ حول جسم مارثا وأعانقها ثم أضاجعها! لقد كانت تختلف اختلافا كليّا عن ما كنت أشعر به وأنا أعانقها في شقتي و في غرفة نومي!

لقد شعرت هذه الليلة، براحة نفسية لم أشعر بها من قبل، شعرت و كأنما حقّاً تزوجنا بعقد زواج شرعي، أمام الخالق وأمام الناس أجمعين !

*****

الفصل الحادي عشر

–إن ما بينكما أنت وجيمس يا شيلا من حب واحترام، هو نوع من العبادة والتقديس ! انه لشيء رائع وعظيم يستطيع من يكون معكما أن يلاحظه من أول لقاء. إنني أحيانا أحسدكما على هذا الحب والتفاهم، ولطالما قلت لنفسي ؛ إنني يجب أن أحذو حذوكما، بأن اتخذكما قدوة لي ! قلت لها عصر أحد الأيام و كنّا متمددين جنبا الى جنب ، في غرفة الجلوس !

–شكراً يا سهيل ! شكراً يا أخي! إنني دائما أتساءل، ولم لا تفكر بالزواج جديا يا سهيل؟!

–وما رأي جيمس في ذلك؟ وهل هو يوافقك الرأي؟!

تجاهلتْ سؤالي، و لاحظت عدم الارتياح على و جهها، ولكنها أضافت:

–إنك ستكون زوجًا وفيّاً وأباً مثالياً ! إن عندك طاقات جبارة من التضحية والعطاء، وكذلك عندك رجاحة العقل و العزيمة، بالإضافة إلى قوة الشخصية ! وإنك تملك ما ليس عند الكثيرين؛ فأنت معطاء دائما تعطي دون أن تتوقع الجزاء، ودون أن تنتظر حتى كلمة شكر واحدة؛ بالإضافة إلى كل ذلك أنك صاحب خبرة واسعة وذو قلب كبير. !

–شكراً على هذا الثناء، ولكن لا تنسي أنك تقولين هذا بسبب حبك و احترامك الشديدين لي!

–إنني واثقة من ذلك، وأظن أن جيمس يوافقني الراي.

–آسف أن أقول لك بأنكما مخطئان؛ فأنا إنسان أناني أعتقد إن الزواج بالنسبة لي عبودية ! وأنا اكره أن أكون عبداً لأحد ! إن هناك أناساً خلقوا للحب والزواج وإنجاب الأطفال، وكذلك على استعداد أن يتحملوا مسؤولياتهم؛ ولكن هناك نوع آخر، وأنا منهم، أنانيون وليسوا على استعداد للتنازل عن حرياتهم كما لا يستطيعون العطاء وتحمل المسؤولية. إنهم باختصار شديد، غير أكفاء أن يحبوا أحداً!

–إن الزواج ليس عبودية؛ إنه سعادة وهناء! إنه تحقيق الذات، وخصوصا إذا كان بين الزوجين تفاهم فكري وعاطفي ! ترددت قليلا ثم أضافت:

–وكذلك جنسي.

–لأقول لك الصدق؛ إن عقلي ينهاني عن الزواج ويحذرني من عواقبه الوخيمة؛ وقلبي يشجعني عليه ويبشرني بالسعادة والهناء.

–حسناً، فلما لا تطع قلبك إذن؟! قالت بفرح غامر وقد افترت شفتاها عن ابتسامة جذلى !

–لو كنت أجد شيلا ثانية لتزوجتها دون تردد. قلت بصدقٍ و إخلاص.

–صدقني؛ إن العالم مملوء بالشيلات ومن هن أحسن مني بكثير ويتفوقن علي جمالاً وأنوثة ووفاء وعطاءً أيضاً ! فقط اترك عَينيكَ مفتوحتين، إنها أمامك تنتظر كلمتك ! قالت بحماس ثم أضافت:

–إن مارثا زوجة مثالية لك، بها كل ما تحلم به وتتمناه؛ عقل نير متميز؛ ذكاء متوقد بل وخارق؛ عواطف متأججة ملتهبة؛ جمالا إلهيا نادراً؛ على استعداد أن تضحى بكل شيء من أجلك.

–أعتقد أن كل ما تقولين عنها صحيح، لولا أن لها ماضياً يقلقني ! قلت.

وهنا قالت بحماس و كأنما كانت تخطب:

–أتسمي هذا ماضياً بربك ؟! لقد اعترفت لك بأن الشاب الذى تقول بأنه سبقك إليها قد غرر بها، إذ دعاها إلى بيتهم حيث يسكن مع والديه وأخته بعد حفلة تخرجهم من المدرسة الثانوية؛ ووضع لها منوماً في عصيرها، وبعد أن فقدت الوعي وفقدت المقاومة اغتصبها، إذ إنها لم تحبه قط ولم تسمح له أن يلمس جسدها ثانية، لقد قالت لك مرارا وتكرارا؛ أنك أنت الوحيد الذى أحبت روحاً وجسداً، فلم لا تصدقها بربك يا أخي؟! سألتْ بألم موجع.

–لقد صدقتها يا شيلا، وأقسم بالله وبحبي لكِ؛ ولكن أصابع الماضي مرسومة على جسدها. إن تربيتي العائلية و عقليتي القبلية لا يمكن أن تقبل بأن أتزوج من فتا ة سبقني إليها رجل.

–اعتبرها مطلقة أو أرملة يا أخي؛ أو أن المطلقات و الأرامل محرّمٌ عليهنَّ الزواج ثانية؟!

–أنا لا يمكن أبداً أبدا أن أتزوج من مطلقة أو من أرملة. إنه اعتقاد يجري بدمي ! سميها لعنة حلّت علي من المجتمع الذى ولدت به والذى ورثت عن عاداته وتقاليده وقيمه!

احتدّت ووقفت ثم قالت بصوت عالٍ و بحدة، استغربتهما منها !

-يحزنني جدا ويؤلمني اكثر، بأن رجلاً عنده هذا السمو من التفكير، وكذلك بعلمك وسعة اطلاعك، عاش بالغرب وتثقف بثقافته يفكر هكذا !

-كثيرة يا شيلا ؛ اشياء يقبلها عقلي وأشياء اخرى يرفضها؛ اذ كثيرا ما يتقبل عقلي اقوالا وافعالا، وكثيرا ما يحدث العكس! انا اتقيد دائما بقوانين وعادات العشيرة وما تربيت عليه فانفذها بحرفية ! إنني كثيراًما اذهب إلى قبر والدي واشكو له همومي وأوجاعي، وابكي فوق القبر لساعات وساعات، وانا كانسان متعلم ومثقف ومدرك وواع تمام الإدراك والوعي، إن ما بداخل القبر هو رفات انسان ميت. . . يعني غبار؛ واعرف جيدا ان روح والدي قد تكون بالسماء وقد تكون في اي مكان من الارض؛ ومع ذلك اخاطبه واكلمه واشكو له آلامي وابكي على صدره؛ وكأنما هو موجود معي يستمع لشكواي !

فتحت المرأة فاها لتعلق على ما قلت؛ ولكنني رجوتها ان تنتظر حتى اكمل؛ فأضفت:

-تؤرقني الغربة احياناً، ويهزني الحنين إلى الوطن واهله، فيشتد بي الحزن والشوق معاً؛ فأحس بالتمزق والانسحاق؛ اغلق عليَّ باب غرفتي، واحشو منديلي القماشِي في فمي، ومن اعمق اعماقي اصيح واصرخ: اين أنت يا سميحة؟! إنني بعيد عنكِ بجسدي ولكن عقلي وروحي وعواطفي كلها معكِ ولكِ، أنت يا من أضأتِ سراج المحبة في حياتي!

-ولكننا، جيمس وأنا، نكنّ لك محيطاً هائلاً من المحبة والتقدير!

-إن حبي لكما لايقل عن حبكما لي؛ ان تعلقي بكما لا يوصف، فانا اعد الدقائق، وانتظر الوقت الذى يجمعنا معاً. صدقيني واقسم لك، يا اختاً لم تلدها امي، إني احس بالضياع والرعب الشديدين عندما أكون بعيداً عنكما؛ تماماً كما يشعر الطفل الذى اضاع امه ! إنه عندما تخطر على بالي فكرة انه ربما افقدكما يوما ، ترتعد فرائصي رعباً، ويرتجف قلبي جزعاً، واشعر وكأنني على وشك الجنون ! انني اشعر انكما كل اهلي بامريكا؛ أمي و أخواتي و أخواني و عمّاتي و خالاتي !

وهنا اخفيت دمعتين حارتين، سقطتا من عيني لشدة التاثر، فاستطردت؛

-لقد صادقت الكثيرين، هنا وفي الوطن، فلم تجلب لي صداقة احد منهم السعادة التي جلبتها لي صداقتكما. انني احس احيانا كالطفل الذى تعذب طويلا في البعد عن والديه، فلا يريد ان يتركهما مخافة ان يضيعا منه ثانية.

لعل هذا الحديث عن الصداقة والاخلاص، قد هيج عواطفي الكمينة فاستطردت:

-كم أتمنى لو إنني املك نفس الأخلاق، وآمن بنفس القيم التي تؤمنان بها انتما. يبدو لي أن دراسات الفلسفة المختلفة والمتناقضة قد افسدت علي تفكيري ولم تعد لي القدرة على التمييز بين الخير والشر وبين ما يجب عليّ ان افعله وما يجب عليّ تجنبه ! لقد حطّم اختلاف المجتمعين عقائدي ومثلي العليا، وتركاني في حيرة وبلبلة من امري، حتى انني احياناً؛ اتساءل واسأل نفسي، من اكون ولم انا في هذا الوجود، بل انني حتى اشك في وجودي! لقد ضللت طريقي؛ لقد غرقت في بحار من الشك والحيرة و التوهان؛ وكذلك فقدت هويتي يا شيلا؛ هويتي التى اعتز بها وافخر، والتى لولاها لكنت نسياً منسيا.

-سهيل ! ارجوك ! لاتقل هذا؛ فأنت تملك العزيمة وقوة الشخصية والقدرة على العطاء غير المحدود ! إنك معطاء دائماً وبنفس خّيرة وبقلب كبير !

-كم اتمنى لو كنــت كذلك ! إن بي كل ضعف الانسان وكـــل متناقضاته؛ ولكني دائما احاول ان اضبط نفسي لكي لا يرى احد ضعفي و كذلك انانيتي ! وبعد ان استرجعت قليلا اضفت:

-يبدوا لي انك لاتعلمين ان هناك نوع من البشر، وأنا منهم، لايستطيعوا ان يحبوا امرأة واحدة، حبا رومانسيا، ويخلصون لها، ولكنهم يصابون بالصدمة العنـيفة وتحطم القلب، عندما لاتخلص هي لهم. انني واحد من هؤلاء ! صدقيني !

-ماذا ؟! ما هذاالمنطق الغريب يا أخي ؟! فلمَ تعتقد انك لاتستطيع ان تحب او تخلص لامرأة واحدة ؟!

-انى رجل سريع الملل، واتبع الجمال واجرى خلفه اينما وجدته، ثم انني اعتقد صادقاً، إن في قلبي خرق، خرق كبير لا يحتفظ بالحب !

-صدقني ياسهيل ! صدّقني يا أخي! صدقني يا أغلى إنسان عندي بعد والدي وزوجي؛ انك عندما تجد الحب الصادق، الحب الحقيقي، فساعتها حتماً ستغير رأيك، وستعرف كم كنت مخطئا؛ وستتخلي عن افكارك هذه وستلقي بها بعيدا !

هززت راسي وكأنما لأقول لها ربما. . . اتمنى ذلك!

حملقتُ بها للحظات ثم قلت:

–لقد احببت سميحة يا شيلا، دون ان تعلم حتى بوجودي ! أحببتها ايام المد القومي وايام تألق وتعملق ربيع الحب العذري الروحي؛ يوم كان الحب عذريّاً طاهراً كالفضيلة، نقيا كالماء الزلال ؛ ايام كان الحب العذري يملأ الارض ، نقيا كنقاء الصبح الندي، وقبل ان تحدث رياح التغير على علاقة الرجل بالمرأة ! لقد احببتها قبل ان تسقط العذرية والنقاء والطهارة، وقبل ان يموت الهوى الطاهر والشعر العذب والاحلام الرهيفة؛ وليس كما يحدث الآن، حيث اصبح قلب المرأة وعواطفها وصدقها ارخص من العملة المزيفة، ووفاء الرجل واخلاصه كشرف البغايا !

ناديت وكنت أصيح سميحة وبأعلى صوتي، حتى أحسست بأنه مزق أوتار حلقي، ولكنه يموت في داخلي ويتلاشى بكياني قبل أن يصل حلقي !

شعوري يعبق رائحة أنثويّة لذيذة ! لقد كان جسدها اللدن يتهاوى تحت نهم قبلاتي المسعورة الشرهة، وكان وجهها مشعّاً بالبهجة والسعادة و الحبور، وكانت عيناها تتقدان حماساً وبهجةً !

إنني أحبها بشغف وتدله وعبادة، حب اقرب إلى الهدم والهوس والجنون !

القيت بنفسي فوق السرير فرحا جذلا، وصرت ارفع قدمي واضربهما بالهواء احتفالا وابتهاجا !

تصورت نفسي ملقى على الأرض، فاقد الوعي معدوم العزيمة، والدود الزاحف يأكل جثتي بنهم وشراهة، ولا ذرة لدي من طاقة اطرده عني !

–حسنا ما عليك الا ان تغير نظرتك للمرأة وللحب والزواج، وساعتها ستجد صدق نظريتي.

–صدقيني كم اتمنى ان تكون نظريتك مصيبة ! هل تعلمي بأنه قد كانت لي العديد من الصداقات النسائية، والتى اعتقدت انها كانت علاقات قوية وصادقة، لأنني، وحسب اعتقادي، كنت أتفانى بالحب والإخلاص؛ ولكنني صدمت عندما ما وصفتني احداهن بالانانية والغرور، وذهبت أخرى إلى أبعد من ذلك فاتهمتني بالضحالة وعدم النضوج ! لقد فكرت طويلا وعميقا وبحيادية بما اتهمت به، لاجد لهن المبرر، فخرجت بنتيجة انهن صادقات فيما وصفنني به ! على اية حال ربما اكون انا السبب لمللي السريع من المرأة؛ اذ حالما اتأكد من انها وقعت بحبي، فأنني اتركها.

صدقيني؛ ما كنت متعمداً او عن سبق اصرار ولكن هذه هي طبيعتي، لا استطيع التخلي عنها ! انها تجري بدمي، ولعلها من رواسب الماضي والطفولة معاً !

مددت يدي وشربت رشفة من العصير، ثم اضفت:

–انني واثق من شيئ واحد فقط؛ هو انني عندما أحب امرأة فإن حبي لها صادق لا شك به؛ كما وأنني اعشق الجمال الحقيقى اينما أجده؛ وقد يكون في قصيدة، سيمفونية موسيقية، وردة برية، منظر طبيعي، ، رسمة زيتية؛ ثم ان هناك شيئاً اخر أريدك ان تعرفينه؛ وهو إنني اعشق العذاب والاحزان والدموع، اذ أني كثيرا ما اكون وحيدا في شقتي ليلا، فاحس بمسحة صوفية رومانسية تغرقني في بحر مصطخب من العواطف الجياشة، فابدأ بترديد بعض ابيات من الشعر العاطفي أوالشعر الشعبي الوجداني، فاكرر ترديدها إلى ان أجد عواطفي قد تأججت واستعرت، ليصل اوراها عنان السماء، ثم انفجر بعدها بنوبة بكاء مرير لساعات وساعات !

–يا الهي! أنت ملحمة عاطفية ياسهيل! انك محيط من المتناقضات يااخي! لقد أوجعت قلبي وأدميت وجداني ! كان المسيح في عونك! نطقتها المرأة بألم وحزن شديدين.

–سمها لعنة ! إنني اشعر وكأنما وانا أسير احمل صليبي على ظهري، وانني أريد أن اكفر عن ذنوبي واخطائي وكذلك عن اخطاء ابونا ادم وامنا حواء؛ عندما اكلا من الشجرة التى نهاهما الله عنها !

مرت فترة صمت اعتقد ان شيلا كانت تفكر بكل كلمة قلتها عندماسألتني:

–وماذا عن صداقاتك غير العاطفية ؟

–هذا السؤال، أنت وجيمس من سيجيب عنه لا انا، يا اختاه !

–إنك لا تستطيع ان تتصور كم يحبك جيمس ويفتقدك عندما لاتمر علينا، او يرى بعضنا بعضا ! انه يعتقد انك بحر زاخر من العواطف والأحاسيس، ونبع لا ينضب من المحبة والوفاء ! وأنك محيط متدفّق بالمعرفة، لدرجة اني احيانا اضحك وانا اراه جالسا يكتب على ورقة الاسئلة التى يريد ان تجيبه عليها عندما يراك ! انا حقاً سعيدة انك تستطيع ان عندك كل هذا الكم من الإخلاص لصداقاتك غير العاطفية، حيث ان كلانا، جيمس وانا، متعلقان بك ولا نتصور الحياة بدونك !

–لقد قلت لكِ، وها ان اعيدها للمرة الألف، لولا صداقتكما، لكانت الوحدة والاغتراب، قد مزقا كياني، ولربما أصبت بالجنون !

تأملتني لفترة غير قصيرة ثم ابتسمت بعدها وقالت:

–هل تذكر ليلة تلبيتك لدعوة صديقتك الدكتورة "شير وود"؟ لقد تضايق جيمس كثيرا، وعندما صارت الساعة الواحدة صباحا، ولم تمر علينا في طريق عودتك كما وعدتنا؛ بقي ساهرا يهاتفك وعندما لم تجب ذهب عدة مرات لشقتك وعندما لم يجدك كان حزيناً جداً!

–أحقا ؟! أنا اسف جدا جداً يا شيلا؛ انكِ لو كنتِ اخبرتني في حينه لكنت اعتذرت لكما لما سببته لكما من ازعاج وقلق.

–لقد اعلمته لأخفف من حدة قلقه عليك، بانك ربما تكون قد شربت كثيراً في الحفلة ولم تستطع قيادة سيارتك، فبت هناك!

–الحقيقة يا شيلا: إن السبب الحقيقي هو ان احدى المدعوات، وهي زميلة لنا في الجامعة، قد طلبت الي مرافقتها لشقتها لنكمل حديثا كنا قد بدأناه مبكرا، فقضيت الليلة عندها. إنها احدى الفتيات اللواتي كنّ قد اتهمنني بالغرور والضحالة، وهي نفسها التي دعتني مرات عديدة ورفضت دعوتها! كما إنها طلبت مني ان اكون صديقا دائما لها فرفضت ايضا؛ لأنني لو وافقت فإنني لا محالة سأحطم قلبها وأجلب لها التعاسة والشقاء و يؤلمني أن أفعل ذلك!

–سهيل ! ولم تقول هذا ؟! ولم هذا التشائم كله ؟! سالت شيلا باندهاش!

–دعني أقول لك هذه الفرضية، واسأل الله أن لا تحدث ! إنها مجرد فرضية؛ لو صممنا، جيمس وأنا، أن نترك بعضنا، وكنت أنا حرة غير مرتبطة، وعرضت عليك أن تتزوجني؛ فهل تقبل أن تفعل ؟!

وهنا وقفتُ لا شعوريا، وقد بلغ الغضب مني أقصاه، وصحت بها وكأنما أريد أن أخمد أنفاسها.

–كيف تقولين هذا بربك ؟! بل كيف حتى تفكرين به ؟! ما أقسى قلبك ! أرجوكِ لا تقولي ذلك مرة أخرى. إن مجرد أن تتركا بعضاً يجعلني أصاب بالجنون، فانتِ تعلمين كم أنتِ وجيمس تعنيان بالنسبة لي !

–أرجوك؛ خبرني يا سهيل ! أريد أن أعرف! سألت بإصرار وبإلحاح.

-نعم سأتزوجك؛ ولكن ليس من أجل أن أعاشرك معاشرة الأزواج، ولكن من أجل أن أظل إلى جانبك؛ استدفئ بحبك وبحنانك ورقة مشاعرك؛ و عندها سأشعر بالأمن و الأمان، و لم يعد هناك ما يقلقني من هموم الحياة و عاديات الزمن !

وهنا وقفت شيلا كالمارد، وكل ذرة في جسدها تهتز وترتجف، وكأنما هي صوفيّاً خطر على باله فجأة ذكر خالقه، فأحضر طبوله وبدأ يقرعها بوله وحماس وقوة، و يطوّح برأسه إلى الشمال و الى اليمين تارة، و تارة إلى الخلف و أخرى الى الأمام؛ وهو يدور حولها ويردد من اعماق قلبه: أحدٌ أحد! أحدٌ أحد!

-سهيل! أنت قديس! أنت ملاك يمشي علي الارض، مستحيل ان تكون بشراً ! كم اعشقك! اقدسك! اعبدك! روحي فداك!

-انا لا أريد منك شئيا، الا هذا الحب وهذا العشق؛ انه الذي يدفعني إلى الاعلى؛ إلى السماوات العلى! " زيديني عشقاً زيديني، يا أغلى ذرّات عيوني!"

-لأنني لا يمكن أن أحب أي فتاة حبا رومانسياً لفترة طويلة، هكذا خلقني الله ! إنني واحد من أولئك الذين حلّت عليهم اللعنة! وعليهم ان يظلوا حاملين صلبان لعنتهم إلى يوم الدين!

-بالله عليك كفّ عن هذا التشاؤم! ان فلسفتك تزعجني، بل وترعبني. انك لم تخبرني بهذا من قبل، ولم تخبرني الآن بهذا فجأة ؟! فهل يعود هذا بسبب مزجك لنوعين من الكحول، جعلاك في حالة حزن ويأس وخوفا من الحياة ؟!

-ان مزجي للكحول، اجلسني على كرسي الاعتراف لأ قول الحقيقة، وان أقول ايضا ما اعتقد حقا، وليس ما ينطق به لساني ! انه عندما لايكون هناك تاثيراً للكحول علي، فإنني اخفي حقيقة حالتي بستار سميك من الزيف لاقنعكم باني انسان سعيد لاابالي بما يجرى من حولي؛ و إني اشعر لحظتها بأنني سهيل دهشان الحقيقي، الذى يحاول ان يحيط نفسه بهالة من اللامبالاة !

فجأة شعرت بان شيلا تريد ان تغير مجرى الحديث التشائمي بحديث آخر اكثر تفائلاً، إذ تغيرت نغمة صوتها واكتسب نغمة من المحبة والحنان، وارتسمت على وجهها مسحة من الفرح وعلت شفتيها بسمة رقيقة حنونة وقالت:

–هل تعرف ياسهيل، بأن يوم الجمعة القادم، مثل غدٍ، تكون لنا سنة كاملة قد مضت على تعارفنا ؟!

–أحقا ما تقولين ؟! يا اله السماء! انها تترآي لي وكانها البارحة! ما اسرع ما تجري الايام! ولكن ايّ من اللقاءين تعنين؟! الذي كان في العيادة أم الذي كان في البيت؟!

وكأنما، ذكري لكلمة العيادة، قد وضعت في قلبي كل شجاعة العالم وجراءته؛ اذ لاشك ان السبب يعود لكأس الكحول الذى تناولته. انني ومنذ أن اصبحنا اصدقاء، وفي كل يوم تقريباً، اهم بسؤالها عن سبب كراهيتها واحتقارها الشديدين لي، ولم اجد يوما الشجاعة لأن افعل ذلك سوى الآن.

قالت وكأنما كانت محضرة الجواب، و متوقعة سؤالي هذا لها يوما:

–لن اخبرك الآن ياسهيل؛ ولكن أعدك بأنني سأخبرك يوما وفي الوقت المناسب، صدقني! وبعد أن تمهلت قليلاً أضافت:

–أريد ان ادعوك أنت وجيمس إلى احدى المطاعم لنحتفل ونشرب نخب صداقتنا!

–أرجوكِ اعذريني ان قلت لكٍ بأنني لا احب كلمة ذكر "احتفال"؛ اذ انني قد شطبتها من قاموس لغتي، منذ احتلال بلادي من قبل الصهيانة ! إنني ومنذ ذلك الوقت وانا محرّم على نفسي الفرح.

–يا إلهي! أكل هذا الحزن بداخلك؟ ألهذا السبب لم تقدم لنا ولا حتى بطاقات معايدة في عيد ميلادي جيمس وأنا ؟! لقد حاولنا ان نجد المبر ر لتصرفك هذا، فتوصلنا إلى نتيجة بانكما ربما لا تفعلان هذا في بلادكم.

–حقا لقد ندمت وخجلت على تصرفي معكما !

–ولم تفعل ذلك؟! فلقد كنت في كل مناسبة تدعونا للعشاء وتقدم لي العطور والأزهار، وهدايا مختلفة في مختلف المناسبات لكلينا ! وتقدم لجيمس ربطات العنق وكالونيا الحلاقة!

–نعم إذ إنني في كل مرة كنت اقدم الهدية او اشارك بالدعوة، ولكي احضرها كنت اقنع نفسي بانها مناسبة عادية، تحصل في كل عام وانها ليست احتفالا وفرحاً.

-على كل حال فإنني سأدعوك أنت وجيمس لتناول العشاء في مطعمك المفضل؛ وارجوان لا تنسَ فترتبط بموعد آخر وطبعا تستطيع احضار صديقتك مارثا معك ان احببت ذلك.

-لقد ذكرت لي مارثا انها ستذهب مع والديها في اجازة لمدة اسبوع إلى جزيرة "هاواي"، وقد طلبت مني أن أرافقها فاعتذرت، ثم أن والدتها هاتفتني ودعتني فرفضت أيضاً، وجددتْ الدعوة فاعتذرت ثانية ! أقول لك الصدق يا شيلا، انني تمنيت من صميم قلبي لو أنني قبلت مرافقتهم ! إنني احب والديها كثيرا واسعد بالجلوس معهما والتحدث اليهما، ثم انهما يحبانني كثيراً ويحترمانني جداً جداً؛ وكذلك يفعل شقيقها وزوجته. انني اعتبرهم العائلة الثانية لي كما أنك أنت وجيمس العائلة الاولى ! اني اشعر في بيتهم وكأنني اجلس بين ِاخواني واِخواتي، ولكني قمعت مشاعري فرفضت !

-لماذا رفضت ؟! ألا يوجد معك نقودا لتلك الرحلة؟! لو أخبرتني لأدنتك المبلغ الذي تحتاجه ! قالت بحماس ممزوج بالرقة !

-طبعا معي؛ ولكني خفت ان ازداد تعلقا بمارثا !

-لمَ تعتقد انك يجب ان تفترق عنها ما دمت تحبها كل هذا الحب ؟!

-لقد ألمحت لي بعدة مناسبات، بانها تريدنا ان نتزوج، وانا غير واثق إن كنت أريد أن أمضي بقية عمري معها !

-وهل قابلت من تعتقد بأنك تحب ان تمضي بقية عمرك معها ؟!

-طبعا لا؛ ولا اظن انني سأقابل ! لو كنت افكر بالزواج من اجنبية، فلا اظن باني ساقابل من هي مناسبة لي اكثر من مارثا ولا خيرا منها. إن عندي قناعة أكيدة بانني يجب ان لاأتزوج الا من عربية ومسلمة تحمل نفس افكاري وتؤمن بنفس المبادئ والقيم التى اؤمن بها.

لم تعلق شيلا، وانما اكتفت بأن هزت رأسها عدة مرات، ولا ادري إن كانت هذه علامة الاقتناع ام علامة الحيرة !

مرت فترة لا ادري اطالت ام قصرت كنت خلالها اتامل وجه شيلا الالهي، وعندما مسكتني احدق بوجها غضت الطرف، ثم اغمضت عينيها وكانما هي تحلم.

اعدت التأمل في وجهها، فشعرت وكأنما اغرقت نفسي، من جديد، في بحر من السعادة والصفاء والحبور؛ ولما فتحت عينيها وامسكتني اتاملها ثانية سالتني:

-ماذا تفعل ؟!

- اتامل وجهك !

-وماذا وجدت به؟!

-بحرا من الجمال الرباني، ومحيطا من السعادة الالهية، و كذلك نهرا متدفقاً من المحبة و العطاء ! أخجلتها كلماتي والقت بوجها إلى الارض.

فجاة خطرت على بالي فكرة جنونية اسعدتني جدا وتساءلت ان كان من الممكن تحقيقها.

-شيلا ! أريد ان أسألك سؤالا اعرف مسبقا انه في غاية السخف والغرابة، وقد صار لي سنوات طويلة افكر به، ولكني صدقاً لم اجد الانسان الذى اشعر معه بالارتياح والحرية الكاملة لكي احدثه عنه، مخافة ان يسخر مني.

-أنت تعرف مكانتك عندي، وانا اعرف مكانتي عندك، فلا داعي للمقدمة والاعتذار! اسأل ما تريد.

-يوجد في العالم، على مر الأزمان، نظريات كثيرة ومدارس فكر متعددة؛ فمثلا افلاطون اراد ان ينشئ مجتمعا مثالياً، فسماه المدينة الفاضلة؛ "إيمانويل كانط" تحدث عن فلسفة الواجب؛ "أبِقور" تحدث عن فلسفة اللذة؛ "سارتر" الفيلسوف الفرنسي ، تحدث عن الوجودية؛ وغيرهم الكثير الكثير، فلماذا لاتكون هناك مدرسة؛ اسمها الحب العذري، لمؤسسها؛ سهيل دهشان ؟!

وبعد ان ضحكت حتى دمعت عينيها قالت:

-جميع الفلاسفة الذين اوجدوا هذه الفلسفات، يؤمنون بها ايماناً مطلقاً ويعملون على تنفيذها، ثم ان لهم اتباع كثيرون، وكذلك انها فلسفة سهلة التحقيق، فهل أنت تستطيع ان تنفذ تعليمات هذه الفلسفة، وهل تعتقد ان هناك من يمكن ان يؤمن بها وينفذ تعليماتها ؟!

-لقد طبقناها أنت وانا لحد الآن، إذ إنني احبك حبا عذريا كأخت لي؛ يدفعني حبك إلى العلو والسمو والشموخ؛ اشكو اليك آلامي وأوجاعي. .

. احدثك عن آمالي واحلامي. . . عن حبي وطموحاتي . . . أنت صغيرة وجميلة وفي عنفوان الشباب، وانا احبك بل أعبدك،؛واغرق نفسي بعواطفك ولكنني لا أشتهيك ولا افكر بك جنسيا اطلاقا؛ وفي آخر الليل تعانقين وتمنحين نفسك إلى زوجك، أما أنا ففي اخر الليل انام معانقا احلامي وشطحاتي !

–أنت وانا يا اخي حالة نادرة جدا؛ وكما تعرف فأن النادر لا قياس عليه ! فلولا ان جيمس يثق بي وبك ثقة مطلقة لا حدود لها، لما تركنا طيلة كل هذا الوقت وحدين ؟! انه يعتبرك اخاً لي، فانا واثقة بانه لو كان له اخاً من امه وابيه، لما سمح له ولي ان نعيش هكذا وبكل هذه الحرية المطلقة التى لاحدود لها !

–اعرف ! اعرف ! بالله عليكِ لا تقولي اكثر من ذلك، فاني قد ابدء بالتمزق.

–اكمل نظريتك، وضحها لي من فضلك؟

–نظريتي تقول؛ بأن الرجل او المرأة يستطيع الواحد منهما أن يتزوج وينجب اطفالا ويكون سعيدا بحياته الزوجية، وتكون له او لها، حبيبة او حبيب، يحبه حبّاً عذريا، لا يفكر بأحدهما بالآخر جنسيا اطلاقا؛ يشكو اليها اوجاعه وهمومه وآلامه... ، يضع نفسه في حضنها فتمسد له شعره وتستمع لشكواه و أحلامه، ويبثها لواعج قلبه وأحزانه؛ و يحدّثها عن طموحاته و آماله!!

تأملتني شيلا طويلا، وكانما تتنظر مني الاستزادة، فأضفت:

–بالمناسبة؛ لقد كانت هذه المدرسة موجودة في بلادنا، نجد و الحجاز، قبل اكثر من قرنا ونصف القرن من الزمن، ولكن صديق الطفولة ورفيق الدرب شاهر، يؤكد لي دائما وابدا، بان ابطال الحب العذري، كانوا يدعون بانهم يحبون حبا عذريا، لان الشاب والفتاة لم يستطيعا ان يتلاقيا، لان قوانين القبيلة الصارمة والرداعة، والتى تصل احيانا حد القتل، تحرم عليهم ذلك؛ والا لما كانو عرفوا هذا النوع من الحب، ولما كنا قراءنا عنه! لقد كان شاهر يا شيلا كثيرا ما يسخر مني، ويتهمني بالسذاجة والغباء، عندما كنت احدثه عنه.

–صدقني يا أخي؛ ليس هناك من إمراة او رجل يقبل هذا؛ قد يكون هناك من يقبل ان ينفرد بها لنفسه، اي ان يكون له حبيبة غير زوجته يحبها حبا عذريا كما تقول؛ ولكن الانسان العاقل، لايقبل لنصفه الاخر، ان تكون له علاقة عاطفية مع انسان غيره ! فالمعروف والمتعارف عليه، ان

هذه العلاقة محرمة وممنوعة خارج نطاق الزوجية ! فلماذا اذن لايكون الزوج او الزوجه، هما اللذان يقومان بهذا الدور، نحو بعضهما بعضا؟! سَأَلَتْ.

–لأنه من الصعب على الزوجين أن يقوما بهذا الدور، إذ إنها مشاركة روحية، فكرية، جمالية ، عاطفية ، ووجدانية أيضا؛ وليست مشاركة جسمية ! قلت.

–صدقني، لا أحد من الزوجين يقبل أن يكون لصِنْوِهِ محب سواه، حتى لو كان هذا الحب حباً عذرياً وروحياً ، كما نسميه! قالَت.

–اذن كيف يقبل جيمس بما بيننا من علاقة ؟! سالتها بحدّة.

–لأنّ جيمس انسان فريد في تفكيره؛ نادرٌ في تصرفاته؛ و فيٌّ في صداقته ! قالت بحماس و رِقّة متناهية !

–كم أقدر هذا التفكير السامي لزوجك، وكم أنا شاكر له لهذه الثقة التى يمنحني اياها؛ انها اكثر كثيرا مما استحق؛ صدّقيني !

–انا دائما اشكر الله انه لايعارض هذه الصداقة الروحية التي بيننا؛ وان كنت اخشى ان يستقيظ يوما فيطلب الي ان اوقفها حالاً؛ ولكن تذكر دائما يا سهيل، بانني لن اسمح لصداقتنا ان تتجاوز حدود الفكر و اخلاقياته .

–ما تقولينه يرعبني بل يزلزلني ! لقد بدأت أخاف حقا !

–ولهذا السبب كنت ارجوك دائماً والح عليك بانك اذا اردت لحبنا الروحي الاستمرار، عليك ان تقبل الزواج من مارثا؛ اذ انه عندما تكون لك زوجة ، فإن جيمس لن يفكر أبداً بمنع هذه الصداقة ! إن مارثا هي الفتاة الوحيدة في العالم كله، التي تستطيع ان تتفهم احاسيسك ومشاعرك ! صدقني ياسهيل، صدقني يا اخي ان خسرت مارثا فستخسر الكثير الكثير ... انا لست مخلدة لك، فقد تتغير الظروف وتتبدل الاحوال ! اسرع والحق بمارثا قبل فوات الاوان ! وبعد ان ردت خصلة من شعرها كانت قد غطت عينيها اضافت:

–ثم لماذا تصر على ان يكون لك حبيبة روحية وأن تحبها حباً عذرياً، كما تسميه، بينما تستطيع مارثا ان تكون لك الاثنتين معا؟ ! إنها مؤهلة لكليهما !

–أفكر بهذا ربما بغير معرفة مني! وقد يكون عقلي الباطن هو من يطلب ذلك، لان فكرة ان اتخلى عن حبك واصبح بدونه ترعبني، كما إنني لا أستطيع أن أتصور بأن المرأة التي سأتزوجها لا استطيع ان ابثها آلامي وطموحاتي وافكاري الرومانسية !

-ولم تعتقد ذلك ؟! سألتْ.

-لأن المرأة التي يعانق جسدك جسدها وتضاجعها في آخر الليل وتنجب لك أطفالاً، وتحقق لك كل رغباتك الجنسية، لا يمكن أن تتفهم رغباتك الروحية والفكرية !

-سهيل! هل تحب الاطفال؟ ! فجأة سألت شيلا، بصوت ناعم حنون وكأنه همس!

فاجأتني بسؤالها وأربكتني، فأحترت وتحيّرت، وهززت كتفي وكأنما لأعلمها بعدم الإكتراث، ثم أضفت:

-في الحقيقة، انا لم افكر بهذا أبداً. وماذا عنكِ ؟!

اصفرّ وجه المرأة ثم اخضرّ ثم احمرّ، وارتجف جسمها، فعرفت أنه ولا بد أن يكون هناك سرٌّ لا أعلمه ! مرَّت فترة صمت طويلة قبل أن تجيب، فقالت:

-أحياناً يهزني الحنين إليهم، واتمنى لو عندنا واحداً او اثنان؛ واحياناً أخرى أقول، إنها مشيئة الله !

-وماذا عن جيمس؟!

-انه لايهتم لوجدوهم، ويحاول ان يقنعني برأيه أحياناً؛ قالت هامسة و علائم الألم بادية على وجهها، وإشارات الانكسار تبدو في عينيها !

-وهل قال لك لماذا؟! سألت وأنا احاول ان اخترق جدران رأسها بعيني المحدقتين، لاقرأ الحقيقة ولأستكشف الخفايا.

-نعم؛ إنه يعتقد بأنهم يسببون المشاكل العديدة للوالدين ويحدون من حريتهم؛ ثم انهم يضعفون و يرهلّون جسم المرأة !

-انه صادق فيما يقول؛ ولكن الكون يجب ان يعمّر، والاولاد لابد من ان يولدوا؛ وهذه سنة الحياة ! قلت هذا ثم ابتسمت وأضفت:

-على كل حال، انا لا ألومه اذ انه يخشى على جسم معبودته الجميلة من ان يشوهه الحمل والولادة ! ولمّا لم تعلق بشيء استطردتُ:

-اظن، انه يجب عليكِ ان تشكريه وتقدرين له تضحيته، فهو يحرم نفسه من حنان الأولاد وعاطفة الأبوة في سبيل الحفاظ على رشاقتك وجمالك وتدفق حيوتك !

-أظن إنكَ على حق. قالت بنفسٍ ذليلة مكسورة !

-على كل حال, وكأنما سمعتكم تقولون، قبل بضعة شهور، بأنكم أجّلتم انجابكم للاولاد حتى تستقروا ! ثم لِمَ السرعة ؟! أنتم مازلتم شبابا وحياتكم مازالت امامكم ! قلت شبه مستنفر!

لم تعلّق و إنما لاحظت أنّ غمامة من الحزن تخيم على وجهها؛ فأضفت لأسرّي عنها:

-ظل اخي يرفض الزواج حتى كدنا نيأس منه، وعندما تزوج وانجب، صارمجنونا بحب أولاده ! إنكِ وقريباً جداً، ان شاء الله، ستنجبين أطفالاً كُثُرْ؛ و ستسعدين وسيفرح جيمس بهم.

نهضت شيلا مسرعة، وادارت نفسها إلى الوراء بطريقة لولبية، ثم نظرت إليّ نظرات خلتها أحرقتني؛ ثم اتجهت نحو غرفة النوم ودخلتها واغلقت الباب خلفها، وبعدها وصل إلى اذني اول الامر نهنهات واطية، ثم ما فتِأَتْ ان ارتفعت حتى اصبحت كالعويل الذى يرسلونه عندما يموت عزيزا !

لم استطع ان احتمل بكاء شيلا، فلم أدرِ ما افعل، ففكرت ان اذهب واحاول التخفيف عنها لإسكاتها، ولكنني خفت ان احرجها وان تزداد في البكاء؛ عندها نهضت وفتحت باب الشقة وخرجت وصفقته خلفي، وانا مَرتَعاً لشتّى العواطف والانفعالات!

ركبت سيارتي وقدتها حتى وصلت الشاطئ، وهناك غادرتها وصرت أسير على غير هدى، وأنا شارد العقل مشتت الأفكار! لقد كنّا نتمشى في بعض الامسيات؛ هي وجيمس وأنا!

بقيت اسير على الرمال المحاذية للشاطئ، حتى تعبأت فردتي حذائي بالرمل والماء معاً، مما اضطرني لخلعه وحمله، و كنت لحظتها أعيش في دوامة من شتى الصرعات والانفعالات الوجدانية والفكرية !

بقيت أسير لفترة طويلة غير واع بما يدور حولي، غير مدركٌ للشمس التي بدأ يتورد لونها كخدود عذراء متفتحة للحب ، وهي تغرب وتختفي خلف الافق، لتجعل منها فراشا ورديا لعشاقها و المولّهيين بها !

كنت وانا اسير فوق الرمال، أفكر بالدمعة المعلقة فوق عيني شيلا في أغلب الأحيان، والتي ترفض النزول او العودة إلى مكانها !

لقد استرجعت في ذاكرتي ما دار بيننا في احدى الليالي، عندما مرّ ذكر الاطفال اثناء حديثنا، اذ اذكر جيداً ان جيمس ذكر في حديثه: انهم في يوم قريب سيكون عندهم صغاراً يركضون في البيت ويجوبون الحديقة، عندما يشترون بيت الأحلام، ويستقرّون به؛ واذكر مرة اخرى انه في جنون شراء الناس أيام عيد الميلاد، كنت قد رافقتهما في احدى الأمسيات، عندما دخلنا احد المخازن الفاخرة لبيع الحاجيّات الفارهة، وكانا ينويان شراء بعض الهدايا إلى الأهل والاصدقاء، فقد لاحظت انهما كانا يرقبان طفلاً كان يلاحق بعينيه قطاراً كهربائياً وضع للدعاية في قسم الألعاب، فقد كان الأب يشرح للطفل كيفية عمل القطار!

لقد لاحظت ان جيمس كان خلالها يراقب الأب بحسرة وتمزق، ثم سمعته يعلّق ويقول انه يحسد ذلك الأب للسعادة التي كانت تشعُّ من عينيه؛ ولكنه أردف بأنهم، يوماً ما، سيكون لديهم طفلٌ مثله، و كذلك لاحظت انهما، هو وشيلا، تبادلا نظرات محزونة مكسورة !

وبعد ان استرجعت هذه الحادثة، قلت لنفسي: اذا كانت المسألة مسألة انتظار، فان الواحد منّا سينتظر، ولكن ما زال في المسألة انزال دموع، فعلى الارجح، ان واحداً منهما، غير مؤهل لانجاب الاطفال، فهذا هو الشيء، الذي يؤلم ويحزن ! ثم خطرت على بالي فكرةٌ أخرى، بأنه لا بد وأن تكون شيلا غير مؤهلة، جسدياً، لانجاب الاطفال، ولهذا السبب فهي في تعاسة دائمة وخوف ممزق !

ولماذا لا يتبنون؛ اذا كان وجود الاطفال في حياتهم مهما إلى هذه الدرجة ؟! إنّ العالم الثالث يلقي كل يوم بآلاف الاطفال في قمامة الفقر والموت جوعاً، فلمَ لا يأخذون العدد الذي يرغبون به فيَسعدون ويُسعدون الآخرين ؟! بدأت الافكار تدور في عقلي كالطاحونة؛ اسأل السؤال وأجيب عليه، حتى احسست بأن دماغي يكاد ينفجر، من عنف الدوران وازدحام الأفكار ومن شدة التفكير!

لا شكَّ أن هناك سرّ لا أدرك كنهه؛ سر لا بد لعقلي البسيط أن يستوعبه !!!

* * * * *

كنت في احدى الليالي بزيارة لعائلة الروبنسون، ولم يكن جيمس قد عاد الى المنزل بعد، وعندما سألت شيلا عنه أخبرتني بأن عنده اجتماعا مع أحد عملاء البنك وأنه سيتأخر قليلاً. بعد أن شربنا القهوة سويّة، خطر على بالي سؤال بخبث شيطاني!

-هل يمكن يا شيلا ان يتحول الحب الجسدي، بين رجل وامرأة، إلى حب عذري؟!

-اعتقد انه من المستحيل حدوثه! قالت بحزم واصرار.

-وهل تعتقدين انه من الممكن حدوث العكس؛ كأن ينقلب الحب العذري إلى حب جسدي؟!

-من الممكن جدا جدا ! قالت وقد هزت رأسها عدة مرات بتأن لتأكد مقولتها !

-وماذا لو تبدل الحال بيننا وانقلبت الصورة فتحول حبي لك من حب روحي إلى حب جسدي ؟! سألتها وانا أحملق بوجهها !

-قد يحدث هذا، ولكن قطعاً سيكون من طرف واحد !

-ماذا تعنين ؟!

-أعني أنني لا ولن أسمح لنفسي، ان يحدث شيء من ذلك، فانا ملتزمة، وتعاهدنا زوجي وانا، على ذلك امام الله، في الكنيسة، بأن لايمنح احدنا جسده لسواه!

-بارك الله بكِ؛ لقد طمأنتني الآن!

-تذكر أنني اثق بك ثقة مطلقة، وكذلك يفعل جيمس.

-اشكرك على كل هذه المشاعر الصادقة يا شيلا؛ و الآن اسمحي لي بالذهاب اذ ان عليّ ان اكتب رسالة لوالدتي الحبيبة بالوطن. وكذلك أدوّن فكرة خطرت على بالي أضيفها الى الرواية التي أنا الآن أكتبها، قبل أن آواي إلى فراشي .

بعد أن عدتُ إلى شقتي، وانتهيتُ من كتابة رسالة إلى والدتي، وتدوين الأفكار التي كانت تختمر في مخيلتي، وضعت نفسي في الفراش واستعرضت ما دار بين شيلا وبيني، فوجدت أنني حقا أحب مارثا؛ أحبها جدا وأتضايق عندما لاتكون معي... أشعر بالخوف؛ بالضياع؛ بالوحدة؛

بالتمزق...! أشعر أنه ينقصني شيء مهم جدا في حياتي... أشعر وكأن أحدهم يكتم أنفاسي؛ يخنقني؛ وعندما تأتي إليّ أشعر بأنني وجدت أهلي فأحس بالأمان والسعادة ... بالاسترخاء...أهازيج...أمٌّ تُهَدْهِدُ ابنها... تغني له... تهز له السرير... تقرأ عليه آيات قرآنية وتعاويذ دينية؛ فيتمدد في الفراش؛ تمشط له شعره بأصابعها ثم تعطيه شفتيها... صدرها... جسمها... كل وجودها و كيانها ... تعانقه تغني له ثم يتعانقان لساعات وساعات، وهو نائم فوق صدرها وهي لاتتحرك، حتى لا توقظه من أحلامه، وأحيانا يبكي كالطفل الصغير الخائف فوق صدرها ...أرجوكِ اقتربي مني أكثر فأكثر، لا لا تتركيني دعيني أبكي فوق صدرك ... بين ذراعيك ! أنا مشتاق لكِ وأنتِ معي! أنا أفتقدكِ وأنتِ بين يدي ! أشعر بالاختناق والتمزق عندما تغيبن عن عينيّ ! مارثا! مارثا! بالله عليك دعيني أحبك، وأظل أنهل من حبك حتى أموت بين ذراعيك، وحتى أدخل جنة حبك... دعيني أجلس تحت قدميكِ؛ أتعبّد في محراب حبكِ؛ أصلّي أمام مذبح جمالك؛ أقبّل الصليب الذى يتأرجح بعنقك ! لقد كنت لا شيء فأوجدتني؛ فبالله عليك ثانية لا تطرديني من جنة حبك، ولا تحرميني عطفكِ وحنانك !

*****

كنت ممددا فوق السرير في غرفة نومي، فجأة أحسست بشوق عاتي مزلزل إلى مارثا، وبحنين طاغ لرؤية وجهها، لسماع صوتها وغلت في داخلي مشاعر عاتية، مشاعر من فقد كل أهله وفقد الأمن والأمان ! شعرت بثورة... بغليان... ببركان داخلي... وفجأة انفجرت أبكي كطفل صغير ! هرعت إلى الهاتف وأدرت رقم منزل أهلها ، فأنا أعرف دائما أن التي ترد على الهاتف هي مارثا.

لقد صارت كلمات الشوق تخرج من فمي قبل نطقها، فقد كنت عازما أن أطلب إليها أن تحضر في التوِّ واللحظة، وبأسرع ما يمكنها؛ إذ أنني لم أعد أقوى على فراقها ولا للحظة واحدة ! لقد شعرت أنني لا أستطيع التنفس... إنني أختنق بعيدا عنها؛ كنت أريد أن أطلب إليها الذهاب إلى المحكمة الشرعية، أو أية جهة تريدها ... إمام مسجد، راهب دير، حاخام يهودي، بوذي، زرادشتي، أية ديانة تريدنا أن نتزوج عندها؛ ولكن لشدة خيبتي كانت زوجة أخيها هي التي ردّت على الهاتف، وبعد أن رحّبت بي ورحّبتُ بها بحرارة، سألتها ان كنت استطيع مكالمة مارثا، إلا أنها قالت:

–لقد سافرت قبل يومين يا أخي! أنسيت ذلك؟! لقد كنت عندنا هنا في المنزل لوداعها ووداع والديها ليلة سفرهم !

–نعم، هذا صحيح، لقد نسيت يا دكتورة برتيني ! نعم لقد نسيت ! أقسم لك بمارثا وبربها أنني قد نسيت ! اللعنة يابرتيني ! لماذا خلق الله لنا قلوبا تخفق ؟! لماذا لم يخلقها قطعة خرساء جامدة قُدّت من الصخر الصلد ! نعم ، لقد نسيت عقلي ... نسيت وجودي... عدت إلى أصلي... من الغبار خلقت وإلى الغبار أعود ! برتني ! أرجوكِ ! أذرفي دمعتين على تعاستي ... تمزقي ... حيرتي ...! قلت هذا وانفجرت أبكي بهستريا فوق سماعة الهاتف !

–بروفيسور سهيل ! أقسم لك أنني قلت لمارثا ولوالديها، وكذلك إلى زوجي؛ بأنك ستندم على عدم مرافقتهم، وأنك ستتعذب كثيراً؛ كثيرا، فها قد تحقق ما اعتقدت !

–أنا لست نادما فقط يابرتيني، وإنما أنا قد فقدت عقلي ! أنا خائف يابريتني ! إنني مرعوب ؛ إنني أكادأختنق !

–تعال عندنا الآن؛ أرجوك ! إننا لم نتعش بعد. لقد انهت كونستانت الطهي قبل قليل، وبعد دقائق من المفروض أن يكون دريل هنا، وسيكون سعيدا جداً جداً، بمجئيك!

–سامحيني يا بريتني، إنني لا استطيع المجيء؛ إنني إذا حضرتُ ورأيت أن مارثا لم تكن بينكم فانني سأفقد عقلي وأُجنْ !

–لا شكّ بأن حضورك لتقضي معنا بعض الوقت، وحديثك مع دريل ومعي؛ سيخفف عنك بعضا من آلامك ! أرجوك حاول المجيء !

–سأحاول جاهداً، وان كنت أعرف مسبقاً بأنني لن أستطيع قيادة السيارة، إذ أنني منهكٌ جسميا وعاطفياً ! قلت هذا و اغلقت السماعة !

* * * * *

مرت فترة صمت طويلة، وانا مستلق فوق الكنبة في شقتي احدق بسقف الغرفة؛ استعرضت مادار بين شيلا وبيني، من اراء وافكار. انني حقا احب مارثا؛ احبها بجنون؛ بوله؛ حتى نخاع النخاع ! اتضايق عندما لا تكون معي. . . اشعر بالخوف، بالرعب... بالضياع وبالوحدة؛ بالتمزق والانسحاق ! اشعر بانه ينقصني جزءٌ مني؛ تنقصني ذاتي؛ ينقصني نصفي الآخر! أشعر وكأنما أحدهم يضع يداً جبارة حديدية على فمي؛

يخنقني؛ يكتم أنفاسي؛ فأخرج من شقتي كالجرذ المرعوب إلى الشارع حيث المدينة الكبيرة، لاضيع بها وتضيعني؛ اظل ابحث عن مارثا؛ أفتش عنها في أزقة وشوارع قرية "وست وود" زقاقا زقاقا وشارعا شارعاً أسأل عنها حتى اجدها؛ فأرمي بنفسي عند قدميها، فتنحني وترفض أول الأمر، ثم تقودني بعدها كطفل ضال وجدته أمه؛ فنعود إلى شقتي وتتمدد على السرير وأتمدد إلى جانبها، وتصير تمسد على شعري وأسمعها تتمتم بكلمات لا أفهمها! من يدري لعلها كانت تقرأ بعض التعاويذ من إنجيلها! وعندما اعود معها إلى شقتي، احس بالأمن والأمان، عندها فقط اشعر انني قد وجدت نفسي... وجدت اهلي... اخواني واخواتي...! إن كلامها موسيقي...اهازيج...ام تهدهد ابنها... تغنى له... تهزّ له السرير... تقرأ عليه آيات قرآنية وتعاويذ دينية ... فيتمدد بجانبها؛ تمشط له شعره باصابعها و تغنى له !

مارثا ! ان في صدري زوبعة من الشوق العارم اليك. ارجوكِ لا تتركيني؛ لا تتخلي عني، فانا اعشقك! لقد اصبح قلبي وصارت عواطفي ومشاعري واحساسيي بعد فراقك متجمدة، كالصقيع القطبي، وصار الموت والحياة عندي سيان، فيمضى النهار ويتلوه الليل وانا احدق بظلمة قلبي، بعيون جامدة كحصى الانهار؛ فبغيابك عني، يستبد بي القلق والتمزق واحس بالغربة والاغتراب، واحيانا تشتعل بداخلي الثورة والتمرد والعصيان! أنت سفينتي التي أبحر بها إلى مرفأ الأمان.

*****

-

-ان مارثا تعلمني دائما بان عائلتها متوسطة الغناء مع اني علمت من احدى طالباتي بان والدها، غنيّا غناً فاحشاً؛ انه يملك الاطيان والعقارات وشركات متعددة.

-الهذا السبب ترفض الزوج منها ؟ سألت شيلا .

-نعم ؛ انه احدى الاسباب؛ لأني لا أريد ان تكون زوجتي من عائلة غنية فتفاخر وتتباهي بذلك.

-اعتقد انها خصلة جيده لها وتسجل لصالحها ، وليس ضدها.

-لا اظن أني سأتزوج يوما؛ لانه ليس في قلبي مكان للحب او الزواج.

-اذن كيف تعيش بدون قلب ؟!

-انك تعرفين ما اعني !

-انا لا يمكن ان أسعد نفسي أو أن أسعد من أتزوج، لأنني مرهون لحب فاشل! لقد آليت على نفسي ان لا أتزوج بعد زواجي من سميحة. قلت.

-ولكنك قلت لي بان حبك لها كان حبا صوفيا روحيا لا علاقة للجسد به؛ ثم انه قد حدث لك ايام المراهقة ، عندما كنت بأوج مشاعرك وطاقتك، ولم تجد احد وقتها تبح له بشعورك هذا!

-هذا صحيح ولكن، صدقيني يا شيلا اني اشعر دائماً أنني ما زلت أحبها، وأن حبها متجذر في كل ذرة من ذرات جسمي ! قلت.

-يجب أن تتخلص من هذا الحب ! قالت.

-أحياناً أتمنى ذلك؛ وأحياناً أخرى لا أريد أن أتخلص منه ! إنه بقدر ما يشقيني فإنه يسعدني! قلت.

-كم يحزنني تفكيرك هذا، وكم تعذبني معاناتك !

-هناك شيء آخر يقلقني؛ وهو أنني أشعر ان طفولتي قد اغتيلت وان برائتي قد ذبحت، وان قدسيتي قد دنست ! أشعر بأن أحلامي قد سخر منها واحتقرت وان حماسي قد جمد وعذريتي قد عهّرت ! لقد اختصرت طفولتي، فليس في حياتي طفولة؛ اذ خلقني الله، ومنذ بلغت الخامسة من عمري، رجلا مسؤولا وإنسانا مهموما مسحوقا؛ لم أمر بفترة الطفولة والمراهقة، فلقد اختزلتها إلى فترة الشباب وشطبتها من حياتي! لم اعرف اللهو البريء وحرمت من اللعب كطفل، لقد خلقت بين أحضان الواقع، ولا وقت لدي للهو، وكنت دائما في صراع مع الهموم والمسؤولية والمعاناة! كنت اعيش على هامش الحياة, حياة الكفاح والمعاناة والعرق والدموع؛ حياة القلق والتمزق؛ اللهو و اللعب والمرح والأحلام البسيطة لم يدخلوا قاموس حياتي، فلقد دخلت الرجولة مبكرا وقبل الأوان، وحملت المسؤولية صغيراً ! كنت في الوقت الذي كان به أقراني يلعبون كرة الشرائط بأزقة وحواري السلط، كنت أنا أعيش في اغتراب وغربة ! وهنا سقطت من عيني دمعة أحرقتني.

لم تعلق شيلا و إنما بقيت محدقة بي بذهول !

-إن مارثا غاية في الجمال. قالت شيلا بعد أن أخذت رشفة كبيرة من كأسها اذ احسست ان في صوتها بعضا من الاسى واللوعة ثم اضافت:

-وتملك عقلاً ناضجاً مفكراً نيّراً !

-ولكن جمالها لايقارن بجمالك اطلاقا، ولا نضوج عقلها وإنارة تفكيرها توازي ما تتمتعين به !صدقيني يا شيلا، واقسم بحبي الكبير لك واللا محدود؛ انك بنظري اجمل امرأة في الكون كله، وانك اغلى عندي من كل ما في الوجود ! انك، وحتى ايامك كرهك واحتقارك الشديد لي، كنت اراك أرق وأحن وأعذب امراة رأيتها في حياتي!

فجاة ادركت أنني قلت كلاماً ما كان يجب ان أقوله؛ فقد شعرت بندم ممزوج بألم ممزّق؛ وهنا تقابلت عيوننا للحظة، ثم سحب كل منا عينيه وصار يحدق بكأسه.

مرت دقائق قليلة، وفجأة رفعت شيلا كأسها وافرغته في جوفها بطريقة شرهة رعناء مما شوّه انوثتها ورقتها في عيني خيالي.

-فليسامحني المسيح، وليغفر لي الإله ! قالت.

وهنا رفعت انا كأسي وافرغتها دفعة واحدة في جوفي، ثم بدات اتكلم... أهذي... أهلوس... لقد شعرت بأنني شبه مخدر وانني بدات اعيش في تهويمة ، وكأن الذى كان يتكلم هو لسان غيري، وليس لساني الذى يخرج منه هذا الكلام، فقد اندلعت في داخلي براكين من العواطف الجياشة والاشواق المحمومة، إلى الوطن ومن فيه، فتذكرت التمشي بشوارعه وازقته وحواريه، ثم سكنانا أشهر الصيف الثلاثة إلى جانب كرمنا خارج المدينة؛ كما وتذكرت ايام عشقي لزينة واميرة و ريا و مديحة و جمُّيلة و شهيّة، وتذكرت أيضاً كروم العنب والتين وليالي الصيف الجميلة، وبيوت الشعر وسكب الدموع والسهر حتى الصباح...! وهنا أفرغت الكأس في جوفي مرة واحدة، لأجد نفسي اتخبط في ظلام دامس وهواجس حائرة، فقلت:

-يستعر بقلبي الشوق إلى الاهل والاحبة، ويشتد بي الحنين إلى الوطن، واحاول ان اهتك ستر الغيب لأقرا الآتي فأرى المستقبل، مكتم شديد السواد والحلكان واحس انني على وشك الاختناق ويستولى على قلبي اليأس والإحباط؛ عندها افتح نافذة تفكيري وانظر امامي إلى بعيد... بعيد... فأراكِ يا شيلا هناك في نهاية الطريق واقفة كعامود من نور, متالقة متعملقة، تنظرين إليّ وتبتسمين فاتحة ذراعيك تناديني، فاحث الخطى

اليك، مهرولا في شوق ووله عارمين، ارمي بنفسي المكدودة بين احضانك، والقي براسي المتفجر الممزق فو صدرك، فاشعر وكاني غرقت في بحر من الانوثة الدافئة حلوة السلافة معطرة الانفاس، عندها أحسّ بالراحة والطمانينة والهدوء، ثم السلام ! انني ابحث فيك عن ملجأ اخبئ فيه حيرتي وتمزقي وانشطاري! أنت يا شيلا صنمي الذي اعبد، وخيمتي التي اسكن، وناقتي التي أقطع بها الفيافي والقفار، في رحلة العمر! أنت في نظري قلعة من قلاع الشموخ، وحصناً من حصون التألق، ومعقل من معاقل الشهامة والمروة وعزة النفس ! أنت الدفء كله والحنان كله والحب كله، ولولاك لما كنت؛ ولكنت نسيا منسيا ! اقسم لك، باني سأدافع عنك بضراوة الوحوش الكاسرة، باصابعي... باسناني... وحتى برموش عيني !

هنا وقفت شيلا وصاحت بأعلى صوتها، صيحة ارعبتني وبددت احلامي وايقظتني من تهاويمي، فقالت:

-سهيل! أرجوك! أرجوك! توقف عن مثل هذه الافكار. ليس من العدالة ان يكون بيننا مثل هذا، لا لك ولا لي؛ ان مثل هذه الافكار، يجب ان تقولها لإمرأة غير ملتزمة لتعطيك عاطفتها وكيانها؛ اما انا فلا استطيع ان اعطيك شيئا! هل تفهم؟! لا أستطيع أن أعطيك شيئاً شيئاً من هذا! ورفعت رأسها ناظرة إلى السماء وقالت:

-أبانا الذى في السماوات والارض! ارجوك سامحني! انني اتمزق! انني احترق! قالتها بحرارة شعرت حقا وكانها تحترق؛ ثم انفجرت تبكي!

تجمدت في مكاني ولم اقل شيئا، وفجاة صرت ابكي بصمت، فقط كانت دموعي تسفح على وجهي دون ان احرك ساكنا!

لقد تساءلت عن سبب الالم والمرراة اذ عندها كل ما تتمناه الزوجة وكل ما تطمح به زوجه؛ وحب كل من يعرفها، وكذلك غناء الزوج وغناء والديه الفاحش، كما فهمت ثم وكل ما عندها من جمال وسعادة ولكنني لم أصل إلى جواب !

نهضت شيلا ودخلت الحمام فغسلت وجهها ثم عادت بعد قليل تحمل فنجانين من القهوة وبعد ان وضعت امام كل منا فنجانه قالت بحزم:

-سهيل! أريد ان اطلب منك معروفا؛ وارجو ان تنفذه لي؛ فان لم تفعل فإنني سأحزن حزناً شديدا! إنني أريد منك ان لا تذكر امامي بعد الان، حبك لي؛ فهل تعدني؟!

لم اجب وأعادت السؤال علي ثانية وهي تسدد إليّ نظرات احسست بها الرجاء والتوسل؛ عندها قلت:

-إنه طلب ليس من السهولة الالتزام به، ولكني اعدك بأنني ساحاول.

سكتنا ثانية و لم يعد يسمع بعدها الا اصوات رشف القهوة، وضرب الفناجين بصحونها!

* * * * *

كانت من احدى هواياتي عندما أكون حزيناً، ان اقود سيارتي على الطريق المحاذية لشاطئ المحيط الاطلنطيكي، والواقعة بين مدينتي سانتا مونيكا وسانتا باربرا، والمسافة بينهما حوالي المائة ميل! لقد كان يلذّ لي ان افعل ذلك ليلا واحيانا قبل الغروب، فقد كنت اقود سيارتي ثم اوقفها في اي مكان على الشاطئ يستميلني؛ أرقب غروب الشمس احيانا، او احدق بالظلمة احيانا اخرى، استمع إلى امواج البحر الصاخبة المتلاطمة، وأنا أرقب عن بُعد بعض الزوارق الصغيرة التي تتهادى فوق أمواج المحيط تحمل العشّاق وهم يتعانقون و يتناجون! وكنت افعل ذلك مرارا، وخصوصا كلما يستبد بي الشوق والحنين إلى الوطن وإلى من فيه من الاهل والأحبة!

كنت افعل ذلك احيانا عندما أريد ان ابتعد عن الناس واهرب منهم، وأريد ان اخلو إلى نفسي؛ او عندما اشعر بتأزم عاطفي وأريد ان ابكي على ضياعي وحيرتي! كنت افعل ذلك احيانا عندما أشعر بجفاف عاطفي وقحطٍ روحي، وانني قد ابتعدت عن الله كثيرا، و أنّ جداراً سميكاً قد أقيم بيني وبين الخالق، وانني أريد ان أذيب او اهدم هذا الجدار!

كنت أشعر بهذا أحياناً عندما اشتاق لوالدتي وأخواني وأخواتي، فاحس وكأنما أنا على وشك ان اختنق؛ فاذهب واتمدد على شاطئ المحيط واحدّق بنجوم السماء ليلا، حتى أشعر بأن هذا الشوق المضطرم المتاجج في نفسي قد تحول إلى سائل ينزل بعدها دموعٌ هتونة من عينيّ المتحجرتين والمحدقتين بالظلمة؛ ونسيم الليل البارد يصفع وجهي، ويوقظ فيّ احاسيسي وذكرياتي؛ ذكريات غابرة، وصوت الامواج يتكسر فوق الصخور، وهدير البحر يزمجر كالاسد الغاضب، فاجلس ساعات

طوالاً ودموعٌ ساخنةٌ تنزل فوق وجنتي فكانما هي جمر تحرقها، حتى احس انني تلاشيت مع النسيم وذبت مع الامواج، ثم اشعر بعدها وكأنما جسمي وكل كياني قد تحول إلى ذرات تحلق بالاثير فتثور عواطفي، وتغلي بقلبي كالبراكين لمدة طويلة، حتى تهدأ البراكين الثائرة في جوفي، وانني قد تحولت إلى حفنة من الرماد؛ تماما، كنارٍ غضبى تزمجر وتزمجر ثم بعد ان تبتلع كل شيء، تموت... ثم تذرُها الرياح في اركان المعمورة!

انني اكره الضوضاء واتجنب الشواطئ الممتلئة بالناس. لقد كنت آتي إلى هنا صيفاً وشتاء، لكي استمتع بجمال البحر! كنت أجيء لوحدي اول الامر، ثم احضرت سارة معي عدة مرات يوم كنا اصدقاء، ولما تعرفت على مارثا نقلت اليها هذه العدوى فأغرمت بطريقتي وصارت هي التي تقترح عليّ ذلك، في كثير من الاحيان ؛ أما شيلا وجيمس فقد استحسنا هوايتي وكانا لا يدعان مناسبة الا ويقترحان الحضور الى هنا !

لقد أخترت هذا المكان بسبب هدوءه وبعده عن الناس ، إذ كنت اشعر انني في عالم لوحدي، فقد كان هذا المكان محصوراً بين البحر والصخور.

* * * * *

الفصل الثاني عشر

–سيقيم مدير البنك الذي يعمل به جيمس حفلة "كوكتيل" راقصة الأسبوع القادم مساء الرابع من تموز بمناسبة عيد استقلال أميركا ، وقد دعانا جيمس وأنا لهذه الحفلة. قالت شيلا !

–لا تقلقي! سأجد ما أفعله أثناء غيابكما. سأستمع إلى الموسيقى... أو قد أواصل العمل على الرواية التي بدأت كتابتها الأسبوع الماضي.

–أرجوك لا تقاطعني... دعني أكمل... قالت شيلا بحزم؛ ثم أضافت:

-لقد استأذن جيمس من مضيفينا بأن نحضر معنا صديقاً عزيزاً علينا... !

فتحت فمي لأشكرها ولكنها سبقتني فقالت:

-وبما أنه من المفروض أو اللائق أن يكون المدعوون أزواجاً، فأرى أن تدعو واحدة من "حريمك" لترافقك ؟ قالت ذلك ورافقتها بابتسامة جذلى!

-أما إذا رفضن جميعهن مرافقتي، فهل أستطيع أن اذهب منفرداً؟! سألت.

-طبعاً! طبعاً! ولكن ذلك يكون مزعجاً لك، إذ عليك أن تنتظر حتى يتخلى جيمس عني، عندها سأقسم وقتي بينك وبينه.

-إذاً في هذه الحالة، لن أدعو واحدةً ! قلت مازحاً وكطفل يريد أن يري شقاوته لوالدته أو لأخته الكبرى! ثم أضفت:

-ما زلت سأرقص نصف الوقت معك؛ ماذا أريد من دنياي أكثر من أن أمضي بعض الوقت وأنا أعانق أختي الحبيبة، وأضمها إلى صدري، وأستمتع بعطر أنفاسها ودفء عواطفها !

-شكرا على الكلمات الحلوة ! قالت ذلك ثم أضافت:

-إذا كنت لا تشعر بالحرج من الانتظار حتى يتخلى جيمس عني فأنا موافقة.

-سأنتظرك إلى آخر عمري ما زلت أعرف بالنهاية أنني سأفوز منك برقصة! قلت بطريقة تمثيلية. وفجأة خطرت على بالي فكرة اقشعر بدني لذكرها فقلت والحزن يعصرني:

-أرجوكِ يا شيلا أن لا تعيدي على مسامعي مرة أخرى جملة "يتخلى جيمس عني" أمامي؛ فإنها تحرق دمي وتهز وجداني!

-ألهذه الدرجة تهمك سعادتي ويقلقك مستقبلي؟! سألت وقد أشرق وجهها وعلت شفتيها ابتسامة كزهرة أقحوان تفتحت للتو واللحظة!

-صدقيني؛ وأرجو أن لا تظني بأنني أبالغ ، إن قلت لك بأن سعادتك ومستقبلك يهماني بقدر ما تهمني سعادتي ومستقبلي، إن لم يكن أكثر...! أنا ما نظرت إليك إلا وفكرت بأختي الكبرى، أميرة، والتي كانت تحبني وترعاني مقدار ما كانت أمي تفعل! قلت.

-ما أسعدني بحبك يا سهيل!

-وما أسعدني أن أحب أختاً لي لم تلدها أمي! قلت.

-شكراً يا أخي! كلامك الجميل يجعل النساء يحببنك ويتهافتن عليك! قالت بفرح.

-ليت هذه هي الحقيقة يا شيلا، قلت وقد تبدلت نغمة صوتي إلى الحزن! حقاً أنهن يتهافتن علي أول الأمر، ثم بعد أن يكتشفن أنانيتي المفرطة، يبتعدن عني... بل يهربن مني...!

-أقول لك الحقيقة يا سهيل، إنك لست أنت الأناني ولكن هن الأنانيات! وهنا انفجرت أضحك وسألت:

-وكيف يكون ذلك؟! سألت.

-يجب أن لا تطالبك الواحدة منهن بأن تكون لها وحدها... على الأقل في أول الأمر... فإذا أحببتها حقاً ووجدت أنك لا تستطيع البعاد عنها، عندها تستطيع هي أن تطالبك بأن تكون لها وحدها...!

-وهل تعتقدين أنني سأكون يوماً لامرأة واحدة فقط؟! إن في قلبي شروخاً لا يمكن شفاؤها ومن الصعب علي جداً أن أحب امرأة واحدة، حبّاً رومانسيّاً! صدقيني!

-طبعاً! ستحب يوماً امرأة واحدة... وستكون لها وحدها... إن جوعك العاطفي الطويل وحرمانك الشديد المدمر، هما اللذان جعلاك على ما أنت عليه! ويوم يبرأ هذا الخرق الذي في قلبك، ستحب واحدة فقط وستمنحها كل عواطفك ومشاعرك، عندها ستكون سعيداً معها!

هززت أكتافي وقلبت شفتي ولم أعلق بشيء.

كان جيمس وشيلا لا يُدعيان إلى أي نشاط اجتماعي، إلا ويعملان كل ما بوسعهما لأن أرافقهما وأن أكون معهما؛ وكنت أنا الآخر أعمل كل ما بوسعي لأن يذهبا معي كل ما أكون مدعواً إلى أية مناسبة. كنا نذهب ثلاثتنا وإن تطلب الموقف أن يكون معي رفيقة فنكون أربعة؛ رجلين وامرأتين.

-وهل من المعقول أن لا تجد من بين جميع الفتيات اللواتي تعرفهن؛ وما أكثرهن... واحدة، ترافقك إلى الحفلة ؟!

–لقد استعرضت في مخيلتي جميع من أعرف، فوجدت، مثلا، أن سارة؛ دائماً نتشاجر معاً ؛ فهي متعصبة لصهيونيتها، تعتقد أنها واحدة من شعب الله المختار، وأن بقية شعوب العالم خلقهم الله ليكونوا خدماً لهم. إنها تعتقد اعتقاداً جازماً أن الفلسطينيين يجب أن يرحلوا إلى البلاد العربية المجاورة؛ ويتركوا كل فلسطين لليهود ! أما باتريشيا فهي غيورة جداً جداً، وتحرجني أمام الفتيات اللواتي أعرفهن! إن غيرتها تضايقني وتثير غضبي وتجعلني أحياناً أريد أن أهجم عليها لأطوي عنقها، لأنه إذا صادف ونظرت إلى واحدة غيرها أو كلمتها أو أبديت إعجابي بها أو حتى جاملتها، فإنها تثور وتفقد عقلها! فمرة شدت على خلف يدي أمام الناس ولم تتركني إلا والدم ينزف منها بسبب أظافرها الطويلة؛ ومرة أخرى ضربتني كفاً في حفل أمام جمع من الناس وتركتني وعادت إلى بيتها وحيدة! وهنا تمهلت قليلا ثم أضفت:

–أما أوديت فإنها مؤدبة جداً ولكن مشكلتها أنها إذا شعرت بأنك جرحت مشاعرها فهي تظل تبكي ولا تسكت حتى لو اجتمع عليها كل من في الحفل يرجونها أن تفعل. إنها لا تصغي إليهم ولا تسكت إلا عندما تشعر هي، بل وتقتنع بأنها يجب أن تفعل ذلك! إن المشكلة معها أنك لا تدرين متى تجرح شعورها، فقد تكون كلمة أو نظره فتعتقد هي أنك جرحت شعورها وآذيت إحساسها؛ لذلك أشعر دائماً وأنا معها أنني مقيد وأنني قلق وأنني خائف، إذ لا أعرف متى تبدأ البكاء!

–وماذا عن الفتاة التي أحضرتها معك مرة لبيتنا وقلت بأنها وصلت لتوها من إيطاليا؟!

–عندما رأت عدم اهتمامي الشديد بها، وأنني أعرف الكثيرات غيرها، التقت بواحد من القادمين من بلدها، إيطاليا، وأراهما دائماً معاً!

–إذن لم يبق إلا مارثا ؟! وفجأة تغيرت لهجتها وعلى وجهها شيء من الصرامة والقسوة.

–سهيل! آسف أن أكون شديدة معك بل وقحة ! وبعد أن مرت بلسانها فوق شفتيها أضافت:

–أنت تقول هذا كنوع من المباهاة والفخر والتبجح أيضا، إذ أنك لا تعني ما تقول؛ وأنا أعرف أنك لا تعني ما تقول... إنك تقول بأنك لا تستحق مارثا... وأنا أقول لك صادقة ومن صميم قلبي؛ إنك حقيقة لا تستحقها؛ لأنها نوع نادر جداً جداً من النساء... فلو كان لي أخ أو صديق عزيز علي، لما وجدت له خيراً منها، ليحبها وليقضي بقية عمره معها! وبعد أن استراحت قليلا وخفت حدة غضبها أردفت:

–إنني أعجب من رجل عنده فتاة كمارثا، لها جميع الصفات التي قد لا تتوفر في عشرين فتاة مجتمعة، وتفكر بغيرها؟! ما هذا؟! أفق من سباتك يا أخي قبل أن تستيقظ يوماً وتفيق من أحلامك، ولا تجدها حولك؛ فتندم وتبكي الليالي الطوال الطوال!!

–ولكن مشكلتها هي أنها لا تشرب الكحول؛ وفي حفلة مثل هذه تشعر بأنك غريب عن المكان إذا لم تشرب كما يفعل الآخرون!

–ومن قال لك ذلك؟! إن مارثا لا تجعلك أبداً تشعر بأنها لا تشرب حتى عندما يكون جميع المتواجدين يشربون! هي تأخذ كأسا وتتظاهر بأنها تشرب، حتى لا تجرح شعورك وشعور الموجودين معك؛ وفي النهاية تتخلص من كأسها بطريقة لا يشعر بها أحدٌ... ثم إن هناك قضية مهمة جداً نسيتها، وهي أننا عندما نكون جميعاً سكارى فنحن بحاجة إلى إنسان صاح يقود سيارتنا ويوصلنا إلى بيوتنا! وصمتت شيلا فترة طويلة ثم رأيت أن عينيها قد اغرورقتا بالدموع.

–بالمناسبة ! لقد نسيت أن أقول لك بأن والدي مارثا وأخاها وزوجته قد دعوني إلى حفلة سيقيمونها في بيتهم بهذه المناسبة؛ ولكنني اعتذرت بحجة أنني أريد أن أقضي المناسبة معك أنت وجيمس. لقد أعلموني بأنهم سيكونون سعداء أن أدعوكما أنت وجيمس، ويتمنون كثيراً أن تقبلوا دعوتهم ليتعرفوا عليكما، ولكنني أمهلتهم حتى أستشيركما ! قلت ذلك وبلعت ريقي ثم أضفت:

–نشكر الله بدعوة مدير البنك لنا نحن الثلاثة فقد أزالت الحرج عني!

–إذا كنت تفضل الذهاب إلى الحفلة التي تقيمها عائلة مارثا فأرجوك أن تفعل. قالت شيلا.

–أنت تعرفين أنني لا أستبدل صحبتكما أنت وجيمس إلا بصحبة والدتي وأخي وأخواتي!

–أنا واثقة من ذلك! قالت بصوت حزين؛ وبعد أن تمهلت قليلا أردفت تقول:

–هل تعتقد يا سهيل أن ما نفعله نحن من شرب للخمر، أنت وجيمس وأنا هو الصحيح!! لقد قلت لنا يوماًبأنك لم تذق الخمر في حياتك قبل مغادرتك الوطن وحضورك إلى أمريكا؛ وقلت لنا أيضا بأنك أمضيت أسبوعا كاملا وأنت تبكي لأنك رأيت أخاك في حالة سكر شديد؛ فلم لا تسألني لماذا أنا وجيمس نشرب حتى نفقد وعينا، مع أننا لم نذق الخمر في حياتنا كلها إلا بعد أن أتينا إلى كاليفورنيا، قبل ثلاث سنوات؟! وهل

تعتقد أن جميع الذين يعاقرون الخمر ويشربونها بغير وعي، لأنهم سعداء؟! إنك مخطئ جداً إن كنت تعتقد هذا! إن معظم الذين يشربون الخمر، يفعلون ذلك لأنهم يريدون أن ينسوا مشاكلهم ويتخلصوا من همومهم! قالت ذلك وتوقفت قليلا وكأنما لتفكر:

-يجب أن تشكر الله أن مارثا لا مشاكل عندها، وأنها فتاة كاملة بكل ما تحوي هذه الكلمة من معاني؛ حتى تداوي مشاكلها بشرب الخمر! اشكر الله أن مارثا فتاة واضحة كالشمس... صريحة كالحقيقة... طاهرة كالفضيلة... نقية كالغمامة... لا عقد عندها! إن الذي سيتزوج مارثا سيكون إنساناً محظوظاً وسعيداً؛ هذا إذا ارتفع إلى مستوى عقلها وعواطفها وثقافتها! صدقني أنهن قليلات جداً الفتيات في أمريكا، بل أقول في العالم كله، من هن على شاكلة مارثا في النضوج الفكري والثقافة الرائعة والجمال المتميز! ثم إنك قد ذكرت لنا أنا وجيمس، بأن أحدهم ذكر لك بأنها فتاة غنية جداً جداً، وأن والديها يملكان أموالا وعقارات ضخمة؛ فماذا يريد إنسانٌ، أي إنسان، من امرأة يتزوجها أكثر مما هو متوفر في مارثا؟! أفق يا أخي! أرجوك... أرجوك! قالت ذلك ثم انخرطت في بكاء عميق عميق.

* * * * *

كان البيت الذي دُعينا إليه يقع على إحدى التلال المرتفعة بمدينة سانتا مونيكا، في أجمل المناطق وأغناها، وكنتَ وأنت تقف أمام البيت ليلا تتراءى لك السهول الواسعة والتلال المتناثرة، بأضوائها المتلألئة الوهاجة، كأنما أنت غارق في بحر لجيّ من النور والنار معا!

كانت المدن الساحلية على امتداد شاطئ المحيط الأطلنطي تبدو وكأنها تجمعات حسناوات، وتحشدات حوريات يرقصن احتفالا لدخول جيوش الصالحين و المؤمنين جنات الخلد و رياض النعيم الأبدية التي وعدهم الخالق بها...!

إنك ما تكاد تدخل أول الشارع، وتبدأ السيارة بالصعود التدريجي حتى تحس وكأنما بدأت تصعد إلى السموات العلى، فيوحي لك المكان بأنك يجب أن تخشع احتراما للخالق، لما تتمتع به هذه المنطقة الغنية، من سحر وجمال، ولكثرة ما بها من شتى أنواع الزهور المتواجدة بعضها في أحواض منسقة تنسيقا يعجز اللسان عن وصفها، ويضعف العقل أمام تصورها! تلك الأشجار الغريبة العجيبة في صفوفها وفي ترتيبها، وكأنها مجموعة من الحسان ينتظرن قدومك وليحدثنك حديث العشق والغرام،

وليعلمنك بأنهن سيقضين أعمارهن معك وتحت تصرفك...!إن الناظر إلى تلك الأشجار والأزهار يشعر للوهلة الأولى وكأنما دخل حديقة من حدائق الجنة التي وعد الله بها عباده الصالحين !

قرع جيمس جرس الباب الخارجي وخرجت لنا المضيفة تتهادى كأنها عروس في ليلة جلوتها! رحبت بنا بحرارة وابتسامة ساحرة جذابة تغطي وجهها ورحبت بنا بحرارة و كأنما نحن أحباب لها وأقارب.كان يسير خلفها زوجها و كان هو الآخر تعلو شفتيه ابتسامةً مضيئة، و لا تقل سعادته و ابتهاجه بنا عن فرحة زوجته و ترحيبها بنا!

كان مضيفانا السيد والسيدة ساندرا و كلايتون "تاونزمن" في أواخر العقد السادس من عمريهما، كما عرفت من شيلا مسبقا، ولكنك عندما تنظر إليهما تظنهما في أواخر العقد الرابع منه؛ حيث كانا يتمتعان بحيوية ورشاقة ونضارة لم أشعر بمثلها في حياتي، من بمثل سنيهما! لقد كانا كلاهما، على حظ عظيم من الوسامة والجمال والبهجة والجاذبية! لقد كنت وأنت تنظر إلى السيدة "تاونزمان" وترى صدرها الأتلع، وعنقها الطويل وشفتيها اللتين تضجان شهوة وشبقا، و عينيها الساحرتين و اللتين تذبّلهما و هي تنظر إليك و كأنما تأمرك أن تسبّح الخالق لجمالها! عندها تتمنى لو تستطيع أن تطبق عليهما وتمضي بعض الوقت منفردا بها، تروي ظمأك وتشبع جوعك من جسمها المتوقد؛ وأنك تشعر وأنت تصافحها بأنك تلمس بيديك صفاء روحها وعمق مشاعرها ورقة أحاسيسها !

لا شك أنها تدللت كثيرا على الكثيرين من عشاقها و محبيها، و لا شك أنها لوّعت قلوب قسماً كبيراً منهم !

كانت مساحة الأرض التي بني عليها البيت والذي تقام به الحفلة، قد تزيد عن الفدانين؛ وكان يوجد سور عالٍ حول البيت والحديقة و بركة السباحة، وكانت الزهور في الحديقة مرتبة بطريقة تذهل الناظر إليها! لقد لاحظت أنه على الطرف البعيد للحديقة يوجد مجموعة من الأشجار والشجيرات التي لم أستطع أن أميز نوعها، إذ أنها كانت في غاية الروعة والجمال والتنسيق!

استقبلنا السيد والسيدة " تاونزمن" في منتصف الطريق بين البوابة الخارجية وباب "الفيلا" عند أول بركة السباحة. لقد لاحظت أنهما يعرفان

جيمس جيداً، إذ خاطباه باسمه الأول دون كلفة ولا مجاملات؛ ولكنهما يقابلان زوجته، شيلا، لأول مرة. لقد سمعتهما يقولان بأنهما سمعا عنها الشيء الكثير، ولكنهما لم يحدث أن حصل لهما شرف لقائها! عندما قدم جيمس لهما مارثا سألت المضيفة إن كانت مارثا تعرف أو تقرب بأي شكل من الأشكال للسيدة نديدا والسيد إدوارد كارلنقتون؟!

–أنا ابنتهما! أجابت مارثا بهمس متواضع وخجل شديد!

–وكيف صحة والدتك؟ أنا لم أرها منذ خمسة أعوام! ولما أعلمتها مارثا بأن أمها بخير أضافت المرأة:

–لقد كنا ندرس الطب في جامعة وسط كاليفورنيا " استانفورد" سوية وتخرجنا معاً، وبقينا صديقتين على اتصال مستمر حتى تزوجت كل منا وباعدت بيننا الأيام! لقد تقابلنا آخر مرة صدفة في حفلة رأس السنة في بيت صديقة لكلينا قبل ثلاث سنوات. وبعد أن سكتت المرأة أضافت:

–ما أصغر العالم! لو كنت أعرف مسبقاً لكنت دعوت والديك الليلة إلى هنا، ولقد تكون حقا فرحة كاملة!

–إنهما يقيمان الليلة حفلة مثل هذه. قالت مارثا بتواضع خجل وبصوت منخفض كأنه الهمس!

–كم لطيف منك أن تأتي إلى حفلتنا ولا تبقي بين أهلك وأحبابك!

"قولي لها يا سيدتي؛ كم هو رائع وكم هي عظيمة أن تترك حفلة أهلها وأحبائها لتأتي إرضاءً لهذا البدوي المتشرد، الذي يرفض حتى أن تكون حبيبة له! قولي كذلك لوالديها بأن ابنتكم تلجم أساتذتها ببلاغة منطقها وقوة حجتها! وما أكثر ما ألجمت هذا العبد الذي يقف أمامك! هذا البدوي الذي قطع الصحراء وقد حرقه هجيرها، ومزقته قسوتها... قطعها حافيا؛ يترفع على بنت العلم والحضارة والجاه والمال؛ لأنه أتى من مجتمع عفن، يعتقد بأن المرأة التي يجب أن يتزوجها لا بد وأن تكون عذراء، هذا وحتى إن كانت كومة من القبح والقذارة؛ ومجموعة من الجهل والتخلف... إنه يرفض أن تكون مارثا حبيبة له؛ لأن رجلاً سبقه إلى جسدها؛ وإن كان هو الأول إلى روحها وقلبها وعواطفها! قولي لها يا سيدتي أن هذا الإنسان الواقف أمامك، والذي هو أنا، قد أتى من مجتمع الزيف والقشور والضحالة! إنه إنسان معقد مثل مجتمعه لا تحل عقده إلا ليقع في عشرات العقد من جديد!"

-انه ليسعدني ويشرفني يا سيدتي أن أكون ضيفة في بيتكم! قالت مارثا.

وهنا التفتت المضيفة إليّ وقالت:

-يظهر أنك يا بني تحب الفتيات الغنيات بالإضافة إلى جمالهن وعقلهن!

-عفواً يا سيدتي! نحن جماعة مستوري الحال، عندنا فقط ما نحتاج إليه. قالت مارثا بخجل و تواضع زائدين!

-تواضع العلماء! قلت وأنا ابتسم.

لعلنا كنا أول المدعوين الذين يصلون إلى المنـزل، فقد فهمت فيما بعد أن موعد الدعوة كانت التاسعة بينما ظن صديقي جيمس أنها الساعة الثامنة والنصف. لقد شكرت بيني وبين نفسي غلطة صديقي إذ إن ذلك أعطانا بعض الوقت للتعرف عن أشياء كثيرة؛ حيث كان هناك متسع من الوقت لمضيفتنا أن تتحدث معنا طويلا وبإسهاب، قبل أن تنشغل عنا بضيوف آخرين، بالإضافة إلى أنني عرفت الشيء الكثير عن الفتاة التي برفقتي والتي كانت دائما تخفيها عني تواضعا واحتراما لي!

-زوجتك جميلة و ناعمة جداً يا جيمس...! لم أكن أتصورها بكل هذا الجمال! أشعر بحزن شديد أنني لم أقابلها من قبل! قالت المضيفة بحنان زائد وابتسامة كبيرة تغطي وجهها، وبعد أن شكرها جيمس لهذا الإطراء المسهب والجميل استطردت:

-إن جيمس شاب عظيم يا شيلا... زوجي وأنا نحبه كثيرا! إن زوجي يثق به ثقة مطلقة ويؤمنه على أدق أسرارنا... وكذلك أسرار البنك! لقد حدثني طويلا عن حبكما لبعض واحترام أحدكما لمشاعر الآخر وأحاسيسه وتفكيره؛ وانك عنده أغلى من كل ما في الوجود...! إنك كل شيء في حياته! لا شكّ أنك محظوظة و تستحقين كل هذا الحب و الاحترام!

- إنه هو يحبكما ويحترمكما كثيراً ويعتبركما والدين آخرين له! قالت شيلا.

شكرها الزوج وأغمض عينيه خجلا وهو ينظر إلى حذائه. بعدها التفتت المضيفة إلي وسألت:

- ومن هذا الشاب الوسيم؟! أنا لم أر في حياتي من هو أجمل منه ولا أكثر أناقة وتألقا إلا في السينما، فهل هو أرمني أم إيراني؟!

ابتسمت شيلا وكذلك فعل جيمس ولم يقولا شيئا، وإنما نظر إلى مارثا التي قالت بحماس وابتسامة جذلى تغطي وجهها:

- إنه عربي من الأردن ، اسمه سهيل دهشان. إنه بروفيسور متميز في جامعة كاليفورنيا UCLA! إنه صديقي! قالت ذلك ولفت يدها حول خصري ثم نظرت إلى وجهي وابتسمت قائلة:

- أنا أحبه كثيرا؛ وأظن أنه يبادلني نفس المشاعر!

لاحظت أن مارثا قالت جملتها الأخيرة بحماس يقل كثيرا عن جملتها الأولى!

-هذا رائع! قالت المرأة وهي تنقل طرفها بين أجزاء جسمي، وتنظر إليّ من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل، وهي تتأملني وكأنما هي تريد أن تقيّمني وترى إن كنت أصلح بأن أكون صديقا أو زوجا منتظرا لابنة صديقتها.

كنت طيلة الوقت وأنا أرقب مضيفنا، السيد تاونزمن، الزوج الذي حاول مرارا، منذ أول وصولنا أن يفتح فمه ليقول شيئا، ولكن زوجته، سامحها الله، لم تعطه الفرصة ليفتح فمه، إذ ما تكاد تنتهي من جملة حتى تتبعها بأخرى، فقد تحول إلى سامع أكثر منه مشاركا! حقاًّ إنه مدير عظيم، لا شك أن له نفوذاً كبيراً في بنكه يصول ويجول بين موظفيه، يأمر فيطاع، يتكلم فيصمت الآخرون؛ ولكنه لا شيء، أقل من لا شيء، في بيته وأمام زوجته ذات الشخصية القوية !

كان يقف إلى جانب مضيفنا سيدة مربوعة الجسم قصيرة القامة ترتدي مريولا أبيض، لعلها في الأربعين من عمرها، عرفت فيما بعد أنها تساعد مضيفينا على استقبال و إجلاس المدعوين وإيجاد أماكن جلوس لهم؛ كما وأنها تقوم بتقديم الشراب لهم، حتى يتفرغ الزوجان لاستقبال القادمين الجدد.

قادتنا هذه السيدة وأرتنا البار حيث سألنا الجرسون عما نشرب... السيدات أولا ثم الرجال بعد ذلك. لقد طلب ثلاثتنا "ويسكي مزدوج بالثلج"، أما مارثا فقد طلبت كأسا من السفن أب والذي يوضع عادة مع الويسكي.

كان البيت يتألف من طابقين، الأعلى للنوم، والأسفل للخدمات، وكانت القاعة تبدأ من أول البيت وتنتهي بآخره. كانت مملوءة بالمقاعد الفاخرة ورفوف الكتب والتحف على الجانبين، وكانت أرض القاعة مصنوعة من الخشب البني الجميل والمصقول، ولكنه غير مغطى بأي نوع من السجاد، إذ لعله أعد هكذا لأن منظره يزيد البيت جمالا، وكذلك ليناسب الراقصين! أما الموسيقيون فقد أقيمت لهم منصة أمام البيت بجانب بركة السباحة.

ما كادت الساعة تدق التاسعة والنصف حتى صار البيت كأنه خلية من النحل تعج بالحاضرين... بعضهم يجلسون حول بركة السباحة وبعضهم متكأكؤون حول البار، يشربون بغير وعي ولا تفكير وبدون حسيب ولا رقيب... كانوا يشربون بشراهة وكأنهم أسماك البحر! أما البعض الآخر فكانوا يجلسون أمام وخلف البيت وكؤوسهم مترعة، يتحدثون ويتأملون الأزهار والورود؛ لا شك بإعجاب ووله ! كانوا جميعهم أزواجاً، ذكر و أنثى، و لا يوجد واحد بمفرده!

إن الذي أثار إعجابي، كرجل شرقي جاء من بلد التابوهات، والحرام والحلال، والعيب، وهذا يجوز وهذا لا يجوز، فقد لاحظت أن كل زوج وزوجة يتعانقان ويتناجيان سواء كانوا بالقاعة أم بين الأشجار أو عند السور! كانوا يتعانقون ويتناجون ويقبلون بعضهم بعضاً قبلات تمهّل و عناق طويل؛ دون حياء من أحد ولا خوف من عذول ولا حسود ولا رقيب...!

حقاً ! إنك هنا، في بلد الحريات... بلد الإخاء والمساواة... تستمتع بحياتك، وتطلق العنان لمشاعرك وأحاسيسك وعواطفك، وإلى أبعد الحدود؛ دون أن ينتقد أحد تصرفاتك ودون أن تخشى لومة لائم... ودون أن يكون هناك من يحصي عليك أنفاسك ويقول لك هذا لا يجوز... وهذا منتقد وهذا عيب وهذا حرام وهذا حلال...! اللعنة! اللعنة! إننا نعيش في الوطن عبيداً للعادات والتقاليد البالية لنرضي من حولنا وليس لنسعد أنفسنا ! إننا نعمل ما يرضي الآخرين وليس ما يرضينا! صدقاً! لقد شعرت بالتقزز و الاشمئزاز من نفسي و المجتمع الذي أتيت منه !

كان هناك ثلاث فتيات وشاب، يرتدون مراييل بيضاء ويحملون صواني تغطيها مختلف الأنواع من المشروبات الروحية يقدمونها للموجودين. غير أنني لاحظت أن بعض المدعوين لا يأخذون مما يقدم إليهم بل يطلبون

نوعا من المشروبات بمواصفات هم يريدونها فيمهلونهم و يذهبوا فيحضروا لهم ما طلبوا !

كان عدد المدعوين حوالي المائة زوج ومن جميع الأعمار، لا شك أنهم مزيج من موظفي البنك وأصدقاء وأقارب المضيفين؛ ولقد شكرت الله أنني دعوت مارثا ولم آت بمفردي، لأنني لاحظت أن جميع الحضور كانوا أزواجا ولم يكن هناك إنسان بمفرده، ولكنت سببت إحراجا لصديقيّ الاثنين ولنفسي أيضا !

إن هذه هي أول مرة في حياتي، أحضر بها حفلة مترفة كهذه، تفتح بها قوارير الويسكي و الشمبانيا و غيرهما الكثير الكثير ، و كأنها قوارير ماء؛ في بيت خاص فيه هذا العدد الضخم من الناس ويتمتع بكل هذا الترف والأبهة !

كان الموسيقيون بادئ ذي بدء يعزفون قطعا موسيقية خفيفة... مرحة... والناس يشربون ويتزاورون؛ وفجأة بدأت الموسيقى تعزف رقصة "الفالس" ورأيت أكثر من نصف الموجودين يهبون فجأة وكأنما ركبتهم عفاريت، فدخلوا حلبة الرقص وصار كل واحد منهم يعانق صنوه ويضع خديه على خديه ويبدؤون الرقص.

كان قسم منهم يرقص أمام الباحة حيث تتواجد الفرقة الموسيقية، وقسم آخر يرقص في قاعة البيت الواسعة، وكان هناك أعداد متناثرة يرقصون قرب الطاولات التي كانوا يجلسون عليها، ولا يزعجون أنفسهم مشقة التنقل من طاولاتهم إلى حيث القاعة. أما مارثا و أنا، فقد كنّا نرقص مع مجموعة كبيرة من الراقصين أمام الموسيقيين و المغنيين !

بدأ المغني، وكان شابا في العشرينات من عمره، يغني أغنية عاطفية مذهلة ، تصف تدله الحبيب بحبيبته أسمعها لأول مرة في حياتي. كان الفتى وكأنما كان يبكي من أعماق قلبه. لقد لاحظت أنه كان منفعلا بدرجة أنني فكرت طبقا لعقلية الجاهلية القبلية ، أن أتقدم منه وأقول له "هوّن عليك يا أخي فالحياة ليست سيئة لهذه الدرجة"، ولكنني خفت أن تكون مواساتي له بمثابة تشجيع على البكاء !

لقد لاحظت أن شيلا قد دفنت رأسها في صدر زوجها ، وشعرت أنها قد تلاشت به وهو يحتضنها بين ذراعيه، بحنان وحب زائدين، وكأنما كان يريد أن يحميها من عدو شرس يهم بأخذها منه !

لقد حاولت عامداً، ولمدة طويلة، أن أرى وجه شيلا، ولكنها، ولعلها عن عمد، كانت تخفي وجهها في جاكيت زوجها! لقد كنت أريد أن أرى تعابير وجهها وهي تستمع إلى هذا الشاب المغني والذي كان يبكي مع كلمات الأغنية، ولكن عبثا حاولت ، فقد كان وجهها مخبأً في صدر زوجها! لقد تأكد لي مما لا يترك مجالا للشك بأنها كانت تبكي !

شعرت فجأة أن قميصي كان مبتلاً، وان الدموع قد لامست صدري، فتبين لي أن مارثا كانت وهي ملتصقة بي تردد الأغنية مع المغني وأنها كانت منفعلة وكانت هي الأخرى تبكي، مما أغرق قميصي بدموعها على الرغم من محاولتها الشديدة بأن لا تجعلني أحس بذلك ! العنة ! اللعنة ! اللعنة !لقد تساءلت بيني وبين نفسي، هل أتينا إلى هذه الحفلة لنشرب ونعربد ونفرح، أم أننا أتينا لننوح ونبكي ونحزن...؟!

ما كاد المغني ينهي أغنيته حتى افترقت أجسام بعض الراقصين من الالتصاق ببعضها البعض؛ وكان هناك آخرون ما زالوا يدفنون وجوههم بصدور من يراقصونهم !

بدأت قطعة موسيقى "فالس" جديدة! هنا جلس بعض الراقصين ونهض بعض الجالسين.كانت شيلا ما زالت نائمة على صدر زوجها وما زالت تدفن وجهها في صدره، وكذلك فعلت مارثا حيث أنها لم تنزع وجهها من صدري، ولم تبعد جسمها الملتصق بجسمي ! شكرت الجوقة الموسيقية لهذه الأغنية، حيث إنني شعرت عندما انتصفت الأغنية بأنني بدأت التحم بها واندمج مع انسياب الموسيقى! لعل سبب انفعالي المتأخر هو أنني أسمع الأغنية لأول مرة فلم أتأثر بها منذ البداية، ولكنني شعرت بوقعها العاطفي عليّ بعد منتصفها !

بدأت عواطفي تتحرك قليلاً قليلاً... ثم ارتفعت... ثم بدأت تغلي... وكنت كلما حركت قدمي خطوة كلما اشتدت عواطفي وكلما ازدادت اشتعالا، وكأنما هي نار أصب عليها زيتاً وأزيدها حطباً ! لعل قميصي المبلل بدمع مارثا والذي شعرت أنه كوى جلدي، ثم تسلل وكوى قلبي أيضاً ! لقد جعلني قطعة نار ملتهبة من العواطف المحرقة، فاعتراني حزن ماحق على مارثا التي تضيع أيامها، وتبدد حياتها، وهي تعمل على كل ما يرضيني ويسعدني، وأنا بعقليتي القبلية وأنانيتي المفرطة دون حتى أن أشكرها أو أريها شيئاً من الامتنان والتسامح...!

اللعنة لهذا الشرق اللعين الذي ولدت به و أتيت منه...! إنه وبقدر ما ألهب عواطفي وصقل أحاسيسي وأيقظ وجداني، فإنه ثقفني بثقافة القبيلة، ثقافة العقلية المتحجرة والأفكار العفنة ! أنا رجل شرقي ولدت من رحم الصحراء وقاسيت هجيرها، وتطبعت بطباعها، فتعلمت قوانين العشيرة وآمنت بمبادئها ومثلها العليا...! أنا لا يمكن أن أنسى أن رجلا يوما ما، قد سبقني إلى جسد مارثا... أنا لا يمكن ولا أستطيع أن أسامحها... أن أغفر لها... أن أعفو عنها... إن الله يقبل مسامحة الخاطئين ويعفو عن النادمين... إن عقليتي المتحجرة و المتصخّرة، لا تقبل من مارثا أن تكون لي الصديقة الوحيدة، على الرغم من كل ما فيها من فضائل وحسنات... إني أعتبر مارثا رقما فقط في حاسوب قلبي، قلبي المملوء خروقا و دمامل و عفن وتقيح ؛ قلبي الذي لا يغفر و لا يرحم !

إن عقليتي العربية المتعفنة... عقلية القبيلة... عقلية الجهل والتجهيل... عقلية مزابل وادي الريح؛ تقبل مني أن أتزوج من امرأة جاهلة... سطحية... تافهة... عامية... لا تميّز بين الألف و العصا... غبية بلهاء... مثال القبح والبشاعة، ولكنها عذراء لم يمسسها فحل؛ ما زالت محتفظة بنقطتين الدم في فرجها؛ وأقبل أن تكون أما لأولادي تربيهم على الجهل والجهالة، و تعلمهم السفه و الابتذال؛ ولكنني أرفض رفضاً قاطعاً أن تكون مارثا، الفتاة التي تملك عقلا وفكراً أكثر مما تملكه ملايين الكثيرات من غيرها؛ وذات الجمال الذي لا يتواجد بفتاة مثلها، إلا باثنتين؛ سميحة و زيْنة !

أنتِ بطلة يا مارثا ... أنتِ عملاقة ... أنتِ قدّيسة ... أنتِ جان دارك الغرب .... أنتِ جميلة بوحريد العرب ...!

- أتبكين يا مارثا ؟! إن النساء من أمثالك لا يبكين! لقد أوقعك الله بحب رجل أفّاق ومعقد مثلي! قلت ودموعي تكسر صوتي، و الحزن يحرق النخاع في عظامي !

- اسكت! أرجوك! إنك تفسد جو الأغنية وتشوش خطوات الرقص! قالت بصوت همسٍ حزين، دون أن ترفع وجهها من على صدري؛ ثم أضافت:

-ومن قال لك أنني أبكي؟!

- ما أعظمك يا مارثا ، إنك دائما عملاقة... شامخة ! إنك ترفضين أن تبدي ضعيفة وأنك دائما قوية؛ فقد بللت دموعك قميصي! قلت.

- لا بأس! إذن، دعنا نبكي سوية ! إن في البكاء لذة لا يعرفها إلا من ابتلاه الله بعاطفة رقيقة ! إنك أنت الآخر تبكي مثلي، فإن دموعك قد بللت شعر رأسي ! قالت.

- حتى وأنت تتألمين يا مارثا وتتعذبين وتبكين... وأنت تبكين بصمت وصبر وكبرياء ! لقد أوقعك الله في حب أفّاق متشرد مثلي، معقد... ملعون... مسحوق يحمل صلبانه ولعناته وقدره وعقده وانسحاقه وفقره وآثامه، ويتنقل من مسغبة إلى متربة، ومن هاوية إلى مسحقة... ! إبكي يا مارثا واذرفي الدموع، ولكن بينك وبين نفسك؛ فإياك إياك أن تجعلي أحداً يراك حتى لا يشمت الناس بكبريائك.. بشموخك... بعظمتك... وحتى لا يفرحوا بفشلك...!

- عندما تلف ذراعيك حول خصري، فإن كل ذرة من كياني تهتز وترتجف...! وعندما تنظر عيناك في عيني وتضمني بهما لتقرأ عواطفي ولتظهر حبي وحنيني الدائم لذراعيك... فإنني أحلق بين الغيوم وأذوب مع ذرات الأثير...! إنك عندما تهصر بجسمك عودي الرقيق الأهيف، فإنني أذوب وأتلاشى في صدرك وبين حناياي ضلوعك... لأعود ثانية إلى ضلعك... ولأولد في هذا الكون من جديد، كما ولدت أمنا حواء من ضلع أبينا آدم ! قالت ذلك مارثا وانفجرت تبكي بهستيريا ، حتى إن جميع من كان حولنا قد لاحظوها.

- ألا لعنة الله على الويسكي؛ فإنه يزيد العواطف التهاباً! قلت وأنا أنهنه.

- أرجوك اصمت حتى لا تفسد جمال وروعة ورومانسية الأغنية، وتحد من تدفق العواطف والصور الجميلة ! قالت مارثا، بصوت حزين و متقطّع !

ان لواعج الشهوة ونهم الجوع الصارخ المدمر تستبد بي وتجعل الدم يغلي في عروقي فاصبح كالثور الجريح، وتستولي علي هستريا مسعورة ! أريد ان اطارحك الغرام في قاعة الرقص؛ اتخيلك وجسدك يهتز ويرقص امامي برقصات رشيقة مسرعة؛ لااستطيع اللحاق بها او مجارتها. و وبودي لحظتها ان اهجم عليك...احتضنك كالمجنون لتواصلين الرقص، انا

وانت فقط، لم يكن لحظتها رقصاً بل كان جريًا...كان تثنيا... كان اغراء... كان منادة جنسية مسعورة !

ان في داخلي بارودا، ان لم افجره بك، في داخلك، فسأنفجر معه الآن ... اذا لم تطفئ الفتيل انفجرت القنبلة، انا لااصدق ابدا انه يوجد في زماننا هذا امرأة تتوفر بها كل هذه الصفات والمقدرات الخارقة، كما تتوفر بك أنت يامارثا !

لقد كانت الأغنية الجديدة أكثر تعبيراً وصدقاً، وكلماتها أكثر عنفاً وشدةً من سابقتها؛ كما وأنني أسمعها هي الأخرى لأول مرة ! لقد لاحظت الانفعالات على وجوه الراقصين والراقصات، وقد ازدادت وكثرت وجوه المتأثرين بها؛ فقد كانت مارثا تغني أيضا مع المغنين كلمات الأغنية ! كنت أسمع صوتها ولم أرَ وجهها المختبئ في صدري !

لاحظت تغييرات متتالية في ملامح وجه صديقي جيمس! لقد كانت موجة من الألم الشديد تغطي وجهه فأحسست أنه هو الآخر يعاني من حزن مريع؛ فقد رأيت اصفرار وجهه واحمرار عينيه، كما ورأيت أن شفتيه تتحركان بين الفينة والأخرى، تقولان كلمات هي ليست من كلمات الأغنية وإن كنت لا أستطيع أن أميزها... لعله كان يقول شيئاً لزوجته؛ فتساءلت بدوري هل كانت شيلا هي الأخرى تبكي على صدره متأثرة بكلمات الأغنية كما كانت مارثا تفعل على صدري؟! استبعدت الفكرة، فجيمس زوج شيلا وهي مطمئنة لحبه، واثقة من بقاءه معها، وتعرف أنه متيم بحبها منذ زمن بعيد، وليس عندها ما يقلقها؛ وإن تأثرها هو فقط بسبب رومانسية الأغنية وتدفق العواطف؛ وليس للحرمان من تحقيق الذات... ! أما مارثا... فهي تحب رجلا غير واثقة من حبه لها... تعرف أن بينه وبينها جداراً صفيقاً من معتقدات العصر الحجري؛ و كذلك من العادات والتقاليد البالية؛ و التفكير العقيم والسقيم !!

كانت مارثا تغني لي كلمات الأغنية بصوت حنون ناعم، وكان جزء من رأسها نائماً فوق كتفي؛ ولا شك أنها كانت تشعر مثلي بألم ساحق؛ وتفكر بالأيام التي تبددها بدون هدف، وعن حياتها التي تبعزقها دون أن تجني ثمرة لها، مع شخص أفّاق مثلي متشرد لا يمكن أن تكون في يوم من الأيام الفتاة الوحيدة في حياته كما أخبرتها، وأنه لا يمكن أن يقترن بها لأنني أطلب من التي أتزوجها أن تكون الوحيدة في حياتي، وأن أكون الرجل الوحيد في حياتها، ومارثا قد سقطت في الامتحان وإن تكن تعلله

بأن الشاب سطى على جسمها و اغتصبه يوماً، لم تكن تحبه، و إن ما كان فعله رغما عنها و بغير إرادتها؛ ولكن كيف تقنع هذا البدوي المكبل بأغلال العادات والتقاليد البالية ؟!!

توقفنا عن الرقص وطلبتُ إلى مارثا أن نتوجه إلى البار، إذ شعرت فجأة بأن بي عطشاً شديداً، فطلبت لها كأسا من المرطبات، وطلبت لنفسي كأسا من الويسكي المزدوج، وحالما وضعته النادلة أمامي خطفته وأفرغته في جوفي، ثم طلبت كأسا آخر مثله شربت نصفه دفعة واحدة وأبقيت الكأس في يدي !

شعرت فجأة بضيق في التنفس، وبأنني أكاد أن أختنق حزناً على صديقي الاثنين، شيلا وجيمس، وكذلك على الفتاة التي ألقى بها القدر و حظها العاثر في طريقي...! ومما زاد في اختناقي أن القاعة كانت مزدحمة بالناس جداً، وكانت رائحة الأجسام والدخان والعطور والخمور، وكذلك حرارة الأنفاس تجعل المكان شيئاً لا يطاق!

استأذنت من مارثا وخرجت من الباب الزجاجي الخلفي، والمؤدي إلى الحديقة، لاستنشق بعض الهواء النقي! إنني حتى هذه اللحظة، لا أدري لماذا لم أطلب إليها أن ترافقني، وإنما طلبت إليها أن تبقى لوحدها وأن أخرج أنا بدونها ؟! لا شك أنه القدر الذي يرسم خطانا !

لفحت نسمات ليلة الصيف العليلة و جهي وتلاعبت بخصلات شعري، فوصلت إلى أنفي رائحة بعض الزهور العطرة من الحديقة الكبيرة، وسمعت حفيف أوراق الأشجار وشممت عطر الزهور فانتعش قلبي وتنفست تنفسا عميقا أحسست بعده براحة نفسية مخدرة !

وفجأة تجمد الدم في عروقي، وبقشعريرة تهز كياني ووقف شعر رأسي، حتى خلته وكأنه مسلات منتصبة... تجمدت في مكاني كالصنم، فلقد سمعت صوتا حبيباً إلى قلبي، عزيزاً على روحي؛ صوتاً أعرفه وأميزه من بين ملايين الأصوات... صوتاً أدفع عمري ثمنا لسعادة صاحبته !

كان الصوت يستعطف ويلح ويرجو وكأنما على وشك الغرق ! صوت امرأة، على الرغم من سكرها الشديد فقد كان فيه قوة متدفقة... قوة اليائس... قوة الذي على وشك الغرق...!

–أرجوك يا حبيبي! ضمني إلى صدرك... بقوة... بعنف... إنني خائفة... خائفة جداً... أموت خوفاً... خبئني في صدرك... بين ضلوعك...! قالت ذلك وواصلت البكاء.

–لا تخافي يا حبيبتي! أنا هنا... إلى جانبك... معك... وسأظل دائما معك، أحبك وأحميك...! قال الرجل همسا ولكن بصوت مخنوق مكتوم !

–لا تتركني! أرجوك! أرجوك لا تبتعد عني...! كان الصوت تقطعه زفرات البكاء وكأنما المرأة كانت تهذي... تهلوس...!

–قلت لك دائما بأنني لن أتركك أبداً أبداً، وسأظل إلى جانبك أحبك وأحميك...! أنت حبيبتي يا شيلا... أنت حياتي... أنت كل شيء لي في هذه الدنيا... أنت وجودي! هل تسمعينني؟! هل عمري كسرت لك عهداً أو أخلفت لك وعداً؟! قال الرجل شبه غاضب !

–ولكني خائفة ؟! خائفة !مرعوبة ! آه يا ربي! وهنا ارتفع صوتها وازداد بكاؤها ونحيبها ثم فجأة انخفض الصوت كما ارتفع، إذ صار يصل إلى أذني صوتا مخنوقا ! وهنا تأكد لي بأن لا شك بأن الزوج ، إما أنه قد وضع يده على فم زوجته، وإما أنه قد دفن وجهها بصدره ليمنع خروج الصوت !

–أرجوكِ...! أرجوكِ...! اخفضي صوتكِ حتى لا يسمعنا أحد ! قال الزوج بصوتٍ ضعيف متقطع !

لقد تأكد لي بأن الزوج كان هو الآخر يشارك زوجته البكاء والتفجع، وأن عباراته هو الآخر كانت تخنقه!

لم أستطع أن أسمع أكثر من ذلك؛ لقد شعرت بأنني سأجن وسأفقد عقلي... وعدت مسرعاً إلى الداخل وتوجهت نحو البار حيث كانت مارثا لا تزال واقفة وممسكة كأس العصير بيدها، فطلبت أنا الآخر كأسا آخر من الويسكي ألقيته بجوفي، ثم عانقت مارثا ووضعت رأسي على صدرها وانفجرت أبكي بهستيريا ونحن ما زلنا واقفين !

لم تفتح الفتاة فمها، وإنما لفت يدها اليسرى حول ظهري، وبيدها اليمنى صارت تربت على شعري وكأنما أنا طفل صغير تهدهده أمه لينام !

–أنا أعشقك يا مارثا ! أنا أموت بكِ عشقاً ! أنا أعبدكِ! أنت حياتي... أنت الهواء الذي أتنفسه...! أقسم لكِ أنك أغلى من عيوني... من حياتي كلّها ! أرجوكِ، اشفيني من مرضي العضال... أنقذيني من لعنتي...! إنني

أتعذب... إنني أتمزق...! إنني احترق ... ! قلتُ بسرعة و كأنما عفريت يركبني أو كأنما أنا أهذي!

لم تفتح البنية فمها وإنما استمرت بالتربيت على شعري ودموعها تنزل غزيرة... ناصعة... كحبات البرد. لقد كانت البنية تبكي بصمت وكبرياء... بشموخ ... !

هنا رأيت صديقي جيمس مقبلاً يتفحص وجوه الحاضرين، إذ لا شك أنه كان يبحث عنا، مارثا وأنا ! تظاهرت بأنني لم ألحظه، ولكنه عندما رآني تقدم مني وهمس بأذني:

-إبقَ أنت ومارثا حتى تنتهي الحفلة، إذ إن علي أن آخذ شيلا إلى البيت، فهي تشعر ببعض الألم في معدتها؛ لا شكَّ أنها أسرفت في الشرب قليلا !

-سنذهب معكما؛ قد تحتاجان إلى مساعدتنا. لقد انتصف الليل وهذا يكفي. قلت بعد أن نظرت إلى ساعة يدي وأنا أهم بالمغادرة لاصطحابه !

-لا! لا! الليل ما زال مبكراً! إبقيا واستمتعا؛ وعندما تنتهي الحفلة هاتفني فسآتي لأخذكما. قال وهو يشير إليّ أن أبقى في مكاني!

-لا تزعج نفسك! سنجد من يوصلنا! فقط إبقَ أنت إلى جانبها، وسأكلمكما غداً. تصبح على خير!

حياني الرجل وانصرف ولم يحيِّ مارثا، ولا أظن أنه، لشدة حزنه وذهوله، قد شكر مضيفينا حتى ولا استأذن منهما بالانصراف !

أعلمت مارثا أن شيلا قد أصابها مغصٌ شديد من جرّاء المشروب، و أنهما يجب أن يعودا إلى بيتهما؛ و لم أعلمها السبب الحقيقي، لأنني أنا نفسي لم أعرفه !

أكدت لي مارثا أنه كان من الواجب علينا مرافقتهما حتى و لو أنهما أصرّا على الرفض!

لزمت الصمت حتى لا أجد نفسي في معركة هذا التوهان و غليان العواطف!!

عندما استيقظت من نومي عصر اليوم التالي، وجدت أن مارثا كانت راقدة إلى جانبي نائمة كالملاك وقد ارتدت إحدى بيجاماتي، بينما

كنت أنا مترديا ملابسي الداخلية فقط! نظرت إليها وتأملت وجهها ثم جسمها...! يا الله! يا رب الأكوان ما أعظمك! لقد كانت مارثا جميلة جميلة... كانت تحفة فنية أبدعت في خلقها! حقا! لقد كانت آلاء من آلائك العظمى...! حقاً إنك رب تعبد !

لا أدري كيف وصلنا إلى شقتي، فهل طلبت مارثا سيارة أجرة أم أوصلنا أحد المدعوين. انني لا أريد أن أزعجها ولا حتى أريد أن أعرف !

الفصل الثالث عشر

كنت أجلس أمام شقتي على الشرفة قبل الغروب، وكنت أرقب الشمس من بعيد وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة قبل أن تودع الكون ولتختفي خلف الأفق ! لقد شعرت وكأنما هي لم تكن ترغب الرحيل، وكأنما الشمس والطبيعة أسدان عملاقان يتصارعان، فالشمس تأبى الرحيل والطبيعة ترغمها على أن تفعل. وكنت مسترسلا مع خيالاتي وأحلامي عندما استيقظت شبه مرعوب على صوت مارثا وهي تقف ورائي !

–آسفة إن كنت قد قطعت عليك حبل تأملاتك، يبدو لي أنك كنت مستغرقا في تفكير عميق؛ لقد صار لي فترة ليست بالقصيرة.

–هذا صحيح! قلت دون أن أنظر إلى وجهها وأنا أحاول أن أجمع أفكاري المبعثرة وتأملاتي الممزقة، ثم أضفت:

–لقد قلت لي بأنك ستهاتفينني قبل حضورك، ولذلك وضعت الهاتف أمامي لأسمعه عندما يرن.

–لم أجد حاجة للمهاتفة؛ فقلت لنفسي لا بد وأنك ستكون الآن موجودا في الشقة.

لقد شعرت أن نغمة حزن شديدة ممزوجة بيأس مرير تسيطر على صوتها، رفعت عيني فلاحظت كآبة وشحوبا يعلوان وجهها فقلت:

–خيراً إن شاء الله ! ما بك؟! ولم هذا الشحوب والكآبة الباديان على وجهك ؟!

–إنه مجرد إرهاق. ثم أضافت بلهجة حزينة قطعت ثنايا قلبي:

–لم يزر جفني النوم ليلة البارحة ! قالت.

فعرفت أن في الغيب غيمة قاتمة ولكنني تجاهلتها!

–إنك تجهدين نفسك بالمطالعة والبحث، لا حاجة لكل هذه الساعات الطويلة، أمامك حياتك المديدة لتنهلي من محيط العلم والمعرفة.

لقد قالت لي مارثا يوماً بأنها يجب أن تقرأ في اليوم ما لايقل عن ست ساعات. وعندما لم تعلق على ما قلت نهضتُ وأحضرت لها كرسيا وأشرت إليها أن تجلس، ثم قلت:

-اجلسي وانظري الشمس كيف تتصارع مع الطبيعة، وكأنما هي معشوقة مغناجة تتمنع على حبيبها أن يأخذها إلى الفراش دون رغبة منها.

-يجب أن لا يلح الحبيب في أخذ حبيبته إلى الفراش إذا طلبت إليه ألا يفعل.

-ولكن طلبها في كثيرمن الأحايين يكون تدلعا وممانعة لا تعنيها! قلت وأنا أبتسم.

-ربما! ولكن تمنعها أحيانا له ما يبرره.

-قد لاتكون في المزاج، ولكنه عندما ينـزع عنها ملابسها، ويمطر كل جزء في جسمها بقبلاته ولمساته، ثم يحملها إلى الفراش ويرقد إلى جانبها فقد يبدأ مزاجها بالاعتدال، وتستعيد عواطفها وتتفتح شهيتها للطعان و النـزال ! قلت.

وهنا شعرت بأن شهيتي قد تفتحت لمطارحتها الغرام، وقد بدأت عواطفي في الهياج و الثوران فمددت يدي وقد نهضت لأقودها إلى الداخل، لا شك بأنها أدركت ما أريد فعله فردتني بلطف وقد علت وجهها سحابة كئيبة، وفردت فوق شفتيها ابتسامة باهتة. لقد كانت مارثا دائما تحب العطاء وتسعد به، إنك تحس،وللوهلة الأولى أنها تعطيك بسخاء وكرم دون أن تطلبه منها، ودون أن تتوقعه. تعطيك حبها،أنوثتها، شبابها، شفتيها، جسمها نهديها صدرها، تعطيك كل ما تطلب وما لا تطلب، دون منّة ولا مقابل ! لقد انغرست مسامير العشق في قلبي منذ وعيت على نفسي،إن آلامي وأحزاني وكذلك حرماني وفقري، هي المجاديف التي ألهبت عواطفي وساعدتني على الارتقاء! ولكنها أشارت إلي أن أعود إلى مقعدي فقلت:

-هل تمنعك هذا دلال أم له ما يبرره ؟! شعرت أن سؤالي كان سخيفا وأن ابتسامتي كانت لزجة فأنا أعرف مارثا جيدا وأعرف أنها إذا قالت لا، فمعنى ذلك لا، ولما لم تجب ومرت فترة صمت قلت:

-اعذريني لتعليقي السخيف؛ إذ لا بد وأن في ضميرك ما يزعجك وتريدين قوله!

-لا شك أن ما قلته قد شجعها على الكلام فأدارت لسانها حول شفتيها لترطبهما، وقالت:

-إذا مر شهران على امرأة ولم تأتها الدورة الشهرية ، فماذا يعني ذلك؟!

-أنا لست امرأة حتى أعرف السبب؛ ولكنني أعتقد أنها ربما تكون قد وصلت سن اليأس ودخلت في الشيخوخة.

-وإذا كانت ما زالت صغيرة في السن؟!

فجأة أحسست وكأنما أنا في غيبوبة وجاء أحدهم وهزني بعنف ليوقظني بعد أن صفعني كفا على وجهي، وهنا بدأت أنفاسي تتلاحق وأحسست بقشعريرة تهز كياني !

-وهل تتكلمين عن نفسك؟ ! سألتُ مرعوباً.

هزت رأسها بالموافقة وهي ترقب التغييرات على وجهي.

-ان من سوء حظك يا مارثا اني وضعتك في حاسوب قلبي الذي لا يرحم؛ قلبي الممزق؛ قلبي الذى أثخنته الجراح؛ قلبي النازف ! لقد اخترت ان تعشقي حتى نخاع النخاع انسان مثلي، مجموعة من العقد والمتناقضات وعدم التقيد بحبه للنساء! قلت؛ ثم أضفت:

-ربما تكون العادة الشهرية قد تأخرت عن موعدها.

-هذا ما ظننت، لقد ذهبت عصر أمس إلى أحد المراكز الطبية وأعطيتهم اسما مستعاراً وعنوانا غير حقيقي، فأكدوا لي بأن الدورة الشهرية لم تتأخر ولكنني حامل!

-هوني عليك ولا تقلقي، فالمسألة بسيطة وسنجد لها حلا، إن شاء الله ! قلت وقد بدأ جسمي يرتجف.

لاحظت أن مسحة من الفرح قد علت وجهها، فقالت وقد قامت من مقعدها واقتربت مني لتعانقني:

-أصحيح ما تقول؟! هل يعني ذلك أننا نستطيع أن نتزوج الآن؟!

أجبت وقد فاجأني سؤالها وأصابتني صدمة شديدة:

-أنا... أنا لا أعني ذلك... أنا أعني.... ولم أستطع تكملة جملتي.

عادت هي إلى مقعدها، وشعرت أن وجهها أصبح قاتما كليل مظلم، ثم أضفت:

–أعني أن هناك طرقا كثيرة للتخلص من الجنين.

–تعني قتله ؟! قالتها بصوت إنسان فقد عقله وسمع خبراً لم يصدقه، فصاحت بصوت لا شك أن الجيران سمعوها لارتفاعه !

–ولم تسمينه قتلا ؟ !إنه مجرد نطفة دم.

وهنا صاحت بكل ما في صوتها من قوة وقالت:

–لقد فجعتني فيك ! لقد دمرت أحلامي! أرجوكَ أن لا تتكلم !

نَهضتْ وهمتْ بالمغادرة ولكنني حلت بينها وبين الخروج، ثم أجلستها بلطف على الكرسي!

لقد لاحظت أنها تحدق بقدميها، ولأول مرة منذ عرفتها رأيتها تبكي ! رأيتها ضعيفة... مخذولة... لا حول لها ولا قوة... لقد رأيتها كطفل صغير فقد أمه وفقد بفقدانها الأمان أيضا. لقد شعرت لحظتها بأن النخاع الذي في عظامي قد بدأ يحترق حتى أنني شممت رائحته، تزكم أنفي !

–ما كنت أعرف أن قلبك بهذه القسوة، وأن عواطفك قدت من الصخر! كنت أظن بأنك تحبني وأنني عندك أغلى من جميع من في الوجود.

طبعا أحبك! أحبك أكثر من عيوني! قلت صادقا حسب تفكيري القبلي المتصحّر، وعقليتي الجاهلية العفنة، وإن كنت في داخلي قد شعرت بإهانة لكبريائي لاتهامها الباطل لي. أنتِ كأمريكية عشت التجربة العاطفية والجنسية أيضا،قبل الزواج، لكن خلفيتي وعقليتي وتربيتي الدينية تعارض هذا! قلت.

–حقا؟! لقدعشت التجربة الجنسية ، ولكني لم أعش التجربة العاطفية؛فأنت أول إنسان أحب. قالت.

–إن مجتمعي العتيد يتسامح ويتعايش مع التجربة العاطفية للمرأة بغير زواج، ولكنه متوحش تجاه التجربة الجنسية ! قلت.

– أعتقد أن مجتمعكم مجتمع ظالم،لأن التجربة الجنسية ، تزول بزوال لذتها ورعشتها،أما التجربة العاطفية فتدوم دوام الحياة. عقلي يوافقك ولكن عواطفي ترتجف اشمئزازا وقرفاً ! صمتت للحظة ثم أضافت:

–أستغرب من إنسان ، له كل ثقافتك وقوة شخصيتك، وعنده نضوج أدبي وإدراك حسي ، يفكر مثل هذا التفكير!

–لا تنسيْ أنني نتاج حضارتين؛الأولى مزروعة بأحشائي، وتجري بدمي وتلوّن عواطفي وأحاسيسي، وتتحكم بتفكيري؛ والثانية كسبتها من الكتب ومع قليل من المعايشة. قلت

–وهل يخامرك شك في حبي الخالص لك؟! قالت.

–ليت ذلك كان،وإلا لما تعذبت كل هذا العذاب ؛ وكذلك لما كان الشك قد أوصلني لمرحلة الجنون !قلت.

– إن حضارتنا قد دمرتك! قالت

– ومن قال لكِ أنها لم تفعل بعد! لقد تدمرت يوم قابلتكِ و وقعت في حبكِ !قلت .

–وهل حبي مدمّر حقا ؟!

–إنه يدمر المترددين من أمثالي؛ الذين يجرون وراء الأحلام والخيالات،في بلد كل ما فيها حقائق لا تقبل المناقشة.إنسان جاء من الشرق هرًباً من العادات والتقاليد لتحرره أمريكا منها ! لقد قطعت على نفسي، يامارثا، عهدا يوم غادرت الوطن، أن لا أقع في حب امرأة، وإن كنت عاهدتها أن أنام مع كل من تعترض سبيلي، ويوم وقعت عليك عيناي شعرت أنني حنثت بالعهد، ولكني لن أبعد أكثر من الوقوع بالحب، ولن أتعدى خطوة أكثر من ما فعلت !

مارثا ! لقد كنت أبحث فيك عن غربتي وضياعي وانشطاري،وأحاول أن أجد فيك حيرتي وقلقلي وانحساري... ! أنا مطحون مسحوق مقهور... إنني أشعر بقحط عاطفي رغم تواجد الكثيرات من النساء في هذه المدينة المجنونة، وأشعر بجذب فكري رغم مئات المكتبات المكتظة بالكتب ! أنا ظمآن...جائع ...أختنق ...أحترق ...أنسحق ...أنا مقيد بالأغلال...أنت مركبي ومرساتي...أنت شاطئ الأمان...أنت الصخرة الكبيرة الراسية التي سأضرب خيمتي فوقها! لقد اجتثوا أوصالي... قطعوا جذوري... أنا أعيش في زمهرير ...في ردم ... لقد حكموا علينا أن نعيش في التخلف، وقيدونا بسلاسل القهر والإحباط !قلت.

مرّت لحظات من الصمت المطبق، قبل أن تقول:

–أنا لم أطلب منك أن تتزوجني قبل الآن! ثم بتردد وقد خفت لهجتها:

-ولو كنتَ قد طلبت الزواج مني في ذلك الوقت لرفضت ! أما الآن فقد اختلف الأمر!

-أنا لست الرجل الذي يسعدك. إن جسمي معك وكل ما عداه هناك في الوطن ! أنا جبان يا مارثا، لا أستحق حبك وتضحياتك "خوّيفة هرّاب"! إنني لم أتعود على أن أواجه مصاعبي، ولم أتعلم من الحياة شيئا إلا أن أهرب ولا أواجه الحقيقة ! لقد هربت من الوطن مخافة أن أقابل جلادي، وهربت منك مخافة أن أقيد نفسي بقيود حبك.لقد هربت من الوطن أنشد الحرية والأمان خارج خارطته الكبيرة، وعندما أتيت إلى هنا أعطيتني أنتِ الأمن والأمان؛ فهربت منك وسأظل هاربا حتى نهاية عمري ! قلت.

-لكنني اخبرتك مسبقاً، بأنني لا أمنح جسدي لرجل لم أمنحه عواطفي وحبي اولاً! قالت.

-ولكنك منحته لرجل تقولين بانك لم تحبينه ؟! قلت.

-قلت لك مرات ومرات، ان هذا حدث عندما كنت غرّة صغيرة؛ وقبل ان انضج واتبنى هذه الفلسفة الواعية؛ وهي ان الجسد مقدس كالروح تماما! ثم إن الأهم من ذلك، هو أنه حدث بغير إرادة مني! لقد غُرّرَ بي وأُغتُصبتْ !

-اقسم لك يامارثا؛ انني اصدقك وانني آمن أيضاً بما تقولين! ان عقلي مقتنع بكل ما تقولين؛ ولكن عواطفي؛ احاسيسي؛ مشاعري؛ وكذلك ما تربيت عليه منذ الصغر، لايقبل ذلك ولا يقتنع به ! إنني ولهذا السبب أتعذب أضعاف أضعاف ما تتعذبين، واتمزق واقاسي في حيرة من امري وقلق اكثر مما تفعلين !

-إذن، لا مانع لديّ أن انتظرك حتى تتخلص من عقدة ماضيك ومن رواسب مجتمعك وتعقيداته!

-اخشى ان يطول انتظارك ولا تحصدين الا الفشل وخيبة الامل !

-ولكن في الانتظار احيانا بعض الأمل! قالت.

-اخشى ان يكون املك سراباً!

-أليس هو أهون من مواجهة الحقيقة الآن ؟! سألتْ.

-إنّ مواجهة الحقيقة قد تمزق احيانا، وقد تقتل في اكثر الأحايين؛ ولكنها تظل اسمها الحقيقة! وهي خيراً من أن يعيش الانسان على حلمٍ أو وهمٍ أو سرابٍ كاذبْ؛ صدّقيني! تمهلتً قليلا ثم أضفت:

-ان حب الوطن عندكم، ترف عاطفي؛ أما عندنا فهو اساسيات وجودنا ومكونات حياتنا ! أريد زوجة، يا مارثا، تعيش آلام الوطن وآماله، و ان تشاركه احلامه وتطلعاته؛ تفرح لفرحه وتتألم لآلامه!

-إن الحب أفعال وممارسة وليست أقوالا نتبجح بها فقط! قالت بغضبٍ لاهب!

-طبعاً! طبعاً! أنا أعرف ذلك، وهل عندكِ شكٌّ في ذلك؟! قلت بحماس غرٍّ مراهق وجاهل أحمق مأفون !

-وهل عندك أنت شكٌّ في أن الحب أفعال وممارسة ؟! سَأَلَتْ وقد نظرت إليّ وفوق شفتيها ابتسامة بلهاء!

-طبعا لا ! جربيني وسأبرهن لك صدق قولي ! إنني أنزف شوقا وأذوب حنينا...أشتعل هياما و تدلهاً إلى بسمة شفتيك، ونظرة من عينيك، ولمسة من يديك الحانيتين، أنا أعشقك، لا أستطيع أن أعيش بدونك، أنت الهواء، الماء، الغذاء!

-سهيل ! استيقظ يا رجل ! الطفل الراقد في أحشائي هو التجربة ! قالت وقد نهضت واقفة على قدميها من شدة الغضب.

-هذه قصة أخرى! أنتِ تعرفين أنني لست رجل زواج ! قلت لك ذلك من أول لقاء لنا ! أنا متزوج من قضايا وطني ! إن فكرة الزواج عندي غير واردة إطلاقا في الوقت الحاضر، وإذا تزوجت يوما فلا بد من أن تكون عربية ذات حسب ونسب !

-وتكون عذراء لم يعرفها قبلك رجل! قالت بتهكم وسخرية!

-وهل تعيرينني بذلك؟ أنا من أقوام لا نسمح لإنسان مهما كان مقامه عاليا، ومهما كانت محبتنا واحترامنا له عظيما، فإننا نرد له الصاع صاعين والمكيال مكيالين! اننا نعيش في الوطن في مجتمعات بدائية متخلفة ومتناقضة، تغرقها دوامات عنيفة من عادات وتقاليد ومعتقدات! أننا لن تتسامح ولن تتهاون في اية علاقة عاطفية او نزوة شخصية، بين شابٍ و فتاة، اذ انها تقف كالطود الشامخ سدا منيعا وتمحق كل من يقف في طريقها او يعترض سبيلها او حتى يحاول ايقافها او يبدل تفكيرها ! إنّي احيانا اتخندق خلف متاريس ثورتي وكراهيتي واحتقاري، وانفث سيلا من شتائمي ولعناتي واحتجاجي، واطلق صواريخ حقدي وغضبي واحتقاري على هذه العادات البالية ! قلت !

-وماذا عن ابننا الذي في أحشائي ؟! أم أنه لا يعني شيئا بالنسبة لك ؟!

شعرت وكأنما كلماتها سياط من لهب جهنّم تجلدني بها ! مرت فترة صمت كان كل واحد منا يحاول أن يتجنب النظر لعيني الآخر عندما قالت:

-رجوتك يا سهيل وألححت عليك بالرجاء أن لا تمسني تلك الليلة؛ ولكنك لم تقبل رجائي، لقد كنت والله أتوقع هذه النتيجة ولهذا مانعتك ومانعت، ولكن لحبي الشديد المستعر والمستبد لك، لم أستطع رفض طلبك.

لاحظت أن دموعها قد زادت غزارة؛ وأنها بكلامها تحاول أن تنفس عن الثورة التي تختلج في داخلها، ثم أضافت:

-إنني لا أقوى على رفض طلب لك ولو كنت واثقة بأن فيه الدمار لحياتي، إننا عندما نحب لا نفكر إلا بالعطاء، عطاء أكثر فأكثر، ولا نفكر إن كان هذ العطاء فيه تعاستنا أو سعادتنا. إن كل ما نفكر به هو أن نُسعد من نحب، لأن سعادة من نحب هي سعادة لنا، ولكن العاقبة... النهاية.. الخواتيم... هي المهمة !

وهنا زادت دموعها سفحا وزادت عواطفها تأججاً، واستطعت أن أتبين على ضوء اللمبة المزروعة على حائط البناية دموعها الغزيرة كوابل من المطر تتساقط فوق خدّيها !

لم أقل شيئا وسرحت مع أفكاري في كل الاتجاهات؛ شرقت وغربت.. سعدت وحزنت... فرحت وبكيت...! اللعنة! اللعنة! المسؤولية... الالتزام... أين أنا منها جميعها، وهل حقا أنا ملتزم بهذه المبادئ، أم أنّني فقط أتشدق وأتباهى كما يفعل أبناء مِلّتي وديني ؟!

-لا أعرف كيف حدث ذلك ؟! ولا كيف نسيت أن أضع في حقيبتي حبوب منع الحمل ! لقد قلت ذلك وحذرتك من العاقبة، ولكنك سامحك الله لم تقبل كلمة لا، وأنت تعلم أنني لا أحب أن أرفض لك طلباً إلا إذا كنت مرغمة؛ ومع كل هذا لم أرفض طلبك... كنت أريدك أكثر مما كنت تريدني أنت... وكنت أشعر بأنك إذا لم نتطارح الغرام سأطق قهراً لشدة محبتي لك، مع أنني كنت واعية للنتائج ومدركة للعواقب.

-وهل تعنين ليلة حفلة عيد الاستقلال ؟! وأخيرا سألت.

-وهل نسيت ذلك ؟!

لم أجب ونهضت وأنهضتها معي وبيدي اليمنى حملت الكرسي وباليسرى اقتدتها.

-دعينا ندخل أشعر ببعض برودة المساء.

انقادت لي ولم تمانع، وحالما دخلنا وأغلقت الباب خلفنا شعرت بأن الذئاب في داخلي بدأت تستيقظ، وأنني أريد أن آخذها إلى غرفة النوم ! لعلها شعرت بما يعتريني من خلال يدي الممسكة بها، فنظرت إليها ونظرت إليّ وتقابلت نظراتنا ولعلها فهمت ما أعني، ولكنها رفضت بإصرار وعناد بهزة من رأسها وتوجهت إلى الكنبة التي طالما جلست عليها في غرفة الجلوس، وألقت بنفسها فوقها. لقد عرفت أن المحاولة معها عبث ولن تجدي، فأنا أعرف عنادها وقولها لا ماذا يعني !

نهضت وصببت لها كأسا من عصير البرتقال، ولنفسي كأسا من النبيذ المعتق، وبعد أن رشف كل واحد منا رشفة من كأسه قلت لها:

-أريد أن أدعوك إلى العشاء في الخارج فأنا جائع جدا إذ كان غدائي خفيفا؛ وكان فقط عبارة عن صدر دجاجة بارد، وأنت من الطبيعي لم تتناولي عشاءك بعد.

ابتسمت بمرارة ونظرت إليّ وقد أحسست بحزن شديد يحتل كيانها:

-كانت آخر وجبة تناولتها غداء الأمس قبل أن أعرف النتيجة.

-ولم؟! سألت ببلاهة وغباء.

-سهيل! أقول لك ابنك في أحشائي وتسأل لماذا؟! أفق يا هذا! ماذا حدث لك؟ أين سهيل الذي يفيض غيرة وشهامة ورجولة ؟!

-ابني أنا ؟! وأنى لي أن أعرف ذلك ؟! وما يدريني أنه من رجل آخر ؟!

نظرت إليّ وكأنما أنا كومة من القاذورات ذات الرائحة الكريهة، التي تقتل لشدتها كل من هو قريب منها ! ليتني لم أقلها ،وليتني مت قبل أن أفعل ذلك؛ وليت لساني قد تجمد في حلقي قبل أن أنطقها، فلقد رأيت المرأة فوق الكرسي وقد تجمدت وأصبحت وكأنما هي ماتور ضخم

مشتعل يهتز في مكانه فوق الكنبة ! لقد تشنجت كل أطرافها وجحظت عيناها وصار كل جزء منها متشنجا يرتجف يقوم ويقعد... يقفز ويهبط.. وتحجرت عيناها وصارت ترتجف وتهتز إلى أعلى وأسفل، ثم يمينا، وشمالا، وكأنما هي بركان "فيزوف" وهو يهدر ثورة وغضبا، يقذف بحممه يمينا وشمالا... شرقا وغربا، وصارت تهذي وتقول كلمات لم أستطع تمييزها ولا حتى أن أتبيّن لغتها.

بقيت على هذه الحالة ثلاث أو خمس دقائق لا أدري، ثم وقفت كالمارد وصاحت بصوت عال اهتزت له جدران الشقة وقالت:

–واأسفاه ! ثم سقطت مغشيا عليها، والزبد يتدفّق من فمها غزيرا غزيرا، كرغوة صابون الغسيل يخرج من غسالة ضخمة؛ وجسمها يرتجف كما ترتجف الدجاجة لحظة ذبحها و إلقائها على الأرض!

وقفت كالمارد أحدق بالجثة الملقاة أمامي، مسحورا مجمدا لا أستطيع أنا الآخر حراكاً! كانت ترتجف فوق السجادة كذلك الماتور الذي يدكون به أرصفة الشوارع، وأخيرا خطرت على بالي شيلا.

لم أتبين من الذي أجاب على الهاتف وإنما أذكر بأنني كنت أصرخ وبكل ما عندي من قوة "مارثا تموت ! مارثا تموت !"، لقد قتلتها، لقد ذبحتها، كما تذبح الشاة، أنا القاتل أنا المجرم !

لم أدر كم مضى من الوقت وأنا أصرخ وأستغيث تارة، أبكي و أنوح تارات، ومارثا تهتز وترتجف على أرض الشقة ، عندما سمعت تخبيطا على الباب، وحالما فتحته دخل جيمس مهرولا نحو الجثة، وألقيت أنا بنفسي في أحضان شيلا التي احتضنتني كطفل صغير وصارت هي الأخرى تنوح وتبكي مثلما أفعل أنا !

لا أدري ما الذي حدث بعد ذلك، ولكنني أستطيع الآن أن أتذكر كالحلم الباهت البعيد، البعيد ... أن شيلا وجيمس دخلا وكانا مرعوبين فزعين، جسماهما يرتجفان ودموعهما تنسكب، إذ ركض جيمس نحو مارثا الملقاة على الأرض وهرولت شيلا نحوي، وكنت في وسط الغرفة أرتجف كالغصن في مهب الريح، ثم أذكر كذلك كالحلم الباهت البعيد أيضا، أن جيمس طلب سيارة الإسعاف، وعندما جاء الرجلان وحملا مارثا على نقالة الإسعاف ليأخذاها، رأيت جيمس يطلب إلى زوجته أن تبقى معي وأعلمها بأنه سيرافق مارثا إلى المستشفى.

إنني أذكر جيدا أن شيلا قادتني إلى فراشي وبعد أن وضعتني به وغطتني بشرشف ألقته فوق جسمي، سحبت هي كرسيا ووضعته إلى جانب السرير قريبا من رأسي، ثم وبيدها اليمنى صارت تمسد شعر رأسي وتقرأ بعضا من أدعية إنجيلها، وباليد اليسرى كانت تمسح دموعها المنسابة بغزارة فوق خديها تارة، وتمسك بالصليب المعلق في رقبتها وتبعده من أن يضرب وجهي تارات !

كانت تقرأ عليّ بعضا من آيات الكتاب المقدس، تتمتم بها تماما كما كانت تفعل والدتي عندما كانت تلم بي أزمة عاطفية؛ إذ إن والدتي بعد أن تقرأ علي بعضا من آيات القرآن الكريم المكسّرة والمبعثرة، وتتمتم ببعض التعاويذ الساذجة وغير المفهومة؛ تعانقني من جديد وتنفجر بالبكاء مرة أخرى؛ ثم بعدها تهجم عليّ وتدفن رأسها بصدري فتعانقني ثم تنخرط في بكاء أشد وأعمق؛ بينما كانت شيلا تقرأ بعضا من إنجيلها وتمسح دموعها وتوقف صليبها من أن يضرب بوجهي، ولكنها لا تعانقني لأنني أنا محرم عليها، فهي ملتزمة إلى زوج يربط بينهما عقد زواج مقدس، بينما أنا مجرّد صديق !

بعد أكثر من ساعتين و شيلا ما زالت تقرأ عليّ بعضاً من انجيلها و تمسح دموعها، عاد زوجها و أعلمنا بأن مارثا قد توفّاها الله !

اللعنة؛ اللعنة ! لقد أتيت من مجتمعٍ معقّدٍ شكاك، يشكُّ الابن بابيه و تشكُّ البنت بأمها! ولا أدري لماذا شعرتُ بأن شيلا و زوجها قد فرحا عندما عرفا أنّ مارثا قد توفّيت ! إنني عندما نظرت الى وجهيهما أحسستُ و كأنما كانا يبتسمان و أن الفرحة تضجُّ من عينيهما؛ وان الابتسامة تكاد تنطق بهما شفاههما !

سأبكي يا مارثا، وسأظل أبكي حتى يتحول جسمي كله إلى دموع وأتلاشى من الوجود، تماما كما تتحول الغيوم إلى مطر وتتلاشى من الجو، وكذلك كما يتلاشى الضباب أمام نسمات الهواء! ماذا أريد من حياتي بعد فراقك يا مارثا؟ ! بل مالي وما للحياة من بعدك؟! لقد كنت من خلال حبك أحب الوطن وأخدمه، وكنت من خلال ابتسامتك أستمد الأمل لتحرره، ولكن بعد رحيلك فأين الأهل وأين الوطن؟! لقد كنت أنت الأهل وكنت أنت الوطن، وكنت أنت الأمل والرجاء! لقد كنت أنت الدافع والسبب، ومع رحيلك رحل هؤلاء جميعا وبقيت أنا كالغبار... وكاللاشيء... أتيت من العدم وإليه أعود... ما خطرت على بالي يوما أنك ستذهبين وتتركينني،

وما راودني أقل شك بأنني سأتطلع من حولي فلا أجدك! كنت واثقا أننا لن نفترق وأنني سأظل موجودا ما زلت أنت إلى جانبي؛ والآن ماذا سأفعل بعد رحيلك سوى الفناء والتحول إلى هباء، إلى لا شيء!

لم تكوني مغرورة يا مارثا ولا متكبرة، رغم أنك محيط من العلم والمعرفة؛ ولم تكوني أنانية على الرغم من الثروة والجاه اللذين أوجدهما لك والداك؛ لم تكوني مدللة مدلعة على الرغم من الحنان والحب والسعادة اللتين يغمرك بهما من حولك؛ ولم تكوني متعجرفة رغم أن من يملكون ذرة مما عندك يفعلون ذلك ؟!

كنت أخشى عليك من كبريائك وأنفتك وعزة نفسك، فلقد خفت عليهم منكِ؛ كنت أخشى أن يدمّروكِ ويسحقوكِ؛ كنت أحارب الرأسمالية يا مارثا لأنني كنت أعرف أن أهلها كانوا يستغلونها لشراء ذمم الناس واستعبادهم، ولكنك جعلت من غناك كما جعل والداك قبلك من الغنى مساعدة للمحتاجين من الطلاب ودور العلم والجمعيات الخيرية !

إنك لم تقولي لي ذلك يا مارثا، ولكن زملاءك من الطلاب الذين يعرفونك هم الذين أعلموني بذلك. إنك بحر من العطاء فأعطيت الكثير دون أن تطلبي أجراً، وحتى ابتلاك الله وألقى في طريقك إنساناً أنانياً فجاًّ معقداً مثلي، فدمر حياتك، وخان عهدك؛ لاعتقاده الخاطئ والسخيف، بأنه كان يخدم وطنه ويساعد بني قومه. ويلي عليك مني يا مارثا، وويلي على الوطن والأمة من أنانيتي وعقدي!

* * * * *

الفصل الرابع عشر

صعدت درج العمارة التي يسكنها صديقاي الروبنسون على عجل،و كأنما أسابق الريح ، وفي النفس شوق وفي القلب رهبة؛ شوق لرؤية صديقي ورهبة من مقابلة هذا الطبيب الذي قال لي عنه جيمس بأنه يصر على مقابلتي والتعرف إلي! من أكون، وما أكون، وما هي قيمتي الأدبية والعلمية والجتماعية، حتى يصر هذا الدكتور على التعرف إلي ؟!

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة والنصف مساء ، بينما كان الموعد الذي اتفقنا عليه أنا وصديقي جيمس هو تمام الساعة الثامنة ! إن هذه هي أول مرة أتأخر بها عن موعدي مع صديقي ! لقد حضرتْ إلى مكتبي، وأنا أهم بمغادرته، الطالبة في الجامعة وابنة وطني حنان الرمحي، وهي تكاد تبكي من شدة القهر والإحباط! لقد أعلمتني بأن الطلبة اليهود في الجامعة، وما أكثرهم، قد أقاموا مهرجانا غنائيا بعد ظهر هذا اليوم في الحرم الجامعي، يسرحون و يمرحون، يغنّون و يهزجون، يباهون و يتفاخرون؛ وكانت فيروز و ماجدة الرومي ، هما اللتين تغنيان طيلة الوقت، مدعين بأن هاتين العملاقتين واللتان صوتهما يسحر، هما إسرائيليتان !!

لقد هونت الأمر على ابنة وطني، وأعلمتها بأن اليهود يزيفون التاريخ ويبدلون الحقائق لمصلحتهم، فهل يصعب عليهم أن يدّعوا بأن هاتين المغنيتين العملاقتين هما إسرائيليتان ؟!!

لقد اتفقنا حنان وأنا، على أن نقيم -نحن الطلبة والأساتذة العرب والمؤيدين لقضايانا العربية وخصوصا القضية الفلسطينية- يوم الجمعة القادم مهرجاناً غنائيا مثل مهرجان الطلبة هذا اليوم، وتكون أغاني فيروز وماجدة الرومي هي التي تصدح في جميع أرجاء الحرم الجامعي، معلنين بأن هاتين المغنيتين العملاقتين هما مغنيتان لبنانيتان عربيتان، وليستا يهوديتين صهيونيتين !

لقد رسمنا حنان وأنا الخطة، واتفقنا على أن نجتمع غدا في مكتبي في مثل هذا الوقت، بعد أن نكون قد اتصلنا ببعض الطلبة والأساتذة العرب في الجامعة، وكذلك الجامعات المجاورة لنستنير بآرائهم ولنطلب مساعدتهم، ولهذا السبب تأخرت عن موعدي.

كان قد أعلمني جيمس بأن صديقه الدكتور "مايرز فينيك"، بسبب رغبته الشديدة بمقابلتي و التعرف إليّ لكثرة ما حدثه عن وفائي

وإخلاصي وغزارة علمي وكرم أخلاقي، وكذلك لشهامتي و رجولتي ! وحدثه أيضاًعن ولعه هو وزوجته بصداقتي ! ولولا أنه وعد صديقه جيمس ، قبل حضوره إلى كاليفورنيا، لما كان قبل الحضور لمقابلتي والمجيء إلى بيتهم ، بسبب مشاغله العديدة !

لقد كان الاتفاق بينه وبين صديقي، كما أعلمني، بأن يحضره جيمس من فندقه في تمام الساعة السابعة والنصف، حيث يصل شقّة الروبنسون بحدود الثامنة، وكان من المفروض أن أكون متواجداً هناك ليقدمني له ولنتعرف على بعض ونتحدث حتى التاسعة،ثم يوصله صديقي بعدها إلى فندقه ! إن عنده موعد عشاء وعمل مع خمسة من زملائه، دكاترة علم نفس، في تمام الساعة التاسعة والنصف. لقد رجاني صديقي جيمس وألح في الرجاء بأن أكون متواجدا في شقتهم قبل حضور الدكتور فينيك ووعدته بأنني سأفعل، ولكن ما باليد حيلة !

حالما ضغطت على الجرس فتح صديقي الباب حتى خيل إليّ أن الباب يفتح أوتوماتيكيا عند الضغط على الجرس؛ إذ لا شك أن صديقي كان واقفا خلف الباب عندما ضغطت على الجرس. اعتذرت لتأخري وذكرت له السبب وإن، كنت واثقا بأنه لم يسمع اعتذاري، لأنه أسرع الخطى باتجاه غرفة مكتبه وأنا أجري خلفه، إذ حالما دخلنا غرفة مكتبه وقف الضيف وابتسامة كبيرة جذلى تغطي وجهه !

-دكتور فينيك ! هل لي أن أقدم لك صديقي العزيز والوحيد في كاليفورنيا، البروفيسور سهيل دهشان ، والذي طالما حدثتك عنه في رسائلي وعلى الهاتف ! ثم التفت إليّ وقال:

-بروفيسور دهشان ! هل لي أن أقدم لك صديقي وأستاذي الروحي الدكتور مايرز فينيك ! إنه أستاذ علم النفس في جامعة ميسوري سابقاً، وعنده الآن عيادة خاصة. إنه خريج جامعة كاليفورنيا، فرع بيركلي! لقد جاء خصيصا إلى كاليفورنيا للقائك والتعرف إليك! وكأنما تنبه إلى أنه قد بالغ في قوله فاستدرك:

-جاء لحضور مؤتمر طبي فطلب مني أن يتعرف إليك !

-كيف حالك يا بروفيسور دهشان ؟! كم أنا سعيد بلقائك! لطالما انتظرت هذه اللحظة طويلا وبفارغ الصبر وها نحن أخيرا تقابلنا ! إنك تماما كما تصورتك ! لقد حدثني جيمس عنك طويلاً طويلاً ، وأثني عليك ثناء

عطرا، وكم هو وزوجته سعداء بالتعرف إليك لوفائك وشهامتك ولإخلاصك! فقلت لابد وأن أحضر إلى كاليفورنيا خصيصا للتعرف إليك ! ثم استدرك:

–أعني لا بد من التعرف إليك في أول زيارة أقوم بها إلى كاليفورنيا، وها أنا الآن أفعل!

فرد الرجل ابتسامة كبيرة جذلى فوق شفتيه الضخمتين المملوءتين، وأضاءت عيناه وكبر حجمهما، وصار يحملق بي بإعجاب وفرح، وكأنما هو عاشق يملأ عينيه بمحبوبته !

حالما سحب الرجل يده من يدي وضعها على كتفي الأيمن وصار يتحسسه،ثم يُنقّل يده على جسمي من أوله إلى آخره، وبعد أن تحسس كل جزء منه نقله إلى كتفي الأيسر وفعل مثلما فعل بالأيمن ! لقد شعرت وكأنما أنا خروف أو جدي ، يريد أن يتأكد من مقدار ما على جسمي من لحم قبل أن يدفع الثمن !

كان الرجل يتكلم بسرعة وكأنما ركبه عفريت ، وقد شد على يدي حتى أحسست وكأنما يحطمها بيده الضخمة !

–لم يذكر لي صديقي جيمس بأن له أستاذً روحياً وطبيبا نفسياً من الولاية التي جاء منها طيلة مدة تعارفنا ! لقد ذكر أمامي فقط قبل يومين بأن له صديقاً قادم إلى كاليفورنيا و يحبّني أن أقابله ! قلت.

لا أدري لماذا شعرت بالندم الشديد لجملتي هذه ، فقد أحسست بأنني قد أحرجت صديقي فأضفت:

–إذاً، لكنت رجوته بل لألححت عليه بالرجاء أن نركب الطائرة هو وأنا ونذهب لزيارة هذا الصديق العظيم ! قلت بفخر قبلي وتبجح جاهلي.

–السبب في عدم ذكر اسمه لك ، هو أنني لم أكن أعرف بأنه سيحضر يوماً إلى كاليفورنيا،كما أنه لم تخطر على بالي زيارته في مدينته ! قال جيمس بارتباك وتلعثم.

–لقد عرفت يا جيمس من تختار ولقد أجدت الاختيار! قال الدكتور وهو يرتجف حماسا ثم أضاف:

–إن البروفيسور دهشان تنطبق عليه جميع المواصفات ! قالها بحماس أشد وبفرحة عارمة. ولما رآني أنقل عيني بينهما مستفسرا، أضاف:

-أعني تنطبق عليه جميع المواصفات التي يطلبها إنسان يريد أن يتخذ صديقاً له مدى الحياة !

وهنا جدتني موجة من العرق الساخن حياء من مدح هذا الدكتور لي، فقلت وقد حولت عينيّ عنهما وصرت أنظر إلى الأرض !

-شكرا يا دكتور فينيك لهذه الثقة التي منحتني إياها؛ إنه لشرف عظيمٌ لي ! وآمل أن أكون عند حسن ظنّكما، أنت و صديقي العزيز جيمس ! ثم أضفت:

-بما أنك يا دكتور قد أنهيت دراستك الثانوية والجامعية في كاليفورنيا ، فلماذا لا تمارس مهنتك فيها ؟!

-لقد حاولت ، ياصديقي ، ولم أوفّق ! لقد ولدت ودرست حتى أنهيت الثانوية العامة ، في مدينة سان فرانسيسكو !

-ومتى تخرجت من جامعة بيركلي ؟!

-قبل ثمانية وعشرين عاماً ونيف. أجاب.

-ولم لم تجعل نشاطك في كاليفورنيا؛ أعني التدريس والعيادة ، ما زلت قد تخرجت من جامعتها ؟!

-المنافسة في كاليفورنيا شديدة ! لقد حاولت و لكنّني فشلت ! حال تخرجي عرضت علي جامعة نبراسكا أن أدرّس بها دون خبرة تدريسية، فقبلت وبقيت هناك حتى يومنا هذا. صدقني يا سهيل، واسمح لي برفع التكلفة بيننا وأن أناديك باسمك المجرد، بأنني لم أقابل رجلا عنده كل هذه الوسامة ولا الجاذبية ولا حتى الفصاحة والبلاغة مثلما عندك ! فهل كل رجالات العرب مثلك ؟! قالها بحماس شديد وكأنما كان يخطب.

لقد أخجلني مدحه لي حتى تصبب العرق في كل ذرة من جسمي، ولما لم أعلق على ما قال و اكتفيت بإلقاء رأسي بالأرض خجلا أضاف:

-لم أكن أعرف أن عند العرب مثل هذه الوسامة وقوة الشخصية وكذلك سرعة البديهة، وقوة الحجة والمنطق!

-على مهلك يا دكتور ! لقد بدأت أصدقك؛ فأخشى أن يركبني الغرور فأعتقد بأنني هدية الله إلى بنات سانتا مونيكا ووست وود! قلت و أنا أضحك !

-يجب أن تعتقد ذلك، ويجب أن تفخر بما منحه الخالق لك من جمال جسدي ونضوج فكري ! قال جملته وطوح يده وضرب بها الهواء وكأنما ليؤكد مقولته تلك.

-صدقت يا دكتور أن له كثيراً من المعجبات بل والمولهات به حباً، ولكنه يرفضهن ويتعزز عليهن ! قال صديقي جيمس وهو يحك شعر رأسه.

-لا يا بروفيسور سهيل! لا يا صديقي! رفقاً بقلوب الحسان، قلوب المتيمات بحبك اللواتي ينتظرن إشارة منك، إذ لا بد أن يكون للرجل حبيبة يضمها في آخر الليل إلى صدره، ويمارس فحولته معها ! أنا أعرف أنكم أنتم المسلمون تتزوجون أربع نساء في آن واحد، ولولا أن عندكم المقدرة الجنسية لترضوا هؤلاء الأربعة في وقت واحد، لما حللها لكم دينكم ! قالها بلهجة اللائم العاتب.

أذهلتني، بل أطارت صوابي جرأة هذا الطبيب وصراحته، فقلت في سري: لا بد أنه يقصد شيئاً محدداً ، ولكن ماهو هذا الشيء ؟! الله أعلم ! نعم الله وحده أعلم !

كل هذا الحوار جرى وثلاثتنا ما زلنا وقوفا، وهنا صاح السيد روبنسون معتذرا:

-ما أغباني ! لقد نسيت أن أطلب إليكما أن تجلسا ! أرجوكما تفضلا بالجلوس !

بعد أن جلسنا، الدكتور فينيك وأنا على مقعدين متقابلين، لم يجلس صديقي جيمس كما فعلنا وإنما تناول كأس الدكتور الموضوعة إلى جانبه وكانت شبه خالية من الكحول وخاطبني:

-تحدث إلى الدكتور فينيك يا سهيل ريثما أجدد له كأس الويسكي، وأجلب لك علبة بيرة !

-لا ! أرجوك ! أشعر بظمأ شديد، و أريد كأساً من الويسكي المزدوج بالثلج فقط! قلت.

-طبعاً ! طبعاً ! سأعود حالاً ! قال ذلك وخرج متوجها إلى المطبخ.

-هل تعرف يا بروفيسور سهيل ، أنني كلما جلست معك مدة أطول كلما اكتشفت بك مزايا تجعلني معجباً بك وأحبك أكثر ! وقبل أن أسأله ما الذي اكتشفه بي في هذه اللحظات قال:

-طلبك للويسكي المزدوج وبدون ماء أو صودا، هذا دليل رجولة... فحولة... قوة إرادة... دليل شجاعة وعزيمة وجسارة... دليل محبة وعاطفة رومانسية جبارة ! قال ذلك وبدأ يحملق بوجهي من جديد، وكأنما أنا امرأة معجب بها و يريد أن يأخذها إلى الفراش !

هنا صارت عندي شبه قناعة بأن الدكتور فينيك لا بد وأن يكون شاذاً جنسياً، وبأنه يريد أن يقنعني ليأخذني إلى الفراش وليضاجعني، فبدأت مراجل الغضب تغلي في داخلي، وفكرت أن أنهض وأن أحاول أن أرميه أرضاً، وأبدأ في رفسه وركله حتى ينـزل الدم من جميع أجزاء جسمه، لولا أن رحمة السماء سبقتني حيث قال:

-هل تعرف يا بروفيسور سهيل ، أنني لو كنت مكان صديقنا جيمس لخفت على زوجتي أن تقع في غرامك، لكثرة ما تتمتع به من مميزات تجعل أحصن امرأة تلقي بمراسيها و تـنـزل أشرعتها أمام وسامتك وفحولتك ! وهنا انفجرت أضحك لتشبيهاته البلاغية، ففارقني غضبي وعاد إلي هدوئي.

وهنا دخل مضيفنا يحمل على صينية فضية فاخرة ثلاثة كؤوس مترعة بالويسكي، جميعها كؤوس مزدوجة ليس بها مزيج آخر سوى مكعبات الثلج !

-ما لكم تضحكون ؟! هل لكم أن تعلموني السبب حتى أشارككم فرحتكم ؟ ! سأل جيمس وهو يضع الصينية التي يحملها وسط الغرفة وابتسامة كبيرة تعلو شفتيه، بينما يده اليمنى تناول الدكتور فينيك كأسه ويناولني كأسي بيده اليسرى.

-كنت أقول للبروفيسور سهيل؛ لو كنت مكان جيمس لخفت على زوجتي أن تقع في غرامك، لما تتمتع به من جاذبية جنسية !

لاحظت أن وجه صديقي قد اصفر ثم اخضر ثم فارقته ابتسامته، وإن تظاهر باللامبالاة وعدم الاهتمام فقال:

-سهيل أخي، وزوجتي أخته، فأنا مطمئن لإخلاصه ووفائه.

-شكرا يا أخي جيمس على هذه الثقة المطلقة! حقا! إنك أخي وشيلا أختي. وهنا وقف جيمس في وسط الغرفة ورفع كأسه وقال:

-فلنجدد شرب نخب صداقتنا!

وهنا وقفت أنا ووقف الدكتور فينيك، ورفع كل منا كأسه عاليا فالتقت الكؤوس الثلاثة في الفضاء، وضربناها ببعضها البعض ثم جلسنا بعدها، وبدأ كل منا يقرع كأسه.

لقد لاحظت أن ثلاثتنا كنا نشرب بنهم وشراهة.

-كم تعتقد عمري ؟! سألني الدكتور فينيك فجأة وابتسامة كبيرة تضيء وجهه.

-اعذرني يا دكتور! إنني والله دائما أخطئ في تقدير الأعمار، فقد يكون الواحد في الخمسين من عمره وأظنه في الثلاثين، وأحيانا يكون العكس مما يغضب البعض ويفرح الآخرين.

هم بفتح فمه ليقول شيئا ولكنني سبقته وقلت:

-أعذرني يا دكتور إن قلت لك بأن عندي عقدة من السؤال عن الأعمار، إذ إن العشيرة التي أنتمي إليها لا حديث للرجال فيها عندما يكونون مجتمعين بسبب فرح أو وفاة، أو أيةمناسبةأخرى، فإنه لا حديث لهم إلا عن أسعار الأراضي التي يمتلكونها، والمقارنة بين أرض هذا الإنسان وذاك، ثم عن أعمارهم والتي ما تكون عادة تخمينية لا حقيقية، إذ يربطونها بحوادث محلية مضحكة، لأنه لم يكن يوجد تدوين لتواريخ الميلاد في ذلك الوقت !

-يبدو أن بني قومك أميون جهلاء ! أعذرني لهذا القول؛ لأنني أعرف بأن العرب لا يقرأون، والذي يعرف القراءة والكتابة هو من أجل استعمالها في الدين ليقرأ القرآن ويكتب الرسائل، ولهذا السبب أنا ذهلت لبلاغتك وسرعة بديهتك ! قال ذلك وأتبعها بابتسامة شعرت بأنها صفراء لزجة.

-هذا صحيح يا دكتور، الجيل القديم الذين يعرفون القراءة والكتابة فيهم قليلون، أما أولادهم وبناتهم إذ قلما تجد بينهم من لا يحمل شهادة جامعية ! انهم لايكتفون بالثانوية العامة ! قلت بفخر جاهلي واعتداد قبلي.

-والآن كم تظن عمري ؟! سأل.

–أنا أقول بأن عمرك بين الثانية والأربعين والخامسة والأربعين ! هكذا حقا قدرته.

–انفجر الدكتور فينيك يضحك حتى دمعت عيناه، وبعد أن مسحها بمنديل قماشي أخرجه من جيبه قال:

–حصلت على الدكتوراة وأنا ابن ثمان وعشرين عاما؛ أي في مثل سنك الآن، وصار لي أعمل واحدا وثلاثين عاما ونيف، وبعد ثلاثة أشهر سأبلغ الستين من عمري.

–ما شاء الله ! ما شاء الله ! صحت لا شعوريا بالعربية، ولما أدركت أنه لا يعرفها قلت بالإنجليزية:

–العظمة لله ! صدقني يا دكتور أنني عندما قلت لك بأن عمرك اثنان وأربعون عاما، خفت أن تغضب مني بأن فكرت بأنني قد بالغت في تقدير سنوات عمرك، لأمنحك إجلالا ومهابة.

–ليس من الضروري أن تكون كثرة عدد سنوات العمر غزارة النضوج وكبر العقل.

لم يسألني الدكتور فينيك عن عمري فعزوت ذلك إلى نقدي لبني قومي الذين لا يتحدثون في مجالسهم إلا عن أعمارهم وأراضيهم؛ ثم لربما أن الدكتور فينيك انتظر مني أن أخبره أنا متبرعاً، ولكنني ذهلت عندما سمعته يقول:

–أنا أعرف كم عمرك بالضبط وحتى أعرف اليوم الذي ولدت به، أنا أعرف عنك كل شيء، أقول كل شيء؛ ماذا تحب أن تأكل وأن تشرب، وماذا تحب أن تلبس، ومتى تذهب إلى النوم ومتى تستيقظ وبرنامجك اليومي! قالها بحماس وتحدٍّ وكأنما يريد أن يغيظني، أو أن ينتقم مني ثم أضاف:

–لقد أعلمني كل هذا عنك تلميذي جيمس لأنه يكن لك حباًّ عظيماً؛ إنك لا تتصور كم هو يحبك ويحترمك!

–إن حبي له لا يقل عن حبه لي، صدقني! قلت.

–أصدقك! أصدقك! لقد قال لي هو ذلك مراراً وتكراراً! لقد قال لي بأنك تحس بالاختناق بعيدا عنه وعن زوجته! هذا عظيم! هذا رائع! هذا هو المطلوب! قالها بحماس و قد ضرب يده بالهواء و كأنّما كان يضرب عدوّاً!

أشياء كثيرة غريبة وعجيبة قيلت وحدثت أمامي هذه الليلة لم أستطع سبر غورها ولا تفسير حقيقتها !

-كيف تعرفتما إلى بعضكما أنت وجيمس؟! سألت الدكتور فينيك.

-لقد أخذت مساقاً في علم النفس في سنتي الجامعية الأخيرة مع الدكتور فينيك كأحد المواضيع الاختيارية، فوجدته حقلا ممتعا خصيباً فأعجبت بالمادة والأستاذ معاً؛ فأصبحنا أصدقاء! الذي أجاب هو صديقي جيمس وليس الدكتور الذي وجهت إليه هذا السؤال.

لاحظت أن الدكتور فينيك قد افترت شفتاه عن ابتسامة ارتياح !جواب صديقي لم يقنعني لأنه تخرج من الجامعة قبل أقل من خمسة أعوام، والدكتور فينيك قد مضى على تركه التدريس في الجامعة أكثر من ذلك بكثير ! لم يزعجني جوابه غير الصحيح، بل في الحقيقة لم أعره أي اهتمام ، إذ لا شك بأن له أسبابه التي دعته لقول ما قال، مما لا علاقة لي به لا من قريب ولا من بعيد.

كان الدكتور فينيك ضخم الجسم طويل القامة، عريض ما بين المنكبين، واسع الصدر كبير اليدين طويل الأصابع، أشقر الشعر غزيره، ساحر الشفتين منضد الأسنان، كأنها عقد من اللؤلؤ في فمه، حادّ النظرات وكأنما عيناه عينا صقر تحدقان في فريسته، له غمازتان على صدغيه تزيدانه جاذبية وسحراً، يلبس نظارة ذات إطار ذهبي رفيع، مشرق الوجه لا تفارق الابتسامة شفتيه، يستحي في كثير من الأحيان كالعذراء التي يثني الرجال على جمالها؛ فينيكس رأسه عند الإطراء، تشعر بعد أن تتكلم معه ببضع دقائق، وكأنما تعرفه منذ مدة طويلة، بل وكأنكما أصدقاء منذ الولادة ! يذوب رقة ويفيض عاطفة !

إن الذي أثار استغرابي بالدكتور فينيك هو لبسه لصدرية يختلف لونها كثيرا عن طقم بذلته التي يلبسها، مما يميزه لي كما يقولون بالوطن: إنه كالثور الأبرق. كان لون بذلة الدكتور بنيّا غامقا بينما لون صدريته أسود حالك !

-هل كان جيمس طالبا متفوقا ؟! سألت.

-نعم ! لقد كان طالباً ذكياً، كان الأذكى في فصله ! قال بحماس وهو يهز رأسه ليؤكد مقولته.

-وماذا عن شيلا ؟!

- ـ ومن هي شيلا هذه ؟!

-شيلا روبنسون زوجة جيمس! قلت باستغراب.

-آه...! آسف آسف! أنا أعرفها باسم السيدة روبنسون، لقد نسيت أن اسمها شيلا! لم تكن طالبتي، ولم تكن هي مع جيمس عندما كان طالباً عندي. هل تصدق يا بروفيسور أنني لم أقابلها إلا هذا المساء ؟! لقد كان جيمس يتردد على مدينة كانساس لزيارتي بعد تخرجه، ولكنه لم يكن يحضرها معه.

-السبب هو أنني عندما كنت طالباً في فصل الدكتور فينيك، لم تكن شيلا طالبة، ولم نكن قد تزوجنا بعد . كنت أزور الدكتور فينيك كلما ذهبت إلى مدينة كانساس في عمل للبنك ولم تكن هناك من مناسبة ليتقابلا، كما أن الدكتور نفسه لم يحضر ولا مرة واحدة إلى مدينتنا.

وهنا دخلت شيلا تحمل كأسها وانضمت إلينا!

-لقد ذكرت إلى البروفيسور دهشان بأنني لم أقابلك إلا الليلة، ولم أكن حتى أعرف بأن اسمك شيلا إلا منه الآن ! قال الدكتور فينيك.

-آسفة يا دكتور إنني لم أكن أعرف أن لزوجي جيمس صديقاً طبيباً في مدينة "كانساس" إلا الليلة عندما قابلتك ! إنني أعرف أنه كان يتردد كثيراً على مدينة كانساس لأعمال كثيرة للبنك.

-لم أكن أجد داعياً لأن أذكر لك ذلك يا حبيبتي، بأن لي صديقاً طبيباً في مدينة كانساس! قال جيمس متلعثماً ولكنني لاحظت أن نظرة ارتياح قد علت وجه الدكتور فينيك.

"ما أغباهم وما أسخفهم؛ فلم كل هذه الإيضاحات والتفسيرات والانفعالات وتضييع الوقت لإيجاد المبررات ؟! ماذا تهمني كل هذه المعاذير، سواءً كانت حقيقة أم غير ذلك ؟!" سألت نفسي.

-وكم يوماً تنوون البقاء في كاليفورنيا يا دكتور؟! أتمنى أن تخصص لي أمسية كاملة حتى أقوم بها بواجب الضيافة نحو الأستاذ الروحي لأخي وصديقي جيمس!

انفجر الدكتور فينيك يضحك، وكأنما قلت نكتة لوذعية، ثم بعد أن توقف قال:

-تعني كم ساعة أنوي المكوث في كاليفورنيا ؟!! إنني عائدإلى مدينة كانساس صباح الغد، إذ إن موعد طائرتي هو التاسعة صباحاً.

وفتحت فمي لأسأله سبب هذا البرنامج القصير والذي مدته ساعات فقط، فقال:

-شكراً جزيلاً على الدعوة ! لقد أعلمني جيمس أنك كريم جداً جداً ! وأن بك كرم العرب وشهامتهم المتميزة !

-إذن دعني أريك كرمنا وابق ليلة أخرى ! قلت.

-مستحيل! نعم مستحيل! إن مرضاي ينتظرونني، وصدقني لولا أن جيمس عزيز علي جداً ومشتاق لرؤيته، إذ مضى على رحيله إلى كاليفورنيا أكثر من عامين لم نلتق فيهما، لما كنت قبلت الحضور ! ثم استدرك وكأنما تذكر بأنه قد أفصح عن شيء ما كان يجب الإفصاح عنه:

-لما كنت قبلت الحضور لهذا المؤتمر الذي هو فقط لليلة واحدة ! ثم بعد أن بلع ريقه ولعله تذكر فأضاف:

-كما أنني متشوق لمقابلتك من كثرة ما حدثني عنك؛ فقلت لابد من أن أحضر إلى كاليفورنيا وأقابل هذا الإنسان المميز الذي يتحدث عنه تلميذي وصديقي بهذا الشوق المستعر والطريقة النادرة.

-ومتى يكون هذا المؤتمر؟! سألت.

وهنا شعرت وكأنما الدكتور فينيك استيقظ فجأة إذ هز رأسه يمنة ويسرة وبسرعة مذهلة وكأنما يطرد وسناً قد داهمه فقال:

-هو ليس مؤتمراً بمعنى الكلمة ! لي زميل طبيب مختص مثلي في علم النفس، كتب ورقة ينوي تقديمها إلى مؤتمر يعقد بعد بضعة شهور في مدينة نيويورك، ويريدني أن أساعده في تنقيحها ! إن الاتفاق بيننا هو أن يأتي إلى غرفتي في الفندق لنناقشها هذا المساء.

-شكراً يا دكتور فينيك ! لقد أخّرت اللقاء بصديقك من أجل أن تأتي لزيارتنا ! إنه كرم أخلاق منك وجميل لن أنساه لك! قال جيمس.

-في الحقيقة أن الذي ضاعف من رغبتي الشديدة للمجيء إلى كاليفورنيا، هو شوقي الشديد للقاء البروفيسور دهشان والتعرف إليه، لكثرة ما حدثتني عنه وشوقتني إلى لقائه!

–شكراً يا دكتور، وأنا سعيد بمعرفتك، وآمل أن نلتقي قريباً حتى أسعد بحديثك الشيق! قلت صادقاً.

–صدقني يا بروفيسور سهيل؛ إن سعادتي بالتعرف إليك والتحدث معك لا تعادلها سعادة بالدنيا! قالها بحماس مفرط وهو يتلذذ بكل حرف ينطق به.

شعرت الصدق في كلامه وأحسست الإخلاص في قوله فقلت:

–شعور متبادل صدقني يا دكتور! قلتها بصدق وإخلاص.

أنا شرق أوسطي أتيت من رحم الشك، وولدت بالشك، وأعيش بالشك، وحياتي ووجودي كلها شك في شك ! أفعال وأقوال وتصرفات وتناقضات، والتخبط في قول هذا وقول شيء مغاير له، بين صديقي جيمس وأستاذه الروحي، فينيك، لم يقنعني ولم تعجبني أيضاً كثرة الاعتذارات والمبررات؛ إذ ما الذي يهمني إذا كان الدكتور فينيك قد حضر خصيصاً من أجل رؤيتي أو من أجل رؤية صديقي جيمس، أو من أجل قراءة ورقة صديقه وتصليحها؟! جميع ما قالوه وجميع أعذارهم لم تقنعني وكذلك لا تهمني ولا تؤثر علي، هذا هو المهم !

لاحظت أن الدكتور فينيك حتى وهو لا يتكلم معي وكان يتكلم مع شيلا أو جيمس لا يرفع عينيه عني، مما أخجلني وأحرجني، وجعلني في بعض الأحايين أتجنب النظر إلى وجهه هرباً من عينيه اللتين تطاردانني.

كان له عينا صقر جارح؛ إذ كنت أشعر وهو يحملق بي وكأنما عيناه تريدان أن تخترقا جمجمتي لتقرآ ما يجول في خاطري... لتقرآ أفكاري! كان ينظر إلي فأشعر كأنما كان يعريني من ملابسي ويريد أن يضاجعني، فأشعر بالإشمئزاز و القرف تارة، و الغضب و الثوران تارات؛ وأحياناً أشعر وكأنما أنا شاة أو نعجة يريد أن يتأكد من سُمني وكم أزن حتى يعرف كم يتوجب عليه أن يدفع ليشتريني !!

لقد كان أحيانا يفعل معي ما كنت أفعله أنا كثيراً مع بعض النسوة. كنت عندما ألتقي فتاة جميلة فأعجب بها ولا أستطيع أن أبوح لها بإعجابي؛ إما خوفاً من غضبها أوخوفاً ممن معها، فإنني أظل ألاحقها بنظراتي الولهى لأرسل لها رسالة بأنني معجب بها، وأنها استحوذت على عقلي وقلبي، وأنني أتمنى لو أستطيع أن أمضي بعض الوقت بين ذراعيها! هكذا كنت أفعل أنا أحياناً، وهكذا شعرت الليلة وهو يلتهمني

بنظراته، وكأنما هو يريد أن يقول لي بأنه معجب بي ويريد أن يضاجعني. ولكن تأكد لي بعد حديث طويل بأن إعجابه بي ليس جنسياً فتساءلت ماهو يا ترى ؟! كنت أسأل نفسي أحياناً وفي كثير من الأحايين أهز كتفي وأقول ما الذي يهمني ما زال تصرفه لا يؤذيني !

-وماذا تفعل زوجتك يا دكتور؟1 سألت بعد أن لاحظت خاتم الزواج بيده.

-زوجتي "كينياتا" مثلى طبيبة نفسية تشاركني نفس العيادة، إذ لولا وجودها معي لما استطعت الحضور لرؤيتكم هذا المساء.

-وهل لك أولاد يا دكتور ؟! سألت لأغير موضوع المجاملات. ابتسم الدكتور وأجاب:

-نعم ! لي ولدان وبنت. البنت هي الكبرى واسمها سالي، متزوجة وتعيش في مدينة نيويورك، وعندها ولد عمره خمس سنوات واسمه مايرز مثل اسمي، أحبه كثيراً، إنه شعلة ذكاء، وهو جميل جداً؛ زوجها صيدلاني، موظف في شركة أدوية كبيرة، مدير قسم، وهي مثله صيدلانية وتعمل في نفس الشركة، وهو مديرها. لي ولد اسمه ستيفن يحضر للدكتوراة في علم النفس من جامعة شيكاغو وهو أصغر من البنت، وزوجته واسمها روزال تدرس علوماً سياسية في نفس الجامعة، وتريد أن تحصل على الدكتوراة لتكون أستاذة جامعة؛ أما الابن الثالث والصغير فاسمه ثيودور وهو يتدرب على الحفريات في إسرائيل، لا أعرف أخباره ولم أسمع منه منذ سنتين.

-الدكتور فينيك هو من أولاد عمومتكم، ولكنه ليس صهيونياً، وكحقيقة فهو يكره الصهيونية لأنه يعتقد أنها شوهت اليهودية الحقيقية، وتعجل في نهاية دولة إسرائيل !

"قد لا يكون صهيونياً ولا شك أنه يهودي متعصب لقوميته اليهودية!" قلت في نفسي.

-أنا من جماعة السلام الآن! نعم يا بروفيسور دهشان؛ أنا أكره الصهيونية وأحتقرها، لأنها هي التي جلبت الويلات لكلا الجانبين يهوداً وعرباً وستجلب المزيد منه ! لقد حاولت كثيراً أن أقنع ابني بأن لاينضم إليهم ولكنه رفض، ونكاية بي ذهب إلى هناك، ولم أسمع منه منذ ذلك الحين! إنني حزين جداً لأجله!

لم أعلق لأنني رأيت سحابة من الكآبة قد علت وجهه حقاً، ولما رآني صامتاً أضاف:

–لقد أشرت عليه أن يختار أي بلد في العالم عدا إسرائيل، يعمل في الحفريات فيها، لأنني أعرف أنه مولع بما صنع الأولون، وأعلمته بأنني على استعداد أن أمده بكل ما يحتاجه من المال حتى يحقق أمنيته ويحصل على ما يريد، ولكنه رفض بشدة.

"لعله واحد من الذين نشاهدهم على التلفاز وهم يطلقون النار على أطفال الحجارة !" قلت في نفسي.

–"أنتم" دائما تختارون الاختصاصات المتميزة والتي تعود على صاحبها بالنفع الجزيل. قلت وقد عنيت بكلمة أنتم اليهود ! لا شك أن الدكتور فينيك عرف ما عنيت بكلمة أنتم فقال:

–نحن اليهود يا بروفيسور سهيل لا نضيع وقتنا عبثاً ولا نهدر حياتنا هباء، نحن دائماً جديون وجادون ! إنك لن تجد يهودياً فقيراً أو بدون عمل ! إن الواحد منا إذا لم يكن فاحش الثراء فعنده ما يوفر له حياة رغيدة وعيشاً كريماً ! إننا متكافلون ونساعد بعضنا بعضاً، بعكس بقيّة الأمم ! قال ذلك و ابتسم ثمّ هزّ رأسه بعدها عدّة مرّات !

–هذا صحيح ! إنها ميزة أمتدحها بكم! قلت صادقاً.

لعل مقولتي هذه قد حمست الدكتور فينيك للحديث عن بني قومه، وشجعته على الاسترسال في أفكاره؛ فأضاف بحماس وتأكيد:

–إن الأم اليهو دية ترضع وليدها مع اللبن، المثابرة؛ الطموح؛ الالتزام؛ السمو؛ التقدم دائماً !

–هذا ربما لأنكم تعتقدون بأنكم شعب الله المختار! قلت بطريقة الدعابة وأتبعتها بضحكة خفيفة.

لا شك أن جملتي هذه قد أثارت الدكتور فينيك، إذ لاحظت أن تغييرا شديداً قد علا سحنته فقال بحماس وكأنما هو يخطب:

–نعم ! نحن شعب الله المختار، اختارنا الخالق لمساعدة البشرية ولنتولى المراكز القيادية في العالم ! إن الاقتصاديين الكبار والمفكرين العظماء والفلاسفة المتميزين والأطباء والمحامين وأساتذة الجامعات الكثيرين منهم يهود. إننا متميزون في كل حقل من حقول العلم والمعرفة !

-نعم! هذا صحيح، إن اليهود في أمريكا بل في العالم كله لهم ثقل كبير في جميع ميادين الحياة! قال جيمس.

-هل صممت على اسم لروايتك الجديدة يا سهيل؟ ! أو ما زلت تبحث لها عن اسم ؟! سألت شيلا.

لا شك أنها بسؤالها هذا تريد أن تغير الموضوع ،لأنها تعرف أنني لا أحب الحديث في السياسة وأكره الخوض فيها، ولأنها تعرف أيضاً أن كثيراً من ذوي الرأي المختلف ينتهون إلى الخصومة فيما بينهم ! لقد شكرتها في سري ونظرت إليها نظرة امتنان وتقدير، وغمزت لها بطرف عيني ، فهزت رأسها وهي تبتسم وكأنما تقول لي عفواً !

-عن ماذا تكتب يا بروفيسور سهيل؟! سأل الدكتور فينيك وقد علت وجهه ملامح الارتياح.

-أكتب عن مشاكل وطني، الوطن العربي الكبير، كما أكتب عن الأردن وخصوصا عن المدينة التي ولدت فيها. السلط الحبيبة ! قلت.

-وهل تكتب عن نفسك، عن تجاربك... عما يمر بك... الناس الذين يؤثرون في حياتك ويتركون بصماتهم عليها ؟!

-طبعاً ! طبعاً ! قلت بحماس.

-يجب عليك يا صديقي سهيل أن تكتب روايات؛ تكتب عن الناس الذين تعرفهم. قال جيمس.

-لقد كتبت عدة روايات باللغتين العربية والإنجليزية. قلت.

-سهيل يحب أن يكون كاتباً روائياً متميزاً ، وأظن أن بمقدوره أن يكون ! قال جيمس.

-وهل ذكرت بهما صديقيك الحميمين جيمس وشيلا؟ ! سأل الدكتور فينيك.

-في الحقيقة لم أفعل، وإن كان احترامهما وحبهما يملآن قلبي وكل وجودي ! إن كاليفورنيا بدونهما صحراء قاحلة ! إنهما أهلي و كل أحبتي هنا! قلت.

-ونحن كذلك. قال جيمس. بحماس.

-سهيل ليس صديقاً فقط؛ بل أخ عزيز أيضاً. قالت شيلا.

-رائع أن أعرف هذا! قال الدكتور فينيك بحماس وقد فرد ابتسامة جذلى فوق شفتيه.

لا أدري لماذا في تلك اللحظة خطرت على بالي تلك الفكرة الغريبة العجيبة، فقد تذكرت الأهل والعشيرة وكذلك مدينتي السلط الحبيبة، والتي أحببت بها صغيراً بنات العشيرة زيْنة ومديحة وريا وحفيظة، ثم عشقت بها كبيراً سميحة ، فتعذبت في حبها، وما زلت أفعل ! قلت.

-في تاريخنا العربي وقبل ظهور الإسلام؛ أي قبل قرن ونصف من الزمان، عصر كانوا يسمونه العصر الجاهلي، إذ كتبت به العديد من القصائد التي كانوا يعلقونها على باب الكعبة في مكة، فكان الداخلون والخارجون ينحنون احتراماً لها. كان عندما يولد شاعر في قبيلة ، فإن قبيلته تذبح الذبائح وتقيم الأفراح احتفالاً بمولد هذا الشاعر، لأنه من خلال قصائده هذه يعدد مناقب القبيلة، ويدون بطولاتها فتشتهر بناتها، وأنا أريد أن أكتب عن مدينة السلط الخالدة وعن نساء ورجال عشيرتنا، لأنني أريد أن يفتخروا بي بأنني خلدتهم وخلدت مدينتهم فيشيرون إلي بالبنان !

-لا شك بأنك ستذكر في رواياتك صديقيك جيمس وشيلا، فهل تعتقد يا بروفيسور دهشان أنك ستذكرني أنا أيضاً ؟!

وبلا شعور ولا إرادة مني وجدت نفسي أضحك وأقهقه، ثم فجأة توقفت عن الضحك إذ شعرت بأنني كنت غير مهذب ولا حضاري، فقلت معتذراً:

-أنا آسف جداً جداً! وأعتذر لثلاثتكم بحرارة! وأضفت:

-إذا صادف وذكرت في رواياتي اسمي صديقي العزيزين شيلا وجيمس، فإنني ربّما، سأقول فيها بأنني في إحدى زياراتي لهما قابلت في بيتهما طبيباً نفسياً عظيماً اسمه الدكتور مايرز فينيك، وإن كنت في الحقيقة لن أجد سبباً يدعوني لذكر ذلك ! قلت هذا وأتبعتها بضحكة خفيفة.

-لا تضحك يا صديقي ولا تسخر! من يدري؛ قد يحدث ما يدعوك لأن تكتب عني طويلاً... طويلاً جداً ! قالها بانفعال وغضب وأتبعها بابتسامة صفراء خبيثة !

-يعني الدكتور فينيك أن تذكره في رواياتك كصديق لصديقيك شيلا و أنا، وأنك قابلته في بيتنا ! قال جيمس ذلك ونهض واقفاً بعد أن نظر إلى ساعته وأضاف:

-يا إلهي! الساعة الآن تقترب من الحادية عشرة والنصف، ولا شك أن صديق الدكتور فينيك ينتظره الآن في الفندق بفارغ الصبر.

نهض الدكتور فينيك متثاقلاً وبدون حماس ولا رغبة، وقد شعرت بأنه كان يتمنى من أعماق قلبه لو أنه يبقى معنا ولا يتركنا، إذ لا شك عندي أنه كان مستمتعاً في حديثه معنا، ولا أظن بأنه كان عنده موعد، ولكنه مع هذا نهض وصافحني وصافح شيلا بحرارة وقال:

-لقد أسعدتني معرفتك يا بروفيسور دهشان، واستمتعت بحديثك كثيراً وآمل أن نلتقي في المستقبل، ولا شك أننا سنفعل !

لم أفهم ما عنى ونظرت إلى شيلا علّني أجد عندها الجواب، ولكنها هزت رأسها بالنفي وكأنما تقول لي بأن ما يقوله الدكتور فينيك لغز عندها مثلما هو لغز عندي !

الفصل الخامس عشر

عندما كنت أذهب إلى بيت شيلا، كنت أذهب و كأنما أنا ذاهب في رحلة حج... رحلة تصوف... رحلة عبادة... رحلة صلاة وتهجد... رحلة ورع وتقوى وإيمان... رحلة خشوع واستغفار وتوبة... رحلة شكر وامتنان وعرفان إلى خالق الأكوان والأرضين ومبدعها، الذي منحنا كل هذا الجمال والروعة وكل هذا الحب والدفئ والحنان !

كان الوقت عطلة فصل الصيف، وكان من أجمل الفصول التي قضيتها في حياتي، هنا في أمريكا ! إنني ومنذ ابتدأت العطلة الدراسية الصيفية، بدأت أطبق نفس الطريقة التي كنت أحلم في تحقيقها، منذ أن كنت طالباً في مدرسة السلط الثانوية ! فلقد كنت أحلم بأنني سأقضي ثلاثة شهور العطلة الصيفية أتمدد فوق الرمال لا أدرس ولا أدرّس؛ وأن أقضي كل الوقت في المطالعة أو الكتابة؛ أو أن اذهب إلى شاطئ البحر أتمدد فوق الرمال أرقب السابحات الفاتنات يتبخترن على الشاطئ، ويعرضن أجسامهن إما لأشعة الشمس وإما للمعجبين بهن !

لقد رفضت طلبين اثنين للتدريس أثناء عطلة الصيف، فقد طلبت مني جامعتي شيكاغو ونيويورك أن أدرّس موضوع "الشرق الأوسط في القرن العشرين"، ولكنني اعتذرت بحجة أنني أنوي زيارة الشرق الأوسط هذا الصيف، بناءً على إلحاح والدتي وأخي وأخواتي؛ ولكن الحقيقة كانت غير ذلك، وهو أنني كنت سعيداً جداً سعادة لا توصف، لقربي من عائلة الروبنسون، ولرؤيتي لهما كل يوم دون استثناء ولساعات طويلة ! لقد كنت أشعر بسعادة لا توصف وفرح لا يمكن تصوره، كما وشعرت بأنني لا أقوى على فراقهما ! يالها من متعة روحية ، تصوفية ايضاً !

كنت أنام متأخراً ولا أنهض من فراشي إلا في منتصف الضحى، وكنت بعد الفطور أضع نفسي في سيارتي وأذهب إلى الشاطئ... لقد كنت غالباً ما أكون وحدي، حيث أذهب إلى بقعة نائية منعزلة ، فأستلقي فوق الرمال تارة، وأقرأ في كتاب آخذه معي تارة أخرى، وحيث أسبح تارة أو أسير على الرمل مسافة طويلة. ! كانت أحيانا ترافقني إحدى الفتيات اللواتي أعرفهن وأحيانا اللواتي أتعرف عليهن على الشاطئ، و مرّات كثيرة كنت لوحدي!

كنت أبقى حتى تنحرف الشمس إلى الغروب ، فأحمل أغراضي وأتوجه بعدها إلى منـزل الروبنسون، حيث يكونا قد عادا من عمليهما؛ فإما أن نقضي المساء في شقتهم، وإما أن نذهب ونتمدد على شاطئ البحر، ليلاً...! أما يوم الأحد فقد كنا نذهب غالباً ثلاثتنا، وأحياناً أدعو فتاة ترافقني فنذهب إلى الجبال ! أما يوم عطلة شيلا فقد كنا غالباً ما نذهب، نحن الاثنين، هي وأنا، ونستلقي على الرمال، إما نقرأ أو نستمتع بالشمس لبعض الوقت؛ وكثيراً ما كنا نمضي الوقت نتحدث أحاديث شيقة ومختلفة؛ وفي المساء نعود فنجهز وجبة العشاء، شيلا و أنا، حيث ينضم إلينا الزوج لاحقاً !

منذ آن تعرفت على عائلة الروبنسون، ومنذ أن بدأت الحضور إلى بيتهما وأنا أمضي يوم السبت في ضيافتهم، وهو اليوم الذي من المفروض به أن يكون يوم عطلة رسمية في أمريكا، وكذلك لا يذهب الزوجان إلى عمليهما ! أقول منذ ذلك اليوم، إلا وغادرنا الزوج وبقينا نحن الاثنين، شيلا وأنا وحيدين ! لقد أعلمنا الزوج بأن يوم السبت عنده هو اليوم الذي ينهي به كل ما تراكم عليه من أعمال خلال الأسبوع، فقد كان عليه أن يقوم في هذا اليوم، بواجبات عديدة والتزامات كثيرة نحو البنك ! ولهذا لم يتواجد معنا في الشقة في ذلك اليوم.

كنت أرتدي ملابس السباحة وكنت مستلقياً فوق الكنبة في غرفة الجلوس، واضعاً قدميّ فوق طاولة الوسط، وكنت أقطع الوقت بقراءة كتابٍ أحضرته معي لقتل الوقت، وأنهي التنكة الخامسة من سائل البيرة، وكانت الموسيقى الحالمة الرقيقة تشنف أذني من "الهاي فاي" وتتسلل إلى عواطفي رقيقة ناعمة !

كانت الساعة تقترب من منتصف النهار، وكان من المتوقع أن نذهب -شيلا وأنا- إلى الشاطئ لنسبح ولنستلقي على الشاطئ، نمتع أجسامنا بأشعة الشمس البنفسجية... شمس ما بعد الظهر!

كانت شيلا، هي الأخرى، مرتدية بذلة السباحة، ذات القطعتين الصغيرتين الناعمتين، وكانت تحتسي بعض سائل البيرة وهي تغسل الصحون ! كنا نتبادل بعض الأحاديث المقتضبة، من بعيد... وعندما رأيتها مقبلة نحوي سحبت قدمي من فوق طاولة الوسط احتراماً لها، ثم ألقيت نظرة على الصندوق المعبأ ببعض الساندويتشات والمرطبات والذي كانت قد أعدته لنأخذه معنا...!

–سهيل ! ماذا تقرأ ؟! سألت شيلا بعد أن جلست على الكنبة قبالتي وبعد أن وضعت تنكتها على طاولة الوسط إلى جانبها.

–أقرأ في كتاب به مجموعة أشعار إنجليزية وأمريكية ! قلت وأنا أنظر إلى جلدة الكتاب.

–إقرأ لي بعضاً منها.... أرجوك...، أشعر اليوم بأنني حزينة جداً... حزينة حتى النخاع وأكاد أتلاشى من الحزن !

–ماذا حدث ؟! سألتها مرعوباً!!

–لا أعرف ! إنه شعور غامض ! أشعر بحزن يكاد يقتلني... لم أشعر بمثله من قبل !

–ما أكثر الأيام التي شعرت بها أنني وحيدٌ... ضائعٌ... مسحوق ... لا أهل له ولا قريب ولا من يحبه؛ وأنني صفر في هذا الكون الواسع...! قلت ذلك مواسياً لها ومشجعاً؛ ثم فتحت الكتاب وبدأت أمر بعيني على الفهرس في المقدمة إذ إنني أحفظ معظم قصائد الكتاب عن ظهر قلب ! لقد كنت أبحث عن قصيدة خاصة للشاعر الانجليزي "شيلي"، وعندما عثرت عليها فتحت على الصفحة وبدأت اقرأ...!

إنني عادة عندما أقرأ الشعر، سواء أكان شعراً عربياً أم إنجليزياً، فإنني أشعر بعاطفة متأججة، أكاد أحترق لشدة أوارها وزخمها، فأحس وكأنما أضع كل عواطفي وقلبي وروحي وأحاسيسي في صوتي !

لقد كنت معجباً بالقصيدة جداً... أعدت قراءتها مرات عديدة حتى إنني أحفظها عن ظهر قلب... ! كانت تصور لوعة الشاعر وحنينه إلى حبيبته التي يهيم بها ولهاً وحباً، وقد هجرته إلى إنسان آخر!

كانت الموسيقى الناعمة الهادئة... تنبعث من "هاي فاي" تواكب كلمات القصيدة والتي أثّرت بي تأثيراً كبيراً ! لقد شعرت هذه المرة أن القصيدة قد تلاعبت بعواطفي وأحاسيسي حتى تصورت نفسي شعلة ملتهبة من العواطف المتأججة والحنين المدمر!

لست أدري لماذا حدث لي كل هذا فجأة ؟! هل كان السبب هو الموسيقى أم السعادة الغامرة التي كنت أنا فيها ؟! أم هي البيرة التي تلاعبت بعواطفي ؟! أم هل هو استعدادي النفسي؟! أم هل هو لأنني اقرأها أمام فتاة أنا معجب بها حتى الجنون، وأحترمها حتى العبادة ؟! أم كانت بسبب كل هذه العوامل مجتمعة ؟! لا أدري ؟! حقاً ، إنني لا أدري

!! إن كل ما أدريه هو أنني شعرت في تلك اللحظات بأنني قد أصبحت مجموعة مجنونة من العواطف المتأججة، وأنني أكاد أحترق من شدة الانفعال والتأثر؛ وهنا رفعت عيني عن الكتاب واختلست نظرة من فوق الصفحات وتطلعت إلى وجه شيلا، فوجدت دموعها تنزل فوق خديها بغزارة كأنها المطر المنهمر! تظاهرت بعدم الرؤية واسترسلت في تلاوة القصيدة ، وقد تأكدت من وضع الكتاب ليحجب عن عيني رؤية وجهها !

فجأة انفجرت شيلا تبكي بأعلى صوتها، وكأنما هي بركان قد انفجر فجأة ! ذهلت... نعم ذهلت... لا أدري ما أفعل...؟! فكرت أن أكف عن القراءة لعلها تكف هي عن البكاء؛ ولكنها لم تفعل كأنما توقفي قد شجعها وازدادت في بكائها وثوران عواطفها...! تمنيت في تلك اللحظة لو أنها تترك مكانها وتخرج خارج الغرفة... ثم فكرت أن أخرج أنا نفسي من الشقة... ولكن بدلا من أن أفعل، وبدون وعي مني، وجدتني أتكلم وكأنما أحدث طلابي في قاعة المحاضرات؛ فقلت:

-هناك بعض الناس، أنعم الله عليهم، بعاطفة رقيقة حساسة وبالرومانسية الحقة ... نعم، إنني أعتبرها نعمة من الله تعالى ، إذ أنهم بهذه العاطفة المتوقدة ، يتذوقون ويستمتعون بالجمال، وبالرومانسية الحقة أين ما وجدوهما، وأينما كانتا ... في أغنية حلوة ... في قصيدة جميلة... في قطعة موسيقية ساحرة... في كلمة رقيقة ! لقد نزلت دموعي مراراً تأثراً لبعض القصائد التي كنت أقرأها... ولقد بكيت مرة في غابة "الأشجار الحمراء" في شمال كاليفورنيا، وأنا أستمع إلى خرير الماء، وأجلس محدقا بالغابة الساحرة بعد منتصف الليل؛ وكأنني في معبد تملكه الآلهة ... ومرة بكيت وأنا أجلس على شاطئ النيل في القاهرة، أيام كنت طالباً هناك... أرقب الشمس تختفي خلف الأفق وتنزل وسط الماء في أعماق النيل...! ومرة همست زائرة في أذني وكنت أقف أمام نافورة للماء في روما؛ أرقب انسياب الماء... وعندما رأت دموعي تنزل وأنا أحدق باللوحة المؤثرة جداً، ابتسمت وقالت: "إنك إنسان مثلي ذو شعور متقد وعاطفة متأججة !" وهنا توقفت عن الحديث.

في هذه اللحظة، كفت شيلا عن البكاء ، ومدت يدها اليمنى وتناولت منديلا من الورق مسحت به دموعها ، ثم قالت وهي تجفف الدموع:

-أنا آسفة يا سهيل، لست أدري ما حدث لي ؟! شعور غريب استولى علي فجأة ! لقد تولدت بي هذه العادة، عادة البكاء بعد أن تزوجت وبعد أن بدأت أشرب ! لقد أقلقت هذه العادة السيئة جيمس جداً،

فعرضني على طبيب أعلمنا بأن هذا حادث عرضي قد يزول مع الأيام ! قالت بعد أن مسحت دموعها ثم أضافت ثانية:

- إنه ويا للأسف لم يتوقف، وإنما على العكس من ذلك، فقد تعاظم مع الأيام ! إنني أحيانا أمضي ساعة وربما أكثر وأنا أبكي دون أن أعرف السبب !

-لا عيب في ذلك ولا حاجة للإزعاج والقلق ! لعل قلبك وعيناك لم يريا الجمال بأعمق معانيه، ولم يشعرا بالقيم الجمالية والروحية في أحلى صورها إلا بعد أن تزوجت ! قلت ذلك لأواسيها ! وبعد أن ضحكت ضحكة قصيرة أضفت:

- لا تنسي أن ما تفعلينه هو دليل على النضوج العاطفي والوعي الفكري.

- سهيل ! إنك مؤدب جداً وذو خلق نبيل ! إنك دائما تجد مبررات لعيوب الآخرين، حتى إنك تحولها إلى فضائل ! ما أنبلك وما أرقى تفكيرك ! إنك حقا إنسان بكل ما تحتوي هذه الكلمة من معان !

- شكرا لك يا شيلا ما أنبلك ! إنك دائما تمتدحينني وتبالغين بالثناء علي.

- إنك لم تسألني لم كنت أبكي على صدرك تلك الليلة، ونحن نرقص احتفالا بعيد أول لقاء لنا... ولم تسألني لم كنت أنهنه ونحن نجلس بالسيارة ليلاً صامتين على شاطئ البحر في الظلمة، ونستمع إلى الأمواج تتكسر فوق الصخور... ثم ونحن متمددين على الرمال وأنت تحدثني عن طفولتك المعذبة وكذلك عن أيامك الحلوة... ولم تسألني أيضا عن ليلة عندما كنا نجلس نحن الثلاثة، أنت وجيمس وأنا، في شقتنا عندما بكيت ونحن نستمع إلى المغنية "مورغانا" وهي تغني أغنيتها المشهورة "تمنى لي حظا سعيدا ومستقبلا زاهرا"!

- السبب هو أنني لم أسالك لأنني كنت أعرف الجواب! قلت ذلك وضحكت.

ارتجفت شيلا كأنما أصابتها بردية شديدة أو كأنما لسعتها أفعى واتسعت حدقتا عينيها، ثم نظرت إليّ باندهاش وذهول، فاستطردت أنا:

- - لقد قلت لك السبب في حينه ! فلماذا أسأل وأنا أعرف الذي يزعجك ويقلقك؟!لا بد وأن يكون هناك ما يشغل بالك ! أنا واثق من

ذلك... لو أنك تعرفين أنني أستطيع مساعدتك لما ترددت بإعلامي، دون الحاجة إلى أن أسالك ! صمتُّ قليلا ولما لم تقل شيلا شيئاً استطردت:

- هناك أشياء كثيرة قد تثير تساءل الإنسان، ولكنه يتناساها، أو فلنقل ولكنه يتجاهلها... احتراماً لمشاعر من يحب ! فمثلا؛ لم احتقرتني وعاملتني بقسوة متناهية وكأنما أنا كومة من القذارة أول معرفتك لي، مع أنني لم أقابلك من قبل، ولم أسئ إليك إطلاقا ؟! ثم لم كنت تبكين ليلة حفلة مدير البنك ؟! إنك لا تعرفين، ولا حتى تستطيعين أن تتصوري، كم مزقت قلبي وأدميت وجداني وأحرقت دمي تلك الليلة ! لقد بقيت أبكي ألماً وحسرة حتى طلع النهار، وكانت المسكينة مارثا ترافقني البكاء ؟!

-ومن قال لك ذلك ؟! وكيف عرفت أنني كنت أبكي؟! سألت وقد فتحت فمها واتسعت حدقتا عينيها.

- كنت أخرج صدفة من الباب الخلفي للبيت، وحيداً، لأستنشق بعض الهواء النقي عندما سمعتك تبكين. قلت.

ومرة أخرى نظرت إلي مشدوهة !

-نعم ! لقد سمعتك تبكين... لقد تصورت أختي أميرة، هناك في الوطن، تبكي لفراق عزيز... فشعرت بالاختناق من شدة الألم والحزن... صدقيني؛ إنني تمنيت لحظتها لو أنني أستطيع أن أجثو عند قدميك وأرجوك أن تعلميني ما يبكيك، علني أستطيع أن أقوم بما يخفف من معاناتك... ولكن هيهات فقد كان من الصعب، بل من المستحيل أن أقوم بعمل مثل هذا ! ولكنني انسحبت في الحال، مخافة أن أفقد عقلي فأصاب بالجنون !

لم تعلق شيلا وإنما بقيت محدقة بي بعيون جامدة وفم نصف مفتوح، وهنا وجدت نفسي أقول:

-وهل تعتقدين أنه عندما أعلمني جيمس بأنكما ترغبان العودة إلى البيت بسبب ما أصابك من مغص، فهل تصدقين بأنني اقتنعت بقوله ! وهل من المعقول لو كنت أعرف حقا أنك كنت مريضة، لكنت تركتكما تذهبان بدوني ؟! وهل من المعقول أن لا أذهب إلى بيتكم في نفس الليلة، واطمأن عليك لأتأكد من أنك بخير ؟!

وقفت شيلا ونظرت إلي كاللبؤة الجريحة، وبقيت محدقة بوجهي لفترة خلتها قرونا وشعرت وكأنما تريد أن تحرقني بنظراتها الملتهبة؛ ثم غادرت مقعدها ودخلت إلى داخل البيت ! لم تغب إلا قليلا ثم عادت من

جديد وصارت تنظر إليّ وعيناها مسلطتان إلى وجهي كالمسحورة... ثم أتت وارتمت فوق صدري وهي تردد بصوت عال كالمحمومة: سهيل! قبلني...! قبلني...! أرجوك قبلني بحرارة... ضمني إلى صدرك... حطم أضلاعي... إن لم تفعل؛ سأجن... سأحترق... سألقي بنفسي من النافذة...! أرجوك ! أرجوووووووووووووك...! قالت ذلك ثم ارتمت على صدري؛ وصارت تقبلني بنهم وسعار!

لقد أذهلتني المفاجئة... دفعتها عني بشدة حتى وقعت على ظهرها فوق السجادة ، وصرت أحملق بجسمها مشدوها بعينين جامدتين وجسم متصلب... حاولت أن أحرك لساني لأقول شيئا.. أي شيء... ولكنه كان كالحجر الصلب في فمي !

لقد تمثلت أمامي في تلك اللحظة، كل قيمي... وكل معتقداتي... وكل مبادئي ! يا إله السماء! رحمتك وعفوك وغفرانك... ما هذا الامتحان العسير الذي ترغمني على أن أخوضه؟! إن عبدك الضعيف لا يستطيع أن يجتاز مثل هكذا امتحان، وليس عنده المناعة ليقاوم...! خيانة أعز صديق عندي في أغلى ما يملك... والعيش والملح الذي أكلناه معا... وثقته المطلقة بي... وحبه الشديد لي... واحترامه لي حتى التبجيل والتقديس... ؟!

بقيت أحملق في الجسم الممد أمامي على الأرض... في الفاكهة المحرمة... في الجسم نصف العاري... في الصدر المملوء والنهدين البارزين... في القامة المديدة... في الخصر الأهيف... في الساقين العاجيين... في الشعر المسترسل كأنه أعمدة من نور... في النظرات المتوقدة... الجائعة... في العينين اللتين تستعطفاني...!

وفجأة... وفجأة بدأ الجليد المتحجر يذوب في شراييني... وبدأت الشهوة المستعرة توقظ العملاق النائم في داخلي... وبدأ الوحش المسعور في شراييني يستيقظ... ورويداً رويداً بدأ يتحرك... وهنا بدأ قلبي يدق دقات عنيفة كأنما يريد أن يحطم ضلوعي ليهرب من قفصه؛ حتى أحسست كأن صوته مطارق من حديد... ثم أحسست بعدها وكأنما هو يقف في حلقي...!

لم يعد عقلي يفكر فقد تحول كل كياني إلى شهوة مجنونة... محمومة... مسعورة ! وصارت عواطفي تغلي كماء المرجل! وصرت أضرب

رأسي بوحشية بقبضة يدي تارة، وأمزق شعر رأسي بشراسة وعنف تارة أخرى! وهنا ألقيت بنفسي فوق شيلا كالكلب المسعور... وبدأت أقبلها بنهم وسعار، وكأنما آكلها أو أمزق لحمها... وبدأت يداي تفكان أزرار كلسون سباحتها...! وبسرعة عجيبة... سرعة مذهلة... قوة مخيفة وضعت قدميها في صدري وبكل قوتها وبجميع طاقاتها دفعتني إلى الخلف بعيدا عنها حتى سمع لجسمي صوتٌ وهو يضرب الأرض ، وضرب رأسي في مقدمة الكنبة... وهنا نهضت هي، وهرولت باتجاه الحمام ، ولكن، قبل أن تفتحه، كنت قد لحقت بها وأنا ألهث كثور هائج أو كإنسان قد تحول إلى وحش مسعور؛ ليس هناك من قوة على وجه البسيطة تحول بيني وبين ما أنا مقدم عليه، إلا رصاصة ترديني قتيلاً، أو صخرة يضرب بها رأسي فأفقد إحساسي ووجودي...!

بكل قوتي... وبكل ما عندي من طاقات... حملتها وألقيت بها فوق السرير، وصرت أمزق كل ما عليها من ملابس وألقي بها بعيدا، حتى صار جسمها عاريا تماما !

-سهيل ! باللهِ عليك لاتلمسني... لا تدنس قدسيتي... أرجوك ... أستحلفك بأخوتنا وبطهارة حبنا وبحرمة صداقتنا ! ألم تقل لي بأنني أختك ؟! وهل يغتصب الأخ أخته ؟! تابعت توسّلاتها وأنا أمزق سروالها لأغتصبها !

- سهيل...! أرجوك... أرجوك..! أنا أختك... أنا محرمة عليك... لا تدنسني... جيمس أخوك ... لا... تخن أخوّته... لا تخن الأمانة... لا تطعنه في شرفه...! لا تلمسني... اتركني... أرجوك... أرجوك...!

كانت الكلمات تصل إلى أذنيّ كأنها ذكرى بعيدة... بعيدة جداً...! كانت تحاول باستماتة مذهلة أن تدفعني عنها... أن تحول بيني وبين افتراسها... كان جسمها يرتجف كالمحموم... كقصبة في مهب الريح... وألقيت بجسمي العاري فوق جسمها... وباعدت بين فخذيها... وانقضضت عليها كوحش كاسر أفترسها...! واختلط عرقانا معا... وهنا صرخت شيلا صرخة ألم حادة... تجمد الدم في عروقي... وقف شعر رأسي... تصلب جسمي حتى أصبح كالصنم... واتسعت حدقتا عيني حتى خلتهما طارا من محجريهما، وشعرت كأن دقات قلبي قد توقفت، وأطلقت صرخة من أعماق وجداني وبكل طاقاتي... لا شك أن الجيران قد سمعوها... يا إله السماء...! يا خالق الأكوان.... يا مبدع الكون... رحمتك اللهم وغفرانك...

لقد كانت شيلا عذراء... نعم عذراء... فلتشهد السماء على ذلك... إنه لم يمسسها بشر...! لقد بدأ الدم يتدفق من بين فخذيها...!

لم أدر ما حدث بعد ذلك، ولا كم من الوقت مضى... ولكنني عندما عاد إليّ وعيي، لاحظت وأنا أقود سيارتي يافطة تقول ،"مرحبا بك في مدينة " سانتاباربرا " يا إلهي! لقد سقت سيارتي مائة ميل دون أن أعي ودون أن أدرك ما حولي ! لقد كنتُ في ذهولٍ كامل !

* * * * *

إننا لا نقدر قيمة السعادة إلا بعد أن نحرم منها... ولا نعرف مقدار ولعنا وحبنا للآخرين إلا بعد أن نبتعد عنهم... وبعد أن نحرم منهم... لقد كنت أعرف كم أنا مولع بالسيد والسيدة روبنسون ، وكم أحبهما وأقدسهما...! لقد كنت أعرف أيضا أنني لا أستطيع أن أعيش بدونهما... كان ذلك تصوري من قبل؛ أما في هذه اللحظة فقد تأكد لي بأنني أحبهما إلى درجة الجنون، وأنني لا أستطيع أن أعيش بدونهما ولو للحظة واحدة...! إنهما رئتاي... الهواء الذي أتنفسه... النور الذي أرى به... الطاقة التي تحركني...!

و الآن، و أنا بعيد عنهما، فإنني أحس كأنما يد حديدية تضغط على قلبي، وتظل تضغط وتضغط وأنا أتلوى من شدة الألم وقسوة الحزن، فأشعر وكأنما سأتلاشى في الحال...! كنت أحيانا أشعر وكأنما شيء وضع على فمي، فلم أستطيع التنفس، وأظل أعاني وأعاني حتى أختنق فأموت...! رحمتك اللهم ، عفوك وغفرانك !

لم أهاتف الروبنسون، طامعا أن يكلمانني هما، إذ عندها سأعرف رأيهما في مصير علاقتنا...! تساءلت وأنا كالمجنون؛ هل يمكن أن تعلم شيلا زوجها بما حدث ؟! ماذا ستقول له يا ترى؛ إن فعلت ؟! وكيف تكون ردة فعله هو؟! سؤال طرحته على نفسي آلاف المرات. بالتأكيد سيقول بأنني نذل من أنذال العرب... جربوع من جرابيع الصحراء... حشرة من حشرات المزابل... جرذ من جرذان الحفر الامتصاصية...!

عندما انقضى بقية ذلك اليوم وجاء مساء اليوم التالي، كان بيني وبين الانفجار أو الجنون خيط رفيع جداً... كان الويسكي والفودكا هما طعام معدتي الوحيد، وكنت واضعاً آلة الهاتف أمامي وأنا ممد فوق الكنبة أحدق

بها وأرفع السماعة قبل أن تنتصف الرنة الأولى؛ ولما أقبل مساء اليوم الرابع كنت أدور في الغرفة كالأرنب المذعور، أو كالفار المطارد من زاوية إلى أخرى...! لقد فقدت عقلي وجننت ! رحمتك اللهم وغفرانك !

يا إله السماء! هل كنت حقاًّ أحب شيلا كل هذا الحب، دون أن أعرف ودون أن أشعر بحبي لها ؟! لقد شعرت بأن شيلا كانت ضرورية لي كضرورة الماء والهواء، وأنني لا أستطيع أن أعيش بدونها ! شيلا... أيتها الإلهة الإغريقية... شيلا... أيتها السيمفونية... الزهرة... الأقحوانة... الدحنونة البرية... أنت يا عشتروت... أرجوك؛ عودي إلي فإنني ضائع بدونك... إنني ميت...! ميت... ميت... ميت...!

مساء اليوم الرابع صممت أن أهاتفها في البيت، وكان مساء يوم الأحد. ما كادت تخطر فكرة مهاتفتها على بالي حتى بدأت أرتجف كغصن لين في مهب ريح عاتية، وبدأ قلبي يقفز قفزات محمومة مجنونة، وكأنما هو سعدان يرقصه صاحبه...! لقد أحسست وكأنما قلبي يقف بحلقي ويريد أن يخرج منه، وأن أذنيّ على وشك الانفجار...! لقد كنت كالجندي الجبان الذي يدخل المعركة بالسلاح الأبيض ليقابل أعداءه، لأول مرة في حياته؛ وأخيراً أدرت قرص الهاتف بيدين مرتجفتين؛ وعندما سمعت صليله شعرت أن كل شيء في الكون قد توقف عن الحركة... وتوقف قلبي عن الخفقان !

-مساء الخير ! هل هذا مسكن الروبنسون ؟!

-مساء النور! من الذي يتكلم من فضلك ؟! سأل جيمس عبر أسلاك الهاتف.

-أنا سهيل دهشان ! أجبت.

-آه يا رجل ! ماذا حدث لصوتك...! لم أستطع تمييزه؛ فهل أنت مريض ؟! وقبل أن أعلق صار يتحدث بلهجة الفرح المهتاج:

-يا رجل ما أجمل أن نسمع صوتك! أين أنت الآن؟! ومتى عدت؟! لقد افتقدناك كثيرا! كيف كانت رحلتك؟!

كان الرجل يسأل دون توقف كطفل فرح عادت له أمه بعد أن فكر أنها لن تعود إليه أبدا!

شعرت فجأة كأنما سقطت ميتا إذ كان من الصعب علي جداًّ أن أقول شيئاً! لا شك أنه نتيجة المعاناة والتوتر والتمزق التي مررت بها، والإرهاق الذي أصاب جسمي، فقد تركتني كل هذه المآسي وكأنما أنا مخدر... بل وميت!

-أي رحلة تعني ؟! سألته كالأبله !

-رحلتك إلى شرق الولايات المتحدة الأمريكية !

-آه...! آه...! لقد نسيت! وهنا أدركت بأن لا بد وأن تكون شيلا قد أعلمته سبب غيابي، فأضفت:

-لقد كانت رحلة موفقة جداً ، حققت كل ما ذهبت من أجله !

-هل أنت قادم إلى بيتنا الآن ؟! سألني بفرح متوقد أحسسته عبر أسلاك الهاتف !

-لا يا صديقي؛ من الأحسن أن لا أفعل... لقد وصلت قبل دقائق وقد ضاعت عليّ ساعات طويلة من النوم؛ ومتعب جدا. سأراكم غداً؛ تصبح على خير.

-سهيل ! هل أستطيع أن آتي لزيارتك الآن ؟! أنا مشتاق إليك جداً جداً ! لقد افتقدتك كثيراً يا صديقي ! لا أستطيع أن أحضر شيلا معي، فهي تشعر بتوعك شديد... إنها مريضة جداً... إنها لم تذهب إلى العمل منذ أن غادرت أنت في رحلتك!

-أنا آسف جداً أن أسمع ذلك؛ هل مرضها جدي أم هو مجرد توعك ؟!

- أظن أنه توعك بسيط على ما أعتقد !

-إذن فلتبق الليلة إلى جانبها وسآتي غداً لرؤيتكما بعد عودتكما من العمل. قلت.

-لا أعتقد أن شيلا ستذهب غداً إلى العمل؛ فلم لا تأتي أنت في الصباح ! إنها ستكون سعيدة أن تراك. هل تريدني أن أوقظها للتكلم معك ؟! أنها نائمة الآن.

فجأة بدأت الماكنة المعطلة في داخلي تشتغل من جديد؛ فشعرت بأنني بعثت من جديد.

–لا يا جيمس؛ لا يا صديقي! من الأحسن أن تتركها مستريحة ! سأراها صباح الغد.

بعد ذلك بدأ يسألني عن تفاصيل رحلتي المزعومة، وأنا أختلق له الأجوبة غير الصحيحة حتى زادت مكالمتنا على ما يزيد عن ربع الساعة ! لقد تأكد لي الآن من أن شيلا لم تخبره بما حدث، فشكرت الله من أعماق قلبي، وشعرت وكأنما جبل قد انزاح عن كاهلي !

عندما انتهت المحادثة لم أستطع أن أقف على قدمي، ولم تكن عندي المقدرة حتى أن أطفئ الضوء الذي إلى جانبي ! لقد أصابتني بردية عاتية فصارت كل ذرة في جسمي ترتجف كدرويش سمع طبوله وترنيماته ! لقد كنت حزمة من الأعصاب والعواطف الممزقة... كنت كخرقة بالية، سقطت بعدها فوق الكنبة؛ ولم أستيقظ من نومي إلا صباح اليوم التالي، حوالي الساعة العاشرة !

* * * * * *

عندما صعدت الدرج الذي به شقة الروبنسون ، لم يكن قلبي يخفق وإنما كان يقفز قفزاً! لقد شعرت بأن كعب حذائي كان يضرب في مؤخرة رأسي، بل كان يحفره حفراً! لقد كان باب الشقة مفتوحا فدخلت... كانت شيلا تجلس على الكنبة التي كانت تجلس عليها يوم الحادثة... التجم لساني ولم أدر ما أقول... بقيت خلف الباب أحدق بها... كانت تقرأ أو في الحقيقة كانت تتظاهر بالقراءة في مجلة كانت بيدها... ولما طالت وقفتي أشارت إليّ بيدها ودون أن ترفع عينيها عن المجلة بأن أجلس، فجلست في مكاني المعتاد... نفس المكان الذي كنت أجلس به أقرأ لها الشعر...! بقيت تنظر في المجلة أكثر من خمس دقائق... لم يفتح أي منا فمه وأخيراً سرقت نظرة إلى وجهها، وكدت أطلق صرخة ألم لولا أنني ضبطت عواطفي ! كان وجهها كوجه الموتى... كان أصفر شديد الصفرة؛ ولو أنني قابلتها في غير هذا المكان، لما كنت قد ميزتها...! كانت كالوردة الذابلة التي مضى عليها أيام وأيام دون سقياً أو رعاية ! يا الله لم يبق من شيلا إلا الجلد والعظم !

–شكرا لعدم إعلام جيمس بما حدث ولإخباره برحلة مزعومة، قلت! ولما لم تجب أضفت:

-لقد سألته أول الأمر، أية رحلة تعني، غير أنني فهمت رأساً ! لم ترفع رأسها عن المجلة واستمريت أقول:

- إنك لا تستطيعين أن تتصوري ندمي ولا كم أنا حزين! حقاًّ! لقد تمنيت لو أنني مت أو لو أن الله لم يخلقني! لو تعرفين كيف عشت منذ تلك اللحظة وكم قاسيت؛ فربما كنتِ قد غفرتِ لي...!

- أنا لم أحقد عليك! أخيراً قالت دون أن ترفع عينيها عن المجلة.

- وهل تعنين أنك لست غاضبة مني! قلت ذلك وقفزت من مكاني لأحتضنها، ثم أضفت:

- أوه شيلا ! لو تعلمين كم افتقدتك وكم أحبك ! أنا كالسمكة التي تخرج من الماء، عندما أكون بعيداً عنك!

أشارت إلي بحزم أن أعود إلى مقعدي، دون أن تفتح فمها؛ وبعد أن جلست أضفت:

-كدت أخشى أن أفقد عقلي! إن دمعي لم يجف حتى تلفنت لكما البارحة!

-لقد كان المسكين جيمس يتعذب كثيراً بسبب مرضي، حتى إنه لم يذهب للعمل يومي الخميس والجمعة! لقد فكرت أن أعلمه بما حدث ولكني عدلت مخافة أن أحطم قلبه وأدمر حياته...! قالت بصوت واهن وكأنما يأتي من أعماق القبور!

-لم يخطر ببالي أبداً أنني أحبكما كل هذا الحب وبكل هذه القوة، إلا منذ ذلك اليوم! لقد تأكد لي بأنني إن خرجت من بحيرة حبكِ فإنني سأختنق وأموت!قلت وقد شجعتني كلماتها!

وهنا نظرت إليها فوجدت أنها ما زالت تحدق بالمجلة التي أمامها.

-إنني أحبكما يا شيلا حباًّ لا تستطيعين أن تتصوري عظمه... إنني لم أحب صديقاً ولم أغرم بأحد كغرامي بكما... ولكن ما أشعره الآن نحوك يختلف كثيراً عما شعرته في السابق... إنني أحبك يا شيلا بكل عواطفي وبكل وجودي... أرجوك أن تتفهمي موقفي. قلت.

-أريد الآن أن أبوح لكَ بسر أخفيته عنكَ كل تلك المدة! نعم يجب أن أخبرك الآن! لا شك أنك استغربت جداً معاملتي غير المؤدبة لك أول الأمر، في أول يوم أتيت به الى عيادة طبيب الأسنان، الدكتور إليوت؛ ولا شك

أنك احترت لكراهيتي لك المسبقة، دون أن أعرفك! إنني عندما وقعت عيناي عليك وسمعت صوتك، شعرت شعورا غريبا لم أفهم كنهه...! لقد أحسست حالما وقعت عيناي عليك أول مرة وكأنما شددت إليك... إذ شعرت بقوة جبارة... قوة لا تقاوم... قوة مجنونة... بأن أرتمي بأحضانك... وأن أذوب في جسمك...! استبدت بي تلك الرغبة المجنونة حتى أحسست بأنني فقدت السيطرة على إرادتي، خصوصا وأنت تقف إلى جانبي...! كنت أرتجف كالمحمومة! لقد تمنيت لو أستطيع أن أطلب إليك أن تختفي... أن تذهب... أن لا تعود أبدا إلى العيادة! لقد كنت أتعارك مع نفسي في معركة ضارية... مستعرة... وفكرت أن أحسن طريقة للتخلص منك، هو أن أريك بأنني أكرهك بل وأحتقرك لكي تختفي من حياتي أولا؛ ولأقنع نفسي ثانياً بأنك لا تعني شيئاً بالنسبة لي! يا إله السماء! حالما وقعت عيناي عليك، وسمعت صوتك، ونظرت في عينيك ثم إلى شعرك شعرت بأنني أريدك أن تضمني إلى صدرك... تعصرني بين يديك... تعانقني... تقبلني ثم تأخذني إلى الفراش... هكذا شعرت! فليسامحني المسيح وليغفر لي الرب! ماذا حدث لي؟! هل هذا حقا من صنع القدر؟! وهل نحن حقا نصنع أقدارنا أم أن القدر هو الذي يرسم خطانا ويصمم أقدارنا؟! عفوك اللهم وغفرانك! لقد كنت و الله في كل ليلة، و طيلة مدّة مراجعتك عيادة الدكتور اليوت، و أنا أجلس في غرفتي لأكثر من ساعة و أنا أبكي شوقاً إليك...إلى عناقك ... إلى قبلاتك؛ ثم ابتهلُّ إلى السيد المسيح أن يشفيني من مرضِ حبّك؛ و لم يستجب لدعائي إلا بعد أن توقّفت أنت عن مراجعة الدكتور اليوت! لقد حمدت الله وقتها فعلمت أنني شفيت! وبظهر يدها مسحت دموعا كانت تسقط بغزارة فوق خديها الذابلين محاولة إخفاءها عني كي لا أراها؛ ثم واصلت حديثها:

- ولكني وجدت أن عملي هذا قد نتج عنه العكس... فقد كنت كالمدمن... شعرت أن رغبتك تجري في دمي وبشراييني؛ حتى أخيراً ألقيت بسلاحي؛ فاخترعت قصة محادثتك هاتفياً ! لقد فكرت أنك سوف تتصرف معي بقسوة واحتقار مما قد يجعلني أكرهك؛ ولكن للأسف الشديد، كنت دائماً لطيفاً معي، ودوداً... محباًّ...مؤدباً... حتى تحولت رغبتي فيك جسديا إلى حب عنيف عنيف... حب روحي وجسدي أيضا... ولكنني كنت دائماًأكتمه عنك عندما كنت تأتي إلى العيادة؛ ونجحت مرات وفشلت مرات أخرى؛ ولكنك لم تلحظ، ربما لطيبة قلبك وربما لتربيتك التقية الصالحة... ! قالت.

-والآن وقد عرفت كل شيء، فإنني أريد أن أتزوجك يا شيلا! أن تنجبي لي أمينة أخرى أو عبد الله ثان! أريد أن أقضي عمري معك... إلى جانبك... أسمع صوتك فأطرب وأنظر في عينيك، فأكتب الروائع الأدبية... أستدفئ بحبك... بعطفك... بحنانك... بغزارة علمك... بقوة شخصيتك... أنا

لا أستطيع أن أعيش بدونك... أنت الهواء الذي أتنفسه... أنت حياتي... أنت وجودي... أنت أحلامي...!

-لا يا سهيل! إنني متزوجة أمام الله وأمام الناس... وأنا أحب زوجي بكل جوانحي، وبكل وجودي... وهو يثق بي ثقة عمياء... ويعتمد علي كثيراً؛ فإن أنا تركته سيفقد عقله... سيجن... سيدور في البراري على غير هدى... إنني أنا حاميته وحياته معاً! لقد دفعت، وسأظل أدفع، ثمن خطيئتي، حتى أقابل المسيح، وسأجثو عند قدميه وأبكي... وأظل أبكي وأبكي؛ لعله يسامحني ! قالت هذا وانفجرت تبكي من جديد ، بحرقة مزقت قلبي !

- إن الزواج غير نافذ، بينك وبين جيمس، ما لم يكن بينكما اتصال جنسي؛ هكذا تقول الشرائع السماوية؛ وأنتِ مؤمنة وتعتقدين بصدقها ! قلت بغضب وإصرار.

وهنا ازداد بكاؤها وخنقتها عبراتها ثم أضافت، بعد أن غطت عينيها بيديها؛ فشعرت وكأنما تريد أن تقول شيئا مخجلا:

- لقد كنا، حالما نتعانق، جيمس وأنا، ويبدأ أحدنا بتقبيل الآخر، يشعر الواحد منا برغبة جنسية مجنونة نحو صنوه... وحالما نبدأ نتطارح الغرام في الفراش، يشعر جيمس فجأة، وقد فقد رغبته الجنسية... ثم يسترخي... فيصبح وكأنه أنثى مثلي؛ قبل أن يلتحم أحدنا بالآخر ! وهنا انفجرت تبكي من جديد ولكن بصوت مكتوم حاولت أن تخنقه، ثم أضافت:

-لقد فكرنا أن يكون ذلك أول الأمر بسبب تديننا الشديد، وبسبب عدم تفكيرنا بالجنس قبل الزواج ولكن بمرور الأيام لم تحل المشكلة ولهذا السبب صرنا نداوي قهرنا وإحباطاتنا بالشرب والسكر الشديد.

-لننسى كل هذا! فإنني أحبك وأريد أن أتزوجك! قلت بثقة وتصميم.

-إذا كنت تحبني حقا وتهمك سعادتي وسعادة جيمس؛ وإذا كنت حقا صديقاً مخلصاً وتقدر المحبة والصداقة؛ فأرجوك أن ترحل وتتركنا نواجه قدرنا ! أرجوك... أرجوك... أرجوك...! قالت وهي تمسح دموعها.

-- إنك تطلبين المستحيل مني...! أنا لا أقوى لحظة واحدة على فراقك؛ إنك ضرورة لي كضرورة الماء والهواء؛ وأنت تعرفين ذلك. قلت.

-هذه مشيئة الله ! إنه يريد لك ولي أن نحب بعضنا؛ ثم نفترق إلى الأبد.

-إن هذه ليست مشيئة الله... إنها مشيئة الإنسان؛ وليس للخالق تصرف في ذلك! قلت بغضب لاهب وأنا أستعمل يديّ وعينيّ وجسمي لأعبر لها عن غضبي وثورتي واستنكاري.

- أرجوك! أرجوك! إنني أحبك يا سهيل... وتعرف مقدار حبي لك؛ أحبك ولكني أريدك أن تتركنا... أرجوك أن لا تجعل الفراق مؤلما أكثر مما هو...!

وهنا نهضت ثم قالت وهي تشير إلى صندوقين من الكرتون معبأين بما لي عندهما من كتب وحاجيات أخرى وأضافت:

- هذه هي كل حاجياتك... أرجوك، خذها.

أفزعتني الفكرة... أرعبتني... أطارت صوابي... جعلتني أفقد عقلي... أصير كالمجنون! كيف أتركهم؟! كيف أعيش بدونهم؟! يا إله السماء! رحمتك وعفوك وغفرانك إنه شيء فظيع... فظيع جداً! إنني أعرف أن شيلا عنيدة جداًّ، وأنها دائما تعني ما تقول؛ لقد تأكد لي بأن لا حاجة للنقاش معها فشعرت وكأنما ألفظ أنفاسي الأخيرة؛ فقلت متورعاً متوسلاً:

-أرجوك يا شيلا! أنا لا أقوى على فراقك... إن عقلي سيفارقني! إنني كالسمكة إن خرجت من بحر حبك فسأموت!

-إنها مشيئة الله...! هكذا يريد لنا المسيح.

-وكيف تفسرين ذلك لجيمس؟!

-سأعلمه الليلة بكل شيء... إن ضميري لم يستطع أن يتحمل أطول... وهنا وقفت ومدت يدها، الهزيلة المرتعشة، لتصافح يدي؛ فنظرت إليها مشدوها وأضفت:

-أرجوكِ يا شيلا أن تغيري تفكيرك... لا تلقي بي خارج أسوار جنة حبك!

-أنا الذي أرجوك أن ترحل؛ ثم أرجوك أن لا تحاول أن تجدنا، ولا أين نسكن! لقد أعلمت مستخدمي بترك العمل وصباح الغد، سيعطي جيمس إشعاراً مسبقاً بتركه للعمل، ولا أعتقد أنه سيجد صعوبة في ذلك؛ وسنرحل من هنا خلال يوم أو يومين على أكثر تقدير.

-إلى أين ؟! صحت كالمجنون وقد تجاوب صدى صوتي في جميع أنحاء الشقة.

-لا أدري! نعم؛ لا أدري! ولكن لا تحاول إيجادنا، إن كنت حقا تحبنا! أرجوك يا سهيل أن لا تجعل الفراق مؤلماً أكثر مما هو !

-وإن رفض جيمس الفكرة ؟! سألت وقد فتحت عيني على وسعيهما !

-إنه لن يرفض... أنا واثقة من ذلك. إنه لم يسبق له أن رفض لي طلباً. الوداع. قالت ذلك.

هنا وقفتُ و دموعي تنزل كأفواه القِرَبْ حتى بللت قميصي" وكم تشفّعت بي يوم الرحيل ضحىً، و أدمعي مستهلّاتٌ وأدمعها! " وألقيت نظرة حولي ولعلي لاشعورياً كنت أودع المكان الذي أمضيت به أياماً وليالي سعيدة هانئة ثم أدرت ظهري وهممت بالخروج ولكنها صاحت بي:

-قف وخذ حاجياتك ، أرجوك !

لم ألتفت خلفي... وخرجت من بيتهم... مدحوراً... مخذولاً... يمزقني الندم ويحرقني الألم... خرجت والقلب ينزف دماً... خرجت كما خرج أبونا آدم من الجنة عندما أكل من الشجرة المحرمة التي نهاه الله عن أكلها! لقد حل على أبينا آدم غضب الله ولعنته؛ وكذلك حلت عليّ لعنة الله وغضبه عندما خنت الأمانة، وخنثت بالوعد واحتقرت العيش والملح...!

" ودّعتها و بودّي لو يودعني   صفو الحياة و انّي لا أودعها
و كم تشفّعت بي ان لا أفارقها   و للضرورات حالٌ لا تشفّعني! "

* * * * *

الفصل الرابع عشر

"بسم الله ، وباسم الوطن العربي الكبير ، وبسم طفلة الحجارة ، ممزقة الملابس حافية القدمين ، التي تدافع ببسالة وشجاعه ، عن شرف وكرامة الأمتين ، العربية والأسلامية ؛ أبدأ كلماتي هذه ! أيها الطلاب الأعزاء، يا إخوتي في العروبة ويا إخوتي في الدين، مسلمين ومسيحيين، قوميين وشيوعيين، يا أمل الوطن المرتجى، ويا أحباؤه المخلصين ! أيها الحضور الكرام.

عندما طَلبتْ منّي لجنة الطلاب العرب المشرفة على مؤتمركم هذا، أن أتحدث إليكم في أي موضوع أختاره وأعتقد أنه يهمكم ويفيدكم، لم أجد أكثر أهمية من موضوعنا نحن، المتعلمين والمثقفين المشردين في أصقاع العالم وبقاعه ! نحن الذين ينظر إلينا الوطن الحبيب ، بعيون ساهرة وجفون مقرّحة، وقلوب أدماها العشق وأحرقها الانتظار!

إننا نغادر أوطاننا ونأتي إلى أمريكا أو نذهب إلى إحدى الدول الأوروبية، لنتلقى العلم ولنكتسب المعرفة ؛ بعضنا يدرس على حساب والديه، والقلة منّا يدرسون على حساب حكوماتهم، ومعظمنا يعيل نفسه بأن يعمل ويدرس معاً، لنعود يوما لنخدم وطننا الحبيب ولنأخذ بيد شعبنا المسكين! ولكن الحكام في وطننا الحبيب، سامحهم الله وهداهم، فبدلا من أن يرحبوا بنا ويحتضنونا لنساعدهم في تقدم الوطن وازدهاره، فإنهم يضطهدوننا ويطاردوننا، لاعتقادهم بأننا خطر عليهم وعلى مصالحهم، إذ أننا سنفضح زيفهم ونكشف عمالتهم للأجنبي !

إنهم يقيدون حريتنا ويحصون علينا أنفاسنا، فيطلبون إلينا أن نتعاون معهم بأن نغضّ الطرف عن أفعالهم، من نهب أموال الوطن والتلاعب بمُقدّراتهِ؛ فإن لم نفعل فإنهم لا بد ملقون بنا في غياهب السجون !

إن بعضنا يتعاون معهم فيصبح بين عشية وضحاها، أجشع شهية وأشد ظلما وأكثر فساداً منهم؛ أما الذين يرفضون التعاون معهم ويحاولون أن يقفوا في طريقهم، فإنهم لا بدّ و أن يتخلصوا منهم بأي وسيلة كانت؛ وفي هذه الحالة يفضل الكثيرون منا، الشرفاء وذوي الضمائر الطاهرة، العودة من حيث أتوا ... إلى بلاد الغربة و الإغتراب !

لاحظت أنه كان هناك في الصف الأمامي بين الحضور وقريباً مني، رجلٌ شديد البياض ذو شعر قمحي اللون، طويل القامة نحيف الجسم، يرتدي بدلة خضراء اللون، وصدرية صفراء فاقعٌ لونها، تجعله يبدو كالثور الأبرق، وربطة عنق حمراء بها خطوط صفراء، وبالرغم من كل هذا الخليط اللوني في لباسه إلا أنه ذو هندام أنيق جداًّ ! انه يلبس نظارة ذات إطار ذهبي فاخر؛ ولا شك أنها غالية الثمن؛ مما لا يدع مجالا للشك بأن صاحبها ذو منصب رفيع جدا !

إنه، ومنذ أن وقفت أمام الحضور وهذا الرجل محدق بي، لم يحول نظره عني ولو لحظة واحدة، كما أن ابتسامته الجذلى لم تفارق شفتيه! كان هو الأول وأحيانا الوحيد، الذي يصفق لي كلما توقفت لآخذ نفساً!

إنني واثق جداًّ من أنني رأيت هذا الرجل، وأنني قد تحدثت إليه، هنا في أمريكا، ولكن أين ومتى؟! إنني منذ أن رأيته أمامي، وأنا أحاول أن أتذكر، ولكن ذاكرتي، سامحها الله، لم تنجدني!

"أيها الإخوان والأخوات ! إن المواطنين الذين هربوا من بلدان الوطن العربي الكبير، أيام الاستعمار التركي والإنجليزي والفرنسي والإيطالي، يُعدّون بالمئات، أما الذين هربوا من طغيان واضطهاد وقمع حكام الوطن العربي الكبير، فإنهم يُعدّون بالملايين!

"لقد غزانا الصليبيون وذبحوا منّا اعداد لاتحصى رجالا ونساء واطفالا لافرق ! كانت تغوص اقدام خيولهم بدمائنا، ثم جاءنا بعدهم الاستعمار التركي والانجليزي والفرنسي وكذلك الايطالي، ففعلوا بنا العجب العجاب، و لكن كل هؤلاء لم يرتكبوا ما ارتكبه حكامنا بحقنا، ولم يصلوا إلى درجات التعذيب والقمع والابادة والتشريد التي وصلوا اليها. انهم يجمعوننا كالقش بشواعيبهم ويدوسوننا كالصراصير ببساطير عسكرهم، ثم يُذَرُّون حياتنا بمذاريهم و شواعيبهم !

" ان الغزاة لم يلقوا باطفالنا إلى السماء ثم يُلحِقونهم بطلقات بنادقهم وكأنهم طيور الصيد، ولم يهدموا المساجد على المصلين، ولم يطلقوا الغازات السامة داخل المنازل، فتباد العائلة وتموت عن بكرة ابيها!

" طوبى للأيام التي كان يحكمنا بها الاستعمار، وياحسرةً على الأيام التي صار يحكمنا بها أخواننا !

" ان الخبّيزة التي تنبت على مزابل وادي الريح، في مدينة السلط الصامدة ، والتي كنت اشاهدها في طريقي إلى مدرستي وعودتي منها، لهي عندي ألذّ طعماً واشهى مذاقاً من "أرضي شوكي" امريكا كلها !

" إن الذين هربوا من اضطهاد الاستعمار لهم، كانت دائما تداعب أحلامهم فكرة العودة إلى أرض الوطن يوماً ما، بعد أن يرحل المستعمر؛ أما الذين هربوا من بطش حكام الوطن، فإن حلم العودة قد مات عندهم وتلاشى؛ لأنهم واثقون بأن الحكام الجدد باقون ومخلدون، ولأنهم يعرفون جيداً بأنه كلما ذهب حاكم طاغية، جاء من هو أكثر منه ظلما وبطشا وقمعا !

" إنني أرجوكم بل استحلفكم بكل ذرة من تراب الوطن الحبيب، وبكل قطرة من مائه، وبكل نسمة من هوائه، أن تعودوا إليه بعد أن تكملوا دراستكم وتدريبكم، وأن لا تبقوا في بلاد الغربة تتسكعون في أزقتها وشوارعها وتأكلون فتات ما تجود به عليكم موائدها !

" إنني أستحلفكم بأن لا تنسوه وأن تعودوا إليه، بأن تحاولوا أن تنشروا المحبة والإخاء والمساواة، وكذلك الديمقراطية بين أبنائه... أقول المحبة والإخاء والمساواة والديمقراطية، لأن هذا ما نحتاجه في وطننا الحبيب، لأننا نملك أكثر مما تملك كثيرٌ من الأوطان الغنية والمتقدمة ! إن عندنا الثروات الضخمة، والعقول الجبارة والرجال المخلصين، وكذلك عندنا النساء الرائعات، أمهات وحبيبات ! إن هذا هو كل ما تحتاجه الأمم لتكون في الطليعة وليشار إليها بالبنان !

" عودوا إلى الوطن واصبروا وصابروا حتى تنشروا العدالة والديمقراطية، فإنهما الوحيدتان اللتان سيجعلان من أوطاننا بلدانا متميزة، تحترم نفسها ويحترمها الآخرون، وحتى يغيروا نظرتهم الدونية إلينا من أننا حيوانات ولكننا نمشي على قدمين!"

وهنا هزَّ نفس الرجل، ذو النظارة ذات الإطار الذهبي، قبضة يده اليمنى ملوّحاً بها في الهواء، رافعاً إبهامه إلى الأعلى بحماس وشدة، وكأنما ليقول لي، أحسنت ! لا فُضَّ فوك، وسلمت يمينك!

"أيها الأخوة والأخوات! إنني أرجوكم باسم الوطن ومحبته ، أن تعودوا من أجلنا نحن الممنوعين من دخول أراضيه، والذي فرض علينا أن نخدم أوطاناً غير أوطاننا، بل نخدم أناساً يستعبدون أوطاننا وينهبون

خيراتها ! عودوا وعلّموا أولادنا هناك معاني الحرية والديمقراطية والعدالة والمساواة !

"إياكم أن تنسوا أننا نذوب عشقاً في حب الوطن، وصدقوني إن قلت لكم بأن شجرة السنديان وأزهار الدحنون وشجيرات الشيح والقيصوم والقطفي والأثيل، هي عندي لأطيب رائحتها من كل ما في أمريكا من ورود وأزهار !

"صدقوني ولا تظنوني أبالغ، إن قلت لكم إن زقاقاً من أزقة الجدعة في مدينتي السلط الصامدة، وأنا أجلس في إحدى زواياه ، مختبئاً لألمح وجه سميحة وهي تعبره أو لأمر به ، وأنا راكب فوق حماري، مشهور ، بعد سقائي له من نبع المدينة؛ يتراءى لي في كثير من الأحايين، لأجمل وأبهج في نفسي من شارع "غروب الشمس" في مدينة هوليوود الشهيرة ...!

"أرجو أن لا تظنوني أبالغ أيضاً، إن قلت لكم، إن بول الماعز في إحدى قرى الوطن الحبيب، تغسل به حمدة شعرها القصير المجعد والمملوء بالقمل والصيبان، كي يطول ويغزر، لألذُّ رائحة عندي من عطر جميع ما في لوس أنجلوس وسان فرانسيسكو من عطور !

"إن روث البهائم ولطع البقر وبعر الماعز لينعش روحي ويسعد قلبي أكثر مما تنعشه وتفرحه عطور نيويورك وشيكاغو ! إن سلة تين وصندوق صبار عندي لأذكى وأشهى من تفاح كاليفورنيا وفلوريدا معاً !

"إن مدرسة السلط الثانوية، والتي تخرجت منها، ببنائها القديم المتهالك، والتي شهدتْ تلتها الحنونة دموعي ومعاناتي، أيام كنت أتعذب في حب سميحة... أشكو إلى النجوم وأنا أناجي القمر؛ لتبدو في عيني أكثر شموخا وتألقا، وأكثر علماً وتقدماً ، وأكبر ضخامة واتساعاً من جامعة كاليفورنيا التي تخرجت منها و درّست فيها؛ بفروعها العشرين !

"إن مغارة في وادي الريح، وكوخا في "المحباصية"، لأفخم بناء وأرقى هندسة في عيني، من أجمل عمارة من جميع عمارات واشنطن العاصمة ! إن شجر السنديان في ضاحية " زي ويوشع وعلان وأم جوزة "، تنعش قلبي، وتشرح صدري ، أكثر مما تفعله جميع أحراش أمريكا وغاباتها "!

لقد تحدثت طويلا عن آمال وآلام أمتنا العربية، وعن طموحاتها وتطلعاتها، وعن ما يعيق تقدمها وازدهارها... كما تحدثت عن معاملة حكامنا لنا وما يجب أن نفعله لنوقف ظلمهم وتسلطهم علينا !

لقد شرَّقتُ وغرّبت ... شرحت الداء واقترحت الدواء، فاستغرقت المحاضرة ساعة كاملة وقد تزيد بضع دقائق، ولكن زمن الأسئلة والأجوبة ربما قد زاد على زمن المحاضرة !

لقد كنت في هذا اليوم الخطيب الأخير والوحيد في هذا المؤتمر. إنني أعتقد أنني قد أبليت بلاءً حسناً في محاضرتي و إجابتي على أسئلة الحضور الذين أمطروني بوابل منها .

كان أول الذين تقدموا لمصافحتي بعد انتهاء الكلمة التي ألقيتها ، وبعد الإجابة على جميع الأسئلة، هو هذا الرجل الذي كان يجلس في الصف الأمامي، والذي كان يمنحني ابتساماته جزافا والذي كان دائما يقود حملة التصفيق، والذي لا شك أنني أعرفه وأنه يعرفني أيضاً !

كنت وأنا ألقي كلمتي هذه وأراقب القاعة التي تغصُّ بالحضور؛ من طلاب وطالبات الوطن العربي الكبير، ومن الذين أنهوا دراستهم أو الذين انقطعوا عن الدراسة في منتصف الطريق، لأسباب عدة، ويسكنون أمريكا بشتى السبل والوسائل، وأستعرض على شاشة مخيلتي هذا الرجل ذا الشعر القمحي والنظارة ذات الاطار الذهبي، ولكن صورته ويا للأسف، وكذلك اسمه، لم يظهرا على شاشة تفكيري !

كنت أشعر بالزهو والخيلاء وكأنما عدت لتوي من تحرير فلسطين، كل فلسطين، وكذلك الجولان وجنوب لبنان !

لا أدري لماذا في تلك اللحظة، خطر على بالي جيمس وشيلا ومارثا ثلاثتهم ! لقد تمنيت في تلك اللحظة، لو أستطيع أن أدفع ما تبقى من عمري مقابل أن يكونوا بين الحضور، وهم يرونني أشمخ وأتعملق أمام جميع هذه الحسناوات، عقلاً وجمالاً؛ وأمام جميع هذه العقول الجبارة المتواجدة في هذه القاعة الواسعة والذين قد يصل عددهم إلى ألف إنسان ! لا شك أن معظم الحضور نخبة من المتعلمين والمفكرين وذوي العقول النيرة والمستنيرة، عرباً و غير عرب!

أيها الإخوة والأخوات!

"لقد تركنا حكامنا في حالة ضياع، فحطموا طموحاتنا وشلوا طاقاتنا، وحشرونا في أنفاق مظلمة حتى اختنقنا ! لقد جعلونا ندق أبواب الاستجداء والاستعطاف والترجي، ونلبس لباس المذلة والهوان والتردي، لنحصل على ما يسد رمقنا ويستر عوراتنا !

إنهم سُلطويّون... قمعيون... استبداديون، فاستعملوا ضدنا كواتم الصوت السميكة والصفيقة والمتطورة، بحيث لا يسمعنا أحد ولا نستطيع نحن أن نسمع أنفسنا !

لقد أسقطونا في مستنقع الذل والفساد والمهانة، ودمروا كل ما بنته أجيال أمتنا الماجدة من حضارة وعز ومجد! لقد قطعوا أوصالنا، وجوّعوا أطفالنا، وركّعوا أحرارنا، وشرّدوا مفكرينا ! لقد مسحوا شعارات الوحدة واستبدلوا بها شعارات الإقليمية والطائفية والقبلية وحتى العشائرية والعائلية !

إنهم يتجسسون على أفكارنا... ينهبون آمالنا... يغتالون بسماتنا... يسطون على طموحاتنا... يصادرون حرياتنا... يعتقلون تطلعاتنا، ثم يلقوا القبض على أحلامنا! إنهم يرفضون حتى أن يسمحوا لنا بالاغتسال في شلالات الوهم والاستحمام في بحيرات السراب، وكذلك في أودية النسيان ! إنهم يطاردون خيالاتنا... يطلقون النار على عقولنا، ويدفنونا أحياء!"

-لقد كنت رائعاً حقاً يا بروفيسور دهشان ! لقد صدقت فيما قلت من إن كل المصائب والمشاكل التي تعرض لها وطنك هو من أمريكا وبسببها، والا لكنتم اليوم تنعمون بالسلامة والسعادة! قال الرجل صاحب النظارة ذات الإطار الذهبي وابتسامة كبيرة تغطي وجهه، وهو يشد على يديّ ويهزهما بحرارة.

-هذه مجاملة لطيفة منك يا سيدي، وأرجو أن لا أكون قد جرحت شعور إخواننا الأمريكان الحضور ! قلت وأنا أشد على يديه بحرارة أيضاً، وكذلك وأنا أفرد ابتسامة ترحيب فوق شفتي !

-إنك لم تجرح شعورنا إطلاقاً ! إننا واثقون من أن مساعدة أمريكا لإسرائيل ضدكم، ولكننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً لأن النفوذ الصهيوني هنا، هو الذي يأتي بالصديق المخلص والحليف الوفي إلى البيت الأبيض ! قال الرجل بحماس وثقة !

-إذن أنت أمريكي يا سيّدي، ولو أنك تبدو لي وكأنك واحد من أبناء وطننا الحبيب ! قلت بترحاب مبالغ به.

-لا تنسى يا بروفيسور دهشان أن الشعب الأمريكي يختلف عن حكومته! إنه يحبنا ويعرف أننا مظلومون، وأن حكومته تخضع للنفوذ الصهيوني وتأتمر بإمرته ! قالت فتاة عربية كانت بين الحضور.

-يقولون بأن الحكومة دائماً وأبداً تعبر عن آراء شعبها. قال طالب عربي آخر.

-كانت الحكومات في أمريكا دائما تعبر عن آراء الشعب وتطلعاته، غير أنها ومنذ مولد إسرائيل قد تغيرت سياستها الخارجية، إذ إن كل تفكير من يأتي إلى البيت الأبيض، هو إرضاء لإسرائيل وتنفيذ رغباتها وأهوائها؛ لأنه بدون رضاها لا يستطيع أن يصل إلى منصب رئيس للولايات المتحدة الأمريكية ! قالت طالبة ذات لكنة و لكن بملامح هندية !

-بروفيسور دهشان ! إنني أحمل إليك تحيات شيلا وجيمس! قال الرجل فجأة ذو النظارة ذات الاطار الذهبي والذي يقود حملة الثناء والتصفيق !

رحمتك اللهم، عفوك وغفرانك ، هل حقا ما أسمعه، أم أنني في حلم؟! ثلاث سنوات مضت لم أسمع خلالها اسمي شيلا وجيمس، وإن كان حبهما يرقد في أعمق أعماق نفسي، وإن صورتهما لم تفارق مخيلتي لحظة واحدة ! لقد اعترتني موجة باردة اهتز لها كل كياني، واستولت عليّ عاطفة محمومة مجنونة شعرت أنها أحرقتني حتى نخاع النخاع مني !

-ماذا قلت يا رجل؟! شيلا وجيمس يسلمان عليّ؟! قلت وقد دفعت الجمهور من حولي بعيدا عني ثم تقدمت من محدثي وأنا أرتجف كالمحموم !

-أين هما ؟! هل هما الآن هنا في هذه القاعة بين الحضور؟! قلت ذلك وصرت أتلفت حولي كالمجنون، أبحث عنهما بين الحضور.

-إنهما في بيتهما، في مكان ما بأمريكا ! قال الرجل وهو يبتسم ابتسامة لزجة.

-ومتى رأيتهما ؟! سألت بلهفة !

في تلك اللحظة، وفجأة تذكرت هذا الرجل! إنه الدكتور موشى فينيك، الطبيب الذي اجتمعت به في إحدى الليالي في بيت جيمس وشيلا روبنسون !

هنا أطبقت بيدي على يده وسحبته من بين الجموع المحيطة بنا وقدته إلى خارج قاعة الاجتماعات... حيث دهليز طويل... وهناك رأيت غرفة مفتوحة لا أحد بداخلها، فأدخلته أمامي ودخلت بعده وأغلقت الباب خلفنا، دون أن أعرف من كان صاحب الغرفة ودون أن أستأذن منه.

قبل أن يجلس على الكرسي المتواجد إلى جانب الطاولة الكبيرة، قال الدكتور فينيك وهو يحرر يده من قبضة يدي:

–آه !لقد تغيرت كثيراً! لقد نحل جسمك وغارت عيناك، وفارقتك ابتسامتك وحيويتك! لم كل هذا يا رجل؟! ماذا جرى لك؟! قال ذلك وقد عبس وجهه علامة الحزن، ثم أضاف:

–عندما قابلتك قبل ثلاثة أعوام، كنت مرحاً باسم الوجه منشرح الصدر، تعج نشاطاً وحيوية ؛ أما اليوم فتبدو محطماً مثقلاً بالهموم ! صدقني، إنك أحزنتني ! لقد كبرت كثيراً يا رجل ! قال ذلك ورطّب شفتيه بلسانه !

فتحت فمي لأساله عن شيلا وجيمس، ولكنه تجاهل رغبتي في السؤال واسترسل:

–صدقني يا بروفيسور دهشان، إنه بقدر ما سرتني رؤيتك بقدر ما حزنت على حالتك! قال ذلك وهو يهز رأسه أسفاً.

–سألتك أين شيلا وجيمس؟! قلت بصوت عال وقح وبعصبية وتوتر.

–قلت لك إنهما هنا في أمريكا ! قال وقد مط شفتيه وكأنما يستغرب سؤالي.

–أنا أعرف أنهما هنا في أمريكا، ولكن أين هما ؟! أعطني عنوانهما؟! أنا مشتاق إليهما، لقد افتقدتهما كثيراً! قلت وقد مددت يدي إلى جيب جاكيتي الداخلية وأخرجت منه دفتر العناوين وقلم حبر، ثم أضفت:

–أملِ عليّ عنوانهما ورقم تلفونهما.

ومرة أخرى تجاهل الدكتور فينيك طلبي؛ ثم أضاف:

-أنت تعرف أنني حصلت على الدكتوراه من هذه الجامعة، جامعة كاليفورنيا في بيركلي، لقد قلت لك في حينه... أنني كلما آتي إلى كاليفورنيا، لا بد لي من أن أمر وأتمشى في شوارعها وحدائقها وبين أشجارها، وكذلك أتأمل أبنيتها العالية وعماراتها الشامخة ! إنني كلما آتي إلى كاليفورنيا، وحالما أضع قدمي في أول حدود منطقة خليج سان فرانسيسكو، تصيبني رعشة محمومة من الشوق العارم،فأتصور نفسي وكأنما أنا مسيحي متدين يحج إلى كنسية القيامة في القدس، بعد أن انتظر طويلا وهو يمني النفس في هذه الزيارة... أوكأنما أنا يهودي يحج إلى معبد سليمان، أو قُل، كأنما أنا مسلم، مثلك، أضناه الشوق فحج إلى مكة ! كان يتكلم بحماس شديد وكأنما يلقي محاضرة.

-أرجوك يا دكتور! الوقت ليس وقت شطحات صوفية، ولا تأملات فكرية ، ولا أحاديث رومانسية... ! إنك تمزق أعصابي! أعطني عنوانهما، تكلم أرجوك!

وكأنما الدكتور فينيك قد أخذته حبيبته إلى مكان هادئ جميل، وصارت تقص عليه أيام عشقها الأولى، أو تقرأ له قصة عاطفية أو أشعاراً رومانسية، فنسي أنني معه وأنني أذوب تحناناً وتلهفاً إلى معرفة أخبار صديقيّ اللذين افتقدتهما بجنون، وأنني أموت شوقاً لرؤيتهما وسماع أخبارهما !

ومرة ثانية تجاهل الدكتور فينيك سؤالي وبدأ يتكلم،وكأنما هو في غيبوبة يتكلم خلالها مع نفسه !

-إنني حالما أضع أول قدم لي على أرض خليج سان فرانسيسكو،فإنني أشعر بشوق عارم مجنون يهزني إلى بيركلي وإلى جامعتها التي أمضيت بها ثماني سنوات متواصلة من عمري! إنني أقول لك الصدق يا بروفيسور، إنني أشعر وكأنني أمضيت بها جميع سنوات طفولتي التعليمية كاملة من أول سنة ابتدائية حتى حصلت على شهادة الدكتوراه منها، لشدة عشقي و تدلهي بها!

-أرجوك! هل شيلا وجيمس بخير؟! قل لي؟ أنا أسألك عنهما ولست أسألك عن حبك وهيامك في مدينة بيركلي وجامعتها! قلت بغضب لاهب!

-نعم، هما سعيدان وبخير ؛ ولكن أرجوك دعني أكمل لك أولاً؛ أرجوك يا بروفيسور دهشان ! لقد عهدتك إنساناً شهماً... كريماً... معطاءً... تهب لنجدة من يحتاجونك لمساعدتهم...!

-أخبرني عنهما... إنني أبحث عنهما منذ أن غادرا... أرجوك...! أعطني عنوانهما، وبعد ذلك كلمني عن عشقك لمدينة بيركلي وجامعتها... صدقني، إنني أنا نفسي أعشقها كذلك، وربما عشقي لها لا يقل عن عشقك لها... إنني وأنا أدخلها تتملكني رهبة وخشوع الراهب الذي يدخل صومعته... ولكن أخبرني عن صديقيّ؛ إنني أموت شوقاً لرؤيتهما وسماع أخبارهما...!

ومرة ثالثة تجاهل الدكتور فينيك سؤالي؛ وهنا أدركت بأن الملعون كان يريد أن يحطم أعصابي ويستنفد صبري قبل أن يعلمني؛ حيث إنه استمر في حديثه.

-لقد ولدتْ كل أحلامي وطموحاتي في هذا البلد، وأستطيع أن أقول لك بكل صدق وصراحة أنني نفّذت حتى الآن كل ما حلمت به وطمحت إليه! كنت أريد أن أحصل على أعلى شهادة علمية، هكذا وعدت والدتي، ولا شك أنها سعيدة في قبرها بعد أن حققت لها رغبتها! وهنا بلع ريقه وفرد ابتسامة كبيرة فوق شفتيه وأضاف:

-إن الذي أريد أن أقوله لك يا بروفيسور دهشان؛ هو أن مدينة بيركلي قد تغيرت كثيراً عما كانت عليه قبل خمس وعشرين عاماً، أيام كنت طالباً بها! نعم، لقد تغيرت كثيراً... كانت مدينة نظيفة... جميلة كالعذراء ذات الخفر... تشعر وأنت بداخلها وكأنما أنت في معبد من معابد الله، حيث تشعر بسعادة روحية... تصوفية... من الصعب جداًّ جداًّ علي أن أستطيع وصفها لك، إذا لم تكن قد مررت أنت نفسك، بتلك التجربة... أنت بروفيسور ولا شك أنك تفهم ما أعنيه... إن صديقيك وصديقيّ جيمس وشيلا قد أعلماني بأنك إنسان عاطفي جداًّ جداًّ، وأنك تهيم عشقاً بكل ما له علاقة بالفكر والمشاعر والجماليات ! إن مدينة بيركلي تتراءى لي الآن، وكأنما هي مومس... رخيصة... مبتذلة... ولولا جامعتها العظيمة والعريقة لشعرت بالتقزز وأنا أدخلها...! قال ذلك و هو يشير بيديه الاثنتين و علامات الامتعاض و التقزز تغطي كل مساحة وجهه!

-أرجوك يا دكتور فينيك قل لي! هل في نيتهما العودة إلى سانتا مونيكا ؟! هل ما زالا يفكران بي، وبأن نعيد صداقتنا إلى أيام مجدها وعزها، "يوم كنا نتساقى من الهوى ما نشاء"؟! قلت بتوسل يمزق القلب ويحرق الوجدان!

-طبعا لا!! ولماذا يعودان وقد انتهت مهمتهما منها؟! إنهما يعيشان الآن بين أهليهماوأصدقائهما! لقد جاءا إلى كاليفورنيا مؤقتا... من أجل تحقيق هدف معين... وبعد أن حققا هذا الهدف، لم يعودا بحاجة إلى البقاء فيها؛ وخصوصا مدينة لوس أنجلوس وقذاراتها... ثم إنهما لم يعودا

بحاجة إلى أن يشربا الخمر... هل تفهم! إنهما لم يعودا بحاجة إلى أن يشربا الخمر، لأنه لم يعد هناك سبب يدعوهما إلى ذلك...! إنهما الآن متدينان يمارسان طقوسهما الدينية، كما كانا يفعلان قبل حضورهما إلى كاليفورنيا... الشكر لله ولك أنت أيضاً...! لقد كنت بطلا منقذاً... إن ما فعلته يا بروفيسور تستحق عليه مكافأة... وساماً...! قال ذلك بتلذذ عجيب خلته وكأنما كان يتلذذ بشرب كأس من النبيذ المعتق...!

-إنك تتكلم ألغازاً يا رجل! لقد حيرتني وأذهلتني معا.

-قلت لك لم يكن في نيتهما عندما حضرا إلى كاليفورنيا أن يعيشا بها طويلا.

-إن هذا لا يهمني... إن كل ما يهمني هو أن أعرف أين هما الآن؛ وكيف أستطيع أن أراهما؟!

مصمص اللعين شفتيه، ونظر إليّ وابتسامة لزجة تغطي شفتيه، وتصورت أحد أجداده، شيلوك، وهو يمزق أعصاب الناس ويحطم قلوبهم قبل أن يلبي طلبهم بأن يمنحهم القرض الذي يرجونه منه؛ وإن كانوا سيدفعون الثمن أضعافاً مضاعفة في العام القادم.

-وصلت مطار سان فرانسيسكو عصر أمس، وبعدها أوصلتني سيارة الأجرة إلى الفندق في بيركلي... أتيت لأتمشى وأجلس كعادتي في الأماكن التي كنت أجلس وأتمشى بها هنا قبل خمسة وعشرين عاماً! بالمناسبة يا بروفيسور، لا أكتمك أنني أفعل ذلك، كلما أتيت إلى منطقة خليج سان فرانسيسكو...! مصمص شفتيه وحدجني بنظرة خلت أنه أحرقني بها ثم أضاف:

-بينما كنت أتمشى في الحرم الجامعي لاحظت اليافطات القماشية والورقية الكبيرة المنتشرة في جميع أرجاء الجامعة، تعلن من أن مؤتمر الطلبة العرب في أمريكا وكندا، سيقيم هذا العام مؤتمره السنوي في جامعة كاليفورنيا، هنا، في بيركلي. وفجأة خطرت أنت على بالي، وقلت لنفسي، لا بد من أن تكون هنا بين المجتمعين... وبقيت أفتش في الزوايا وعلى اللوحات وأقرأ اليافطات حتى قرأت اسمك بين خطباء اليوم ! سعدت جدا جدا واعتبرت نفسي محظوظاً، فأنت لم تكن من متكلمي يوم أمس ولا أول أمس؛ إذ كان من الممكن أن أعود ولا أقابلك، إذ إنني متوجه صباح الغد إلى لوس أنجلوس، في مهمة عمل! أنا آتي إلى بيركلي فقط لأستعيد ذكرياتي ولأزور بعض الأصدقاء القدامى. قال.

"إنه القضاء والقدر يا دكتور فينيك... نعم القضاء والقدر الذي لا تؤمنون أنتم به... إنه القدر الذي أحضرك إلى هنا لكي تراني وأراك، ولكي أحصل منك على عنوان صديقيّ الحميمين شيلا وجيمس، لأنني مصمم على زيارتهما!"

-والآن أعطني العنوان ورقم التلفون، وقل لي كيف حالهما؟! قلت كالمحموم مقاطعا إياه!

-إنهما بخير... عاد جيمس إلى البنك... إلى وظيفته الأولى، وكذلك عادت شيلا إلى نفس وظيفتها؛ ممرضة في المستشفى الذي كانت تعمل به. إنهما الآن يعيشان حياة هادئة طبيعية كلها محبة ووفاق وسلام.

-وهل قالا لك شيئا لتقوله لي؛ أعني وهل ما زالا يتذكرانني؟!

ابتسم الدكتور فينيك ابتسامة كبيرة... ابتسامة جذلى وقد فتح عينيه على وسعهما ابتسامة المنتصر... ابتسامة إنسان خطط لعمل كبير ومهم ثم نجح نجاحا ساحقا وباهرا!

-طبعا! إنهما يتذكرانك... يتذكرانك جيداً... وهل يمكن أن ينسياك؟! إنك لا تغييب عن باليهما لحظة واحدة... إنهما يشكرانك من أعماق قلبيهما، ولن ينسيا فضلك ما زالا أحياء... لقد أدخلت السرور والسعادة إلى قلبيهما... إنهما مدينان لك بسعادتهما! وهل تعتقد يا بروفيسور أنهما إنسانان غير أصيلين، وغير جديرين بحبك لهما، حتى ينسيا جميلك عليهما؟!

لقد خيل إليّ أن الدكتور فينيك قد أصابته حمى مفاجئة أو لوثة عقلية، إذ شعرت وكأنما كان يهذي!

-إنني لا أفهم ! أرجوك أن توضح لي يا دكتور فينيك... أعني هل قالا لك أن تخبريني أن أذهب لزيارتهما... أو أن أكتب لهما... أن أهاتفهما... أي شيء من هذا القبيل ؟!

-لا يا صديقي، وألف لا! إنهما يفكران بك وبجميلك، كما قلت لك، ويشكرانك ولن ينسيا فضلك عليهما... أعني أن جيمس لن ينسى جميلك عليه... إنه عندما علم أنني قادم إلى كاليفورنيا طلب إليّ أن أبلغك تحياته الحارة، وتمنياته الطيبة وشكره الجزيل... إنه يرجو لك مستقبلاً زاهراً، ويؤكد لك بأنك رجل شهم وإنسان عظيم! قال وكأنما كان يلقي خطبة!

-وشيلا يا دكتور؟! ماذا قالت لك؟! سألت بلهفة وأنا أكاد أطير فرحاً!

-كنت أتعشى على مائدتهما الأسبوع الماضي، وأعلمتهما بأنني سأتوجه إلى لوس أنجلوس بعد أسبوع في مهمة عمل؛ فطلب إليّ جيمس أن أعلمك بأنه لن ينسى صداقتك ووفاءك وإخلاصك وطيبة قلبك! إنه لن ينسى الأيام التي قضيتماها معاً، وكذلك المناقشات الفكرية التي كنتما تقضيان الساعات الطويلة تتناقشان بها... ثم كرمك المادي والعاطفي اللذين أغرقتهما بهما!

-أريد أن أعرف ماذا قالت لك شيلا! قلت وأنا أصرخ في وجهه.

-لم تقل شيئاً ! فقط بكت أكثر من نصف ساعة، حتى مزق منظرها قلبي !

-- إذن هي ما زالت تحبني! قلت وقد نهضت كالمارد أمسك برقبته.

-أعطني هاتفها، سأكلمها الآن لأقول لها أنني قادم!

هنا أشار الدكتور فينيك بيده الكبيرة أن اهدأ، وأن اجلس ثم قال:

-إن حب شيلا الوحيد الآن هي ابنتها مريان، إلى جانب حب زوجها... إنها تحبها أكثر من نفسها... طفلة جميلة وتتمتع بصحة رائعة... ووالدها جيمس أيضا ! إن حبه لها لا يقل عن حبه لأمها.

-ولكن جيمس لا يستطيع أن ينجب أطفالاً ؟! إنه عنين... لا يستطيع التواصل مع النساء! صحت بصوت عال ومن أعماق وجداني !

لا شك أن الذين كانوا يمرون بالقاعة من خلف الباب قد سمعوا ما قلت.

-ومن قال لك ذلك ؟! ومن أين أتيت بهذه الأفكار الغبية ؟! سأل الدكتور فينيك بغضب وقد احمرت عيناه وازرقت شفتاه، وكأنما قلت شيئاً أهان ذكاءه!

-أنا أعرف ذلك لأنني أنا...! التجم لساني فلم أستطع أن أكمل.

-أنا أعرف لماذا تقول ذلك! لأنك نمت معها فوجدت أنها كانت عذراء... أليس كذلك؟! وماذا في ذلك! وهز كتفيه وفتح يديه، ومطّ شفتيه.

-إن جيمس لا يستطيع أن ينام مع زوجته ولا مع أية امرأة أخرى! إنه ليس رجلاً،إنه ليس رجلاً! قلت.

-هذا ما تظنه أنت! قال بغضب لاهب ثم أضاف:

-إن جيمس أكثر رجولة وفحولة منك أنت؛ صدقني إن هناك بعض الرجال لا يستطيعون أن ينكحوا فتيات عذراوات... فتيات لم يمسسهن رجل... لم ينم معهن رجل من قبل... هؤلاء الرجال يستطيعون أن يمارسوا الجنس فقط مع اللواتي سبق لهن وأن عاشرن رجالاً!

بلع الدكتور فينيك ريقه ومسح الزبد حول فمه، وحاول أن يخفف من غضبه وثورته ثم أضاف:

-عندما جاءني جيمس بعد زواجه من شيلا بثلاثة شهور، وأعلمني بأنه لا يستطيع أن يمارس الجنس مع عروسته، رغم محاولاته العديدة واليائسة! لقد أعلمني بأنه يشعر برغبة جنسية مجنونة إلى مضاجعتها فتقوم طبيعته ويكون على استعداد أن ينقض عليها، ولكن عندما يقترب منها ويضمها إليه تفارقه الرغبة الجنسية بأن ينام معها، فيصبح وكأنما هو فتاة مثلها !

استراح الدكتور فينيك قليلاً، إذ لعله كان يفكر كيف يوصل المعلومة إليّ:

-لقد جلسنا معاً طويلاً وتناقشنا وتحدثنا، ثم فكرت... فطلبت إليه أن يحاول فيجد امرأة سبق لها وأن عاشرت الرجال، وأن يحاول أن ينام معها! لا أكتمك يا بروفيسور دهشان أنه رفض الفكرة رفضاً قاطعاً، وأعلمني بأن ذلك ضد مبادئه وقيمه التي تربى عليها في الكنيسة وفي المنزل؛ ولكنني أعلمته بأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي نستطيع أن نتأكد من رجولته أو عدمها. المهم قبلَ الفكرة وعاد إليّ بعد أيام قليلة ليعلمني بأنه مارس الجنس مع صديقة له مطلقة، وأنه كان طبيعياً جداًّ معها؛ فتوصلت إلى حقيقة وهو أن بعض الرجال لا تقوم طبيعتهم الجنسية ولا يحصل لهم انتصاب، إلاإذا كانت المرأة التي يريدون أن يضاجعوها هي امرأة قد سبق لها وأن ضاجعها رجلٌ غيره، وأنها لم تكن عذراء!

وهنا، وبينما كان الدكتور فينيك يتكلم، شعرت وكأنما كل حجارة الوطن العربي، الكبير من فراته إلى نيله، ومن محيطه إلى خليجه، قد تجمعت في حجر واحد كبير، حمله الدكتور فينيك بيديه القويتين وضربني به على رأسي، فصرت أترنح تحت ضراوة الضربة ثم سقطت ميتاً !

-إن شيلا فتاة متدينة جداًّ ولا يمكن أن تسمح لأي إنسان على وجه الأرض، مهما كان السبب،أن يمس جسدها إلا من تحب؛ وشيلا لا تحب

إلا جيمس! إنه حبها الأول والوحيد منذ أن كانا طفلين صغيرين، ولا تعرف حباًّ سواه.

شعرت والدكتور فينيك يتكلم بأنني انتقلت فجأة إلى منطقة "الشفق"؛ منطقة تقع بين الواقع والخيال؛ بين الحلم واليقظة... إذ لم أستطع أنا تمييز حقيقة وجودي... فهل أنا حقاً حي أم ميت... وهل أنا نائم أم مستيقظ... على الأرض أم أسبح مع ذرات الأثير... بين السحب والغمام ؟! وهل ما أسمعه علم أم خيال؟!

واصل الدكتور فينيك حديثه فقال:

–لقد اقترحت عليه أن يقنع شيلا بالرحيل إلى ولاية ثانية مؤقتاً... سنة... سنتين... ثلاثة... ربما خمسة... ثم يعودان بعدها إلى بلدهما.

هنا استطعت أن أتبين من خلال عيني الجامدتين والجاحظتين المحدقتين بالدكتور فينيك، وجسمي وعقلي المتحجرين ابتسامة كبيرة على شفتي الدكتور فينيك، حيث قال:

–أصدقك القول يا بروفيسور دهشان، يا صديقي العزيز، إن العملية لم تكن سهلة إطلاقاً؛ لا عليّ ولا على جيمس. لقد أخذتْ من وقتينا وتفكيرينا وجهدينا الكثير الكثير... عاماً كاملاً كنا على اتصال دائم... نتناقش... وعندما أعلمني جيمس على الهاتف بأن زوجته قد تعرّفت على مريض حضر إلى عيادة طبيب الأسنان التي تعمل بها من أجل علاج أسنانه، وهو أستاذ بالجامعة... وأنها حدثته عنك باهتمام وشغف شديدين، قلت له؛ لقد وجدنا طلبنا المنشود؛ وطلبت إليه أن يتعرف عليك ويبدأ معك صداقة، وأن يشجع هذه الصداقة بينك وبين زوجته !

استراح الدكتور فينيك قليلا ثم أضاف:

–إنك تذكر أنني أتيت إلى لوس أنجلوس وقابلتك، وبعد أن تحدثت إليك تأكدت بأنك أنت المطلوب! نعم، أنت ما كنا ننشد! قالها ومصمص شفتيه بطريقة عجيبة غريبة أذهلتني، وكأنما كان يتلذذ بتذوق كأس من النبيذ المعتّق، والذي وعد الله به عباده المتقين يوم القيامة !

–وهل تعني أنك اتخذت مني حمار تلقيح ؟! قلت وقد فتحت أصابع يديّ العشرة وهجمت عليه كالوحش الكاسر، وقد بلغ الغضب مني عنان السماء فتقدمت منه لألفَّ يديّ حول عنقه، ولكنه دفعني عنه بقوة،مما أعادني إلى مقعدي ثانية.

–ليس حماراً بالضبط! قال الدكتور فينيك وهو يلعق لسانه ويمصمص شفتيه، إذ لعله يتذوق لذة انتصاراته ونجاح تخطيطه... الدقيق... الماهر... الموفّق... الناجح...! ثم أضاف:

–كلمة حمار يا بروفيسور دهشان هي كلمة غير لائقة وغير حضارية... كلمة ليست رومانسية ولا مؤدبة... إنها كلمة دونية... غير مصقولة... يستعملها الناس السُّوَقَة والمبتذلون... الناس الذين لا ثقافة ولا رقة في الأحاسيس والمشاعر عندهم...! وأنت إنسان مثقف... مؤدب ذو عقل كبير... وعواطف مرهفة... نحن نسميها هنا حصان التلقيح وليس حمار التلقيح، لأن كلمة حصان تعني الرجولة... الفحولة... الكبرياء... الإتيكيت... الرقة... النعومة... التهذيب... الدماثة...!

هنا وقفت وصحت بأعلى صوتي وقلت:

–أنت يا موشى فينيك لست طبيباً... ولا حتى آدمياً... أنت قوّاد... أنت جرثومة... أنت نذل... أنت شيلوك ثاني... أنت مرابي... إنك أحط وأحقر وأنذل حقير قابلته في حياتي... إنك أنت الحقارة والنذالة والخسة مجسّمة...! إنك أحقر مخلوق حملته الأرض... لقد دنست شرف المهنة التي تنتسب إليها، ودست على كل قيم السماء، لقد حل الله لعنته عليك وعلى بني قومك إلى يوم الدين؛ وأنا ألعنك إلى أبد الآبدين. لقد استولى قومك على أغلى جزء من وطني بالغش والخداع، وبتقديم أجسام نسائكم العاهرات... المومسات... إلى كل من يدفع الثمن! الويل لك! لقد حطّمت جمال الصداقة التي كانت بيني وبين جيمس، ودنّست قدسية الحب الطاهر النقي والعذري الذي كنت أكنّه إلى شيلا...! لقد حطمت تمثالي المقدس ومزقت توراتي وإنجيلي وقرآني، وكل ما أؤمن به! ألا فالتلعنكم السماء أنت وبني قومك، ومعكم النذل جيمس؛ أيها الخنازير النتنة! أيها الأوغاد الفجرة!

–هوّن عليك يا صديقي؛ البقاء للأصلح يا بروفيسور! نعم البقاء للأصلح؛ هكذا يقول قرآنكم. ألم تقرأه؟! إننا، نحن اليهود، أصلح منكم أنتم أيها العرب، لنرث أرضكم ولنحتلّكم ! إنكم مجموعة من البدو الأفّاقين، أتيتم من الصحراء وسنعيدكم إليها. إن جميع زعمائكم يبيعون أنفسهم لنا بالنقود. نحن نشتريكم كما نشتري الخنازير من سوق الحيوانات... سوق النخاسة! لقد نسيتم الخالق وأصبحتم تعبدون ذهبنا من دون الله. إن كل زعمائكم يأتمرون بإمرتنا، وينفذون تعليماتنا وما نأمرهم به! إنهم عبيد لنا!

–تدّعون بأنكم شعب الله المختار، ولكنكم في الحقيقة شعب الله المحتقر والمنبوذ! إنكم تَصِلون إلى أعلى المناصب، وتحصلون على ما تريدون بواسطة فروج نسائكم ومنح أجسادهن للذين يدفعون الثمن! إنه

وبمقابل فروج نسائكم، كان الضباط الإنجليز يعطونكم الأسلحة والذخائر، ويسلمونكم المدن والمواقع العسكرية عندما كانوا ينهون انتدابهم على فلسطين الحبيبة في عام 1948 ميلادية.

-وما العيب في ذلك؟ وماذا خسرت نساؤنا؟! لا شك أنهن سعدن وأسعدن ناكحيهن، ثم إنهن خدمن بلدهن، اسرائيل، بأن ساعدن في ولادتها وبنائها ومنعتها! قال باستغراب واستهجان معاً !

-ألم أقل لك بأنكم لا أخلاق ولا شرف عندكم ! وأنكم تجيزون وتحللون كل ما فيه منفعة ومصلحة لكم! إنكم أمة بلا أخلاق ولا قيم ولا مبادئ ولا دين عندكم !

-إذا كنا نحن هكذا، فأنتم حيوانات تمشي على قدمين، إنكم رعاة جمال ونواطير كاز، خرجتم من الصحراء وسنعيدكم إليها !

-خسئت يا ابن العاهرة ! خسئت يا سلالة سارة وراشيل ! قلت ذلك وبكل ما عندي من قوة وضعت يديّ اللتين فقدتا الإحساس، حول عنقه وبدأت أضغط وأضغط وأضغط، حتى خيل لي أن الرجل قد أسلم روحه بين يدي؛ ولكنني وفجأة لم أشعر إلا وهو يدفعني بكل قوته، فإذا بي أجد ظهري وقد ارتطم بالحائط لأعود إلى منتصف الغرفة من قوة الدفع؛ لا شك أنها حرارة الروح عنده ! وبسرعة البرق الخاطف فتح الباب وخرج يجري بأقصى سرعته.

تقع العمارة التي انعقد بها المؤتمر في قاعتها الضخمة بجانب المدخل الرئيسي للجامعة، وكان موقف سيارات المؤتمرين ملاصقاً لنفس العمارة. كان الشارع المسمى بشارع الجامعة ذا مسارب أربعة، اثنين ذهاباً ومثلها عودة، والذي يفصل بين الاتجاهين جزيرة وسطية على امتداده ورصيف للمشاة في الاتجاهين والممتد لعدة أميال. هذا الرصيف يبدأ عند بوابة الجامعة الرئيسية وينتهي عند أول جسر مدينة سان فرانسيسكو.

ركضت خلفه ولكنه فجأة اختفى! صرت أركض منفوش الشعر، مشوش الهندام، في كل اتجاه... والناس يحملقون بي وينظرون إليّ أحياناً، وأحيانا ينظرون إلى وجوه بعضهم، وكأنما يتساءلون عما يحدث؛ ولكنه ذاب وتبخر من الوجود. وفجأة رأيته يركب سيارة أجرة ويقودها بسرعة هائلة !

توجهت حيث تقف سيارتي ووضعت نفسي بها وخرجت من مكان وقوف السيارات،عندما وصلت بسيارتي باب الخروج و وقفت أنتظر تغيير الإشارة، كان الدكتور فينيك قد تجاوز تقاطع شارع أوكسفورد، وقطع مسافة ليست بالقصيرة متجها نحو مدينة سان فرانسيسكو؛ أما عندما وصلت أنا تقاطع شارع "شاتيك" كان هو يقترب من تقاطع طريق "مارتن لوثر كينغ الابن"، هنا رأيت أن الإشارة الضوئية قد بدأت تتغير فقطعها هو قبل أن تصبح حمراء، وعندما وصلتها أنا، كان هو قد وصل تقاطع شارع "سكرامنتو"!

لم أتوقف عند الإشارة الحمراء، لأنني فكرت إن فعلت ذلك، فإنه سيكون هو قد اختفى عن ناظري، وسيكون من المستحيل أن ألحق به أو حتى أن أجده، ولذلك واصلت مطاردتي له إذ قطعت الإشارة الضوئية الحمراء بأقصى سرعة، وأتذكر كالحلم الباهت البعيد البعيد، أن سيارة ضخمة، لعلها كانت باصاً، قد جاءت لتعبر الشارع من جهة الشمال إلى جهة اليمين، فضربت سيارتي الفولكس فاجن فرأيت أنني أنا وسيارتي قد طرنا في الهواء، ولم أدر بعدها ما حدث حيث إنني كنت قد فقدت الوعي!

لا أدري كم من الوقت قد مضى و أنا فاقدا الوعي، استيقظت بعدها فجأة فصرخت:

-أين أنا ؟! أين أنا ؟!

وبدأت أفتح عينيّ قليلاً قليلاً وأنظر حولي، ولما لم يجبني أحد حاولت أن أحرك ذراعي، ولكنني وجدتهما مثقلتين إلى جانبي! كما وشعرت بأن راسي أثقل من جبل، وألم ساحق في كل ذرة من كياني!

-أين أنا ؟! يا الله ! إن الألم يحفر في عظامي! شعرت بخوف ماحق يكاد يكتم أنفاسي!

-أماه ! أين أنت ؟! أماه! أين أنت ؟! تعالي ودعيني ألقي بنفسي بين أحضانك الحانية الدافئة! أماه! إنني خائف! إنني أرتعد! أسرعي إليّ! أسرعي إليّ كعادتك، ودعيني أختبئ في حضنك، لأشعر بالأمان والاطمئنان! أماه! إني أتألم! أرجوك ساعديني...! كنت أصرخ في داخلي ولا أحد يسمع صراخي إلا أنا وحدي...!

ونهضت كالميت الذي ينهض من اكفانه، وهنا صرخت بصوت عال تردد صداه في جميع جنبات القاعة، ولا شك أن القريبين مني قد سمعوه.

–اماه...! سميحاه...! شيلا...! مريان...! يا حبيبتي مريان... آه... اين انت الان؟!

–آه! آه! لقد عاد اليك وعيك الآن! الشكر لله! سمعت صوت فتاة تقول... صوت غريب على اذني؛ وعندما نظرت اليها تميزت ملابسها البيضاء، من خلال عيني شبه المغمضتين والمنهكتين وابتسامة حزينة تعلو شفتيها.

–لقد تجاوزت الخطر...! لقد عشت...! إنك ما زلت حياًّ...! لقد طمأننا الدكتور إريكسون بأنك ستعيش...! قالت هذا وتقدمت مني ووضعت يدها فوق جسمي وهي تقول بحنان ولطف زائدين:

–لا تتحرك! إياك أن تتحرك! إن الحركة تزيد من آلامك، يكفيك ما قاسيت...! لقد أجرى لك الدكتور الجراحة اللازمة يوم أمس، وها أنت الآن تستعيد وعيك. قالت ذلك ومنحتني ابتسامة أعادت الهدوء والطمأنينة إلى قلبي، بعد أن كنت مرعوباً وممزقاً...!

ورويداً رويداً بدأت أستعيد ما حدث... كالحلم البعيد الباهت... حلم رأيته في منامي قبل عدة سنوات... إن كل ما أتذكره الآن هو كالحلم... لم يبق منه في ذاكرتي سوى أشباح باهتة! إنني أتذكر الآن أنني كنت أسوق سيارتي الفوكس فاجن بسرعة مذهلة، أحاول أن ألحق بالدكتور فينيك... ولعلي قطعت الإشارة الحمراء، وسيارة كبيرة مسرعة أقبلت من بعيد وضربت سيارتي... والآن أتذكر بأن سيارتي طارت في الهواء، وأنني أنا طرت معها، وأذكر كالحلم البعيد... البعيد... البعيد... أن الناس تجمهروا حولي، وأن صوت سيارة الإسعاف كان يصك زعيقها أذني... وصحت من أعماقي؛ يا ويلاه...! هذا كل ما أتذكر ولا أعرف ماذا حدث بعد ذلك وأغمي علي من جديد...!

* * * * *

أماه! ألم ماحق مدمر في كل ذرة من ذرات جسمي... نار مسعورة ومسعرة تتأجج في كل زاوية من زوايا كياني... مناشير حادة شرسة تنشر عظامي، دون هوادة ولا رحمة... مهدّات حديدية ضخمة تكسر وتطحن عظامي... محراث أهوج طائش يحرث في شراييني وأعصابي يميناً وشمالاً، شرقاً وغرباً! أنا كتلة ملتهبة من الألم والعذاب والتمزق... كل جسمي مثخن بالجراح؛ كله ينـزف دما بغزارة وجنون !

أريد أن أضرب رأسي بسقف غرفة الطوارئ في المستشفى، ولكن كل طرف من أطرافي وكل جزء من أجزاء جسمي تثقله الأربطة من جبس وضمّادات !

أماه! الساعة الآن في الوطن الحبيب قد تجاوزت الرخامسة صباحاً ببضع دقائق، وأتصوركِ وقد استيقظتِ من نومكِ وبدأتِ تتململين في فراشكِ، وقد بدأ الوسن يفارق عينيك، والاستيقاظ يدب في جسمك الصغير النحيل، وأكاد أسمعك وأنت تنطقين الشهادتين، وتصلين على النبي، وقد بدأ يسيطر عليك هاجس النهوض، وها أنت الآن تسمعين صوت المؤذن يشق عنان السماء؛ حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، الصلاة خير من النوم، يصل إليك من مئذنة الجامع القريب، فتنهضين وتملئين إبريق الماء فتتوضئين وتصلين الفجر !

إنني أرجوكِ يا أمي أن تصلي بحرارة وبأن تطلبي من الخالق - عز وعلا - بأن يرأف بعظامي المهشمة والمكسرة وجسمي الممزق المفتت، وروحي المعذبة الحائرة !

أنا أعرف بأن أول كلمة تنطقين بها بعد الشهادتين، هي الدعاء لي بالسلامة والتوفيق وطول العمر، ثم أن يحفظني الله من الظُلّام وأولاد الحرام ! ليتك تسرعين الآن بالدعاء لي، فأنا واثق من أن أدعيتك تقطع القارات والبحار والمحيطات، وتصلني إلى غرفتي هذه؛ غرفة الإنعاش في مستشفى الجامعة في مدينة بيركلي ، بولاية كاليفورنيا !

أماه ! لقد حمتني أدعيتك الصالحة، بأن أبقى حياًّ على وجه البسيطة، ولكنها لم تحمني من الظُلّام وأولاد الحرام...! إنها لم تحمني من جيمس روبنسون، ولا من صديقه الروحي الدكتور موشى فينيك! لقد كنا شيلا روبنسون وأنا ضحية، فليرحمنا الله وليسامحنا ويغفر لنا ! آه يا شيلا! ليتك تعرفين الحقيقة وما خططه لنا، أنت وأنا، زوجك المخلص الشهم هو وصديقه الروحي! نعم، ليتك!

أماه ! إنني أشعر ببرد الوحدة وصقيع الغربة، وتجمد العاطفة وانسحاق الروح وزمهرير الضياع ! أماه لقد طوّح بي الزمن وألقى بي في حاويات القمامة والحفر الامتصاصية!

أماه! لقد أتعبني الحِل والترحال وأصابني العشق، عشق الوطن وعشق الحسان! لقد أوجعتْ قلبي الغربة والاغتراب، ومزقت روحي صدمات الفشل والانسحاق!

أماه! أنا محروق؛ مقهور؛ محموم؛ مسحوق؛ مقموع ومنهار! أشعر بالخواء، بالوقر، بالزمهرير وبالخذلان، خذيني إلى صدرك الحنون، وضميني إلى حضنك الدافئ، فإن الرعب يمزقني والوحدة تفري كبدي... أرجوك! أعيديني إلى رحمك ثانية، وأبقيني هناك ولا تلديني مرة أخرى، فإنني أخاف مواجهة الحياة أعزل، لأنني فقدت الثقة والإيمان!

أماه! عندما أشتاق لربوع الوطن؛ لسهوله، لهضابه؛ لجباله لوديانه؛ لواحاته؛ لبواديه وشطآنه... عندما تلقي بي محرقة الغربة في جوفها وتبدأ بالتهامي؛ أفتقدك وأشتاق إليكِ!

اماه! عندما يسطير الظلام على نفسي، وتتحكم بي الهواجس والاشواق... عندما تتبدد الاماني ، وتنهار الاحلام، وتسقط المبادئ والمثل العليا، وتتعرى الحقيقة ويتعهر الحب؛ تبقين أنتِ، أنتِ وحدكِ؛ الحقيقة الثابتة الناصعة، والتى لاشك فيها، ويبقي حبك الخالد الصامد الذى لايركع ولا ينهار!

اماه! عندما احسَ بعفن الروح، وسقوطها في اتون التمزق والضياع، وأقاسي من دنس القلب وقذارة الحياة،؛ عندما تغلق أمام عيني ابواب الأمل وتوصد شبابيك الرجاء... عندما أشعر بانني زائدة دودية وحشرة صديدية...عندما احس باغتراب الروح وتمزق الوجدان... و عندما اشعر بان امريكا، من اقصاها إلى اقصاها، من المحيط الادرياتاكي إلى المحيط الباسفيكي، اضيق من مكان يتسع لجسمي... و عندما احس بأني احط من وتد واتفه من سقط المتاع ... عندما يسطير عليّ التحجّر العقلي واصاب بالإفلاس الفكري والفشل العاطفي... عندما احس بنفاذ الايمان وموت الضمير واضمحلال الأمل ... عندما يزحف الصقيع إلى ضلوعي واغرق بالرجس والقذارة إلى ما فوق أذني؛ عندما يحدث لي كل هذا؛ اتمدد على لارض، وابكي بحرقة ولوعة لأاكفر عن ذنوبي وخطاياي ، ثم ادخل الحمام فاغتسل واتوضأ ثم ادخل بعدها محراب حبك الطاهر المقدس، فاصلي بحرارة، ثم اتعبد واتهجد !

اماه! عندما تطاردني احلام الرعب وتتمثل لخاطري هموم الوطن وجرحاته... وعندما افتقد الدفء ويتسلل إلى ضلوعي صقيع الوحدة وثلج الغربة وزمهرير الضياع, اجرجر جسمي الممزق وأضمّد جروحي النازفة، اجلس ثم اسجد واصلي تحت قدميك الطاهرتين؛ أنتِ يا اجمل الجميلات !

أماه! عندما يلفني صقيع الغربة وأغرق في بحار الوحل والقذارة، ويستبدُّ بي العهر والمجون؛ و أحن إلى النقاء والطهر والبراءة؛ أفتقدك وأشتاق إليك! أنت أيتها الحبيبة الغالية! أيتها العملاقة الشامخة! يا من كنتِ رجلاً يوم أن عَزَّ الرجال، وكنت امرأة عظيمة؛ يوم أن قلّت النساء، وكنت أمّاً معطاءه! يوم أن بخلت النساء!

أماه! أين أغرس نخلتي؟ وأين أربط ناقتي؟ وأين أبني خيمتي؟ قولي لي بربك قولي لي...! لقد فقدت جذوري وانتماءاتي، وعهّرت أصالتي ونقاوتي، وغرقت في بحور الرجس والعفن والرذيلة ! لقد أتعبني الجري خلف السراب وتركت الوطن بحثا عن الذات، وأتيت إلى أمريكا أنشد الحرية والخلاص، فأصبحت حياتي كلها ضياعاً واندحاراً وهباباً.

أماه! إنك تعرفين بأنه لم يكن لي طفولة ولا مراهقة ولا يفاعة، لقد اختزلتها جميعاً... قفزت فوقها فأصبحت ملتزماً ومسؤولاً وأنا ابن تسع سنوات! ولقد كانت رحلة تحرير العقل من قيود وأغلال العادات والتقاليد، وتحرير الجسد من قيود الحرمان والمحللات، لقد كانت رحلة طويلة وشاقة ومضنية!

أماه! إن صلواتك وأدعيتك من أجلي لم تعد تصلني ولم تعد تُستجاب، فلقد أقامت الخطيئة واتباع المعاصي حائطاً سميكاً !

بالله عليك! افرشي سجادة صلاتك دائماً، وحتى لو لم يكن هذا وقت صلاة، وصلّي من أجلي، فإنَّ عنف الألم في عظامي المكسرة قد يزيل الحاجز الذي أقامته الخطيئة؛ فتستجاب دعواتك لتخفف من ألمي سواء بالموت أو بالحياة !

فقط؛ رحمة الله وصلواتك؛ وكذلك أدعيتك الصالحة، هن اللواتي يخففن آلامي الآن ويُعدن إليّ الحياة! أرجوكِ! أرجوكِ! أفرشي الآن سجادة صلاتكِ، وصلّي ركعتين لله تعالى، واطلبي ليَ منه الرحمة والعفو والغفران!

فجأةً اجتاحتني موجة جديدة، عاتية و مدمّرة من الألم الممزق، أشدّ قسوة من سابقاتها؛ فلقد شعرت و كأنما ألقيتُ، ومن جديد، بنار جهنّم؛ فشممتُ رائحة احتراق لحم جسدي و عظامه، فصرت أصرخ و أستغيث و لم أتوقف عن المعاناة و الاستغاثة حتى أدركتني رحمة السماء، و عندها فقط رحتُ في غيبوبة، عميقةٍ عميقة ...!

﴿ انـتـهــت ﴾

سانتا مونيكا – كاليفورنيا

للمؤلف

1- في بلاد السمن والعسل. رواية
2- تيه البروفيسور دهشان. رواية
3- فبكت وبكيت... ! رواية
4- كريستينا ... الحب المُحرّم ! رواية

باللغة الإنجليزية:

- ✓ Beads of Memory Triology
- ✓ August Rain Novel
- ✓ The Sucide of my Taboos (or) Elizabeth !
  Novel Clecet …A tear drop on the cheek of destiny !
  Novel

*****

للتواصل مع المؤلف على البريد الإلكتروني:

majidabujohar@yahoo.com